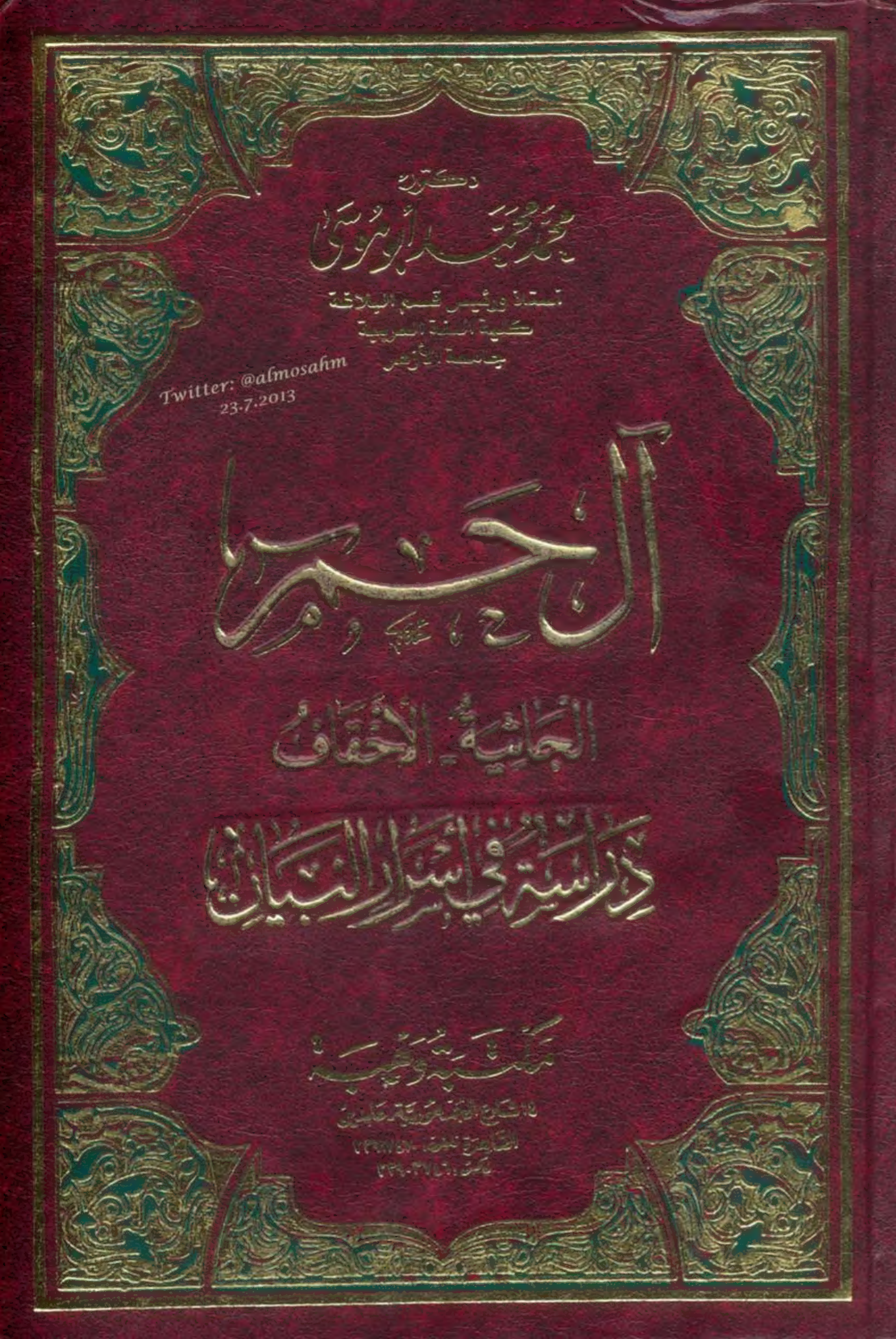

دكتور
محمد محمد أبو موسى
أستاذ ورئيس قسم البلاغة
كلية اللغة العربية
جامعة الأزهر
Twitter: @almosahm
23.7.2013
آل حم
الجاثية - الأحقاف
دراسة في أسرار البيان
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية عابدين

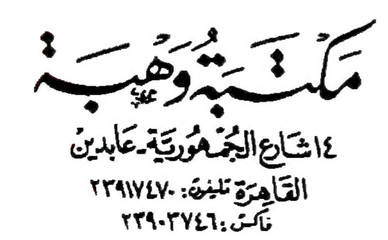
دكتور
محمد محمد أبو موسى

أستاذ ورئيس قسم البلاغة
كلية اللغة العربية
جامعة الأزهر

آل حم

الجاثية - الأحقاف

دراسة في أسرار البيان



اسم الكتاب: آل حم «الجاثية - الأحقاف»
دراسة فى علم البيان
الدكتور محمد محمد أبو موسى
الطبعة الأولى: ١٤٣٢هـ - ٢٠١١م
مكتبة وهبة ١٤ شارع الجمهورية - عابدين - القاهرة.
٦٤٠ صفحة، ١٧ ×٢٤سم
رقم الإيداع: ٢٠١١/٨٨٩٣
الترقيم الدولى I.S.B.N
977-225-310-0



دار الكتب المصرية
فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

أبو موسى، محمد محمد.
آل حم: سورة الجاثية، دراسة فى أسرار البيان/ محمد محمد أبو موسى. - القاهرة، مكتبة وهبة، ٢٠١١.
٦٤٠ ص، ٢٤ سم.
تدمك: ٠ ٣١٠ ٢٢٥ ٩٧٧ ٩٧٨
١ - القرآن - بلاغة.
أ العنوان
٢٢٥

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدمة

الحمد لله الذى بيده تتم الصالحات وأصلى وأسلم على أزكى خلقه وأطهرهم وأتقاهم وأنقاهم، وأتوسل إليه سبحانه بنعمه التى منّ بها، وتوجيهه الذى وجّهنى إلى دراسة آل حم! وعونه الذى أمدنى به، أن يتم هذه النعمة، وأن يجعلها من الصالحات التى لا تتم إلا بيده، وأن يكرمنا بالقبول وبالعفو عما كان يكون فى كلامنا من غفلات، وقد كنت من أول حياتى وأنا فى مواجهة آياته البينات أستعيذه سبحانه أن أقول فى كلامه كلمة لا يرضاها، وقد كان الخوف من الزلة فى كلام الله يوشك أن يبعدنى عن هذا المقام لولا أننى رأيت أن الله سبحانه وتعالى ندبنا إلى التدبر فى آياته وأنه سبحانه يغفر للعاملين فى كتابه وتفسيره، وبيان حلاله وحرامه إذا اجتهدوا، وصبروا وصدقوا وأخلصوا وكل ذلك لا يكون إلا منه، وبحوله، وطوله، وتوفيقه، وإنعامه. فعزم أمرى على أخذ نفسى بالاجتهاد والصبر والصدق والانقطاع والتجرد، ومددت يدى إليه ليعيننى على تحقيق ذلك، ثم مضيت برغبة شديدة أن أقدم شيئًا للأجيال القادمة وحسبى أن أكشف فى كل ما كتبت سراً واحدًا لكلمة واحدة من كلماته التى لا تتناهى أسرارها.

وقد رأيت فى هذا الزمن الغريب الذى أُنكره كثيراً ممن ليسوا من أهل التفسير ولا الفقه ولا اللغة وليس لهم صلة بأى علم من علومنا يقحمون أنفسهم على الكتاب ويدخلون فيه ويستخرجون ما يتصادم مع حقائق الشريعة وما عرف من الدين بالضرورة وما يتصادم مع صريح السنة وما يتصادم مع صريح الكتاب، فكرهت الإحجام، وكرهت أن يتقدم أهل الباطل وأن يتأخر أهل الحق وهم حملة اللواء، وقد رأيت أن هذا الاتجاه الفاسد المفسد يعلو صوته فى هذا الزمن الذى قلت إننى أنكره وأنكر القيادات التى صنعته،

ورأيت الأنظمة تؤازره ووزارات الثقافة تمنحـه الجوائز حتى لتوشك جوائزنا أن تكون مقصورة عليه كما تؤازره جهات من خارج حدودنا وتقويه وتذكر رجاله حتى حسبت أن مـؤازرة الداخل استجابة لمؤازرة الخـارج وحسبت أننا فى عاصفة من داخلنـا وخارجنا، وأن أرضنا قد تبغّم فى ظلماتها البـوم كما قال الأول وتبغم صوّت والبغام صوت البوم.

ومما أكرمنى الله به أننى مع انهماكى الشديد فى البحث والتأليف والتدريس لم أُغمض طرفى لحظة واحـدة عما يجرى فى أرضنا، وطول المراقبـة وامتداد الزمن يكشف أشياء تظهر أوائلها ظهـوراً بينًا بظهور أواخرها، فإذا غفلت عن أواخـرها تغـشّت عليك أوائلـها، وإذا فـاتـك أوائلهـا اخـتلف عليك فـهـم أواخـرها، ولابد لك أن تبذل الكثـيـر لتدرك القليل لأن الـتلبيس والتـدليس مذهب مدروس ليس على مستوى الجهات الثقافية والعلمية فحسب وإنما على المستوى السياسى والتنظيمى.

قلت إن أحوالاً كثيرة يكشف لك أواخرها سرَّ أوائلهـا، من ذلك مثلا أنه منذ أكثر من ثلاثين سنة ظهرت جماعة من مَشْرِقَىْ عالمنا العربى ومَغْرِبَيْه تدعو إلى تجنيب وتغييب علومنا فى دراسة الشـعر ونقده واصطناع مناهج ومذاهب الآخرين، وعنـيت بتطبيق هذه المناهج على الشـعر الجـاهلى خصـوصًا، وأن أدواتنا التى ندرس بها الـشعر الجاهلـى كما درسه سلـفنا من يوم أن كان إلى يومنا هذا ظهر فجأة أنها فاسدة وأنها خدعتنا عن حقيقة هذا الشعر وأحد هذه المناهج هى الفـانوس السحـرى الذى يكشف غَـيْبَـه ويزيل أستـاره، ويُجلِّى حقائقه، ودارت المناهج على هذا الشعر ودارت الرحا فى كل جامعة عليه من المشرق إلى المغرب، وكنت أقرأ هذه الدراسات وألاحظ أن الشعر الجاهلى قد أغلق بابه فى وجهها لأننا كُنَّا إذا قرأناه بمعزل عنهـا فهمناه، وإذا قرأناه ملتبسًا بها لم نفهـم منه شيئًا وكتـبت ذلك فى مقدمة الطبـعة الثانية لكتـاب البلاغة القرآنية فى تفسـير الزمخشرى وبيّنْت كيف. تكون علـوم القرآن التى فى كتاب

الزركشى والسيوطى أعون لنا فى فهم الشعر وأبرُّ بالشعر وأقرب إليه من تلك الأدوات التى أغلق الشعر بابه فى وجهها، وقد سرَّنى جداً أن شيخنا المرحوم محمود محمد شاكر رضى ما قلته فى هذه المقدمة.

وكنت أسأل نفسى لماذا يخُصُّون الشعر الجاهلى بتطبيق هذه الأدوات ويصرون على أنه لم يفهم إلا بها، حتى إن الجيل الذى قيل فيه هذا الشعر وقيل له هذا الشعر، وقال هو هذا الشعر لم يفهمه وكان ذلك عجيبًا جداً ومخالفًا للفطرة وليس للمنطق فقط.

ثم ظهر الآن سر اختصاصهم الشعر الجاهلى بهذه المناهج لأنه أقرب بيان العرب إلى الذكر الحكيم لأنه اللسان الذى نزل به القرآن وتكلم به النبى ﷺ، والقول بأن الشعر لا يفهم إلا بهذه المناهج يعنى أن الذكر الحكيم الذى هو الجار الملاصق لهذا الشعر لا يُفهم هو أيضًا إلا بهذه المناهج وانكشف الآن الغطاء وأدخلوا هذه المناهج على الكتاب العزيز وقالوا ما قالوا مما لا أستطيع الآن الاستطراد فى بيانه، وحسبك أن منهم من حكم القضاء بردّته، وقامت العصابة وقَعَدَتْ فى المشرقين والمغربين تحدِّثُ عن تجديده وعبقريته، وهذا حسبى فى هذه النقطة، وأنتقل إلى أمر آخر، وهو أن هذا القسم هو آخر أقسام دراستى لآل حم، وإن بقى فى الأجل بقية أتممت دراسة الزمر والقتال اللذين يمثلان الهلالين حول آل حم، لأتبين ما بينهما وبين آل حم من فروق جعلت آل حم آلا واحدًا حتى إن بعض السلف كان يكره أن يقال الحواميم ويفضل آل حم وأظن ذلك راجعًا إلى أن كلمة آل ومعناها الأهل تشير إلى أن آل حم عشيرة واحدة وهو مما بيَّنْتُهُ وأبَنْتُ عنه قدر ما أتيح لى.

وقد لاحظت أن الكتاب العزيز فتح لنا باب تدبره وتفهمُّه وتذوق أسراره وذلك بأمر الله ورسوله صلوات الله وسلامه عليه أن يرتل القرآن ترتيلا كما جاء فى سورة المزمل ﴿ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً ﴾ [المزمل: ٣] ونحن مأمورون بهذا

الأمر من ورائه ﷺ وتوجيه الأمر لنا عن طريـق توجيه الأمر إليه صلوات الله وسلامه عليه فيه إشارة إلى أن المأمور به له عند الله مكان، وراجع هذا الأمر تر الآمر هو الحق جل وتقدس والمـأمور هو محمد صلوات الله وسـلامه عليه والأمر هو ترتيل كلام الله الذى هو صفته والله سـبحانه موصوف بكل كمال ومنزه عن كل نقص وكذلك كلامه، والأمر بترتيله دعوة لما يحيينا ولا يتخاذل إلا مخذول.

وقد فسّر الأئمـة رضوان الله عليهم المراد بالترتيل وذكروا للقـراءة مقامات ومنازل، وقبل البـدء فى هذا أشير إلى إشـارة وردت فى كلامهـم قلّما نلفت إليهـا وهى أن الحجة بالقرآن باقـية فى العصـر كله والزمان كله والمكان كله، وهذا يعنى أن الحجة التى هي الإعـجاز قائمة الآن على العرب وغـير العرب فى أقطار الأرض كلها مع اختـلاف ألسنتهم وألوانهم وثقافاتهم وتنوع قـيمهم وحضاراتهم، وأن وجـه الإعجاز البلاغى الذى هو حـقيقة لا ريب فيـها كان متناسبًا مع قومه عليـه السلام لأنهم أهل بيان ولأنهم الجيل الذى تلقى البلاغ من رسول الله ﷺ وبلّغوه لأمم الأرض من بعده صلوات الله وسلامه عليه، وهذه خصوصيتـهم فى الدعوة وأنهم صاروا رسل رسول الله ﷺ وكان لابد أن يكون اللسان لسانهم ليعـقلوا عن رسول الله ﷺ، ولم يكن القرآن العظيم معجزًا بهذا الوجـه فقط وإنما فيه وجوه كثيرة منهـا ما علمنا ومنها ما لم نعلم وقد قال سـبحانه: ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ ﴾ [فصلت: ٥٣]، والقرآن من آياته سبحانه التى أخبر أن أسـرارها كتاب مفتوح على الزمان كله والمكان كله والأمم كلها، ولا يزال أهل العلم يفتحون للإعجاز بابًا بعد باب.

ومن أبين وجوه الإعجاز التى تقوم بها الحجة على الأجناس كلها أنه موصوف بالكمالات المطلقة فى أمره ونهيه وقصـصه وكل ما جاء فيه، وفى القرآن إشارات إلى أن ما فيـه من أخبار الأمم الغابرة وجه من وجوه إعـجازه لأن القرآن العظيم

حَدَّث عن دقائق وأحوال ومواقف لا تُصِيبُها أقلام المؤرخين مهما جدوا في التدقيق والاستقصاء، من هذه الإشارات قوله تعالى في سورة هود بعد ذكر دقائق وأحوال وأقوال ومواقف في قصة نوح عليه السلام: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ﴾ [هود: ٤٩]. ومثل هذا جاء في قصة مريم في سورة آل عمران وجاء في قصة يوسف وقد لاحظت أن هذا لم يأت إلا حين يعرض القرآن العظيم لدقائق وخفايا وأحوال؛ وشيء آخر من كمالاته المطلقة هو أن أمره ونهيه يعني ما يجب أن يكون وما لا يجوز أن يكون لم تُسقط الأيام ولا الأحوال فيه أمرًا ولا نهيًا مع كثرة ذلك وتنوعه، وهذا خرق للعادة؛ لأن الأمر والنهي حين يضعه عقلاء الأمم وحكماؤها وعلماؤها تراه لا محالة مرتبطًا بالزمان والمكان والأحوال، ولذلك تراجع الأمم قوانينها في الزمن بعد الزمن لأن ما كان صالحًا بالأمس لم يعد صالحًا اليوم وهذا بخلاف أمر الله ونهيه فلم يراجع أحد أمرًا ولا نهيًا؛ لأنه لم يَعُد صالحًا، وذلك لأن أمر الله ونهيه لم يرتبط بزمان ولا مكان ولا أحوال حضارية، وإنما ارتبط بالفطرة التي لا تتبدَّل، وقد أومأ العلماء إلى هذا بقولهم: إن الحجة قائمة في العصر كله والزمان كله لأنه كلام رب العالمين يعني أن ربهم الذي خلقهم وهو أعلم بهم هو الذي أودع حجة نبيه في كتابه وجعل ذلك قائمًا أبدًا، وجعل في وسعهم إدراك هذه الحجة مع اختلاف أجناسهم وألوانهم وألسنتهم وهذا هو الأمر الإلهي الذي قام به الإعجاز وقامت به الحجة.

أما ما قاله علماؤنا في الترتيل فقد ذكروا أولاً أن الترتيل حق الله على من أكرمهم بقراءة كلامه ويقوى هذا الحق على من أنعم الله عليهم بحفظه وجعل قلوبهم مستقراً لكلامه وجعل صدورهم مصاحف كتب فيها سبحانه كلامه وأقل الترتيل ودرجاته الأولى أن يقرأ القارئ قراءة يبين بها معنى ما يقرأ ولا يحرك به لسانه ليعجل به ويشبع الحروف ويُبَيِّنها ولا يُغْمِضُها ويشبع الكلمات ويقف عند مقاطع المعاني ويواطئ قلبه لسانه فيعي المعاني ويفصلها

ويبينها، وأكمل الترتيل أن يبطئ أكثر ويتوقف ما لم يخرج إلى التطويل والتمديد لأن الخروج إلى التطويل والتمديد زيادة فى صوت القرآن العظيم، وهذا غير جائز وهذا كلامهم، ثم يقرأ القرآن على منازله بمعنى أن يستغرق فى المعانى وتلامس قلبه ويجاريها، فإن كان يقرأ تهديدًا ووعيدًا بان ذلك فى لفظه، وإن كان يقرأ وعدًا وبشارةً ظهر ذلك فى أدائه، وهكذا إن كان عظة أو أمرًا أو نهيًا ولا يكون فى هذا إلا بقوة إحساسه بالمعانى التى يقرؤها وامتلاك المعانى لنفسه وقلبه ورشحها على لسانه مادام لسانه مغروسًا فى قلبه وما دام قلبه مُفْعَمًا بما يقرأ وبذلك يكون صوت لسانه هو صوت قلبه. فرق بين أن تسمع من القارئ الذى يقرأ، القرآن على منازله قوله تعالى: ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ [الحج: ١٩- ٢٢] وأن تسمع منه قوله تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا﴾ [النبأ: ٣١- ٣٤]، أو تسمع منه أو تقرأ أنت قوله تعالى: ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٥، ١٦]، وكان بعض الصالحين إذا سمع قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [البقرة: ١٠٤] قال: لبيك ربى وسعديك وكأنه سمع الله يناديه هو ومن الأدب أن يُجيب.

قلت إن القرآن يعلمنا كيف نتدبره، وكيف نتذوق أسراره، وأن منازل الترتيل هذه التى ألخصها من كتاب البرهان من أفضل ما يعين على ذلك ومن أفضل ما يعين على تدبر كل بيان والتعرف الدقيق عليه واستجلائه، ولو جعلنا هذا الضرب من القراءة دَيْدَنا لنا فى قراءة كل ما نقرؤه من شعر وغيره ومن نحو وفقه وبيان لأصبنا بذلك خيراً كثيرًا جداً.

وبعد ما فرغ الزركشى من منازل الترتيل أشار إلى أن بعض أهل القرآن ذكروا مقامات للقراءة وأرادوا بها ما يُوصَلُ إليه بهذا الترتيل وأن حظوظ القراء المجيدين للترتيل تختلف مع أن فى أقل مقاماته خيرًا عظيمًا جداً يسعى إليه الموقنون بأنهم إلى ربهم يرجعون، وسوف ألخصهـا أيضًا ولكن بترتيب يخالف ترتيب الزركشى لأنه بدأ بأعلاها ثم تنزل إلى المقـام الذى يليه ثم إلى المقام الثالـث، وإنما أخالفه لأن الأصل المتـوقع أن يبـدأ أهل الله وهم أهل القـرآن بالدرج الأول ومنهم من ينقطع عنده، ومنهم من يُعَـان إلى الدرج الثانى ثم مـنهم من ينقطع عنده ومنهم من يُعان إلى المقام الأسنى الذى هو مقام العارفين ومقام الشهود.

وأول هذه المقامـات المقام الذى جعله الـزركشى المقام الثـالث هو أن يجد القارئ نفسه وهو يقرأ أنه يُناجى ربه ويسأله من إنعـامه وألطافه ويتضرع إليه؛ ويسأل ويُلح فى المسألة ويطلب ويلح فـى الطلب وهو فى كل ذلك متعلق فى القرآن ومتوسل به.

قـال الإمام: «الثـالث: من يَرَى أنه يناجى ربه سـبحـانه فمـقام هذا السـؤال والتمكن وحاله الطلب وهذا المقام لخصوص أصحاب اليمين»[1].

والمقام الثـانى: لا يرى القارئ فـيه نفسـه مناجيًا ولا سـائلاً وإنما يرى فى القراءة وبالقـراءة أن الحق هو الذى يُناجيه وأن الحق يغـمره بإنعامه وإحـسانه يعنى لم يعد يسـتشرف لأن يعطى وإنما يرى العطايا حوله غـامرة له ولـم يعد يناجى ربه، وإنما يرى أن ربه هو الذى يناجيـه، وهذا مقام الحيـاء والتعظيم، وأهله هم المقربون وهم الذين يشهدون العطايا ويسمعون المناجاة.

قال الإمام: «الثـانى: من يشهد بقلبه كـأنه تعالى يُخاطبه ويُناجـيه بألطافه ويتملقه بإنعـامه وإحسانه فمقـام هذا الحياء والتعظيم وحاله الإصـغاء والفهم وهذا لعموم المقربين»[2].

---

(١) البرهان ط١ ص٤٥٣.

(٢) المرجع السابق.

والمقام الثالث الذى هو أعلاها وهو مقام العارفين ومقام الشهود أو المشاهدة، وقبل أن ألخص هذا المقام أنبه إلى شىء طالما نبهت إليه وهو أن ما يتعلق بالقرآن من وجوب ترتيله ومقامات الاستغراق فى قراءته كل ذلك يجب أن يُنْتفع به فى كل ميدان من ميادين المعرفة التى نقاربها، ومقام الشهود هذا يوشك أن يكون شاملاً لقراءة كلام الله سبحانه وقراءة كلام الناس وكلام الإمام الزركشى فيه قريب جداً من كلام علمائنا فيما يجب أن يكون فى قراءة الشعر.

وسأصْرِفُ من كلام الإمام ما يجوز صرفه إلى قراءة الشعر، وخلاصة هذا المقام أن القارئ الذى يجمع خواطره نحو ما يقرأ وتَصْغُوا نفسه بصفاء ونقاء ولُطْف وذكاء لما يقرأ تراه لا محالة يشاهد المتكلم لأن دلالات الكلمات والجمل تصف المتكلم وتُحدِّث عنه مهما كانت هذه الكلمات والجمل مصروفة إلى ما هى مصروفة إليه، فالمتكلم الذى يحدثنا فى أى موضوع شاء ونحن نفهم موضوعه من حديثه ثم تراه هو أيضًا وراء حديثه ووراء ما يحدثنا عنه وهذه هى القراءة المرجوة فى كل ما نقرأ، وقد ذكر أهل العلم بالشعر أن القارئ الجيد الذى طالت مزاولته وطال تدبره وطال استغراقه يعرف كل شاعر بصنعته فلا يلتبس عليه سبك أبى تمام بسبك مسلم وهذا جيد، والذى نحن فيه فى مقام العارفين فوق هذا لأنه لا يميز كلامًا من كلام وإنما يشاهد صاحب الكلام وأن الأذن تعرف البيان، والعين تشاهد صاحب البيان، وقد ذكر الأستاذ محمود شاكر رحمه الله أن القراءة الجيدة تريك صاحب الشعر وهو يغدو ويروح، وأن هذه القراءة تحيى أصحاب البيان وتحيى عصورهم وأحداثهم، وأن قراءة أدب أى عصر تعنى إحياء لهذا العصر، لأن الذى تحت الكلمات والحروف والتراكيب فى الشعر أحوال الطبائع والغرائز والشيم والخواطر وما لا يحصى مما يموج داخل نفس الشاعر والكاتب وهذا سبيلنا إلى معرفة كلام الناس وليس سبيلنا إلى معرفة الحق؛ لأن الذى تحت كلمات

وحروف وصيغ الكتاب العزيز شيء آخر هو عز الربوبية وجلال الألوهية والسلطان المهيمن الذى لا يَندُّ عنه شيء فى الأرض ولا فى السماء ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا﴾ [الأنبياء: ٤٧] وترى عز الألوهية فى الأمر والنهى والوعيد والوعد والبسط والقبض، وفى حديث الحق عن الحق وأن له الكبرياء فى السموات وفى الأرض وأنه يجير ولا يُجار عليه وأن الأرض جميعًا قبضته والسموات مطويات بيمينه.

كلمات القرآن فى أى باب من أبواب معانيه ترتفع بالقارئ الصادق المُخْبِت المُستَسْلِم المُنْقَاد العابد العارف إلى مقام الشهود، وهذا القارئ كما قالوا لا يكون مع نفسه ولا يكون مع ما يقرأ، وإنما يكون مقصور الخواطر والهم ومجموع النفس والعزم مع المتكلم جلّ وتقدّس وقد قال سيدنا جعفر بن محمد الصادق «لقد تجلى الله لخلقه بكلامه ولكن لا يُبْصِرون» يعنى أن ثمة غشاوة على القلب تحجب تجليات الحق فى كلامه، ومن زالت غشاوته تجلّى له الحق وصار يعبد الله وكأنه يراه، وهذا المقام الأعلى من مقامات القراءة هو من مقامات الإحسان كما جاء فى حديث جبريل الذى رواه البخارى.

وللإمام بدر الدين كلمات فى وصف هذا المقام من المفيد أن أُفْرِدها بالنظر لمزيد البيان، قال رحمه الله وهو يعرِّف بهذا القارئ: «من يشهد أوصاف المتكلم فى كلامه ومعرفة معانى خطابه فينظر إليه من كلامه وتملّيه بمناجاته وتعرفه من صفاته» والجملة الأولى: «من يشهد أوصاف المتكلم من كلامه» هى الجملة الأم الجامعة فى هذا النص ويشهد من المشاهدة يعنى يعرف أوصافه معرفة من يِراها لأن هذه الأوصاف كائنة فى كلامه، وهذا رأس المقصود وما بعده تعليق عليه وبيان له، والجملة صادقة على قارئ كل كلام؛ لأن كل كلام فيه أوصاف المتكلم، وقوله: (ومعرفة معانى خطابه) معطوف على قوله:

(فى كلامه) من عطف الخاص على العام لأن الكلام أشمل من معانى الخطاب والدال على أوصاف المتكلم هو معانى الخطاب، وجملة «وتمليه بمناجاته وتعرفه من صفاته» تصرف الكلام إلى المقصود منه وهو قراءة العارف لكلام ربه سبحانه، وشهود الحق الذى ليس كمثله شىء أبعد منالاً من شهود المتكلمين من المخلوقين؛ وفرق بين معرفة الحق من كلامه وشهوده سبحانه فى كلامه، الأول أقرب منالاً لأنه لا يُعْيِيكَ أن تعرف الله من كلامه؛ لأنه مفارق لكلام المخلوقين، وإنما تشهده إذا كنت قد تهيأت لذلك، والفرق بينهما كالفرق بين مقام الإيمان ومقام الإحسان فى حديث جبريل الذى أشرت إليه.

ثم بيَّن الإمام وجه شهود المتكلم من كلامه وأى شىء فى كلام المتكلم يجعلنا نراه، فقال (فإن كل كلمة تنبئ عن معنى اسم أو وصف أو حكم أو إرادة أو فعلٍ لأن الكلام ينبئ عن معانى الأوصاف ويدل على الموصوف، وهذا مقام العارفين من المؤمنين».

والقسم الأول من هذه الفقرة إلى قوله: «أو إرادة أو فعل» يُبيِّن المعانى التى تحملها الكلمات والتى هى مقصود الجملة القرآنية أو الآية. والقسم الثانى يقول إنها مع أن المقصود بها إخبارنا بهذه المعانى من وصف أو حكم أو إرادة أو فعل فإن لها دلالة على الموصوف الذى هو المتكلم جل شأنه، وأن كلماته سبحانه مع دلالتها على ما تدل عليه من أمر أو نهى أو وعد أو وعيد أو خبر إلى آخره؛ فإنها كلها دالة عليه سبحانه، فالعارف بالله يشاهد الحق ويتجلى له فى مثل قوله تعالى: ﴿فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ [الحج: ٧٨] كما يشاهده فى قوله: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ [الهمزة: ١]، وفى قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ [الفيل: ١] و﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ [يوسف: ٣] إلى آخره، وإنما كان الشهود ومقام العارف لأن العارف لا ينظر إلى نفسه كما هو الحال فى المقامين الأولين ولا ينظر إلى

قراءته ولا إلى تعلق الإنعام به من حيث إنه منعم عليه بل هو مقصور الفهم على المتكلم، موقوف الفكر عليه مستغرق بمشاهدة المتكلم» وهذا هو مقامه الذى يختلف عن مقام الحياء الذى هو مقام المُقرّبين ويختلف به عن مقام السؤال والتمكن الذى هو مقام أصحاب اليمين، هذا والله أعلم.

وكنت على أن أشير فى هذه المقدمة إلى كلام العلماء واختلافهم فى فضل آيات من الكتاب أو سور على آيات أو سور أو كما عنون له الزركشى هل فى القرآن شىء أفضل من شىء، ورأيت أن المقدمة ستطول وما بقى منها مساحة قليلة هى حق الواقع الذى نعيش فيه؛ لأن هذا الواقع هو الوعاء الذى نتحرك فيه ونكتب فيه ونعيش فيه ونتنفس فيه ويتعلم فيه ومنه أولادنا وأحفادنا ولا يجوز أن يُهْمَل.

لما وَلِى أبو بكر أمر المسلمين بعد رسول الله ﷺ وصارت الولاية تعنى سياسة الأمة وانقطعت النبوة بانقطاع الوحى كان أول ما قال فى خطابه للأمة: «إنى وُلّيت عليكم ولست بخيركم فإن رأيتمونى على صواب فأعينونى وإن رأيتمونى على خطأ فقومونى، وإنما أنا متبع ولست بمبتدع» وفى هذه الكلمات المختصر أصول مهمة من أصول الحكم فى الدولة الإسلامية التى لم تكن يومًا ما دولة دينية بالمفهوم الغربى للدولة الدينية وإن كان كثير من الكاتبين يغالطون ويصفون المطالبة بالحكم بما أنزل الله بأنه يعنى قيام دولة دينية لا يراجع الحاكم فيها.

وأول هذه الأصول أن رأس الدولة واحد من الناس يصيب ويخطئ، ويحاسب ويُعان على الصلاح والإصلاح ويقوّم فى حال خطئه، وأنه ليس منزهًا ولا متعاليًا ولا ينطق بالحق الإلهى، وأن من حق كل مواطن أن يستوقفه وأن يسأله وأن يحاسبه، وهذا ظاهر.

ثم إنه وهو أهم ولأول مرة فى تاريخ الناس حمَّل الشعب مسؤولية مراقبة الحاكم وأنه يعمل فى خدمة الجميع وأن صوابه نفع للكافة وأن خطأه مَضَرةً

للكافـة، وأنه لا يجوز لأحد أن ينْـكَفِئ على نفسـه ويترك الشأن الـعام الذى هو سياسة الـدولة لولى الأمر، وإنما يجب أن تكون عيون الشعب مفـتوحة وأن تكون تصرفات القيادة السياسية مُعْلنة وظاهرة حتى يتمكن الكل من المتابعة والمراقبة، وأن الصلاح والإصـلاح هو الغاية، فإن كـانت القيـادة السياسـية ماضـية على طريق الصلاح والإصلاح فيجب أن يحتشد حولها الكل وأن يتعاون الكل، وإذا ما حدث اختلال أو فساد وقف الكل فى وجه الفساد والإفساد وإلا هلك الكل.

وهذا المـوقف الرائع لا يـكون رائعًـــا إلا إذا بـرئ الناس من المـزايدات والمعـارضات حُـبّاً فى المزايدة والمعـارضة، وبَرِئوا أيضًـا من الموالاة حبّـاً فى التـقَرُّب أو التـربح، الأصل هو المصلحة العـامة الـتى تهم الكل وليس هناك شىء قبلها ولا شىء بعدها.

وكلمة (قوّمونى) كلمـة فيها معنى كونوا حـاسمين فـى مـواجهـة الـخـطأ ولا تتهاونوا، ولا تتـرفقوا ولا تُداهِنُوا ولا توارِبوا لأن خطأ القيادة السـياسية خطأ قاتل.

وقد أدرك عمر بن الخطاب رضى الله عنه أهمية هذه الكلمة وقالها فى أول كلمة ألقـاها فى المسلمين بعد أبى بكر، ولم يكن معنى الشـدة والحسم الذى فى الكلمة غائبًا عن الذين استمعوا إليها فقام رجل فى المسجد وسلّ سيفه من غمده وقال لعـمر والله لو رأيناك على خطأ لقوّمناك بسيوفنا فـسُرّ عمر بذلك وقال: الحمد لله الذى جـعل من أمة محمد ﷺ من يقوّم خطأ عمـر بسيفه. ومعنى هذا الموقف تأكـيد ضرورة مراقـبة الشعب للنظام السيـاسى وأن الأمة بِخَيْر مادام فيها هذا الأصل، وأنها باقيـة قوية سائدة غالبة مادام هذا هو مبدأ الحكم فيها ومادام فيها من يقوّم عمر بسيفه.

ولم يكن طلب أبى بكر من الجماعة مراقبة النظام شيئًا ابتدعه أبو بكر أو تطوع به وإنما هو إنفاذ لأمـر رسول الله ﷺ فى الحـديث الذى رواه أبو بكر، قال

أبو بكر: إنا سمعنا النبى صلوات الله عليه يقول: «**إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب**» وهذا الحديث أخرجه أحمد وأبو داود والترمذى، وهذا ظاهر فى أن الواجب على الشعب أن ينكر المنكر وإلا هلك الناس، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ليس مختصراً فى أن نقول للناس صلوا وإنما أوله وأهمه أن نقول للحاكم اعدل ولا تظلم وكف يدك ويد من حولك عن أموال الناس ولا تولِّ فى أمر من الأمور إلا أصلح الناس وأكفأ الناس، ولا تزرع ولدك فى مكان وفى الناس من هو أكفأ منه لأن العدل هو كما فسره العلماء وضع كل شىء فى موضعه وأوله وضع الكفاءات الوطنية فى موضعها لخدمة هذا الوطن، لأن البلاد ليست ملكًا لك ولا لمن حولك، وإنما هى ملك لهذا الشعب، وهذا هو الحكم بما أنزل الله.

وقول أبى بكر «إنما أنا متبع ولست بمبتدع» يعنى أنه يسوس الأمة بشرع الله وأنه متبع لكتاب الله وسنة نبيه ﷺ وأن هذا هو الأصل وهو المرجع، الحلال ما أحل الله ورسوله والحرام ما حرم الله ورسوله، ما جاء فيه نص من الكتاب والسنة فالنص ملزم وما لم يجيئ فيه نص اجتهدنا وقِسْنا واسْتَنْبَطْنا.

ووجوب الحكم بما أنزل الله من المعلوم بالدين بالضرورة ولا يستطيع من ينطق بالشهادتين أن ينكره ويجب أن يعلم الكبير والصغير هذا؛ لأن هذا من البلاغ الذى أوجبه الله على أهل العلم ليحيا من يحيا عن بينة ويهلك من يهلك عن بينة، وهو ليس فزَّاعة كما يصوره الجاهلون وإنما هو العدل فى كل أمر من أمور الناس وهو ضدّ التربح بالسلطة وضد إطلاق أيادى المسؤولين وأقاربهم فى أموال الدولة، وضد اختيار أبنائهم للمناصب القيادية وفى الناس من هم أفضل منهم ومن أبنائهم، وقد قال بعض العلماء حَيْثُمَا كان العدل فثمَّ الحكم بما أنزل الله، ويوشك أن يكون مطبقًا فى الدول غير الإسلامية التى يقوم أمرها على الحق والعدل والرشد، وظنى أن الشيخ محمد عبده لما قال رأيت فى أوربا إسلامًا ولم أجد مسلمين، ورأيت فى الشرق مسلمين ولم أجد إسلامًا، إنما كان يُرِيدُ قيام أمرهم على الحق والعدل والطهارة والصفاء،

ولم أقرأ فى كتاب ولم أسمع عن عالم يؤخذ عنه العلم ما يعارض وجوب الحكم بما أنزل الله وكل العلماء الذين تُعيِّنهم السلطة فى المواقع القيادية فى الأزهر ودار الإفتاء يتجنبون الكلام فى هذا الأمر؛ لأنه لا يستطيع واحد منهم أن يقول بخلاف ما فى الكتاب والسنة وما عليه إجماع الأمة، نعم إن كثيراً ممن يزعمون أنهم يطبقون شرع الله حُسِبُوا فى الأنظمة التى تحتذى وربما كانوا من الأنظمة التى يجب أن يتجنبها الناس؛ لأن الكلام شيء والفعل شيء آخر، أبو بكر قال: إن رأيتمونى على خطأ فقومونى، ولم يقل إن تكلمتم فى السياسة قطعت لسانكم، وأشد أعداء تطبيق الشريعة الإسلامية هم اليهود والأمريكان وأوربا كلها ومن والاهم من أصحابنا، ولا أشك ولا تشك معى أن اليهود لا يخافون علينا من خطر تطبيق الشريعة وكذلك الأمريكان وأوربا، واعتقادى أنهم يخافون منها ولا يخافون علينا، لأن التطبيق لو وجد رجالاً يحسنونه لتغيرت أشياء هم لا يريدون لها أن تتغير؛ لأنك ستجد الإصلاح بدل الإفساد والعدل بدل الظلم والتسامح بدل الفتنة الطائفية والتعايش السلمى الرفيع بين أبناء الوطن الواحد، وهذا كله سيغلق عليهم أبواب الفتنة التى يطرقونها وينفذون منها، وأكتفى بهذا وقد بلغتِ اللهم فاشهد.

ويجب أن أشير إلى ما يجب أن يقوّم حتى أكون قد أنفذت وصية الصديق رضى الله عنه لأنه قالها للأمة وأنا وأنت وهو وهى منهم.

ولا يجوز لأحد أن يقول لماذا لا تنظر إلى نصف الكوب الذى فيه ماء، وذلك لأنه من حقنا أن يمتلئ الكوب كله ولأن النصف الذى فيه ماء يعنى أن المسؤولين أدوا بعض الواجب ومن أدّى واجبه لا يشكر كما علمنا العامة فى كلمتهم البديعة (لا شكر على واجب) وهى أفضل وأشرف وأنبل من قول الكبار انظر إلى النصف الممتلئ؛ لأن هذا صرف عن النصف الفارغ وهذا خطأ وتلبيس، وتدليس، وإن صدر عن أكاديميين كما يحبون أن يوصفوا والعلم كالماء يزيد الحلو حلاوة ويزيد المر مرارة، ومصر بلد يستحق بتاريخه

ورجاله ومن يعيشون على أرضه ومن يعيشون فى باطنها ألاِ نسكت عن فساد نراه، ثم إن هذا واجبنا لأن الفساد راجع وبَاله علينا وعلى أولادنا وأحفادنا وليس من حق أحد أن يزعم أنه هو الوطنى وأنه هو الحريص عليه وأنه يَمنّ على الناس لأنه تركهم يتكلمون، كل هذا شيء انتهى زمانه ودُمرّنا بسببه وكانت نكسة ١٩٦٧ من أهم ثمراته وليس عندنا استعداد لأن نُدمّر مرة ثانية.

ومن الصعب أن أختصر ما أراه من فساد وإنما سأتكلم فيما لا يجوز لأحد أن يجادل فيه، سأدع اختيار النظام لرجال حكم القضاء عليهم فى قضايا تنفى عنهم كرامة المواطنة لأن من يتاجر فى الدم المسرطن ويصيب أهلنا به ليس منا، ومن يشارك فى تلوث الطعام والشراب ويُصيب أهلنا بالأمراض ليس منا، ومن يسرق أموالنا من البنوك ليس منا، ومن يقتل ويفجر ليس منا، نعم كل هذه الجرائم متوقع وجودها ولكن المشكلة أن يختار النظام من يرتكبون مثلها ويضعهم فى الصفوف الأولى ويكونون رؤساء لجان فى المجلس التشريعى، وحين يقدمون للمحاكمة يُبرئ النظام ساحته ويقول إنه لا يحميهم من المحاكمة وهذه مصيبة لأنه لو حماهم من المحاكمة لسقطت عنه كل شرعية والمسؤولية لا يُسقِطها أنه لم يحمهم من المحاكمة وإنما كيف اختارهم واستعان بهم مع أن عنده الأجهزة التى تقدم له تقارير عن كل من يستعين بهم، قلت: سأَدَعُ هذا ومثله، وأقول من المعلوم فى الأديان السماوية والدساتير الأرضية أن الإنسان هو قطب الدائرة الذى يدور عليه هذا الوجود وأن الله سبحانه سخر له كل ما فى السموات والأرض وكل ما فى البر والبحر وأن النظام السياسى له مقياس واحد فى التاريخ كله وهو مدى عنايته بهذا الإنسان وكيف استثمر طاقاته.

وهناك أمران ضروريان لهذا الإنسان ولا يجوز الترخص فيهما وهما الصحة والتعليم لأن الإنسان المريض لا ينجز شيئًا والإنسان الجاهل لا ينجز شيئًا، وأقرب سبيل إلى تدمير الشعوب هو المرض والجهل، وإذا كان ذلك كذلك وهو كذلك بلا ريب فما موقف النظام من الصحة والتعليم فى مصر فى هذه السنوات؟

انتشرت الأمراض المدمرة للناس وأسبابها معروفة علمياً وكلها ناتجة عن أخطاء سواء فى استيراد الأدوية الزراعية الضارة أو تلوث المياه وغير ذلك مما يمكن تحديد المسؤولين عنه. وليس المهم أن يحاسبوا لأنهم لو أعدموا فلن ينفعنا إعدامهم بشيء بعد انتشار الأوبئة المهلكة والتى نرى الناس من حولنا يتساقطون بها، والمسؤول هو النظام الذى لم يحسن اختيار معاونيه، وقديمًا قال عمر: «لو عثرت بغلة بالعراق لكنت مسؤولا عنها وأنا فى المدينة لأنى لم أعبّد لها الطريق» يعنى لم أحسن اختيار العامل الذى تقع عليه مسؤولية تعبيد الطريق.

ولابد أن نتوقع هذا الخراب وأفظع منه ما دمنا نرى جماعات يختار بعضهم بعضًا وليسوا أكفأ من فينا؛ لأن مصر مليئة بالكفاءات وبالشرفاء الذين تعصمهم أخلاقهم من حمل المباخر والاقتراب إلى المنطقة التى يختار الرجال منها، وهى منطقة القرب والموالاة.

أما التعليم فى مصر فلم يستطع أكثر الموالين نفاقًا أن يدافعوا عنه؛ لأنه كالشمس الطالعة، وقال كثير من الرجال المخلصين: إنه لم يعد فى مصر تعليم، فضلا عن البحث العلمى الذى هو الدرجة الأعلى يعنى أنه ليست هناك درجات تصل إلى درجة البحث العلمى، والمدارس التى تعلم فيها السادة القادة صارت خرائب، والحركة العلمية الموجودة الآن موجودة مؤقتًا لأن الذين تخرجوا من المدارس الخرائب لن نجد منهم طبيبًا ولا باحثًا، وإذا كانت الصحة والتعليم قد دمرا بشهادة الجميع حتى الصادقين من أعضاء الحزب، فلا تقل لى انظر إلى النصف المليان من الكوب؛ لأن هذا من السفسطة الفارغة فليس بعد خراب الإنسان نصف مليان.

وعجيب أن ميزانية الصحة كما نشر ٥٪ من ميزانية الدولة، ومثلها التعليم كما نشر أيضًا وميزانية الشرطة ٢٠٪ يعنى ميزانية الشرطة أربعة أضعاف

ميزانية الصحة وأربعة أضعاف ميزانية التعليم، وهذا غير مفهوم، ومن الغريب أيضًا أن هاتين المصيبتين اللتين هما تدمير الصحة والتعليم لما شاع فى الناس أمرهما وتحدثوا عنهما، ولم يستطع أحد أن يدافع، أعلن الفكر الجديد فى الحزب القديم، أنهما من أولويات الحزب فى العام القادم.

لم يفكر أحد ممن يعلنون هذا أنه من الممكن أن يقال وأين كان الحزب منذ ثلاثين سنة، وهذا يشبه قولهم إن الحزب من ٢٠٠٥ صار من أفضل الأحزاب وإنجازاته عظيمة، ولم يفكر من يقول هذا أن أحدًا يسأل ويقول وأين كنتم من خمس وعشرين سنة؟ هل المقصود من تدمير الصحة وتدمير التعليم أن يقال هذا الكلام الفارغ ويقبله المرضى الجاهلون ولا يناقشون فيه؟!!.

وعلى كل حال لا نملك إلا أن ننتظر العطار الجديد الذى سيصلح ما أفسده العطار القديم، وكل الذى نرجوه من العطار القديم أو الجديد أن يعلم أننا أبناء هذا الوطن ومن حقنا أن نجاهد لنصنع مستقبلا أفضل لأولادنا وأحفادنا وأن مصر ولدتنا كما ولدتهم، وأننا نحرص عليها كما يحرصون، وأننا الذين سنقدم لها دماءنا إذا نالها عدو بسوء، وأن ترابًا يحميه دمى لابد أن يدافع عنه لسانى وقلمى.

قرأت كلامًا وددت لو لم أقرأه لهول ما أصابنى، ووددت أيضًا لو وجدت غميزة تشككنى فى الذين كتبوه ولكننى لم أجد لأنهم من أكرم وأشرف أبناء هذا الوطن ولم أعرفهم معرفة شخصية وإنما أقرأ لهم وأعرف نبرة الصدق وشرف النفس فيما يكتبون، وليسوا معارضين ولا فى جماعات محظورة حتى يحمل كلامهم على ما يَحْمِلُ عليه المنافقون كلام الشرفاء. وبمناسبة الجماعة المحظورة لم يُعرف واحد منهم خان الوطن وتاجر فى مواد مسرطنة، ولا استولى على أملاك الشعب ولا سرق بنكًا، وإنما هم رجال شرفاء لم يستطع النظام حبسهم إلا لما أحالهم للقضاء العسكرى؛ لأن كل القضاء المدنى برأهم

من كل تهمة، مع أن القضاء المدنى حكم على رجال من الصف الأول بما نعلم حتى وصل إلى حكم الإعدام وقد ظهرت صورة المحكوم عليه بالإعدام مع كبير القوم ورأتها عيناى ثم اختفت. وندع هذا لأنه من مستنقع الفساد وقلت إننى سأتكلم بما لا يجوز لأحد أن يسكت عنه، وإن كان يكتب فى التفسير وعلوم القرآن مثلى لأن هم الوطن يغلبنى على همى، وحب الوطن من الفطرة ومن الدين، والدفاع عنه أقرب القربات.

نشر الدكتور طارق البشرى مقالة فى جريدة الشروق يوم الاثنين ٧ يونيو ٢٠١٠ سأختار منها فقرات تعنى كل من يعيش على تراب مصر، والمواطنة التى كتبناها فى الدستور كانت مكتوبة فى القلوب لأنها من الفطرة، أقول هذه المواطنة توجب على كل مواطن أن يعرف ما يجرى على وطنه.

قال الدكتور طارق البشرى: « باتفاق فيلادلفيا سنة ٢٠٠٥ انتقلت مصر فى علاقاتها بإسرائيل من موقف الوسيط بينها وبين فلسطين إلى موقف الشريكَ فى مواجهتهم دون أن يسمح الاتفاق لمصر حتى بزيادة عدد أفراد أمنها عند الحدود الإسرائيلية» انتهت هذه الفقرة، وراجع أن مصر صارت شريكًا للإسرائيلين فى مواجهة الفلسطينيين واستحضر أحداث ١٩٤٨ وما بعدها وثورة يوليو وحروبنا، وأننا كنا ندرب تدريبًا عسكريًا فى الثانوى والكلية لتحرير فلسطين من الاحتلال الصهيونى ثم انقلبنا رأسًا على عقب وصرنا شركاء لإسرائيل فى مواجهة فلسطين، والدكتور طارق البشرى مستشار ورجل قانون وهو يتحدث عن اتفاقية كما أنه ليس الكذب من شيمه، ثم راجع ما كُتب فى الصحافة الموالية عام ٢٠٠٥، وهل نجد فيها ذكرًا وتحليلا وإنكارًا لهذه القضية التى قلبت كل واحد منا رأسًا على عقب؟ وهل عرف الشعب بذلك وناقشه؟ والذى أعرفه وتعرفه أن هذا التاريخ الذى هو سنة ٢٠٠٥ قامت به الصحافة وقعدت لشىء آخر وهو أنه بداية دخول الفكر الجديد الأبيض على الحزب وعلى مصر وأن الخير والتنوير والتغيير

والازدهار وتربية شباب المستقبل وتألق الغراب الأبيض كل ذلك شغلنا وفرحنا به ولم نتوقع أن يكون هذا من الجلجلة والصخب وألاعيب الملاهى وجلاجلا لتغطى على الداهية التى هى اتفاق فيلادليفيا والتى صرنا بها جنودًا فى صفوف الجيش الإسرائيلى نواجه فلسطين.

الفقرة الثانية: قال الدكتور طارق البشرى: «إن الجانب المصرى صار يعمل فى إطار نظام أمنى مقصود به حماية الأمن الإسرائيلى من المقاومة الشعبية الفلسطينية وصار موظفًا لذلك» انتهت الفقرة، وأترك لك أن تتذكر مصر التى حررت القدس بقيادة صلاح الدين ومواقعها فى حطين وعين جالوت وكيف كانت درع الأمة وهى الآن جندى حراسة يعمل موظفًا لحماية أمن إسرائيل، يعنى صرنا مرتزقة ليست لنا قضية، فهل ترى إذلالا للمواطنة أبشع من هذا الإذلال، وهل لو لم تكن مصرياً لوددت أن تكون مصرياً لتكون موظفًا لحماية أمن إسرائيل؟ وهل لهذا ومثله يبعد الإسلام عن سياسة الوطن؟ لا شك أن من يقرأ القرآن لا يقبل أن يكون من جنود حراسة أشد الناس عداوة لنا. وأن ينصرهم على إخواننا الذين هم ونحن كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى.

ظاهر من هذا أن الكتّاب الذين يفاجئوننا بأن إسرائيل صديق والعدو هو حماس إنما يعبرون عن هذا الاتفاق، وكذلك الذين يقولون إن إسرائيل صديق والعدو هو إيران إنما يعبرون عن هذا الاتفاق، والذين يقولون لا نسمح بقيام إمارة إسلامية على حدودنا وهم يريدون حماس إنما يعبرون عن هذا الاتفاق، والعجيب أننا نسمح بقيام دولة صهيونية توراتية عبرانية على حدودنا ولا نسمح بقيام إمارة إسلامية، وأعجب من كل عجيب أن نكون شركاء للدولة التوراتية اليهودية العبرانية فى مواجهة الإمارة الإسلامية، وأعجب من كل عجيب أن نكون موظفين لحماية الأمن الإسرائيلى، وأكتفى بهذا وعليك أن تتدبر.

الفقرة الثالثة: «ولأول مرة فى التاريخ الذى نعرفه تتحالف الدولة المصرية مع عدوها الحقيقى وتتشارك معه فى خنق حليفها وصديقها، ومن يتعين عليها أن تقويه وتقوى به» انتهت الفقرة. وأسأل هل هناك ثمن تقاضته مصر حتى تنقلب على نفسها وعلى تاريخها وعلى قيمها وثقافتها؟ وهل هذا الانقلاب يعدله ثمن مهما كان؟ وهل يمكن أن يتقبل قيادى مؤهل للقيادة فى أدنى درجاتها أن يضع بلاده هذا الموضع؟ وهب أنك تحالفت مع الذى دمر بلادنا ودفن أسرانا أحياء ولا يزال يحيطنا شره، فما الذى دعاك إلى أن تكون معه فى خنق الحليف والصديق والأخ والذى يتعين علينا أن نقويه ونقوى به؟ ما الذى دعانا إلى هذا الحجم المفزع من خيانة إخواننا الذين تاريخهم تاريخنا وأرضهم أرضنا ودماءهم دماؤنا؟.

الفقرة الرابعة: قال الدكتور المستشار طارق البشرى: «إن المتابع للتاريخ المصرى يلحظ أن فاروق ملك مصر السابق ومصطفى النحاس خصمه وقائد الحركة الوطنية والديمقراطية فى عهده وعبد الناصر رئيس مصر وقائد ثورتها على العهد الذى كان يشغل فراغه فاروق والنحاس والذى قاد حركة مصر الوطنية بعدهما لم تتفق سياستهم أبدًا فى أى أمر إلا فى مسألة واحدة هى إدراك من هو عدو مصر الاستراتيجى؟ ومن هو مَنْ يهدّد أمن مصر القومى وهو دولة إسرائيل ومن يساندها، ودولة مصر لم تخطئ أبدًا فى تبين من أين يأتيها الخطر على أمن بلادها، ويبقى السؤال عالقًا أين إرث الدولة المصرية؟» انتهت الفقرة وانتهى ما نريده من المقالة.

وهذا يعنى أن التباين الشديد بين قيادات مصر فى المرحلتين ما قبل الثورة وما بعد الثورة لم يقترب من الحقيقة التاريخية الأزلية وهى معرفة الجهة التى يأتى منها الخطر على هذا الوطن، وأن اليقين بأن دولة إسرائيل هى الخطر على وطننا وأنه لم يختلف عليه أحد وأنه إرث موروث فى قيادات هذا الوطن حتى جاءت هذه القيادة فَدمَّر هذا الإرث الجليل، والوطن إذا عمى عن معرفة

الجهـة التى يأتيـه منها الخطر، يكون قـد هلك. أو يكون كالـشاة التى تحـفر بظفلها حتى تستخرج السكين التى تذبح بها، وذلك لن يكون ولا بد لليل أن ينجلى ولابد للباطل أن يندحر.

أقول لما قرأت هذا لم أسـتطع أن أفتح له قلبى حتى يسكن فيـه لبقايا من الثقة القـديمة فى بعض الرجال، ولم أستطع أيضًا أن أطرده من خـيالى لقوة يقينى فى صدق وعلـم وشرف الدكتور طارق البشـرى، ثم شاءت المقادير أن أقرأ مقالة للأستاد فهـمى هويدى وهو عندى مصدق وشريف الكلمة وشريف القـصد ولا غـميـزه فى ولائه ولا فى رجولتـه وكانت المقـالة بعنوان نميـمة إسرائيليـة على مصر نشـرت فى مقاله اليـومى فى الشروق، وشغـلتنى كلمة «نميمة» ومـاذا أراد بها هذا الكاتب الذى يحسن العبـارة عن مراده وإذا بهذه النمـيمـة تعنى معنـاها اللغوى وهو أن النمـام من ينقل الحـديث ويرويه بين الناس، وأن إسـرائيل جـرى بينها وبين سـادتنا وقـادتنا أحـاديث واتفاقـات وتحالفـات فى الغرف المغلقة فنمت بهـذا الحديث رغم حرص القيـادة المصرية على عدم إذاعتها حتى لا يعلم به الشـعب الذى غيبته وأبعدته ووضعت على عينه عـصابة سوداء مـن الكذب والتدليس مع ملاحظة أن إسـرائيل ليس من سياسـتها أن تغيب شعـبها. وإليك بعض ما جاءت به هذه النمـيمة وهو كله مؤكد لكلام الدكـتور طارق البشرى، لأنك لو وضعت فحـواه بجوار فحوى كلام الدكتور البـشرى لوجدت تلاؤمًا شديدًا جداً، ولو وضـعت المقالتين مع الواقع لوجدت تلاؤمًا أشد ولوجدت فى الواقع ما هوأبشع.

وأصل الكلام حوار أجرته صحـيفة إسرائيلية مع سفيـر إسرائيل فى مصر بعد انتهاء ولايته، ونقله الأستاذ فهمى هويدى ولم يضف إليه شيئًا وإنما اختار منه ما يعنينا.

وقد ذكر السفير أنه عاش فى مصر فى عزلة وأن الشعب المصرى لا يتقبله وأن المثقفيـن المصريين يشمئزون منه وأن النقابات والاتحـادات لا تتقبله وأنهم

يهددون كل من يقترب منه، وهو صادق فى كل هذا إذا استثنينا الليبراليين الجدد الذين ظهروا فى مصر فجأة مع ظهور مسيلمة الكذاب الجديد الأبيض لأن هؤلاء كانوا يسمون القوميين «قومجية» وهذا موقفهم من صلة مصر بالعالم العربى، كما أنهم يصفون كلام من يعادون إسرائيل بأنهم يعيشون فى غير زمانهم إلى آخر ما يعلمه من يتابع ويعطى المواطنة حقها، ثم ذكر السفير أن إسرائيل تتواصل مع أشخاص قليلين وتحرص على ألا تذيع أسماءهم وأن السفارة مع هذا النفر القليل كونوا «شلة» سرية لا تعلن عن نفسها وقد حققوا نجاحات على صعيد العلاقات السياسية ومنها أنه يوجد الآن بين مصر وإسرائيل حوار سياسى أمنى وعمل مشترك فى الميدان لم يوجد له مثيل فى الماضى وهو ما سمح بإنجاز خطوات مهمة كبيرة جداً لا يراها الكثيرون ولا يستطيع الخوض فيها» انتهت الفقرة، وأقول راجع كلام الدكتور طارق البشرى وهى بالقطع زيادات عن الذى جاء فى اتفاق سنة ٢٠٠٥ سنة ظهور مسيلمة الكذاب أو الغراب الأبيض وهى السنة التى جلجل فيها المنافقون للإنجازات العظيمة وللفكر الجديد وأثاروا من التلبيس والتدليس ما غطّى على اتفاق فيلادليفيا الكارثة المذلة.

ثم أشار السفير إلى أن «ثمة حوارًا جيدًا جداً مع رموز السلطة من قصرالرئاسة إلى كبار الوزراء وفى المقدمة منهم وزراء الحربية والاستخبارات والاقتصاد والزراعة والبنى التحتية وهؤلاء جميعًا متفقون على أهمية تطوير وتحسين العلاقات مع إسرائيل لكنهم وحدهم يفكرن بهذه الطريقة لأن الشارع لايزال معاديًا متطرفًا. والسياسة المصرية لها وجهان يعبران عن دبلوماسية خلاقة جداً فالسلطة تقيم معنا حوارًا مستمرًا فى مختلف المجالات الحيوية لكنها فى الوقت ذاته تهادن الرأى العام كى يظل الشارع مؤيدًا لها لذلك فإن هناك تباينا بين ما يقول المسؤولون المصريون فى الغرف المغلقة وبين ما ينشر على الملأ فى الصحف اليومية».

وأقول هذا الكلام تجاوز ما جاء فى كلام الدكتور البشرى إلى مسألة خطرة جداً وهو أن القيادة السياسية تتفق مع العدو من وراء الشعب وأنها تغيب الشعب وتعلن له خلاف ما تبطن، وأن هناك سياستين مع إسرائيل واحدة فى الغرف المغلقة وهى السياسة الفاعلة، والحقيقية والثانية فى الصحف والإعلام وهى كلام فى كلام وهذا مبدأ خطر جداً، والشعب إذا غيِّب يمكن أن يباع الوطن، وهب أنه ليس فينا الآن من يبيع مصر فما الذى يمنع مع وجود سياسة الغرف المغلقة أن يأتى من يبيعها؟ وأعتقد أن الطرف الذى يتفاوض مع الشِّلَّة فى الغرف المغلقة لا يجد فى قرارة نفسه ما يساعده على احترامها لأنها مادامت قَبِلت أن تُضَلل شعبها فلا أمانة ولا قيمة لها وإنما يأخذ منها ما يأخذ ثم يحتقرها ويحتقر الشعب الذى رضيها، وكل هذا وأكثر منه تجده فى كلام هذا السفير، وأرجو أن يكون قد كذب وأراد الوقيعة وإن كان هذا من الخيال.

وقد آلمنى جداً أن يكون وزير الحربية ووزير الاستخبارات من أصحاب الغرف المغلقة لأنى أحب كل جندى فى جيش مصر وأحب كل عامل فى وزارة الاستخبارات لأن هؤلاء هم حراس التراب الذى هو أعزّ علىّ من نفسى.

ثم تكلم السفير عن رأس النظام وقال إنه شخصية شديدة الاعتدال، وهو حميم وحبيب وحكيم ويبحث دائمًا عن القواسم المشتركة والمصالحة والتقريب بين الآراء، وكل هذا مقبول إلا أنه قال: «وفى بعض الأحيان سمعت منه كلامًا عن إسرائيل لا يحب للشارع المصرى أن يستمع إليه». وهذا ليس غريبًا فحسب وإنما هو مزعج، وماذا يقول رأس مصر عن إسرائيل عدوها الذى لم تُخطِئ يومًا فى أنه هو العدو؟ ماذا يقول عنها رأس مصر؟ ولماذا لا يحب لنا نحن الشعب ونحن الشارع أن نسمعه؟ وأى سنة خطرة سنها النظام فى السياسة المصرية مع ألد أعداء مصر، وهى سياسة الغرف المغلقة، التى لا يراد للشعب أن يعرفها؟ قلت هى سنة خطرة ليس لأنها قائمة على غياب الشعب وتغييبه وإن كان هذا منكرًا فى

السياسة وإنما لأننا لا نضمن نقاء ووفاء وصفاء أهل الغرفات المغلقة فى الزمن بعد الزمن فقد يكون منها وفيها من هواه معهم، ولا يمكن أن يقبل شعب حر يحترم ترابه وتاريخه أن يُقضى فى شىء مع عدوه الذى لم يشك فى عداوته لحظة وهو غائب، وأن تقول قيادته صراحة أنها لا تحب لهذا الشعب أن يعلم ما يجرى بيننا وبينكم، وكأنهم ليسوا أمناء على هذا الشعب، وكأنهم يعبرون عن أنفسهم ثم يلزمون الشعب بما أنجزوا.

لا شك أن الأمانة غير ذلك تمامًا وضد ذلك تمامًا، وأن الأمين هو الذى يحضر شعبه فى القرارات مع عدوه ليتحمل الشعب مسؤوليته، ليس فينا من يضمن عمره يومًا، وعلى المسؤول أن يضع النقاط على الحروف وبين يدى الشعب. ثم قال السفير : «وله الفضل فى تشجيع رجال الأعمال والاقتصاد على زيارة إسرائيل خصوصًا رجال الأعمال العاملين فى مجالات النسيج».

والسؤال الذى يطرحه الواقع هو هل لهذا صلة بزيادة رجال الأعمال فى مجلس الشعب وفى الحكومة؟ وأن هؤلاء الموصولين بإسرائيل حين يصبحون نافذين فى السلطتين التشريعية والتنفيذية لن يكون لنفوذهم هذا أى صلة بارتباطهم ومصالحهم مع إسرائيل؟ وهل زواج السلطة بالثروة فى مصر بمعزل عن العلاقة بإسرائيل؟ أم أن هناك كارثة، ويمكن أن تكون لا قدر الله وهى أن الثروة الموصولة بالصهيونية، والنافذة فى السلطتين التشريعية والتنفيذية يمكن أن تضع مصر فى فم الأفعى التى هى إسرائيل؟ وإذا ذكرت مع هذا بلاء الغرف المغلقة صارت الكارثة مختلفة، أليس من حق الشعب أن يعرف حدود علاقة الثروة بالأفعى حتى يحتاط لحماية وطنه؟ أم أن الشعب المغيّب عن الذى يجرى فى الغرف المغلقة مغيب من زمن بعيد؛ حتى صناديق الانتخاب التى يزعمون أنها صوت الشعب ليس له فيها شىء لأن إرادته زيفت وقد ألف أن يغيب؟

وآخر ما نشره السفير فيما نقله الأستاذ فهمى هويدى كلام يتصل بمستقبل الرياسة فى مصر، وهذا همٌّ خفى عن المصريين، وكلما تكلموا فيه ظهر مُوالٍ

لشلة الغرف المغلقة وأتَّهم الذين يفتحون الكلام فى مستقبل الرياسة فى البلاد «بقلة الأدب» والغريب أنه أستاذ علوم سياسية ويرى أن التساؤل عن مستقبل الرياسة قلة أدب.

قال السفير فى شأننا الذى إذا تكلمنا فيه نكون قد أسأنا الأدب: «إن الرئيس مبارك سيخوض انتخابات الرياسة القادمة وسيفوز لكنه قد يضطر إلى ترك منصبه بعد ذلك بسبب سنه المتقدم وآنذاك سيتم إجراء انتخابات مبكرة سيتقدم فيها الابن وثمة إعداد لذلك الآن وإذا سارت الأمور فى ذلك الاتجاه فإن التصور السياسى الآمن الذى تبناه الأب سيلتزم به الابن الذى لا ترغب فيه عدة قطاعات فى مصر وهو أمر يقلقنا كما يقلق العالم» انتهى كلامه

ولست أدرى هل ستثبت الأيام القليلة القادمة صدق هذا التوقع وبناء عليه يكون كل ما قاله صحيحًا؟ أم أنها ستثبت غيره وحينئذ يمكننا أن نوبخ أنفسنا وأن نقول إن الرجل يريد الوقيعة بيننا وبين رجالنا ولا غرف مغلقة ولا رجال أعمال ولا ولا ولا، وهذا ما نرجوه، وهل يعمل رجالهم الذين هم رجال الأعمال منا لإعداد الابن بعد الأب حتى يكون جلالة ملك جمهورية مصر العربية؟ وهل يقبل الرئيس ذلك وقد أقسم على المحافظة على النظام الجمهورى؟ وهل يقبل المصريون ما يزيكيه عدوهم التاريخى الذى لن يغفلوا يوما عن أنه عدوهم الأول؟ الجواب عن كل ذلك عندى بالنفى، لأنى لا أتصور أن تكون الرزايا التى ابتلى بها هذا النظام البلاد مع عظمها قد أماتت كل الخلايا الحية ودمرت كل أحرار البلاد الذين لهم تاريخ حافل فى مواجهة الظلم والبغى والفساد، نعم هم الآن يواجهون ظلمًا وبغيًا وفسادا وإفسادًا، ثم يواجهون شيئًا زائدًا عن هذا كله لم يواجهوه فى التاريخ وهو انحياز المسؤولين إلى العدو التاريخى، وأنهم صاروا يؤازرونه وهو يؤازرهم ومن ورائه القوة الأكبر، والتى ليس لها هدف فى عالمنا العربى والإسلامى إلا أن تُغلّبه على هذين العالمين الكبيرين ومن وسائل تغليبه تدمير الشعوب بالمرض والجهل والفقر والفساد

والإفساد، وإذا كان الإقطاع القديم فى مصر كان ربيب الاستعمار كما تعلمنا فإن تركيز ثروة البلاد فى يد مجموعة حول الحاكم وعائلة الحاكم ومن وراء الكل أمريكا وإسرائيل، ليس هذا بعيدا عن الأسباب التى قامت ثورة يوليو من أجل تصحيحها. قلت إننى وددت لو لم أقرأ مقالة الدكتور البشرى ولا مقالة الأستاذ فهمى هويدى ووددت لو وجدت فى واحد منهما مغمزا يخفف عن نفسى هول ما قرأت فى مقالتيهما، ولكننى لم أعرف عنهما إلا شرف النفس وصفاء الضمير وصدق اللهجة وشرف الكلمة والحب الصادق لتراب هذه الأرض.

ومع أننى وودت ما ذكرت فإننى أرى الواقع أهول، أرى الجامعات المصرية التى أعمل فيها وأعرفها جيدًا صارت أضعف من المدارس الثانوية التى رأيتها وعرفت ما فيها، وأرى أعضاء هيئة التدريس أقل مستوى من مدرسى المدارس الثانوية قبل أن يضربنا النظام بهذه الجهالة، ثم إن المنشور حول الصحة يؤكد أن أكثر من عشرة فى المائة من أبناء الوطن مصابون بمرض الكبد الوبائى وأن خمسين فى المائة من أطفالنا يعانون من مرض الأنيميا، وأن نصف السكان تحت خط الفقر المدقع، فهل بعد هذا هول؟ وكل هذا لا ينكره لسان صادق؛ لأنه لا يحتاج إلى دليل: «وليس يصح فى الأفهام شىء إذا احتاج النهار إلى دليل».

تدمير التعليم والبحث العلمى وتأخر مصر عن الدول التى كنا نعلّمها ظاهر كالشمس، وتدمير الصحة ظاهر كالشمس، الذين يعيشون تحت خط الفقر ظاهر كالشمس، وموت المصريين بالتعذيب الوحشى فى أقسام الأمن ظاهر كالشمس، مع أن هذا أفظع ما يعيشه شعب وتعجب كيف صار هذا الوحش يقتل أخاه ولو كان يعلم أن رئيسه المباشر يغضب لقتل المواطن لكف نفسه عن قتله، ولو كان رئيسه يعلم أن الذى يرأسه يغضب لحرمة الدم المصرى لكف، وهكذا تتسلسل حتى تصل إلى رأس الأمن وتقول لو كان يعلم أن رأس الدولة يغضب لحرمة دم المصرى ما فعل، وقد انتفض شعب اليونان

لحادثة واحـدة من هذه الحوادث وشـاركته شـعوب أوربا لأن واحـدًا قتل فى أقسـام الأمن، واسـتقال وزير داخليـة بلد عربى لأن واحـدا قتل فى أقسـام الأمن، وقد تعودنا على هذا وأصـبح الخبر الذى كان يجب أن تهتـز له مصر كلها وأن يكون زلزالا تحت أقدام الطواغـيت خبرًا عادياً جداً وغالبًـا ما ينتهى بإدانة المقتول وإلباسه الجريمة. أين صداقة العدو التاريخى من هذا البلاء وأين أحاديث الغـرف المغلقة من هذا البلاء وأين مشـاركة العدو الألد فى مـواجهة الذين كان يجب أن نقويهم ونقوى بهم من هذه الأرزاء.

رمـانـى الدهر بالأرزاء حـتـى ... فـؤادى فـى غـشـاء من نـبـال
فـصـرت إذا أصـابتنـى سـهـام ... تكسـرت النصـال على الـنصـال

نعم لقد تحطمت النصال على النصال واتسع الخرق على الراقع، وليس لك أيُّهَا الوطن إلا أن تنفى خبثك كما ينفى الكير خبث الحديد.

ولا تعجب حين ترانى أكتب فى هموم مـصر، وأنا رجل صناعته البلاغة والتفـسير؛ لأن من لم يشـغل بأمر المسلمين فليس منهـم ومن لم يشغل بِهمٍّ تراب أرضه فليس من أبناء هذه الأرض والأصل أن الإنسان إذا حاول أن يُبعد همَّ بلاده عن نفسـه عجز، وقـد حاولت أن أبعد همَّك عـنى يا أم البلاد فلم أستطع، وقد قلت حسبى من آداء حقك علىّ ألا أدع فى نفسى شيئًا إلا قدَّمته لأجيالك القادمة التى كتب الله لى أن أكون فى فريق الذين يعدونها:

ولقـد أردت الصبـر عنك فعـاقنى ... عَلَـقٌ بقـلبـى منَ هواك قـــديم

نعم عاقنى علق بقلبى من هواك قديم وجديد ويـتجدد وكلما رمتك الأيام برزيئـة وجدت رزيئتـك فى قلبى ووجدت النصـال التى تنفذ إليك تنـفذ إلى كبدى.

وعجـيب أننا ما استشـرفنا إلى الأحسن إلا وقعنا فى الأسـوأ، قبل ثورة ١٩٥٢، ضاقت نفـوسنا بالقصر والأحزاب الموالـية للاستعمـار، وانتقلنا إلى

الثورة وعشنا مع أحلامها، ثم كانت النهاية بالاستبداد وقطع الألسنة وتعذيب الرجال والنساء ثم استيلاء اليهود على سيناء، ثم جاءنا زعيم ثان صلينا وراءه وسمعنا منه القرآن وبشرنا «بفَرْم» المعارضين ومنحنا ديمقراطية ذات أنياب وصبرنا ثم اعترف بإسرائيل، ثم جاء الثالث ووضع فى ظهرنا خنجر الطوارئ من يوم أن تسلم الأمر إلى يوم الناس هذا، وهو ومن حوله فى أماكنهم لا يريمون ولولا الموت ما برح واحد موضعه لأنه لا يبرحه إلا إلى الذى يصير إليه كل حىّ، ثم كان حميما وحبيبًا للعدو الألد ثم ثم إلى آخر ما قلت.

فَبِتُّ والغول لى جارة ... فيا جارتا أنت ما أهولا

إن الإسلام العظيم أمرنا بأن نكون مع الجماعة وأن لا نشق عصا الطاعة حتى لا تكون فتنة فى البلاد، ومع هذه المحافظة الكريمة أمرنا بأن نأخذ على يد الفساد والمفسدين والظلم والظالمين وقال لنا إذا رأيتم الظلم ولم تأخذوا على يد الظالم والمفسد يوشك الله أن يعمكم بعذاب، وأن القوم الذين فى السفينة التى هى مثل للوطن لو تركوا الذين فى أسفلها يثقبون خرقًا فى أسفلها ليستقوا الماء من غير تعب ولم يأخذوا على أيديهم هلك الجميع، الإسلام يأمرنا بالأخذ على يد المُفْسِد والأخذ على يد الظالم وهذا الأخذ على اليد الذى جرى على لسان المصطفى فى الموقفين هو التقويم الذى طالب به أبو بكر الأمة إذا رأته على فساد؛ لأن الفساد فى النظام السياسى هو جهنم فى الوطن وتقدم الشعوب بمقدار تأخر الفساد فى نظمها السياسية، وتأخر الشعوب بمقدار تقدم الفساد فى نظمها السياسية؛ ولهذا لا يجوز إنكار الفساد فى النظام بالقلب كما يجوز فى إنكار كل منكر وإنما الأخذ باليد والتقويم كما يقوم العود المعوج.

وقد أشار القرآن الكريم إلى الدواء الذى تقوى به مناعة الأمة حتى لا يخترقها الفساد فتصبح فى مواجهته وهى مطالبة بالأخذ على يده وليس

الأمر بالأخذ على اليد أمرًا شائعًا في فقه الإسلام كالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وقد جاء بصريح لفظ رسول الله صلى الله عليه وسلم في الأمور المتصلة بحياة الجماعة وسياستها كحديث السفينة التي هى رمز الوطن والتي فيها جماعة مستهترة تريد أن تصل إلى ما تريد من غير عمل. وجاء في مواجهة الظلم لأن الظلم يهلك الأمة والعدل عمود بناء الأمة وعمود بناء الملك والظلم تدمير لهذا العمود، وقد شدّد صلى الله عليه وسلم النكير على الخروج على الجماعة محافظة على هذا العمود الذى هوكيان الأمة. قلتُ أشار القرآن إلى الدواء الذى تقوى به مناعة الأمة.

قال الله تعالى في آخر سورة الأحزاب: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

وقد جاءت هذه الآية قبل آية حمل الأمانة التي عرضها الله سبحانه على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وحملها الإنسان، ولأن الإنسان حملها سخر الله سبحانه كل ما في السموات والأرض لهذا الإنسان وكرمه وجعل حرمة دمه أعظم عند الله من حرمة البيت العتيق الذى هو أول بيت وضع للناس، وهذا التقديم يعنى أن السبيل إلى حمل الأمانة والوفاء بها وخصوصًا إذا كانت مسؤولية شعب ووطن هو القول السديد الصادق وليس قول الكذبة المنافقين المتربحين بالكذب والنفاق والخساسة والدناءة، ويلاحظ أن الآية الكريمة اهتمت بالكلمة الصادقة اهتمامًا شديدًا وأول ذلك هو النداء المكون من عناصر التوكيد أولها يا التي ينادى بها البعيد والله سبحانه قريب من كل منادى وإنما جيء بها لمزيد من التنبيه على أن الذى يأتى بعدها هو من الله بمكان ثم أى التي هى وصلة لنداء ما فيه الألف واللام وهى مبهمة وفسرت بما يأتى بعدها والبيان بعد الإبهام لا يؤتى به إلا لمزيد من إثارة النفس وتهيئتها حتى تتلقى الأمر تلقيًا يقظًا ثم كلمة ها التي هى للتنبيه ثم ناداهم بأحب أوصافهم وهو الإيمان، ثم أمرهم بالتقوى قبل الأمر بالقول السديد

ومعناه أن تكون الكلمة خالصة صادقة تراقب الله فلا تكون حباً فى المعارضة ولا حبّاً فى الموالاة وإنما هو الصدق والصدق لا غير، والقول السديد هو القول الذى تبذل فيه مجهوداً حتى تخلصه من كل خطأ وكل غفلة يعنى هو الصواب الذى يتأكد عندك أنه صواب ثم هو الصادق الذى لا تتجه به إلا إلى الحق والصدق، وهذه هى الكلمة الطيبة التى أصلها ثابت وفرعها فى السماء وتؤتى أكلها كل حين بإذن ربها، وكلمة المنافقين والمتربحين بشرف النفس وشرف الكلمة وشرف الضمير هى الكلمة الخبيثة التى اجتثت من فوق الأرض وما لها من قرار لأنها كذب لا ينفع الناس فلا تمكث فى الأرض وقوله سبحانه ﴿يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾ هو جواب الأمر والمعنى إن كانت الكلمة السديدة الصادقة هى ديدنكم أصلح الله أحوالكم وتقدمت بلادكم، ونفى الله عنكم الجهل وتدمير التعليم، ونفى الله عنكم الأمراض المدمرة للشعب ونفى عنكم الفقر ولن يكون فيكم من هم تحت خط الفقر المدقع، ورزقكم الصدق فلم تخونوا تاريخكم ولم تخونوا أوطانكم ولم تكونوا حماة لعصابة القتلة واللصوص، والذين قتلوا أطفالكم فى بحر البقر، ودفنوا أسراكم أحياء ودمروا بيوتكم على رؤوسكم ولن يكون بينكم وبينهم أحاديث فى الغرف المغلقة لا تحبون أن يعلم به من اختاروكم لولاية الأمر، والحر لا ينسى الدم، ومن الواجب أن يظل الشعب ذاكراً ثأره حتى يكون فى كل ساعة مستعدا لمواجهة أهل الغدر وأهل الحقد وأهل الباطل، اتقوا الله وكونوا مع الصادقين.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين

مساء الجمعة، ١٠ من صفر ١٤٣٢هـ

الموافق ١٤/١/٢٠١١.

***

الجاثية

سُمِّيت الجاثية لقوله تعالى: ﴿ترىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جاثيةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتابِها﴾ [الآية: ٢٨] وتُسَمَّى سورة الدهر لقوله تعالى: ﴿وَمَا يُهْلِكُنا إلاَّ الدَّهْرُ﴾ [الآية: ٢٤] وهذه الجملة لم تذكر فى القرآن كله إلا فى هذه السورة وذكر الدهر مرة ثانية فى قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان: ١]، ولم يذكر فى القرآن إلا فى هذين الموضعين.

ومن المعلوم أن تسمية السورة باسم أو باسمين يعنى أن لهذا الاسم أو لهذين الاسمين خصوصية ما بموضوع السورة، ومقصودها الذى تدور عليه معانيها، والجثو الذى منه ﴿تَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جاثِيَةً﴾ إنما يكون عند الحساب، وبعد البعث، والبعث هو موضوع إنكار من قامت السورة على عرض وتفنيد ضلالاتهم.

وهذا يعنى أن آية ﴿ترىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا﴾ داخلة فى قلب غرض السورة.

وآية ﴿وَمَا يُهْلِكُنَا إلاَّ الدَّهْرُ﴾ التى هى التسمية الثانية للسورة تمثل الوجهة المعارضة لآية ﴿ترىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾ لأنها تعنى الإصرار على إنكار البعث وهى من هذه الجهة داخلة فى صلب غرض السورة، ولكنها دخلت من الباب المقابل للذى دخلت منه آية ﴿تَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جاثِيَةً﴾ فإذا نظرت إلى حديث السورة عن ضلالات المنكرين للبعث رَكَنْتَ إلى أن تكون تسميتها سورة الدهر.

وإذا نظرت إلى حديث السورة عن نَقْضِ ضلالات المنكرين ركنت إلى أن تكون سورة الجاثية، وهذا ظاهر إن شاء الله.

أشرتُ فى الدراسة السابقة لآل حم إلى أن اشتراك هذه السور فى كلمة ﴿حم﴾ التى هى رأس كل سورة منها يعنى أن بَيْنَهَا أمرًا جامعًا تختلف به عن بقية السور.

وكلمة آل حم فيها معنى أنها عائلة واحدة لأن كلمة آل تشير إلى ذلك كما فى قولنا آل فلان. وكان من أهم ما عنيت به هذه الدراسة هو الكشف عن الأصل الذى صارت به آلا. وليس الذى قلته فى هذا كافيًا ولا مقنعًا وإنما هو ما بدا لى وأرجو أن يُوَفِّىَ البابَ غيرى ممن يتهيأ لهم الوفاءُ بحق الكتاب علينا، وأنبه إلى أن هذا البحث عن الرحم الذى بين آل حم واجب بحثه فى السور المبدوءة بـ (الم والمر والر والطواسيم) وكذلك المبدءوة بالحمد والمبدءوة بالتسبيح، وقد فتح علماؤنا الكلام فى بعض هذا وقالوا ما عندهم ولا تزال فى الزوايا خبايا، ونرجو أن يُهيِّئَ الله لذلك من الرجال بقايا، ولا يجوز أن نشك فى أن وجود رأس واحدة تشترك فيها عدة سور هى إيذان بأن هذه الرأس ينسل منها لا محالة معنى جامع فى هذه العائلة ذات الرأس الواحدة، وأن من حسن التدبر لكتاب الله ومن واجب النصح لكتاب الله أن نجتهد فى معرفة هذا الأمر الجامع.

وقد ذكرت المعنى الأم الذى تدور عليه غافر، وصلة ذلك بتسميتها، وقد سُمّيت بغافر كما سميت بالمؤمن لأن مؤمن آل فرعون كان مَثَلاً صادقا للمجادل بالحق عن الحق كما كان فرعون مثلا رديئًا للمجادل بالباطل عن الباطل، والذى أريد أن أزيده بيانا هنا هو أن هذه السورة تتميز عن كل آل حم فى مطلعها وذلك بزيادة الآية الثالثة فى السورة ﴿غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِى الطَّوْلِ﴾ [غافر: ٣] والآية الأولى واحدة فى الكل وهى ﴿حم﴾، والآية الثانية تختلف من سورة إلى سورة ولكنها تدور حول حقيقة واحدة فهى فى غافر ﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ وفى فصلت

﴿تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ والتنزيل فيهما واحد ولكنه مرة من العزيز العليم ومرة من الرحمن الرحيم، وفى الشورى ﴿كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ﴾ وهو دخول مباشر فى الغرض، وفى الزخرف قسم ﴿وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ وفى الدخان مثله وإن كان المقسم عليه مختلفا ﴿وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ﴾ وفى الجاثية رجوع إلى قريب من الذى فى غافر وكأنه إيذان بالنهاية ﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ وكذلك فى الأحقاف وبهذا يتبين لنا أن سورة غافر تميزت بهذه الآية ﴿غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ﴾.

ووجه ذلك فيما ظهر لى هو أن هذه الآية الثالثة تشير إشارة ظاهرة إلى أنكم أيها المجادلون المكذبون لو رجعتم إلى الحق لوجدتم ﴿غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ﴾ وإن بقيتم على لجاجتكم فإنكم ستجدون شديد العقاب، وهذه الآية تحدث عن أربعة معانى الأول ﴿غَافِرِ الذَّنبِ﴾ والثانى ﴿قَابِلِ التَّوْبِ﴾ والثالث ﴿شَدِيدِ الْعِقَابِ﴾ والرابع: ﴿ذِي الطَّوْلِ﴾ أى العطاء والنعم والأول والثانى بابان من أبواب الرحمة مفتوحان لمن أناب من الذين يجادلون فى آيات الله بغير حق، وقد أناب رأسهم فرعون وقال لما أدركه الغرق ﴿آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ﴾ [يونس: ٩٠]، ولكن الوقت كان قد فات، ثم إن هذه الآية الثالثة مدخل بارع جدا لموضوع السورة وهو ﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلاَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [غافر: ٤] وإنما كان بارعًا؛ لأنه ابتدأ بفتح بابين من أبواب الرحمة باب المغفرة وباب التوبة، والمراد بالمغفرة هنا المغفرة من غير توبة حتى لا يكون ما بعدها مكررًا. ثم بعد الابتداء بفتح البابين دخل فى معمعة الوعيد والغضب وأشد الغضب على الذين يجادلون فى آيات الله وأنهم لا يكونون إلا من أهل الكفر، والكفر هنا معناه الستر للدليل وتغطية الحق وإظهار الباطل، وهذا هو البعد الذى أراه فى تسمية السورة بغافر لأن

السورة حين تُسَمَّى بكلمة ذكرت فيها يوجب هذا علينا أن نبحث عن علاقة هذه الكلمة بالمقصود الأساسى للسورة لأن الكلمة لا تتميز عن أخواتها فى السورة حتى تُسمّى السورة بها إلا إذا كانت هذه الكلمة لها شأن بجوهر المعنى الذى دارت عليه السورة، وكل هذا اجتهاد يؤخذ منه ويترك.

وهذا هو الكتاب الأخير فى آل حم، ولذلك وجب أن أزيد ما قلته فى غيره بيانًا ومنه ما قلته فى سر تسمية الشورى وأضيف إلى ما قلته هناك شيئًا وهو أن الشورى تدور حول أن الوحى الذى أوحاه الله إليك هو الذى أوحاه الله إلى الأنبياء من قبلك، وذكر بعض علمائنا أن كل ما فى سورة الشورى وَحْىٌ أوحاه الله إلى كل أنبيائه، ومثلها فى ذلك مثل سورة ﴿ **سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى** ﴾ [الأعلى: ١] التى اختُتِمَتْ بقوله تعالى ﴿ **إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الأُولَىٰ (١٨) صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ** ﴾ [الأعلى: ١٨، ١٩] والذى فى الشورى كله فى الصحف الأولى. وهذا معناه أن آية الشورى التى سميت السورة بها وحى أوحاه الله إلى كل أنبيائه عليهم السلام وهذه الآية هى قوله تعالى: ﴿ **وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ** ﴾ [الشورى: ٣٨] والآية تؤسس لما يجب أن يكون عليه حال الجماعة التى استجابت لداعى الله من أقدم الأمم، وأن أمرها يقوم بعد الإيمان على الصلاة التى هى عمود الدين، والتى هى طهر للنفوس، ومزاولة مستمرة لغسلها، ومزيد جلائها، ثم الشورى بينها ثم التكافل، المتمثل فى النفقة، وجاءت الشورى هنا فاصلة بين الصلاة والزكاة، للإشارة إلى أن الشورى فى سلامة الجماعة، وتعايشها التعايش القائم على الرِّضَى والمسالمة، لها شأن عند الله أى شأن. وقلت إن هذا وحى الله لكل أنبيائه وأن الشورى أمر الله لكل جماعة دعاها ربها إلى الحق فأجابت وإن إقامة عيشها على الشورى جزء من

إقامة عيشها على الحق الذى آمنت به، وأن الشورى دخلت بين أركان الدين للإشارة إلى أهميتها، وأن الله الذى خلق الخلق يعلم نزوع مَنْ مَلَك الأمْرَ إلى الاستبداد والانفراد؛ فأمر بالشورى وشدّد عليها ليكف النفوس التائقة إلى الاستبداد والانفراد بالرأى. وأن الاستبداد والانفراد خطيئة كخطيئة الخمر والفحشاء والمنكر فواجهه ربنا بالأمر بالشورى وتعميم ذلك فى كل النبوات كما واجه رذيلة الكذب بالحث على الصدق ورذيلة الدَّنَس بالحثِّ على الطهر، وأن الحاكم المستبد ليس كمرتكب الكبيرة، وإنما هو ملازم لارتكاب الكبيرة طالما هو ملازم للاستبداد، وليس هذا فى الإسلام فحسب وإنما هو فى الأديان كلها ﴿كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ﴾ وتسمية السورة باسم الشورى تعميق لهذا المعنى وتأكيد له وإشاعة له وتشهير بخطايا الاستبداد وأهله وأن الحكم بما أنزل الله فى واد والاستبداد فى واد آخر وكذب كل مُسْتَبِدٍّ يزعم أنه يطبق شرع الله.

وأكتفى بهذا وأبدأ فى الجاثية.

وأول ما يلقانا من السورة قوله تعالى: ﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ وهذه الكلمات تزخر بما لا نهاية له من الدلالات والإشارات، ولها فى كل موقع إشارة وفى كل سياق دلالة، حتى إنك لو قلت إنها لا تفسّر فى مقامين تفسيرا واحدًا مع كثرة تكرارها فى الكتاب العزيز لم تكن مخطئًا، ودليل ذلك أن كلمة ﴿مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ﴾ المتكررة فى غافر والجاثية لها فى غافر معنى يغاير معناها هنا، وإن اتفق معه فى الأصل، وذلك أنها فى غافر تشير من أول الأمر إلى ضلال وباطل الذين يجادلون فى هذا الذى أنزله الله العزيز ﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلاَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ هى هناك مدخل للمجادلة فى آيات الله، وهى هنا تشير إلى تجليات القدرة المبهرة والقاطعة للأطماع والتى لا تعلوها قدرة والمتمثلة فى الآيات التى فى السموات والأرض وفى خلقكم وما يبث من دابة،

وكلمة ﴿مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ﴾ فى الجاثية مدخل لتلك الآيات المجتمعات ﴿إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٣ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ..﴾ [الجاثية: ٣، ٤] والاختلاف الواضح فى الذى بعد المدخلين يعنى اختلافًا واضحًا فى المدخلين، وهذه بداية الطريق للتعرف على أصل المعنى الذى تدور حوله السورة. ولابد أن نلاحظ أن تجليات الجلال المتجلية فى آيات السموات والأرض وفى خلقكم وما يبث من دابة، واختلاف الليل والنهار وما أنزل الله من السماء من ماء كل هذا راجع إلى الكمالات المطلقة المدلول عليها بلفظ الجلالة فى قوله: ﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ﴾. ثم إن مظاهر القدرة المتجلية فى الذى فى السموات والأرض وفى خلقكم إلى آخره كل ذلك راجع إلى كلمة ﴿الْعَزِيزِ﴾ ثم ما بنيت عليه هذه الآيات من الحكمة ودقة النظام وأنك ترى السماء بغير عَمَدٍ وترى الأرض لا تميد، وترى فى خلقنا ما ترى إلى آخره، كل ذلك راجع إلى كلمة ﴿الْحَكِيمِ﴾ وهكذا ترى الآيات يرجع بعضها إلى بعض وترى الكلمات المختصرة وهى تفيض بالمعانى التى لا يحاط بها، ثم إن الآيات التى ابتدأت بها الجاثية من أول قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ إلى قوله: ﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ كل ذلك تكرر فى القرآن كثيرًا جداً وهو ركن من الأركان الى بنى عليها الذكر الحكيم.

ولكن التعقيب الذى جاء بعد هذه الآيات فى سورة الجاثية لم يتكرر فى الكتاب لا بلفظه ولا بمعناه، وهو قوله تعالى ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ ۝٦ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ وأزعم أن هذا هو قلب السورة والقطب الذى تدور عليه كل معانيها لأنه يجلِّى آيات الله فى الكون والأنفس تجلية لا يؤمن البشر على آيات أفضل منها ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ ثم يكون هناك فريق من

الأفاكين يسمعون آيات الله تتلى عليهم ثم يصرون على الكفر والعناد وكأن لم يسمعوها.

وعلى هذا دارت السورة وكل ما بعد هذه الآية يُحدِّث عن خطيئة الانصراف عن الحق بعد ما تبين، والحق الذى لا ينصرف عنه إلا كل أفاك أثيم تجلَّى أولاً فى السموات والأرض وفى خلقكم إلى آخر الآيات، ثم اختلفت تجلياته فصار فى النعم الظاهرة والتى لا تكون البَتَّة إلا من المعبود بالحق؛ بتسخير البحر لتجرى الفلك فيه بأمره ثم انتقلت آيات التجليات إلى الإنعام بالهداية بعد الإنعام بالنعم الحسية الكونية، فى السموات والأرض وتجلّت نعمة الهداية فى نعم الله على بنى إسرائيل وأنه سبحانه آتاهم الكتاب والحكم والنبوة، ثم نعمة الله على هذه الأمة وأنه سبحانه أنزل عليها شريعة هى بصائر للناس، ثم رجع الكلام بعد ما طالت تفريعاته قليلاً إلى المعنى الأم الذى يَتَجلَّى فى الأفاك الأثيم الذى رأى آيات الله تتلى عليه وهى آيات لا يؤمن البشر على آيات أظهر ولا أصدق منها ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ رجعت الآيات إلى ذكر شىء من أحوال هذا الأثيم لتكشف شيئًا من عقائده الفاسدة وتخاليطه الباطلة، فذكرت اعتقادهم أو حسبانهم أنهم هم والذين آمنوا سواء محياهم ومماتهم، ثم اتخاذهم الهوى إلاها ثم قولهم: ﴿مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤] وتأتى هذه الجملة الأخيرة جامعة لكل باطلهم، وكل رَوَغَانِهم من الحق البيِّن ويقتبس منها اسم السورة؛ لأن السورة دارت على بطلان باطل من يرى آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبرًا كأن لم يسمعها ثم ينتقل الكلام إلى يوم القيامة ويطوى هذه الحياة الدنيا التى كانت ساحة لعب ولهو وزينة وتفاخر. وينتقل الكلام معهم ليحدِّثنا عنهم هناك فى عالم الغيب كما حدثنا عنهم فى عالم الشهادة ﴿تَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا﴾ إلى آخر السورة، والانتقال إلى أحوال الآخرة جاء فى الجاثية إيذانًا بالخاتمة كما

جاء فى الدخان ابتداء من قوله تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الدخان: ٤٠]. وكما كان فى الزخرف ابتداء من قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ الزخرف: ٦٦].

وقد سُبِق ذكر الأفاك الأثيم الذى هو صورة من الإنسان الشرير الشيطانى النزعة، بذكر آيات بينات للمؤمنين والموقنين والذين يعقلون، وهى آيات كونية تُدرَك بالحواس ويُسْتَنْبَطُ منها بالعقل، كما سُبِق ذكر الذين اجترحوا السيئات بآية معنوية خالصة شديدة الظهور كالآيات الكونية وهى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا﴾ [الجاثية: ١٨] وراجع الملاءمة الواضحة بين الشريعة التى جعلها الله لنا وأمرنا باتباعها وذكر الذين اجترحوا السيئات، ولو جعلت الأفاك الأثيم مكان الذين اجترحوا السيئات أو جعلت الذين اجترحوا السيئات مكان الأفاك الأثيم لاختلف البيان واضطرب لأن اجتراح السيئة يكون بعد نزول الشريعة التى تبين الحسنات والسيئات، والإفك الذى هو الكذب والانصراف عن الحق يكون بعد رؤية الآيات البينات، وسبحان من هذا كلامه.

وقد ذكرت أن الدخان امتداد للزخرف وبيَّنْتُ ذلك والمطلوب الآن كشف الرابطة التى بين الدخان والجاثية وأرى ذلك من وجوه:

الأول: أن مفصل السورة هنا والذى عنده يتحدد المقصود منها هو قوله تعالى: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ ۝ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ يقابل هذا المعنى فى الدخان ﴿لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ ۝ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ۝ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ۝ يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الدخان: ٨- ١١] وهذا هو جذر المعنى فى الدخان وهو الغضب الشديد لمن يشك فى آيات الله وهو يلعب، بعدما تبيَّنَتْ له، وهو قريب جداً من جذر الجاثية المؤسس على

الغضب الشديد والتهديد الشديد لمن يرى آيات الله التى لا يؤمن البشر على آيات أجْلى منها ثم يأفك عنها والأفاك الأثيم والذين هم فى خوض يلعبون ليسوا متباعدين.

والوجه الثانى: من وجوه الائتلاف بين السورتين قوله تعالى فى سورة الدخان ﴿إِنَّ هَؤُلاءِ لَيَقُولُونَ (٣٤) إِنْ هِيَ إِلاَّ مَوْتَتُنَا الأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ (٣٥) فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الدخان: ٣٤- ٣٦] ويقابله فى الجاثية قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ (٢٤) وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الجاثية: ٢٤، ٢٥].

وقد أشرتُ فى الدخان إلى أن هذه الآية من ضلالاتهم التى أضافتها الدخان إلى ضلالاتهم المذكورة فى الزخرف والتى انعقدت الزخرف على تعدادها، وكان هذا مما أغرى بالقول بأن الدخان امتداد للزخرف، وأول ما يلاحظ هنا أن الجاثية زادت هذه الضلالة بيانا، وذلك أنهم قالوا فى الدخان ﴿إِنْ هِيَ إِلاَّ مَوْتَتُنَا الأُولَى﴾ وقالوا فى الجاثية ﴿مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ وهذا أبين وأوضح، ثم إن الجاثية أضافت ضلالة أخرى إلى ضلالاتهم وهى إنكار الصانع وذلك قولهم ﴿وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ﴾ وهذا لم يذكر فى آل حم إلا هنا بل لم يذكر فى القرآن كله إلا هنا، وأن السورة سميت سورة الدهر لهذا كما سبق بيانه. ثم إنهم صَرّحوا بإنكار البعث فى الدخان بقولهم ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ﴾ وطُوى هذا فى الجاثية لما وضّحَتْ الآية وقالت ﴿مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ وهذا غير ﴿إِنْ هِيَ إِلاَّ مَوْتَتُنَا الأُولَى﴾ فاحتاج الإبهام فى الدخان إلى التصريح بنفى البعث واستغنى البيان فى الجاثية عن ذكر ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ﴾. عمود جملة الدخان على قصر الموت على الموتة الأولى وعمود جملة الجاثية على قصر الحياة على الحياة الدنيا، وهذا ظاهر.

وقولهم: ﴿ائْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ جملة واحدة تكررت فى السورتين ولكنها جاءت فى الدخان مرتبة على قولهم: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ﴾ وجاءت فى الجاثية بعد سماعهم آيات الله البينات الدالة على البعث دلالة لا وجه لنقضها، ولما أحاطت بهم الآيات التى لا وجه لنقضها لم يجدوا حجة إلا ما ليس بحجة وهو قولهم: ﴿مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ واختلاف مقام الجملتين مؤذن باختلاف ما فى الدلالة، وهو ليس اختلافا جوهريا وإنما هو اختلاف فى الأحوال والظلال، وما يُطيف بالمعنى لأن السياق الذى قيل فيه ﴿مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا﴾ يفيد أن الآيات أحاطت بهم ولم تقم لهم حجة فى وجهها؛ وأنهم تحيروا وأفحموا وأُبْلِسُوا واحتجوا بما لا يُحتَجّ به، وقال المفسرون إن إطلاق الحجة على قولهم ﴿ائْتُوا بِآبَائِنَا﴾ كإطلاق الأنيس على اليعافير والعيس فى قول الشاعر:

وبلدة ليس بها أنيسُ إلا اليعافير وإلا العيس

فقولهم هذا يكون حجة إذا كانت اليعافير أنيسًا لأن الكلام فى البعث فى القيامة وليس فى الدنيا والاحتجاج على نفيه فى القيامة بنفيه فى الدنيا ليس احتجاجًا.

وهذه إضافات فى الجاثية يصح معها أن نقول إن ما فى الجاثية فى هذا المعنى امتداد لما ذكر فى الدخان.

ثم إن قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَؤُلاءِ لَيَقُولُونَ (٣٤) إِنْ هِيَ إِلاَّ مَوْتَتُنَا الأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ (٣٥) فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ جاء بعد ذكر بنى إسرائيل وقد ابتدأ ذكرهم فى السورة من قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾ [الدخان: ١٧] وليس فى الدخان معنى شغل فى السورة أكثر مما شغل ذكر بنى إسرائيل، ثم قُطع الكلام واستأنفت الآياتُ بعد هذا القطع قوله تعالى:

﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ﴾ وهذا القطع وهذا الاستئناف له دلالة لا تهمل فى تقدير المعنى الذى بنى على القطع والاستئناف، وأن له فى المقام شأنا أى شأن. وهذا موقع غير موقع هذه الآيات فى الجاثية، لأنها فى الجاثية جاءت بعد قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٢٣) وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ [الجاثية: ٢٣، ٢٤] فأفاد هذا الموقع أو هذا السياق أو هذا المقام أن قولهم هذا امتداد لاتخاذهم إلَٰهَهُمْ هَوَاهمُ وأنه كلام صادر عن مَنْ خَتَم الله على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة، وهذا يُلْقى ظِلًّا آخر على قولهم غير الظل الذى يُلْقيه مقام القطع والاستئناف، وهذه وإن كانت فروقًا فى الظلال وما يُطيف بالمعانى كما كان يقول حازم فإن لها شأنا أى شأن فى تحليل أسرار البيان.

ورَحِمٌ ثالث بين السورتين وهى قصة بنى إسرائيل، فقد ذكر جزء منها فى الدخان وجزء فى الجاثية. والجزء الذى فى الجاثية هو الامتداد التاريخى لقصة بنى إسرائيل، وأولُّ ما ذكر منها فى الجاثية مُمْسكٌ بآخر ما ذكر منها فى الدخان، وبيان ذلك هو أن الذى فى الدخان عَرْضٌ موجز لقصة موسى عليه السلام مع فرعون، وانتهت قصة فرعون بقوله تعالى: ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ (٢٣) وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ﴾ [الدخان: ٢٣، ٢٤]، ثم اتجهت الآيات إلى نجاة بنى إسرائيل ﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ (٣٠) مِن فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِّنَ الْمُسْرِفِينَ (٣١) وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ (٣٢) وَآتَيْنَاهُم مِّنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُّبِينٌ﴾ [الدخان: ٣٠- ٣٣] وانتهى الكلام فى الدخان عند هذا وتركت الدخان الكلام مفتوحًا لاحتمالات ما يكون منهم بعد إكرام الله لهم، وقوله سبحانه ﴿مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُّبِينٌ﴾ هو الباب المفتوح لأنه لم يبين البلاء المبين ولم يبين نتيجة هذا الاختيار، وجاءت

الجاثية فوضّحَتْ الآيات التى أبهمتـها الدخان، وأنها الكتاب والحكم والنبوة، وأن نتيجة الابتلاء والإنعام عـليهم ونجاتهم وإعطائهم الكتاب والحكم إلى آخر ما كان الاختلاف بينهم بعد ما جاءهم العلم بَغْيًا بينهم، ثم توعدهم ربهم على هذا الاختلاف وأنه سبحانه سيقضى بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون، وهذا واضح وأن الذى فى الجاثية من هذا الجزء المشـترك بين السورتين امتداد للذى فى الدخـان ولو وصلت آخـر ما فى الدخـان، بأول مـا فى الجاثيـة، لاسـتقـام لك الكلام، أعنى لـو قرأت هكذا: ولقـد نجينا بنى إسـرائيل من العذاب المهين من فـرعون إنه كان عاليا من المسرفين ولقـد اخترنا على علم على العالمين وآتيناهم من الآيات ما فيـه بلاء مبين... ولقد آتينا بنى إسرائيل الكتاب والحكم والنبـوة ورزقناهم من الطيبات لوجـدت الكلام ملتئمـا جداً، وإنما أردت أن أبين ما بين السـورتين، ولا يقرأ القرآن إلا على الوجـه المنقول إلينا عن رسول الله ﷺ وعلى الوجه المكتوب فى المصحف.

ولو راجعت آل حم واستـخرجت منها قصة موسى عليـه السلام لوجدت هذه القصـة وإن تناثرت فى السور إلا أنها تسلسـلت وتتابعت وبدأت فى كل سورة من السور الـتى ذكرت فيها القـصة من حيث انتهت التى قـبلها، وهذا عجيب ويأذن بسؤال لم أجب عنه وهـو هـل تـرى تـتابـعا آخر فى معـان أو موضوعات تناثرت فى آل حم كما ترى.تتابـعا وتَسَلْسُلاً فى قصة موسى عليه السلام؟ مـن السهل أن نبيـن ذلك فى قصص الأنبـياء عليهم الـسلام، ومن الصعب أن نبـيِّنَه فى المعانى التى تَوَارَدَتْ عليـها السـور، هذا باب آخر وراءه أبعاد ومنادح، وربما سهل تناوله فى السور التى لهـا رأس واحد ويغلب عليها القـصص، مثل الطواسـيم، والمهم الآن هو بيـان تسلسل قصـة موسى عليـه السلام فى آل حم وظاهر أنه لم يذكر منها شىء فى الزمر التى هى بوابة دخول آل حم، ولم يذكر منها شىء فى القتال التى أعقبت آل حم بدأت قصة موسى عليه السلام فى غافـر ببيان أن الله سبحانه أرسل مـوسى بآياته وسلطان مبين إلى

فرعون وهامان وقارون، فلما رأوا الآيات قالوا سحر، وقالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معـه، وقال فرعـون ذرونى أقتل موسى ونهـض رجل صالح يدافع عن مـوسى عليه السـلام، وقـال أتقتلون رجـلاً أن يقـول ربى الله؟ وأنكر على فرعون وعصابته ما هم فـيه من جهل وقمع وبطش، وصَدَق الرجلُ وعارض بصوت عـال أزعج فرعـون وخاطب الشـعب بصدق وحـرص ووعى، وذكر تاريخ الطواغيت فى الأرض وكان الشعب مثـقفًا يعرف أخبار الأمم ولم يكن فرعون اللعين قد نزل بثقافة الشعب إلى الحضيض الذى هو عليه الآن. وكان فرعون يعارض كلام الرجل بجهل وغطرسة وسَفَه ولا يجد ما يقوله اليوم إلا ما قد قاله بالأمس ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَى﴾ فلما دخل فرعـون باب الهذيان، وقال لمستشاره الكذوب ﴿يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ (٣٦) أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ﴾ [غافر: ٣٦، ٣٧] أدرك المعـارض النابه الصادق أن الرجل دخل فى غير المعقول فلم يجد بُداً من دعوة الشعب إلى خَلْعِه وقال: ﴿يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافـر: ٣٨]، ثم كان ما كـان ويَئسَ الرجلُ لأنه لم يجد جمـاعة وطنية صادقة. تنضم إليـه، ولم تساعده حركات معـارضة فآثر الصمت، وقـال فستـذكرون ما أقـول لكم وأفوض أمرى إلـى الله، وانتهى الموقف فى غافـر عند هذا الحد ثم جاءت فـصلت، ولم يذكر فيـها شىء من قصة موسـى عليه السلام وكذلك الشورى ثم جاءت الزخـرف وتناولت قصة ابتلاء الله لفرعـون وملئه وأن الله سبحانه أخذهم بالعـذاب لعلهم يرجعون، وأوجزت الزخرف ما جاء مفصلا فى سورة الأعراف، وأن القوم لما سلط الله عليهم الطوفـان والجراد والقمل والضفـادع والدَّم أدركوا أن هذا من الله الذى أرسل موسى وأنه لا يكشـفه إلا هو سبـحانه، فقـالوا لموسى ادع لنا ربك بما عهـد عندك أن يكشف عنا العذاب فكشف الله عنهم العذاب، ورأى فـرعون اللعين أن القوم مالوا نحو موسى عليـه السلام فخطب فيهم خطبة من الخطب التى يخطبها الكذابـون فى الشعوب المطحونة ونادى فى قومـه وكانت الخطبة

كلها هجومًا على موسى عليه السلام أيضًا كالخطب التى تسمعها وتهاجم المطالبين بالإصلاح وأنهم يزعزعون الاستقرار أو يعملون لحساب قوى خارجية والكذب حيلة ممدودة، ثم إن فرعون استخف قومه فأطاعوه ولاحظ ترتيب أطاعوه على الاستخفاف يعنى لم تكن هناك طاعة قبل الاستخفاف وإنما استدرك فرعون بندائه هذا حالة من رفضه، ثم انتهت الزخرف ولخّصتْ النهاية تلخيصًا موجزا ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الزخرف: ٥٥] ثم جاءت الدخان وبدأت بذكر هذا الابتلاء الذى اقتضاه ذكر ابتلاء أهل مكة بالقحط الشديد ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ (١٠) يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الدخان: ١٠، ١١] وقد سألوا رسول الله ﷺ أن يَدْعُو ربَّه ليكشف عنهم العذاب كما سأل خدم فرعون موسى عليه السلام، وفى هذا السياق ذكرت قصة الزخرف مجملة إجمالاً موجزًا ثم فصَّلت النهاية التى أجملتها الزخرف ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلاً إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ (٢٣) وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ﴾ ثم اتجهت إلى بنى إسرائيل وزادت شيئًا لم يكن فى الزخرف ولا فى غافر وهو نجاة بنى إسرائيل من فرعون وإكرام الله لهم وأن الله اختارهم على علم وآتاهم من الآيات ما فيه بلاء مبين ثم جاءت الجاثية وأتَمَّتْ كما بينا، وهكذا نجد القصة تتكامل فى أربع سور من آل حم وهذا وجه من الوجوه الجامعة لآل حم وأن كل سورة هى امتداد للسورة قبلها وأن كل آل حم كسورة واحدة. شىء أخير بقى فى الرحم الواصلة بين الدخان والجاثية وهو ما نراه فى صورة عذاب أهل النار من اختلاف لهذه الصورة بين السورتين فعذاب أهل النار فى الدخان له صورة وعذابهم فى الجاثية له صورة وإذا تدبَّرْتَ الفرق الذى بين الصورتين استقام لك القول بأن ما فى الجاثية امتداد لما فى الدخان فى هذه الجزئية المذكورة من السورتين، بيان ذلك أنك ترى أهل الضلالة فى الدخان يعذبون فى صمت شديد لم تسمع منهم كلمة ولم تُوجَّهْ إليهم كلمة، وإنما ترى شجرة الزقوم طعام الأثيم

كالمهل يغلى فى البطون كغلى الحميم وأن الله سبحانه يأمر الزبانية بأن يأخذوه فيغلوه إلى سواء الجحيم وأن يصبوا فوق رأسه من عذاب الحميم وكل ذلك يمضى فى صمت ملىء بالرعب والغضب ولم يسمع صوت إلا صوت واحد يقال لهذا البئيس ذق إنك أنت العزيز الكريم، والبئيس يذوق الجحيم ولا ينطق.

والجاثية تجد فيها شيئًا آخر: أوله أن الجاثية سكتت عن أخذه وغلّه وعَتْله وطعامه، الذى كالمهل، اكتفاء بما فى الدخان، وفتحت الجاثية بابًا آخر هو الحديث عن الذى أفضى بهم إلى ما هم فيه، وأول الحديث عن أهل النار هو: ﴿أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ وهذا رجوع إلى الآيات المذكورة فى أول السورة ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ [الجاثية: ٦].

ثم يقال لأهل النار ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ﴾ وهذا رجوع بهم إلى قولهم ﴿مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ ثم يقال لهم ﴿الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ وهذه الآية بمثابة إغلاق باب الجحيم عليهم، والانصراف عنهم وتركهم فى الجحيم يصطرخون.

وظاهر جداً أن الذى فى الجاثية من تمام الذى فى الدخان وكأنه جواب عن سؤال أثارته صورة العذاب الصامت المفزع الذى فى الدخان وهذا السؤال هو ما الذى أفضى بهم إلى هذا الهول الذى هم فيه؟ فجاءت الجاثية لتقول كانت آيات الله تتلى عليهم فاستكبروا وكانوا مجرمين، وكانوا يذكَّرون بالساعة فيجيبون فى غطرسة واستخفاف وجهل وغباء ويقولون ما الساعة.

والخلاصة أنك لو راجعت فصول المعانى التى فى الدخان ووضعتها بإزاء أخواتها التى فى الجاثية رأيت الذى أقوله كما أقوله راجع آيات الله فى أول الدخان ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ [الدخان: ٧]

وضعه بإزاء ﴿إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ﴾ وما بعدها، وراجع ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ۝ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ﴾ وضعه بإزاء ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ وراجع قصة بنى إسرائيل وإنكار البعث وصور العذاب فى السورتين لتتأكد أن الجاثية امتداد للدخان، هذا والله أعلم.

وأبدأ التحليل والله المستعان.

قوله سبحانه ﴿حم ۝ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾.

كثر الكلام فى الحروف المقطعة وأراح البعض نفسه، وقال هذا من المتشابه الذى لا يعلمه إلا الله، ولم نقرأ أن أحدًا من جيل المبعث من آمن ومن كفر توقف عند هذه الحروف؛ ولا أعرف كيف فهموها؟ والذى نعلمه أنها اقترنت بذكر الكتاب فى كل سورة ابتدئت بها إلا فى مواطن معروفة كورودها فى العنكبوت والروم ومريم والقلم، وهذا يعنى أن بينها وبين ذكر الكتاب سببًا، والكتاب حجة النبوة ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ [العنكبوت: ٥١] وهذا يرجح أن لها وصلة بهذه الحجة وأنها تَنْبيهٌ للقارئ بأن الذى تقرؤه وقد أعجز الثقلين هو كلام مكون من هذه الحروف التى تكلم بها العرب ويتكلمون بها، وعليك أن تجتهد وأنت تقرأ لتُدْرك الأمر الذى داخل هذه الحروف الساكنة تحت لسانك حتى أصبح الكلام الذى تقرؤه فى الكتاب العزيز كإحياء الموتى، وقلب العصا حَيَّةً. وخروج ناقة صالح من الصخرة يعنى آية من آيات الله التى أيَّد بها أنبياءه، والتى هى كخلق السموات والأرض، وخلق أنفسكم، وأنت أيها القارئ إذا وَجّهت نفسك وجعلتها تستشرف نحو هذه الآية التى يقرؤها لسانك ستدرك ذلك وإن لم تدرك كله فلن يفوتك بعضه، والمطلوب أن يكون عقلك وقلبك ووعيك مع ما تقرأ وأن تقرأ بترتيل، وأناة، حتى لا يفوتك شيء من هذا الشأن الجليل، لأن الذى آمن عليه من آمن هو أنك ترى فى كلمات معدودة أُلِّفَتْ من الحروف التى تحت

لسانك أمْرًا إلهيًا، قاطعًا للأطماع، وقاهرا للقوى والقدر، فاجتهد فى أن تقترب من هذا الأمر الإلهى لأننا لم نؤمر بتلاوته وحفظه وتعليمه وتعلُّمه إلا ليبقى هذا الأمر الإلهى فى الكتاب ظاهرا بيِّنًا كظهوره يوم نزل، ولو كان إدراك الإعجاز ليس فى الوسع ما كُلِّفْنَا به، لأن الله سبحانه لا يكلفنا إلا بالذى فى الوسع، والمهم أن يُطْلَب ومن طلبه وجده، ولا أفهم أن يكون القرآن حجة الله على خلقه كل خلقه إلا إذا كانت هذه الحجة مما يدخل فى الوسع وأن يكون الوصول إليها ممكنًا، والله سبحانه وتعالى ليس بظلام للعبيد ومن أول ما يقوله خزنة جنهم لأهل النار أنكم كنتم تتلى عليكم آيات ربكم فكذبتم ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ [الزمر: ٧١] ولا يمكن أن يحاسبنا ربنا على آيات أنزلها لتدلنا عليه وأن تكون هذه الآيات مُبْهمة لا نُدركها، وليس هذا كلامًا للجيل الذى نزل فيه، وإنما هو كلام لكل من أنكر أن القرآن كلام الله، إلى أن ينفخ فى الصور، ويبطل التكليف، ولهذا لم يختلف العلماء فى أن إعجاز القرآن باق فيه وظاهرٌ فيه وهو حجة فيه إلى يوم القيامة، وأننا لم نؤمر بتلاوته وحفظه إلا لهذا، والحروف المقطَّعة فى أول السور إيذان بهذا وتنبيه إليه.

ثم إن ذكر الكتاب بعد هذه الحروف المقطعة يجيء على وجوه، ففى البقرة يذكر الكتاب فى هذه الصورة ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢] وفى آل عمران نجد: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ وفى يونس: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ﴾ [يونس: ٢] وفى هود: ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ﴾ [هود: ١] وهكذا وبالتأمل والتدبر فى هذه الجمل التى يجمعها ذكر الكتاب تَرَى إشارات واضحة تختلف بها كل جملة عن أختها وهذه الإشارات المختلفة كأنها (بوصلة) دقيقة وخفية توحى وتومئ إلى منزع السورة، والوادى الذى تصير بنا إليه، فرق كبير جداً بين ذكر الكتاب أول

البقرة، وذكر الكتاب أول أختها الغـرَّاوة الثانية، فى أول البقرة تصرفنا الجملة إلى أنه الكتاب الكامل فيما به يكون الكتاب كتابا، فكمالاته مطلقة فى لفظه وكمالاته مطلقة فى معانيه، وفى أحكامه، وحلاله، وحرامه، وأنه لا ينبغى أن يداخله ريب، وأنه هدى، وكل هذا مع البصيرة يومئ إلى ما سيأتى بعده وإنك لتستطيع أن تدخل الكثير مما سيأتى فى السورة فى هذه الجملة التى هى رأس السورة وهذه الكمالات المطلقة هى هدى لمن آمن بالغيب، وشاهد وحجة على من ضل، وتستطيع أن تعود بما فى السورة من أحكام كالحج والعمرة والصوم والطلاق إلى كلمة (هدى) وهكذا، كما أن ذكر الكتاب فى آل عمران له منزع آخر وهو أنه مصدق لما بين يديه من كتب الله، كالتوراة والإنجيل، وكل ما أنزله الله سبحانه هدى للناس، وهذا يومئ إماءة ظاهرة إلى أن حديثا طويلا ستتلوه عليك هذه السورة عن أهل الكتاب، ولا شك أن ذكر أهل الكتاب فى آل عمران أظهر وأبين من ذكر أهل الكتاب فى البقرة ، وأن الأحكام فى البقرة أظهر وأبين من الأحكام فى آل عمران، وهكذا تجد ما بعد حروف المعجم بصائر لذوى البصائر، وشغلتنا عنها هذه الحروف المقطعة وكان الواجب أن نشغل بها. ولا يجوز أن نُغْفل حديثا يبدأ بقوله تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ﴾ [يونس: ٢] وحديثا يبدأ بقوله تعالى: ﴿أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾ [هود: ١] وأن نكتفى بالقول بأنهما سواء فى ذكر الكتاب مغْفِلينَ الفرق بين افتتاح كلام بإنكار أن يعجب الناس أن أوحينا إلى رجل منهم وبين الإخبار بأن الله سبحانه أحكم آياته ثم فصلها، وأنه سبحانه حكيم خبير، أو أن الكتاب أحكمت آياته، ثم فصلت من لدن حكيم خبير، ويكفى أن تقف عند همزة الاستفهام هناك والتجريد هنا فى قوله ﴿مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ وتسأل عن سر التجريد فى هاتين الصفتين العاليتين، الحكمة والخبرة وأن إحكام الكتاب وتفصيله قام على الحكمة المطلقة والعلم المطلق، هناك فى يونس حديث عن الناس

وشأنهم مع الكتاب وهنا حديث عن الحق وشأنه مع الكتاب ويابعد ما بينهما، وأكتفى بهذا.

وقوله جل شأنه ﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ جملة مكونة من مبتدأ هو تنزيل الكتاب وخبر هو الجار والمجرور، وهذا يعنى أن الذى بُنِيَتْ عليه الجملة هو الإخبار عن تنزيل الكتاب وأنه من الله العزيز الحكيم فرأس الجملة هو التنزيل وهو المسند إليه وهو المقصود بالحكم وهو الاسم المعرَّى من العوامل الذى إذا سمعه السامع استشرف ليعرف الذى يراد الإخبار به عنه، فإذا جاء الخبر الذى هو من الله العزيز الحكيم تمكن فى النفس وتأكد واستقر، قلت هذا لأنى أريد أن أظهر المعنى والمغزى الذى وراء بناء الجملة على المصدر الذى هو التنزيل وأنه غير ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾ [النحل: ٨٩] ونظائرها لأن الفرق كبير بين الإخبار بالفعل والإخبار عن المصدر؛ فقوله سبحانه ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ﴾ المقصود الإخبار بأن الله نزل عليه لأن الفعل لا يَعْرَى عن فاعل فليس الإنزال أو التنزيل هو محط الفائدة وإنما محط الفائدة هو وقوع الفعل من الفاعل، فرق كبير بين نزّل عليك الكتاب وتنزيل الكتاب، وقد كثرت هذه الجملة المؤسسة على تنزيل الكتاب فى مطالع آل حم واشتركت معها الزمر التى كانت وطاء لآل حم بهذا المطلع ﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ وكانت وطاء بترتيب النزول أيضًا لأن الذى نزل بعد الزمر غافر ثم فصلت وتتابعت آل حم.

وتلاحظ أن جملة التنزيل فى الزمر وآل حم لها سمت تختلف فيه وبه عن جملة التنزيل فى بقية الكتاب. هذا السمت هو أن التنزيل فى آل حم من الله العزيز الحكيم ومن الله العزيز العليم ومن الرحمن الرحيم والتنزيل فى الكتاب العزيز يكون من رب العالمين ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٣] ﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [السجدة: ٢] ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الواقعة والحاقة] ﴿تَنزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ [يس: ٥].

وهذه أقرب الصيغ إلى آل حم، وتقارب صيغ آل حم فى هذه الجملة يدخل فى باب تقارب آل حم وأنها عائلة واحدة أو سورة واحدة.

ويلاحظ أيضًا أن مراجع الاختلاف فى جملة التنزيل هو الخبر لأن المسند إليه المقصود بالحكم واحد هو ﴿تَنزِيلَ﴾ وأن الإخبار عن التنزيل برب العالمين غير الإخبار عنه بأنه حكيم حميد يعنى أن ثمة فرقًا ظاهرًا بين قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وقوله سبحانه: ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢] لأن رب العالمين فيه معنى أنه حافظ وراع للعالمين كما هو حافظ وراع لتنزيله كما قال سبحانه ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩] كما أن فيه معنى أن الذى أنزله رب العالمين يُطَالَبُ به هؤلاء العالمون، لأنه مُنَزَّلٌ من ربهم، وهو من حفظ الله لهم، ومن رعاية الله لهم، وأن الله يرعاهم به، ويصونهم به، ويسوسهم به، ويدعوهم إليه به، إلى آخر ما يرشَحُ على التنزيل من الخبر المخبر به عنه، وهذا غير تنزيل من حكيم حميد، لأن الأصل هنا هو بناء التنزيل على الحكمة وأن كل ما فيه حكمة وأنه ليس به شيء أى شيء يخلو من حكمة، وأن الأزمنة قد تواترت عليه وتقلب فيها؛ كما تقلّب فى الأمكنة؛ وتقلّب فى الأمم المختلفة الأطوار، والثقافات، والحضارات، ولم تهتز له كلمة، ولم يُنْقَضْ له خَبَرٌ، ولم ينقض له حكم، لأن كل ذلك مؤسس على الحكمة المطلقة، وليست الحكمة المقيدة بزمان، أو مكان أو بيئة، وكذلك الحميد فيه معنى أن هذا التنزيل محمود كله، محمود أمره، ومحمود نهيه، ومحمود خبره، ومحمود وعيده ووعده، وهكذا، قل فى العزيز العليم والعزيز الحكيم والرحمن الرحيم وأن تنوع الإخبار بهذه الصفات العالية يراد به تنوع صفات التنزيل وقوله سبحانه: ﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ مجىء لفظ الجلالة فى الإخبار عن التنزيل مذكور فى آل حم فى غافر والجاثية والأحقاف، وقبلها فى الزمر، ولم يأت فى الإخبار عن التنزيل إلا فى هذه السور، وإنما يقال تنزيل من حكيم حميد أو تنزيل من رب العالمين، وذكر لفظ الجلالة الدال على الكمالات

المطلقة فيه إشارة إلى معنى فى التنزيل فى هذه السور وقد جاء لفظ الجلالة فى رأس السورة فأشار إلى الكمالات المطلقة التى تأسس عليها كل شيء فى السورة ثم إن لفظ الجلالة هنا موطئ لذكر الآيات بعد هذه الآية لأن الكل مقر بأن الله خالق السموات والأرض وما فيهما من دابة إلى آخره.

وذكر لفظ العزيز بعد لفظ الجلالة المتضمن لكل أسماء الله الحسنى، لإظهار معنى العزيز وعدم الاكتفاء بالدلالة المتضمنة عليه، لأن له فى السورة مقاما يوجب التنويه به، ومثله الحكيم، وإذا كان لفظ الجلالة يفيد تقديس وجلال وتعظيم التنزيل فإن كلمة العزيز تفيد معنى أنه غالب لا يُشَادُّهُ أحدٌ إلا غلبه لأن العزيز هو الغالب الذى لا يغلب، ويفيد أيضًا أنه متفرد لا ينازعه أحدٌ تَفَرُّدَهُ ولا يزاحمه كتاب، ولا يزاحم أمره أمر، ولا يزاحم نهيه نهى، ولا يزاحم عدله عدل، وكل ما فيه من برٍّ ورحمة، ووعد ووعيد هو فى كل ذلك متفرد تفرد العزيز الذى لا ينازعه فى ملكه منازع، ولا يغالب قدرته مغالب، وقل مثل ذلك فى الحكيم، وإضْفَاءُ صفات الذى أنزل جَلَّ سلطانه على ما أنزله مما لا ينكره أحد، فقوله سبحانه ﴿تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ إشارة إلى ما فى الكتاب من الرحمة، وقوله جل شأنه: ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ إشارة إلى ما فى الكتاب من الحكمة، وذهب بعض علمائنا فى قوله تعالى: ﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ إلى أن العزيز الحكيم من أوصاف الكتاب وأصل الكلام تنزيل العزيز الحكيم من الله، وهذا ظاهر، وإنما قال فى غافر العزيز العليم وقال هنا العزيز الحكيم -والله أعلم- لأن العليم فى غافر أكثر ملاءمة مع الذين يجادلون فى آيات الله، وقد جاء عقب ذلك قوله تعالى: ﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلاَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [غافر: ٤] والجدال أقرب إلى العلم، والذى جاء هنا هو ذكر آيات السموات والأرض وفى خلقكم وما يبث من دابة وكل ذلك قائم على حكمة لا منتهى لكبارها ولا لصغارها.

قوله سبحانه: ﴿إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ (٣) وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٤) وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الجاثية: ٣- ٥]، هذه الآيات الثلاث هى بمثابة آية واحدة تتكلم عن آيات الله أى الدلائل الدالة على المعبود بالحق سبحانه، وأنها حولكم، وفيكم، ومحيطة بكم، وقد قسمت المعنى على ثلاث آيات أولها آيات الله فى السموات وفى الأرض، والثانى آيات الله فى خلقكم، وهذا حصر للآيات بعد اتساع ثم آيات حولكم فى اختلاف الليل والنهار، وما أنزل الله من السماء من رزق، والبداية بأعم الآيات وأوسعها ثم الانسحاب من هذا الأفق المُمْتَدُّ والمليء بالآيات إلى داخل النفوس، والتأمل فى خلقها، وما يقتضيه وجودها من وجود الأنعام والدواب، ثم تأمل العوارض الذى يعيش فيها الإنسان من اختلاف الليل والنهار إلى آخره، أقول هذا اللون من الترتيب فى ذكر الآيات له نظائر كثيرة فى الكتاب العزيز تتفق وتختلف وتقترب وتبتعد، وفى وَضْعِهَا بإزاء بعض ومعرفة ما بينها من اتفاق واختلاف، وتقارب وتباعد، كل ذلك وراءه أسرار من أدق أسرار البيان فى الكتاب العزيز. ضع هذه الآيات بإزاء آيات سورة الروم ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا...﴾ [الروم: ٢١] ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ...﴾ [الروم: ٢٢] ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ...﴾ [الروم: ٢٤] وهكذا واجمع نظائر كل ذلك فى الكتاب واجعله بحثا مستقلا فى آيات الله فى الذكر الحكيم وأسرار تنزيلها فى منازلها وابحث ما أْتَلف ومَا تَقَارَبَ ومَا تباعد.

والذى يعنينى هنا هو بناء ذكر هذه الآيات على القطع والاستئناف والتوكيد، بعد ذكر تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم، وأول ما يدل عليه هذا القطع والاستئناف وبناء الكلام على التوكيد هو الإشارة إلى أن هذا المعنى الذى بُنِى على هذا الاستئناف من الأهمية بمكان وهذا ظاهر لأنه كلام فى

أعظم آيات الله فى السموات والأرض، وفى خلقكم إلى آخره وهى الآيات الكونية الدالة دلالة ظاهرة على وجود المعبود بحق، وأن المخاطبين بذلك من غير المؤمنين يقرون بأنه سبحانه هو الذى خلقهم وخلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء إلى آخره، فالآيات مؤسَّسَة على إقرارهم بما فيها، وإنما أقروا بأنه الخالق وأنكروا أنه أنزل الكتاب، وأرسل رسوله بالهدى، والدلالة الثانية لهذا القطع هو الإشارة الظاهرة إلى الصلة بين تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم وهذه الآيات، وذلك لأن خالق السموات والأرض وما بينهما لا يجوز فى العقل أن يَتْرَكَ خلقه هَمَلاً من غير كتاب يهديهم إلى العدل والبر والرحمة. وأن يقوم الكتاب بينهم بالقسط، وأن يكون وراء ذلك بَعْث وحساب، وجَنَّةٌ ونارٌ. وأن يكون الكتاب الذى أُنزِل هو الذى يُوضع بينهم فى يوم الحساب ليقوم حسابهم وثوابهم وعقابهم على ما فى هذا الكتاب مما كلفهم الله به، وقد أشار القرآن فى آيات كثيرة إلى أن خلق الخلق وتركهم من غير شَرْع لَعِبٌ وَعبَثٌ والله منزه عن ذلك ﴿**وَمَا خَلَقْنَا السَّماءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ**﴾ [الأنبياء: ١٦].

والدلالة الثالثة فى هذا الاقتران الذى قرن بين تنزيل الكتاب وآيات الله فى السموات وفى الأرض هى الإشارة إلى أن هذا التنزيل فى إعجازه وخروجه عن طوق البشر كخلق السموات والأرض وخلقكم وما يبث من دابة وكاختلاف الليل والنهار وما أنزل الله من رزق، وعجزكم عن خلق السموات والأرض هو ذاته عجزكم عن أن تأتوا بمثله، وإذا كنتم مقرين بأنه خلقكم، وخلق السموات والأرض، فمقتضى العقل أن تقروا أنه الذى أنزل الكتاب، لأنه لا فرق فى الإعجاز بينهما، فآيات الله فى السموات والأرض آيات مشاهدة، وآيات الله فى الكتاب العزيز آيات مقروءة، فالكون كتاب صامت، والذى أنزله الله كون ناطق، وقد لوحظ اقتران التنزيل بذكر آيات الله فى

الكون فى مواضع كثيرة من الكتاب العزيز كما فى قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ① الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [الفرقان: ١ : ٢]. اقتران نزول الفرقان على عبده لينذر به العالمين بملك السموات والأرض يشير إلى أنهما من باب واحد، فى العجز عنهما، فالعجز عن مجيء سورة من مثله كالعجز عن ملك السموات والأرض، ويشير أيضًا إلى أن حكمة مالك السموات والأرض توجب أن يُنْزِلَ الفرقان على عبده.

وكلمة الفرقان هنا لها دلالة لأنها تفرق بين العدل والظلم، والبرّ والفُجور، وأن هذه الناس إذا لم تؤخذ بكتاب يقوم بينها بالقسط وإذا لم تحاسب على ما يكون منها فى هذه الدنيا أكل فيها القوى الضعيف، وصارت حياتهم جحيمًا لا يطاق، والله أكرم بخلقه من أن يتركهم فى غابة فاجرة، يأكل فيها أقوياؤهم ضعفاءَهم.

وأول ما يلاحظ فى بناء الآية الأولى هو تقديم خبر إنَّ على اسمها وزيادة التأكيد بلام الابتداء، وتقديم السموات على الأرض، وجمع السموات، وإفراد الأرض، أما تقديم الخبر على الاسم، فإن الأهم فى الدلالة على الآيات أن تعرف موضعها، لأنك إذا عرفت موضع الآية، ووقعت عليها فى موضعها فقد تَمَّ المراد، وحاجتك فى الوقوع على الآية أشدُّ من حاجتك إلى أن تعرف أنها آية، لأن معرفة أنها آية ليس فى حاجة إلى شرح لشدة ظهور أنها آية، فرؤية الشمس تجرى لمستقر لها، ورؤية القمر الذى قدره الله منازل، ورؤية السماء مُزَيَّنة بنجوم كأنها المصابيح، كل ذلك تكفى رؤيته عن القول بأنَّه آية؛ لأنه ليس فينا من يحتاج إلى أن نقول له هذه الشمس آية، وكل ما لا يدخل فى طوق البشر فهو آية، وكل من يرى الشمس يرى أنها لا تدخل فى طوق البشر، وهذا وجه تقديم الخبر فى الآية، وقد جرى الأمر على ذلك فى الآيات الثلاث، بُنِيَت كلها على تقديم الخبر، لهذا المعنى، وتقديم السموات على الأرض؛ لأن آيات الأرض وإن كانت آياتٍ عظامًا فإن آيات السموات

أعظم، لأنها مع دلالتها على كمال القدرة فيها دلالة على كمال الجلال والتعظيم والتقديس، ترى الملائكة فيها حافين من حول العرش، وترى حَمَلة العرش يُسبّحون بحمد ربهم، ولا ترى فيها موضعًا إلا وفيه ملك ساجد، ﴿تَكَادُ السَّموَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ وَالْمَلائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الأَرْضِ﴾ [الشورى: ٥] وأما جمع السموات وإفراد الأرض فإن الحق سبحانه لما أخبرنا أنه خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن لم يحدثنا عن شيء في هذا المثل، كما حدثنا عن السموات ولا نعرف من آيات الله في السبع اللاتي هن مثل السموات إلا ما في هذه الأرض التي نعيش عليها، ونرى آيات الله في كل موضع منها، نرى فيها سُبُلَها، ونرى أوْتَادَهَا ونرى بَرَّها وبَحْرها، ونرى أقواتها، وهذا وجه جمع السموات وإفراد الأرض، والله أعلم بمراده، ولفظ الآية يفيد أن الآيات في السموات والأرض وليس في خلق السموات والأرض، وقد ذكرت آيات كثيرة خلق السموات والأرض كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٠].

وقد حمل بعضهم الآية على هذا وقالوا المراد إن في خلق السموات والأرض لآيات وهذا يعني أن النص على الآيات، وأنها في الخلق، وحمل بعضهم الآية على ظاهرها، وأن الآيات في السموات والأرض، وعلينا أن ننظر في السموات والأرض لنَسْتَخرِج هذه الآيات، يعني المطلوب التَّدَبر والتذكر، والمراجعة، وإجَالَة الخواطر في السموات والأرض، ويَستَحْسن أبو حيان هذا، ويراه من إثارة الفكر، وأن المطلوب أن تبحث أنت عن الآيات، وهذا بخلاف وضع الآية بين يديك، وأنها الخلق وأستحسن ما استحسنه أبو حيان، وتكون الآيات التي ذكرت الخلق وضعت بين أيدينا أعظم آية، وهي آية الخلق، وعلينا أن نتدبَّر وأن تكون الآيات التي لم تَذْكُر الخَلْقَ

طَالَبَتْنا بأن نَجُولَ بعقولنا وبصائرنا وأبصارنا فى السموات والأرض باحثين بأنفسنا عن آيات الله، وهذا من التدبر والتذكر والتعقّل الذى ندبَنا الله إليه، وقوله سبحانه ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ المراد والله أعلم الذين يصيرون إلى الإيمان، لأن آيات الله فى السموات والأرض يَهْتَدى بهَا غَيْر المؤمن، حتى يصير مؤمنًا، ويدخل بها فى أهل الإيمان، فهى آيات عَامَّة يزداد بها المؤمن إيمانًا، ويهتدى بها غير المؤمن حتى يكون مؤمنًا، وكلمة ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ تشبه كلمة ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾ فى قوله تعالى فى أول البقرة ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ فليس المعنى أن الكتاب هداية لأهل التقوى فحسب، وإنَّما هو هداية لعباد الله الذين دعاهم ربهم إليه، ولاحظ أن الكتاب هُدًى والآيات هُدًى؛ يعنى أن الكتاب منزل منزلة الآيات التى فى خلق السموات والأرض، والمراد كما قال أهل العلم هدى للصائرين إلى التقوى، والتعبير بالمؤمنين هنا عن الناس كافّة ومثله التعبير بالمتقين فى البقرة عن الناس كافة، فيه إشارة جيدة جداً، وهى أن الأصل فى الناس الذين برئَتْ قلوبهم من أمراض القلوب أن يؤمنوا إذا رأوا الآيات، وإن يَهْتَدوا إذا رأوا آيات الهداية، ولا ينصرف عن الإيمان بعد رؤية برهانه إلا من كان شاذاً فى عداد الناس، ولا ينصرف عن الهدى بعد رؤية برهانه إلا من كان خارجًا عن فطرة الناس، وفى هذا شيء من معنى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ﴾ [البقرة: ١٣]. أى الناس الذين هم جديرون بأن يُسَمَّو ناسًا وهم الذين يسلمون بالحق إذا تَبَين ويذعنون للدليل ويَنْقَادُون للبرهان، لأن كل هذا هو الأصل فى الإنسان العاقل الراشد، وتحصيل أصل الإيمان يكفى فيه النظر إلى السماء ذات الأبراج، والأرض ذات الفجاج، وبمقدار جلال الآيات يكون جلال الذى تدل عليه الآيات، وقوله جل شأنه: ﴿وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [الجاثية: ٤].

هذه الواو تعطف هذه الآية على التى قبلها، وهذا العطف من عطف الخاص على العام؛ لأن خلقنا وخلق ما بث فيها من دابّةٍ داخل فى آيات السموات والأرض، وهو قليل جداً من كثير جداً، وكذلك الآية الثالثة، والآيات الثلاثة بدأت بالأشمل ثم ثَنَّت بالأخص الأدق الذى هو النظر فى خلق ذوات الأرواح ثم ثلَّثتْ بالأخص الأظهر وهو المحيط بالإنسان وما يشتمله من ليل ونهار، وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض إلى آخره، وهذا الذى قلتُه لم يبلغ كُنه هذا الترتيب العجيب، ويظهر ذلك إذا قارنتها بنظائرها كآية البقرة ﴿**إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ**﴾ [البقرة: ١٦٤]، وهذا من أخفى وأدق دراسة أسرار البيان القرآنى.

والآيات هنا محصورة جداً؛ لأنها تجاوزت كل ما فى السموات وما فى والأرض، وصارت محصورة فى خلق الإنسان، والحيوان، وكلما كان مجال التدبر أكثر حصراً كان التدبر فيه أكثر عمقًا، وليس التدبر فى الروح لأن الروح من أمر ربى وليس لنا فيها شىء وإنما فى الخلق وأطواره وفى الأعضاء ووظائفها فى الإنسان والحيوان، وهذه الآية قريبة جداً من أول النساء، ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً**﴾ [النساء: ١] وكلمة ﴿**بَثَّ**﴾ فى النساء و﴿**يَبُثُّ**﴾ فى الجاثية وصلة واصلة بين الآيتين وقد ذكرت فى الجاثية المكية من حيث هى آية، دالة على المعبود بحق وذكرت فى النساء المدنية، من حيث هى حَاثَّة على تقوى ربنا الذى خلق الوجود الإنسانى على هذا الوجه العجيب؛ نفس واحدة، خلق منها زوجها، بث منهما رجالا كثيراً ونساءً، ثم كان هذا مقدّمَة لتساءلون به، والأرحام، ثم ما يتعلق بهذه الأرحام، من ميراث وغيره، وهكذا عدّلت النساء صورة المعنى وهيأته لسياقها، قلت إن حصر موضوع الآية الذى هو موضوع النظر يُعين على مزيد من التعمق، والتغلغل، والتدقيق، فتنكشف الأدلِة

الأكثر دقة، والأدق في الحكمة والأول على العلم الذى نعلم منه ما نعلم، ونجهل منه ما نجهل، وكل هذا يُفضى إلى ما هو أبعد من مجرد الإيمان وهو اليقين ولهذا جاءت الفاصلة ﴿لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: ١١٨] وكلمة «قوم» تشير إلى تميزهم بهذا النظر المتخصص، فى تلك الدقائق، وأنهم جماعة لها قوام مشترك، وماهية متقاربة، ولهم عمل جامع يقومون عليه وبه قوامهم، وكلمة ﴿يُوقِنُونَ﴾ بصيغة المضارع التى خَالَفَتْ بها الفاصلة قبلها تشير إلى أنهم يُجدِّدُونَ هذا اليقين بالنظر المتجدد والنتائج المتجددة، هم أهل اليقين، وأهل نظر يَتَجددُ به هذا اليقين، وارتباط الفاصلتين بطبيعة النظر الذى تدل عليه الآيتين يمنعنا من أن نقارن بينهما بمعزل عن الآيتين، كما فعل بعض المفسرين الذين ذكروا أن الترتيب فى الآيات الثلاث بدأ بالإيمان ثم اليقين، ثم التعقل، وهو أعلاها وذكر بعضهم خلاف ذلك، وذلك بالنظر إلى الناظر. فإن كان باحثًا عن الإيمان دلَّته آيات السموات والأرض، وإذا لم يكن طالبًا للإيمان، وإنما هو باحث عن المعرفة؛ هداه النظر فى الخلق، وما يبث من دابة إلى اليقين فى المعرفة؛ وإذا لم يكن من أهل الإيمان ولا من طلاب العلم فعلى الأقل يكون من العقلاء وينظر فى اختلاف الليل والنهار إلى آخره، وكل هذا مما يحتمله اللفظ وإن كان ربط الفاصلة بالآية قبلها يجعل الأمر أكثر وضوحًا.

بقى شيء فى فاصلة الآيتين الأولى والثانية، هو أن الفاصلة الأولى عبَّر فيها عن المعنى بصيغة الاسم «للمؤمنين» الدالة على الثبوت للإشارة إلى أن صَيْرورتهم إلى الإيمان وَصْف ثابت فيهم، وأن شأنهم أنهم إذا ظهر لهم الحق انقادوا، وإذا استقامت لهم الآيات آمنوا، وأنهم إذا استقامت لهم المقدمات سلموا بالنتائج من غير مكابرة، ولا منازعة، وهذا شأنُهم فى العقائد، وغير العقائد، لا يَدْفَعون دليلا ظاهرًا؛ ولا يَرُوغون من برهان قاطع، وهم الذين تَعْمرُ بهم الأرض، ويستقيم بهم ومعهم الأمر، وجاءت العبارة فى الفاصلة الثانية بقوله سبحانه ﴿يُوقِنُونَ﴾ من غير ذكر للذى يوقنون به ليتوفر الكلام

على إثبات الفِعْل للفاعل، وأنه يكون منهم الإيقان، وأن هذا شأنهم فى كل باب من الأبواب التى يطلب فيها اليقين؛ كما تقول هو يُعْطى ويَمنع، أى يكون منه ذلك مع صَرْفِ النظر عن الذى يعطيه أو الذى يَمْنَعُه.

قوله سبحانه: ﴿وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الجاثية: ٥].

هذه الآية معطوفة على التى قبلها، وهى قليل من كثير من الآية الأم ﴿إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ وتكاد تكون من تمام آية ﴿وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ﴾ ولابد أن نلاحظ أولا أن ذكر بَثِّ الدَّابَّة مع خلق الإنسان من باب ذكر الشىء مع الشىء لا يكون إلا به؛ لأن الإنسان لا يمكن أن يعيش على هذا الكوكب من غير الأنعام، والدواب، لأنه له فيها دِفْئًا ومنافع ﴿لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ ولأنه يحمل عليها أثقاله ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ ولأنه يأكل لحمها ويشرب من ألبانها ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ﴾ [النحل: ٦٦].

قلت هذا لأبين كيف كانت الآية الثالثة من تمام معنى الأولى، وذلك لأن اختلاف الليل والنهار لو ذهبت تبحث عن مناسبته لما ذكر معه فى الآية، وهو إنزال الرزق من السماء، وحياة الأرض بعد موتها، وتصريف الرياح لوجدت العلاقة غامضة، وإنما تظهر المناسبة حين تستخرج من اختلاف الليل والنهار معنى أن الله سبحانه جعل الليل سكنًا ليخلد فيه الإنسان إلى الراحة، وجعل النهار معاشًا لِيَسعى فيها ويأكل من رزقها، وبهذا المعنى تجد المناسبة ظاهرة مع نزول الرزق من السماء، وإحياء الأرض، وتصريف الرياح؛ لأن كل ذلك من صور طلب الرزق، ومن متطلبات السعى في الأرض لأن السعى فيها ما كان أن يكون لولا نزول الماء، وإحياء الأرض، وتصريف

الرياح، وهذا ظاهر، ولو رجعت بعد هذا البيـان إلى صلتها بخلق الإنسان، لوجدتها من تمامـها، لأن الخلق ليس مقصودًا لذاته وإنما هو مقـصود لعمارة الأرض، وخـلافة الله فـيهـا ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]، ونحن مأمورون بابتغاء الرزق وابتغاء فضل الله ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الجمعـة: ١٠]. وما أعظم أن تجد ابتغاء الرزق مقـترنًا بذكر الله، وأن هذين فيهما الفـلاح لأنه يعنى طلب الرزق بأمانة وصدق وطهارة نفس؛ ليس بالغش ولا بالتزوير ولا بالسرقة ولا بالخيانة.

شيء آخر تراه فى هـذه الآية الثالثة، هو أن خلق الإنسـان وبث الدابة فى الأرض من آيات هذه الأرض، ونزول الرزق وتصريف الرياح من الآيات التى بين السماء والأرض ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات: ٢٢].

ثم إن اختـلاف الليل والنهار الذى بُنيت عليـه هذه الآية كائن من حـركة الأفلاك وصلة الـكواكب بعضهـا ببعض، بما فى ذلـك كوكب الأرض، وإذا كانت الآيـة الثانية، تـعود إلى آية من آيات الأرض، فـإن الآية الثالثـة يعود أكثرها إلى آية السموات، ويعود بعضها إلى ما بين السموات والأرض، ويعود بعضها إلى الأرض خاصة، وهو الإحـياء ، وشيء آخر فى آية اختلاف الليل والنهار وهو أنها ملازمة لنا من يوم أن نولد إلى يوم أن نموت، لا تمرُّ بنا لحظة واحـدة إلا ونـحن فى هذه الآية؛ لأنـنا إمـا أن نكـون فى ليـلٍ أو فـى نـهار، ولا ثالث لهمـا، ولا يُغْفِل هذا ويبعـده عن تَدَبُّره لِيَهْنأ له الإلحـاد إلا غبىّ جاهل، ثم هو كاذب حين يدعى التنوير، والعـقلانية، وغير ذلك مما تقرؤه وتسمعه، وهذا أيضًا ظاهر.

وراجع فقط: اختلاف الليل والنهار...، ويكور الليل على النهار ويكور النهـار على اللـيل... ويولج الليل فى النهـار ويولج الـنهـار فى الليل...

ويغشى الليل النهار يطلبه حثيثًا... وراجع مع هذا ما يقوله المنكرون، وأنهم لا يقرؤون فى الكَوْن ما يدل على الواحد، الأحد، وراجع أيضًا ما يُوصفون به من أنهم من كبار المثقفين والتنويريين والحداثيين ودعاة النهضية، وأن الأنظمة الغبية تَمْنحهم جوائز من بيت مال المسلمين، واجعل كل ذلك رصيدا فى نفسك تعرف به طبيعة المرحلة التى تعيشها، ثم امض على طريق الحق غير مُلتَفِتٍ إلى هؤلاء الكذابين، وإن كانوا على عروش الثقافة الكذوبة؛ فى الزمن الكذوب، وسلطان كذوب، ونظام كذوب.

قلت إن الآية الثالثة من تمام الآية الثانية لأنها قائمة على سعى الإنسان فى ابتغاء الرزق، وأن هذا من تمام المطلوب من خلق الإنسان الذى بُنيت عليه الآية الثانية، ويرجح هذا قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ﴾ [الجاثية: ٥]، فسمى الماء رزقًا، لأنه سببه، وليس هذا هو المراد، وإنما المراد السياق الذى اقتضى أن يسمى الماء رزقًا، وهو ما قُلته، ولما كان ذلك غير مراد فى سورة البقرة قال سبحانه: ﴿وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ﴾ [البقرة: ١٦٤] والمفسرون يجمعون بين آيات الجاثية وآية البقرة ويوازنون بين الآيتين.

وكلمة ﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ كلمة عظيمة الموقع هنا لأنها وإن كانت مفهومة من قوله ﴿فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ﴾ فإنها ذات مغزى فى دلالة المطالع على المقاصد لأن من أهم مقاصد السورة إبطال قولهم ﴿مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤] وكانوا مُتَشَدِّدين فى إنكار البعث، ويقولون ﴿قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الجاثية: ٢٥] وكلمة ﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ﴾ ذات موقع جليل أيضًا لأنها تمهيد لآية ﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ﴾ [الجاثية: ١٢].

والظاهر فى آيات الله التى يلفت إليها عباده أنها طبقات أظهرها وأولها طبقة يدركها كل من له عقل، أعنى كل مكلف، لأن العقل هو مناط

التكليف، وتليها طبقة لمن لهم وعندهم قدر من العلم بأحوال هذه الآيات، ثم ترتقى الطبقات حتى تدخل باب التخصص العلمى الدقيق الذى تعكف عليه جماعات العلماء والباحثين ، كهذه الآيات التى معنا فكل من له عقل يدرك أن اختلاف الليل والنهار ونزول الرزق من السماء وحياة الأرض به وتصريف الرياح كل ذلك دال على المعبود بحق، لأنه يستحيل فى العقل وفى العادة أن توجد هذه الأشياء من غير مُوجد حَىّ قادرٍ واحدٍ أحد ثم تبدأ طبقات المعرفة وكيف كان اختلاف الليل والنهار؟ وما هى أسبابه؟ وكيف يحدث وما يلزم من ذلك من معرفة الأفلاك، والكواكب، وحركة الأفلاك وقياس كل ذلك، ورصده وكذلك يقال فى المطر، وكيف تحيا الأرض بعد موتها وأحوال التربة وأحوال الزرع، وقانون تصريف الرياح، وهكذا يعلو العلم بهذه الأشياء طبقة بعد طبقة ومَرْقًى بعد مرقًى حتى يدخل فى أدق أحوالها وأغمضها وأخفاها مما ينقطع له العلماء والباحثون.

ثم إن المتخصصين فى هذه الدقائق والمُنْقطعين لها إنما يُنْفِذون أمر الله الذى أمرنا بالنظر فى هذه الآيات لتحصيل أصل الإيمان، وأن السير على هذا الدرب من البحث والنظر هو سير على الدرب الواصل لحقيقة الإيمان، وكلما أوغل الواغلون فى ذلك تكون مرتبتهم في الإيمان، وقد أشار فى سورة فاطر إلى أن هؤلاء هم الذين يخشون الله الخشية التى لا تتوفر لغيرهم؛ لأنهم يقفون على دقائق حكمته أوعلى شيء من دقائق حكمته، وبالغ علمه وجليل صُنعه وذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ وقد تقدمت آيات كهذه وذلك قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ (٢٧) وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر ٢٨].

قلت هذا لأن فاصلة الآية فيها شيء لفتنى إليه، وذلك قوله سبحانه ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ والدلالة اللغوية الظاهرة لهذا التركيب هى أنهم جماعة قوامهم النظر

والتَّعقّل والتدبر، وكلمة ﴿قَوْمٍ﴾ تعنى ما يشبه الماهـية وما به يكون القوام، فماهيتهم وما به قوامهم، النظر والتدبر والتعقل. ثم إن كلمة ﴿يَعْقِلُونَ﴾ تفيد صيغتها أن هذا عملهم الدائب المتجدد، وأنهم يستأنفون نظرا بعد نظر، وتفكرًا بعد تفكر، وتعقلا بعـد تعقل، وهذا يقترب جداً من كتـائب العلماء الباحثين المنقطعين فى مراكز الأبحاث العلمية، كل فى تخصصه هذا فى التربة وهذا فى الفلك إلى آخـره، وسنـبين أن هذه الفـاصلة تكثـر فى هذا الـلون من مظاهر الطبيعة، وشىء آخر فى الـفاصلة وهو أهم مما قلت، وهو أن فعل يعقلون من الأفعال المتعدية، ونُزِّل هنا منزلة الـلازم، لأن المقصود ليس نوع ما يُعْقل وإنما المقصود أنه يـكون منهم التَّعَقل، والنظر المفضى إلى مـعرفة الصواب ومـعرفة الخطأ، وأن هذا الـناظر فى هذه الآيات أو هذا الواحـــد من تلك الكوكـــبة المنقطعة للنظر والبحث الشرط الأساسى فيه أن يكون من شأنه أن يعقل، مع صرف النظر عن المعقول مـا هو؟ لأن الذى يتوفر فيه شرط التَّـعَقّل تراه صالحًا لأن يعقـل ما هو بصـدده، ثم مادام صالحًـا لأن يعقل أسـرار اختـلاف الليل والنهار، فهـو صالح لأن يعقل الفقـه والتفسير واللـغة؛ لأن الشرط الذى هو التعقل مادام توفر فقد تهيأ به صاحبه لأن يكون من العلماء، هذا والله أعلم.

وهذه الفاصلة بدلالتها اللغوية المنبهة واللافتة تكثر فى الآيات التى تتضمن عناصر من النظر والدراسـة، لا تحتاج حيـاة الناس إلى دراسة وتطوير شىء، كما تحتاج لدراستها وتطويرها لاتصالها الوثيق بحياة الناس ومعاشهم، وقريب من هذه الآية قوله تعالى فى سورة الرعد ﴿وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد: ٤].

تأمل التربة المتجـاورة، والزرع والنـخيـل، الـذى هـو فى تـربـة واحـدة أو متجـاورة، ويُسْقى بماء واحد، ثم يَفْضُل بعض النـوع بعضَه فى الأُكل،

ومـا وراء ذلك من سـلالات، وحـاول أن تُحـدِّد أنواع التـخـصص العلمى الدقـيق، الذى تضـمنته هـذه الآيات، وأن كل فرع من هذه الـفروع له قـوم يعقـلون، يعنى كَتِيبَةَ وقِسْمًـا وجمـاعة تقوم علـى بحثه وتطويـره وتجويده وتحسينه، هل تراني أضَفْت إلى الآيات شيئًا من خارجها؟

وقد جاءت هذه الفاصلة ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ فى آيات تسخير الليل والنهار، والشمس والقمر والنجـوم، وذلك فى قوله تعالى فى سورة النحل ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [النحل: ١٢]، كما جاءت فاصلة ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فى الآيات التى تكثر فيـها فاصلة ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ وذلك قوله تعـالى فى سورة النحل ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُـونَ وَالنَّخِـيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّـمَـرَاتِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَـوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ وتنوع الفواصل فى آيات متقاربة العناصر بَاب من البحث الجليل، ووراءه كثير من أسرار البيان لا تزال مخبوءة، ولا ينهض به مُبْتدئ.

وقد ذكـر علماؤنا أن الكتاب العـزيز جمع هذه الآيات فى سورة البـقرة، وزاد عليها. وسورة البقرة نزلت بعد الجاثية، لأنها مدنية والجاثية مكية، وهذه الآية هى قولـه تعالى ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَـوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤].

وقـد جاءت هذه الآية فى سيـاق الدلالة على أن إلهكم إله واحـد وأنه سبحـانه رحمن رحيم، وقد سبـقت بقوله تعالى ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣] ودليل الوحدانية هو الخلق ودليل الرحمة النعم التى فى الآية.

ويلاحظ أنها أضافت على آيات الجاثية آية الفلك، وآية السحاب، والجاثية لم تذكر الفلك، لأنها أفردت له آية بعد ذلك ﴿ **اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** ﴾ [الجاثية: ١٢] والبقرة لم يرد فيها الفلك إلا فى هذه الآية، والجاثية لم تذكر السحاب المسخر بين السماء والأرض اكتفاء بتصريف الرياح، وأشارت إلى السحاب ضمنًا فى قوله تعالى: ﴿ **وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ** ﴾ [الجاثية: ١٣]، والتأكيد بكلمة جميعًا يعنى استقصاء كل ما فى السموات والأرض، والسحاب داخل فى ذلك، والجاثية وَزَّعَت هذه الآيات على فواصل ثلاث، والفاصلة تعنى الوقوف والتأمل والمراجعة، وهذا أقرب إلى تأسيس أصل الإيمان، وهو مقصود الجاثية بدليل قوله تعالى بعد هذه الآيات ﴿ **تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ** ﴾ [الجاثية: ٦] ثم إن الفاصلتين اللتين لم يذكرا فى البقرة: هما (المؤمنين، يوقنون) وهما فاصلتان معبرتان عن الإيمان واليقين، وهذا مقصود الآيات الثلاث، وذكرت البقرة وبث فيها من كل دابة، ولم تذكر خلقكم؛ لأن خلق الناس كانت البقرة ذكرته قبل هذه الآية فى قوله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ** ﴾ [البقرة: ٢٧] وقدمت البقرة اختلاف الليل والنهار على البث كما قدمت عليه أيضًا نزول الماء وإحياء الأرض وهذا هو الأصل لأن إعداد الأرض واختلاف الليل والنهار ونزول الماء وإحياء الأرض كل ذلك ضرورى لبث كل دابة إذ لا يتصور وجود الدواب والأنعام إلا فى أرض أحياها الماء؛ واختلف فيها الليل والنهار، وإنما تقدم البث فى الجاثية وجاء بصيغة المضارع الدالة على التجدد والحدوث لاقترانه بخلق الناس، فى الآية الثانية وتقدم على اختلاف الليل والنهار؛ لأن سياق الجاثية سياق الحض على الإيمان وخلق الأحياء من الناس أقوى فى دفع هذه الناس إلى الإيمان بخالقها، وذكر البث مع خلق الناس لأنه من حاجات الناس، ولا يُتَصَوَّر

وجود الناس من غير هذه الأنعام والدواب كما بينا وكما أشار القرآن إلى ذلك في آيات كثيرة كما في قوله تعالى في سورة الفرقان ﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا (٤٨) لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا﴾ [الفرقان: ٤٨، ٤٩]، وتأمل الترتيب الرياح تحمل السحاب، والماء الطهور، وتحيا الأرض، وتعيش به الأنعام، ثم يأتي الناس بعد كل هذا الإعداد، وهذه المفردات واختلاف مواقعها وسياقها في الذكر الحكيم مما يجب أن يُفْرَدَ بالبحث لأن له أسرارًا لا تزال مستورة، هذا والله أعلم.

قوله سبحانه: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ [الجاثية: ٦]، هذه الآية في سَبْكها ورَصْفها ومَعْناها، ولفظها، دالة على الله دلالة آيات السموات والأرض وخلقكم وما بث من دابة، وهي جامعة للآيات الثلاث وهي في الدلالة على ما دلت عليه الآيات الثلاث على قدم واحدة، ومن المفيد أن نلاحظ أن فريقًا من ذوي البصائر من علمائنا عدوا الآيات من أول قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الجاثية: ٣] وما بعدها بيانًا لقوله ﴿الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ الذي افتتحت به السورة؛ وهذا يعني أن اسم الإشارة في قوله سبحانه ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ﴾ عائد ليس إلى الآيات الثلاث، وإنما عائد إليها وإلى ما هي بيان له، واسم الإشارة يُحْضر كُلَّ الذي مَضى ويضعه تحت عين القارئ ويصيره كأنه محسوس تراه العين؛ لأن هذا هو أصل الإشارة، واسم الإشارة الذي جمع كل ما تقدم من السورة ودل عليه هو التاء التي في تلك، لأن اللام للبعد والبعد بُعْدُ مكانة وليس بعد مكان، والكاف للخطاب، وتأمل قدرة اللغة على الإبانة، ثم إن إضافة الآيات إلى لفظ الجلالة يكسب هذه الآيات من الكمال والجلال والتعظيم والتقديس ما لا يقادر قدره، وما لا يقادر قدره هنا هو ما سيق

الكلام له أى الآية الدالة والتى هى البُرْهان الأنْوَر الهادى إلى الواحد الأحد، وهذا شأن الإضافة إلى الاسم الأعظم، فإذا قلت هذا حَدُّ الله اكتسب هذا الحدُّ من الجلال والكمال ما لا يقادر قدره من حيث هو حَدٌّ يجب الوقوف عنده، وإذا قلت عبد الله اكتسب هذا العبد من الجلال والتكريم ما لا يقادر قدره من حيث قربه من الله وأنه عبده لا عبد غيره وهكذا، وكلمة ﴿**نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ**﴾ كلمة من أدق الكلمات وأوفاها بمعنى جليل، وذلك لأن هذه جملة حالية من تمام معنى الجملة الأولى ومُلْحَقَة بها ومجيئها من غير واو للدلالة على قوة الإلحاق، ثم ترى تلاوة الآيات مسندًا إلى ضمير العظمة، وناهيك عن آيات الله يتلوها علينا الله بذاته وجلاله وقدره وكماله لأننا المقصودون بكل ما قصد به نبينا صلوات الله وسلامه عليه. والذى أردته لمَّا قلت إن هذه الجملة الحالية من أدق الكلمات وأوفاها، هو أن الآيات المحسوسة التى مضت فى السموات والأرض وخلقكم إلى آخره لما تلاها ربنا علينا سمى ما تلاه آيات وهذا يعنى أن تلاوتها يعنى الإخبار عنها، واللَّفت إليها هو نفسه آية، وأن هذا المتلو كهذه السموات والأرض، وما ذكر بعدها من حيث الدلالة على الواحد الأحد، ومرة ثانية الآيات الحسية تحولت إلى تلاوة وهى آيات فى التلاوة تسمعها الآذان، كما كانت آيات فى الأرض والسماء تراها العيون، وهذا المعنى الذى أحاول إخراجه من ضمير الكلمات ستفصح عنه الجملة اللاحقة بقوله تعالى: ﴿**فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ**﴾ وكلمة ﴿**بِالْحَقِّ**﴾ متعلقة بـ ﴿**نَتْلُوهَا عَلَيْكَ**﴾ أى نتلوها تلاوة مُلْتَبِسَة بالحق، وهنا سؤال لا يجوز إغفاله وهو هل يتصور أن يتلو ربنا على نبينا تلاوة غير ملتبسة بالحق حتى يؤتى بهذا القيد لإبعاد هذا الاحتمال؟ الجواب أن ذلك أبعد من المستحيل؛ لأن الله هو الحق، ونقيض الحق هو الباطل والله سبحانه وتعالى تَقَدَّس وتنزه عن كل ما هو دون الكمالات المطلقة؛ إذن فما قيمة هذا القيد؟ والذى عندى فى هذا أن الله سبحانه يعلمنا

أن يكون علمنا ملتبسًا بالحق وأن نلتزم بالحق؛ ويقول لنا فى هذا الخطاب وهو الخالق المالك الذى لا يسأل عما يَفْعل أنه يتلو علينا الآيات بالحق، وأنه ملابس للحق، فيما يَفْعل ويَدَعُ وهذا هو طريق عباده الساعين إليه، ثم إن كلمة التلاوة تعنى ما يُقرأ ويُكتب ويُلامس العقول والنفوس، ويُحْدث فيها أثرًا تعنى عالم المعرفة وعالم غذاء الأرواح، وأنها لابد أن تَلْتَبِس بالحق، وأن تلتزم به، وأن المالك لنواصى النفوس وهو المعبود بالحق يخاطب أحب خلقه إليه، وهو صاحب المقام المحمود ويقول له أتلو عليك آياتى بالحق، وليكن هذا طريق العلم وطريق الثقافة وطريق كل ما يصل إلى قلوب الناس؛ لأن الثقافة أو المعرفة الملتبسة بالباطل تفسد الناس وتفسد حياة الناس، ويقول لنا ربنا: احذروا المعرفة الملوَّثة بالباطل، ويقول: وصلاح أعمالكم منوط بأن تقولوا قولا سديدًا كما قال سبحانه فى سورة الأحزاب ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾ [الأحزاب: ٧٠]، قلت هذا ما عندى وأرجو أن يكون الذى عندك أفضل بشرط أن يكون بالحق.

وجملة ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ لا بُدَّ لنَا أن ندير الكلام فى أنفسنا وأن نُقَلِّبَه بألسنتا، وأفئدتنا، لندرك شيئًا من كنه بلاغته، لأن الذى أقوله فى التحليل ويقوله غيرى ممن سبقونا لايغنى عن هذه التجربة الفردية شيئًا، لأنها لا بد أن تكون سابقة للنظر والتحليل، قلت هذا لأن هذه الجملة راجحة جداً ولا أستطيع أن أنقل إليك رجحانها عندى؛ وإنما أحدثك عن ما يبدو لى، وليس عن الذى رجحت به فى نفسى، وأول ما يبدو منها هذه الفاء التى تفيد ترتيب مضمونها على ترتيب مضمون الجملة المعطوفة عليها، وهى ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ﴾ ومضمون الجملة المعطوفة هو ما انعقد على هذا الاستفهام الإنكارى وهو نفى أن يكون هناك ما يؤمن عليه الناس بعد حديث الله وآياته، وهذا المعنى يَرْشحُ على الجملة المعطوف عليها، وتصير به ذات دلالة زائدة بعد هذا العطف، وهو أن الآيات التى يتلوها الله

عليك بالحق آيات لا يَهْـتَدى الناس بآيات أنور منهـا، وأظهر منـها، وأن من فاته الاهتداء بها فلن يجد غيرها يهتدى به، قلت هذا معنى فى الجملة الأولى ليس فى كلماتها ولا تراكيبـها وإنما اكتسبته من عطف الثانية عليـها، وترتيبها عليها، والجـار والمجرور فى قوله ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ﴾ مقدم على متعلقه وهو ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ وذلك لأن الكلام معقود على الآيات، وهى الأصل فى الذي سـيق الكلام له وهذا ظاهر، والخـفى هو ذكر الحـديث لأن الآيات صارت حديثًا، أعنى الإخبار عنها واللفت إليها، وتقديمه على الآيات نفسها، يَعْنى أن هذا المتـلوَّ الذى هو حـديث أدْخَل فى الغـرض الذى هو الهـداية، وأنور فى الدلالة على الله من الآيات المذكورة فى أول السورة ولو كان الكلام فى آيات السموات والأرض ومـا بعدها بمعزل عن الحديث عنـها لما كان هناك ما يدعو إلى قوله ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ﴾ ولكان الكلام فبأيِ آيات بعد آيات الله يؤمنون، ولكنه ضَمَّ الإخـبار عن الآيات إلى الآيات وجعل هذا الإخـبار الذى هو الحديث آيات، وقدمها على الآيات، وهذا ظاهر إن شاء الله.

وقد أراد علماؤنا بيان هذا فأوجزوه فى كـلمة واحدة وهى قولهم المراد «فبأى حديث بعد حديث الله وآياته يؤمـنون» قلت وإنما جاءت الآية على ما جاءت عليه ولم يقل سـبحانه بعد حديث الـله كما قدره العلماء للإشـارة إلى معنى جليل جـداً، وهو أن حديـث الله هو الله؛ بمعنى أنك تراه جلَّ وتقـدس فى كلامه، كـما تراه جل وتقدس فى خلقه؛ لأنه كمـا أن خلقه لا يكون إلا منه كذلك حديثه لا يكون إلا منه لأن الأمر الإلهى فى خلقه جلِ وتقدس هو ذاته الأمر الإلهىُّ فى حـديثه، وأن العجز عن خلق السـموات والأرض، هو ذاته العجز عـن أن نأتى بسورة من مثله والعجـز قليله ككثيره، فالعـجز عن خلق أصغر مخلوق كالعجز عن خلق السموات والأرض.

قلت لا يمكن أن يكون حديثى عن الآيات مغنيًا لك عن إدارتها فى نفسك وتقليب كلماتها وتراكيبـها ومعانيها بلسانك، وفؤادك، حتى يَرُوقَك مَـسْمَعَها

ويَلْطُفَ لديك موقعها، لأن هذا لا يأتيك بحديث الغير عن بلاغة البيان، وإنما يتولد فى خواطرك من تَدَبُّر البيان، ومن فاته التدبر فلن يغنى عنه كلام أهل العلم شيئًا.

وأعود إلى الآية مرة ثانية لأبين أنها ليست من تمام الكلام قبلها فحسب وإنما هى امتداد له لأن كلماتها ومعانيها من الآيات قبلها، وكلمة ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ﴾ هى ذاتها الآيات السابقة وكلمة ﴿نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ﴾ هى ذاتها عَرْض الآيات السابقة يعنى هى ﴿إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ﴾ وهذا ظاهر، وجملة ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ بيان لأن هذه الآيات ليس فَوْقَها آيات تَهْدى إلى الله، وكل هذا، ظاهر وإنما نَبَّهت إليه لأرجع وأقول إن قوله تعالى ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ﴾ كلام مستأنف وهو من الاستئناف الذى يستأنف معنى يؤكد به الكلام الأول، كالاستئناف الذى فى بيت الكتاب:

اعتاد قلبك من ليلى عوائدُه ... وهاجَ أهواءكَ المكنونَةَ الطَّلَلُ

ربعٌ قَواءٌ أذاعَ المُعْصِراتُ بِهِ ... وكُلُّ حَيْرَانَ سار ماؤه خَضِلُ

فالبيت الثانى استئناف يرجع إلى الكلام الأول بحديث يزيد مَعْنَاه وضوحًا ويَعْنِى الأول أن الطلل هَاجَ أهواءَكَ واستأنف ليقول إن هذا الطَّلَلَ رَبْعٌ قواءٌ ذهب السحاب به إلى آخره. وكذلك الآية لما ذكرتْ الآيات الثلاث آيات الله للمؤمنين، ولقوم يوقنون، ولقوم يعقلون، استأنفت لتقول إن هذه الآيات التى فى السموات والأرض، وفى خلقكم، وفى اختلاف الليل والنهار، إلى آخره هى آيات الله التى لا يُؤمن البشر على آيات أعْلى منها، وهذا هو الاستئناف الذى أردته وهو غير الاستئناف الذى فى الآيات التى بعدها، وهى قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝ يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا

هُزُوًا أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩﴾ مِن وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلا يُغْنِي عَنْهُم مَّا كَسَبُوا شَيْئًا وَلا مَا اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾

راجع علاقة ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ﴾ بما قبلها، وتبين كيف استطاعت جملة ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ﴾ أن تجمع ما قبلها، وأن تُدْخِل أولَّها فى آخرها، وآخرها فى أولَّها، وأن تبينها فى جملة واحدة، ثم راجع علاقة جملة ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ بجملة ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ وتوقف بين الجملتين وهل ترى بينهما مساحة فارغة كان الأصل أن تُبَيَّنَ أحداثُها وأحوالُها أم أن الكلام موصول بعضه ببعض على حد اتصال آية ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ﴾ بما قبلها؟ ولا شك أنك ستجد تحت جملة ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ دلالة ظاهرة على هذا الفريق الذى لم يؤمن بالآيات التى لا يجد الناس آيات يؤمنون عليها أبين وأظهر منها، وأن من لم يؤمن بها فليس من أهل الإيمان، وهذا الفريق الذى لم يؤمن هو المعبَّر عنه بواو الجماعة فى قوله سبحانه ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ ولم يسبق لهم ذكر فى السورة وهذه طريقة شائعة فى الكتاب العزيز يفاجئك بالضمير العائد على أهل الباطل من غير أن يسبق لهم ذكر وقد يكون ضمير خطاب كما فى أول الزخرف ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾ [الزخرف: ٥] وكما فى الدخان فى قوله تعالى ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ وقد يكون غيبة كما هنا، ولا شك أن ذكر الذين لا يؤمنون بالآيات التى لا يؤمن البشرُ على آيات أبين منها، مما يثير الغضب، والمَقْتَ الشديد، ويمكن أن يكون هناك فواصل من الأحداث والأحوال والأزمان بين تلاوة الآيات عليهم، والغضب الشديد عليهم، وأنه كان هناك مُهْلَةٌ للمراجعة وإعطاء الفُرْصَة لعلَّ سانحة من سوانح الخير تطارد العناد والتكبر، وتحدث المراجعة، والانقياد كما كان من كثير من أصحاب رسول الله ﷺ الذين لم يؤمنوا إلا فى زمن الهجرة

وزمن الفتح وبعد زمن الفتح، وهذا الوعيد وهذا الغضب إنما هو موْجه لمن مات على العناد.

وكلمة ﴿وَيْلٌ﴾ فيها غضب شديد وهى كثيرة فى الكتاب العزيز ويصحبها هذا الغضب الشديد فى كل موقع من مواقعها اقرأ وتَدَبَّرْ هذه الجمل ﴿وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [إبراهيم: ٢] ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [مريم: ٣٧]. ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ [ص: ٢٧]. ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ [الذاريات: ٦٠] وقد تكررت فى سورة المرسلات ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات: ١٩] حتى كأن السورة بنيت عليها ووقعت بعد الآيات البينات كموقعها هنا كقوله سبحانه ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ كِفَاتًا (٢٥) أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا (٢٦) وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُم مَّاءً فُرَاتًا﴾ والكفات الوعاء، والأرض كفات للأحياء تضمهم على ظهرها وكفات للأموات تضمهم فى بطنها، وراجع بناء السورة ﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ وهذا رأسها ثم ذكر الآيات الثلاث وهذا تفصيل العزيز الحكيم ثم جمع الآيات فى جملة ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ﴾ ثم بيان أنها آيات لا يؤمن أحد على آيات أبين منها، ثم الويل لمن انصرف عن هذه الآيات، وظاهر من هذه المراجعة أن الكلام ليس ممسكًا بعضه ببعض وإنما هو كلام بعضه من بعض، تنمو به السورة نمو الجسم الحىّ، قال صاحب اللسان: وكلمة الويل كلمة العذاب، وقال الأصمعى معناها: القبح، وقالوا معناها: الشر، ومن قال إن الويل واد فى جهنم لم يقصد أنها وُضعت فى اللغة لهذا الموضع وإنما المعنى أن من قال الله تعالى فيه هذه الكلمة فقد استحق مقراً فى النار، وثبت له. فالآية تعنى أن مكانًا فى الجحيم لكل أفاك أثيم، والأفاك: مزاول الإفك، وأصل

معناه كل منصرف عن الـوجه الذى حَقُّه أن يكون عليه، كـما قال الراغب، وقيل للرياح العادية عن المهاب مؤتَفِكة، واستعمل فى الكذب، لأن الكاذب منصـرف عن الصـدق إلى الكذب، وعن الحق إلى البـاطل، قال صـاحب اللسـان: الأفـاك الذى يأفك الناس أى يصـدهم عن الحق بباطله، وقـوله سبـحانه ﴿لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ جامع لكل من انصـرف عن الحق وهو يعلم أنه الحق، ولم أعْرِف أن الكتـاب العزيز استعظم جرمـا كاستعظامـه لهذا الجرم الذى يُلِحُّ فيه المعانِد مُنْصَرِفًا عن الحق وهو بعلم أنه الحق.

وإنما وُصفَتِ الآياتُ بالبيناتِ وبأنَّها آيات الله بالغة الكمالات وأنه لا يؤمن البشر على آيات أبين منها، كل ذلك للدلالة على أن من انصرف عَنْهَا ولجَّ فى عنادها؛ كان مستيقنًا أنها الحق المبين، وهذا سِرُّ الغضب الذى تراه في مثل قول الرحمن الرحيم ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ ولم أشك فى أن كل من لَجَّ فى باطل فى أى باب من أبواب العلم إن لم يكن داخـلا فى المنصرف عن الإيمان بالحق إلى الإيمان بالجبت والطاغوت هو بسبـيل مبين من هذا الباب، وليس أبْشَعَ من المجادلة بـالباطل، ولو كـانت المجادلة فى مـسألة نحـوية، وليس أضرَّ بحـياة الناس من فـرقة الدفـاع عن الباطل والتـدليس على الناس، وإقناعـهم ببقـاء اللصوص والمتربحين فى مواقع القيادة، ليس أسرع بخراب الأوطان من هذا.

وكلمة «الأثيم» تعنى المقترف للآثام، والمزاول لها، ووصف الأفاك بالأثيم إشارة واضحـة إلى أن المنصرفين عن الحق بعد ما تبين لهم، نفوسـهم مَلِيئة بالشَّـرِّ والإثم، وليس لهم عـاصم من ضـمـائرهم، من اقـتـراف الغـدر، والفجـور، وكلمة الأثيم فى موقعـها هذا مهـيئة لآية فيـها رذيلة من رذائل الإثم وستأتى بعـد وهى قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً﴾ وقوله سبحانه: ﴿يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ هذه بداية

التعريف بالأفاك الأثيم، وهذا سَمْته وطَبعه، وراجع الكلمات لتعرف حقيقة صاحب الويل، قوله سبحانه ﴿يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ﴾ فتدل الجملة على أنه سمع يعنى وعى وأدرك والمسموع آيات الله، وإضافة الآيات إلى لفظ الجلالة الدال على كل كمال معناه، أن هذه الآيات بلغت الكمالات فى المعنى الذى هى له آية، يعنى هى دالة على المعبود بالحق دلالة ليس فوقها دلالة، وهذا هو مفعول الفعل ﴿يَسْمَعُ﴾ ثم قال سبحانه ﴿تُتْلَىٰ عَلَيْهِ﴾ فأعاد إلينا كلمة ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ﴾ التى كانت جامعة لآيات السموات والأرض وخلقكم وما يبث من دابة إلى آخره وأنها الآيات التى لا يؤمن أحد على آية أبين منها ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ وأن الأفاك الأثيم هو المُنصرف وهو كاذب عن آيات هذا شأنها، ومن كان كذلك فلا يرق له قلب حين يكون الويل مأواه ومثواه، وأحْضر الجملة مرة ثانية لتَصلها ببقيتها ﴿يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ كلمة ﴿ثُمَّ﴾ التى تُبَيِّنُ بالذى بَعْدَها حقيقة موقفه، تفيد استبعاد وقوع ما بعدها بالنسبة لما قبلها وأن الذى يسمع آيات الله تتلى عليه لا يكون منه الرفض والإصرار إلا إذا كان خبيث النفس، وأن ما قبلها يوجب عكس ذلك يَعنى إذا سمع آيات الله تتلى عليه قال سمعنا وأطعنا، أو فاضت عينه من الدمع لما عرف من الحق، فكلمة ثم هذه هى بين مَنْ آمن ومن كفر، وكلمة ﴿يُصِرُّ﴾ معناها التشدُّدُ فى ثباته على ما هو عليه، وشدة عزمه على بقائه على باطله، ولم تستعمل هذه الكلمة فى الكتاب العزيز إلا فى معنى الإصرار على الباطل والتشبث به، وليس فى الكتاب كلمة ﴿يُصِرُّ﴾ مضارعًا مسندًا إلى واحد غائب إلا فى هذه الآية وأن هذا الأفاك الأثيم متفرد بهذه الصفة وكلمة ﴿مُسْتَكْبِرًا﴾ حال من فاعل يصر، يعنى يصر حال كونه مستكبرًا وكأنه فى إصراره وتَشَبُّثه بباطله وشدة عزمه على بقائه عليه وهو يواجه آيات الله تتلى عليه كان يستعين غلى ذلك بالكبر الذى فى

صدره، والـذى بَيَّن القرآن فى كـثيـر من آياته أنه كان السـبب الأكـبر وراء ضلالة كل أهل الضلالة، وأنهم كـانوا ينظرون إلى الأنبياء من هذه الزاوية، وأن هؤلاء الأنبياء يريدون أن تكون لهم الـكبرياء فى الأرض، فكان الكبر هوالرصيـد النفسـى المعين له على التـشبث والإصرار على مـا هو عليه، ولا أستطيع أن أدفع الإحساس بأن هذا الذى يسمع آيات الله تتلى عليه كان يعتريه شـعور بالخوف من غلبتهـا على قلبه والإحساس بقـدرتها على انتزاع باطله فكان يُصـرُّ ويتكرّرُ منه هذا الإصـرار ويتجـدَّد وهو ثابت على حـالة الاستكـبار كل ذلك لمقـاومة قوة تُـغَالِبه ويَـعْتريه الإحـساسُ بالضْـعف فى مواجـهتها فـيواجه ذلك بمزيد من الإصرار والاسـتكبار، وكثيـر ممن أصرُّوا مستكبرين كأن لم يسمعوها غلبهم الحق ودخلوا فى دين الله أفواجًا، وكانوا من خيـر أجناد الله، وقوله سبـحانه ﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ بُرشِّح هذا المعنى الذى دل عليه المضـارع فى كلمة ﴿يُصِرُّ﴾ وأنه يتجدد منه الإصـرار بتجدد الإحسـاس بغلبة مـا يسمع مـن آيات الله تتلى عليه، وذلك لأنه فى قـوله سبحانه ﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ يحاول أن ينسى ما سمعْ وأن مـا سمعه كأن لم يسمعـه، ولا يكون هذا إلا إذا كان ما سمـعه قد نفذ إلى مـوطن من نفسه وأنه ينمو فى هذه الـنفس بقوته، والضال المخـذول يُحاصِرُ هذا الإحـساس بغلبة الحق، ويجعل ما سمعـه فى حكم ما لم يسمعه ثم إن كلمة ﴿كَأَن﴾ التي فيها معنى التشبيه، تجعله بعد سـماعها شبيها بمن لم يسمعها، يعنى أن أمرًا مـا تغيَّر وأنه صـار يُشْبِـهُ من لم يسمع، وفرق بين مـن لم يسمع ومن يُشْبِهُ من لم يسمع، لم تقل الآية ثم يصر مسـتكبرًا لم يسمعها، وإنما قالت ﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾، وهذا قاطع فى أنه كان يَرُوغ من نفسه، وهذا هو جذر الإفك لأنَّه ينشـأ أولا داخل النفس، يَعنى ينصـرف عن الحق الذى داخل نفسه، وهذا نوع من الناس شـاذ فى فطرته، ومضطَرب من داخله، ولذلك جاءت جملة ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ وهذه الفاء رتبت مـا بعدها الذى هو

البشـارة بالعذاب، وفى الكلام شوب من السـخرية والتحـقير لأن البـشارة تكون فى الخير وهى هنا مـستعملة فى العذاب الأليـم، كما أنه نَكَّس فطرته وانتكس من داخله، وغـالب الخَيْـر بالشَّرِّ وأَصَـرَّ واستكبـر، فجـزاؤه هذه البشارة بالعذاب الأليم؛ والجملة جعلت بداية الخـبر الذى هو البشارة منتهية بالشر والعذاب الأليم، كـما جَعَل هو بداية الخَيْـر الذى هو سماع آيات الله تتلى عليه منتـهيًا بالشر والإفك والضـلال المبين، ومن المفيد أن أعيد الـتنبيه إلى شيء هو أن الآيات التى سمـعها وهى آيات الله تـتلى عليه هى الآيات التى سَبَقَت فى قوله تعالى ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ﴾ وهى ذاتها الآيات المذكـورة فى الآيات الثـلاث ﴿إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ وما بعـدها وأنها صـارت تُتْلى يَعْنِى استـحالت من مـشاهد فى الأرض والسمـاء وفى خلقكم وما بث من دابة إلى كـلام يُتْلَى ويسمع وأن الذى يتلى ويسمع هو آيات الله هذه، وهذا مَعناه دَمْـج التلاوة فى السموات والأرض ودَمْج السمـوات والأرض وآيات الله فى الكون والنفس فى التلاوة وبذلك يصير ما تسمـعه الأذن يتلى من كلام الله، هو ذاته ما تراه العين من خلق الله، كلاهما دال على الله دلالة بالغة الكمال المطلق من حيث هى آية لأنها لا تكون البـتة إلا من الله، وأن الذين سَلَّمُوا بأن الله خالقـهم وخالق السمـوات والأرض وأقروا بذلك فى آيات كـثيرة لابد أن يسـلموا بأن الذى تسمـعه آذانهم مما يتلى من آيات الله لا يكون إلا مـن الله، لأنه لا فرق فى الدلالة على المعبود بالحق بين هذا وذاك، فإذا سمعوا مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنْ بَعْدِهِ﴾ [فاطر: ٤١] يدرك أن هنـا آيتين آية تراها عينة وهى هذه السـموات والأرض وأن الله يمسكهما أن تزولا وأنهما إن زالتا لا يسع أحدٌ أن يمسكهن إلا الله، وآية أخرى تسـمعهـا أذنه وهو هذه الكلمات التى سـبكت سبكًا، ورُصِفَتْ رَصْفًا فـأبانت بسبكها ورصفها عن معـان لا تدخل فى مُنَنِ البشر

كما قال العلماء، وأنه ما من نبى إلا أُوتى ما على مثله آمن البشر، وكان الذى أوتيه صلوات الله وسلامه عليه قرآنًا يتلى فهو أكثرهم تابعًا لأن قرآنه سيبقى يتلى ما بقى الناس، وذلك بخلاف ما أوتيه الأنبياء كقَلْب العصا حية، والنفخ فى الطين فيصير طيرًا، لأن كل هذه أحداث وقعت وذهبت، وصارت ماضيًا بعد وقوعها، وصارت معجزاتهم عليهم السلام أخبارا تُرْوَى، ومعجزته عليه السلام قرآنًا يُتْلى وإعجازه فى يومنا وبعد يومنا وقبل يومنا كإعجازه يوم نزل، ولهذا كان أكثرهم تابعًا صلوات الله وسلامه عليه.

قلت إن قوله سبحانه: ﴿ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ فيه إشارة إلى أن هذا الأفاك كان يستشعر غلبة الحق وسلطانه على نفسه فيواجه هذا بالإصرار المتجدد والاستكبار الثابت، وهذا المعنى ظاهر فى آيات كثيرة حدَّثت عن هذا النموذج المُنْحط، والذى يكابر الحق ويدفعه عن فِطْرته أو ما بقى منها مما يكون فى داخله مستجيبًا للصوت الصادق والآية البينة، ويظهر هذا فى أقدم نموذج فى تاريخ الناس، وهم قوم نوح عليه السلام قال سبحانه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَارًا (٥) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلاَّ فِرَارًا (٦) وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا﴾ [نوح: ٥- ٧].

وأول ما يلاحظ اختلاف الموقف لأن نوحًا عليه السلام يبلغ ربه عن قومه والله سبحانه وتعالى أعلم وإنما هو بلاغ من باب التحسر، وليس فى كلام نوح تهديد، ووعيد، كما فى الجاثية، لأن نوحًا عليه السلام لا يهدد ولا يوعد وإنما شأنه البلاغ، وهذا بخلاف الموقف فى الجاثية، ولذلك خلت نوح من مثل ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ إلى آخره. والذى يعنينى هو بيان حالهم حين يدعوهم نوح وهو مقابل مقابلة دقيقة لبيان حال الذين فى الجاثية حين يسمعون آيات الله تتلى عليهم.

صاحب الجاثية يُصرُّ مستكبرًا كأن لم يسمعها، وأصحاب نوح عليه السلام يجعلون أصابعهم فى آذانهم، ويستغشون ثيابهم، ويصرون ويستكبرون استكبارًا، وهذا تشابه شديد جداً وقد تكررت فيه كلمات أصروا، واستكبروا، استكبارًا، ولا أشك فى أن قوم نوح كانوا بهذا الإصرار وهذا الاستكبار يدافعون سلطان الحق الذى كان يهاجمهم، ولا تجد تفسيرًا لقوله سبحانه: ﴿جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ﴾ يعنى اجتهدوا فى أن تكون غشاء وغطاء لهم يدفع عنهم دعوة نوح عليه السلام، ووضع الأصابع مجاز عن وضع الأنامل وفيه معنى أنهم كانوا يحاولون وضع أصابعهم كاملة، وليست الأنامل ولا معنى لهذا إلا أنهم كانوا يَصرِفُون صوت نوح عليه السلام عنهم، لأنه كان فيه قوة تخيفهم، ويخافون أن لا يصمدوا فى إصرارهم واستكبارهم، وتجد هذا أيضًا فى سورة لقمان فى قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ (٦) وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [لقمان: ٦، ٧] والموقف هنا موقف مختلف وهو موقف قديم جداً وحديث جداً لأن أهل الباطل الذين يُضللون الشعوب ويصرفونها عن طريق الجد إلى طريق الملاهى هم قائمون بيننا؛ وقد يكون النظام قائمًا على هذا التَّلَهى، والمهم أن موقف لقمان متمثل فى صورة الرجال الذين يشترون لهو الحديث ليضلوا عن سبيل الله، وشراء لهو الحديث فى لقمان قريب جداً من وضع قوم نوح أصابعهم فى آذانهم واستغشاء ثيابهم، وما كان هذا ليكون لولا الإحساس بسلطان الحق فى صدورهم، ثم تجد فى لقمان كلمات الجاثية ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ وضع هذا مع ﴿يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ ضع قوله سبحانه:

﴿يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ﴾ بإزاء ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا﴾ تجد فرقًا دقيقًا جداً هو أنه فى الجاثية يسمع وليس فى لقمان يسمع، ووجود يسمع فى الجاثية ضرورى لأن الآية التالية هى: ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا﴾، وهذا العلم نتيجة السماع فذكر السماع فى الجاثية ولم يذكر فى لقمان؛ لأن الآية التى بعد هذه فى لقمان انتقلت إلى ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾. وضربت صفحا عن أصحاب الملاهى، وأصحاب المسلسلات الهابطة، ثم إنه قال فى لقمان ﴿وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا﴾ وقال فى الجاثية: ﴿ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا﴾ والتولى أشبه بصاحب لقمان لأن حكايته فى السورة حكاية طارئة فقد بدأت السورة بذكر الكتاب الحكيم وأنه هدى ورحمة للمحسنين وأنهم يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهؤلاء الذين استجابوا لآيات الكتاب الحكيم ثم ذكر حكاية الذى يشترى لهو الحديث كنغمة نشاز فى السياق ثم رجعت إلى الذين آمنوا وعملوا الصالحات إلى آخره، وذلك بخلاف صاحب الجاثية الذى ظل يغالب الحق ويُصِرُّ ويُجدِّد الإصرار الذى هو الثبات على الباطل؛ لأن السورة مؤسسة على ذكره؛ لأنه النموذج الذى رأى آيات الله التى لا يؤمن البشر على آيات أبين منها ثم كان منه ما كان، ثم انفردت لقمان بجملة ﴿كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾ وما كان لها أن تأتى فى الجاثية لأن الآية القادمة هى ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا﴾ وكيف يعلم من آياتنا وفى أذنيه وقر؟

قوله سبحانه ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [الجاثية: ٩] هذه الآية من تمام معنى الآية قبلها والواو التى فى أولها تعطفها على أول الحديث عن أحوال الأفاك الأثيم، أو تعريف الأفاك الأثيم؛ وقد استقلت الآية السابقة ببيان حاله حين يسمع آيات الله تتلى عليه، واستقلت هذه الآية ببيان حاله إذا علم من آيات الله شيئًا، ولاحظ المناسبة اللطيفة بين يسمع وعلم، وأن يسمع هناك مسند إلى ضميره وعلم هنا مسند إلى ضميره،

والسماع سبيل العلم وهذا أيضًا يرجح ما قلناه فى معنى يُصرُّ مستكبرًا وأنه يغالب سطوة الحق فى نفسه، لأنه سمع وعلم، ثم لاحظ تكرار الآيتين للمسموع والمعلوم، وأنه سبحانه لم يقل وإذا علم منها شيئًا، وإنما قال: ﴿مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا﴾ ليؤكد ويقرر كلمة ﴿آيَاتِنَا﴾ المضافة إلى ضمير العظمة والتى هى بالغة فى الكمالات ما بلغت، والتى لا يُعقل أن يكون من يسمعها لم يتبين منها ذلالتها القاطعة على المعبود بالحق، أقول هذا التكرار وراءه مزيد من الإدانة والتأثيم للمحدَّث عنه، ثم نلاحظ كلمة ﴿إِذَا﴾ ودلالتها على أن ما بعدها مما يكثر وقوعه، ثم كلمة علم بدل كلمة عرف مثلا لأن العلم أوضح وأشمل وأثبت من المعرفة، وكلمة ﴿شَيْئًا﴾ تعنى شيئًا أى شىء، وقوله: ﴿اتَّخَذَهَا﴾ يعنى اتخذ كل الآيات والأصل أن يقول اتخذه لأن الضمير عائد إلى الشىء ولكنه قال اتخذها للإشارة إلى أنه يتخذ كل الآيات.

وهذه الآية الثانية تختلف عن الآية الأولى بإشارات متميزة، منها أنه لما سمع الآيات فى الأولى أصَرَّ مُستكبرًا كأن لم يسمعها، يعنى عالج ما يجده فى نفسه بإصراره وثباته على باطله، وباستكباره الذى يُعينه على ذلك وهو هنا لما علم ووقع فى نفسه شىء من العلم بالآيات البينات التى لا يشك هو فيها اتخذها هزوًا وهذا مغالبة للحق ليس داخل النفس كما كان هناك وإنما هو مغالبة له فى الجماعة التى حوله لأن علمه بما علمه من الحق أزعجه وأوقع فى نفسه إمكانية انتشاره وغلبته فكانت مقاومته له فى المحيط الذى هو فيه وكان السلاح هو الاستهزاء بالآيات كلها وليس بما علمه لأنه يعلم أن ما علمه لا يجوز السخرية منه فسلك طريقًا لا يزال يسلكه أهل الباطل وهو التعميم الساخر التائه فى محيط أوسع لأن السخرية من حكم مُعَيَّن أو من شىء محدَّد لا تروج؛ والرمى فى وجه آية لا ينجح؛ فإذا عمم راج عنه لأن موطن الطعن غير محدد.

قلت إن هذا المنهج لايزال عليه الأغبياء من أحفاد أهل الضلالة، نراه فى الرمى فى وجه الفكر الذى بين أيدينا من تراث علمائنا وأنه فكر ظلامى وأن دعاته ظلاميون ولا يخدعنَّك أن النظام السياسى يمنح هؤلاء جوائزه؛ لأنه لم يمنحهم لأنهم كفاءات متميزة، وإنما منحهم ليروج باطلهم، ورميهم فى وجه الفكر الإسلامى، لأنك لا تجد وجهًا مستقيمًا يقنعك بالسبب الذى صار فيه النظام يخاف من التوجهات الإسلامية، وأنه يبطش بها ويقمعها ويزعم أنهْ يضربها ضربات استباقية لأنه يكتشف تآمرها ويضربها قبل أن تنفذه، أقول كل هذا بعضه من بعض والموقف المضاد للدين الذى صورته آيات الأفاك الأثيم لايزال فى جوهره هو؛ وقد ترى الأفاك الأثيم فى زماننا وعليه عمامة الجماعة، واحذر أن تفهم أن الأفاك الأثيم هو الذى كان زمن نزول القرآن؛ وتأكد أنه يسرى فى الزمان كله، وكل زمان له أفَّاكه، وعليك أن تستخلصه مما حولك، واصدع بما ترى ولو رأيته فى رأس كبيرة، لأن هذا عهد الله الذى أخذه عليك وكان عهد الله مسؤولا.

وكلمة ﴿**اتَّخَذَهَا**﴾ افتعال من أخذ وصيغة الافتعال تدل على الاحتشاد وجمع النفس ووفرة النشاط وقد وجهها البقاعى فى سورة لقمان توجيهًا بالغ الفطنة، وقال فى قوله تعالى: ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا**﴾ قال «اتخذها لأنه لما اتخذها كان مخالفًا لفطرته التى ترى الحق وتدعوه إليه، فاحتاج إلى اعتمال واحتشاد، وكلف نفسه ضد ما تدعوه إليه فطرته»، وغَضَبُ الله المقارن لهذا السلوك الذى هو علم المبطل شيئًا من آيات الله واتخاذها هزوا أظهر وأبين من غضبه سبحانه فى الآية الأولى ﴿**يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا**﴾ ويظهر هذا الغضب الأكثر فى لغة الوعيد فى الآيتين، قال فى الأولى: ﴿**فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ**﴾ وقال فى الثانية: ﴿**أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ**﴾ وكلمة ﴿**أُولَٰئِكَ**﴾ تشير إلى أنهم حقيقون بما يأتى بعدها بسبب ما صنعوه مما ذكر قبلها فهى نص فى أن استهزاءهم بآيات

الله أورَثَهُم العذاب المهين وكانت كلمة ﴿مُّهِينٌ﴾ مناسبة جداً لاستهزائهم، ولم تأت مَع استكبارهم لأن استكبارهم كان داخل صدورهم، وكان استهزاؤهم بالآيات فى المحيط الخارجى الذى تدعو الآيات فيها الناس إلى رب الناس، ويلاحظ أن كلمة ﴿أُوْلَئِكَ﴾ التى هى ابتداء وعيدهم والتى دلت على أن الغضب أشد جاءت دالة على الجماعة يعنى عندها انتقل الحديث عن المفرد الذى فى قوله سبحانه: ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا﴾ وهى جملة حدَّثت عن الضلالة التى أوجبت الوعيد؛ إلى الجماعة وأن الكلام الواصف للعذاب المهين كلام عن جماعة، وهذا كثير فى الكتاب ولم أعرفه فى كلام الناس أعنى الدَّمج بين الواحد والجماعة وأنك وأنت تقرأ حديثا يحدثك عن المفرد تفاجأ بأنك تنتقل إلى الحديث عن الجماعة والكلام بعضه من بعض كما هنا، فالذنب ذكر مفردًا والعذاب ذكر جمعا، والإهانة فى العذاب المهين تكون أنكى وأوجع حين تكون فى جماعة، والذنب يكون مفردًا، وهو الأصل فيه لأنه ﴿وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الزمر: ٨] والمسؤولية فى دين الله مسؤولية مفردة لأننا سنعود إلى الله فرادى كما خلقنا أول مرة، وصور العذاب فى القرآن أحيانًا تكون صورًا مفردة مثل ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ (٣٠) ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ (٣١) ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ﴾ [الحاقة: ٣٠- ٣٢]، وأحيانًا تكون فى صورة جماعة كما فى قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ [فاطر: ٣٧] كما أن الكسب المفضى إلى العذاب يكون أحيانًا مفردًا كما هنا وأحيانًا جمعًا مثل: ﴿قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ﴾ [الزخرف: ٢٢]، وكل ذلك كثير وكل ذلك فى حاجة إلى دراسة تربط كلا بسياقه.

قلت إن الغضب فى الآية الثانية أشدُّ وذكرت من ذلك اسم الإشارة وأضيف كلمة ﴿لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ لأن هذه اللام تفيد أن العذاب المهين أُعدّ لهم وهذا بخلاف ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، ثم إن العذاب الأليم يؤلم المعذَّب فى ذات

نفسه، يعنى أن الإحساس بالألم إحساس فردى خاص وهو مناسب جداً لذنبه وهو ﴿يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ لأن هذا مدافعة منه للحق الذى يجده فى صدره فذنبه خاص به وعذابه خاص به، وذلك بخلاف ﴿اتَّخَذَهَا هُزُوًا﴾ لأن ذلك تشهير بالآيات فى الجماعة وهو تشهير باطل؛ لأن آيات الله ليس فيها ما يُستَهزأُ به، فناسب العذاب المهين فى جماعة. ثم إنك لابد أن ندرك الفرق بين المستهزئ بآيات ربه، والمنصرف عنها، كأن لم يسمعها، وأن شناعة المستهزئ أشْنَعُ وسوء أدبه مع ربه أبشع، المصر يدفع سلطانها عن قلبه، وهو ظالم، والثانى يستهزئ بها وهو كاذب، وفى قوله سبحانه ﴿اتَّخَذَهَا هُزُوًا﴾ معنى يشمل الآيات وغيرها وهو أن الباطل لا حدود له ولا ضابط له فقد يدعى العيب فيما لا عَيْب فيه؛ أو يدعى العيب فيما هو سداد كله وصواب كله وكمال كله؛ لأنه يؤسس ما يقوله على التلبيس والتدليس وهو باب لا خلاق له، وهذا من أبشع ما تعانى منه حياة الناس، ونحن غارقون فى تحسين القبيح وتقبيح الحسن، كما أننا غارقون فى التعميم وإذا كان الأفاك زعم العيب فيما لا عيب فيه ثم عَمَّمَ فإننا سالكون مسلكًا يشبهه حين نقع على خطأ جزئى أو عيب جزئى ثم نُعممه على الباب كله وربما نهدم مآثر الكريم بغفلة كانت منه أو نهدم علمه لخطأ وقع فيه، والآية تحذر من هذا كله وتضع أقدامنا على طريق النظر الصحيح الذى يعطى كل شىء حقه، وأرى أن القرآن لا يعلمنا الرشاد فى الدين فحسب وإنما يعلمنا الرشاد فى الدين والدنيا معًا ونحن نخطئ حين نهمل هذه الإشارات التى تفيدنا فى واقعنا وفى درسنا ونظرنا وبحثنا.

قوله تعالى: ﴿مِن وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُم مَّا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [الجاثية: ١٠].

هذه الآية تعقيب على الآيات التى قبلها من أول قوله سبحانه: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ وهو تعقيب لم يصف سلوكًا منهم كالذى مَضى وإنما يحدث عن

حقائق أربع، الأولى: أن جهنم من ورائهم، والثانية: أن كسبهم لن يغنى عنهم من الله شيئًا، والثالثة: أن آلهتهم التى اتخذوها من دون الله هى أيضًا لن تغنى عنهم شيئًا، والرابعة: أن لهم عذابًا عظيمًا.

وأصل كلمة الوراء من قولهم واريته إذا سترته، ومنه وَارَاهُ فى التراب: دفنه فيه، قال تعالى: ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ﴾ [المائدة: ٣١]، وقوله جل شأنه: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ [ص: ٣٢]، وقال الزمخشرى فى تفسير الآية أن قوله تعالى: ﴿مِن وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ﴾ يصلح أن يكون من قدامهم ومن خلفهم لأن الوراء اسم للجهة التى يواريها الشخص أى يسترها، وهو ساتر للذى أمامه، والذى خلفه، واستشهد الزمخشرى على تفسير الواراء بمعنى قدام بقول عبيد:

أليس ورائى أن تَرَاخَتْ مَنِيَّتِى ... أدِبُّ مع الوِلدان أزحفُ كالنَّسر

وورائى فى البيت بمعنى أمامى يعنى ليس أمامى إذا عشت طويلاً إلا أن أدب مع الولدان أزحف، وقد تناقلت كتب التفسير كلام محمود بن عمر لسعته ونفوذه فى العلم باللغة والأساليب واستشكل عليه الطاهر بن عاشور وقال من فسّر وراء بمعنى قدام ما راعى حق الكلام؛ وفسّر وراء بمعنى خلف والمعنى من ورائهم جهنم يعنى من خلفهم وحمله على الاستعارة التمثيلية وأن حالهم فى غفلتهم والعذاب من ورائهم كحال من يمشى غافلاً وجهنم من ورائه، والكلام يحتمل.

وجملة ﴿مِن وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ﴾ لم ترد فى القرآن إلا فى هذا الموضع، وإذا فسرناها بالخلف يكون المعنى كأنها تسوقهم وهم عنها غافلون، وإذا فسرناها بقدام أفاد الكلام أنهم يسارعون إليها وهم عنها غافلون.

والستر الذى فى كلمة وراء، فيه أن جهنم حقيقة من جملة الحقائق التى يخفونها عن أنفسهم ويروغون منها، كما يروغون من الحق الذى فى آيات

الله وهى تتلى عليهم، وكما يروغون مما علموه من الحق الذى يحاولون دفنه بالسخرية والاستهزاء، وهذا من الملاءمات الخفية.

وقوله سبحانه: ﴿وَلَا يُغْنِي عَنْهُم مَّا كَسَبُوا شَيْئًا﴾ جملة حالية ومعناها مفهوم من الجملة الأم ﴿مِن وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ﴾ لأنها لا تحيط بهم إلا إذا كان لا يدفعها عنهم دافع، وكلمة يُغْنى أشربت معنى يدفع فعديت بكلمة (عن) وفاعل يغنى المصدر إذا اعتبرنا ما مصدرية أى ما يغنى عنهم كسبهم، أو الاسم الموصول إذا اعتبرناه اسم موصول، وقل مثل ذلك فى المعطوف الذى هو ﴿وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ﴾، أى لا يغنى عنهم اتخاذهم أو الذى اتخذوه، وكان يمكن أن يقال ولا ما اتخذوا من أولياء، أو ولا ما اتخذوهم أولياء ولكنه جاء على ما جاء عليه للتشهير بضلالهم، وأنهم اتخذوا أولياء من دون الله سبحانه، وهو الموصوف بكل كمال، والمنزه عن كل نقص، وهو الذى فى السموات إله وفى الأرض إله، ثم إن ذكر هذا القيد يفرغ على العبارة قدرًا من الغضب وأن جهنم من ورائهم ولهم عذاب عظيم وأن من اتخذ وليّاً من دون الله جدير بهذا وبأكثر منه، وإذا كانت جملة ﴿مِن وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ﴾ لم تتكرر فإن جملة ﴿وَلَا يُغْنِي عَنْهُم مَّا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ﴾ قد تكررت كثيرًا، وجاءت على ألسنة أهل العذاب كما فى قوله تعالى: ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ﴾ [الحاقة: ٢٨، ٢٩] وهذا التكرار إشارة إلى أن أهم ما صرفهم عن الحق هو الجاه والمال؛ وعقابيل الجاه والمال من حب الرياسة؛ والكبرياء فى الأرض، والمترفون والكبراء كثيرًا ما أشار الذكر الحكيم إلى أنهم كانوا ولا يزالون عوائق تعوق الدعوة إلى الخير والعدل والبر والرحمة.

والملاحظ أن الآية اكتفت هنا بنفى أن يدفع عنهم ما كسبوه شيئًا، من عذاب الله؛ وأن تدفع عنهم آلهتهم شيئًا من عذاب الله، مع أن ما كسبوه من مال يحمى عليه فى نار جهنم وتكوى به جباههم وجنوبهم هذا ما كنزتم لأنفسكم، كما يلاحظ أنهم وما يعبدون من دون الله حصب جهنم.

والجملة جاءت هنا وسطا بين جملتين من صور العذاب الكبير، الصورة الأولى ﴿مِن وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ﴾، والصورة الثانية: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ فاكتفت بنفى أن كسبهم وآلهتهم لن يغنوا عنهم شيئًا.

وقد قدمت الآية الكسب على الآلهة الذين اتخذوهم من دون الله أولياء، وفيه إشارة جليلة جداً وهى أن أهل الباطل الذين يتخذون من دون الله أولياء تتعلق نفوسهم بأرباحهم، ومكاسبهم، وأموالهم، أكثر مما تتعلق بهذه الآلهة، لأنهم كانوا يعلمون أنها أخشاب منجورة، أو حجارة منحوتة، ويقولون وجدنا آباءنا على هذا، وكأنها عادة موروثة وليس لها شىء من الجلال، وأحيانًا يذكر الأولاد مع المال، ويذكرون بعد المال، لأن انشغال النفوس بالمال أخطر وقد كانوا يقولون نحن أكثر أموالاً وأولادًا، وما نحن بمعذبين، ويلاطفهم القرآن مع هذه الجهالة الخشنة ويقول لهم وما أموالكم ولا أولادكم بالتى تقربكم عندنا زلفى، ولم يقل لهم إنما أموالكم وأولادكم هى التى تكب وجوهكم فى النار، ولذلك نجد فى نفى النفع عن الذى كسبوه والذين اتخذوهم أولياء من غير إشارة إلى أنهم هم الذين يكبونهم فى النار ضربًا من الرحمة، وفتحًا لباب الأوبة، ورحمة الرحيم الرحمن تراها ممسكة بغضبه فى كثير من الآيات.

وبهذا انتهت هذه الآيات الغاضبة والتى بدأت بقوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ [الجاثية: ٦] وهى آيات فى جملتها وفى بنائها بعضها على بعض وفى موقعها وسياقها متميزة فى الكتاب العزيز ولها صورة واضحة فى نفوس قرائه.

ومن المفيد بل من الواجب أن أرجع إلى نهاية الآيات الثلاث التى بدأت بها السورة والتى جمعتها سورة البقرة فى آية واحدة، والمطلوب من هذا الرجوع هو أن أبين ما جاء عقب هذه الآيات فى سورة البقرة، ولماذا خالف ما جاء عقبها فى سورة الجاثية، والآيات هى هى، تبدأ فى الجاثية بقوله تعالى: ﴿إِنَّ

فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ﴾ وتبدأ فى البقـرة بقوله جل شأنه: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ إلى قوله تـعالى: ﴿لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البـقرة: ١٦٤]، وعليك أن تسـتحـضر الذى جاء عـقب ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾، فى الجاثيـة، لأنى لن أعود إليـه وإنما أقول الذى جـاء عقب هذه الآيات فى البـقرة قوله جـل شأنه: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ وعليك أنت أيضًـا أن تقارن ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا﴾ بقوله سبحانه هنا: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ﴾، وعلى أن أقول: إن آيات الجـاثية جـاءت لتبين الآيات الدالة على المعـبود بحق وأن هذه الآيات سـواء فى صورتهـا المحسـوسة فى السمـوات والأرض واختلاف الليل والنهـار أو فى صورتها المعقـولة والمقروءة والمسموعة فى حديث الله سبحانه لا يؤمن البشر على آية أبين منها، ومحض هذا الأصل قولـه جل شأنه: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ فالغاية التى ترمى إليها الآيات هو الإيمان، ثم انتـقل الكلام بعد جملة الإنكـار إلى ما انتقل إليه من شأن «الأفاك الأثيم» أما آيـات البقرة فقد جاءت لنفى الشرك والتعدد، وقد سبـقت آية البقرة بقوله جل شأنه: ﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقـرة: ١٦٤]، وآية البقـرة تدور حول ﴿لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾. أما ﴿لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ ففى ذكـر خلق السـموات والأرض واختـلاف الليل والنهـار، لأن هذه الكائنات لا يملكها إلا خـالقهـا وهو الله وحده، وأما ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ فإنك ترى رحمـته فى النعم التى فى الآية، وبعد ذكر هذا البرهان القاطع بنفى التعدد، وإثبات الرحمة جاء التعقيب بذكر من راغوا من هذه الآيات واتخـذوا من دون الله أندادًا يحبـونهم كحب الله، وهذا هو تلاؤم التعـقيب بعدها على سـياقهـا كما كان التـعقيب فى آية الجـاثية ملائمًـا لسياقهـا، وقد جاء رأس هذه الآية رأسًـا لآيات كثيـرة وتنوعت المعانى

بعدها تبعًا لتنوع مقاصد الآيات ومن ذلك قوله سبحانه فى آخر سورة آل عمران: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩٠، ١٩١] وهذا مغاير مغايرة واضحة لما فى البقرة والجاثية لأن هذه الآيات استخرجت من النفوس المستقيمة أكرم المعانى وأكرم الذكر، والآيات واحدة يتلقاها مرةً الأفاك الأثيم، ومرة الذين اتخذوا من دون الله أندادًا ويحبونهم كحب الله، ومرة يتلقاها أولو الألباب ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ وجمع مثل هذا وتحليله وتحليل سياقه يكشف عن علم جليل من علم أسرار البيان فى الكتاب العزيز.

قوله جل شأنه: ﴿هَذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾ [الجاثية: ١١].

هذه الآية مكونة من جملتين، الجملة الأولى ﴿هَذَا هُدًى﴾ والواو بعدها يمكن أن تكون واو الحال أو واو الاستئناف، والذى بعد هذه الواو حديث عن الذين سلكوا غير طريق هذا الدين، والجملتان المكونتان للآية ضَامَّتَان كل ما تقدم من السورة، وراجعتان إلى أولها، لأن اسم الإشارة فى قوله سبحانه ﴿هَذَا﴾ راجع إلى ﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾، ومستوعب معه الآيات المذكورة فى خلق السموات والأرض، واختلاف الليل والنهار، والتى ذكر علماؤنا أنها تفصيل وبيان للعزيز الحكيم، وبيَّنا أن الذكر الحكيم أدْمَجَ هذه الآيات الكونية المشاهدة فى الحديث الذى يُتْلى وصارت آيات الحديث الذى يتلى شاملة لهذه الآيات الكونية من حيث إن ما تَسْمعه الأذن من حديث الله فى إعجازه كما تراه العين من آيات الله فى السموات والأرض، وبهذا يتضح أن اسم الإشارة

الذى هو رأس الجملة الأولى، مستوعب من أول كلمة ﴿حم﴾ إلى قوله تعالى: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ﴾، والجملة الثانية وهى قوله جل شأنه: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾ شاملة للكلام من أول قوله سبحانه: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ وتوابعه إلى قوله تعالى: ﴿مِن وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلا يُغْنِي عَنْهُم مَّا كَسَبُوا شَيْئًا وَلا مَا اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ وهذا ظاهر، ولذلك ترى هذه الآية كأنها فاصلة لكل هذا الفصل الذى مضى من السورة، ثم هى مؤذنة بفاتحة فصل جديد، وبيان ذلك أن آيات الله فى كل ما مضى. إما أن تضاف إلى لفظ الجلالة كما فى قوله تعالى: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ﴾ أو تضاف إلى ضمير العظمة كما فى قوله جل شأنه: ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا﴾ ولأول مرة فى السورة تضاف الآيات إلى ما أضيفت إليه فى قوله تعالى هنا: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ وذكر لفظ الجلالة يحضر المهابة والجلال وذكر لفظ الرب يحضر الرعاية والحفظ والنعم ثم إن إضافة كلمة (رب) إليهم وهم الذين كفروا بآياته يلفت إلى أنه كالئهم وحافظهم وخالقهم، وأنه الذى جعل لهم السمع والأبصار والأفئدة، وما بهم من نعمه فهى منه سبحانه، وهذا وإن كان يشعر من جهة بعظيم جُرمهم لأنهم كفروا بمن باتوا فى نعمائه يتقلبون، ومهيئ لما بعده من قوله: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾ فهو من جهة أخرى فاتح باب ذكر النعم التى سيبدأ ذكرها بعد ذلك فى آيتين جليلتين تفيضان بأعظم النعم ﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ﴾ إلى آخر الآيات.

والآيات التى سبقت هذه الآيات وصفت عذاب الذين كفروا مرة بأنه أليم ومرة بأنه مهين ومرة بأنه عظيم وهى هنا تضيف كلمة (رجز) والرجز أشد العذاب وأصله من الاضطراب والمراد العذاب المزلزل وهذا معنى زائد عن الأليم والمهين والعظيم الذى مضى. وداعية هذه الكلمة الرجز هو كلمة (آيات ربهم) لأنه ليس

أفحش ولا أشنع ولا أخس من الكفر بالمنعم وبآيات المنعم، وهذا عارٌ كان يَسْتَبْشِعُه الناس من حيث هم ناس، لهم أخلاق، ولهم كرامة، وليس فقط من جهة الديانة، كانوا ولا يزالون يستبشعون أكل المعروف سحتًا كما يقول أبو تمام، وينكرون ويستبشعون أن تثمر صنائع المعروف عندهم حنظلاً كما يقول الخارجي:

وَيَتَنَاقَلُ الأقوامُ أن صَنَائعًا صُنِعَتْ لدىَّ فَحَنْظَلَتَ نَخَلاتُها

وهذه الآية بدلالتها فى موقعها واشتمالها لما قبلها وفتحها باب ما بعدها، تذكر بما قاله حازم القرطاجنى فى منهاج البلغاء فى إحكام الفصول، وأن فصول القصيدة: «ولله المثل الأعلى» أحيانًا ينتهى الفصل فيها ببيت يتضمن ما مضى من الفصل الذى جاء هذا البيت خاتمته، ويكون هذا البيت نفسه فاتحة الفصل اللاحق لتضمنه إشارات تفتح باب معانى الفصل اللاحق، ولم أجد غضاضة فى ذكر هذا فى آيات الذكر الحكيم، لأن علماءنا وضعوا بلاغة واحدة لكلام الله وكلام الناس ولم يصنعوا بلاغة خاصة بالقرآن إلا فى لمع سرعان ما تركها الوارثون لها.

هذا موقع الآية أما كلماتها وتركيبها فأول ما تراه فيها اسم الإشارة العائد على الكتاب المنزل والدال بقربه على قرب هذا الكتاب من كل إدراك، وتمييزه عن كل ما عداه، ثم الإخبار عنه بأنه «هدى» والهدى مصدر والأصل أن الكتاب هاد ﴿ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ [الرعد: ٧] وإنما أُخبر عنه بالهدى للإشارة إلى أنه الهدى نفسه كما تقول زيد عدل، والتنكير فى كلمة (هدى) للإشارة إلى أنه هدى مغاير لما هو معروف من ضروب الهدى، لأنه هو الهدى الكامل فى الهداية، كما تقول هو رجل وأنت تريد الجامع للصفات التى بها يكون الرجل رجلاً، هكذا قال الزمخشرى وغيره.

ووجه دلالة التنكير على هذا المعنى أن التنكير يدل بمعونة السياق على التعظيم وغاية التعظيم فى الهدى الكمال فيه كما أن غاية التعظيم فى رجل الكمال فيها.

والجملة الحالية ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ جيء فيها بالاسم الموصول ليشمل كل ما هو موصوف بالصلة من ناحية وللدلالة على أنهم عُرِفُوا بذلك وشُهِروا به، وكان يمكن أن يكتفى بقوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وإنما جيء بهذا الجار والمجرور للدلالة على الغضب، وللتشهير بهم، كما قلت، وأنهم كفروا بمن يمسون ويصبحون وهم يتقلبون فى نعمائه جل وتقدَّس وهذا ليس كفرًا فحسب وإنما هو خساسة أيضًا، ويلاحظ أن عدولاً كان فى هذا القيد وأن الكلام فيه عُدِلَ عن التكلم فى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا﴾ إلى الغيبة فى قوله ﴿آيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ وهذا الالتفات لافت إلى هذا القيد من الجملة وفضلاً عن أنه يفيد الكلام تطرية وإيقاظًا، فإن له خصوصية فى الموقع الذى جاء فيه وهذه الخصوصية تفهم من الكلمة التى وقع فيها العدول، وهو الرب الذى تولى التربية والرعاية، وإذا كان الكفر بآيات الله يعنى إساءة الأدب مع الجلال والكمال، والتعالى، والتقديس، فإن الكفر بآيات الذى ربَّى وأطعم وحفظ وأنعم تعنى الخساسة، والنذالة وسوء المَنْبَت وافتقاد المروءة، ولما قُيِّد الكفر بهذا القيد روعى فى العذاب ما يقابله وقال: ﴿مِّن رِّجْزٍ﴾ يعنى امتدَّ هذا القيد إلى العذاب فقُيِّد العذاب بكونه ﴿مِّن رِّجْزٍ﴾ ولو قيل والذين كفروا لكان الأقرب أن يكون الخبر لهم عذاب أليم، كما هو الأجرى فى الكتاب العزيز، والغضب الذى فى قوله: ﴿بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ هو الذى أنتج ﴿مِّن رِّجْزٍ﴾ والعذاب الذى من رجز زائد على العذاب الأليم، والعذاب المهين، والعذاب العظيم، لأن فيه شيئًا مُفْزِعًا وهو اضطراب المُعذَّب، وتقلقله، وتزلزله، من شدة ما يجد، وقُرئ أليم بالضم وصفًا لعذاب يعنى عذاب أليم من رجز، وقرئ بالكسر وصفًا للرجز والمعنى لهم عذاب من رجز أليم، فالأليم هو الرجز وهذا آكد وأوجع.

قوله سبحانه: ﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الجاثية: ١٢].

التعرف على موقع الآية، ومقدار تمكنها فى هذا الموقع، ومقدار تلاحمها مع ما قبلها، وما بعدها لا يأتى سهلاً فى كل الآيات، لأن هذا يقتضى مراجعة أشياء كثيرة، وأول ما أقوله فى هذه الآية هو صلتها بالآيات التى هى رأس السورة، والتى ذكر المفسرون أنها تفصيل للعزيز الحكيم، وأول ما يُرَى فى التَّلاَحُمِ بين آية تسخير البحر، وآيات السموات والأرض، وخلقكم وما يبث من دابة إلى آخره، هو أن الآيات الأولى سيقت مساق دليل الوحدانية، لأن خلق هذه المخلوقات لا يكون إلا من الحى القادر المعبود بالحق؛ ودلائل الوحدانية هى الدلائل الموجبة للعبادة؛ لأنه لا يُعْبَدُ إلا الذى خلق، وأنا وأنت وهو وهى لا نَعْبُد إلا الذى خلقنا، وكل ما خلقه الله هو عابد لله، ومُسَبِّحٌ له سبحانه وهذا هو مقتضى الفطرة، ومقتضى العقل وهو الذى دل عليه القرآن دلالات صريحة، فى مواطن كثيرة، من ذلك قوله سبحانه فى سورة الحج:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾ [الحج: ١٨]

لاحظ أن الشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب كل ذلك داخل فى الاسم الموصول فى قوله: ﴿مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ﴾ وإنما نَصَّ عليها لأن الآية لو اكتفت بهذا الموصول لجاز أن يُتَوهّم أنه يسجد له الملائكة والناس المكلفون بعبادته والسجود له، وإنما ذكر الشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر وأنها تسجد لله رب العالمين لبيان أن هذا السجود هو مقتضى الخلق وأن الشأن فى المخلوق هو السجود للخالق، لأنه هو الذى أوجده من كَتْم العدم كما كان يقول العلماء، ومثله قوله جل شأنه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾ [النور: ٤١].

قلت الآيات الأولى آيات الخلق الموجبة للإيمان ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ وهذه الآية آية تسخير، وهى من حيث الدلالة على المعبود بالحق فى

طبقة الآيات الأولى، وتزيد الدلالة على النعمة لأن خلق البحر آية وتسخير البحر آية، وآية التسخير تقترب من الإنسان، وتمد له يد العطاء من ربه.

ثم إن نعمة التسخير هذه وهى من أجل النعم وأعلاها لم يخص الحق بها من آمن دون من كفر؛ وإنما هى نعمه عامة لخلقه جميعًا، وهكذا كل ما خلقه الله فى هذا الوجود وسخَّره لخلقه هم فيه سواء، وسخر سبحانه الشمس والقمر والنجوم كل ذلك لكل خلقه ومجىء نعمة التسخير العامة لكل خلقه عقب الآيات الغاضبة على المنصرفين عن آياته، والكافرين بآيات ربهم، فيه دلالة أخرى على أنه الواحد وذلك لأن كفر من كفر لا يُنْقِصُ من ملكه شيئًا، وأنه سبحانه غنى عن العالمين كما قال موسى عليه السلام لقومه: ﴿إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٨] ولا تنقطع نعمه على من كفر بآياته وعاندها لأنه سبحانه ليس كمثله شىء نبوء بنعمه علينا ونبوء بذنوبنا يعنى أخوض فى معصيته وأنا أخوض فى نعمه، لأنه هو وحده البر الرحيم، فإذا نظرت إلى الآية وصلتها بالآيات التى هى رأس السورة، وجدتها تُمثّل معها الوجه الآخر الذى هو آيات النعم، وإذا نظرت إلى الآية من جهة الآيات قبلها وجدتها تشير إلى أن نعمه جَلَّ وتقدس وفواضله على عباده لا صلة لها بإيمان، ولا بكفر، وإنما هو مُتَفَضِّل على خلقه جميعًا؛ لأنه غنى عن خلقه جميعًا، ثم إنها تتشابك مع الآية قبلها بشُبْكَة نَبَّهت إليها وهى ذكر كلمة ﴿رَبِّهِمْ﴾ فى قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ وآية التسخير هذه من آيات ربهم، التى كفروا بها، والتسخير أن يصير الشىء مُتصرَّفًا فيه على وجه من وجوه التصرف، فتسخير الشمس أن يكون ضياؤها نافعًا لنا، وتسخير السحاب أن تتصرف فيه القدرة الإلهية على وفق الحكمة، وتسخير الأرض تذليلها، وتسخير الدواب انقيادها لوجوه النفع بها، قال الراغب: التسخير سياقه إلى الغرض المختص قهرًا، والمسخَّر هو المُقَيَّضُ للفعل، والتسخير عدل الخلق يعنى أن الخلق آية

وتسخير المخلوق إلى الغرض المختص به وصيرورته إليه وهو مُقَيَّضٌ للفعل آية أخرى، وانصراف الإنسان عن هاتين الآيتين آية الخلق وآية التسخير هو الإفك الأثيم، الذى تحدثت الآيات عنه، وجعلت الحديث عنه واسطة بين آيات الخلق وآيات التسخير.

ثم إن تسخير هذه الكوائن للإنسان تضمَّن نعمًا كثيرة أنعمها الله على الإنسان وهذه النعم مسكوت عنها مع كثرتها لأنها بعدد ما سخره الله للإنسان، وأعنى بها أن كل نعمة سخرها الله للإنسان يعنى أعدها له وقَيَّضها له سبحانه سخر الله سبحانه نظيرا لها فى الإنسان، فإذا كان سخر لنا الدواب فقد أودع فينا القدرات على الانتفاع بهذه الدواب، وإذا كانت الدابة لا تنقاد لما خلقت له إلا بترويض كثير فقد أودع الله فى الإنسان القدرة على ترويضها، وإذا كانت الشمس قد سخرت للإنسان فقد أودع الله فى الإنسان القدرة على الانتفاع بهذه النعمة، وإلا كانت نعمة عاطلة، وكان التسخير تسخيراً عاطلاً وكل ما فى الشمس من منافع يمكن أن ينتفع بها الإنسان، قد أودع سبحانه فى فطرة الإنسان ما يمكنه من الانتفاع بكل ما فى الشمس من منافع، وهكذا قل فى الأرض التى جعلها ذلولاً، وأودع فينا القدرة على أن نمشى فى مناكبها، وأن نأكل من رزقه، وإذا كان سبحانه قدَّر فيها أقواتها فقد أودع فينا القدرة على أن نستخرج منها أقواتها، وفينا من استطاع أن يبحث عن هذه القدرات فى نفسه، وعن هذه الطاقات المسخرة لها، واستخرج من ذات نفسه ما يستخرج به من هذا التسخير أعظم ما فيه، وأن ينتفع به على الوجه الأفضل. وفينا من ليس كذلك فهناك أرض تُغَلُّ وتثمر أضعاف ما تغله وتثمره أرض أخرى لأنها صادفت إنسانًا استيقظ وفطن وأخرج بعلمه خبأها، وهكذا قل فى الحيوان وقل فى الشمس وقل فيما شئت، وهذا التسخير فى الأشياء هو كنوز العلوم والمعارف فى هذا الكون وهذه الكنوز لاتستخرجها إلا الكنوز المطمورة فى فطرة الإنسان، وعليه هو أن يبدأ باستخراج كنوزه ليستخرج بها كنوز النعم المسخرة، وهذا واضح جداً.

ومن غير المفهوم أن تكون الأمة التى خاطبها الله بهذه الحقائق هى أقل الأمم حظًا فى استخراج النعم التى سخرها الله لها، وربما كان عائقها هم الأغبياء الذين يغتصبون قيادتها اغتصابًا، وربما كان السبب أيضًا هو أن الأُمَمَ المعادية لدين الله هم الذين يحرصون على وجود هذا الكم المفزع من الغباء فى الصفوف الأولى من السادة القادة.

وراجع بناء الآية تجدها مكونة من جملة واحدة هى لفظ الجلالة المبتدأ والاسم الموصول الخبر ثم إن كل ما فى الآية من توابع الاسم الموصول وهذا ظاهر، والمهم هو أن الإخبار عن لفظ الجلالة بأنه ﴿الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ﴾ كأنه يُعرِّفُ لفظ الجلالة وأنه الذى يسخر البحر، يعنى الذى يكون منه ما لا يمكن أن يكون إلا منه، لأن تسخير البحر أمر إلهى لا يكون إلا من الحىّ القادر المعبود بحق، وإثبات أى فعل فيه أمر إلهى لا يكون إلا من المعبود بالحق؛ للفظ الجلالة؛ هو بمثابة التعريف بلفظ الجلالة، فالفاعل الذى يفعل الفعل لا يكون إلا منه هو الذى أعبده فخلق الأرض لا يكون إلا من المعبود بالحق، أو لا يكون إلا ممن وجب أن يُعبد بالحق، وتسخير البحر إلى آخره، وهذا ظاهر فى آيات كثيرة تبدأ بلفظ الجلالة أو بالضمير الراجع إليه ثم يخبر باسم موصول صلته فعل خارق للناموس، أى خارج عن طوق البشر. وقوله جل شأنه: ﴿سَخَّرَ لَكُمُ﴾ المخاطب فى هذا الخلق كل الخلق؛ لأنهم هم الذين سخر الله البحر لهم، وقد كان الحديث عن الضالين بضمير الغيبة فى قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾ والآن صاروا حضورًا مع الخلق كل الخلق ليخاطبهم المنعم بنعمه، وليذكرهم بأنه سبحانه وهو الغنى الحميد، والقادر على ما لم يقدر عليه غيره، يُقَارِبُهم ويُنعم عليهم، ويذكرهم بنعمه ليستميلهم إليه، وليُقَرِّبهم من رضوانه وهو يدعوهم إلى دار السلام دار رحمته، ودار الخلد، وهذا معنى كريم وسر لطيف من أسرار طريق الخطاب الذى لا أستطيع أن أعده من باب الالتفات

لعموم الخطاب فيه. ولأن الذين انتقل خطابهم من الغيبة إليه هم بعض المخاطبين به، لأن الخطاب هنا لمن آمن ومن كفر والغيبة هناك لمن كفر وهذا دقيق فراجعه واعرفه.

وقوله جل شأنه: ﴿لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ﴾ هذه الجملة هى التى تُبيّن علّة الفعل (التسخير) تدعو من يريد أن يعرف أسرار كلام الله إلى البحث عن طبيعة التسخير الذى أفضى إلى جريان الفلك التى هى كالأعلام أى الجبال على وجه ماء سهل ليِّن لا يحمل حصاةً رُميت فيه، ماذا أحدثه الله فى ماء البحر حتى صار قادرًا على حمل هذه الفلك بكل أثقالها؟ وأى علوم يجب أن تنشأ وتبحث لتكشف سرَّ هذا التسخير، ثم إن الآية الكريمة مع هذه الإشارة إلى العلم الواجب بحثه وكشفه تفيد ترتيبًا منطقياً بين هذه الجمل الثلاثة، الجملة المعطوف عليها وهى جملة ﴿لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ﴾، والمعطوفة وهى ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ﴾ لأن التسخير ﴿لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ﴾، أمر لازم ومقدمة ضرورية لابتغاء الفضل، ثم إن ابتغاء الفضل هو الذى يعقبه الشكر وهذا ظاهر جداً.

وكلمة ﴿بِأَمْرِهِ﴾ المتعلقة بجريان الفلك تشير إلى الأمر الإلهى فى هذا الجريان وأنه لا يكون إلا بأمر ربنا وأن اجتهادكم فى التعرف على الشيء الذى جعله الله فى البحر وسخر به البحر وجعل الفلك تجرى فيه هو فى أوّله وآخره بحث عن شيء جعله الله وخلقه، وأودعه فى خلقه، ونهايات اجتهادكم هو التعرف عليه، وليس إيجاده؛ لأنه له موجد واحد هو الله، وأنتم فى بحثكم عن السر كالغائص فى البحر الباحث عن الدر، وأنه حين يقع على الدر لا يزعم أن الدر كان به، وإنما تغلغل إليه وعاد به فاستحق الفضل، فأنتم أيها العلماء غائصون على لآلئ الحكمة فى صنع الله ومن تغلغل إليها ووقع عليها فقد استحق الفضل، لأنها هناك أمر من أمره، وأنتم هناك باحثون فى سر أمره، وهذا شيء من معنى ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨] أى الذين يضعون أيديهم على سر الله فى خلقه،

وقل مثل ذلك فى ابتغاء الفضل، وكما كان جريان الفلك من أسرار التسخير فإن ابتغاء الفضل من أسرار الجريان، وكلمة ﴿مِن فَضْلِهِ﴾ أخت كلمة ﴿بِأَمْرِهِ﴾ لأنها تعنى أن الذى تبتغونه فى البحر مما تستخرجونه من لحم طرى ومن حلية تلبسونها كل ذلك من فضله بمعنى أنه لا يكون إلا منه وأن نشاطكم واجتهادكم هو طلبه لا غير، وفرق بين الطلب والابتغاء لأن الابتغاء يعنى الطلب بمزيد حفاوة ووفرة نشاط وتعلق رغبة. وكلمة (ابتغاؤكم) لم يذكر فيها المطلوب الذى يبتغون من حلية أو متاع أو طعام، لأن هذا المُبْتَغَى ليس مقصودًا بعينه، وإنما المقصود أن يكون منهم الابتغاء يعنى الطلب، والجد والنشاط، وكأن الله سبحانه أجرى الفلك فى البحر لفتح شهيتكم نحو البحث عن كنوز البحر، كما جعل الأرض ذلولاً لتمشوا فى مناكبها، وهذا وغيره يعنى أن طلب معرفة أسرار الله فى خلقه الذى سخره لنا هو مفتاح ما فيها من نعم وأنه بمقدار الوصول إلى هذه الأسرار يكون حظنا من الخير الذى أودعه الله فيها وأن كل هذه الكائنات المسخرة كنوز أودعها الحق بين أيدينا نأخذ منها ما نأخذه ثم يبقى منها للأجيال بعدنا والباقى هذا لا ينفد فلن تنقطع خيرات البر ولا خيرات البحر يومًا وإنما يُكف عنها الغافلون ويُسْرِع إليها المتيقظون.

وقوله سبحانه ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ هى فاصلة الآية، ولعل معناها الترجى يعنى طلب المحبوب الممكن والله سبحانه وتعالى مُنَزَّه عن ذلك لأنه ليس كمثله شىء ولأنه يقول للشىء كن فيكون، فلا يرجو سبحانه شيئًا وإنما قرّب إلينا مراده بما نتخاطب به، وأن الله سبحانه وتعالى يرضى لنا أن نشكره ﴿وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧] وتشكرون هنا مثل تَبْتَغُون فى قوله سبحانه ﴿وَلِتَبْتَغُوا﴾ أعنى ليس لها مفعول لأن المطلوب هو توفر الكلام على إثبات الفعل للفاعل، أى يكون منكم شكر، لأن إلف النفوس لمعنى شكر المنعم هو أكرم مكارم الأخلاق، وهو الذى يُفْضى إلى

الإيمان، لأن كفر النعم هو السَّدُّ المانع والحاجز بين الموصوفين به، والإيمان، والمضارع يعنى تجدد الشكر وحدوثه فى الوقت بعد الوقت؛ لأنه أكرم خلق يرضاه الله فى خلقه، ثم تلاحظ شيئًا لا يجوز إهماله، وهو أن الآية بدأت بالتسخير، وجريان الفلك، وطلب الرزق، وانتهت بالعبادة؛ لأن شكر الله سبحانه من أرفع ضروب عبادته وذكره، وأن كل ما فى الآية إنما كان لتشكروا يعنى لتعبدوا، لأن الله لم يخلقنا إلا لهذا، ولم يسخر لنا ما سخَّر إلا لهذا ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] وتستطيع أن تستخرج تفاصيل ابتغاء الفضل من البحار فى الكتاب العزيز من اللؤلؤ والمرجان والحلية التى تلبسونها إلى آخره، كما تستطيع أن تجمع الآيات التى ذكر فيها تسخير البحر والفلك التى تجرى وتدرس الذى جاء هنا، وحذف هناك، والذى اتسع هنا، وضاق هناك، والذى أبهم هنا، ووضح هناك إلى آخره، وسوف تجد أسرارا عالية جداً، ولو وضعت آية الشورى التى ذكرت الفلك بجانب آية الجاثية، لوجدت فروقا جليلة، ولطيفة، أولها أن آية الشورى ذكرت الفلك من حيث هو آية ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلامِ﴾ [الشورى: ٣٢] والجاثية ذكرتها من حيث هى نعمة مع أن كل آية نعمة وكل نعمة آية، ولكن السياق ينطق الآية هنا بالنعمة وينطق النعمة هناك بالآية، والمهم أنك لن تجد فى الجاثية مثل قوله تعالى ﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٣٣) أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٣، ٣٤] لأن سياق النعمة فى الجاثية لا يقال فيه يسكن الريح ويظللن رواكد، وإنما هذا يقال فى سياق بيان القدرة، كما أن سياق الجاثية لا يتحمل ﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا﴾ لأن النعمة لا يذكر معها هذا الهلاك، وهكذا، وأسرار البيان فى هذا ومثله لا تظهر إلا مع الموازنات الكاملة الشاملة.

قوله سبحانه ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ١٣] هذه الآية معطوفة على ما قبلها من عطف العام على الخاص، لأن تسخير البحر لتجرى الفلك فيه بأمره، داخل فى تسخير ما فى السموات والأرض جميعًا منه، وقد قلت إن التسخير أمر إلهى فى الأشياء كالأمر الإلهى الذى فى خلقها، هذا الأمر يجعلها مُقَيَّضة ومهيأةً للانتفاع بها، وهذا التسخير كالخلق كنز من كنوز أسرار الله فى خلقه، وأن الذى سخر كل هذا للإنسان أعد الإنسان وأودع فيه ما يمكنه من الانتفاع بكل ما سخره له، وهذا باب التنافس فى طلب الحكمة المودعة فى الكون؛ والذى من أجله ذكرت ذلك مرة ثانية هو أن هذه الآية جعلت كل ما فى السموات وكل ما فى الأرض مسخرًا للإنسان، يعنى كتابًا مطوياً على الحكمة الإلهية التى يجب على الإنسان أن يعكف، وأن ينقطع لمعرفة ما فيه، وأن هذا هو كتاب العبادة الأوسع، وأن الله دعانا إليه، وقال لعلكم تشكرون، لأنكم بمقدار اطلاعكم على علوم أسرار الله فى كونه يكون قربكم منه سبحانه، لأنه سبحانه إنما يخشاه من عباده العلماء، ثم إننى لاحظت أنه ليس فى الكتاب آية تجمع تسخير كل ما فى السموات والأرض للإنسان الذى هو أنا وأنت إلا هذه الآية، وآية أخرى فى سورة لقمان هى قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: ٢٠] وذكر نعمة التسخير فى الكتاب فى غير هاتين الآيتين يأتى غالبا بذكر مفردات غير جامعة مثل تسخير الشمس والقمر والليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر، وتسخير الأنهار، وكنت ذكرت آيات تقاربت بين لقمان والجاثية وأن الأفاك الأثيم فى الجاثية أخ شقيق للذى يشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم، وأضيف الآن تفرد السورتين بآية لم تذكر فى القرآن إلا فيهما وهى الآية التى معنا مع الفرق فى طريقة العرض الخاضع للسياق فى لقمان ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾

وكلمة ألم تر تعنى أنـها آية ترى بالعين ولا ينكرها إلا لجـوج جاهل، والآية تدفـع فى وجـه الـذيـن يجـادلـون فى آيات الله بغـيـر علـم ولا هـدى ولا كتاب منير، وآية الجاثية من تمـام معنى الآية التى قبلها وهذا ظاهر وتمكنها فى موقعها هو تمكن الآية التى هى من تمامها فى موقعها، والذى يحتاج إلى بيان هو لماذا بدأت الآيتان بتسخـير البحر لتجرى الفلك فيه بأمره ثـم ثنَّت بتسخير ما فى الســموات وما فى الأرض جـميعًا مـنه؟ وليس عندى جواب واضح، وكاشف عن هذا السؤال، وكل الذى عندى فـيه هو أن الآيات الأولى الثلاثة آيات دالة دلالة قاطعـة على الله ﴿ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ ﴾ وبعد الفـراغ من حديث من ينكرها اتجه الكلام إلى آيات النعـم، وقد دلت الآيات على أنها متـوجهة إلى بيان النعم بذكـر الجار والمجرور ﴿ لَكُمْ ﴾ وتقديمـه، ونعمة تسخـير الله سبحانه لآيات كـونه للإنسان ليس فوقها نعمـة إلا نعمة الهداية إليه فتـسخير البحـر وتسخـير الشـمس والقمر والنجـوم والليل والنهار والأنـهار كل ذلك للإنسان نعمـة لا يقادر قدرها، والذى هو أجل منها دلالة هذا التســخير على تكريم الله لهذا الإنسان الذى جعل كل ما فى السموات مما نعلمه وما لا نعلمه، وكل ما فى الأرض مما نعـلمه وما لا نعلمـه مسخـرا له، يعنى طوى الله كل هذا الوجود وجـعله فى قبضـة الإنسان، هذا الإنســان الذى هو جرم صغـير وانطوى فيه العالم الأكبر، أقـول بدأت الآيات فى هذا بعد ما فرغت من ذكر الذين استكبروا عن سماع آياته، وتسخير البحر والفلك تجرى فيه إلى آخره مما ليست له المشــاهدة الكثيرة كتـسخير بقيـة ما سخره الله للإنســان من الشمس والقمر والليل والنهـار والنجوم يهتدى بها فى ظلمات البـر والبحر، كل هذه المســخرات قلمـا يغيب منهـا شيء وهى تدور حول الشـمس والقمـر والليل والنهار والفلك التى تجـرى فى البحر، وأقلها دورانا هو البـحر والفلك تجرى فيه، فبادرت الآيات بذكـره إحضارا لهذا الذى هو مظنة أن يتوه وأن يُنْسَى ثم ثنَّت بالذى لا يفارق لحظة وهو تسخير ما فى الســموات والأرض جميعًا منه،

لأنك لا تستطيع أن تنفصل عن الذى سخره الله لك فى السموات والأرض زمانا أقل زمان، قلت هذا ما عندى، وللبقاعى إشارة لطيفة وخاطفة يفسر بها سرَّ ذكر تسخير البحر، وسر ذكره يعنى أيضًا سر تقديمه على تسخير ما فى السموات والأرض ونظر فى هذا إلى آخر آيات الله المذكورة فى الآيات الثلاث التى هى رأس السورة وآخر ما فيها قوله تعالى ﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ﴾ [الجاثية: ٥] ومن تصريف الرياح جريان الفلك فى البحر لأنها تجرى ما جرت الرياح فإن سكنت الريح ظلت الجوارى رواكدَ على ظهر الماء، قال رحمه الله «لما كان آخر الآيات التى قدَّمها الرياح ذكر ما يتصرف بتسييرها فقال ﴿الَّذِي سَخَّرَ﴾ وهذه اللفتة النبيلة من هذا الشيخ النبيل مهتدية بآيات كثيرة قرنت إرسال الرياح بجريان الفلك كالذى فى سورة الروم من قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الروم: ٤٦] والآية شبيهة بآية الجاثية والفاصلة واحدة ورأسها إرسال الريح وليس تسخير البحر.

واسم الموصول فى قوله ﴿مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ جامع لما لا يحاط به، وهذا من أوجز الكلام ولا يستطيع أحد أن يحصر ما سخره الله لنا فى الأرض فضلا عن الذى سخره الله لنا فى السموات، وجمع السموات تعنى السموات السبع وناهيك عن ما فيها ولا أعلم شيئًا سخره الله لنا إلا شيئًا هو أفضل من كل شيء، وهو استغفار الملائكة الحافين من حول العرش للذين آمنوا ويقولون ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ۝٧ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝٨ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَن تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [غافر: ٧-٩].

وتكرار اسم الموصول مع المعطوف فى قوله سبحانه ﴿وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ وكان يمكن أن يقال وسخر لكم ما فى السموات والأرض، وذلك يلفت إلى

هذه النعم وتكرار هذا الموصـول كذكر الجار والمجـرور فى قوله ﴿لَكُم﴾ كل ذلك فيه إشارة ظاهرة إلى عناية البـيان الكريم بلفت الإنسان إلى هذه النعم، لعله يشكر ولعله يستـجيب وخاصـة أنه قد سبق بيان الغـضب على المصرين على إنكار الآيات وإنكار النعم، وكل هذا من رحمة الله ودعوته لعباده الذين أسرفوا على أنفـسهم والذين لم يسرفوا ومثل هـذا فى الدلالة قوله جل شأنه ﴿جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ وكلمة ﴿جَمِيعًا﴾ توكيد لأن ما فى السموات وما فى الأرض لا يحاط به كما قلت وتسـخيره كله لنا مما يحتاج إلى توكيد لأن التـسخير قد يكون لبعضه أو لأكثره، فاحتاج المعنى لهذه الكلمة الجامعة والتى تفيد أن كل ما فى الأرض وكل ما فى السموات السبع مـسخر لنا، ولم يأت هذا التوكيد الدال على عـموم مـا فى السـموات ومـا فى الأرض إلا فى هذه الآية. وآية لقمان وهى الآية الوحيدة التى تشارك هذه الآية فى ذكر تسخير ما فى السموات وما فى الأرض ليس فيـها هذا التوكيد وإنما قال سـبحانه ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: ٢٠] وآية فى الحج ذكرت التسخيـر فى الأرض فقط وهى قوله تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ﴾ [الحج: ٦٥] وبهذا تتميز آية الجاثية فى الكـتاب كله بهذا التوكيـد ولابد من البحث عن الذى وراء ذلك لأن القول بأنها هى الآيـة الوحيدة التى أكدت هذا المعنى جيـد ولكنه حديث عن الأحوال اللغوية والحديث عن الأحوال اللغـوية ليس فيه غناء إن لم يشفع بالحديث عن أسـرار هذه الأحوال، وهو الحديث الصـعب والذى تفاداه كثـير من المفسرين وإنما عرضته ليجتهد فى بيانه أهل التدبر وأهل العلم، والذى أراه فى سر هذا التوكـيد هو أن هذه الآيات كالآيات السابقـة جدَّت فى بيان نعم الله وشدَّت الإنسـان ولفتته إلى هذه النعم لعله يشـكر، ولعله يتفكر، ولعله لا يقع فيما وقع فيه الأفاك الأثيم؛ حتى لا يقع عليه من العذاب ما وقع على هذا الأفاك الأثيم وهذه الآيات بهذا التوكـيد تزيد على نظائرها فى هذا الباب

زيادة ما؛ وهذه الزيادة تشير إلى أن لهذا المعنى حيزا فى الغرض الذى سيقت له السورة، وفى المعنى الأم الذى دارت رحاها عليه، هذا والله أعلم.

وقوله سبحانه ﴿مِّنْهُ﴾ جار ومجرور متعلق بمحذوف حال أى سخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعًا حالة كونها كائنة منه سبحانه، خَلْقًا وتسخيرا، وهذا معنى زائد أيضًا لأن هذا القيد لم يأت مع تسخير ما فى السموات وما فى الأرض إلا فى هذه الآية، ثم إنه لم يأت مع كلمة ﴿جَمِيعًا﴾ أيضًا إلا فى هذه الآية، وكل هذا خصوصيات فى الآية: التوكيد بكلمة ﴿جَمِيعًا﴾ وتربية الفائدة أعنى زيادة المعنى بقوله ﴿مِّنْهُ﴾ لأن كل قيد يذكر فى الجملة إنما يذكر لفائدة زائدة، وهذا هو مراد العلماء بكلمة «تربية الفائدة» والجمع بين كلمتى ﴿جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ مع تنوع دلالات كلمة جميعًا، من مثل ﴿لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [الرعد: ١٨] ﴿هُوَ الَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ﴾ [البقرة: ٢٩] وهى كثيرة فى الكتاب ولم يجتمع مع هذا القيد إلا فى هذه الآية؛ أقول كل ذلك يؤكد معنى تأكيد نعم الله علينا وتسخيره ما خلق فى السموات والأرض لنا، ودعوتنا إلى استكشاف كُنْه أسرار هذا التسخير، ثم تسخيرنا لما سخرنا له أعنى خلقه فينا القدرة على الانتفاع بهذا التسخير، وليس تسخيرنا لما سَخَّرهُ لنا بمعنى تذليلنا له؛ لأن هذا التذليل لا يكون منا إلا لله رب العالمين وهذا إكرام لنا.

وقوله سبحانه ﴿إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ هذه الفاصلة تختلف اختلافًا ظاهرًا عن فاصلة الآية قبلها ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ لأن فاصلة الآية قبلها جزء من دلالة المعنى المذكور فى الآية، يعنى ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ نعمة تسخير الفلك تجرى فى البحر ولتبتغوا من فضله، وهذه الفاصلة أخت نظيرتها فى النحل: ﴿وَهُوَ الَّذِى سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٤] وازن

بين الآيتين وراجع التفصيل الذى فى النحل والإجمال الذى فى الجاثية وكيف كانت فاصلة ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ فى السورتين مسبوقة بقوله ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ﴾؟ وكيف كان ابتغاء الفضل فى الجاثية معبرا عن كل الخيرات التى يصيبها الإنسان فى البحر؟ وكيف كانت فى النحل عامة بعد خصوص هو ﴿لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾؟ وكيف كان العموم بعد الخصوص مناسبا لسورة النحل التى فصلت نعم الله على خلقه وأكدت أنه ما بكم من نعمة فمن الله؟ وقامت السورة على ذكر هذه النعم ثم راجع كيف كانت جملة ﴿لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ﴾ فى الجاثية علة للتسخير أو بدل اشتمال من علة التسخير العامة التى هى ﴿لَكُم﴾ كما أعربها بعض المفسرين ثم هى فى النحل آية خرجت عن التعليل الذى فى قوله ﴿لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ واختلف النسق وقال سبحانه ﴿وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ﴾ ثم عاد النسق وقال جل ذكره ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ﴾، واسأل لماذا حدث فى بناء جملة ﴿وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ﴾ هذا التغيير أو هذه المخالفة والذى يجيبك هو الجملة نفسها، وذلك قوله سبحانه ﴿وَتَرَى﴾ لأن الآية وضعت بصرك وبصيرتك على الفلك الجوارى فى البحر كالأعلام، وأنها آية تراها عينك ولا ينكرها إلا من ينكر الذى تراه العين، ولم يكن مواخر الفلك فى البحر مقدمة لابتغاء الرزق، كما فى الجاثية وإنما هو آية من آيات القدرة منصوبة وحدها؛ لتدل على تنزيه الخالق جل شأنه هذا التنزيه الذى افتتحت به السورة ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ والذى يرى الفلك مواخر فيه لا يسعه إلا أن يقول سبحانه وتعالى عما يشركون، قلت إن فاصلة الآية الأولى فى الجاثية أخت فاصلة آية النحل وهذا بخلاف فاصلة الآية الثانية التى هى ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ لأن هذه الفاصلة أشارت إلى أن هذا التسخير آيات فألحقت التسخير بقوله تعالى هناك ﴿تَلْكَ

آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ﴾ [الجاثية: ٦] وذكرت أنها نعم بدليل قوله جل شأنه فى رأسها ﴿وَسَخَّرَ لَكُم﴾ فهى آيات موجبة للشكر من حيث هى تسخير؛ وموجبة للإيمان من حيث إن هذا التسخير آيات، وهذا إيذان بأنها فاصلة أشمل وأوسع وأنها عندها وبها ينتهى الكلام فى الآيات؛ ويبدأ فى موضوع آخر هو قوله جل شأنه ﴿قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ﴾ [الجاثية: ١٤] وأن الكلام انتقل من الآيات إلى من آمن بها ومن كفر بها، وأن على الذين آمنوا بها أن يستجيبوا لأمر ربهم وهو المغفرة لمن لا يرجوها، وهذا معنى عجيب جدًّا؛ وتحار العقول فى بيان كنه حكمته سبحانه وتعالى فى أمره هذا، والمهم الآن هو أن هذه الفاصلة نهاية كلام ممتد من أول السورة؛ لأن كل الذى مضى آيات، وقد بُنِيَت الفاصلة بناء فيه كثير من اللفت؛ والإيقاظ، والإثارة، وأول ذلك هو بناؤها على القطع والاستئناف، والقطع والاستئناف يشير إلى معان لم تعبر عنها الكلمات، وإنما يعبر عنها هذا الضرب من صنعة البيان؛ وهو أن المعنى الذى بُنِى على ذلك معنى له شأن وله قيمة، ويجب أن يلتفت إليه، وهذا التوكيد الذى بنيت عليه الجملة لفت آخر من العزيز الحكيم إلى هذا المعنى، والمعنى هو توكيد أن فى ذلك آيات، وتقديم الجار والمجرور وهو خبر إن على اسمها إشارة أخرى إلى أهمية هذا الخبر، الذى هو ﴿فِي ذَلِكَ﴾ أى فى تسخير ما فى السموات وما فى الأرض، وحرف الظرف يشير إلى أن الآيات ليست هى التسخير، وإنما الذى فى التسخير، وهذا الذى فى التسخير باب متسع جدًّا؛ يبدأ من إدراك المكلفين لحكمة الله فى تسخير ما فى السموات وما فى الأرض إدراكا عامًّا يهديهم إلى الله؛ ثم يرتقى علم ما فى هذا التسخير درجًا فوق درج حتى ينتهى عند العلماء المنقطعين لدراسة أسرار الله فى تسخير ما فى السموات والأرض، كل فى بابه، يدرس ويحلل ويستنبط ويستخرج، ويدخل كنوز الحكمة التى أودعها الله فى هذا الكون الفسيح، ويستكشف ما بنيت عليه هذه الكوائن من قوانين ومن علوم تنتهى أجيال الباحثين المنقطعين وهى

لا تنتهى ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي﴾ [الكهف: ١٠٩] وكل هذا مما يحثنا ربنا على الخوض فى معمعاته لأنه باب من أبواب استجلاء آيات الله فى السموات وفى الأرض، وتزداد معرفتنا بربنا كلما ازداد إيغالنا فى معرفة أسرار الله فى آياته؛ يعنى إيغالنا فى معرفة أسرار الله فى هذا الوجود ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨] وجمع كلمة ﴿لآيَاتٍ﴾ للإشارة إلى هذه السعة التى لا حدود لها؛ والتى يهتدى بها العابد فى محرابه، ويمسك بها العالم فى معمله، وفى هذه الفاصلة إيجاز فوق إيجاز، أو إيجاز للإيجاز، وذلك لأن قوله جل شأنه ﴿مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ أقصر لفظ دل على أوسع معنى، لأن الذى فى السموات والأرض لا يحاط به، ثم جاءت كلمة ﴿ذَلِكَ﴾ وأوجزت هذا الإيجاز، ودلت على ما لا يحاط به، وإذا حللناها وجدنا أن الإشارة هى كلمة «ذا» وأن اللام للبعد والكاف حرف خطاب وأن الذى دل على ما لا يحاط به فى السموات والأرض هو كلمة «ذا» وهذا من أعجب الإيجاز وأبين الإعجاز، ومن أجل اللفت إلى هذا المعنى وضروره التيقظ فى فقهه لأنه فى الدين والدنيا بمكان لم تكتف الجملة العظيمة بحرف التوكيد فى أولها، وإنما أضافت توكيدا فوق توكيد هو هذه اللام الداخلة على اسم إن المؤخر ﴿لآيَاتٍ﴾ والتى يسميها العلماء اللام المزحلقة لأن الأصل فيها أن تدخل على المبتدأ فتفيد التوكيد وقد زحلقت هى والمبتدأ لما تقدم الخبر، لأنه الذى هو أهم والجملة بشأنه أعنى، وقوله جل شأنه ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ الجار والمجرور متعلق بآيات ويتفكرون وصف للقوم ومعنى هذا أن الآيات لا تكون آيات إلا عند الذين يعملون عقولهم وتقترن بصائرهم بأبصارهم ويكون التفكر من شأنهم وهو قوام ذواتهم ويكون هذا التفكر أيضًا شأنا من شئونهم، وسلوكًا من سلوكهم، يجددون الفكر والنظر فى كل ما يشاهدون، وفى كل ما حولهم فى السموات وفى الأرض ومن ليسوا كذلك فلن تغنى الآيات عندهم، ولن تغنى النذر، وهذا ربط واضح للآيات بسلامة الفطرة، وسلامة الطبع، وأن التفكير وإعمال العقل هو النجم الذى يهدى إلى

الآيات، وأن الآيات هى الطريق الواصل إلى الله، وأن من رأى الآيات فقد رأى الله، ومن عميت عليه الآيات التى هى البراهين والأدلة العقلية فقد عمى عليه الطريق الواصل إلى الله، وأن أول الطريق إلى الله هو العقل يعنى التفكير، وقد راقنى هذا المعنى لأنى أعيش فى زمان انتكس فيه كل شىء فالأغبياء فيه حكماء، والمزوِّرون فيه رموز الوطن، واللصوص فيه هم سادتنا، والذين لم يدخلوا يوما معمعان البحث العلمى هم الراعون للتعليم، وللعلم وللبحث العلمى، إلى آخر هذا الهزل الذى أرى بلادى غاطسة فيه حتى الموت؛ وليس هذا مرادى وإنما مرادى هو ما يشيع من عكس ما تدل عليه الآية بالكذب والادعاء، فالملحد أو المنكر أو الذى ليس للدين عنده أى مساحة هو المثقف المستنير، وهو المتفلسف الذى توغل فى الفلسفة حتى انتهت به إلى شاطئ الإلحاد، والمتدين هو المؤمن بالنقل والذى ليس للعقلانية عنده أى مساحة؛ ولو راجعت قصص كبار الكتاب، وجدت أن مساحة التدين عند الناس تضيق بمقدار انتشار الثقافة بينهم، وأن التدين مع الخرافة من عائلة واحدة، وأن العلم يوشك أن يطرد الدين من الساحة، إلى آخر ما تقرؤه مما ينشره كبار المثقفين وصغارهم، والمهم أن رؤية الواقع الذى أعيشه تكشف لى دلالات فى الآ التى أدرسها والحديث الذى أقرؤه، لأن الآية نزلت للزمان كله ومنه زماننا وزمانى الذى نعيشه وكل آية كأنها نزلت اليوم وهذا إعجاز.

قوله سبحانه ﴿ **قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٤) مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ** ﴾ [الجاثية: ١٤، ١٥].

هاتان الآيتان معنى واحد كالآيتين السابقتين والآية الثانية هنا معنى أشمل ومستوعب لمعنى الآية الأولى وكذلك كان هناك، وهذا الحذو المتشابه فى السورة له مدخل أساسى فى وحدة بناء السورة، وأرى أن التشابه فى الحذو فى هاتين الآيتين والآيتين قبلهما فيه إشارة ظاهرة للتشابه فى المعنى، وهذا

التشابه فى المعنى إذا أحسنا بيانه نكون قد بينا موقع الآيتين فى سياق السورة، وهذا من أغمض ما نسعى إليه.

وأول ما نلحظه فى هذا التشابه أن آيتى تسخير البحر وتسخير ما فى السموات وما فى الأرض ذُكِرَتَا بعد بيان أشد الغضب، وأشد الوعيد للذى يسمع آيات الله ثم يصر مستكبرًا كأن لم يسمعها، والآيتان تذكران فيض نعم الله على خلقه؛ كل خلقه بما فيهم هذا الذى يصر مستكبرًا كأن لم يسمعها، ووراء ذلك أن الله سبحانه وهو القادر القاهر العزيز الغالب يمنح فواضله لمن يُحَادُّه ويُعارِضُه ويحارب عباده الصالحين، يعنى يقابل السيئة بالحسنة فى الدنيا، ويترك الجزاء والعقاب لزمانه، والآيتان اللتان معنا يأمرنا فيهما ربنا عز وتقدس بأن نكون على شىء مما هو عليه، وله المثل الأعلى وأن نواجه سيئات الذين كفروا به والذين يسيؤون إلى دينه وعباده الذين أخلصوا له ليس بالعفو فقط، وإنما بالمغفرة التى تعنى مع العفو ستر الذنب، وكما أنه سبحانه منَّ على من كفر وأصَرَّ مستكبرا واستهزأ بآياته وسخر له ما فى السموات وما فى الأرض جميعًا منه، مَنَّ سبحانه علينا وعلى هذا الفاجر مَنّا آخر؛ أما مَنُّه عليه فقد طلب منا أن نغفر له، وأما منُّه علينا فقد جعل هذه المغفرة مِنَّا كَسْبًا صالحا نحظى بثوابه يوم يقوم الناس لرب العالمين.

وبهذا يظهر لنا سر موقع هاتين الآيتين، وأنهما امتداد طبيعى للسورة، وأن المعنى ينمو بهما نموا حيّاً.

وهذا الامتداد الطبيعى يغرى بالصمت عن كلام كثير قيل فى أسباب نزول الآيتين وأن رجلا من غفار شتم عمر فهمَّ عمر به فنزلت؛ أو أن ابن أُبَىًّ ذكر كلاما أساء المسلمين فهمَّ به مَنْ همّ؛ فنزلت أو أن ناسا من أصحاب رسول الله ﷺ أصابهم أذى من أهل مكة فشكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ فأمرهم بالتجاوز عن ذلك لمصلحة فى استبقاء الهدوء بمكة؛ والمتاركة بين

المسلمين والمشركين؛ ففى ذلك مصالح جمة، إلى آخر ما روت كتب التفسير وإن كان هذا الأخير أعدلها وأقربها إلى الغرض الذى دل عليه سياق الآية، وأنزع دائمًا إلى عموم اللفظ، وأبتعد ما أمكن البعد عن خصوص السبب، لأن الآيات لا ترتبط بأسباب النزول، والقدماء يعرفون ذلك، وفرق بين أن أذكر سبب النزول وأن أجعل الآية خاصة بهذا السبب؛ لأن هذا لم يقل به أحد من أهل العلم؛ وإن كان كثر فى كلام المشوشين على القرآن من أهل زماننا من الذين فى صدورهم كبر ما هم ببالغيه.

قلت إن الله سبحانه وتعالى يدلنا بفعله فى آيتى التسخير وبقوله لنا فى هاتين الآيتين يدلنا سبحانه على السلوك الواجب اتخاذه مع من يعيشون معنا من المخالفين لنا فى الدين، وأنهم إذا هموا بإثارة الفتنة فالواجب علينا نحن أهل الحق، ودعاة الحسنى أن نطفئ هذه الفتنة، لأننا الجانب الأحكم والأقوم والأكرم، وهذه الآية تضع القاعدة الأساسية التى يقوم عليها التعايش بين أهل الديانات المختلفة والأعراق المختلفة والطوائف المختلفة، وأن المسالمة والمتاركة والمسامحة، هى الأصل حتى ينصرف الناس إلى معاشهم، وهم آمنون، وأن يتركوا الشحناء والمنابذة والصراع الذى لا يأتى بخير لأحد، وهذا المعنى المتقدم جداً والمتحضر جداً لم يستوعبه البعض فى الآية، فذكروا أنها منسوخة بآية السيف، والحقيقة أنها ليست منسوخة بآية السيف، ولا هى ناسخة لآية السيف، وإنما لكل موضعه ولكل ضوابطه: ووضع الندى فى موضع السيف ليس سدادًا؛ وكذلك وضع السيف فى موضع الندى، ثم إن هذه الآية ذكر معناها فى آيات كثيرة كقوله تعالى ﴿فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلامٌ﴾ [الزخرف: ٨٩] وقوله جل شأنه: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا﴾ [الفرقان: ٦٣] وقوله سبحانه: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠] وقوله جل شأنه ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤٣] وغير ذلك كثير

جداً لم يقل أحد إنه منسوخ، ثم إن هذا من أصل مكارم الأخلاق التى بعث محمد صلوات الله وسلامه عليه ليتمها، وأين مغفرتنا ذنوب الذين لا يرجون أيام الله من تسخير الله ما فى السموات والأرض لهؤلاء أنفسهم؟ لأن الذين لا يرجون أيام الله هم الذين كفروا بآيات ربهم، وهم الأفاك الأثيم الذين تحدث الله عنهم بما تحدّت من غضب ووعيد، ثم حدّث بما تحدّث من عطائه ومَنّه وفواضله عليهم، أنا وأنت لن نعطيهم شيئًا وإنما نغفر لهم والذى بينى وبينهم أنهم كفروا بما آمنت به وأين هذا من الذى بينهم وبين الله؟ وقد استهزؤوا بآياته؛ وكفروا بآلائه، تم أعطاهم فيوضات من العطاء لا يحاط بها ولا يقادر قدرها؟

الآية الكريمة تكفنا عن محاسبة الناس وعن مجازاتهم لأن حساب الناس على رب الناس، ومجازاة الناس من رب الناس؛ والرسول الأكرم المبلغ عن ربه صلوات الله وسلامه عليه قال له ربه ﴿**فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ**﴾ وقال له ﴿**لَسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ**﴾ [الغاشية: ٢٢] فلا يجوز لنا أن نحاسب الناس لأن نبينا وإمامنا لم يحاسب الناس، ولا يجوز لنا أن نعاقب الناس لأن نبينا وإمامنا ليس مسيطراً على الناس، وإنما نحن فى أحسن أحوالنا دعاة، ولسنا قضاةً، ولا سجانين، وقد ندبنا الله إلى المغفرة، وهى المرتبة الأعلى من تلك المرتبة التى لا يجوز لنا أن نتجاوزها، لأننا إذا حاسبنا الناس فقد تجاوزنا، وإذا جازينا الناس فقد تجاوزنا.

وهذا الأمر لم يبلغه الله لنا على الوجه المألوف فى البلاغ؛ فلم يقل سبحانه يا أيها الذين آمنوا اغفروا للذين لا يرجون أيام الله كما قال سبحانه ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ**﴾ [الحج: ١] وإنما بلغنا هذا الأمر على لسان نبينا ﷺ وقال له ﴿**قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ**﴾ وربما كان فى هذا إشارة إلى أن الله سبحانه فوَّض الذى أمره بأن يأمرنا؛ وجعل له مساحة يرى

فيها الرأى، فإذا كانت المغفرة للذين لا يرجون أيام الله تحقق مصلحة أمرنا بها، وإذا كانت هذه المغفرة تورثهم لجاجة فى الإساءة إلى أهل الإيمان، وتدفعهم إلى الاستعلاء عليهم، والإحساس بضعفهم نهانا عن المغفرة، يعنى أن دَرْءَ المفسدة مقدم على جلب المصلحة، وأن المغفرة مندوب إليها بِقَدْرِ ما تحقق من مصلحة، ومن تعايش سلمى وتلاؤم بين أطياف الحياة الاجتماعية المختلفة الأديان والأعراق لأن من الضرورى أن تستمر الحياة فى هدوء ولأن الصراع يحول الحياة إلى جحيم وأن أهل الإيمان بالحق والبر والعدل هم الذين عليهم أن يمسكوا بزمام الأمر وأن يأتى اللِّينُ من جانبهم، وأن تكون المسامحة والمشاركة والمساهلة من جهتهم، وأن من يتولى أمرهم بعد نبيهم صلوات الله وسلامه عليه أن يقوم بأمر الله فيهم، وأن يطيعوه ما أطاع الله فيهم، فإن عصاه فلا طاعة له عليهم، أقول إن الأمر بقوله سبحانه ﴿قُل﴾ يصير فحواه إلى الذى يلى الأمر؛ بشرط أن يكون من أهل الإيمان، والمحافظين على حدود الله، فإن كان ولاؤه لأعداء الله وأعداء الأمة، فلا ولاية له عليهم، وعلى الذى يلى الأمر إن كان أهلاً أن يراقب بدقة وأمانة، وأن يميز بين الحالة التى يقول فيها لأهل الدين اغفروا للذين لا يرجون أيام الله، والحالة التى لا يقول لهم فيها ذلك، ولنراجع الأحوال المذكورة فى سورة الشورى، ومتى يترجح العفو على الانتصار، ومتى يترجح الانتصار على العفو، مع الميل الشديد إلى ما تصلح به حياة الناس؛ والله سبحانه وتعالى يعلم أن صراع الأديان وبال هالك لأهل الأرض، ولهذا دعا إلى الصفح والمتاركة، حتى لا تشتعل الفتن بأسباب واهية، وأمر أهل الإسلام أن يقولوا لأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم، وحثهم على أن يبحثوا عن المشترك الذى يجمعهم، وخاطب كل أنبيائه سبحانه ورسله، وقال لهم إن هذه أمتكم أمة واحدة: **﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ۝٥١ وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾** [المؤمنون: ٥١، ٥٢].

هذه الآية من أعظم الآيات التى تحقق الأمن على الأرض؛ وتحقق الأمن بين الناس وقد لوحظت فيها خصوصيات ميزتها، وأرى أن الخصوصيات المميزة للآيات تشير إشارة واضحة إلى أن معناها عند الله بمكان، من هذه الخصوصيات أنه ليس فى القرآن ﴿قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا﴾ إلا هذه الآية، نعم فيه ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ [النور: ٣٠] وفيه: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾، ومثله كثير، ولكن ليس فيه ﴿قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا﴾ إلا هذه الآية، ثم إنه ليس فى القرآن ﴿لِلَّذِينَ لا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ﴾ إلا فى هذه الآية.

وقوله سبحانه ﴿يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ﴾ كلمة ﴿يَغْفِرُوا﴾ ليست مقول القول لأنه عليه السلام لم يأمره ربه أن يقول لنا ﴿يَغْفِرُوا﴾ وإنما أُمر بأن يقول لنا اغفروا وهذا المفعول محذوف والمذكور جوابه، وأصل الكلام قل للذين آمنوا اغفروا يغفروا، وكان يمكن الاستغناء عن جواب الأمر وأن يقال قل للذين آمنوا اغفروا للذين لا يرجون أيام الله، ولكن الآية جاءت على ما جاءت عليه للإشارة إلى سرعة استجابة الأمة لقول حبيبها صلوات الله وسلامه عليه، وأنه ما إن يبلغهم أمرا من أمر ربه إلا أجابوه، وما إن يقول لهم اغفروا إلا غفروا، وهكذا كانت ولا تزال؛ ولا يشذ عن هذا إلا هالك.

وأيام الله تعنى وقائعه، كأيام العرب تعنى وقائعها؛ كيوم حليمة؛ ويوم تميم؛ ويوم ذى قار، إلى آخره؛ وسر تسمية وقائع هذه الأيام بالأيام؛ هو أولا أنها زمان الوقائع وإطلاق الزمان عليها من إطلاق المحل على الحال، وهذا ظاهر، والسر الذى وراء هذا هو أن هذه الوقائع معلومة ومشهورة ومتعالمة، ولم يقع أيام وقوعها شىء يزاحمها، فَعُرِّفت بالأيام، وصار الزمان علما عليها؛ لعزتها وتميزها؛ وهذا من المجاز العالى، وأيام الله تعنى وقائعه التى ينصر فيها من نصروه، ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ﴾ [الحج: ٤٠]، ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ﴾ [غافر: ٥١] ووقائعه

أيضًا التى يوقع عذابه فيها على أعداء دينه وكتبه ورسله، كأيام الأحزاب وأيام قوم نوح وعاد وثمود ونوازله سبحانه التى أنزلها على من كانوا أشد منهم قوة وآثارا فى الأرض.

وأيضًا أيام الله تعنى ﴿يَوْمَ التَّنَادِ (٣٢) يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾ [غافر: ٣٢، ٣٣] والذين لا يرجون أيام الله هم الذين كفروا، وهم الأفاك الأثيم، والفرق بين الذين كفروا، والذين لا يرجون أيام الله، هو الفرق بين الكناية والتصريح، لأن الذين لا يرجون أيام الله كناية عن كفرهم بأيام الله، وذلك لأن من آمن بها لا محالة رجاها، لأنها ترجى وتتقى، فالذى لا يرجوها هو الذى لا يؤمن بها وهذه الكناية تشبه الكناية التى فى قول أمير المؤمنين رضى الله عنه فى وصف مجلس رسول الله ﷺ (لا تُنْثَى فلتاته) يعنى لا تذاع فلتاته، وليس مراده رضى الله عنه أن فيه فلتات لا تذاع، وإنما أراد نَفْىَ الفلتات لأنها لو وجدت أذيعت لا محالة، ومثله «على لاحب لا يهتدى بمناره» ليس المراد نفى الاهتداء بالمنار وإنما المراد نفى المنار لأنه لو وجد لاهتدى به قطعا، وكل هذا يعنى أن الله أمرنا أن نغفر لمن لا شك فى كفرهم بالله، وفى هذه الكناية شىء عجيب جداً وهى أن الله جَلَّ وتقدس أمرنا أن نغفر للذين ينكرون أيامه إنكارًا قاطعا، ويقول لنا من وراء ذلك اعلموا أن من كفر أو أنكر أو كان منه ما كان لن يضرنى فى شىء، فلا تشغلوا أنفسكم بمعاداة من عادانى ولا تعكروا صفو حياتكم بالمشاحنة مع هؤلاء وإن أوغلوا فى الكفر وأبعدوا فى الإنكار.

وقوله سبحانه ﴿لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ موقعه مما قبله كموقع ﴿لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ﴾ مما قبله، يعنى هو علة وهناك علة التسخير وهنا علة الأمر المحذوف، أى قل لهم اغفروا ليجزى قوما، وذكرت هذا لأشير إلى مزيد من تقارب حذو البناء فى الآيتين، اللتين هما رأس المعنيين، وهذا التعليل هنا تأكيد للأمر بالمغفرة لمن أساؤوا الأدب مع الله، ولجوا فى إنكار

آياته، وهذا عجيب كما قلت ومعنى من أنبل المعانى الإلهية؛ وأدلها على عز الربوبية، وأنه كما أغدق عليهم فواضله فى تسخير ما فى السموات والأرض أيضًا أغدق عليهم فواضله بأمر أوليائه بأن يغفروا لهم، وهذه الجملة بنيت بناء صارت به تحتمل أكثر من معنى؛ وذلك بذكر كلمة ﴿قَوْمًا﴾ ولو كانت الجملة ليجزيهم بما كانوا يكسبون لعاد الضمير على الذين آمنوا؛ وكان المعنى قل لهم اغفروا للذين لا يرجون الله ليجزيهم الله على الغفران؛ وذكر كلمة ﴿قَوْمًا﴾ جعلت الآية تحتمل ليجزى الذين آمنوا، وليجزى الذين لا يرجون أيام الله، وجزاء الأولين هو الرحمة، وجزاء الآخرين هو العذاب، وتحتمل أيضًا ليجزى هو سبحانه بذاته الذين لا يرجون أيام الله، ويكون المعنى اغفروا ولا تجازوا لأن الجزاء من الله وهذا هو وجه توكيد الأمر بالمغفرة، يعنى كفوا أنفسكم عن المجازاة، وكثير من المفسرين حمل المجازاة على المجازاة بالحسنى للذين غفروا، وأن الله أمرنا بالمغفرة لنغفر ونصبر على إساءتهم وما نجده فى نفوسنا من غضاضة ومضض لإساءة هؤلاء الضالين، بناءً على هذا الفهم فسَّروا كلمة ﴿قَوْمًا﴾ على أنها من وضع المظهر موضع المضمر إذ الأصل ليجزيهم، وإنما وضع المظهر موضع المضمر للدلالة التى فى كلمة ﴿قَوْمًا﴾ وأن التنكير فيها دال على أنهم قوم أى قوم، وأن المغفرة والمسامحة والمتاركة طبع طبعوا عليه، وخلق لازمهم، حتى صار من قوامهم، وجزءا من ماهيتهم، ويناصر هذا المعنى كلمة ﴿كَانُوا﴾ لأنها فى هذا الموقع تدل على أن خبرها صار جزءا من ماهية اسمها، يعنى أن كسب المغفرة والمسامحة جزء من ماهيتهم، وأن المضارع فى قوله ﴿يَكْسِبُونَ﴾ دال على تجدد هذا الفعل الكريم والخلق المرضى وأنهم يفعلون ذلك فعلا يحدث ويتجدد كلما حدثت دواعيه وتجددت.

وإذا أريد مجازاة الذين لا يرجون أيام الله أفادت هذه الأحوال عكس هذه المعانى، فهم قوم بلغوا فى خبث النفس والإفراط فى الإساءة مع الله ومع

الناس مبلغا صاروا به فى صورة غريبة غير مألوفة ومنكرة غير معروفة؛ وأن قوامهم قائم على هذا السوء، وعلى هذه الرذائل، وأن كسبهم لهذه الرذائل طال وصار طبعا من طباعهم، وأن كسب السوء هذا يحدث ويتجدد فى الوقت بعد الوقت، وهذه المعانى المتناقضة، والمتضاربة قائمة فى الأحوال اللغوية والسياق ينطقها بما يقتضيه، ولابد أن نذكر أن الله سبحانه وتعالى شرع لنا المجازاة وهى الأصل فى قوله تعالى ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠] ثم ندبنا إلى العفو فى قوله جل شأنه ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠] ثم أكد لنا حق المجازاة ﴿وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُوْلَئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ [الشورى: ٤١] وقد استوفت سورة الشورى الكثير من الأحوال وبين العلماء المواقف التى يُسْتَحْسَنُ فيها العفو، والمواقف التى تستحسن فيها المجازاة، وقد نبهت إلى ذلك وكررت التنبيه لأنها أوفى ما فى الكتاب العزيز بهذا المعنى.

قوله سبحانه: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ [الجاثية: ١٥].

هذه الآية من تمام معنى الآية قبلها لأنها عام جىء به بعد الخاص كآية تسخير ما فى السموات وما فى الأرض بعد آية تسخير البحر، وراجع قوله سبحانه ﴿لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ وضعه بإزاء هذه الآية تجد هذه الآية شرحا لقوله ﴿لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ لأن الذى يكسبون قد يكون إحسانًا وهم يجزون به فهو لأنفسهم وقد يكون إساءة وهم يجزون به وهو عليهم، وقد رجح بها القائلون بأن قوله تعالى ﴿لِيَجْزِيَ قَوْمًا﴾ شامل للذين يغفرون والذين لا يرجون لدلالتها على الاثنين دلالة صريحة.

ولست فى حاجة إلى أن أبين تماسك المعانى من أول السورة وانتهاء بهذه الآية لأن ذلك ظاهر، وكان الرازى لا يمل من تكرار مثله لأن وجوه ترتيب المعانى عنده وجه من وجوه الإعجاز البلاغى بل هو الوجه الكبير الذى يقابل الإعجاز فى النظم

الذى ذكره عبد القاهر، ويكفى أن نذكر أن الآية التى قبلها حديث عن نعم الله التى لا يكفها عن أعدائه فضلا عن أوليائه، وأن من إكرام الله للذين لا يرجون أيامه أن كف أولياءه عنهم وعن مشاحنتهم، وحثهم على أن يغفروا لهم، مع أن عباده ﴿لا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ﴾ وفى هذا الوصف تشهير بسوء أدبهم مع الله لأن الذى لا ترجى أيامه فى بيان العربية يعنى أنه لا يؤبه به، ولا يلتفت إليه، وهم يمدحون أصحاب الوقائع والأيام ويذمون من لا يرجى ولا يتقى يعنى لا ترجى فواضله، ولا تتقى نوازله، وهؤلاء الذين يحثنا ربنا على أن نغفر لهم يذكرونه بذكر السوء هذا وهو سبحانه تعالى وتقدس، موصوف بكل كمال ومنزه عن كل نقص أقول راجع هذا وأبحث عن شوابكه بالذى قبله، ودعنى أقول إن الانتقال من الخصوص فى آية ﴿قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا﴾ إلى العموم فى هذه الآية هو الكلام الجارى ويسميه حازم القرطاجنى فى الشعر الانتقال من المعانى الشعرية - يعنى المعنى الجزئى - إلى المعانى الخطابية يعنى المعنى الكلى كما فى قول أبى الطيب:

وقيَّدْتُ نفسى فى ذُراك مَحَبَّةً ... ومن وجد الإحسانَ قَيْدًا تقيدا

فقد انتقل من معنى جزئى هو «قيدت نفسى فى ذراك محبة» إلى معنى كلى هو «ومن وجد الإحسان قيدا تقيدا» أو من معنى شعرى إلى معنى خطابى، وهذا المهيع فى الكتاب العزيز ومنه هذه الآية ولكنه لا يوصف بعضه بأنه معنى شعرى، ولا بعضه بأنه معنى خطابى لأن القرآن ليس فيه شعر ولا خطابة وإنما هو أمر الله ونهيه ودينه وكتابه وآية نبيه ﷺ، والمقصود بالمعنى الشعرى والخطابى عند حازم غير موجود فى الكتاب العزيز.

وأول ما يلاحظ فى الآية أن الكلام انتقل عندها من الجمع الذى فى قوله تعالى ﴿قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ﴾ إلى الإفراد ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ﴾ والآية السابقة تشير إلى أصل من أصول التعايش الإنسانى الهادئ والذى يجب أن يكون فيه بر ومهادنة لأن الحياة لا تستقيم إلا على

المسالمة، والبر والمهادنة، أقول الآية تضع أساس الحياة الهادئة بين فريقين متدافعين فى الديانة: فريق المؤمنين وفريق الرافضين للإيمان والمتطاولين على مقام الألوهية، وهذا لا يناسبه إلا ذكر الجماعة، وهذه الآية تتحدث عن المسؤولية الفردية التى يحاسب الله عبده عليها، وأن له ما كسب وعليه ما اكتسب، وأنه لا تزر وازرة وزر أخرى، وأنه ليس له إلا ما سعى، وأنه كل امرئ بما كسب رهين، وأنه لاتُبْسَلُ نفس إلا بما كسبت، وهذا مقام الخصوص ولا يخاطب فيه اثنان، وإنما يخاطب كل بفعله وحده، وله طائره الخاص به، وطائره فى عنقه هو، وليس فى عنق غيره، وهذا أكرم مبدأ يصنع الإنسان الذى هو فرد مستقل يفكر بعقله لا بعقل غيره ويختار بوعيه لا بوعى غيره، ويمشى على قدميه ويتكئ على ذات نفسه، ويكون فردا وحده، محسوبًا لأنه من حقه أن يحسب؛ لأنه ليس كائنا فى سرب يصوت بما يصوت به السرب، وإنما هو صوت متميز ونغمة متميزة ووجه متميز، وكما ميز الله شخصه، وبناءه، ووجهه عن وجه غيره ميز وجوده النفسى والباطنى، وجعل عقله يختلف كما أن وجهه يختلف، وجعل باطنة مستقلا كما أن ظاهره مستقلا، وهؤلاء هم الجديرون بأن يُعَدُّوا، وأن يُذْكَرُوا، وليسوا المقلدين الذين يحفظون ما عند الآخرين، ويصوتون بأصوات الآخرين ويفكرون بعقول الآخرين، وتدور ألسنتهم بما دارت به ألسنة الآخرين، هؤلاء ببغاوات وقد تكون بيضاء، كالأغربة البيض، وقد تراها محلقة فى السماء وقد تراها تحكم، وتراها تتولى الأمور المهمة، ونقرأ وصفها بالتفوق، والثقافة والتنوير إلى آخره، ولكنها فى النهاية ببغاء متنورة أو متطورة، أو ببغاء وزيرة أو رئيسة وهى شر الثلاثة التى خوطبت بها أم عمرو.

وبدأت الآية بالذى يعمل صالحا، وذلك لشرف العمل الصالح وشرف العاملين عملا صالحا، لأنه صادر عن وعى فردى واقتناع فردى، وحب وحميمية للعمل الصالح وهذا هو الذى ينفع الناس.

وكلمة ﴿صَالِحًا﴾ صفة لموصوف محذوف أى عملا صالحا، وحذف الموصوف للإشارة إلى أن المهم هو الصفة وهى صلاح العمل، والكلمات القرآنية فى حاجة إلى أن نفكر فيها تفكيرا ثانيا يزيل ما عساه يكون قد لحق بها، لأنى أرى فى هذه الكلمة معانى طالما أغفلناها، منها أنها لم تسكت عن الموصوف فحسب وإنما سكتت عن نوع العمل، لأن كلمة العمل كلمة عامة، فالزراعة عمل، والصناعة عمل، والكتابة عمل، والقراءة عمل، والسياسة عمل، وكل ما يبذل فيه نشاط إنسانى هو عمل، وكل ما تدور به عجلة الحياة هو عمل، وكل ما تأكله عمل عمل فيه العاملون، وكل ما تلبسه، وكل ما فى مسكنك وكل ما فى طريقك إلى آخره، وكل هذا مسكوت عنه، وإنما فقط أن يكون صالحا، يعنى أن يكون خاليًا من الفساد، وخاليًا من الغش، ومن النصب، والتلبيس، والتدليس، والاحتكار إلى آخر كل ما يفسد به كل عمل فى الزرع والضرع والمصنع والمدرسة والسياسة إلى آخره، فالصلاح الذى يحسب لعامله هو الإحسان، والإتقان، والصلاح لأى عمل يزاوله سواء كانت يده خشنة من حمل المطرقة، أو ناعمة تحمل قلما، أو ما شئت، وهذا معنى جليل جداً ومتسع جداً وصانع للتقدم، والحضارة، لأن الآية قبل أن تتحدث عن صالح العمل، أومأت إلى الفرد الذى هو صوت متميز، وعقل متميز، ورؤية متميزة، ثم ثنت بصالح العمل، قلت إن تخليص كلمات القرآن مما علق بها أمر واجب وليس هذا تجديدا لفهم القرآن وإنما هو الفهم البسيط والواجب، لأن كلمة ﴿صَالِحًا﴾ صارت فى نفوس أكثرنا دالة على الصوم والصلاة والبر والذكر، وهذه وما فى معناها من أجل الأعمال الصالحة، ولكن لفظة القرآن مطلقة وقالت ﴿صَالِحًا﴾ فقط ولم تخص هذا الصالح بعمل دون عمل، وقصر كلمة ﴿عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ على هذه العبادات بتر لشطر الكلمة وإبعاد له، والغريب أن الآية التى معنا قالت ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ﴾ ولم تقل من عمل صالحا وهو مؤمن لأن الإيمان شرط

فى قبول العمل الصالح وأى بر وعمل صالح مع الكفر بالله فهو عمل مردود ولأن الله سبحانه لا يقبل من أعدائه براً ولا عدلا، والآية لم تذكر هذا اعتمادا على السياق لأنها من تمام آية الذين آمنوا والذين لا يرجون أيام الله، ثم إن هذا صار من المعلوم من الدين بالضرورة وكلمة ﴿فَلِنَفْسِهِ﴾ اللفظ يدل على العمل الصالح، والذى لنفسه هو ثواب العمل الصالح، ولكن الآية الكريمة وضعت العمل موضع ثواب العمل، فالذى لنفسه هو العمل وعليه أن يجوده وأن يحسنه وأن يتقنه، لأنه لن يَجِدَ ثوابه وإنما سيجده هو فإذا كان كذلك فالواجب زيادة التجويد، وزيادة التحسين ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا﴾ [الكهف: ٤٩] ومسألة أن لك عملك لا عمل غيرك؛ وأنك لا تنتفع إلا بما عملت يدك، مسألة مهمة جداً لأنها عَدْلٌ محض، وأنك بمقدار ما تبذل تجد، وهذا مجتمع لا يعرف عاطلين يجدون كل شىء، ومكدودين لا يجدون شيئًا، كالمجتمع الظالم الذى نحن فيه، والذين ترى فيه عاطلين غارقين فى النعيم، وترى مكدودين معروقين لا يجدون ما يعيشون به، ومبدأ ليس لك إلا ما عملت، وليس لك شىء إذا لم تعمل من أرقى المبادئ وأقدرها على إشعال النشاط، والجد، واليقظة والاحتشاد ما دام الكل يعلم أنه كل ما يعمله من صالح صغير أو كبير عائد إليه، وحده، لا يستطيع أحد أن ينقص من حقه شيئًا، وقوله سبحانه ﴿وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ هذه الجملة معطوفة على التى قبلها وهى مقابلة لها، وتحتاج فى فقه المقابلة إلى الانتقال من مقابله جملة لجملة إلى رؤية ثانية تنتقل إلى مقابلة حدث بحدث لأن الجملة وراءها حدث، وهذا هو موضع المقابلة، فالذى هنا وإن قابل أساء بصالح وقابل عليها بِلَهَا فالذى فى الحقيقة أنه قابل فريق صالح الأعمال التى بها عمارة الأرض، وبها سعادة الناس، وتقدمهم ورخاؤهم بفريق سيئ الأعمال يفسد على الناس حياتهم ويسوءهم بغشه وفساده وتدليسه، والبلاء الأعظم حين يكون هؤلاء المفسدون تحت مظلة السلطان الأعظم وعصابة السلطان الأعظم

تحميهم وتُهرِّب من حكم عليه القضاء منهم ومغول السلطان الأعظم ينزعونك من بين أطفالك فى جنح الليل، ويتسترون على الهاربين من المفسدين من ذوى السلطان، أوْ من خدم «الأغا» كبير المغول الباطشين بالمعذبين فى الأرض هذا هو فقه المقابلة، فإذا كنت تدرس الطباق بين الليل والنهار فلا تدرس الطباق بين الكلمتين وإنما أدرس الطباق بين الظلمة المليئة بالمخاطر والضياء الذى يكشف الحقائق ويكشف اللبس والتدليس والغش والخداع.

وقد خالفت الآية بين الصلتين فقالت فى الأولى ﴿عَملَ صَالحًا﴾ وقالت فى الثانية ﴿أَسَاءَ﴾ ولم تقل عمل سوءا، لأن كلمة ﴿أَسَاءَ﴾ أشمل من عمل سوءا، فقد يسيئ بالقول وليس بالعمل وقد يسيئ بالصمت والإقرار، وقد يسيئ بالإشارة، وقد يسيئ بإفساح الطريق لهروب اللصوص والقتلة، وكل هذا يمكن أن يدخل فى الصالح، فقد يصلح بالصمت والإقرار وقد يصلح بالقول وليس بالعمل، وقد يصلح بالإشارة إلى آخره، ومجىء الصلتين شاملتين للأحوال كلها هو المطلوب، فذكرت الأولى العمل الصالح لأنه الأشرف والأكرم وتناط به عمارة الأرض، ثم ثنت بكل الضروب والأحوال التى تتيح السوء وتتيح الصلاح أيضًا، ولابد من ملاحظة أن الذى على نفس من أساء هو السوء، وليس عقاب السوء كما قيل فى الجملة قبلها، وأن الذى على نفسه هو السوء الذى صنعته يده يأتى به يوم القيامة، وليس عليه وزر عقاب الذنب، وإنما عليه الذنب نفسه، إن كان دما رأيت الدم عليه، وإن كاف نهبًا رأيت المنهوب عليه، وإن كان قد اغتصب شبر أرض طوق به من سبع أراضين، والويل لمن ينهبون أرض الوطن ويوزعونها على الأصهار والأحباب والخدم، ولست أدْرِى كيف يطوق من سبع أرضين من نهب مئات الآلاف من الأفدنة.

ثم إن من الغريب العجيب الذى تحار فيه العقول أن تكون الكلمات الدالة على أنجع المعانى وأنفعها وأحراها بإقامة العدل فى الأرض وإثارة النشاط

وبعث الهمة الصادقة فى عمارة البلاد مصوغة فى كلمات سهلة جداً يحفظها أشباه العامة، مثل ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾، فإنه يدهشك أن تسمع هذه الجملة من الناس الذين لم يتثقَّفُوا ولم يَتنوَّرُوا وإذا وزنتها وجدتها أرجح من كل تنطُّس المتنورين والمتحذلقين والمثقفين.

ولم أعرف كلمة ﴿وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ بإسناد كلمة ﴿أَسَاءَ﴾ إلى المفرد فى الكتاب العزيز إلا فى هذه الآية وفى أختها فى سورة فصلت ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾.

وتفرد الكلمة أو تفرد الإسناد أو تفرد الجملة وراء كل ذلك وما يشبهه فى الكلام العالى ما وراءه، ولما رأيت كلمة ﴿حَرَضًا﴾ لم تذكر إلا فى قوله تعالى ﴿تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾ [يوسف: ٨٥] وراجعت هذا الكلمة رأيت قصة يوسف عليه السلام كلها منطوية تحتها لأن الحرض هو الشىء الذى لا يلتفت إليه ولذلك أطلق على الذى يشفى على الهلاك وأراد أبناء يعقوب حتى تكون بمثابة الهالك وأنت حىٌّ.

وكانت الفاصلة فى فصلت ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ لأنها سبقت بقوله تعالى ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ [فصلت: ٤٥] فاستدعى ذكر القضاء نفى الظلم، وسبقت فى الجاثية بقوله تعالى ﴿لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ﴾ فاستدعى ذلك ذكر الرجوع إليه لأن يوم الرجوع إليه سبحانه هو يوم الأيام ويوم الوقائع.

وقوله سبحانه: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ جملة معطوفة بكلمة ثم التى تفيد الترتيب والتراخى، على جملة ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا﴾، وما عطف عليها من جملة ﴿وَمَنْ أَسَاءَ﴾ لأن ﴿إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ يقتضى جمع الطرفين السابقين من عمل صالحا ومن أساء والتراخى يفيد أن الله سبحانه وتعالى يمهل ويملى ليزداد المحسن إحسانا، وليرجع الذى أساء، ثم إنها تشير من وجه آخر إلى أن الرجوع إليه جل شأنه مقام آخر وموقف آخر، وله مهابة

أخرى ومخافة أخرى وأن من عمل صالحا ومن أساء فى فسحة من الأمر، ومقامهم فى هذه الفسحة مقام آمن، وهادئ فإذا ما انتقلوا إلى ربهم يوم الرجعة كان الشأن شأنا مختلفا لأن يوم الرجعة هذا هو يوم التناد ويوم التلاق، ويوم يفر المرء من أخيه، ويوم يجعل الولدان شيبا إلى آخر ما جاء فى وصفه وفى هيبته وفى أهواله ومخافته، وأن الصالحين من خاصة عباد الرحمن، يعملون من الصالحات ما يعملون وقلوبهم ﴿وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ فهذا مقام الوجل، وثم تشير إلى هذا، ومما يدلك على شدة الحفاوة بهذه الجملة أن معناها جاء متضمنا فى الآية السابقة، وفى الجملة السابقة عليها أما تضمنه فى الآية السابقة ففى قوله تعالى ﴿لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ لأن الجزاء لا يكون إلا بالبعث ولا يكون إلا من الله، ولفظ الآية أسند الجزاء إلى الضمير العائد على لفظ الجلالة وهذا ظاهر، وقوله سبحانه ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ لا معنى للبشارة فى الجملة الأولى ولا للنذارة فى الجملة الثانية إلا إذا كان الكلام متضمنًا البعث والرجوع إلى الله، لأنه سبحانه هو الذى يجعل الصالح لها والسيئ عليها، ثم جاء المعنى صريحًا بعد هاتين الإشارتين لأنه الأصل الذى يقوم عليه كل أمر الله ونهيه ومن يؤمن بهذا اليوم ويخشاه ويتقيه هو الذى ينفع معه الإنذار، ومن لم يؤمن به لا ينفع معه إنذار ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا﴾ [النازعات: ٤٥] ولم تكتف الجملة الكريمة بالتصريح بعد التعريض ولا بكلمة ثم الدالة على بعد ما بعدها فى المقام عن الذى قبلها وإنما أضافت ذكر كلمة ﴿رَبِّ﴾ مع أن لفظ الجلالة قد تقدم فى قوله ﴿لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ﴾ واقترن لفظ ﴿رَبِّ﴾ بالالتفات لأنه أضيف إلى ضمير المخاطبين وكان الكلام جاريا على الغيبة ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ ومقتضى هذا أن يقال ثم إلى ربهم يرجعون ولكنه عدل والتفت ليشير ويثير، ويوقظ وينبه،

وأن هذا المقطع من مقاطع المعنى يجب أن يراجع لأنه من المكانة بمكان، ومعانى العناية والرعاية والإنعام والإكرام أظهر فى لفظ ﴿رَبِّ﴾ ومعانى الهيبة والجلال والتقديس أظهر فى لفظ الجلالة، والمراد والله أعلم أن الذى عمل صالحا سيرجع إلى ربه الذى أكرمه ونعمه وهداه وأعانه، ووفقه لعمل الصالحات، وفى ذلك من البشاران ما فيه، ثم إنه يعود بصالح الأعمال إلى الذى أكرمه وكرمه، وأن الله سبحانه يرضى منه، ويقبل منه، ويشكره، جل شأنه، ويضاعف له الحسنات، ويعود إليه الذى أساء وقد باء بنعم الله عليه، وباء بغضبه، وباء بنكرانه، للذى بات فى نعمائه يتقلب وهذا أشد وأوجع لأنه ليس فى الخبث أخبث ولا أبشع من كفر المنعم، وكلمة ﴿تُرْجَعُونَ﴾ يدل بناؤها للمجهول على أن الرجعة لا حول لكم فيها ولا قوة وأن من آمن بها ومن أنكرها سواء، فالذين يؤمنون بها لا يرجعون إلى الله بأنفسهم؛ ولا يستطيع أحد أن يتخلف عنها؛ ثم إن المقصود الأهم هو وقوع الفعل على المفعول من غير أن يتعلق الغرض بالفاعل، وأن رجوعكم إلى الله هو الحق الثابت، ثم إن الفاعل لا يحتاج أحد إلى معرفته لأن هذا الفعل ليس له إلا فاعل واحد هو الله سبحانه، هذا وجه البناء للمجهول أما اختيار كلمة ترجعون التى تفـ عودتكم إلى ما بدأتم منه، فقد وجهها الطاهر على أنها استعارة تمثيلية شـ حالهم بحال من كان بعيداً عن سيده أو أميره فعمل ما شاء ثم رجع إلى سيد أو أميره فإنه يلاقى جزاء ما عمله، انتهى كلام الطاهر، ويمكن أن يقال إن الرجوع إلى الله حقيقة لأننا بدأنا منه سبحانه لأنه هو الذى خلق وهو الذى أخرجنا من بطون أمهاتنا فإذا رجعنا إليه سبحانه نكون قد عدنا إلى ما ابتدأنا منه، ويكفى هذا فى عدّ الرجوع حقيقة، ويكون هناك اختلاف بين إليه المصير، وإليه ترجعون، لأن الثانى فيه تذكير بنعمة البداية والوجود من العدم وهذه نعمة منَّ الله بها علينا وذكرنا بها ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٨].

ويرجح هذا الاحتمال استعمال كلمة ﴿تُرْجَعُونَ﴾ فى هذه الآية لأنها أشارت إلى العودة إلى حيث بدأنا، وإذا صح هذا وهو صحيح إن شاء الله كان إيثار كلمة ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ هنا لمزيد التأكيد على النعم التى أومأ إليها استعمال كلمة ﴿رَبِّكُمْ﴾ كما قلنا والتى يقتضيها سياق فيض نعمه على من خلق من مؤمن وكافر، وبر وفاجر، وأنه سبحانه يحث أهل الإيمان على أن يغفروا للذين أساؤوا الأدب معه، وأنكروا أيامه، لأن وصفهم بأنهم لا يرجون أيامه وصف بالكفر وزيادة سوء الأدب مع الذى خلقهم جل وتقدس هذا والله أعلم.

قوله جل شأنه: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (١٦) وَآتَيْنَاهُم بَيِّنَاتٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [الجاثية: ١٦، ١٧] ذكرت فى علاقة الجاثية بالدخان أن هاتين الآيتين من تمام ما جاء فى الدخان فى شأن بنى إسرائيل، وذكرت أن ما جاء فى «آل حم» من قصة موسى عليه السلام مرتب بعضه على بعض فالذى جاء منها فى الزخرف مرتب على الذى جاء منها فى غافر، والذى جاء منها فى الدخان مرتب على الذى جاء منها فى الزخرف، وأن قصة موسى عليه السلام قسم منها مع فرعون وقسم مع بنى إسرائيل، وأن قصة موسى عليه السلام مع فرعون بدأت فى غافر وقاربت النهاية فى الزخرف ثم أوجزتها الدخان إيجازا ظاهرا لتؤسس على هذا الإيجاز بداية الحديث عن قصة موسى عليه السلام مع بنى إسرائيل التى بدأت بذكر نجاتهم من فرعون وكانت البداية بذكر هذه النجاة داعية لتلخيص ما لخصت الدخان، ثم جاءت هذه الآيات فى الجاثية لتحدث عن ما بعد نجاة بنى إسرائيل وإكرام الله لهم ثم ما كان منهم مما ذكرته هذه الآيات.. وهذا ظاهر الدلالة على أن آل حم كأنها سورة واحدة وأن بعضها يتم بعضا.

والذى أريده الآن هو بيـان روابط هذه الآيات بآيات الجاثيـة وكيف كـانت امتدادا لآيات الجاثية؟ ومن أسرار بيان هذا الكتاب العزيز أنك تجد هذه الآيات امتدادا لقصة موسى فى آل حم ثم هى امتداد لآيات الجاثية التى جاءت فيها، وأنها لم تجتلب لتمام الكلام فى شأن بنى إسـرائيل وإنما هى فى موقعها؛ لها امتداد آخر؛ وارتباط آخر بهذا الموقع؛ وهى نمو طبيعى لآيات السورة، وعليك أنت أيها القارئ أن تراجع حركة المعنى فى السورة وأن تلاحظ أنها مكونة من مجـموعـات وكل مجـموعـة مكونة من جـمل وآيات، وأن الروابط المكونة للمـجمـوعة الواحـدة روابط ظاهرة والذى يحـتاج إلى مـراجعـة هو روابط المجمـوعات ووجوه ترتيـب بعضهـا على بعض، فالآيتان اللـتان معنا مـثلا تتكلمان فى شأن واحـد، أو معنى واحد، هو بنو إسرائيل ونعـمة الله عليهم وهذا ظاهر؛ وبيان امتدادها للذى قبلها أيضًا ظاهر، ولكن بعد المراجعة وهذا ما أعنيه من مراجعات علاقات المجموعات المكونة للسورة؛ أو الفقرات المكونة للسورة، وأفضل ما أدركه وأَوْقَـعُه فى نفسى أن أرى هذه المكونات، وقد أخذ بعضها بحجزة بعض وأدمج بعضها فى بعض؛ وتولد بعضها من بعض، وقد ذكرت من ذلك ما يعين على ما لم أذكره.

وأرى الآيات السابقة يدور الكلام فيـها حول آيات لا ينكرها صاحب فطرة سليمـة، ثم تقابل بالرفض من فريق، ثم تتـواتر آيات الله ونعم الله على من آمن، ومن كفـر، ثم يخص الذين لا يرجون أيامه بعطيـة خاصة وهى مغـفرة الذين آمنوا لهذه الفئة الظالمة، وعند آياتنا هذه تنتقل النعم بين تسخير السموات والأرض إلى نعم روحيـه هى الكتاب والحكمة والنبوات ثم تكون هذه الـنعمة لأبناء نبى الله يعـقـوب بن نبى الله إسـحاق بـن نبى الـله إبراهيم، ثم يكون منهم مـا يكون من سائر النـاس إلى آخره، وهذا دمج ظاهر لهـذه الآيات فى سياق السورة، وإن أردت مزيدًا من هذا فـراجع قوله سبحانه ﴿**إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ**﴾ تجده ليس بعيـدًا عن الأفاك الأثيم

الذى أفك وأثم بعد آيات الله التى تتلى عليه والتى لا يؤمن الناس على آيات أفضل منها، وراجع اختلافهم بعد إتيانهم بينات من الأمر ليقوى الشبه عندك بينهم وبين الأفاك الأثيم، وراجع افتتاح الآيات بقوله سبحانه ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ والإتيان هو العطاء وضعه بإزاء ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ تجد امتدادا للعطاء وإن كان قد اختلف من عطاء حسى إلى عطاء روحى، وبالمناسبة راجع الافتتاح فى الدخان بقوله ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا﴾، وهى مكونة من أربع كلمات، الواو، ولام الابتداء، وقد، والفعل الماضى وقوله سبحانه ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا﴾ تتفق معها فى الكلمات الثلاث الأولى وذلك إشارة لا تهمل ثم تأتى ﴿آتَيْنَا﴾ وهى من واد آخر ليس هو الوادى الذى منه ﴿فَتَنَّا﴾ وكلمة ﴿فَتَنَّا﴾ فى الدخان تأرز إلى الكلمة التى قبلها ﴿يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ و﴿آتَيْنَا﴾ فى الجاثية تأرز إلى قوله سبحانه ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ﴾.

ولك أن تقول إن هذا الجزء من قصة بنى إسرائيل والملخص فى اختلافهم حسدا وبغيًا بعد النعم والآيات والحُكم والرزق من الطيبات إلى آخره، مثال واضح للطبيعة الإنسانية التى قامت السورة على تصويرها وأن الإفك الذى هو الانصراف عن الحق بعد ما تبين كأنه جامع لها، ولو بقيت أراجع وأتتبع الملاءمات التى بين الآيتين وبين السورة لذكرت من ذلك الكثير، وخذ أقرب شىء إلى أولها وأقرب شىء إلى آخرها تجد أن أقرب شىء إلى أولها هو قوله سبحانه ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ وأن بنى إسرائيل منهم أمة مقتصدة، وهؤلاء هم الذين عملوا صالحا، ومنهم من اختلف بعد البينات وهؤلاء هم الذين أساؤوا وأن ﴿إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ هو ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ وهذا ظاهر ثم إن امتساكها بما بعدها أظهر لأن الذى بعدها هو ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الأَمْرِ﴾، وهذه الشريعة هى الكتاب والحكم والنبوة، وهذا حسبى.

والواو الداخلة على قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ هى الواو التى تعطف معنى على معنى وتسمى واو الاستئناف، والمعنى المعطوف عليه هو تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم وتوابعه، والعلاقة بين كتاب بنى إسرائيل والكتاب الذى أنزل إليك ظاهرة، والمعنى المعطوف عليه هو ما أنزل إليك والمعنى المعطوف هو ما أنزل على النبيين من قبلك، وأن كفران قومك بنعمة الكتاب الذى أنزل إليك كان مثله من بنى إسرائيل، فقد كانوا قبل نزول التوراة عليهم غير مختلفين، أو كما قال البقاعى «كانوا قبل ذلك وهم تحت أيدى القبط فى غاية الاتفاق واجتماع الكلمة على الرضى بالذل».

وذكر الطاهر أن هاتين الآيتين مقدمة لقوله تعالى بعدها ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ﴾ وهذا جيد ولكنه لا يمنع من أن يكونا امتدادًا ظاهرًا للكلام قبلهما، لأن هذا الامتداد لا يتصادم مع كونهما مهيئتين للآية بعدهما بل هو مما يقويه.

وقد ذكر البقاعى كلاما جيدًا ملخصه أن هذه الآية معطوفة على كلام مقدر قبلها وهذا المقدر ينبئ به ما افتتحت به السورة وما بعده، وهذا المقدر سماه البقاعى «فذلكة» وأراد تلخيصًا لما تقدم وأن حالة قريش متشابهة فى تفاصيلها مع حالة بنى إسرائيل المذكورة، وأن المذكور من قصة بنى إسرائيل هو الذى أثار هذه الفذلكة، وأظهرها، وأن القصة تثير لها نظائر مسكوتًا عنها، وهى ساكنة وهاجعة فى باطن السورة وكأنها من آياتها المسكوت عنها، وكأن وراء الظاهر المنطوق باطن صامت، وكأن تحت المقروء كلام غير مقروء هناك للذى نقرؤه تبيع لا نقرؤه. وأضع بين يديك نص البقاعى فقد ترى فيه غير الذى رأيت قال رحمه الله: ولما علم بهذا الحكم ما افتتحت به السورة من أن منزّل هذا الكتاب عزيز حكيم فكان التقدير فذلكة لذلك، فلقد آتيناك الكتاب والحكم والنبوة وفضلناك وأمتك على العالمين، وأرسلناك لتنبه الناس على ما أمامهم وكان قومه بعد ائتلافهم على الضلال قد اختلفوا بهذا الكتاب الذى

كان ينبغى لهم أن يشتد اجتماعهم به، واستنصارهم من أجله، عطف عليه مسليا قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ انتهى كلام البقاعى. أردت بالباطن الصامت الذى وراء الظاهر، والكلام غير المقروء، الذى وراء المقروء ما قدره البقاعى من أحوال قومه عليه السلام الشبيهة بما ذكر من قصة بنى إسرائيل وأن وراء ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ﴾ إلى آخره، آتيناك الكتاب والحكم والنبوة وفضلناك وأمتك إلى آخره، وهذا ظاهر فى أن ثمة فى الكلام معادل غير منطوق للكلام المنطوق، وأن وراء الآيات آيات أخرى تسبح فى فراغ لا تعبر عنه لغة ولا تسمعه الأذن وإنما تدركه بصيرة القارئ الفطن، وهذا يدخل فى باب مستتبعات التراكيب الذى عنى به المتأخرون وأغفلته الدراسة البلاغية وهو باب جيد يعين على حسن قراءه البيان فى القرآن والحديث وكلام الناس.

وذكر الطاهر ابن عاشور أن هذا القسم من ذكر بنى إسرائيل جاء نظيراً للذى عليه قومه وإن لم تصرح الآيات بذلك، وإنما هذا مما يفهم بالتدبر والمقايسة، وأن ما عليه قومه عليه السلام هو الشبيه والنظير المتوارى وراء قصة بنى إسرائيل، وهو قريب جداً مما قاله البقاعى وإن كان الطاهر لم يذكر مصطلح الفذلكة مع تكرار هذا المصطلح كثيرًا فى تفسيره لأنه يذكره غالبًا فى آخر الآيات ويشير إلى أن الفذلكة عبارة عن تلخيص وتضمين بارع لما فى الآيات، والبقاعى ذكر الفذلكة ووصف بها كلاما محذوفًا ومستنبطًا من السياق وهذا موضع غريب للفذلكة، وذكر الطاهر أن ما ذكر فى هاتين الآيتين راجع إلى نظائر له فى السورة فقوله سبحانه ﴿آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ﴾ راجع إلى قوله سبحانه ﴿هَذَا هُدًى﴾ وقوله ﴿وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ راجع إلى قوله ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ وقوله سبحانه ﴿وَآتَيْنَاهُم بَيِّنَاتٍ مِّنَ الأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ راجع إلى قوله ﴿يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا﴾ -هكذا قال الطاهر- وأظنه أراد إذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبراً لأن هذا هو المذكور فى الجاثية،

والذى ذكره الطاهر مذكور فى لقمان فى أمـر الذى يشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله، وقوله تعالى ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ راجع إلى قوله ﴿لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾.

وهكذا يبين الـطاهر أن قصة بنى إسـرائيل هنا جزء من جـسم السورة وأن روابط متينة تشد كل جـزء فيها لنظير له فى السورة وأنهـا مزروعة فى مكانها وفى واديها تأتلف مع ما اختلف وتتقارب مع ما تباعد وتتطاعم مع الاختلاف والإتلاف والقـرب والبعد، وهـذا باب جليل فى درس البيـان ولو نقلناه إلى القصائد والرسائل لكشف لنا كثيراً من أسرار الشعر والنثر لا تزال مستورة.

قلت إن الواو التى فى قـوله تعالى ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ﴾ واو استئناف تعطف مـعنى على معنى وسواء كان المعطوف عليـه هو تنزيل الكتاب وما بعده أو كان الفذلكة المحذوفة التى ذكـرها البقاعى فإن الروابط فى الحالتين روابط ظاهرة، والتوكـيد الذى فى اللام وقد توكيـد لمضمون الغرض المـقصود يعنى ليس المقصود توكيد إيتائهم الكتاب والحكم والنبوة فحسب وإنما توكيد هذا وما بنى عليه من قوله سبحانه فما اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم لأن هذا هو الذى تدور حوله السورة، والكتاب المقـصود به الكتب التى أنزلها الله على أنبـياء بنى إسـرائيل كالتـوراة والإنجيل والزبور، والكتـاب أعم من الكتب لأنه يشمل الواحد وما فوقه والكتب تشمل الثلاثة وما فـوقها وقد جاء الكتاب كثيراً فى الكتاب العـزيز والمراد به الكتب كما فى قـوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ﴾ [النساء: ١٣٦] والذى أنزل من قبل ليس كتابا واحدًا وإنما هو كتب كثيرة أنزلها الله على أنبياء كثيرين منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص.

والحكم صالح لأن يراد به الفقه فى الدين، والفقه فى السياسة، والفقه فى القضـاء، وأنهم حكام وأن الله سبـحانه بعث فـيهم أنبـياء وجعلهـم ملوكا،

وآتاهم ما لم يؤت أحدًا من العالمين، ثم كان منهم ما كان؛ قتلوا أنبياءهم وآذوا موسى وقال لهم لم تؤذوننى وقد تعلمون أنى رسول الله إليكم، وقالوا على مريم بهتانا عظيمًا، وقالوا يد الله مغلولة، وقالوا إن الله فقير ونحن أغنياء، ولعنهم الله على لسان داود وعيسى ابن مريم وجعل منهم القردة والخنازير، وعبد الطاغوت، وكل هذا يبين أن تواتر نعم الله عليهم، وذكر إكرام الله لهم، وتفضيلهم، وذكرهم باسم أبيهم يعقوب عليه السلام، بن إسحاق عليه السلام، بن إبراهيم عليه السلام، وأنه سبحانه لم يذكرهم بقوم موسى كما ذكر عادا بقوم هود وكما ذكر ثمودا بقوم صالح وإنما صرح فى آيات كثيرة ببنوتهم لأكرم أنبيائه سبحانه وتعالى، أقول كل ذلك لمزيد بيان شناعتهم وبشاعتهم ونكرهم وأجرامهم وليقول لنا ربنا إن الخير والشر ما صنعته أنت بيديك وليس ما صنعه آباؤك فقد تكون شَرَّ الناس وأنت ابن خير الناس، وهذه قيمة أخلاقية وسلوكية عظيمة، وتحطيم لفكرة ابن فلان التى لا نزال نعانى منها، وكلمة النبوة شاملة للكتاب والحكم، وتزيد لأنه يدخل فيها ما لم يدخل فى الكتاب والحكم كالعصا واليد.

وراجع هذه الثلاثة: الكتاب والحكم والنبوة، ولن تجد فى عطاء الله لأحد من خلقه أكرم منها، لأنها للهداية، وليس فى صفات الإنسان صفة أفضل من أن يكون هاديًا مهديا، وقد أخذت فى الصياغة سمتا واحدًا وتقدم الكتاب لأنه هو الموروث، الباقى يتنقل فى الأجيال؛ ولا يزال فى الناس وإن كانوا أفسدوه وحرفوه، والحكم سواء كان بمعنى الفقه فى الدين أو الفقه فى السياسة والحكم فى القضاء والملك كل ذلك الشأن فيه أنه يأتى بعد الكتاب ثم النبوة وهى خاتم كل ذلك وجامعة لكل ذلك، ومع ذلك هى أول ما ينقطع لأنها تنقطع بموت النبى صلوات الله وسلامه عليه، وتبقى ميراثا كالكتاب، ثم تغير البناء فى النعمتين الباقيتين ﴿وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ فإذا كان الحكم معطوفا على الكتاب وكانت النبوة معطوفة على الحكم وكل ذلك داخل فى حيز

﴿آتَيْنَا﴾ فإن الواو فى قوله سبحانه ﴿وَرَزَقْنَاهُم﴾ تجاوزت كل ذلك ولم تدخل فى حيز ﴿آتَيْنَاهُم﴾ وإنما عطفت عليها ودخلت فى حيز ﴿وَلَقَدْ﴾ فدخلت فى حيز التحقيق والتوكيد، وهذا إيذان بتغير طبيعة العطاء، وأن العطاء الأول عطاء الأرواح وأن العطاء الثانى عطاء الأشباح وأن الله سبحانه لما أكرمهم بالكتاب والحكم والنبوة وبعث فيهم الأنبياء وجعلهم ملوكا أردف ذلك بالسعة فى الرزق الطيب، وهذا ناظر إلى قوله تعالى فى سورة البقرة التى نزلت بعد الجاثية بزمن ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [البقرة: ٥٧] راجع ﴿كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ التى فى البقرة وضعها بإزاء ﴿وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾.

وجملة ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ معطوفة على التى قبلها، أو معطوفة على ما عطفت عليه التى قبلها وهى واقعة فى موقعها ومتمكنه فيه وذلك لأنها سبقت بأجل ما يعطى للناس فى أمر الهداية، وهو الكتاب والحكم والنبوة، وفى أمر الرزق، وهو الطيب منه ومن أُعطى عطاء غدقا من هذين فقد فضل على العالمين، والمراد عالم زمانهم لأنه لم يكن فى الأرض زمن موسى عليه السلام وزمن هذا العطاء لأمته صلوات الله وسلامه عليه أنبياء ولا أمم تعبد الله وحده إلا قومه عليه السلام وكل هذا مرتبط بزمن وبحالة معينة لأنهم ما لبثوا أن اختلفوا وغضب الله عليهم، ولعنهم، ولا يتصور أن يكونوا أفضل العالمين وهم يلعنون على ألسنة أنبيائهم، وهم يقتلون أنبياءهم وقد جعل الله منهم القردة والخنازير، وهذا واضح والآية التى معنا تحدث عن حالة سرعان ما تلاشت وعن زمن سرعان ما انتهى ولا شك أن لقوم موسى عليه السلام لحظات بلغوا فيها الغاية فى اليقين بالله رب العالمين، وأعنى لما رأوا آيات موسى عليه السلام ووقعوا ساجدين وفرعون يقول لهم لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم فى جذوع النخل، وهم يردون على هذا التسلط وهذا التجبر بكلمة واحدة ﴿لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٥٠]

ويقولون ﴿فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ [طه: ٧٢] لحظات لا تنكر ولكنها ذهبت بسرعة، ولما ضرب موسى البحر بعصاه فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم ونجا بنو إسرائيل ورأوا فرعون وجنوده وقد غشيهم من اليم ما غشيهم رأوا أيضًا فى الجانب الآخر قومًا يعكفون على أصنام لهم فقالوا لموسى عليه السلام اجعل لنا إلهًا كما لهم آلهة، قلت هذا لأنه لا يجوز أن نأخذ ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ بمعزل عن غيره.

ثم إن هذه الجملة ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ فاصلة هذه الآية وجامعة لها، وليس فى الآية أى حديث عن سيئات بنى إسرائيل، وإنما هى آية خالصة فى الحديث عن نعم الله لهم وإكرامه جل شأنه، ويلاحظ أن الآية بدأت بما يثير ليس فقط باللام المؤكدة وقد وإنما أيضًا بالالتفات من الغيبة فى الآية السابقة وهى قوله سبحانه ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم تُرْجَعُونَ﴾ إلى التكلم فى قوله جل شأنه ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا﴾ ثم استمر الكلام على طريق التكلم بضمير العظمة (آتينا.. رزقنا.. فضلنا) وكل هذا تكريم آخر لأن الله لم يذكر بنعمه وإنما أيضًا ذكَّر بأنه بذاته وجلاله وعظمته وملكوته هو الذى أعطى، وهو الذى رزق، ولم يكلف بذلك ملكًا من ملائكته وهذا عند من يعرفون جلال صاحب الجلالة، ربما كان أفضل من كل عطاء لأن العطاء قيمة وكونه من يد الذى ليس فوق يده يد قيمة أخرى.

ومن خفيات أسرار البيان أن الآية الثانية التى هى امتداد لهذه الآية بدأت بجملة حذيت حذو الفاصلة وما قبلها فكانت أشبه بها ﴿وَآتَيْنَاهُم بَيِّنَاتٍ مِّنَ الأَمْرِ﴾ ثم زادت التحامًا وتداخلاً مع الآية التى قبلها بابتدائها بالكلمة التى ابتدأت بها الآية الأولى وهى كلمة ﴿آتَيْنَا﴾ وبذلك أمسكت بالآية التى قبلها من طرفيها أولها وآخرها، لأنه سيترتب عليها المقصود من ذكر القصة وهو قوله ﴿فَمَا اخْتَلَفُوا إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ وهذا المقصود ليس مترتبًا على

الجملة التى ابتدأت بها الآية الثانية وإنما هو مترتب على الكلام من أول ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا﴾ وجملة ﴿وَآتَيْنَاهُم بَيِّنَاتٍ مِّنَ الأَمْرِ﴾ إذا تدبرت إيجازها وجدت شيئًا يحار فيه عقلك، لأنك لا تستطيع حصر معنى هذه الجملة، وقد ذكر العلماء أن كلمة ﴿بَيِّنَاتٍ﴾ صفة قامت مقام الموصوف والمراد آيات بينات، وحذف الموصوف هنا ناطق بأفضل مما كان ينطق به لو ذكر، وذلك لأن هذا الحذف يقول لنا إن أهم ما فى الآيات أن تكون بينات وأن مقدار بيانها وسطوعها هو مقدار قيمتها ومقدار الحجية بها، وأن الله سبحانه ما أرسل آية إلا وهى بينة بيانًا لا ينكره إلا جاحد ولا يجهله إلا جاهل، وكلمة ﴿مِّنَ الأَمْرِ﴾ كلمة واسعة الدلالة لأن الأمر يمكن أن يكون الوحى كما قال تعالى فى آخر الشورى ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢] وقد يكون المراد بالأمر الشأن العظيم الذى يدخل فيه الكتاب والحكم والنبوة، واللفظ يحتمل، والمعنيان قريبان جداً لأن الوحى شأن عظيم ثم هو شامل للكتاب والحكم والنبوة، وهكذا ترى كلمتى ﴿بَيِّنَاتٍ مِّنَ الأَمْرِ﴾ شاملتين لأهم ما فى الآية السابقة؛ وكلها مفعول ﴿آتَيْنَا﴾ هناك وهى ﴿الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ﴾ من غير أن تكون شاملة للرزق ولا للفضل لأن المطلوب هو أن هذه الثلاثة فضائل نفسية وروحية وعقلية وهداية شرع وحكمة ونمو فى الوعى الإنسانى على وجه من العدل والبصيرة؛ وكل ذلك مضاد لما آل إليه أمرهم وهو الاختلاف بسبب البغى والحسد، وكل هذا الذى كان من الله من كتاب وحكم ونبوة لم يفد شيئًا، وهذا هو المقصود ولا شأن لرزق الطيبات هنا ولا لتفضيلهم على العالمين؛ لأنه لا معنى لذكر فضلهم لا على العالمين ولا على غير العالمين وقد اختلفوا بغيًا وحسدًا، وجهلا وطرحوا أكرم ما أكرمهم الله به، وذكر العلماء من معانى ﴿بَيِّنَاتٍ مِّنَ الأَمْرِ﴾ أن الله أنبأهم بأنه سبحانه سيرسل رسله وأنبياءه وجعل لهم علامات يعرفون بها هؤلاء الرسل، وهؤلاء الأنبياء.

وقوله سبحانه ﴿فَمَا اخْتَلَفُوا إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ الفاء التى دخلت على هذه الجملة تعنى ترتيبها على ما قبلها، وليس المقصود بهذه الجملة أنهم اختلفوا وإنما المقصود أنهم لم يختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيًا بينهم، وإذا كان هذا مرتبًا على جملة ﴿وَآتَيْنَاهُم بَيِّنَاتٍ مِّنَ الأَمْرِ﴾ وهى جملة مشعرة بنعم لا حدود لها وأنها كلها من باب البينات فى الوحى، أقول ترتيب هذه على ما قبلها يدل على أن بينهما كلاما طوى، والأصل وآتيناهم بينات من الأمر فاختلفوا وما اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم، وهذا القصر الذى بنيت عليه الجملة يفيد حقيقة عجيبة هى أن يترتب الاختلاف على موجب نفى الاختلاف، ومجىء هذا المعنى فى طريق القصر يلفت إلى هذه العجيبة ثم مجىء القصر بالنفى والاستثناء الذى لا يؤتى به إلا لتأكيد معنى من شأن السامع أن يجهله وينكره لفت أكثر إلى هذه العجيبة وأن الشأن أن ينكر العقلاء هذه الحقيقة المناقضة لمقتضيات الفطرة، وإذا كان الحق جلت قدرته وتقدست آلاؤه هو الذى يخاطبنا بهذا البناء المنكر لهذا الذى كان، وأنه سبحانه يقول لنا إنه آتاهم البينات الواضحات من الأمر وأنهم لم يختلفوا إلا بعد مجىء العلم، ووراء هذا القصر وهذه الفاء المفيدة للترتيب مزيد من الغضب فى كلام الحق جل شأنه ولذلك قطع الكلام بعد هذا وجاء التهديد الصريح.

ومسألة أن الخلاف وقع كثيرًا فى الأمم بعدما جاءهم العلم كثيرة جداً فى الكتاب العزيز، وهى شاملة لكل الأمم، وقد كان القرآن الكريم حريصًا على أن يشير إلى براءة العلم من هذا الخلاف وأن مرجع الخلاف ليس إليه كما قال تعالى هنا ﴿بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ وجاء بالمفعول لأجله الذى هو صريح فى عِلّة الفعل وأن مرجع الخلاف هو البغى والحسد والكبر إلى آخر ما فى الآيات، وقد يراد بهذا أن العلم الذى هو البينات من الهدى والفرقان يهتدى به فريق، ويعارضه فريق، وأن الخلاف يكون بين من آمن ومن كفر، ولم يرسل الله رسولا

ولم يبعث نبياً إلا وآمن به فريق من الناس، وقد أشار القرآن الكريم إلى أن من بنى إسرائيل ﴿أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ﴾ [المائدة: ٦٦]، و﴿أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٩] والحواريون كانوا منهم ودخل فى الإسلام منهم من دخل، ولم يعد فيهم مقتصد ولا مهتد بالحق لأن كل هذا ألغى ببعثة عيسى لهم ومحاربتهم عيسى عليه السلام وببعثة محمد ﷺ لأن الله أتاهم فيما آتاهم بينات من الأمر وعلامات للأنبياء الذين سيبعثون منهم ومن غيرهم، فأنكروا كل ذلك ولم يستجب له إلا القليل مثل عبد الله بن سلام رضى الله عنه، والمسألة المهمة كيف يكون العلم مثيراً للخلاف؟ قلت إن الله سبحانه برأ العلم فى الآية وجعل مصدر الخلاف هو البغى، ولكن يبقى أن هذا البغى كان بعد ما جاءهم العلم فكيف لا يكون الخلاف إلا بعد العلم؟

والذى أراه فى هذا هو أن العلم المراد به هنا هو الوحى، وأن الخلاف كان بعد الوحى وأن بنى إسرائيل كما قال البقاعى كانوا متحدين تحت مهانة وإذلال فرعون لهم وكذلك كان غيرهم، ومعلوم أن وحى الله سبحانه مؤسس على التدبر والتفكر والتعقل لأن الآيات التى هى صميم الوحى لا تدرك إلا بهذه اليقظة وهذه الإثارة، وهذا يعنى أن كل النبوات متضمنة ثورة فكرية تقوم على اليقظة وإثارة الفكر لتطرح بها البشرية ما علق بعقائدها من أباطيل، وفى خلال هذا يظهر أهل الحق والصدق فيستجيبون ويتميز أهل الصوارف فيجادلون، وأصل المسألة عندهم ليس هو ما جاء به الأنبياء وإنما هو البغى والحسد والكبرياء فى الأرض، وكانت أهم مواجهة بين موسى عليه السلام وفرعون وملئه راجعة عندهم إلى أن موسى وهارون عليهما السلام جاءا ليلفتاهم عن آلهتهم ولتكون لهما الكبرياء فى الأرض وهذا هو أصل الخلاف الذى أحدثه مجىء العلم يعنى الوحى، وقد حصر القرآن ما فى صدورهم مما حاربوا به الوحى فى الكبر وذلك فى قوله تعالى ﴿إِنْ فِى صُدُورِهِمْ إِلاَّ كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ﴾ [غافر: ٥٦].

والأمر فى النهاية يرجع إلى أن ثورة الفكر التى يثيرها الوحى كما تكشف الغشاوة التى تغشى طريق الهداية تكشف كذلك الغشاوة التى تغشى طريق الضلالة فيسلك كل طريقه الذى يُسِّر له، والله أعلم.

قوله سبحانه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ هذه الجملة فاصلة الآيتين، وفيها غضب وتهديد وحديث القرآن عن تأجيل القضاء إلى يوم القيامة لا يخلو من غضب وتهديد، وأول ما يلاحظ فى هذه الجملة هو بناؤها على القطع والاستئناف وقد تكرر الكلام فى الإشارة إلى أن بناء الكلام على القطع والاستئناف فيه دلالة ظاهرة على أن ما بنى على ذلك له خطر وله بال، يعنى له عند صاحب البيان شأن أى شأن، وكأن هذا القطع وهذا الاستئناف إبلاغ أو بلاغ أو إبانة عن معنى لم يذكر لفظه وإنما عبر عنه بهذا القطع وهذا الاستئناف وهذا يشعر بشىء هو أن قضاء الله يوم القيامة بين الناس فيه من المخافة والهول ما لا يحاط به، ولا يقادر قدره، ويزيد هذا المعنى قوة ووكادة دخول إن التى هى أم باب التوكيد وناهيك عن التوكيد حين يكون من خالق الخلق إلى الخلق، ثم كان فى هذه الجملة التفات من التكلم فى قوله سبحانه ﴿وَآتَيْنَاهُم بَيِّنَاتٍ مِّنَ الْأَمْرِ﴾ إلى الغيبة فى قوله ﴿رَبَّكَ﴾ ووضع فيها الظاهر موضع المضمر ودلالة لفظ الرب على الرعاية والحفظ والصون وإضافة ذلك إلى ضمير المخاطب صلوات الله وسلامه عليه وما وراء ذلك من تكريم له عليه السلام ثم وهو دقيق وجليل الإشارة إلى أن ربك يرعاك ويرعى من معك وأنك ستجد من قومك ما وجده غيرك من الأنبياء عليهم السلام من أقوامهم.

وقوله سبحانه ﴿يَقْضِي بَيْنَهُمْ﴾ يقضى من القضاء ويحكم من الحكم والقضاء له ضوابط يراعى دقيقها وجليلها، والحاكم ربما لا يلتزم بكل ضوابط القضاء ويميل إلى ما يحقق المصلحة، ولذلك كان الحكم حكم الحاكم وكان القضاء قضاء القاضى، وكلمة ﴿بَيْنَهُمْ﴾ تشير إشارة ظاهرة

إلى أن الاختلاف فى الشأن الدينى لا محالة ينعكس على علاقات الناس ويوجد العداوة بينهم، وأن الصراع الذى أصله اختلاف العقائد مدمر، ولذلك كان الكتاب العزيز كثيرًا ما يسكب الماء على هذه الخلافات، وأقربها من هذه الآية قوله تعالى ﴿قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ وقال سبحانه فى سورة الممتحنة ﴿لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: ٨] وعبارة ﴿يَقْضِي بَيْنَهُمْ﴾ ليست مقصورة على قضاء الله فيما يكون بين عباده من مظالم وإنما تدل أيضًا وتشمل قضاء الله بينه سبحانه وبين عباده فيما تجاوزوا فيه حقوق الله، وهو ظاهر هنا لأن الاختلاف فى الوحى بغيا وحسدا يعنى رد أمر الله ونهيه، وقوله تعالى فى سورة الزمر ﴿وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ﴾ [الزمر: ٦٩] شامل للقضاء فى الشرك لأن الذين كفروا بعد ذلك سيقوا إلى النار، وقوله سبحانه ﴿فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أى فى الذى كانوا فيه يختلفون والجار والمجرور متعلق بقوله ﴿يَقْضِي﴾ يعنى أن موضع القضاء فى الذى من شأنهم أن يختلفوا فيه ومن شأنهم أن يتجدد الاختلاف فيه، ومن شأنهم أيضًا أن يكون الخلاف فيه اختلافًا يعنى يحتشدون إليه ويجمعون نفوسهم عليه ويكون صادرا منهم عن وفرة نشاط، وهذه دلالة الافتعال فى اختلفوا ودلالة كان فى الصلة، وكان يمكن أن يقال إن ربك يقضى بينهم فيما فيه يختلفون وقد مر له نظائر، وفى هذا إشارة إلى أن الاختلاف فى هذا الباب لا يحسمُ لشدة تعصب كل فريق لما يرى، وإنما يحسم بين يدى الله يوم القيامة، وذكر القيامة هنا إشارة إلى أن مقام القضاء مقام يقوم الناس فيه لرب العالمين، ووراء ذلك من المهابة والمخافة ما وراءه ولا يكون شيء منه لو قيل يقضى بينهم يوم الساعة.

قوله سبحانه: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [الجاثية: ١٨، ١٩] هاتان آيتان فى معنى واحد وقبلهما آيتان فى شأن بنى إسرائيل وفى معنى واحد وقبلهما آيتان فى شأن أن يغفر الذين آمنوا للذين يرجون أيام الله وهو معنى واحد وقبلهما آيتان فى تسخير النعم وهذا التسخير معنى واحد.

وهذا من التناسق العجيب وتوزيع المعانى على الآيات بالقسطاس المستقيم، وراجع وتثبت، وقد أشرت إلى أن آية نعم بنى إسرائيل فيها ثلاثة مفردات معطوفة هى الكتاب والحكم والنبوة، وثلاثة أفعال معطوفة هى آتينا وفضلنا وآتينا، وهذا أيضًا نسق عجيب وأصله توزيع المعانى على الكلمات بالقسطاس المستقيم، ثم إن هذه الآيات استمرار للآيات قبلها التى بدأت بالحديث عن نعمة الوحى بعد الفراغ من الحديث عن نعمة التسخير، يعنى الانتقال من الحديث عن النعم المادية إلى الحديث عن النعم الروحية، والنعم المادية لا ينكرها أحد ولا يسعه وإنما الإنكار كله فى النعم الروحية، نعم الوحى التى هى آيات الله البينات، وهذه الآية ممسكة بالآيات قبلها، حتى أن الطاهر ابن عاشور اعتبر آية بنى إسرائيل مقدمة لها، والشريعة التى جعل الله رسوله عليها هى الكتاب المذكور فى أول السورة تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم وهى آيات الله يتلوها عليك بالحق، وهى الهدى، فى قوله تعالى ﴿هَٰذَا هُدًى﴾ وهذه روابطها بسياقها، ووشيجة الرحم التى بينها وبين ما جاءت فيه وأنها تلتئم بكل ما مضى من السورة لأنها بضعة من لحم السورة ودمها، وقد شغلت نفسى كثيرًا باستخراج مثل هذا فى الشعر ووجدته ولكنه لم يكن على هذا الحد من الوضوح والسلاسة.

وأول ما نلاحظه فى نسق هاتين الآيتين كلمة ﴿ثُمَّ﴾ التى فى رأسها ولها شطران فى الدلالة، الشطر الأول هو الدلالة على تباعد الزمن، وأن الله

سبحانه جعله على شريعة من الأمر بعد زمن متطاول، وبعثه فى أمة ما خلا فيها نذير، وظلت الجزيرة من زمن أبويه إبراهيم وإسماعيل لم يبعث فيها نذير حتى تأثَّلت الوثنية فيها وتجذرت وكان هذا مؤذنا بأن محمداً صلوات الله وسلامه عليه سيجد صعوبات فى انتزاع قومه من ضلالات الوثنية الموغلة، والشطر الثانى من الدلالة هو التباعد الرُّتبى بين الذى آتاه الله لموسى عليه السلام من الكتاب والحكمة والذى جعل الله عليه محمداً من الشريعة، وقد ذكر الكتاب العزيز أن التوراة نور، وأنه هدى للناس، وأنه بصائر، وأنه رحمة، وأنه تفصيل لكل شىء، وأنه تمام على الذى أحسن وغير ذلك كثير، ولكن الذى جعل الله عليه محمداً صلوات الله وسلامه عليه أمر مخالف جداً لأن التوراة بكل ما فيها من صواب ورحمة وحكمة كانت محدودة بزمن، بخلاف الشريعة التى هو عليها صلوات الله وسلامه عليه فإنها باقية ما بقى التكليف وإعجازها مصاحب لها ما بقيت، وقد أخذ الله الميثاق على النبيين أن يؤمنوا بمحمد عليه الصلاة والسلام وأن يعزروه وأن ينصروه، وأن الله سبحانه سألهم وقال لهم أقررتم وأخذتم على ذلكم إصرى يعنى عهدى قالوا أقررنا قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨١].

وجملة ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ﴾ وتوابعها كل ذلك معطوف على ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ﴾، ولاحظ الآيتين وراجع ضوابطهما وروابطهما تجد رأس المعنى فى الآيتين هو جملة ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ﴾ والذى بعده أمر باتباعها ونهى عن اتباع غيرها وانتهى المعنى، فإذا قلنا إن ﴿جَعَلْنَاكَ﴾ معطوفة على ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا﴾ كان المعنى أن هاتين الآيتين معطوفتان على الآيتين السابقتين، ثم إن دلالة ﴿جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ﴾ مختلفة اختلافًا ظاهرًا عن دلالة ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾

أو ﴿آتَيْنَا مُوسَى﴾ أو ﴿آتَيْنَا دَاوُدَ﴾ لأن فيها شيئًا ليس فى آتينا وهذا الشىء هو أن الله سبحانه جعله متمكنًا منها قاراً عليها ولا شك أن الله جعل كل نبى كذلك على شريعته وإنما إيثار العبارة على عبارة أخرى فيه إشارة أولا إلى الفرق بين ما أعطاه الله لبنى إسرائيل وما أعطاه الله لك وأن ما أعطاه الله لك ثابت باق وأنت متمكن منه وكذلك أمتك من بعدك إلى آخر الزمان، وكل ما خوطب به صلوات الله وسلامه عليه فالخطاب شامل لأمته من ورائه، وإذا قال الله له ثم جعلناك على شريعة من الأمر فالمعنى أن الله قال لنا ثم جعلناكم على شريعة من الأمر، وإذا كانت كلمة «على» هنا تفيد التمكن مثل «على» فى قوله تعالى ﴿أُوْلَئِكَ عَلَىٰ هُدًى﴾ وأن التمكن معناه حفظ الشريعة دقيقها وجليلها وأنه ﷺ متمكن من ذلك بلا ريب فنحن كذلك وليس المقصود الأفراد وإنما الأمة فليس فى الشريعة صغيرة ولا كبيرة إلا وهى معلومة ولها رجال يحيطون بها فى الأمة، والأمر فى الشريعة كما قال الشافعى فى اللغة وأنه لا يحيط بها إلا نبى، وقد أحاطت بها الأمة فليس فى اللغة شىء إلا وفى الأمة من يعلمه وليسْ فى الشريعة شىء إلا وفى الأمة من يعلمه، هكذا كانت الأمة وهكذا هى الآن وهكذا ستكون إلى أن يبطل التكليف.

وكلمة ﴿شَرِيعَةٍ﴾ أصلها شريعة الماء، ولا حياة لحى بدون ماء وكذلك لا حياة للأمة بدون هذه الشريعة وأنها تردها لتتزود بالحياة وبمعانى البر والعدل والرحمة وكلمة ﴿مِنَ الأَمْرِ﴾ معناها من الوحى، وهى كلمة جليلة وحاسمة لأنها حجاز بين الشريعة وبين أى شىء يداخلها من خارج الوحى، وأن الوحى وحده هو الذى يسمى الشريعة، ومن الوحى تفسيرُه والقياسُ عليه والاستنباط منه، وكل ما يتولد عنه بشرط أن يكون هذا الذى تولد على الأصول التى ضبطها العلماء.

وقوله سبحانه ﴿فَاتَّبِعْهَا﴾ هذه الفاء التى ترتب الأمر بالاتباع على جعله عليه السلام على شريعة فيها معنى أن جعلك عليها يعنى حفظها وضبط

أصولها وفروعها وحلالها وحرامها وبيان كل ذلك بيانًا ييسر اتباعه لأن الغامض لا يتبع والمشوش لا يتبع، والذى ضاع بعضه أو غمض بعضه لا يتبع، ثم إن أمره عليه السلام بالاتباع إذا أخذناه بظاهره كان تحصيل حاصل لأنه عليه السلام متبع الشريعة ولا يكون إلا كذلك، وكذلك لو حملناه على الأمر بالاستمرار كما يقولون فى قوله تعالى ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا**﴾ [النساء: ١٣٦] يعنى استمروا على إيمانكم كان كذلك تحصيل حاصل لأنه عليه السلام لا يكون منه إلا الاستمرار على الاتباع، وكذلك فى كل أمر ونهى وجه إلى رسول الله ﷺ فى الكتاب، ولا يمكن أن يكون منه عليه السلام خلاف هذا الأمر أو هذا النهى، والوجه أن يكون المراد بكل ذلك أمته ﷺ ووجه الأمر والنهى إليه للإشارة إلى أنه أمر ونهى عند الله بمكان وأنه يؤمر به من لا يتخلى عنه، وينهى عنه، ما لا يكون منه، وهذه الإشارة إلى أهمية هذا الأمر يدركها من يعيش فى زماننا وفى بلدنا لأن اتباع الشريعة صار تهمة يتهم صاحبها بأنه ظلامى وأنه يعيش فى التاريخ الذى مات وفى العصور الوسطى وفى عصور الظلمات وربما لفقت له التهمة بالإرهاب، ولو صادف جماعة صالحة فى المسجد وقرأ معهم القرآن وتدارس معهم الدين اتهموا بأنهم مشروع خلية إرهابية إلى آخر ما لا يمكن أن يوصف لك إن كنت خارج أرض الكنانة التى كانت يومًا ما كنانة الله فى أرضه، والآن لعب بها من لعب ولم أعرف فى صفوفها الأولى رجلا واحدًا له غيرة على دين الله، وأخشى أن أقول ولا أعرف رجلا واحدا فى صفوفها الأولى له غيرة على الوطن لأن أولياء بنى إسرائيل وأعداء المجاهدين المقاومين لا أستطيع أن أخدع نفسى وأن أثق فيهم، إنهم يصادقون المغتصب القاتل ويعادون المدافع عن أرضه وعرضه ويجاهرون بذلك، وكلمة ﴿**فَاتَّبِعْهَا**﴾ لها دلالة أخرى وهى أن الدين اتباع وليس ابتداعًا وأن الابتداع يتناقض مع الدين وكانت أول كلمة

قالها أبو بكر لما ولى الأمر إنما أنا متبع ولست بمبتدع، ومن المهم جداً أن تعقل معنى أن يؤمر المبلغ عن ربه بالاتباع وأنه ليس له أن يضيف إلى دين الله شيئًا إلا شيئًا أمره الله ببلاغه، وهذا مما يجب أن يشاع فهمه فى الأمة حتى لا يتجرأ متجرئ ويتكلم فى دين الله إلا بعلم.

وقوله سبحانه ﴿وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ هذا النهى تأكيد للأمر والواو تعطف النهى على الأمر وقد جاءت بين التوكيد والمؤكد لتشير إلى مزيد عناية بهذا المنهى وكأن قصد الكلام إلى هذا النهى وليس فقط توكيد الأمر ووراء كل هذا إشارة من الخالق لمن آمن بما أنزله الله على محمد ومن صار على شريعة من الأمر هذه الإشارة تؤكد اتباع الشرع وأن الإيمان بما أنزله الله وعدم اتباع ما أنزله سبحانه إيمان ناقص، أو إيمان فاقد لقيمته وأثره، ومقتضى الإيمان بأن الشرع شرعه وأن الخلق خلقه يوجب الإيمان والإصرار على الاتباع لأن الذى خلق هو الذى شرع وهو أعلم بخلقه ﴿أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ وقد أطب بشرعه لخلقه وقد وضع الدواء فى شرعه لمواضع الداء فى خلقه وهو العليم بهما سبحانه، هذا شىء. والأمر الثانى تصريح الآية بأن ما عدا الشريعة أهواء وأنها أهواء الذين لا يعلمون وأن كل تقنين وتشريع من خارج الوحى يداخله الخلل واتباع الأهواء مفسدة ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ [المؤمنون: ٧١] وهذا تحذير شديد جداً من اتباع الأهواء، ولم أعرف أمرًا لله ولا نهيًا إلا وراءه جلب مصلحة ودرء مفسدة وأن الذين يزيحون شرع الله ويبعدونه عن الاتباع ويحاربون أتباعه ويجاهدون فى ذلك قوم لا يعلمون لأنهم لو فقهوا شرع الله ودققوا فى فقهه فلن يعارضوه إلا إذا كان ذلك من مخبثة فى صدورهم. قلت إننا مقصودون بهذا التوكيد، وكأن الآية نزلت لنا لأن أهواء الذين لا يعلمون تفرض علينا فرضًا، وقلت إن الدعاة إلى تطبيق شرع الله صاروا موضع تهمة، وآيات كثيرة تشدد فى طلب تطبيق شرع الله واتباعه، ووصفت من لم يحكم بما أنزل الله بالكفر، وبالظلم، وبالفسق، وهذا كله يعنى ضرورة أن تكون الشريعة بأصولها

وفروعها ومقاصدها وأمرها ونهيها كل ذلك مدروس دراسة وافية؛ وبالغة الدقة فى الأمة، وكما أن الحكم بما أنزل الله حكم واجب، كذلك دراسة ما أنزل الله دراسة واعية نافذة. مستوعبة أمر واجب، وإلا طبقنا شيئًا غير ما أنزل الله؛ ونحن نظن أننا نطبق ما أنزل الله، وهذا اللون من الفهم يستوجب فهما متسعا جداً ودقيقًا جداً للتفسير والحديث واللغة والفقه والأصول ومجموعة العلوم التى تهدى إلى كشف أسرار ما أنزل الله، وإذا كان من لم يحكم بما أنزل الله ظالمًا وفاسقًا فإهمال الأمة فى دراسة الواجب لأداء هذا الواجب هو فى حكم إهمالها للواجب؛ وأى نظام يعارض فى الحكم بما أنزل الله أو يعارض فى تكوين جماعة من العلماء تنقطع لدراسة ما أنزل الله فهو نظام معارض لدين الله، ويجب على أهل العلم نصحه، كما يجب عليه أن يعلم أننا نُطيعه ما أطاع الله فينا، فإن عصى الله فينا فلا طاعة له علينا، وحفظ الشريعة هو العهد الذى نعاهد الله عليه من يتولى أمرنا وهو بمثابة القسم الذى يقسمه من يختاره الناس والآن صار القسم المحافظة على الدستور وعلى الوطن ولا يمين لحانث، وقمع المواطنين وإهانتهم ليست محافظة على الوطن وإنما هى محافظة على كرسى الحكم.

قوله سبحانه ﴿إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ الضمير فى إنهم راجع إلى الذين لا يعلمون الذين نهانا الله عن اتباع أهوائهم، وهذه الجملة توكيد للنهى وتعليل له، والنهى توكيد للأمر والكلام دائر حول اتباع الشريعة، وراجع المؤكدات التى يَحُثُّنَا ربنا بها على اتباع شرعه وهذا مما غفل عنه الناس، وتوهموا أنه مطلب الإخوان المسلمين وتركوا النظام يصفى حسابه معهم، والحقيقة أنه أمر الله إلى كل من شهد الشهادتين وأن الحاكم المطالب بتطبيق شرع الله هو نفسه لو لم يكن حاكمًا لكان فى عنقه أن يطالب بتطبيق شرع الله إن كان شهد الشهادتين بحق، وتطبيق الشرع هو ذاته الذى فى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

ولا معنى لاتباع الشريعة إلا تطبيقها، وتحليل حلالها وتحريم حرامها، وشواهد وجوب الحكم بما أنزل الله ليس فقط ما جاء فى سورة المائدة مما هو صريح فى وجوب الحكم بما أنزل، وهذه الآية التى معنا ليست أقل من آيات المائدة فى قوة دلالتها على وجوب الحكم بما أنزل الله، وراجع الجملة التى معنا ﴿إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ وأول ما تلاحظه فيها أنها حدَّثت عن أصحاب البدائل المطروحة لاتباع الشريعة بلغة قريبة من لغة الجبت والطاغوت، وأن من يُشرِّعون للأمة شرعًا يصرف الأمة عن اتباع شرع الله أوشكت الأمة أن تنزلهم منزلة الآلهة لأن كلمة ﴿لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ جاءت فى القرآن فى الحديث عن المعبودات بالباطل كما فى قول إبراهيم عليه السلام لأبيه ﴿يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا﴾ [مريم: ٤٢] وكلمة ﴿عَنكَ﴾ تجرى فى كلمة ﴿يُغْنُوا﴾ معنى الدفع وتصير متضمنة لهذا المعنى ولن يدفعوا عنك من الله يعنى من عذاب الله، وإخبار الحق بهذا يعنى أن من يقبل أهواء الذين لا يعلمون ويجعلها بديلاً للشريعة التى هى من الأمر أى الوحى وجعلنا الله عليها؛ كأنه يتوهم أن أصحاب هذا التشريع البديل يدفعون عنه شيئًا من عذاب الله وأن الوحدانية فى الإيمان بالله وفى قبول شرعه أيضًا ومن آمن بالله وآثر شرعًا غير شرعه فقد انتقض توحيده؛ لأنه لا يقبل غير شرعه إلا إذا آمن إن هذا الغير أفضل من شرع الله، وهذا ناقض للإيمان بالله واستدراك على الله لأن الله سبحانه لما جعلنا على شريعة من الأمر وأمرنا باتباعها ونهانا عن اتباع غيرها فليس أمامنا إلا أن نقول سمعنا وأطعنا وليس أمامنا إلا أن نعتقد أن الخير كل الخير فى اتباع شرعه لا فى اتباع شرع غيره ثم إن المخاطب بذلك هو رسول الله ﷺ ولن يكون منه إلا الاتباع والمقصود بالخطاب أمته عليه السلام وخاطبنا ربنا بهذا الطريق لمزيد من العناية والأهمية بهذا الأمر، وليس فى حياة الأمة منازعة كالمنازعة حول هذا الشأن والآية كما قلت كأنها نزلت للذى نحن فيه، ويرشح هذا التحليل للآية

ما نقرؤه فى زماننا من وصف تطبيق شرع الله بالعودة إلى الظلام وأن المطالبين بذلك ظلاميون وأن المطالبين باتباع أهواء الذين لا يعلمون متنورون ومتحضرون وأن شرع الله يوضع فى مربّع الظلمات كل هذا يحدث وأهل العلم من علماء الأمة قد أطبق القمع أفواههم وقوله سبحانه: ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ معطوفة على ﴿إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ وداخلة فى حيز تأكيد النهى عن اتباع أهواء الذين لا يعلمون الذى هو توكيد لاتباع الشريعة التى جعلنا الله قائمين عليها، وهذه الجملة الثانية أشد من الجملة الأولى لأن الأولى أشارت إلى أن إيثار شرع غير الله على شرع الله فادح فى الإيمان لأن التشريع تمام حق من خلق؛ ومن تمام نعمته على من خلق؛ وأن جعلنا على شريعة من الوحى مذكور فى الآية من أجَلِّ آلاء ربنا علينا، وهذه الجملة ارتفعت فى تشنيع هذه الخطيئة وجعلتها من ولاية الظالمين بعضهم بعضًا وقابلتها بولاية الله للمتقين، وهذا يعنى أن ولاية الظالمين عكس ولاية الله وأن الظالمين عكس المتقين، وكلمة الظلم تعنى وضع الشىء فى غير موضعه، ومن وضع غير شرع الله موضع شرع الله فقد ظلم ظلمًا مبينًا، وإن الشرك لظلم عظيم؛ وهذا كله يوجب على الأمة أن تراجع نفسها فى هذا الشأن الذى تركته لتصفية حسابات نظام السوء مع الإخوان المسلمين، والحديث فى الدين لا يجوز مطلقًا أن يقترب من شاطئ المزايدات السياسية ويجب أن يكون لله وحده لا شريك له، ولا فرق بين من يزايد بالدين ومن يزايد على الدين، ولن ينصر الله هذا الدين إلا بالذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه.

قوله سبحانه: ﴿هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [الجاثية: ٢٠].

من أعظم آيات الكتاب العزيز، الآيات التى يتحدث فيها القرآن عن القرآن وجمعها وتحليلها تحليلاً واعيًا دقيقًا يقدم لنا دقائق غائمة وغائبة، وهذه الآية الكريمة من أعظمها، وفيها ما نرجو أن نعان فى بيانه، وهى أولاً أخت آية

﴿هَذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾ وقد بدأت الآيتان بالقطع والاستئناف المؤسس على اسم الإشارة للقريب والمراد به القرآن الذى هو تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم، فكلا الآيتين راجع إلى رأس السورة رجوعًا ظاهرًا، ثم هما موصولتان بقوله تعالى: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ وهذا الحديث هو الهدى وهو البصائر وهو الرحمة، ثم هذه الآية هنا راجعة أيضًا إلى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ﴾ لأن الشريعة التى جَعَلَنَا الله عليها يعنى حراسا قائمين على حفظها ودرسها وبيانها، ونفى الأباطيل التى تثار حولها وأصل دروس الشريعة هو الكتاب الذى هو بصائر للناس، وتلاحظ أن هذه الآية والآية التى قلت إنها أختها جاءت فى نهاية معنى وكأنها تطوى باب المعنى الذى سبقها وتأذن بفتح باب لمعنى جديد، فالأولى طوت ذكر الأفاك الأثيم والحديث عن طيشه وحمقه واستكباره ثم ختمت بأن من ورائهم جهنم ولا يغنى عنهم ما كسبوا شيئًا، ثم جاءت الآية ثم فتح باب معنى جديد؛ هو ذكر نعم الله فى تسخير البحر ثم فى تسخير ما فى السموات وما فى الأرض، والأمر هنا كذلك فقد جاءت آية هذا بصائر لتطوى صفحة الحديث عن وجوب اتباع الشريعة، ثم تفتح باب حديث أهل الضلالة، وأنهم يَعْتَقِدُون أن الله سبحانه يجعلهم مع الذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء، وهذا ظاهر وظاهر أيضًا أن الآية الأولى اكتفت بقوله تعالى ﴿هَذَا هُدًى﴾، ثم رجعت إلى الإخبار عن الذين كفروا بآيات ربهم، وذلك لأنه تَقَدَّمها الأفاك الأثيم وهم الذين كفروا وهذا بخلاف هذه الآية فقد سُبِقَتْ بذكر الشريعة الى مصدرها الكتاب فجاءت كلها فى ذكر الكتاب.

واسم الإشارة الذى ابتدأت به الآية عائد إلى ما ذكرت ويصح أيضًا أن يعود إلى الكلام من قوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ﴾؛ لأن هذا وما تبعه من اختلاف بنى إسرائيل وما بُنى عليه من ذكر

الشريعة التى جعلنا الله عليها؛ ومن ذكره أمره سبحانه باتباعها ونهيه عن اتباع الأهواء حتى لا نقع فيما وقع فيه بنو إسرائيل، أقول كل هذا مقصود باسم الإشارة فى قوله سبحانه: ﴿هَذَا بَصَائِرُ﴾ واللفظ يحتمل كل الذى قيل، واسم الإشارة هنا للقريب، وهذا القرب دال على أن المعانى المذكورة بعد اسم الإشارة من كونه بصائر وهدى ورحمة معان قريبة ظاهرة لا تخفى، ثم إن اسم الإشارة مبتدئ بالهاء التى للتنبيه، والتنبيه هنا له موقع جليل لأن اسم الإشارة المذكور بعده عائد على معان منتشرة فى السورة. ثم إن الإخبار عن الكتاب العزيز بأنه بصائر له معنى جليل لأن البصيرة أخت البصر فالبصر إدراك بالحاسة والبصيرة إدراك بقوة القلب، قال الراغب: يقال لقوة القلب المدركة بصيرة والبصيرة جمعها بصائر وجمع البصر أبصار ولا يكاد يقال للجارحة بصيرة، ومعنى قوله تعالى: ﴿أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ أى على معرفة وتحقق.

والقرآن فى الحقيقة ليس بصيرة لأن البصيرة قوة القلب المدركة، وإنما سمى بصيرة لأنه هو الباعث لهذه القوة المدركة، يعنى هو سببها، وهذا من المجاز الذى يطلق فيه المسبب على السبب، كتسمية الغيث نباتًا لأن النبات مسبب عن الغيث، والمهم من هذا المجاز هو ما وراءه من أن الكتاب العزيز بما فيه من حثٍّ على التذكر، والتدبر، والتعقل، والتفكر، وما هو من هذا الباب وكل هذا مثير للبصيرة التى هى قوة العقل المدركة، أقول لما كان القرآن مُستَفِزاً ومستثيرًا لقوة الإدراك سمى باسم هذه القوة، فقيل هذا بصائر، وكأنه لقوة سببيته إلى إيجاد هذه البصائر صار بصائر، كما أن الغيث لقوة سببيته فى إيجاد النبات صار الغيث نباتًا، وارتباط البصائر بالآيات كارتباط النبات بالغيث، لا يتخلف النبات عن الغيث إلا إذا كانت الأرض أرضا صخرية خبيثة لا تقبل الغيث، وهذا يعنى أن الشأن فى الكتاب العزيز أن ينوِّر القلوب والعقول وأن يوقظها وأن يدفعها دفعا إلى القياس والاستنباط والفهم والتحليل، والنظر، وأن يحيى هذه المُضْغَة التى هى القلب والتى إذا

صَلَحَتْ صلَح الجسدُ وإذا فَسَدَتْ فَسَد الجسدُ، وركود الحياة الفكرية فى الأمة مع أنهـا تقرأ القـرآن هو أمر غيـر طبيـعى ويعنى أنهـا تقرأ القـرآن لا يجاوز حناجرها، ولم أكتشف حجم ما يفجره القرآن من طاقة عقلية وفكرية إلا وأنا أحلل الآيات الكثيرة الحاثة على التفكر والتدبر والتأمل.

والقراءة التى تعوّدْنا عليـها جيدة ونافعة ولكـنها لا تكشف لنا هذه الطاقة التى تتجـاوز قدرات البشر فـيما تثيره، وكـان ابن مسعود رضـوان الله عليه يقول: من أراد العلم فليـثوِّر القرآن، وعـجبت لما قرأت كلمة تثـوير القرآن، لأن القرآن يُثـوِّر يَعنى يَصْنع الثـورة، وكيف نُثـوِّرُه نحنُ أى كيف نضع فـيه ثورة؟ ووجدت العلماء يقولون المراد بتثوير القـرآن الاستنباط منه وقياس ما لم يذكره على ما ذكـره، وأن حركة الاستنبـاط وحركة القياس هـى تثوير القرآن يعنى يوجـد حركة فكريـة حُرَّة وثائرة ومنظَّمـة، ولك أن تقول حركـة فكرية هائجـة فى نظام ضابط ومـسيطر، وقوله تـعالى ﴿لِلنَّاسِ﴾ يعنى أنه بصائر للناس كافةً؛ وأنه جـلاء للنفوس والعقول، ومنتج للبـصيرة لكل ولد آدم من عرب وعجم، وأن الـله أنزله كذلك وكُلٌّ يأخذ منه بقدر مـا يتاح له والناس فى ذلك مختلفون جداً، ومن المفيد هنا أن نذكر حديث البخارى «مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعـلم كمثل الغـيث الكثير أصـاب أرضًا فكان منها نقـية قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثـير..» وهذا الكلأ والعشب الكثير الذى كان من الماء هو المقابل لما تسـتخرجه الأمة من القـرآن حين تُثوِّره، ولعل ابن مسعود نظر إلى هذا والله أعلم.

قوله جل شأنه ﴿هَدًى وَرَحْمَةٌ﴾ أهم ما يهدى إلى فـقه الكتاب هو تحليل الكلمات وتحليل ترتيب الكلمات، وقد فرغنا من كلمة ﴿بَصَائِرُ لِلنَّاسِ﴾ وهو الخبر الأول لاسم الإشـارة، والمعطوف قوله: ﴿هُدًى﴾ والهدى مصدر يعنى أن القرآن هو الهدى بعـينه مع أن المقصود أنه يهدى، ولكن لفرط مـا فيه من

معنى الهداية صار هدى ولاحظ الترتيب، فالأول قوة الإدراك التى هى البصائر، والتى لا يُطْلَبُ الحقُّ إلا بها، فضلاً عن أنه لا يُهْتَدَى إلى الحق إلا بها ثم بعد هذه البصائر يأتى الهدى ولا يتصور أن يتقدم الهُدى على البصائر، لأن المسبب لا يكون قبل السبب، وهذا وجه من الترتيب بالغ فى لطفه، والقرآن الكريم يهدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم وأفهم من هذا أن منهاج القرآن فى التفكير والاستنباط والاستدلال من شأنه أن يكوِّن عَقْلا هو بطبيعته باحث عن الحق، وعن الطريق المستقيم، فى كل شأن من شؤون الحياة، وليس الهدى فقط فى الوصول إلى أمر من أمور الدينْ، لأن طريقة التفكير التى تهدى إلى أمر من أمور الدين هى طريقة التفكير التى تهدى إلى الصواب والحق فى أى باب من أبواب البحث والنظر، وطريقة الاستدلال التى تهدى إلى الطريق المستقيم فى الدين هى طريقة الاستدلال التى تهدى إلى الطريق المستقيم فى الدنيا؛ ويستوى من أدرك منهج الاستدلال والاستنباط فى الكتاب العزيز أن يكون باحثًا عن حكم فى الكتاب والسنة، أو أن يكون باحثًا عن حقيقة أو قانون علمى فى الطبيعة أو فى الكيمياء أو فيما شئت لأن أصول منهج الفكر واحدة وقد قام الكتاب كله على تأصيل هذه الأصول، ولا أفهم وصف الكتاب بالهدى إلا على هذا الوجه.

وحين أقول شأن من شئون الدنيا أو من شئون الدين أشعر أننى متجاوز لأن الذى أعرفه أن شأن الدنيا والدين شأن واحد، لأن كل عمل يزاوله المسلم فى أى باب من أبواب الدنيا هو المحسوب له أو عليه، وأفهم أن المصانع مساجد وأفهم أن المعامل محاريب، ثم إن الحق جل وتقدَّس لما ذكر أن القرآن يهدى إلىٰ الحق وإلى طريق مستقيم لم يقيد الحق وإنما قال يهدى إلى كل ما يطلق عليه حق، ويهدى إلى كل ما يطلق عليه طريق مستقيم، والمهم أن يكون الباحث عن الحق ولو فى مسألة فلكية ممن شهد بالحق لأن من لم يشهد بالحق يُقدِمُ الله جل وتقدَّس إلى عملهم يوم القيامة فيجعله هباء منثورًا، وهذا

حكمه فى خلقه، ومن يرى رأيًا فى حكمه فليراجع ربه إن استطاع، أما الذى أعلمه فهو أنه سبحانه: ﴿لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣] وهذا مقتضى الألوهية، ولو كان سبحانه يُسأل يَعْنى يسأله خلقه ويحاسبونه ما عبدناه، وكلمة ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ معطوفة على كلمة﴿هُدًى﴾، والرحمة نتاج الكلمتين السابقتين وهما اليقظة المفهومة من البصائر، والبحث والنظر المفضى إلى الهدى، وهذان يُفْضيان إلى الرحمة، وهذا ترتيب واضح ولا يجوز أن يهتز، والذى أريده هنا أيضًا أن كلمة ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ كلمة مطلقة، وأسماها وأعلاها هى رحمة الله لعباده الذين آمنوا يوم يقوم الناس لرب العالمين، وكذلك لا تستطيع أن تُلْغى دلالة كلمة رحمة على رحمة الناس فى هذه الدنيا، فالظلم ليس رحمة، والفجور ليس رحمة، والقمع ليس رحمة والغطرسة على خلق الله وجلد ظهورهم لأنهم ملُّوا من الظلم والسلب والنهب والفقر كل ذلك ليس رحمة، الناس فى بلادى يعيشون على شَفَا جهنّم إلا المنافقين، والآية تقول هذا بصائر للناس عامة يعنى فى حياتهم الدنيا، وهذا يعنى أن الهدى فى حياتهم الدنيا، وأن الرحمة أيضًا فى حياتهم الدنيا، لأنه العدل بدل الظلم، والبر بدل الغطرسة، والحرية بدل القمع، وأنا لا أقول إنه رحمة فى الدنيا فقط وإنما هو رحمة فى الدنيا والآخرة، لأنه شرع رحمن الدنيا والآخرة، وقوله سبحانه: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا﴾ أمر حاسم باتباع شرع الله فى هذه الدنيا ومن يعارض ذلك فقد عطل هذه الآية، ووقف فى وجه أمر الله، ومن وقف فى وجه أمر الله ونهيه فلم يرتكب خطأ وإنما ارتكب خطيئة واقترف كبيرة ومن يُسمِّى ذلك ظلامًا فقد فجر، وظلم، وفسق، وأذكر بما قال العلماء (حيثما كان العدل فثم شرع الله) وليس المقصود بالعدل عدل القاضى وإنما عدل الوالى، وهو أوسع وأشمل، ومنه ألا يتولى أمرًا من أمور المسلمين أحد وفيهم من هو أكفأ منه، سواء كان الأكفأ مواليا أو معارضًا لأن المعارض مواطن، ومن حقه أن تكون

خبرته لصالح بلاده، وليس من حق أحد أن يحظر على أحد رأيًا، أو اتجاهًا سياسيًا، وغير سياسى؛ لأن كل من أَنْبَتَتْهُ هذه الأرض فمن حقه أن يكون محميا عليها، من القمع، والبطش، والقهر، إلا أن يَمُدَّ يده بما يروِّع الناس، واضطهاد الناس هو الفساد وهو الإرهاب وقطع ألسنة الناس هو الفساد وهو الإرهاب، وفرض الرأى على الناس هو الفساد وهو الإرهاب، والقمع هو الفساد وهو الإرهاب ورحم الله عمرًا لما قال كلمته العالية المضيئة (متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا) وعظمة هذه الكلمة أنها قيلت فى إنصاف المخالف لدين الله، والمنكر لرسالة محمد ﷺ يقولها أقرب الناس إلى محمد صلوات الله وسلامه عليه يحمى بها من يكفر بمحمد وبنبوته وبكتابه، فكيف بمن يستبد ويقمع ويقهر أهل الشهادتين؟

وأكتفى بهذا لأن استيفاء الكلام فى هذه الكلمات الثلاث ﴿هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ يملأ كتابًا ولا يسع مؤمن يشهد الشهادتين أن يصف شرع الله بأنه ظلام، وإنما يقول ذلك من فجر، وظلم، وفسق، ويحميه من فجر وظلم وفسق ولا طاعة علينا لمن فجر وظلم وفسق لأن طاعتنا لا تكون إلا لمن أطاع الله فينا ومن لم يطع الله فينا لا طاعة له علينا. وهذا ما أجمعت عليه الأمة ونص عليه الكتاب. وقوله تعالى: ﴿لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ قيد راجح جداً وثرىٌّ جداً. وبيان ذلك أن ذكر كلمة قوم تشير إلى أن قوام أمرهم ومنهجهم وفكرهم وما طُبِعُوا عليه أنهم باحثون عن اليقين؛ واليقين هو الذى لا يحوم حوله شك، يعنى يدققون ويحللون، ويراجعون، حتى يصلوا إلى محض الحق الذى هو اليقين، وهذا شأنهم فى كل ما يباشرون، شأنهم البحثُ عن اليقين فى الدين، وفى العلم، وفى السياسة، وفى كل شأن من شئونهم، لأن الكتاب العزيز يُخرج الناس من مستوى العشوائية فى الفكر إلى مستوى التفكير المنظَّم الذى تَرْسُمُ خطواته هذه الكلمات الثلاث التى هى البصائر، والهدى والرحمة، والبصائر بمثابة النتائج لليقظة والنشاط

العقلى الذى يصل إلى أقصى مستواه، ثم الهداية التى هى معرفة الطريق وفيها معنى المنهج، ثم الرحمة التى هى الوصول إلى ما يَرْحَم الناسَ فى الدين والدنيا، أقول هذا شأن قوم يوقنون، والذى يرجح ما أقول هو أن يوقنون هنا مع ما فيها من تجدُّد الفعل وحدوثه فيها معنى آخر وهو توفر الكلام على إثبات الفعل للفاعل من غير نظر إلى المُسْتَيْقَن ما هو؟ المهم أن شأنهم، البحث عن اليقين فى كل ما يُتَطَلَّبُ فيه اليقين واعلم أنى أستعيذ بالله من أن أضيف إلى كلامه كلمة من خارج كلامه لأن هذا من سوء الأدب مع الله، والاستدراك على كلامه وتَحميل كلامه مالا يَحْتَمل، وبقى أن أقول إن هذه الآية تكررت فى الكتاب العزيز مع اختلاف فى مواقعها، وأقرب الآيات إلى هذه الآية قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِن رَّبِّي هَٰذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٠٣] واسم الإشارة عائد إلى ما يوحى إليه، وتختلف هذه الآية عن آية الجاثية بشيئين. الأول أنه قال بصائر من ربكم، وفى الجاثية قال بصائر للناس، وإنما قال فى الأعراف بصائر من ربكم لأنه تَقَدَّمها قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِن رَّبِّي ﴾ وكان هذا رداً على قولهم - إذا لم تأتهم بآية - ﴿ لَوْلا اجْتَبَيْتَهَا ﴾ أى اخترعتها فأمر عليه السلام أن يقول لهم إن اختراع الآية مُحال لأنه مُتبع الوحى والوحى آية والآية لا تكون إلا من الله، وهذا معنى ﴿ مِن رَّبِّي ﴾ الذى استدعى بصائر من ربكم والبصائر هنا يشوبها معنى الإعجاز، وأن هذه البصائر آيات. وهذا سياقها فى الأعراف؛ وسياقها فى الجاثية يجرى فيها معنى التشريع لأن جذر الكلام فيها ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الأَمْرِ ﴾ والأمر الثانى الذى اختلفت فيه آية الأعراف عن آية الجاثية أن الأعراف قالت ﴿ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ والجاثية قالت ﴿ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ ووجه ذلك فى الأعراف أن القوم الذين ذكرتهم الآية وحاورتهم قوم لا يؤمنون، فذكرت

أن البصائر آيات من ربهم لقوم يؤمنون، وهذا ظاهر، وفى الجاثية جاءت فى سياق اتباع الشريعة، والمطالب بالشريعة كل الناس، فجاءت كلمة ﴿لِلنَّاسِ﴾ متعلقة ببصائر، ثم رتب الكلام من البصائر إلى الهدى إلى الرحمة وكل ذلك ترتيب متناسق مع الفطرة ثم جاءت كلمة قوم يوقنون وهم صفوة خلق الله، فبدأت آية الشريعة بالناس كل الناس، وبعد كلمتين خلصت فى هاتين الكلمتين إلى صفوة الناس لأن الهدى والرحمة فى الشريعة لا يرسُم طريقها إلا رجال انقطعوا للبحث فى الشريعة والنظر فيها، والقياس، والاستنباط، حتى يتسنَّى لها أن تستوعب حياة الأمم الكثيرة التى دخلت فى دين الله فى أمكنة كثيرة ومجتمعات متنوعة، وحياة ليست متجدّدة فحسب، وإنما هى حياة تثبُ فيها الجماعات الوثبة فى إثر الوثبة، ولا تهدأ، ولا تنى، وكل هذا لابد أن يجد له وجهًا شرعيا يجيزه، أو يمنعه، أو يعدّ له، إلى آخره، وهذا لا يكون ولا يُتَصَوّر أن يكون إلا بانقطاع رجال من أكرم رجال الأمَّة، ومن أصدقهم، وأعلمهم ليقوموا على درس الشريعة، دراسة ذات منهج، وذات وعى، وفيها كل البصائر، وفيها كل الهدى، وفيها كل الرحمة، ولهذا نجد هذه الآية فى السياقين المذكورين الجاثية والأعراف تختلف دلالاتها اختلاف لا ريب فيه تبعًا لاختلاف السياقين ولا شك أن الذين آمنوا يزدادون إيمانًا، ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ [الأنفال: ٢] والذين اهتدوا يزيدهم الهدى هدى، والعلماء المنقطعون لدراسة الشريعة يعنى الكتاب والسنة يرتقى إيمانهم إلى درجة اليقين؛ لأن اليقين هو الشاطئ الذى تنتهى عنده رحلة أهل الله، ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩] وذكر البقاعى أن أهل اليقين (ناس فيهم قوة القيام بالوصول إلى العلم الثابت وتجديد الترقِّى فى درجاته إلى مالا نهاية له أبدًا) راجع تجديد الترقى فى درجاته إلى مالا نهاية له أبدًا، وهى كلمة من أرفع ما تكتبه أقلام العلماء وأن هذا حين يذكر فى سياق الأمر باتباع الشريعة، والنهى عن مخالفتها يعنى أن اتباع الشريعة لابد أن يؤسس على

حركة من البحث والعلم بالفقه واللغة تترقى فى درجات هذه العلوم ترقيا يتجدد وأنها لا تصل إلى النهاية أبدا، لأن درجات علوم الشريعة وتوابعها ووسائلها لا نهاية لها أبدًا، ثم أبحث عن الناس الذين فيهم قوة القيام بالوصول إلى العلم الثابت، وراجع كلمة قوة القيام لأنها أصل هذا المعنى، وأصل النهوض بأى علم من العلوم وأصل النهوض بأى شعب من الشعوب وليست سمسرة المتربحين الذين كونوا فصيلا من الأغبياء وأعلنوا أنهم أولياء أمر الوطن، وأن من يخالفهم يعكر الصفو العام، وتأمل الصور واسأل لماذا يحارب شرع الله عند فصيل الأغبياء المتربحين وعند خدمهم من حملة الأقلام الذين يسمون أنفسهم أيضًا مثقفين، ولهم وزارة ولهم إدارة، راجع لتحسن فهم الواقع بحسن فهم الآيات ولتحسن فهم الآيات بحسن فهم الواقع، واحذر من الفصل بينهما.

يبدو لى الآن أننى بيّنْتُ سر فاصله ﴿لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ فى الجاثية ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ فى الأعراف وعلى كل حال هذا ما عندى والله أعلم.

قوله سبحانه: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٢١) وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١، ٢٢].

هاتان آيتان تعالجان حالة واحدة وقبلهما آيتان تعالجان حالة واحدة، وقد نبهت إلى ذلك لما بدأت هذه الحالة فى السورة من أول ﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ﴾ ثم أضيف إليها آية ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ ثم جاءت حقيقة أخرى عالجتها آيتان هى ﴿قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ﴾ ثم تبعها قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا﴾، ثم قصة بنى إسرائيل فى آيتين ثم ذكر الشريعة التى أنزلها الله على محمد ﷺ فى آيتين ثم الفصل بآية ﴿هَذَا بَصَائِرُ﴾ كما فصلت آية ﴿هَذَا هُدًى﴾ بين معنيين مختلفين وهكذا

ترى السورة وحدات متشابهة وكل وحدة تمثِّل حـقيقة وكل حقيقة هى لبنة فى بناء السورة وهذه اللبنات تتسـاوى كثيرًا فتكون آيتين وتخـتلف فتكون أكثر أو أقل، وتجد هذا النسق تتـخلَّله آيات فواصل بين المعانى وقد تكون تلخـيصًا نادرًا للذى مضى وفتحا خفيا للذى يأتى بعدها، كما ترى فى آية ﴿هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ التى لخَّصَتْ أمر الشريعة، ووجوب اتباعها، والنهى عن اتباع غيرها، وأن هذا الأمـر وهذا النهى بصائر للناس، وهذا فتح خفى لآية ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً﴾ وإنما كان فتحـا خَفِيًا لأن هذا الحسبـان ضد البصائر، وهذا الإدراك، ضد القوى المدركة للحق، والتى فطر الله النفوس عليها لأن التسوية بين الذين اجترحـوا السيئات والذين عملوا الصالحات ليـست فقط مما لا يقره عقـل، وإنما هى أيضًا مما لا يقـره طبع، والآية الثانـية ﴿وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ دحض ظاهر لهذا الحسبان كما سنبين إن شاء الله.

ومما تعلمته فى تحليل البيان من علماء التفسير وهو حق أنهم يرجعون بالآية إلى الآية التى هى أشبه بها فى السورة، وإن فَـصلَتْ آيات كثيرةٌ بينهما، هذا مع بيان ارتباطها فى النسق بما قبلها مـباشرة، وقد ذكرت أن مجىء هذه الآية بعد آية البصائر لأن فكرة هؤلاء المُـثـقَّفين المتنورين فى الزمن الأول والمناهضة لدين الله هى أيضًـا مناهضة للفطرة، ومناقضـة للبصـائر، التى هى قوى فى القلوب تدرك بهـا الحق، والآية مع هذا ترجع إلى قوله تـعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ ولو جاءت بالواو لقلت إنها مـعطوفة عليها، ولو قلت من عمل صالحـا فلنفسه ومن أساء فعليهـا ثم إلى ربكم ترجعون أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا لاستقام الكلام والتأم وتماسك، وإذا كان الأمر كـذلك فلماذا تأخرت آية أم حسب الذين اجـترحوا السيئات؟ وفـصل بينها وبين الآية التى هى وجهها الآخـر؟ لا أعلم لهذا سرًا

إلا شيئًا أرجو أن يكون فيه صواب، وهو أن آية ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ﴾ وآية ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ﴾ هاتان الآيتان ولواحقهما هما الوجه الثانى لآيتى الله الذى سخر لكم البحر وما تبعهما، وذلك لأن آيتى التسخير من آيات النعم الحسية، التى تقوم بها الأشباح وآيتى الكتاب والحكم والنبوة والشريعة التى من الوحى والتى جعل الله الخلق عليها من النعم العقلية والأخلاقية التى تقوم بها الأرواح، وهاتان الشريعتان شريعة موسى الكليم وشريعة محمد الخاتم صلوات الله وسلامه عليهما تمثلان شرائع الله لخلقه وتأخير الحديث عن فساد وضلال وفكر هؤلاء الذين يحسبون أن الذين اجترحوا السيئات والذين عملوا الصالحات سواء بعد ذكر هاتين الشريعتين لمزيد البيان عن ضلالهم، وفساد طباعهم، ومخالفتهم لشرائع الله كلها، فضلاً عن مخالفتهم لبصائر ذوى البصائر.

ولو تقدَّمت آية ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ﴾ على آية ﴿هَٰذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ﴾ لغمض كثير من المراد بها؛ لأن مجيئها بعدها صريح فى أن أفكار قائليها أفكار مخالفة ليس للشرائع فحسب وإنما مخالفة للفطرة التى فطر الله الناس عليها، والبحث عن سر الفصل بين الآيات بآيات بحث دقيق جدا وكشف أى شىء فيه كشف ممتع جداً.

وكلمة ﴿أَمْ﴾ فى قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ﴾، بمعنى بل والهمزة، والهمزة للإنكار التوبيخى، لأنها لإنكار هذا الحسبان؛ وتوبيخهم عليه، وأم للإضراب الانتقالى وليس الإبطالى لأنها آذنت بانتقال الكلام من ذكر الشريعة التى جعلنا الله قياما عليها، وأمرنا باتباعها ونهانا عن أتباع غيرها، إلى ذكر شريعة الغاب التى يؤمن بها هؤلاء المثقفون المتنورون فى الزمن الأول والذين بقيت أحفادهم فينا يحاربون اتباع الشريعة التى أمر الله باتباعها ويحضون على اتباع غيرها التى نهى الله عن اتباعها، وهذا ترابط ظاهر جداً بين الآية والآية التى قبلها، لأنها جاءت بفرقة الظلاميين الحقيقيين

والذين يبعدون الأمة عن اتباع شرع الله، وهو النور الحقيقى لأن شرعه هو نور السموات والأرض كما فسره العلماء فى آية النور، من سورة النور، تلك الآية التى هى نفسها قبس من نور سورة النور وهى ﴿كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ﴾ [النور: ٣٥] وأنا أعجب كيف يسمَّى مُثَقَّفًا أو أديبًا أو ناقدًا ذاك الذى يقرأ هذا ولا يشهد أنه كلام الله؟ وسر إعجابى بسحرة فرعون أنهم لما رأوا الآية خروا لله ساجدين ولهذا أراهم أفضل من سحرة الكذاب، لأن سحرة الكذاب والكذاب طُمِسَتْ نفوسهم فلا ينفذ إليها من الحق ضياء.

والتعبير بالاسم الموصول فى قوله سبحانه: ﴿الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ﴾ المقصود به المعنى الذى فى الصلة وهو اجتراح السيئات وهى كلمة مُنَفِّرة منهم ومن حُسْبانهم وخصوصًا حين توضع فى مقابلة الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ويابعد ما بينهما، هؤلاء تكثر بهم الرذائل فى الأرض والبغى؛ والفساد، والسلب، والنهب، والفواحش ما ظهر منها وما بطن، وهؤلاء يكثر بهم الخير، والبر، والرحمة، والعدل، والعلم، والنور، ثم إن صدور هذا الحسبان من مجترحى هذه السيئات أكثر تنفيراً منه لو صدر من غيرهم مع باطله فلو قالت الآية أحسب الناس أن يكون الذين اجترحوا السيئات ﴿كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ سواء، لكان المعنى مختلفًا، لأن صدور الحسبان من الصّنف الذى يَتَوَهَّم مساوات فساده وباطله بعمل الصالحات أبشع؛ ولأن فيه إشارة إلى خطورة أن يضع أهل الباطل أصولا وشرائع تحمى باطلهم، كالفساد الغارقة فيه البلاد، زمن كتابة هذا الكتاب، اللصوص أعضاء فى المجلس التشريعى.

ثم إن هؤلاء الذين عبَّرت عنهم الآية، بهذه الصلة ﴿اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ﴾ هم الذين عبّرت عنهم الآية قبل ذلك بالذين لا يرجون أيام الله، وقبل ذلك بالذين كفروا فما وجه تنوُّع هذه الصلة؟ وكيف لاءمت كل صلة

سياقها؟ والوجه والله أعلم أنك تجد تدرُّجًا فى هذه الصلة، وأولها الذين كفروا، ثم تأتى لا يرجون أيام الله، ومن كفر فهو لا محالة لا يرجو أيام الله، ثم إن الذين لا يرجون أيام الله هم الذين لا تزجرهم الزواجر عن اجتراح السيئات، وهذا ظاهر.

وأما الملاءمة للمقام فالذين كفروا جاء مع ذكر الهدى ﴿هَذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾ والهدى يقابله الضلال والكفر هو الضلال البعيد، ثم إن كلمة الهدى متضمنة معنى النور الهادى إلى الطريق والكفر كلمة متضمنة معنى التغطية والستر، وقد جاء الذين لا يرجون أيام الله مع قوله: ﴿قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ﴾ لأن أرفع آيات التسامح والغفران تكون مع الذين لا يرجون أيام الله يعنى وقائعه التى من أبرزها نصره للذين آمنوا، واجتراح السيئات متناسب جداً مع توهم التسوية بينهم وبين الذى آمنوا، وعملوا الصالحات، ولو وضعت واحدة مكان الأخرى لتبين لك نبو الكلام. لو قلت قل للذين آمنوا يغفروا للذين اجترحوا السيئات، لكان الكلام متنافراً لأن المغفرة للمزاولين صناعة السيئات ليس فيها نفع لأحد، وهكذا تدوِّر الكلمات فلا تجد أوقع ولا أمكن من الذى جاءت عليه الآية.

وكلمة ﴿اجْتَرَحُوا﴾ لم تأت فى القرآن إلا فى هذه الآية، وقد جاءت بمادتها من غير صيغة الافتعال فى قوله تعالى: ﴿يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ﴾ [الأنعام: ٦٠] وجرحتم يعنى ما كسبتم واجترحوا السيئات اكتسبوها وإنما جاءت على الأصل فى هذه الآية من غير افتعال لأن المقصود هو العمل والكسب من غير أن يكون القصد إلى بيان إقبالهم على هذا الكسب، واحتشادهم له إذ المقصود هو العمل والكسب فى النهار المقابل للنوم فى الليل، الذى عبر عنه القرآن بقوله سبحانه: ﴿يَتَوَفَّاكُم﴾ والمراد فى الجاثية أنهم يزاولون السيئات ويجترحونها بشديد رغبة ووفرة نشاط، وكأن القصد

إلى بيان أن اجتراحهم السيئات سلوك يخالط نفوسهم، وأنهم يجدون لمزاولة السيئات غبطة ولذة كما يجد أهل الإيمان للطاعة غبطة ولذة، وقد كَنَى القرآن عن الكفر بمزاولة السيئات فى آيات كثيرة منها هذه الآية، بدليل مقابلة الذين اجترحوا السيئات بالذين آمنوا وعملوا الصالحات، وكأن المراد أم حسب الذين كفروا واجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات، وأنبِّه إلى أن الكفر القديم ليس صورة واحدة وإنما هو صور، منه إنكار الخالق كما فى قوله تعالى: ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ﴾ وكما قوله سبحانه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ﴾ [الفرقان: ٦٠] ومنه إنكار البعث والإقرار بأن لله ما فى السموات وما فى الأرض كالذى جاء فى سورة المؤمنين من قوله سبحانه: ﴿قَالُوا أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (٨٢) لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: ٨٢، ٨٣] وقد عقبت الآيات على هذا القول ببيان اعتقادهم بما يوجب نفيه واحتشدت الآيات لذلك وبلغت الغاية، قال سبحانه: ﴿قُل لِّمَنِ الأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٤) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ (٨٥) قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٨٦) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ (٨٧) قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٨) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٤، ٨٩] والمقرون بهذا كله ليس بينهم وبين الهدى إلا خطوة واحدة والآيات تكشف الغشاوة ليخطوا هذه الخطوة، وكان اجتراح السيئات من أهم عوامل تعويق الخطوات نحو الهدى، والذى كان يجب أن يكون مادامت هذه الحقائق العظيمة مستقرة فى نفوسهم، راجع هذه الحقائق. الأرض ومن فيها لله، ورب السماوات السبع ورب العرش العظيم هو الله، والذى بيده ملكوت كل شىء هو الله، والذى يجير ولا يجار عليه هو الله، ولا يحرص مؤمن على أن يسكن فى قلبه حقائق أعلى من هذه الحقائق،

وربما كانت كنايات القرآن عن الكفر بارتكاب الكبائر متضمنة شيئًا من هذا المعنى الذى أقوله وقد ذكر الطاهر من كنايات القرآن عن الكفر بارتكاب الكبائر قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣ أَلا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [المطففين: ١، ٥] وذكر قوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِى يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ۝١ فَذَٰلِكَ الَّذِى يَدُعُّ الْيَتِيمَ ۝٢ وَلا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ [الماعون: ١ : ٣]، وذكر أن اكتساب السيئات من شعار أهل الشرك، وعلى المؤمن أن يحذر شعار أهل الشرك، لأن الإيمان كما يزيد بالطاعة ينقص بالمعصية والبغىّ والظلمَ والنهب وارتكاب محارم الله كل ذلك خطر على الدين، وقد نبه الرسول الكريم إلى أن الإيمان الكامل الزاجر عن المعصية يغيب عن المؤمن ويفارقه حال ارتكاب الكبيرة ولا يَسْرِقُ السارقُ حين يسرق وهو مؤمن ولا يشرب الخمر شاربها حين يشربها وهو مؤمن، فلابد من الحراسة والوعى والمتابعة، وهؤلاء الذين ألفوا الظلم والبغى والتزوير والغش والقمع والقهر والغطرسة عليهم أن يبادروا وأن يبحثوا فى نفوسهم عن بقية من معرفة الله إن كانت قد بقيت وأن يتعهدوها بعمل الصالحات من العدل والبر والصدق والرحمة والطهارة وأن يكفوا ألسنتهم وأقلامهم عن الهجوم على دين الله وعن مطاردته مما أدخله الله فيه.

قوله سبحانه: ﴿أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ نجعلهم لها مفعولان الأول الضمير المتصل بها والثانى كاف التشبيه، والجملة ذكروا الله فيها لأن فاعل نجعل هو الله والجملة كلها مفعول به لحسب، فالذين اجترحوا السيئات حسبوا أن الله سبحانه يجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات؛ فالله عندهم هو المتصرف فى الذين آمنوا والذين اجترحوا السيئات، وأنه سيجعلهم سواء، وهذا الحسبان الواقع منهم نفته الآية الكريمة بالاستفهام الإنكارى، ومن الواجب أن نضيف حسبانهم فى أن الله يجعل وأنه المالك لأمرهم وأمر الذين

آمنوا وعملوا الصالحات إلى استعمال كلمة حسب مع أن القضية المؤسسة عندهم على الحسبان والظن من أهم القضايا التى كان يجب أن تؤسس على الإيمان واليقين وأن القضية عندهم فى باب الظن وأنهم لم يقطعوا فيها بيقين، إما لأنهم ليسوا من أهل الإيمان فضلاً عن اليقين، وذلك لأن الإيمان يتطلب المراجعة والتدبر والتفكير، والتذكر، والقرآن نفى عنهم كل ذلك وأشار إلى أنهم لو تدبروا لأدركوا الحق ولو تفكروا أو تذكروا أو تعقلوا لأدركوا الحق، فالأشبه بهم الظن وإما لأنهم لم يتخلصوا من وجود للحق فى ضمائرهم بدليل إضافتهم الجعل إلى الله سبحانه وأن هذا الجعل ليس فى الدنيا فحسب، وإنما فى الآخرة أيضًا ﴿سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾ وهذا اعتقاد آخر فيه إقرار بأن الله متصرف فى خلقه وأنه سبحانه متصرف فى الدارين يعنى إقرار بالبعث، وهذه طبقة أقرب إلى الله من الذين ذكروا فى سورة المؤمنون، وقالوا لله ما فى السموات وما فى الأرض والذى فى السموات السبع له والعرش العظيم له وملكوت كل شىء فى يده وهو يجير ولا يجار عليه ولكنهم أنكروا البعث.

وجملة ﴿سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾ مبتدأ وخبر وهى بدل من المفعول الثانى لنجعلهم، وراجع وتدبر لتدرك أن جملة ﴿نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ فيها إبهام لأن الصفة المقصودة من التشبيه غير معروفة فتأتى جملة سواء محياهم ومماتهم وتزيل هذا الإبهام، وكأن المعنى أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم هم والذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء فى المحيا والممات، وصح إبدال الجملة من المفعول الثانى المفرد لأن الجملة التى لها محل من الإعراب تقع موقع المفرد، وهذه الجملة تحتمل جملة من المعانى أشهرها وأسيرها فى الكتب أن هؤلاء المجترحين للسيئات حسبوا أنهم مع الذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء فى الحياة وفى الممات وأنهم كانوا فى الدنيا سواء فى نعم الله التى سخرها لعباده المؤمن منهم والكافر كذلك الحال فى الآخرة، وأنهم سواء فى نعم الله فى الآخرة.

ومسألة اجتراح السيئات وعمل الصالحات لا قيمة لها عند الله، وهذا هو الوجه المشهور.

ووجه آخر من المعنى هو أن الذين اجترحوا السيئات كانوا يعتقدون أنهم أحسن حالا فى الدنيا من الذين آمنوا وعملوا الصالحات؛ لأن لهم الكبرياء فى الأرض وأكثر أموالا وأن الحال فى الآخرة سيكون على ما كان عليه فى الدنيا وأن الله سبحانه سيميزهم عن الذين آمنوا بالنعيم الأكثر، واللفظ يحتمل هذا الوجه وإن كان الأول أظهر.

وهناك وجه من المعنى مؤسس على أن قوله سبحانه سواء محياهم ومماتهم ليس من حسبانهم وإنما حسبانهم هو قوله سبحانه ﴿**أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ**﴾ ثم تستأنف الجملة سواء محياهم ومماتهم والمعنى محيا المسيئين ومماتهم سواء ومحيا المحسنين ومماتهم سواء فالتسوية ليست بين المسيئين والمحسنين وإنما بين المسيئين فكل المسيئين سواء وكل المحسنين سواء، كل المسيئين فى الدنيا سواء فى ارتكاب السيئات وفى الآخرة سواء فى عذاب الجحيم وكل المحسنين فى الدنيا سواء فى العمل الصالح وهم فى الآخرة سواء فى رحمة الله ورضوانه وهذا الوجه ذكره الزمخشرى بصيغة التضعيف ووصفه الطاهر بأنه بعيد عن ظاهر دلالة اللفظ وقد قرئت الآية برفع سواء على ما قدمنا، وقرئت بنصب سواء على أنه بدل من الكاف أو حال على معنى متساو، ومحياهم ومماتهم فاعل سواء، وقرئ بنصب محياهم ومماتهم على أنه ظرف لسواء يعنى سواء زمن محياهم ومماتهم، كما تقول جئت مقدم الحاج وخفوق النجم تريد زمن ذلك، وهذا ملخص من الكشاف ونفى التسوية المفهوم من همزة الإنكار أساسه أن المسيئين فى حياتهم يجترحون السيئات والمحسنين يعملون الصالحات فليسا سواء فى الحياة والمسيئون فى الممات يواجهون العذاب والمحسنون فى رحمة الله ورضوانه، وقد مضى

ذلك، والآية الكريمة لما أنكرت هذا الحسبان أنكرت ما تبعه من معان هى أبشع من هذا المعنى وهى من لوازم هذا المعنى وتوابعه وذلك لأن من يجعل الذين اجترحوا السيئات كالذين آمنوا وعملوا الصالحات يكون ظالما لأنه يسوى بين المفسدين فى الأرض والمصلحين فيها، ولأنه لايُنصف مظلوما من ظالم ولا يُنْصِفُ ضعيفًا مستضعفا من جبار متغطرس، ولا يقتص من القَرْناء للعجماء، ولا يتصور أن يخلق الله هذا الخلق ثم يتركه هملا من غير ثواب، وعقاب، لأن ذلك ليس من الحكمة فى شيء وليس من العدل فى شيء، ولا يتصور أن يكون الخالق المعبود والقادر على التصرف فى عباده فى حياتهم وبعد حياتهم فاقدا للعدل والحكمة، أقول لو فكرت فى الذى وراء الحسبان الذى حسبوه ستجد بابا من أبواب إساءة الأدب مع الله فيه من الكفر ما يَصْغرُ معه هذا الحسبان، وحين تتابع لوازم المعانى المذكورة وتوابعها أو مستتبعاتها كما سماها القدماء ستجد بابا متسعا جداً وهو طريق من طرق فهم الإيجاز وفتح أبواب المعانى الكثيرة التى وراء الألفاظ القليلة والذى دعانى إلى ذلك هو الإيجاز العجيب وتوجه المعنى فى الجملة التى عقبت على هذا الحسبان وهو قوله تعالى ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ لأن هذه الجملة رد لهذا الحسبان وتأكيد لإنكاره المفهوم من الهمزة التى هى جزء من دلالة كلمة ﴿أَمْ﴾ وهذه الجملة مختصرة جداً وهى ليست تفنيدًا لدعواهم، يعنى لم تقل ليس عندهم سلطان بهذا أو أن هذا من الظلم والله منزه عنه، وإنما تجنبت كل المفردات التى يمكن أن تكون رداً مباشرًا على ما زعموه، وحكمت على كلامهم بأنه من سوء الأحكام، ثم لاحظتُ أيضًا بأن الجملة لم تقل ساء ما يقولون أو ساء ما يعتقدون أو ساء ما يظنون، وإنما ذكرت كلمة ﴿يَحْكُمُونَ﴾ وكأن فى كلامهم وقولهم إن الله جعل المجترحين للسيئات كالذين آمنوا وعملوا الصالحات -حكما على الله، وأنهم وضعوا أنفسهم موضع من يحكم على الله، والحكم هنا حكم عليه بأنه جعل كذا مثل

كذا، وأنك حين تقول فلانٌ يقول بكذا تكون قد حكمت عليه بأنه يقول بكذا، واعتبار الآية هذا حكما فيه إشارة إلى سوء أدبهم مع الله، وتجاوزهم فى الحديث معه سبحانه، وقد راجعت نظائر هذه الآية فى الكتاب العزيز فوجدت جملة ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ فى فواصل آيات محدودة، وكلها فيها شوب من القضاء، من ذلك قوله سبحانه فى سورة الأنعام ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٦] هذا تشريع شرعوه وقضاء قضوه وأنهم جعلوا لله من خلقه نصيبا وجعلوا لشركائهم نصيبا، وما كان لله يصل إلى شركائهم وما كان لشركائهم لا يصل إلى الله، وهذا هو حكمهم، وهو كما وَصَفَتْه الآية ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ ونلاحظ هنا أن هذا الحكم أقل سوء من حكم الجاثية لأنهم شرعوا، ولم يزعموا أن الله هو الذى شرع، يعنى لم يضيفوا شيئًا إلى الله كما أضافوا فى الجاثية ولم يفطنوا إلى أن الذى أضافوه إلى الله يصفه جلّ وتقدَّس بالظلم، ويصف فعله بافتقاد الحكمة، وجاءت هذه الجملة فى سورة النحل فى سياق سلوك من سلوكهم مع الأنثى قال تعالى: ﴿إِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (٥٨) يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [النحل: ٥٨، ٥٩] وهذا قريب مما في الأنعام، لأنهم لم يضيفوا شيئًا إلى الله، والذى فى الأنعام عقيدة تأسس عليها سلوك، والذى هنا عادة حياتيَّة تأسس عليها سلوك، والحكم هنا ظاهر لأنه حكم على الموءودة، وأنها إما أن تبقى حية على الهوان، أو تُدْفَنُ فى التراب ويأتى ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ مشيرًا إلى أنه فعل سيئ وحكم سيئ.

وأقرب ما فى القرآن إلى آية الجاثية قوله تعالى فى سورة العنكبوت فى الآية الرابعة ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَن يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤] رأس الآيتين رأس واحدة، هو ﴿أَمْ حَسِبَ﴾ وهذه إشارة واضحة إلى ما بين الآيتين من تواصل، وفى العنكبوت قال ﴿يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ وفى الجاثية قال ﴿اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ﴾، وهذا موطن اختلف فيه الكلامان، والذين يعملون السيئات هم الأحياء الذين يزاولونها، وهو المناسب لقوله: ﴿أَن يَسْبِقُونَا﴾ يعنى يفوتون منا، ولا نعاقبهم، وأنهم يعجزوننا، و﴿الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ﴾ أى ارتكبوا ما ارتكبوا من خطايا وهذا مناسب لقوله: ﴿نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً﴾ يعنى هم فرغوا مما ارتكبوا ويتوهمون أنهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات، وتأتى جملة ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ والغضب فيها أشد فى العنكبوت وفى المعنى شىء مختلف لأن الحكم الذى ساء حكمًا فى العنكبوت هو أن يسبقونا يعنى يعجزوننا، وهذا إفراط فى سوء الأدب مع الله، وإفراط فى الغرور، وأنهم لا يعذبون كما قالوا: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٨] والحكم الذى ساء حكمًا فى الجاثية هو زعمهم أن الله جعلهم والذين آمنوا سواء، وهذا اختلاف واضح، والحكم الذى فى الجاثية هو الحكم الذى فى القلم فى قوله تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ۝٣٥ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [القلم: ٣٥، ٣٦]، وجعل المسلمين كالمجرمين قريب جداً من حسبانهم الذى هو جعل الذين اجترحوا السيئات كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء، وإن كانت آية القلم وضعت المجرمين موضع الذين اجترحوا السيئات، لأن مزاولة اجتراح السيئات إجرام، والذين أدمنوا الظلم والقمع والقهر والغطرسة، والسلب والنهب للأوطان وقهر أهلها مجرمون، وقد وضعت سورة «ص» المفسدين فى الأرض موضع المجرمين، فى القلم والذين اجترحوا السيئات فى

الجاثية وذلك فى قوله تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٨]، لاحظ الذين آمنوا وعملوا الصالحات وضعوا موضع المتقين والمفسدين فى الأرض موضع الفجار: يعنى اجتراح السيئات، ويعملون السيئات والمجرمون والمفسدون فى الأرض والفجار كل هؤلاء سواء، فإذا سميت المزاولين لمعصية الله مجرمين أصبت وإذا سميتهم مفسدين أصبت، وإذا سميتهم فجارًا أصبت.

ذكرت أن الذين اجترحوا السيئات هم الذين لا يرجون أيام الله، وهم الذين كفروا؛ وذكرت أن القرآن العظيم يكنى عن الكفر بملازمة الكبائر، وكل هذا لا يحجب الآية مادام ليس فيها كلمة صريحة تدل على أنها خاصة بالكفار من أن يتسلَّل وعيدها وغضبها إلى أهل الله والصالحين من عباده لأن عمود الوعيد فيها قام على اجتراح السيئات، وليس الكفر، ولذلك كان يبكى كثير من الصالحين عند قراءتها حتى سُميت بكّاءة العلماء، قالوا وكان تميم الدارمى يُصلِّى ذات ليلة عند المقام فلما بلغ هذه الآية بكى وظل يردّدُ ساء ما يحكمون إلى الصباح، وعن الفضيل أنه بلغها فجعل يردِّدُها ويبكى ويقول: يا فضيل ليت شعرى من أى الفريقين أنت.

قوله جل شأنه: ﴿وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ [الجاثية: ٢٢].

يجوز أن تكون الواو التى ابتدأت بها الآية عاطفة لها على قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ﴾ وهى دليل نقضها لأن الله الذى خلق السموات والأرض بالحق لا يجعل الذين اجترحوا السيئات كالذين آمنوا وعملوا الصالحات، لأن هذا الجعل يناقض الحق الذى أقام عليه السموات والأرض، ويمكن أن تكون هذه الواو عاطفة لهذه الآية على قوله سبحانه: ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ لأنه نقض لما قبله وهذه الآية دليل هذا النقض.

ويلاحظ أن خلق السموات والأرض جاء في أول السورة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ والآية وما بعدها بيان للعزيز الحكيم الذى أنزل الكتاب؛ لأن خلق السموات والأرض آية العزة وآية الحكمة، ثم جاء خلق السموات والأرض فى قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ ومع أن الآية واحدة إلا أنها نُظِرَ إليها مرة من حيث هى دالة على المعبود بالحق الذى أنزل الكتاب، ومرة من حيث هى دالة على نعمه التى يفيضها على خلقه البر منهم والفاجر، ثم ذكرت هنا مرة ثالثة لينظر إليها من وجه آخر وهو أنها برهان البعث والثواب والعقاب لأن خلقهما بالحق ينافى الظلم، والمراد بخلقهما خلقهما وخلق ما بينهما، فالذى خلق القوى وخلق الضعيف لا يجوز فى الحكمة أن يهملهما وأن يتركهما سُدًى حتى يأكل القوى الضعيف من غير جزاء ولا عقاب، وهكذا تعلمنا الآيات أنك تستطيع بالتدريب والمراجعة أن تتأملَ الأشياء وأن تستخرج من الشيء الواحد أشياء عدة وأن تنطق الحقيقة الواحدة بحقائق عدة، وهذا جيد جداً، وتدريب رائع على التفكير والاستنباط والاستخراج، ولا يجوز أن أهمل التنبيه إلى شيء خفيٍّ وجليل وهو أن خلق السموات والأرض اقترن هناك بنزول الكتاب من الله العزيز الحكيم، يعنى اقترن بالكتاب من حيث جهة نزوله، وأن الذى أنزله هو الذى خلق السموات والأرض، وقد اقترن هنا بالكتاب أيضًا ولكن من حيث هو شريعة جعلنا الله قائمين عليها، ومطالبين بها وباتباعها، وهو هنا أيضًا برهان البعث والثواب والعقاب، وكتاب الثواب والعقاب الذى يشهد علينا يوم يوضع الميزان هو هذه الشريعة التى جعلنا الله عليها قائمين حراسًا ودارسين وأمرنا باتباعها، ونهانا عن اتباع غيرها، وهكذا ترى الآية ممسكة بأخواتها من جهات شتى.

وقد كثر فى الكتاب العزيز ذكر خلق السموات والأرض بالحق فى سياق إثبات البعث والثواب والعقاب وردِّ قول القائلين بإنكار البعث من ذلك قوله

تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴾ [الأنعام: ٧٣].

وقوله جل شأنه: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ (٣) إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾ [يونس: ٣، ٤].

ودلالة هذه الآيات على البعث والثواب والعقاب من وجوه كثيرة، أظهرها وأشهرها أن القادر على خلق السموات والأرض قادر على أن يحيى الموتى وأن إنكار البعث بسبب استبعاد أن يبعث التراب والعظام خلقًا جديدًا عليهم أن ينظروا إلى خلق السموات والأرض وهو أكبر من خلق الناس وأن الله سبحانه لم يعيى بخلقهم وهو قادر على أن يحيى الموتى.

والوجه الثانى: وهو أدق وأخفى أن خلق السموات والأرض وما بينهما مؤسس كله على الحكمة والحق والعدل لأن الله سبحانه أقام كل ما خلق على الحق والعدل والإتقان المؤسس على الحكمة، فلو حلّلت أى شىء مما خلقه ربنا فى السموات والأرض أذهلك ما أقامه عليه سبحانه من دقة وإتقان، وحكمة وعدل، وأعنى بالعدل والحق هنا ما يكون فى قيام المخلوق نفسه، وفى قوامه وما قامت عليه مكوناته، ووظائف هذه المكونات ومواقع هذه المكونات الملابسة للحق، والدقة، والإتقان، فلو تغيرت خلية عن موقعها أو اختلت فى وظائفها ترتب على ذلك إفساد المخلوق وهدمه، ومن كان هذا شأنه فى كل ما خلق وكان قد قضى سبحانه أن يسخّر كل ما فى السموات والأرض للإنسان لأنه هو المخلوق الوحيد الذى له كانت السموات والأرض

والشمس والقمر والنجوم والجبال وهو المخلوق الذى كلفه الله بشرائعه وهو الذى عرضت الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان، أقول الله الذى خلق كل ذلك للإنسان وكرم الإنسان يستحيل أن يُتصورَّ أن يترك هذا الإنسان هَمَلاً، وفى الناس الظالم والمظلوم، والباغى والذى بُغى عليه، ومن حكمة الحكيم الخبير والعزيز الحكيم أن يحاسب هؤلاء، وأن يكون هناك بعث وثواب وعقاب.

أقول هذا الوجه الثانى لم ينظر إلى قدرة الله فى أن يحيى الموتى، وإنما ينظر إلى عدل الحكيم. هذا العدل الذى يدل عليه خلقه وأن مقتضى هذا العدل أن يثيب الطائع وأن يعاقب العاصى، وآية القيامة يقول الله فيها: ﴿أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى (٣٦) أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ (٣٧) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ (٣٨) فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَىٰ (٣٩) أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ﴾ [القيامة: ٣٦- ٤٠].

ردّت الآية على حسبان أن يترك الإنسان سدى وهو حسبان كحسبان الجاثية وإن اختلف عنه؛ لأن حسبان الجاثية يسوى بين اللذين اجترحوا السيئات والذين آمنوا، وهذا حسبان أن يترك الإنسان هَمَلاً، والمهم أن الآية ردت على هذا ببيان القدرة فى خلقه وتحليل بداية النشأة، وأنها نطفة من منى يمنى ثم كان علقة إلى آخره، ولم تكن القضية عند هذا الإنسان استبعاد أن يحيى مرة ثانية وهو تراب وعظام وإنما القضية هى إهماله وتركه من غير تكليف بشرع، ومن غير هداية بكتاب، ومن غير إرسال رسل، هذه هى القضية والرد عليه هو أن الله خلقك يا هذا من نطفة ومن كان قادرًا على أن يخلقك من نطفة يستحيل أن يتركك هملاً لأن القدرة ليست دليلاً على الإعادة فحسب وإنما هى دليل على الرحمة المتمثلة فى وَحْيه جل شأنه إلى رسله وأنبيائه وأنه تعهد خلقه ولم يترك أمة إلا ولها نذير.

وهذا الوجه كما تشير إليه الآيات التى تحدثت عن خلق السموات والأرض بالحق تشير إليه أيضًا الآيات التى تنفى أن يكون خلق السموات والأرض بالباطل كما فى سورة [ص: ٢٧] ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ والآيات التى تنفى اللعب فى خلق السموات والأرض كما فى سورة الأنبياء ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ﴾ [الأنبياء: ١٦].

ثم إن ثمة وجهًا آخر من وجوه استدلال خلق السموات والأرض على البعث والثواب والعقاب وهو قريب جداً وهو أنه لا يخلق هذا الخلق العظيم إلا المعبود بالحق؛ لأن الخلق شأن المعبود بالحق وحده، عظم المخلوق أم قلّ فخلق أصغر الأشياء كخلق أعظمها؛ لأن الخلق شأنه وحده لا يشاركه فيه أحد، ولو شاركه فيه أحد لكان له شريك فى خلقه وجل سبحانه وتقدس، وهذا ظاهر ويؤسس عليه أن المعبود بالحق لابد أن يكون موصوفًا بكل كمال ومنزهًا عن كل نقص، وهذا أيضًا ظاهر ولا يتصور أن يضع ربنا الأرض للأنام وفيهم الظالم الباغى المتغطرس المتجبر، وفيهم المظلوم المستضعف من غير أن يقتصّ من الظالم ومن غير أن يجعل له شريعة تردع بغيه وظلمه، ثم إن هذا الإنسان الذى سخر له كل ما فى السموات وما فى الأرض ألهمه الله فجوره، وتقواه، ولابد له من شريعة يهتدى بها ويحاسب عليها وكل هذا من مقتضيات وصف المعبود بالحق بالكمالات وتنزيهه جل شأنه عن النقائص.

وقوله سبحانه: ﴿وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ هذه الكلمات كل كلمة منها برهان على الحقيقة التى تريد الآية إثباتها ونقض ما يخالفها، وهذه الحقيقة هى الثواب والعقاب وما يخالفها هو التسوية بين المسيئين والمحسنين.

وأول الكلمات هى ﴿خَلَقَ﴾ وحيثما رأيت الخلق فقد رأيت الله لأن الخلق لا يكون إلا من الله عظم المخلوق أم صَغُر، ونحن حين نضيف الخلق إلى

الخلق كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ [العنكبوت: ١٧] إنما نعنى أن تخلق من الخلق فقولنا مثلا الخلق والإبداع تعنى فيه كلمة الخلق خلق الرواية أو الشعر أو القصة وهى لا تكون إلا مستلهمة من الواقع، وكل جديد تحدثه وتسميه خلقًا أو إبداعًا هو مستند إلى شيء سابق، أما الخلق غير المستند إلى شيء سابق وهو الذى نسميه الخلق من العدم فذلك لا يكون إلا من الله، والمهم أن كلمة ﴿خَلَقَ﴾ دالة دلالة صريحة على المعبود بالحق والمنزه عن الظلم والمنزه فعله عن العبث؛ لأنه لا يكون منه إلا ما هو مؤسس على الحكمة والعدل؛ وهذا كله متجه إلى إبطال الحكم الذى فى الآية السابقة والذى عقبت عليه الآية بقوله تعالى: ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ وإذا كانت كلمة ﴿خَلَقَ﴾ برهانًا لأنها دالة على الخالق جل وتقدس فإن لفظ الجلالة أظهر فى ذلك وأوضح لأنه يعنى الاتصاف بكل كمال والتنزه عن كل نقص؛ والتسوية بين المسيئين والمحسنين ليست من الكمال، وينبغى أن أُنَبّه هنا إلى شيء نبَّه إليه أهل الورع من علمائنا وهو أن الخلق خلقه سبحانه وأن الأمر أمره وأنه لا يسأل عما يفعل ولو عذب المطيع وأثاب العاصى لما كان لأحد أن يسأله فى ذلك، ولا يوصف عمله فى خلقه بظلم قط، لأن له ملك السموات والأرض وما بينهما ولأنه رب العالمين، والمتصرف فى ملكه لا يسأل وإنما هو الذى أخبرنا سبحانه أنه ليس بظلام للعبيد وأنه إن تك مثقال حبة من خردل فتكن فى صخرة أو فى السموات أو فى الأرض يأت بها وأنه لا يظلم مثقال حبة من خردل وأنه لا يعذبنا إن شكرنا وآمنا، وهذا يجب أن يكون وراء كل ما نكتب. قلت: إن لفظ الجلالة يعنى الاتصاف بالكمالات المطلقة وهذا ينافى جعل الذين اجترحوا السيئات كالذين آمنوا وعملوا الصالحات لأن الله لا يجعل المسلمين كالمجرمين.

وهناك ملاحظة لغوية قد ترجح هذا الاستنتاج وهى: أن لفظ الجلالة انتقل به الكلام من طريق التكلم فى قوله سبحانه: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا

السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ إلى طريق الغيبة الذى عبَّر عنه بلفظ الجلالة، وهذا لفت إلى الكلمة التى عُدِل بها من أسلوب إلى أسلوب وأن لها فى السياق شأنًا، وربما كان هو الذى استخرجناه لما قلنا إن لفظ الجلالة وحده برهان على المعنى الذى عُقدت عليه الآية، وكلمة السموات بهذا الجمع وما فيها مما نعلم وما لا نعلم، وما فيها من حملة العرش والحافين حوله، وما فيها من الساجدين حتى لم يبق فيها موضع قدم إلا وفيه ملك ساجد، كل ذلك مظهر من مظاهر الألوهية والهيمنة التى أقامت هذه السموات من غير عَمَدٍ ترونها، والتى تمسكها أن تزول؛ ولا يوجِدُ هذه وما فيها من عوالم إلا المعبود بالحق، والموصوف بكل كمال والمنزه عن كل نقص.

وقوله جل شأنه: ﴿بِالْحَقِّ﴾ كلمة جامعة لما لا يُحاط به لأنها تعنى أن كل مخلوق فى السموات والأرض صغيرًا كان أو كبيرًا مخلوق بحق؛ وبإتقان وبحكمة، وكل البحوث العلمية هى باحثة فى أسرار الله فى خلقه، ولم تفرغ من بحث شيء واحد لا فى البر، ولا فى البحر؛ ولا فى النبات، ولا فى الحيوان، وكل الاكتشافات العلمية كما يقول العلماء لم تصل إلى عشرة فى المائة مما بُنيت عليه السموات والأرض، وما قامت عليه من حق، وعدل، وحكمة، وإتقان، ولهذا قلت: إن كلمة ﴿بِالْحَقِّ﴾ كلمة جامعة لما لا يُحاط به، وكأنها «بوصلة» تشير إلى أسرار الله فى خلقه، ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [الإسراء: ٨٥]، وكل ذلك وراءه من عزة العزيز، وحكمة الحكيم، وجلال المعبود ﴿بِالْحَقِّ﴾ ما وراءه؛ وأذكر هنا كلمة قالها الشيخ عبد القاهر فى أسرار الإعجاز وهى أن وراء الكلمات المعدودة من كلام الله من المعانى ما لا يدخل فى مُنَن البشر وهذا واضح جداً فى كلمة ﴿بِالْحَقِّ﴾، وواضح أيضًا فى كلمات الآية، والكلمات التى تشبهها، والتى تتناول خلق السموات والأرض وما بينهما، وهى توطئة لقوله سبحانه بعدها: ﴿وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ ومعانى هذه

الجملة، أيضًا لا حدود لها، وإنما نأخذ من معاني الجمل القرآنية ظواهرها، ومهما اجتهدنا في أن تنال ألسنتنا، وأقلامنا بواطنها، وبلغ اجتهادنا في ذلك ما بلغ، فنحن لم نتجاوز هذه الظواهر؛ كحالنا في بحث أسرار الله في الكون، لأن القرآن كون ناطق، كما أن هذا الكون قرآن صامت، وإذا كان القرآن يعود إلى ربه يوم القيامة بكرًا، بعد كل الجهود التى بُذلت في بيانه، وبعد كل ما استخرج منه؛ فإن الكون هو أيضًا سيعود إلى ربه يوم القيامة بكرا بعد كل ما اكتشفه العلم من أسراره، وليس في هذا تَزيُّد لأن التَّزَيُّد في أسرار الله في خلقه وفي كتابه من باب سوء الأدب مع الله؛ لأن كونه في غنًى عن التزيد، وكلامه في غنى عن التزيد، وهو وحده يعلم أننا لا نكتب إلا ما ظهر لنا كفلق الصبح.

اللام في قوله سبحانه: ﴿ولِتُجْزَى﴾ أخت الباء في قوله: ﴿بِالْحَقِّ﴾ وجزاء كل نفس بما كسبت مع سعة معناها، وأنها لا يحاط بها، هي مفردة واحدة من مفردات لا نهاية لها دلَّت عليها كلمة ﴿بِالْحَقِّ﴾، ولهذا لا أراها بيانًا لها، وإنما هي بيان لمفردة من مفرداتها، ولك أن تقول هي من ذكر الخاص بعد العام، مع الاختلاف الشديد بين ما يدل عليه العموم من الكثرة والوفرة، وما يدل عليه الخصوص أيضًا من الوفرة، والكثرة، وأن وفرد الخصوص فرد من أفراد لا حدود لها يدل عليها العموم، ومع كل هذا أقول: إن هذا الخصوص هو المقصود بالآية، لأنه منصب على نقض ما انعقدت الآية على نقضه، والعموم هناك كتاب مفتوح للخلق جميعًا من يوم أن نزل إلى يوم أن ينفخ في الصور، يرى الله فيه مَنْ أحسن تدبر الآية، وهذه اللام الداخلة على الفعل المضارع تفيد معنى نمرُّ عليه من غير أن يَلْفِتنا مع أنه معنى يحتاج إلى وَقْفَة، لأن هذه اللام تعني أن الله خلق السموات والأرض لتجزى كل نفس بما كَسَبت، وأن وجود هذا الكون الكبير الماثل في السموات وفي والأرض إنما كان لأُحاسب أنا، وتُحاسب أنت، ويحاسب هو وهي إلى آخره، ولولا ذلك ما خلق الله هذه السموات ولا هذه الأرض، أليس هذا مدلول الآية؟ وأليس هذا محتاجًا إلى بيان؟

وإذا قلنا إن الله سبحانه وضع الأرض للأنام، يعنى لولا الأنام ما وضع الأرض وأن الله خلق الأنام لعبادته، ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، وخَلْقُه سبحانه الناس لعبادته يقتضى لا محالة وجود كتبه، ورسله، وشرائعه، لأن الله لا يعبد إلا بما أمر، وعلى الوجه الذى أمر به، وكل هذا يوضح لنا أن الله ما خلق الأرض إلا ليجزى كل نفس بما كسبت، وهذا تعليل ظاهر. والذى يحتاج إلى إظهار هو أن يكون جزاء كل نفس بما كسبت علة لخلق السموات، والذي يُبيِّنُ هذا أن الله سبحانه كرم بنى آدم، وسخَّر له ما فى السموات وما فى الأرض جميعًا منه، وهذه الآية التى معنا من الآيات الدالة على تكريم الله للإنسان، لأن الله سبحانه حين يقول: إنه خلق السموات والأرض بالحق ليجزى كل نفس بما كسبت، يكون سبحانه قد جعل الإنسان سِرَّ هذا الوجود، وما يُزَاوله من خير يُثَابُ عليه، ومن شر يُعاقَبُ عليه، هو الذى له خلق ربنا السموات والأرض، ومن يحسن إدراك هذا يستحيى من الله أن يعصيه طرفة عين، وكما أكرم الله سبحانه الإنسان فى هذه الآية لما أخبر أنه جل وتقدس خلق السموات والأرض بالحق ليجزى الإنسان بما كسب أكرمه سبحانه كرامة أخرى لما قال: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ وجعل مسؤوليته مسؤولية فردية، فلا شأن له بعمل غيره ولا شأن لغيره بعمله، قال سبحانه ﴿لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ﴾، وقلب هذا المعنى على وجه آخر وقال فى آية أخرى: ﴿لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا﴾ [البقرة: ٤٨]، والكرامة فى هذا البعد بالإنسان عن أن يجعل التبعية طريقًا له، وأن يعمل بعقل غيره، وأن يضع قدمه على مَدَبِّ غيره، وأن يكون واحدًا فى سرب، وأن يصيح بما يَصِيحُ به السِّرْبُ وإنما عليه أن يختار طريقه بعقله، وأن يحرك قدمه بعقله، وأن يكون صوتًا يصيح، وليس صدًى حاكيًا، هذه الآية تُبْعدُ الإنسان عن أن يكون ببَّغاء تُلقّن وتقول، وأن يكون عقلها فى أذنيها، والإنسان التائه فى القطيع ليس إنسانًا والصَّدَى المحكى ليس صوتًا، والسرب الطويل الذى تراه يركض وراء شخص

واحد ليسوا بشرًا، وهم أشبه بسرب طير يقوده غراب، المسؤولية الفردية فى هذه الجملة هى التى تصنع الإنسان الحر، المتكئ على عقله، والذى ينظر فى كل شيء وهو يعلم أنه مسؤول عن رأيه وليس عن رأى غيره؛ ومسؤول عن كسبه؛ وليس عن كسب غيره، وهذه القيمة التى وضع الخالق الإنسان فيها، أدركها علماؤنا ونفَّرتهم من التقليد وقد وصف الزمخشرى الحر العقل المقلِّد بقوله: (كالعنزة الجرباء تحت الشمأل البليل) يريد المطر البارد، وكل ما عندنا الآن يقوم على التقليد، الثقافة تقليد، والفن تقليد، والسياسة تقليد، والمذاهب تقليد، والأحزاب تقليد، والدعوة إلى سلوك طريق الغير لا تجد من يناهضها ويقابلها بضرورة البحث عن طريقنا لنسلكه، بدلاً من أن نسلك طريق الغير، وأصبحت المناهج الدارسية تقليدًا، وأصبحنا نُربَّى على أنه لا منجاة لنا إلا أن نفكر كما يفكر الآخرون وأن نتقلَّب فى الحياة كما يتقلَّبون، وهذه مقولة أطلقها رائد وحفظها جيل من بعد جيل ولاتزال الببغاوات تغنيها وتعتبرها بسملة النهضة مع أنها تدمر عقولاً وتطفئ شعلاً وقد أصبحت عقيدة حضارية وعقيدة ثقافية ومن يناهضها فهو رجعى وظلامى وما شئت، ولو تغلغلت بهذه الجملة القرآنية التى هى من محض الصدق ومحض الصواب، لفتحت بها أبوابا كثيرة، وحسبك وحسبها أنها ضِدّ نظام تربية القطيع الذى تحترفه الأنظمة المستبدة، والقطيع هو الذى له صوت واحد هو نعم، ولسان واحد هو الثناء على النظام الرشيد، والكبير، الحكيم الوالد وما ولد، وله حركة واحدة هى أن يمشى بجوار الحيط ولو فَلَتَتْ قدمه فلتة واحدة وابتعدت عن الحيط كسرت هذه القدم، وقد عشت زمانًا رأيت فيه بعينى كيف رُبِّىَ وكيف يُرَبَّى القطيع، ورأى ذلك كل من عاش زمانى، وأول بيت رُبِّىَ فيه القطيع كان اسمه هيئة التحرير، ثم انتقل إلى الاتحاد القومى وانتقل معه القطيع، ثم انتقل إلى الاتحاد الاشتراكى، وانتقل معه القطيع، ثم انتقل إلى حزب مصر، وانتقل معه القطيع، ثم انتقل إلى الحزب الوطنى،

وانتقل معـه القطيع، ورأت عينى أيضًا الصّبْيـة الذين كانوا يدَرَّبون على نظام تربية القطيع، وقد شابت نواصيهم، ولانت عظامهم، ولَمْ يَرْعَوُوا. وهم الآن قادة ورمـوز، وهم الآن أيضًا مثقِّـفون بكسر القـاف المشدّدة للشبـاب الجديد والفكر الجديد والصـياغة الجـديدة المتطوِّرة (للقطيع) وهم يُجيـدون ذلك جداً لأن تَرْبيةَ القطيع جرت فى عروقهم، وفى لحمهم، ودمهم، منذ أن ركنوا إلى الذين ظلموا فمستهم السراء ومستهم الخساسة أيضًا.

راجع الجملة القـرآنية وبَيْن عينيك ثقـافة صناعة القطيع، لتـرى الفرق بين كلمة تقول لك: إن المسؤولية الفردية المتمثلة فى جزاء كل نفس بما كسبت وأنه لا تجـزى نفس عن نفس شيـئًا وأن كـل امرئ بما كـسب رهين وأن كل نفس تُبسَلُ أى تُحبَسُ بين يدى الله بما كـسبت وأن هذه الحقيقة يجب أن تكون بين عينى الفـرد من ساعة أن يـطالب بالتكاليف الشرعيـة، وأن الكسب الذى هو مسؤول عنه مسؤولية فردية، ليـس صلاة وصومًا فحسب، وإنما هو كل عمل يزاوله ابتـداء من مزاولة الزارع فى حـقله وانتـهاء بمزاولة العـالم فى معـمله ومرورًا بكل ذى مهنة كبيرة كانت أو صـغيرة من كل ما تعمر به الأرض وكل ما يجرى عليها. كل حـركة على هذا الكوكب وراءها مسؤول عنها هو الذى سيحاسب عليـها، فإن زاولها بصلاح سئل عن ذلك وإن زاولهـا بفساد سئل عن ذلك وإن زاولها بإتقان سـئل عن ذلك، وأنه إذا أراد أن يرجح ميزانه بين يدى ربه عليه أن يبلغ من نفـسه أقصى ما يبلغه المحـسن منها، وأن يصل بها إلى غاية الإتقان، حتـى إنه ليحاسب على نقصه عن التمـام مادام قادرًا عليه كما يقول أبو الطيب، وأن الله سبحانـه لهذا خلق السموات والأرض وما بينهما، أقول راجع هذا ثم راجع ثقافة الاستبـداد وتربية القطيع المؤسسة على الالتزام الحزبى كما يقـول ساستنا، وكما يقول أصـحاب الفكر الجديد الذى ينادى به من لا يعرف قديمًا ولا جـديدًا، وإنما يحسن أن يكون بَبَّغاء بَيْـضاء أوربية، وقد سمعت أستاذًا هو مـرجع لمن يربون القطيع يقول وهو يبرّر إبعاد الدين

عن السياسة دع ما لقيصر لقيصر وما لله لله. فاعتراني الخوف على الجيل المسروق والذي يُربَّى على هذا، وقلت: إذن ماذا يبقى لهم؟ هل يريد المثقف المستنير أن يقول لهم عليكم فقط أن تأكلوا كما تأكل الأنعام ولا شأن لكم بشيء وأن هذه هي التربية الحديثة التي طوّرها الاستبداد في بلدي العزيز؟ وقد سمعت أستاذًا أكاديميًّا مُتَنَسِّكا يقوم من النظام في عصر التنوير مقام سدنة الطاغوت في عصور الوثنية يقول: أي برنامج انتخابي مذكور فيه كلمة الله يجب أن يُردَّ لأنه لا دين في السياسة، يعني أن بوابة السياسة التي يقف عليها لا يجوز أن يدخلها الله ومنزلته في نظامنا في القرن الواحد والعشرين منزله خادم هامان زمن فرعون موسى وهكذا وإذا كنت تراني ابتعدت فإني لا أراني ابتعدت وكيف أقرأ هذه الجملة القرآنية الكريمة وهي الدواء الناجع لكل هذا الباطل الذي حولي ثم أغض الطرف عنه؛ واعلم أني أفتح أو أبعج موطن الداء الذي نزلت الجملة القرآنية لشفائه، والواجب عليَّ وأنا أكتب في أي باب أن يكون قومي بين عينيَّ أصف داءهم وأطِبَّ له.

وقوله سبحانه: ﴿بِمَا كَسَبَتْ﴾ المقصود بجزاء ما كسبت، وإنما أطلق الكسب على جزاء الكسب، للإشارة إلى تمام العدل، وأن الجزاء لا يزيد عن الكسب شيئًا إذا كان عقابًا، ويزيد ويزيد إذا كان ثوابًا، لأن الله الذي جعل الحسنة بعشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف ثم يزيد ما يشاء هو الذي أكد لنا أنه لا يَظْلِمُ مثقال حبَّة من خردل، وهذا عجيب، وقد نبهت إلى أن الكسب شامل لكل عمل يزاوله المُكلَّف، وليس هناك سلوك واحد لا يحاسب عليه لأن الدين متغلغل في كل شأن من الشئون وليس في المساجد فقط، وقد جاءت الآية بالباء في قوله: ﴿بِمَا كَسَبَتْ﴾ وجاءت في آيات أخرى بدون الباء ﴿مَا كَسَبَتْ﴾ [البقرة: ١٣٤] وما هذه مصدرية وفرق بين قولنا جازيته بكسبه، وجازيته كسبه، الباء تفيد معنى السببية والفرق في المعنى ظاهر والذي يخفى هو السياق الذي يقتضي ذكر الباء والسياق الذي يقتضي حذفها، وقد

قال البقاعي: إن في الكلام ما يخفى حتى لا يُدْرك؛ وفيه ما يظهر حتى لا يُجهل، والذى عندى فى الآية التى أدرسها لا يَشْفى؛ ولكننى تعودت أن أقول ما لا يَشْفى، ليثير عند غيرى ما يَشْفى، والذى لا يشفى هو أن الآية قائمة على السببية، يعنى أن سبب خلق السموات والأرض هو أن تجزى كل نفس بما كسبت، فناسب ذلك ذكر باء السببية الداخلة على المصدر المؤول، وأمر آخر رأيت بعض علماء المتشابه يعولون عليه وهو مناسبة باء ﴿**بِمَا كَسَبَتْ**﴾ لباء ﴿**بِالْحَقِّ**﴾ قبلها.

شىء آخر فى هذه الآية أو فى هذه الجملة القرآنية يجب أن أؤكده وهو أن ثواب المحسن بإحسانه، وعقاب المسيئ بإساءته، هو الأصل الذى قامت عليه السموات والأرض، وهو الأصل الذى لا تصلح حياة الناس إلا عليه، ولو اهتز هذا المبدأ لأصاب الناس باهتزازه شر كثير، وأنه هو المنوط به صلاح البلاد والعباد، وهو مقياس لا يخطئ تقيس به النظام حولك، فإذا رأيت القائمين على الأمر لا يتسامحون مطلقًا فى ثواب المحسنين وعقاب المفسدين فاعلم أن أمر البلاد فى يد طاهرة، وأن الأمانة مُودعة عند أهلها، وإذا رأيت اللصوص يفلتون، والقتلة يهربون، والصالحين تُلَفَّق لهم التهم، والشرفاء يقمعون، وأن الاختراق وصل إلى محاريب القضاء فاعلم أن النظام نظام فاسد، ولو صلَّى له المنافقون فى كنائس الوثن ولو لم يسارع المخلصون لتغييره فلن ينتهى مثله إلا بكارثة هى مداهمة العدو المتربص بالبلاد كما حدث وكما سيحدث، والعدو يؤجل الآن وثبته لأن فرعون صار من قوم موسى.

وكان رسول الله ﷺ إذا رأى هذا البلاء يطلّ على الناس ويظهر قرنه، يَغْضَبُ ويقف ويخطب، وحديث أسامة بن زيد الذى شفع للمخزومية عند رسول الله ﷺ حديث مشهور، وقد قال له المصطفى صلوات الله وسلامه عليه: «**أتشفع فى حد من حدود الله يا أسامة**»، ووقف عليه السلام وخطب ولم يكتف بهذا وقال: «**إنما أهلك من كانوا قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف**

تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف قطعوه» وهذا بلاغ من الله للأمة وأن التساهل فى عقاب المسيئ وثواب المحسن هو الذى يفتح على الأمة باب التهلكة.

وقوله سبحانه: ﴿وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ جملة حالية، وضمير الجماعة عائد على المفهوم من قوله سبحانه: ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ ونفى الظلم فى الجملة لا يعود على ثواب المحسنين لأن نفى الظلم عن ثواب المحسنين وإن كان يجوز عقلاً فهو ممتنع شرعًا؛ لأنَ أقل ثواب الحسنة بعشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف والباب بعد ذلك مفتوح، وإنما يرجع نفى الظلم إلىَ عقاب الذين اجترحوا السيئات لأنهم حادُّوا الله ورسوله، وكذبوا على الله، وكذبوا بالصدق، واستهزؤوا بآيات الله؛ واستكبروا عليها؛ وجلبوا على أنفسهم غضب الله ومقته؛ وهذه ساعة عقابهم فقد يظن أن غضب الله عليهم، ومقته سبحانه لهم يجلب عليهم أن يُظلموا مثقال حَبَّة من خَرّدلٍ فجاءت هذه الجملة الحالية لِنَفْى هذا الظن، والوهم، وجاءت فاصلة الآية ليبقى رنينها، وجاءت مؤكدة بتقديم المسند إليه على الخبر الفعلى، وبصيغة المضارع الدالة على أن نفى الظلم عنهم نفى يتجدد تجددًا مفتوحًا على مستقبل لا نهاية له، ثم جاء البناء للمجهول الدال على أنه لا يقع ظلم عليهم من كائن من كان، وكل هذا يراد به تحقيق حقيقة مهمة فى هذه الأمة وهى أن المسيئ مهما كانت إساءته لا يجوز أن يعاقب عقابًا يتجاوز حد العدل ولو قيد نملة؛ لأن الله سبحانه يحمى عبده من أن يظلم إلا بحقه، ومهما أغضب الله أو أغضب الناس فلا يجوز أن تزاد عليه حَبَّةُ خردل، لأننا حين نزيد فى عقابه حبة خردل يصير الظالم مظلومًا، ويصير المظلوم الذى يقتص لحقه ظالمًا، وتعكس القضية بسبب حَبَّة خردل من ظلم، وأشهد أن هذا لا يكون إلا من الله. وليست القضية هذه، وحدها، وإنما ما وراءها، وهو أن الله حرم مال الظالم إلا بحق، وحرم عرضه إلا بحق، وحرم دمه إلا بحق، وحرّم ظهره إلا بحق، ولن يلقى الله حَىٌّ بأبْشَع من الظلم، ولو ظلم فيه ظالمًا.

وضع هذه الجملة العالية التى تحرم ظلم الظالمين بإزاء سجون الدولة المتحضرة والتى تبعد الدين عن السياسة، ويجلس على باب قصرها مسيلمة المعاصر الأكاديمى ليمنع من يحمل معه اسم الله، أقول ضع هذه الآية الكريمة بإزاء المعتقلات المليئة بالمعتقلين الذين لا يدرون هم سبب وجودهم هنا، أو بإزاء المعتقلين الذين برأهم القضاء من كل التهم التى لفقها لهم مغول الأغا.

وضع هذه الآية الكريمة بإزاء العويل الذى يسجلونه لأصوات التعذيب، ويسمعونه للجيل الأخضر الجديد ليبثوا فيه الرعب، والمرعوب لا يحمى وطنًا ولا يبرع فى علم، ولا فى صنعة، وأكتفى بهذا وعليك أن تتابع، وأنتقل إلى قوله سبحانه: ﴿ **أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ** ﴾ [الجاثية: ٢٣].

هذه الآية راجعة رجوعًا ظاهرا إلى قوله تعالى: ﴿ **وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ** ﴾ ومؤكدة لهذا النهى، وإن كانت نقلت الحديث نقلة خفيفة من أهواء الذين لا يعلمون إلى الذين لا يعلمون وأن شأنهم أنهم اتخذوا إلههم هواهم.

ثم إن هذه الآية تتحدث عن نموذج تظهره السورة فى كل مرحلة من مراحلها؛ وتصوره فى صورة ملائمة لهذه المرحلة، فهو الأفَّاك الأثيم، الذى إذا تتلى عليه آيات الله ولى مستكبرًا كأن لم يسمعها، وهم الذين لا يرجون أيام الله، وهم الذين لا يعلمون، والأفاك الأثيم مناسب جداً لما قبله من قوله تعالى: ﴿ **تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ** ﴾، والأفاك المنصرف عن هذه الآيات والذى إذا تتلى عليه آيات الله ولى مستكبرًا كأن لم يسمعها، والعبارة عنهم بالذين لا يرجون أيام الله مناسب جداً لقوله: ﴿ **قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ** ﴾ يعنى يغفرون لهم ليجزيهم فى يوم من أيامنا التى لا يرجونها وعبَّرت الآية عنهم بالذين لا يعلمون

فى سياق، ثم جعلناك على شريعة من الأمـر فاتبعها لأن الشريعة علم، وكل من انصرف عن اتباعها فهو من الذين لا يعلمون.

هذا شىء من علاقات هذه الآية بمكونات السورة، أو قل هذه بعض وجوه تسكينها أو توطينها فى موضعـها، ولو أردت أن ترجع بها إلى الآية قبلها ثم ترجع بالآية قبلها إلى الآية قبلها لوجدت ترتيبًا وراءه من الأسرار ما لا يحاط به وأكتـفى بالإشارة إلى رابطة جليلة بينهـا وبين الجملة التى قبلهـا وهى قوله تعالى: ﴿وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ وأدهشنى أن أجـد الجملة التى تؤكـد نفى الظلم عن أهل الباطل على رأس آية تحدث عن أشنـع شناعاتهم وهى اتخاذهم الإله هوى، وأن الله المعبـود بالحق يقـول لنا: إنه لا يظلم الذين اتخـذوا إلهـهم هواهم حبة خردل، مع أنهم اشتطوا فى الإساءة، وبلغـوا الغاية فى الاستهتار بالمعبود ولو كان بالبـاطل، ورأيت فى ذلك توكيدا لنا نحن ألا نظلم أحدًا أى أحد، مثقال ذرة ولو بلغ فى الظلم ما بلغ وإنما يجازى بمثل جُرمه من غير أن يزاد عليه شىء، وأن تعفـو فهو أقرب للتقـوى، ولم أعرف أرقى فى السلوك وأدب النفس نظامًا يَرْمى إلى هذا المستوى الكريم.

ومما يتغلغل فى هذا الموقف أن هذا العدل الذى لا يرقى إليه نظام من وضع البشـر، سبيلـه هو اتباع الشريعـة، وأن هؤلاء الذين تركوا اتبـاعها، واتبـعوا أهواءهم وجعلوا إلهـهم هواهم هم الذين خســروا لما أداروا ظهورهم إلى هذا العـدل الرفيع الرائع، والذى ينبـهك ويقول لك إذا دفـعك الغضب والغـيظ وحب الانتقام ممن ظلمك وأخذت حقك منه وزدت مـثقال حبة من خردل فى هذه اللحظة التى تزيد فيهـا مثقال حبة من خردل يميل المـيزان وتصير أنت فى كفة الظالم، ويصير الظالـم الأول فى كفة المظلوم، وراجع أنت مرة ومرة لأن هذا مما يزيد على طول التأمل بهجة كأن العيون الناظرات صياقل، ثم إن جملة ﴿وَهُمْ لا يُظْلَمُـونَ﴾ التى على رأس هذه الآيـة هى فـاصلة آية ﴿وَخَلَقَ اللَّهُ

السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ التى هى نقض لآية ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ﴾ والتى هى خروج على آية ﴿هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ﴾ [الجاثية: ٢٠]، وهكذا تعود بكل آية إلى ما قبلها لترى ما قبلها كأنه عنوان لها.

ثم إن هذه الآية التى تحذر وتُبشّع اتباع الأهواء وتحثُّ على اتباع الشريعة التى جعلنا الله عليها هى داخلة في حيز هذه الآية الأم، وهى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الأَمْرِ﴾ وبها امتد الكلام وطال فى التحذير من اتباع الهوى الذى هو تأكيد لاتباع الشريعة، ووجه ذلك أن اتباع الشريعة أمر لا ينال بالهوينا، لأن مطابقة سلوكى. بفعلى وقولى على وجه الشريعة يحتاج إلى مزيد من الاحتياط؛ ثم إن تخليص نفسى من الهوى فى فعلى وقولى يحتاج إلى احتياط أكثر، لأن مداخل الأهواء إلى القلوب خفية، والقلب ضعيف، وسلطان الهوى قوى كما يقول بعض الصالحين، وأن المؤمن بين هاتين المخافتين، مخافة العجز عن تبيُّن وجوه الاتباع فى الشريعة، ومخافة مداخل الأهواء إلى القلوب، ولهذا كان أهل الله يؤتون ما أتوا وقلوبهم وجلة، وهذا وجه من وجوه تكرار الأمر بالاتباع فى صورة النهى عن اتباع الهوى، وقلت إن آية ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الأَمْرِ﴾ قطب من أقطاب معانى هذه السورة، ولو قلت إنه قطب هذه الأقطاب لم تكن قد أخطأت، لأنك لو رجعت إلى كل ما قبلها من أول تنزل الكتاب من الله العزيز الحكيم لوجدته مفضيًا إليها ومنتهيًا عندها، ولو تابعت كل ما بعدها لوجدته خارجًا منها؛ ثم هى رأس السورة؛ لأنها التنزيل المنزل من لدن عزيز حكيم، وآية الذى ﴿اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ التى نحن فيها نهى عن اتباع الهوى، وحثٌّ على اتباع الشريعة، وتحذير من أن ندخل فى شرع الله ما ليس منه، ولو عن طريق الاجتهاد الذى لم ينضجه أهله، وأن نصانع التيارات الثقافية والسياسية ونجيز ما لا يجوز، وأن نقيس الشىء على الشىء لا يقاس عليه، أو أن نستخلص حكمًا من أصل لا يستخلص منه، التأكيد الأكيد هو أن تَبْقَى الشريعة التى

جعلنا الله عليها صافية نقية خالصة، من كل فكر بشرى يداخلها من مداخل ظاهرة أو خفية، وقد كثرت المحدثات، وكثر المجتهدون الذين يتكلمون عن مبررات شرعية لها، ومن البلاء أن تجد ناسًا موسومين بعلم الإسلام يتنافسون فى البحث عن المبررات لكل ما يرضى السلطان الظالم لتكون لهم الحظوة، وبعضهم يختارون فى المجالس التشريعية وكل من يعرفونهم يعجبون لوجودهم فى الصفوف الأمامية، وهذا زمان يقدمك فيه جهلك وفساد طبعك، وهذا كله داخل فى حديث الآية عن الأهواء.

وقوله تعالى: ﴿مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ اتخذ افتعل من أخذ وصيغة الافتعال تدل على شدة إقباله، ووفرة ركضه وراء هواه، واتخاذه إلهه هواه، يعنى هى دائمًا تدل على الاحتشاد والاهتمام والإقبال على الشىء بوفرة نشاط وشدة ورغبة، وهذا مهم فى معرفة طبيعة هذا النموذج، ثم إن كلمة اتخذ هذه تشدُّ لسانك إلى أختها فى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا﴾ وهذه إشارة إلى أن الذى هنا من معدن الذى هناك وأنه هناك اتخذ آيات الله هزوا، وهو هنا يتخذ إلهه هواه، وهذا يعنى أنه تطوّر فى باطله، وأنه انتقل من الهزء بآيات الله إلى الاستخفاف بإلهه وتحويله إلى هوى، وفرق بين اتخذ إلهه هواه، واتخذ هواه إلهه؛ لأن الأول له إله واتخذه هوى والثانى له هوى واتخذه إلهًا، والذى له إله واتخذه هوًى هو الأقرب إلى الآية السابقة وهى قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ لأن هؤلاء حسبوا أن الله يجعلهم كالذين آمنوا فالله سبحانه له وجود فى ضمائرهم، ولكنه جل وتقدَّس ينصرف على هواهم وأن يجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم.

والبعض يرى أن آية ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ راجعة إلى آية: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ﴾ وأن آية ﴿وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾

معترضة بينهمـا، قلت هذا لأبين الفرق بين اتخذ إلهه هواه واتخذ هواه إلهه، وأن الآية جاءت على ما جاءت عليه لملاءمتهـا لذكر الذين اجترحوا السيئات، لأنها تندِّد بهم، وأن هؤلاء الذين اجـترحوا السيئـات هم الذين اتخذوا إلههم هواهم، وهذا جيد، والذى قلناه فى رجوعها إلى النموذج الذى يظهر فى كل مرحـلة من مراحل السـورة أيضًا جـيد؛ لأن التـواصل بين المعانى والتـراحم بينها، وأن بعـضها من بعض ظاهر من جـهات شتى أعنى تراه من أى جـهة نظرت إليه.

وهذه الآية أخت آية الفرقان: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً﴾ [الفرقان: ٤٣] والآية قبلها: ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ [الفرقان: ٤٢]، وهذا يعنى أنهم مُـتَشبِّثون بهذه الآلهـة، ويدافعون كل ما يُبْـعدهم عنهـا، وأنهم يصبـرون عليها، وهذا ظاهر فـى أن لهم آلهة وأنهم يتخذونها هوى، وأن هذا غيـر اتخذ الهوى إلهًا لأن هذا ليس له إله، وإنما صنع لنفسه أو صيَّر لنفسه إلها من الهوى، واتخذ فيها معنى جعل أو صير تقول اتخذت فلانًا خليلاً أى: جعلته وصيرته، كما قال تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً﴾ [النساء: ١٢٥] فـالأول صير الإله هوى، والثـانى يعنى فى قولنا: اتخذ هواه إلهًا، صير الهـوى إلها، وهذه الفروق الدقيقة لا يجوز أن تهمل، لأنها هى أسرار البيان، ونَمْنماتـه التى تتوه من أكثر العيون. مع أنها هى الضالة التى يـبحث عنها العلمـاء، ولو قلت إن قولنا: اتخـذ إلهه هواه واتخذ هواه إلهه سواء تكون قد قلت إن تقـديم اللفظ كتأخيره وهذا لم يقل به أحد.

وهمزة الإنكار فى آية الجاثية دخلت على الفاء ﴿أَفَرَأَيْتَ﴾ وفى الفرقان لم تدخل على فاء ﴿أَرَأَيْتَ﴾ والمراد بالاستفهام هنا الأمر الحاث على الرؤية؛ والرؤية هنا رؤية بصريـة، والمخاطب يمكن أن يكون رسول الله ﷺ كـما فى

قوله سبحانه قبلها: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا﴾ إلى آخره، ويمكن أن يكون كل من تتأتَّى منه الرؤية، وذلك للدلالة على مزيد العناية بالمعنى وتعْميمه، حتى يراه كل من يرى، كما فى قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ﴾ [السجدة: ١٢] والمراد التشنيع على هذا الذى ضلَّ الضلال البين المبين لأنه ليس فى الضلال أضلُّ ممن نقل عبادته من إلهه إلى هواه، وصار الهوى معبوداً، لأن هذا لا يكون إلا إذا كان كل معنى كريم فى نفسه قد هدم، ولم تبق إلا الغرائز، والشهوات، والأهواء.

والفاء التى فى قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ﴾ تجمع خيوط المعانى من أول قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ لأن الكلام بعدها انتقل من الحديث عن الأهواء إلى مجادلتهم، ودفاعهم عن عقائدهم، التى ينكرون فيها البعث، ويقولون فيها: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ وألاحظ فروقًا فى طوائف الضالين وأنهم أطياف لكل فرقة لون وطريق وإن كان يجمعهم باطل واحد.

وهذه الخيوط التى تُجمِّعُها هذه الفاء هى المعطوف عليه الذى نقدره، وأصعب شىء أن تقدر محذوفًا فى الكتاب العزيز، لأنك مهما بذلت من مجهود فى صقل الجملة المقدرة والتى تملأ بها فراغًا بين كلامين فستكون جملة ضئيلة جداً، ومنكسرة جداً إذا قُرئت بعد ما قبلها، وما بعدها، لأن جملة المصحف كنجم السماء ليس لها إلا صانع واحد هو خالق هذا النجم. والحقيقة أننا لا نقدر وإنما نبين ونقارب ولابد أن يكون الكلام المحذوف فى هذه الآية كلامًا يُفضى إلى إنكار اتخاذ الإله هوى، وأن هذا الأمر المقدر لابد أن يجعل الإنكار فى اتخاذ الإله هوى ظاهراً متجليًا لا تراه عين دون عين؛ لأن المخاطب بالآية كل من تصح منه الرؤية، والمعنى إذا ظهر وتحقق ما قلناه من ذكر الشريعة التى جعلك الله عليها وأمرك باتباعها وأنها بصائر وهدى ورحمة وأن الله

ما خلق السموات والأرض إلا بالحق ولتجزى كل نفس، وأن أمر الناس لا يَسْتَقِرُّ إلا بهذه الشريعة وبعقيدة الثواب والعقاب، إذا ظهر هذا رأيت الباطل والضلال والإنكار جليّاً فى هذا الذى اتخذ إلهه هواه، هذا هو المعنى، فإن أردت أن تُقيمه على أسلوب الكلام قلت: أظْهَرَ ما قلناه فرأيت شناعة من اتخذ إلهه هواه، وأضله الله على علم، وليست هذه الفاء وما وراءها من ضرورة تَصَيُّد المعانى واجتماعها لتكون معطوفًا عليه فى سورة الفرقان، لأن الذى قبل آية الفرقان حدَّث عن كلام شديد الإساءة إلى رسول الله ﷺ يُسْتغنى به عن فاء تشير إلى كلام محذوف، وذلك أنهم كانوا يقولون: ﴿أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولاً﴾ [الفرقان: ٤١] ويتخذونه عليه السلام هزواً، ويقولون: ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا﴾، وهذا ظاهر فى بيان من اتخذ إلهه هواه، وذلك بخلاف الجاثية التى كانت تتكلم فى آيات بيِّنات فاحتاجت إلى الفاء لتجمع خيوط هذه الآيات البيِّنات ليعطف عليها خبر الذى اتخذ إلهه هواه، وقد وقعت بعد آية الفرقان جملة عجيبة فيها إشارة فريدة ورائعة هى قوله تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً﴾ والعجيب فى هذه الجملة أنها تشير إلى ميله ﷺ إلى قومه رغم ما وجد من سوء أدبهم وقولهم ﴿أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولاً﴾ وهو سيدهم وابن سيدهم ووجه إشارة الآية إلى هذا الميل أن الله سبحانه وتعالى أنكر عليه أن يكون هو عليهم وكيلاً، لأنه سبحانه هو الذى يكون وكيلا، والكلام على التمثيل وأن حرصه عليه السلام على هدايتهم جعله على حال تشبه حال من يعتقد أنه وكيل عليهم، والتمثيل فيه كالتمثيل فى قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ﴾ [فاطر: ٢٢] وهذا بخلاف ما جاء بعد آية الجاثية من جمل غاضبة تتواتر، وبعضها أشدُّ من بعض ﴿وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ﴾ واقرأ وتأمل وضع بدل هذا قوله تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً﴾.

تجد الكلام قد اختلف اختلافًا شديدًا.

والجملة القرآنية الواحدة تتكرر بين كلامين والكلامان مختلفان، والاختلاف بين الكلامين يكون له أثر فى معنى الجملة الواحدة التى تكررت كما نجد هنا والجملة التى تكررت هى ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ ومع اتفاق المعنى الأصلى فى الجملة فى الموضعين فإنك ترى لها ظلالا فى الفرقان أفرغها عليها سياق الفرقان، فلا شك أن الذى فى الفرقان اتخذ إلهه هواه وهو مع ذلك فيه غطرسة وفيه استعلاء يقول فى شأن سيد الخلق ﴿أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولاً﴾ وهو يعلم أنه سيده وابن سيده ثم هو نموذج متشبث بباطل لا يتشبث به عاقل وهو الآلهة التى هى حجارة منحوتة أو أخشاب منجورة ويقول إن كاد ليضلنا عن آلهتنا لولا أن صبرنا عليها، وهذه الجملة فى الجاثية تَنْضَح بما لا تَنْضَح به فى الفرقان، لأن سياق الجاثية يجعل هذا النموذج مغمورًا بالآيات البيّنات، التى تناقض ما هو عليه، فهو بمرأى ومسمع من شريعة جعل الله عز سلطانه خير خلقه صلوات الله وسلامه عليه عليها، وأمره باتباعها، ونهاه عن اتباع غيرها، وأعلم أن غيرها هو هوى لا غير، وأن اتباع خير الخلق لها من تكريمه عليه السلام وتكريم من اتبع سُنَّته، ثم هو يرى البصائر منه بمرءًا ومسمع، وهذه البصائر هدى ورحمة، ثم يضع خالق السموات والأرض بين يديه حقيقة من أعظم حقائق هذا الوجود، وهى أن الله أقام السموات والأرض على الحق، ومن تفسير هذا الحق أن يجازى كل امرئ بما كسب، ثم إن صاحبنا أدار لكل ذلك ظهره وأولع بالهوى فجعل إلهه هواه، وهذا رشح آخر، وإن كان مَتْن المعنى فى الجملتين واحدا، ثم إن نموذج الجاثية كان صامتًا إلى أن تحدثت عنه الآية، ثم حدثت بما روت عنه بمعنى أنها روت لنا قولهم فى الآية التى بعدها ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾.

قوله سبحانه ﴿وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ وهذه الجملة فيها كلام كثير وخلاف بين علماء العقائد المعتزلة يقولون: معناها منعه الله ألطافه وخذله لأن الله سبحانه علم أنه لن يرجع عن باطله، ولأهل السنة فى هذا كلام.

والذى لا شك فيه هو ما أخبرنا به ربنا، وهو أن كل من تقدم إلى الله شبراً تقدم الله إليه ذراعًا، ومن تقدم إلى الله ذراعًا تقدم الله إليه باعًا، وأن الله يهدى إليه كل من أناب، وأنه لا يحبط عمل عامل منا، وأن من مَدّ إلى الله يديه لا يردهما الله صفرًا حتى يضع فيهما خيرًا، وأن من تدبَّر كلام الله اهتدى، وأن كلامه سبحانه آيات، وأن هذه الآيات بيِّنَات، وأن الكون المنصوب آيات وأنها بينات وأنه لا يحيد عن هذا إلا هالك، وأنه لا يعلم واحد منا ما كتبه الله عليه، وأن وصفه سبحانه بأنه يهدى إليه من يشاء ويضل من يشاء هو مقتضى الألوهية، لأنه سبحانه بيده كل شىء ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ ﴾ [الأنفال: ١٧]. وقد قال المُصرُّون ﴿ قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ ﴾، وكأنهم هم الذين ختموا على قلوبهم وعلى سمعهم، ولم يجعلوا على بصرهم غشاوة، وإنما جعلوا بينهم وبين داعى الحق حجابا، وليس من سبيل إلى إيمان هؤلاء إلا الإلجاء، والإلجاء مُبْطل للتكليف، ومُعَطِّل للشريعة، والصالحون هم الذين عرفوا الله بآياته، وشهدوا أن محمدا رسول الله لما قرؤوا ما أنزله الله عليه، ويؤدون حق الله قدر وسعهم ويمدون أيديهم إلى الله ويذكرونه قيامًا وقعودًا، وعلى جنوبهم، ويؤتون ما أَتَوا وقلوبهم وجلة، لأنهم لا يدرون ما الله فاعل بهم، وهذا هو الدين وهذا هو الإيمان بالغيب وهذا حسبى والله أعلم.

ومن المفيد أن ننظر إلى جملة ﴿ أَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً ﴾ من جهة أخرى ليست هى الجهة التى اختلف فيها أهل العلم، وأعْنى إسناد هذه الأفعال الثلاثة التى هى الإضلال والختم على السمع والقلب، وجعل الغشاوة على البصر وأنها مُسْنَدة إلى لفظ الجلالة الدال على الاتْصاف بكل كمال والتنزيه عن كل نقص، والدال أيضًا على الكمالات المطلقة فهو سبحانه الرحيم، رحمة مطلقة، والرحمن رحمة مطلقة، والرؤوف رأفة مطلقة، واللطيف لطفًا مطلقًا، ومع ذلك أضَلّ هذا

الذى اتخذ إلهـه هواه، وختم على سمعـه وقلبه وجعل على بصـره غشاوة، وعلينا أن ننظر إلى الجُرم الذى أَفْضى بصاحـبه إلى أن يعامله الرؤوف الرحيم بهذه الشـدة البالغة، مع أنه سبـحانه جعل على رأس هذه الآية جـملة تقول ﴿وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ وأنه سبحـانه لا يظلم مثقال حـبة من خردل، وكل هذا ينتـهى إلى تفظيع وتشنيع جـريمة اتـخاذ الإله هوى، وكل هذا راجع أيضًا رجعة ثانـية إلى ترك شريعة الله التى جـعل أكرم خلقه عليهـا، واتباع أهواء الذين لا يعلمون، وهذا تحـذير للأمة من تعطيل الشريعـة يعنى تعطيل أحكام الله فى أى باب من الحدود وغيرها، وأن هذا التعطيل يُفْضى إلى اتخاذ الآلهة هوى، لأن من معنى هذا أن أُأَوِّل كـلام الله تأويلا؛ لا يقود كـلام الله إليه، وإنما يُقَادُ فيه كلام الله إليه، حتى يـتلاءم مع ما يريده حاكم جاهل فاجر، أو مجتمع مـضلَّل أو عصابة خَدَمٍ اسمهم مُثَـقَّفين ودعاة تنوير وليس هذا من الصدع بأمر الله الذى أمرنا به، وكلمة ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ صالحة لأ ن يكون المراد بهـا أن الله أضلـه؛ لأنه سـبـحـانه علم أنه لن يرجع إلى الحـق، وعلم منه الإصرار على البـاطل، وأنه سبحانه يقـول لنا إنه لا يضل إلا من ضلَّ وأصرَّ على الضـلال، ورفض المراجعة رفـضًا مطلقًـا وعلم الله منه ذلك، وهذا هو صاحب الضلال البعيد والضلال المبين.

وكثيرا من أهل الضلال والباطل لم يضلهم الله، لأنه يعلم أنهم سيعودون يومًا مثل من أسلم من أهل الباطل بعـد ما حارب الله ورسوله، ممن فتح الله أقفال قلوبهم، وهذا الوجه هو الذى عليه أكثـر أهل التفسير، وذهب بعضهم فى قوله تعالى ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ إلى وجه آخر وهو أن يكون هـذا الضال المعاند الذى أضله الله إنما ضَلَّ بعـد ما عـلم، وانصرف عن الحق الذى استيـقنه، واختلف بعـد ما جاء العلم بغيًـا، واللفظ يحتمل، والجـملة على هذا الوجه تفيـدنا شيـئًا مهـما جداً وهو أن الـعلم لا يستلزم الهدايـة، وأن الجهل ليس هوالمحرك الأساسى للضـلال، وإنما هناك ضلال وراء علم، وإن هذا العلم قد

ضل طريقه إلى هداية النفس، لأن الهدى الذى هو أبر البر لا يقذفه فى القلب العلم، وإنما يقذفه فى القلب اللهُ وحده: إن الهدى هدى الله وليس فى القرآن إن العلم علم الله، بمعنى إنَّك لا تَتعلَّم إلا إذا علمك الله، كما أنك لا تهتدى إلا إذا هداك الله، أما أن العلم هو علم الله. بمعنى أن ما عدا علم الله ليس بعلم، إذا قيس بعلمه فهذا لا شك فيه، ثم إن الهدى محله القلب، فالقلب هو الذى يتَدبَّر ويتفكر ويتعقل ويستدل ويستنبط إلى آخره، ولهذا كان العقل المعبر عنه بالقلب مناط التكليف، يعنى الأصل الذى يؤسَّس عليه التكليف، ووسيلة المعرفة إلى القلب إما سماع، وإما الإبصار، فأشارت الآية إلى شرح إضلال الله له وأن هذا الإضلال ختم على السمع فلا ينفذ إلى القلب من السمع شىء، وغشاوة على العين فلا ينفذ إلى القلب من المنفذ الثانى الذى هو الإبصار شىء، ثم ختم على القلب نفسه وذلك لإحكام كل نوافذ الهداية، ووراء ذلك من الغضب أيضًا ما وراءه، وأن الذى استحق هذا من الرؤوف الرحيم لا بدَّ أن يكون قد فعل مُنكرًا بَشعًا جداً، وهو طرح الشريعة، واتباع الهوى، ولا بد من أن تتذكر أن الذى أوقع عليه ربنا هذا الغضب، هو واحد من الذين خلقهم، ورزقهم، وأنعم عليهم، وعاشوا فى كنف نعمته، وهو واحد من الذين سخر لهم ما فى السموات وما فى الأرض، وأسبغ عليهم نعمه ظاهرة وباطنه، وأن تتذكر أيضًا أن السمع والبصر والفؤاد هى منائح من الله سبحانه لخلقه، لأنه هو الذى أنشأ لنا السمع والبصر والفؤاد، وأن من أَصَرَّ على أن يستخدمها ضدًّ ما أمر به مانحها لا يجوز له أن يعترض على مانحها إذا استردها، أوختم عليها وأبطل عملها، وهذا أيضًا فيه عطاء من الكريم المنَّان لأن الله أبطل فعلها فى الهداية، وترك له السمع والبصر والفؤاد يقضى بها مآربه، وإنما عُطِّلت من حيث هى منافذ للهدى ولم تُعطَّل من حيث هى أدوات عيش.

وقد وضع العلماء هذه الآية بإزاء آية سورة البقرة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (٦) خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ

وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ٧]، ولوحظ أن آية البقرة قدمت الختم على القلوب على الختم على الأسماع وجاء عكس ذلك فى الجاثية، والأصل أن يتقدم الختم على الأسماع لأنه الطريق الذى يوصل الآيات إلى القلوب، وأن ذكر الأسماع والأبصار فى هاتين الآيتين وما يشبههما إشارة إلى أن الطريق إلى الله هو سماع آياته التى أنزل، ورؤية خلقه وملكوته وصنعه، وأن ما يسمع من آيات الله وهو الكتاب العزيز، هو الأصل فى الهداية لأنه آية الله، ثم هو آيته لنبيه صلوات الله وسلامه عليه، فهو الهادى إلى الشهادتين، بخلاف ما تراه العين من صنع الله جل جلاله فهو آية الصانع القادر المعبود بحق، ليس فيه آية النبوة، ثم إن الآية فى المسموع لا تقل فى بيانها وخرقها للعادة، وقطعها للأطماع وعجز البشر عنها عن الآية فى المشاهد، والمهم الآن أن نعود إلى الذى أدى إلى الاختلاف فى الترتيب بين سورتى الجاثية التى نزلت أولا والبقرة التى نزلت آخرًا.

والذى أراه والله أعلم أن الجاثية قدمت الختم على السمع لأن هذا النموذج المذكور والذى اتخذ إلهه هواه، تقدم ذكره، وأنه كان يسمع آيات الله ثم يُصر مستكبرًا كأن لم يسمعها، ثم إن هذه الآية جاءت فى سياق ذكر الشريعة التى جعل الله خَيْرَ من خلق وبرأ عليها، ثم أمره باتباعها ونهاه عن اتباع الأهواء، وهذا المذكور فى الآية الذى اتخذ إلهه هواه جزء من هذه المنظومة التى اتبعت الأهواء وزاد بإيغاله واتخاذه الإله هوى، وكل هذا يرشح السماع لأن يتقدم لأن هذه الشريعة التى هى أم الأمهات فى السورة هى الكتاب الذى هو تنزيل العزيز الحكيم، وهى الآيات التى لا يهتدى الناس على آية أبين منها، وهى الهدى والبصائر، وعلينا أن نتذكر أن من أسماء السورة «الشريعة»، وسياق آية البقرة سياق آخر، أولا لأن ذكر الكتاب الذى افتتحت به السورة قد طوى بقوله تعالى ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ ثم استأنف الحديث عن الذين كفروا وأول خبر عنهم أنهم سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم، ومن يستوى عنده الإنذار وعدمه فقد مات قلبه، فقدم الختم على القلب ليناسب هذه التسوية

لأن التسوية بين الإنذار وعدمه تسوية جائرة جداً، ويا بعد ما بين الإنذار وعدم الإنذار، فإذا رأيت القلب يتلقى هذين الأمرين المختلفين أشدً الاختلاف ثم يكون حاله سواء وهو يسمع الإنذار والوعيد والتهديد كحاله وهو لم يسمعهما فاعلم أنه هوالذى ختم على قلبه بيده.

وقوله جل شأنه ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾ فيه إشارة خفية إلى أنهم كفروا لأن الإنذار لا يصل إليهم إلا بالسماع.

قلت إن الآيات التى تدرك بالأبصار كآيات السموات والأرض وما بث فيهما من دابة ليست حجج النبوات وقد جعل الله سبحانه لكل نبى آية تناسب زمانه وآية الخاتم صلوات الله وسلامه عليه قرآن يُتْلَى وهى باقية قائمة فى الأزمنة كلها والأمكنة كلها كيوم أن نزلت، ولا تزال تجذب إلى دين الله ممن سلمت فطرتهم من أمم الأرض كلها ومن أطراف الأرض كلها، والغشاوة غطاء على الأبصار، لا تحجب عن العين رؤية الأشياء، ولكن تحجب عنها الاستدلال بها، ومن نعم الله أيضًا أن هذه الغشاوة لا تهدم نعمة البصر وإنما تبقى كما هى للإنسان يتقلب بها فى معاشه، وإنما تهدم الأصل الذى كانت له، وهو الاعتبار الذى أمرنا الله به لما قال لنا ﴿انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ ثم قال لنا أيضًا ﴿وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١] ولو جُمِعَتْ الآيات التى أمرنا الله فيها بالنظر، والتى أمرنا الله فيها بالرؤية من مثل ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ [النحل: ٤٨] ﴿أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا﴾ [غافر: ٢١] لوجدت بين يديك علمًا قد غاب كثير منه، والمهم أن الغشاوة هنا كانت على الأبصار، ولم تكن على العيون، لأن الأبصار من مادة البصيرة؛ التى جمعها بصائر، والبصر جمعه الأبصار، والمقصود الغشاوة التى تحول دون البصائر، والاعتبار بما رأته الأبصار، وفرق بين أن يعبِّر القرآن عن هذه الجارحة بالعين، وأن يعبر عنها بالبصر، هذا مقام وهذا مقام، وكلمة غشاوة لم ترد فى القرآن

بهذه الصيغة إلا فى هاتين الآيتين، آية الجاثية وآية البقرة، وجاءت مادتها كثيرا مثل قوله تعالى ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾ [الليل: ١] وقوله سبحانه ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ [طه: ٧٨].

وآية البقرة تتكلم عن جماعة هم الذين كفروا، وآية الجاثية تتكلم عن مفرد هو الذى اتخذ إلهه هواه، وقد جاءت القلوب مجموعة فى آية البقرة وهذا هو الأصل، وكذلك جاءت الأبصار، وما جاء على الأصل فى مثل هذا لا يسأل عن علته؛ والذى يسأل عن علته هو مجىء السمع مفردًا بين أخويه القلوب والأبصار، فلماذا؟ وقد ترى أن الأبصار تتقلب فى مشاهد كثيرة فى السموات وفى الأرض، وأن القلوب أيضًا يتنوع استدلالها واعتبارها، أما الأسماع فإنها لا تسمع إلا كلامًا واحدًا هو الذى أنزله الله عليه صلوات الله وسلامه عليه، فلما كان المسموع واحدًا لا يتغيَّر ولا يَتَنَّوع ناسب أن يُفْرد السمع لإفراد المسموع، هذا والله أعلم.

قوله جل شأنه ﴿فَمَن يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ﴾ هذه الفاء ترتب ما بعدها على ما قبلها والذى قبلها أن الله سبحانه وتعالى أضلَّه على علم، وأنه جل شأنه ختم على سمعه وعلى قلبه، وجعل على بصره غشاوة، ومن فعل الله به ذلك لا يهديه أحد من الخلق ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: ٥٦] والاستفهام هنا استفهام إنكارى يعنى لا يهديه أحد من بعد الله، وتَدَبُّر هذا الإنكار يؤدى إلى أن الإنكار داخل على أن يهديه أحد من بعد الله، وليس داخلا على هدايته، يعنى أنه من الممكن أن يهتدى وليس من الممكن أن يهديه أحد من بعد الله، وهذا راجع إلى ما مضى وأن الله سبحانه وتعالى لو أراد خيرًا فتح قفْل قَلْبه وسَمْعه وحسر الغشاوة عن عينيه، وكم من قلب ختم عليه ثم فتح، وكم من وَقرٍ قد أُزِيلَ وكم من غشاوة قد حسرت، وتاريخ الدعوة شاهد على ذلك، لأن الذين حاربوا الله ورسوله بضراوة شديدة هم الذين حاربوا فى دين الله،

ودافعوا عنه وحملوه إلى أمم الأرض، وهم الذين كانوا فقهاء، وعلماء، والذين نقلوا إلينا الدين، وهم العدول الذين أجمعت الأمة على أنهم عدول لا يجرحون.

والآية ناطقة بعز الألوهية، وأنه من أضله الله لا يهديه أحد، ومن هداه لا يضله أحد، وأنه ليس لأحد فعل فى ملكه، وأن الخلق خلقه والأمر أمره، والفعل فعله، وهو وحده لا شريك له.

ويتضح عز الألوهية بصورة أجلى حين تراجع هذا الاستفهام الذى أريد به النفى، والآية لم تقل لن يهديه أحد من بعد الله، وإنما وجهت هذا السؤال لكل من فى هذا الوجود ثقة بأنه ليس فى هذا الوجود عاقل ينظر ويستدل ويقال له فمن يهديه من بعد الله إلا قال لا أحد يهديه من بعد الله؛ لأن قلوب العباد لا تكون إلا بين أصبعى خالقها جل وتقدَّس.

قوله تعالى ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ جملة استفهامية ثانية مرتبة على التى قبلها وإن كانت معطوفة على محذوف، وبيان هذا الترتيب أنه إذا كان لا يشك أحد فى أنه لا يهديه إلا الله، فالواجب أن يترتب على ذلك أن تتذكروا وأن تراجعوا أنفسكم، وأن تنقادوا لأمره ونهيه، وليس إلى هواكم، والاستفهام هنا معناه الحث والحض والأمر بالتذكر لأن التذكر هو الذى يخرجكم من غواشى الضلال، وهو الإضاءة التى تهديكم إلى صراط الله المستقيم، وقد وقفت كثيراً وأنا أحاول تحديد الفروق التى بين التذكر والتدبر والتفكر والتعقل وما يشبه ذلك من الكلمات التى جعلها الله لنا فى كتابه العزيز نجوما تهدينا إليه، ووجدت هذا بابًا غامضًا جداً ولم أتجرأ على فتحه ولا شك أن ثمة فروقًا بينها، وفى الكلام أسرار تخفى حتى لا تُعلم وماذا يكون المعنى لو قلنا هنا أفلا تتفكرون، أو أفلا تتدبرون، هل التذكر يعنى أن نذكر شيئًا هو ساكن فى فطرتنا ولكنه تاه مِنَّا وضاع تحت ركام الصوارف والأحوال التى أطمرت فطرتنا فى داخل نفوسنا وضللناه مع ضلالنا لهذه الفطرة؟ وأن الختم على الأسماع والقلوب ثم الغشاوة على الأبصار كل ذلك فيه إشارة إلى ضلالنا، هذه الفطرة

التى فطر الله الناس عليهـا والتى لوعادت لم يكن لها بُدٌّ من معـانقة هذا الدين أو هذه الشريعة، التى جعل الله أشرف خلقه عليها؛ لأن الدين هو دينها، يعنى دين الفطرة؟ وأن المراد بالتـذكر هنا مـراجعـة جملة الحـقائق التـى دارت حول القطب الذى كانت الآية من مفـرداته، والذى بدأ بقوله تعالى ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ﴾ وأن الكلام بعدها إلى قـوله تعالى ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ دائر كله حول الأمر الحاسم باتباع الشريعة، والنهى القـاطع عن مخالفتها، لأن القدم لو تزحزحت عن طريق الله قيد نملة تكون قد سقطت فى الأهواء، فليس بعد شرع الله إلا الأهواء، ومن الأهواء التى هى أوهام حسبان الذين اجترحوا السيئات أن الله يجعلهم كالذيـن آمنوا وعلموا الصالحات سواء مـحياهم ومماتهم، وأن هذا باطل، لا يجـوز فى الفطرة أن يكون من الـذى أقام السمـوات والأرض على العدل، ووضع الميزان يَوْمَ وَضَعَ الأرض للأنام، وأرسل رسله بالكتاب والميزان، هل المراد تذكر هذا ومراجـعته، ومعرفة منـطق الحق والعدل، والذى بُنِى عليه، وأن هذا التذكـر هو زورق النجاة الوحـيد الذى يخرجنا ويَخْـرج بنا من تلاطم الأهواء وأهوال هذه الأهواء؟ وهذه الفاء التى دخلت عليها الهمزة توجب تقدير محذوف، وقـد مضت لها نظائر كـثيرة، وكلما لقـيتها تذكـرت أننى أمام لجنة امتحان، لأن أصعب شيء كـما قلت مراراً هو تقدير هذا المحذوف، لأنه لا بد أن يكون مما قـبله ومتلائمًـا جداً مع مـا بعده، ولو قلت هنا إن المعطـوف عليه المحـذوف المقـدر هو من باب قـولـنا أضللتم طريق الفطـرة فلم تذكـروه؟ ولو ذكرتموه ما حادت أقدامكم عن شرع الله الذى جـعل أكرم خلقه عليه قيد نملة، وإن أردتم أن تعرفوا الأثر البشع لمخالفتكم شريعة ربكم فانظروا إلى حكاية الذى اتخذ إلهـه هواه، وماذا كان من الله مـعه، وأنه سبـحانه وهو الرحيم الرحـمة كلها، واللطيف اللطف كله، والبَـرُّ البر كله، أضله سبحانه وختم علـى سمعه وقلبه، وهذا هو الذى يكون من ربنا مع الكافرين، فهـذا الذى سمعتم من قصة من اتخذ إلهـه هواه هو ما يكون مع الذيـن كفروا، وكـما أنه ليس بعـد الكفر

ذنب، كذلك ليس بعد اتباع الهوى وترك شرع الله ذنب، الآية تدور حول حقيقة واضحة، وهى أن الله سبحانه أنزل كتابه ليُتَّبع والكتاب هو الهدى ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى﴾ واتباع الكتاب هو نفسه الكفُّ عن اتباع الهوى، واتباع الهوى ينتهى بعموم الفساد فى السموات والأرض ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ وهذا ضدٌّ الوجود الإنسانى؛ لأن الله سبحانه جعل آدمَ خليفة لله فى الأرض يَعْمرها بالخير والعدل والبر، وهذه الآية لا تقبل تأويلا فى وجوب الحكم بما أنزل الله؛ لأن الحكم بما أنزل الله هو الاتباع المأمور به فى قوله تعالى ﴿فَاتَّبِعْهَا﴾، والحكم بغير ما أنزل الله هو اتباع الهوى ومن اتبع هواه أضله الله على غير علم، وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة وهذا ظاهر. وتوجيه الأمر بالاتباع له عليه السلام وتوجيه النهى عن اتباع غير ما أنزل الله له عليه السلام يقطع الطريق على كل من يتوهم أنه يجد بديلا أفضل مما أنزل الله فى أى قضية من القضايا التى لله فيها حكم، وذلك لأنه عليه السلام أفضل الخلق وأعلمهم، وأعدلهم، وأعقلهم، وأحكمهم، وهذا بعض ما فضله الله به على الخلق كل الخلق ولا يجور له مع هذا التفوق الذى لا شك فيه أن يعدل قيد نملة عن أمر الله ونهيه، ولا أن يضيف إلى حدود الله كلمة واحدة لم يأمره الله ببلاغها، هذا والله أعلم.

بقى فى الآية شىء لم أجده فيما بين يدى من كتب العلماء، وهو أن الآية الكريمة بدأت بخطاب الواحد، فى قولة تعالى ﴿أَفَرَأَيْتَ﴾ وانتهت بخطاب الجماعة فى قوله تعالى جل شأنه ﴿أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾ والأرجح أن يكون المراد بخطاب المفرد فى أول الآية هو كل من تتأتى منه الرؤية وأن هذا الطريق يُؤْتى به فى الكلام لبيان أهمية ما تقع عليه الرؤية، وما دام المراد بالخطاب كل من تتأتى منه الرؤية، فلا فرق بين مؤمن وكافر؛ لأن رؤية من وقع عليه الفعل وهو الذى اتخذ إلهه هواه يُعْتَبَرُ بها المؤمن والكافر وقد فكرت كثيرًا فى بيان المراد بالجماعة فى قوله تعالى ﴿أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾ هل المراد الذين اجترحوا

السيئات؟ لأن حسبانهم أن يجعلهم الله مع الذين آمنوا وعلموا الصالحات سواء فى محياهم ومماتهم لا يقوم على عقل، وإنما هو من محض الأهواء؟ ويكون الكلام انتقل من الغيبة فى آية أم حسبوا إلى الخطاب فى قوله ﴿أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾ وتكون آية ﴿وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ الواقعة بينهما أعقبت آية ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ﴾ لإبطال هذا الحسبان ثم بدأت آية ﴿أَفَرَأَيْتَ﴾ لبيان غضب الله عليهم وأنه سبحانه خذلهم وخلاهم لأنفسهم وزاد غضبه فأضلهم وختم على سمعهم وقلوبهم؟

أم المراد بالخطاب هنا كل من يتأتّى منه التذكر وإذا جاز أن يكون المراد بالمفرد كل من تتأتى منه الرؤية فلماذا لا يجوز أن يكون المراد بالجمع هنا كل من يتأتى منه التذكر، وقد جاء عموم خطاب المفرد فى غير الرؤية كما فى قوله عليه السلام: «بشر المشّائين إلى المساجد بالنور التام يوم القيامة» وقد ركنت إلى هذا ولم أجد فى لغة الآية ما يمنع وخصوصًا أن الله سبحانه وتعالى حَثَّ عباده المؤمن منهم والكافر على التذكر والتدبر، أما حث غير المؤمنين على التذكر فى الآية فلئلا يقعوا فى المصيبة التى وقع فيها فريق من اتخذ إلهه هواه لأن العبد لم يزاول فعلا أبشع من فعل يوجب غضب الله حتى يضله وهو الهادى ويختم على سمعه وقلبه وهو سبحانه بعباده بر رحيم، وقريب مجيب.

وأما وجه حض المؤمن على التذكر فى سياق ضرورة اتباع شرع الله والنهى عن اتباع غيره، وأن كل غيره من الأهواء التى هى أصل الضلال وأصل الفساد، فلأن الله سبحانه علم أنه ستكون فى الأمة نابتة سوء يكرهون الحكم بما أنزل الله، ويركبون فى عداوته ومطاردته وقمع أهله كل مركب، ومن ورائهم خدم من المثقفين والمتنورين يبررون كذبهم وزيفهم وفجورهم، ومن بين هؤلاء الخدم علماء سوء يسترون باطل الفجرة بما يوهم أنه حق، وأن يكثر ذلك كله حتى ينخدع به عامة المسلمين وكثير من خاصتهم، وفى هذا السياق

القمعى المتخلف يستنهض الحقُّ أهل الحق ويحثُّهم على التذكر، ولك أن ترى من خلال هذا التأويل أن كلمة ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ وقعت موقعًا لا تسده كلمة تفكرون ولا يتدبرون لأن التذكر من الذكر الذى هو ذكر الله، وذكر الله هو الرباط الذى يربط الله به على قلوب أهل الحق فيصدعون بكلمة الحق التى هى أمرالله الحاسم فى اتباع شرعه ولا تمنعهم عاصفة الشر التى تقوم بها الذئاب الشرسة من الخدم وغير الخدم، لأن ذكر الله إذا سكن فى القلوب منحها من القوة ما يقهر به القهر، ويقمع به القمع لأن الله سبحانه ينصر من ينصره، ومن استظل بظل سلطان جائر أبعده الله عن ظله يوم لا ظل إلا ظله ومن قال كلمة الحق فى زمن سلطان جائر أظله الله بظله يوم القيامة ووضعه فى كنفه وهذا شىء من الذكر الذى أشارت إليه جملة ﴿أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾ هذا والله أعلم.

قوله تعالى ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ (٢٤) وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٥) قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ [الجاثية: ٢٤ - ٢٦] من المفيد أن نعرف مواضع عطف الرؤوس بعضها على بعض لأن هذا يعين على معرفة ما يتسلسل من كل رأس وأين انتهى، وهذه الآية ضمير الجماعة الغائبين فيها يغرى بعودتها إلى قوله تعالى ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ وأن المعنى الذى تسلسل من آية ﴿أَمْ حَسِبَ﴾ استدعى ذكر خلق السموات والأرض لنقض هذا الحسبان كما استدعى ذكر من اتخذ إلهه هواه لبيان شدَّة الغضب، ثم انتهت ضلالة هذا الحسبان وجاءت الآية التى معنا لتحدث عن ضلالة ثانية هى إنكارهم البعث، وتَسَلْسَلَ حديث إنكار البعث واستدعى ما بعده إلى قوله تعالى ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾.

هذه هى علاقة الآية بالجوار الذى وقعت فيه.

أما علاقتها بالسياق الأوسع وربطها مع مكونات السورة فلا شك أنها راجعة إلى قوله تعالى ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ وإلى قوله جل شأنه ﴿لِلَّذِينَ لا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ﴾ والذى ﴿اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ وكل هؤلاء بعضهم من بعض.

وعطف ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ على ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ﴾ يعنى أن واو الجماعة فى قالوا راجع إلى ﴿الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ﴾ وفى هذا إشكال لأن الذين اجترحوا السيئات وحسبوا أن الله سبحانه وتعالى جعلهم كالذين آمنوا وعلموا الصالحات سواء محياهم ومماتهم مقرون بالبعث وأن الله سبحانه يسوى بينهم وبين الذين آمنوا يوم القيامة وهذا هو المفهوم من محياهم ومماتهم، والذين قالوا ما هى إلا حياتنا الدنيا منكرون للبعث، وقد وجه العلماء هذا الإشكال بقولهم إن هذا الحسبان صادر منهم على وجه الاستهزاء، وبذلك يكونون منكرين للبعث، وهذا الاستخفاف أو هذا الاستهزاء يؤكد صلتهم بالأفاك الأثيم لأنه إذا علم من آيات الله شيئًا اتخذها هزوًا، وهذا من قوة الربط بين مكونات السورة، والذين لا يرجون أيام الله منكرون للبعث لأن أعظم أيام الله هو يوم الحساب.

ويجوز لنا أن نقول إن قوله تعالى ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ الذى هو صريح فى إنكار البعث معطوف على الذين اجترحوا السيئات الذين حسبوا أن الله يجعلهم كالذين آمنوا حسبانًا لا على وجه الاستخفاف وأنهم مقرون بالبعث، ويكون العطف ضمَّ فريقًا إلى فريق، والمناسبة بينهما هى الضلال المبين لأن المقرين بالبعث ينفون الشريعة وينفون المجازاة ويتوهمون أنهم مع الذين آمنوا سواء فى الدنيا والآخرة، وهذه المناسبة مسوِّغَة للعطف.

ومما يحسن أن يلاحظ وإن لم يكن من أسرار البيان الخفية أن عطف القول على الحسبان فيه ترتيب منطقى، لأن الحسبان الذى هو الظن إذا قوى صار اعتقادًا، وإذا صار اعتقادًا صار قولا يقول به معتقده، وكأن القول مرحلة

أعلى من الحسبان والحسبان يسبق القول، وقد جاءت جملة الحسبان خالية من التوكيد بخلاف جملة القول، ففيها مؤكدات ثلاثة الأول القصر ﴿مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ والثانى تأكيد المعنى ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ والثالث قصر ﴿وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ﴾.

قلت هذا مع أن الحسبان من فريق والقول من فريق، وإنما أردت ترتيب عناصر البيان، هذا والله أعلم.

والضمير فى قوله ﴿مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ يراد به الحياة الدنيا لأن مقصود الجملة إنكار الحياة الثانية، وهم يقولون ما الحياة إلا حياتنا الدنيا، وأجاز بعض علمائنا أن يكون ضمير الشأن والقصة، والمعنى أن الحال والشأن والقصة أنَّها ليست إلا حياتنا الدنيا وضمير الشأن يدل على شدة عناية المتكلم بالمعنى الذى يأتى بعد ضمير الشأن، والذى هو مُفَسِّر لضمير الشأن لأن ضمير الشأن يهيئ النفس لتلقى ما يراد به، ويجعلها تستشرف له. وهذا يعنى قوة يقين القوم فيما يقولون أو قوة رغبة القوم فى أن يروج عنهم ما يقولون، ثم أردفوا ضمير الشأن بالقصر، والقصر تأكيد على تأكيد كما قال على بن عيسى، وجاؤوا بالنفى والاستثناء الذى هو رأس باب القصر، وهم بكل هذا يواجهون دعوة رسول الله ﷺ، والذين آمنوا معه لأنها قائمة على الإيمان بالبعث، وكأنهم يقولون ما هى إلا حياتنا الدنيا وليست كما تزعمون من أننا نحيا فى غير هذه الحياة الدنيا، ثم إنهم أكدوا هذا بجملتين مُدْمَجَتَيْن فى جملة واحدة وهى قولهم ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ وهذا الموت وهذه الحياة لها ظرف واحد فقط هو الحياة الدنيا، والفعلان نموت ونحيا يتجددان فيها فى كل ساعة، لأنه ما من وقت يمر إلا ويموت ناس ويُولَد آخرون.

وكل ذلك يحدث فى حياتنا الدنيا ولا يحدث إلا فيها، ومعنى التجدد والحدوث فى هذين الفعلين أن هذين الفعلين لا انتهاء لتجددهما، فليس هناك فناء شامل لهذا الوجود، وإنما هى حياة باقية بقاء سرمدياً، وهذا

الاعتقاد قائم على إنكار الغيب، والعناية كل العناية بالعالم الحىّ المحسوس الذى نشاهده، وليس لنا شأن بالذى وراءه، وهو شبيه جداً ببعض ما يبشر به الفلاسفة المتنورون، والنخب المثقفة جداً فى بلادنا العزيزة، وهو كلام قديم أقدم من حذاء هابيل، اهتدى إليه الناس قبل هابيل من غير فلسفة ولا تنطس ولا تثقف ولا تنوير.

وقد لحظ أشياخنا العلماء أن عمود الآية هو أنه لا حياة إلا حياتنا الدنيا وأن هذا يقتضى أن يقال فى الجملة الثانية نحيا ونموت وليس نموت ونحيا كما فى الآية، وأن وراء هذا العدول سراً، يعنى وراء تقديم نموت على نحيا سر، وذكروا فى بيان هذا السر وجوهًا، راجعة كلها إلى ما قاله الزمخشرى.

وكلام الزمخشرى فيها شديد الإيجاز، ولو لخصته كان تلخيصى أطول من كلامه وربما كان أغمض ولهذا أضعه بين يديك، قال رحمه الله: «نموت نحن ويحيا أولادنا، أو يموت بعض، ويحيا بعض، أو نكون مواتًا نطفًا فى الأصلاب ونحيا بعد ذلك، أو يصيبنا الأمران الموت والحياة، يريدون الحياة فى الدنيا والموت بعدها وليس وراء ذلك حياة» انتهى كلامه رحمه الله.

وقد ترى فى هذه الوجوه وجهًا أقرب، والملاحظ أن علمائنا يذكرون كل معنى يحتمله لفظ القرآن، وهذا من حق كلام الله علينا، ولا يجوز إهمال معنى يحتمله لفظ القرآن؛ لأن هذا من إبطال بعض دلالة اللفظ، وإخفاء شىء من مراد الحق جل وتقدس، وقد تُرَجّح وجهًا، وهذا من الممكن ولكنك لا تبطل غيره، وأميل إلى القول بأنه يصيبنا فيها الأمران، وأن القوم يقولون هذه قصة الإنسان على هذا الكوكب، وأنه يَعْتَريه الأمران الموت والحياة، وقدم الموت لأنه سابق للحياة، ثم هوالزمن الأطول سواء كان قبل النفخ فى الروح أو كان بعد مجىء الأجل ومدة الحياة قصيرة، وقد تكون قصيرة جداً ويموت الإنسان جنينًا أو طفلا أو فتى إلى آخره، ومهما كان الأمر فطول الحياة ليس شيئًا بالنسبة إلى طول الممات. ويمكن أن يكون معنا فى الآية موتان بينهما حياة الموت الأول قبل النفخ فى الروح، وهو المعبر عنه بقوله ﴿نَمُوتُ﴾ لقوله

تعالى ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ﴾ ثم الحياة المعبر عنها بقوله تعالى ﴿نَحْيَا﴾ ثم الموت المعبر عنه بقوله سبحانه ﴿وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ﴾ وإسناد الإهلاك إلى الدهر بطريق القصر «النفى والاستثناء» لتأكيد معنى أنه لا يهلكهم إلا الدهر وقطع الطريق على البعث لأن الذى يهلكه الدهر لا يحييه أحد، ولو أن الله الذى خلقهم هو الذى يميتهم لجاز أن يقال إنه يحييهم لأن القادر على الموت هو القادر على الإحياء، ولم يقل أحد إن الدهر يبعث الموتى.

والخلاصة أن هذه الجمل الثلاث هى مقول القول، وأنهم لم يقولوا فى بيان هذه الضلالة غيرها، وأنها تدور حول معنى واحد، وأنها يؤكد بعضها بعضًا، وأن وجه توكيد ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ لما بعدها هو أن هذه الدنيا وحدها هى مسرح، وموضع هذين الأمرين الجليلين اللذين هما الموت والحياة، وأنه لا يقع على هذا الكوكب حدَث أجل منهما، وأنه مادام الموت الذى تَعْقُبُه حياة لا يكون إلا فيها، كان ذلك لا محالة توكيدا لقوله ﴿مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾، وهذا وجه توكيد الثانية للأولى، أما وجه توكيد الثالثة فلأن عقيدة الجاهلين قائمة على تعظيم الدهر، وأنه أهلك الجبابرة، وأنه لا يُصلح أحد ما أفسده، وأنه إذا أخذ لا يسترد منه ما أخذ ، ولهذا كان قصر الهلاك عليه لا غير مفيدًا معنى أنه لا يحيى أحد ما أهلكه، وهذه الجمل الثلاث وإن كان يؤكد بعضها بعضًا فلكل جملة منها مذاق يختلف، وراجع لتدرك، وكلامهم هذا فيه دلالات خفية على فساده، منها أنهم ذكروا الذى يهلكهم وهو الدهر ولم يذكروا الذى خلقهم لأنهم مقرون أنه الله سبحانه ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ ولو أنهم ذكروا الذى أحياهم لكان قولهم ﴿وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ﴾ كلامًا مردودًا لأن الأصل أن يكون الذى أهلكهم هو الذى خلقهم، ولا يتصور أن يكون ثمة خالق والدهر يهلك لأن هذا يكون اعتداء من الدهر على الخالق والذى يُعتدى عليه لا يكون قادرًا على الخلق، ثم إنهم قالوا ﴿مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ ووصف الحياة بالدنيا دال على أن هناك حياة أخرى ليست

هى الدنيا وإلا كان الوصف لا معنى له، وأن المقابل للحياة الدنيا لابد أن يكون حياة عليا، وهذه نميمة أسلوب نمَّت عن هواجس الفطرة التى يغالبونها، وقد لفت البقاعى إلى هذا المعنى، وأن الدفين الخفىّ فى الفطرة يدعوهم إلى الله وعدله، وثوابه، وعقابه، وقد أومأت قراءة زيد بن على إلى هاجس الخالق القادر الذى يسكتون عنه عامدين ذلك لأن زيدًا قرأ «ونُحيا» بضم النون أى يحيينا مجهول، وهذا إغماض فى مقام يجب فيه البيانه.

ثم إن قولهم ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ فيه إقرار ظاهر بأن أعظم حدثين يتواردان على الإنسان لا طاقة له بهما وأنهما خارجان عن الطوق، أنهم يحيون من غير أن يستشاروا، ولا يستطيعون جلب الحياة ولا دفعها، وكذلك يموتون من غير أن يُستشاروا ولا طاقة لهم فى دفع الموت، ولا فى جلبه، وكل هذا وراءه إقرار بقوة غيبيَّة وراء هذا الوجود، لا تُغلب وإذا حاولت الأمر لا تُدفع.

وهذا المعنى الذى أثرناه فى جملتى ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ يشير إلى سر من أسرار تقديم نموت على نحيا، وهو أن هذا القوىَّ الغالب الذى أحْيانا بمشيئته وليس بمشيئتنا وأهلكنا بمشيئته لا بمشيئتنا، يفعل بنا ما يحب هو وليس ما نحب نحن، فقدَّم الموت لأن الموت مما نكره لأن الأمر بيده لا بأيدينا، ولو كان بأيدينا لقدمنا الحياة التى هى أهم عندنا، والتى نحن بشأنها أعْنَى.

قلت إن الذى نطقوا به فيه دليل على الذى أرادوا نفيه، وأنهم لما قالوا ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ كانوا مُقرين بالعجز، وأنهم فى قبضة لا يستطيعون الانفكاك عنها، وأنهم لا يملكون من أمرهم شيئًا، وأنهم لا ينفذون إلا بسلطان.

ولهذا جاء التعقيب على هذه الجمل الثلاث والمتضمنة لعقيدتهم، والمتضمنة أيضًا تضاربًا وتناقضًا لما أرادوا إثباته، بقوله سبحانه ﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ وهذه الواو واو الحال، والجملة الثانية مؤكدة للجملة الأولى ومفصولة عنها كما يفصل التوكيد عن المؤكد، وراجع الجملة الأولى وتأمل

ما فيها من اختصار وإحكام، وما وراء الاختصار من معنى بعيد الغور، وقد دخل فيها النفى على الجار والمجرور ليفيد نفى العلم عنهم خصوصًا، وأن غيرهم يعلم لأن الأدلة متظاهرة على إثبات البعث وأنه ضرورة وأن خلق الناس وتركهم سدى من العبث، وخالق السموات والأرض منزه عن العبث، وإقامة السموات والأرض على الحق والثواب والجزاء الذى هو عمود العدل كل ذلك ظاهر فى إثبات البعث، وأنه لاينكره إلا من لا يعلم الشيء الذى يعلمه كل من يعلم، وقد بدؤوا كلامهم بالنفى بكلمة ما فى قوله تعالى: ﴿مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ وبدأ نقض كلامهم بكلمة ﴿مَا﴾ فى قوله تعالى ﴿وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ وذلك ليتشاكل نفى باطلهم بإثباتهم له واستمرَّ هذا التشابه فى البناء، بين نقض باطلهم وإثباته فجاءت الجملة الثانية التى هى الفاصلة، على طريق القصر ﴿إِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ﴾ لنقض ما أثبتوه فى قولهم بطريق القصر ﴿مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ ولا أعد هذا من الأمور اللفظية، وإنما له دلالة وهى تأكيد نفى ما أثبتوه باللغة نفسها التى أثبتوه بها، وهذا نفى لما قالوه مشوب بقدر من استعلاء لغة الحق على لغة الباطل، لأن ردًّ كلام الغير ببعض لفظه يدل على غاية التمكن.

واسم الإشارة فى قوله تعالى ﴿مَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ يعود على ﴿وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ﴾ كما قال المفسرون، وهذه الجملة توكيد لقولهم ﴿مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ وهذا يعنى أن اسم الإشارة عائد إلى ما قالوه فى الجمل الثلاث.

وفرق بين أن أقول هو لا يعلم هذا، وأن أقول ماله بهذا علم، التعبير الثانى يفيد أن هذا لا يدخل فى علمه، والآية تقول إنهم لما قالوا ﴿مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ﴾ تكلموا فيما لا يدخل فى علمهم، لأن معرفة الحياة الآخرة، وأن الله سبحانه يحيى ويميت، علم لا يدرك إلا بالنقل لمن يؤمن بما أنزل الله، وهؤلاء كرهوا ما أنزل سبحانه، أو بالعقل وإعمال النظر فى الأدلة المنصوبة، وهؤلاءئ فقدوا الانتفاع بالأدلة المنصوبة،

وهذه الجملة راجعة إلى قوله تعالى ﴿وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ لأن كلام هؤلاء فى نفى الحياة الآخرة من الأهواء، وهم لا يعلمون وتنزيل فعل لا يعلمون وهو فعل متعد منزلة اللازم يعنى أنه لا يكون منهم العلم، وهذا قريب من ﴿وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾، وليس هو، وهذا القيد ﴿بِذَلِكَ﴾ له دلاله أخرى لأنه قيد نفى العلم عنهم، بهذا الموضوع الذى تكلموا فيه، ولو قال مالهم من علم لأفاد معنى غير مراد، لأن القرآن الكريم حكى عن المنكرين للبعث علمًا هو من أَجَلِّ العلم، وأكرمه، ومع وجود هذا العلم عندهم أنكروا البعث ووصفوه بأنه أساطير الأولين، ثم طرحت الآيات عليهم مجموعة أسئلة وأجابوا عنها إجابات صحيحة وتعجب كيف يكون عندهم هذا العلم الشريف وينكرون البعث، قال سبحانه: ﴿قُل لِّمَنِ الأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٤) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ (٨٥) قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٨٦) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ (٨٧) قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٨) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٤ - ٨٩].

تعجب لمن يؤمن بأن الأرض ومن فيها لله، وأن رب السموات السبع ورب العرش العظيم هو الله، وأنه سبحانه يجير ولا يجار عليه، ثم يكفر بالبعث؟!!

وهذه المعانى كل مؤمن يدعو الله أن يلقاه وهى مغروسة فى قلبه، وعقائد الجاهليين كما يصورها القرآن الكريم فى حاجة إلى أن تجمع وتدرس، لأن فيها غوامض كثيرة، لأنهم لا يؤمنون بهذا فحسب وإنما يؤمنون بأن الله سخر لهم الشمس والقمر والنجوم والبحر والفلك، وأن كل النعم منه، ومنهم من يقول أوتيته على علم عندى، وإذا كان منهم من يقول ﴿وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ﴾ فلا أعرف أن منهم من آمن بخالق غير الله، ولم أقرأ دراسة جامعة لعقائد جيل المبعث وما قبله، لم أعرف جاهليا أنكر أن الله خلقه ولا أنكر أن الله خلق السموات والأرض.

وقوله سبحانه ﴿إنْ هُمْ إلاَّ يَظُنُّونَ﴾ بيان لمعنى أومأت إليه الجملة قبلها لأن الجملة التى قبلها لما نفت أن يكون لهم بذلك علم أومأت إلى سؤال يقول إذا كان هذا ليس من باب العلم فمن أى باب يكون؟ فجاء قوله: ﴿إنْ هُمْ إلاَّ يَظُنُّونَ﴾ لبيان هذا، وعلى هذه الطريقة قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ إنْ هُوَ إلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ﴾ [يس: ٦٩]، ولاحظ التشابه الذى بين العبارة عن الباطل، والعبارة عن دحض الباطل، وراجع قولهم ﴿مَا هِيَ إلاَّ﴾ وقوله تعالى ﴿إنْ هُمْ إلاَّ﴾.

ولا أشك فى أن النغمة تدعو صاحبتها؛ فكيف بحروف ثلاثة؟ والظن فى هذه الجملة ظن ليس فيه من العلم شيء، وهو بعيد جدا عن الظن، فى مثل قوله تعالى ﴿إنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلاقٍ حِسَابِيَهْ﴾ [الحاقة: ٢٠] لأن هذا ظن الاعتقاد، واليقين الذى لا ريب فيه، والظن فى الآية ظن التوهم، وظن الهوى، وفسره علماؤنا بالتخيل، وهو المناسب للهوى لأن الهوى يبعث الأوهام والخيالات.

وحقيقة المضارع فى قوله سبحانه ﴿إنْ هُمْ إلاَّ يَظُنُّونَ﴾ تفيد أن هذا التوهم والتخيل الذى يرى إنكار البعث، وأنه: ﴿مَا هِيَ إلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إلاَّ الدَّهْرُ﴾ توهم وتخيل يحدث زمانا بعد زمان، ويتجدد بتجدد الأجيال، والمتوهمين والمخذولين، وهو فعل مضارع ممتد ومفتوح إلى آخر ملحد متفلسف ومتنور على طريقة عباد الصليب على هذا الكوكب.

قوله سبحانه: ﴿وَإذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إلاَّ أَن قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾، هذه الآية معطوفة على الآية قبلها ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ وهى مؤكدة لها لأنها تعنى نفى البعث وفيها شيء ليس فى الأولى وهو بيان حالهم لما سمعوا الآيات البينات التى توجب البعث، الآية الأولى بادرت ببيان موقفهم من البعث، وهذه بينت موقفهم عند سماع

الأدلة، والأصل أن تتقدم الآية التى تذكر الأدلة وإنما تأخرت للمبادرة بموقفهم فى إنكار البعث، وأن الأدلة لا تغنى عندهم شيئًا لأنهم ليسوا باحثين عن الصواب؛ وإنما هم أهل إصرار، وهذا شأن من اتخذ إلهه هواه، ولهذا سوف نجد-أن موقفهم من الأدلة كما بينت هذه الآية موقف الذى يروغ من مواجهة الحق إلى سراديب التهويش والمغالطة الكاذبة.

قلت إن الآية من تمام الآية التى قبلها وهى راجعة معها إلى كل ما ترجع إليه الآية الأولى، فهى راجعة معها إلى الأفاك الأثيم، وفيها ميسم من وسمه، وهى كلمة ﴿تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا﴾ وقد وصف هناك بأنه يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبرًا كأن لم يسمعها، وستجد هذا الظل هنا لأنهم هنا إذا تتلى عليهم الآيات البينات زاغوا وراغوا، وقالوا ﴿ائْتُوا بِآبَائِنَا﴾ وقضية المجىء بآبائهم ليست هى القضية وإنما القضية هى البعث بعد أن ينفخ فى الصور النفخة الأولى فيصعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله ثم ينفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون، أما رجوع موتاهم إليهم فهذا خروج عن مسألة الحوار، وهروب كما سنبين إن شاء الله، قلت أعفى نفسى من تكرار بيان علاقة الآية بمكونات السورة لأن الآية شق من محور بُنِيَتْ علاقته برؤوس محاور السورة، ثم إن صلة الآية بآخر الآية قبلها أعنى بالجملة المجاورة لها والتى انتقل الكلام منها إلى الآية، مما لا يجوز أن نغمض عنه، مكتفين بالروابط العامة لأن هذا إن كان يكون أهمالا لنسيج واقع يربط رأس الآية بآخر التى سبقتها؛ والذى أراه هنا أن هذه الآية تأكيد لجملة ﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ لأن الآية فى جملتها تبين خطأ طريقة هؤلاء فى النظر والاحتجاج، وأنهم لا يناقشون ما يعرض عليهم من برهان، وإنما يهوشون بشىء آخر لا يدخل فى القضية ثم هى أيضًا تأكيد لجملة ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ لأن الآية كشفت عن ظنونهم بمعنى أوهامهم وتخيلاتهم كما فسر العلماء وسوف يظهر هذا أكثر عند التحليل، وأول ما فى الآية أداة الشرط ﴿إِذَا﴾

الدالة على أن الشرط كثير الوقوع يعنى أن تلاوة الآيات عليهم كان يتواتر كثيرًا وأن القرآن كان يطرق مسامعهم بالآيات البينات القاطعة، فى دلالتها على وجوب البعث وإمكانه، وكأنهم كانوا محاصرين، ثم تجد امتزاجًا بين دلالة ﴿إِذَا﴾ فى الآية والفعل المضارع الدال على تجدد الحدث ووقوعه مرة بعد مرة، ثم بناءه للمجهول، وأنه لا يتلى من جهة واحدة وإنما يتلى عليهم من هنًا وهنًا، وهذا تركيب متناغم جداً ومتعاون جداً وبعد هذه المحاصرة بالتلاوة وأنها تقطع عليهم كل سبيل ينتقل المعنى انتقالة كبيرة ومثيرة وذلك بإضافة الآيات إلى ضمير العظمة، وأن هذه الآيات تكتسب جلالها وقداستها بإضافتها إلى الذى الأرض جميعًا قبضته، والذى خلق كل ما خلق بالحق ولتجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون، ثم تجد أن الذى يحدِّث عنهم هو صاحب الآيات التى راغوا وزاغوا وولوا عند سماعها، ولو كان الكلام وإذا تليت عليهم آيات الله، لكان الغضب فيها أقل حدة، ثم إنه لم يكتف بإضافة الآيات إلى ضمير العظمة الموصوف بكل كمال، والمنزه عن كل نقص، وكذلك آياته وإنما وصفت بأنها ﴿بَيِّنَاتٍ﴾ يعنى مبينة بيانًا بينًا عن تأكيد أمر البعث، وأنه مقتضى الحكمة التى يكون خلق الناس بدونها باطلا وعبثًا وظلما، وقوله ﴿مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ﴾ الحجة الدليل الذى يحتج به، والمطلوب به نفى الشبهة، ولذلك قالوا حجة كالشمس فى الظهور، والذى قالوا ليس بحجة، ولذلك قال العلماء إن هذا القول سمى حجة على سبيل التهكم، أو هو عندهم حجة أو على معنى لو سمى هذا حجة لكانت لهم حجة، على حد قول الشاعر:

وبَلْدَةٍ ليس بها أَنِيْسُ ... إلا اليعافيرُ وإلا العيسُ

فوجود الأنيس فى البلدة متوقف على أن تكون اليعافير التى هى الظباء أنيسًا وأن تكون العيس التى هى الإبل البيضاء أنيسا وكذلك يكون لهؤلاء

حجة إذا صح أن هذا الوهم والظن الذى قالوه حجة، وإنما لم يكن قولهم ائتوا بآبائنا حجة لأن القضية ليست إحياء الموتى فى الدنيا، ولم يقل أحد به، وليس مطروحا لأنه عبث وإنما إحياء الموتى يوم البعث ويوم الحساب ويوم الجزاء، وهذا هو موضع المنازعة معهم، والآيات البينات المتلوة عليهم كانت تؤكد البعث من وجوه، أولها أنه ضرورة تقتضيها الحكمة لأن خلق الناس وتركهم سدًى من غير كتاب، يأمرهم بالخير وينهاهم عن الشر هو ظلم للناس، لأن الحياة من غير التشريع الإلهى، ومن غير الثواب والعقاب تكون غابة يأكل القوى فيها الضعيف، والله هو الذى خلق وهو أعلم بمن خلق ويعلم أن أنفس الأنيس سباع كما قال أبو العلاء، فلابد من شرع يأمر بالعدل والإحسان، وإيتاء ذى القربى، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى، ولابد أيضًا من ثواب لمن أطاع، وعقاب لمن عصى، ولا يكون شىء من ذلك إلا بالبعث وهذا معناه أن الآيات التى تتلى عليهم هى الآيات الدالة على وجوب البعث والدالة أيضًا على الحساب، وأن الذى فطرنا أول مرة هو الذى تَعَبَّدنا وأن الذى خلق السموات والأرض ولم يعيى بخلقهن قادر على أن يحيى الموتى، وأننا نخرج من الأرض بعد الموت كما يخرج النبات من الأرض بالمطر بعد موت الأرض وأن الذى أحيا الأرض بعد موتها قادر على أن يحيى الموتى إلى آخر الأدلة المتظاهرة فى هذا الباب، وهذا ما يتلى عليهم، والواجب على طالب الحق أن يقف عند الدليل، وأن يناقش فيه، ولكن هؤلاء أدركوا بذكائهم أنه لا طاقة لهم بمواجهة الأدلة، لأنه لا يعارضها من به مُسْكَةٌ كما كانوا يقولون يعنى من به أدنى قدر من العقل يعينه على أن يمسك بما يسمع، أو لا يعارضها من به طرق، أى شحم وقوة، فزاغوا وراغوا وذهبوا إلى واد آخر، وقالوا احيوا لنا آباءنا وهذا ليس مطروحًا، ثم إن المقصود الأهم هو الإيمان بالغيب عن طريق الأدلة العقلية وهذه هى قاعدة الدين ولهذا كان ارتقاء بالناس من الأدلة الحسية إلى الأدلة العقلية، ثم وهذا أهم أن الآيات

التى تتلى عليهم فى شأن البعث أقوى وأظهر وأقطع من الذى طلبوه وهذا يذكّر بحال أهل مكة لما أتت السماء بدخان مبين وقالوا ﴿رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾ [الدخان: ١٢]، وقال ربنا سبحانه ﴿أَنَّىٰ لَهُمُ الذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ⑬ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ﴾ [الدخان: ١٣، ١٤]، يعنى أنه جاءهم رسول بآيات مبينة أكثر من كشف الرجز، ثم إن الله سبحانه وتعالى يعلم أن الآيات لا تغنى شيئًا ولا النذر وأنه سبحانه لو أنزل عليهم الملائكة وكلمهم الموتى ﴿وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ [الأنعام: ١١١]، وكل هذا يعنى أنهم لما طلبوا إحياء موتاهم لم يكونوا طلاب حق؛ ولما كان إبراهيم طالب حق وقال ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٠]، أراه الله كيف يحيى الموتى، والذى مرَّ على قرية وهى خاوية على عروشها وقال أنى يحيى هذه الله بعد موتها آراه الله ذلك، ولما قال الحواريون لعيسى عليه السلام ادع لنا ربك أن ينزل علينا مائده من السماء أنزل الله عليهم المائدة، وقد نبه البقاعى إلى أمر حسن جداً وهو أنهم لو أجابهم الله لما قالوا، وأحيى آباءهم ولم يؤمنوا لأنزل بهم عذاب الاستئصال، وكان من كرامته لخاتم الأنبياء والمرسلين أن رفع سبحانه عن أمته عذاب الاستئصال قلت إن هذه الآية تأكيد لجملة ﴿مَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ ولجملة ﴿إِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ﴾ وبناؤها على ما بنيت عليه من الروغان عن مواجهة الدليل وطلب ما يعلمون أنه لن يكون يؤكد ذلك، وبقى فيها شىء وهو أنهم لما طلبوا أن يرجع إليهم موتاهم طالبوا جماعة مخاطبين ﴿ائْتُوا بِآبَائِنَا﴾ وفيه أمران الأمر الأول أن الرسول عليه السلام والذين معه رضوان الله عليهم لم يكن منهم حرف واحد يفيد أن لهم دخلا فى البعث إلا شيئًا واحدا وهو البلاغ، وأنهم ليس لهم من أمر الله شىء ومن الانحراف عن الحق أن أطالب المبلغ عن الله بالشىء الذى لا يكون إلا من الله سبحانه، والأمر الثانى فى الجملة أمر يخصنا نحن وهو

أن القوم المعاندين لم يخاطبوا رسول الله ﷺ وحده، وإنما خاطبوه هو ومن معه، وجعلوهم سواء وهذا يعنى أن أصحاب رسول الله ﷺ كانوا كرسول الله ﷺ فى بلاغ ما سمعوا منه، وأنه لم يكن منهم واحد يسمع من رسول الله ﷺ ثم ينطوى على نفسه، وينفذ أمر ربه فى خاصة نفسه، وإنما كانوا يكونون السنة بلاغ مبلغ عن رسول الله ﷺ المبلغ هو عن ربه، وهذا يعنى أن البلاغ ليس بلاغ النبى عن ربه فحسب، وإنما هو بلاغ كل من بلغه من دين الله شىء وأنك حين تبلغ أمر الله ونهيه فأنت رسول رسول الله ﷺ مهما بعد زمانك عن زمانه صلوات الله وسلامه عليه، وعلم الإسلام لا تنطوى عليه الصدور، وقيمته وفضله وبركته فى نشره وبلاغه وإذاعته.

وقوله تعالى ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ شرط فيه أشياء أولها أنهم جاؤوا بإن التى تدل على أن المتكلم بها لا يتوقع وقوع الشرط الذى دخلت عليه، وأن كونهم صادقين أمر مستبعد عند هؤلاء المنكرين للبعث، وهذا من سوء الأدب مع رسول الله ﷺ والذين آمنوا معه، ثم إن الجواب المعلق على هذا الشرط وهو الإتيان بآبائهم محال، وهم يعلمون ذلك وبذلك يكون كونهم صادقين مستبعداً من جهة أخرى لأنه معلق على المحال، والمعلق على المحال محال، وجواب الشرط محذوف والمذكور دليله والأصل إن كنتم صادقين فأتوا بآبائنا، وإنما قدم الجواب وصار دليلا لأنه هو المهم، والسياق بشأنه أعنى، ثم إنهم لم يقولوا إن كنتم صادقين فى الخبر عن البعث، وإنما أطلقوا الصدق ولم يقيدوه بشىء فدل الكلام على أن صدقهم فى الأمر كله فى البعث والنبوة، والكتاب، وكل ما بلغه ﷺ عن ربه، وبلغه بعده أصحابه ببلاغه، كل ذلك صار صدقه عند هؤلاء الذين ما لهم به من علم مستبعداً، ومعلقا على المحال.

وهذه الآية لها أخت فى السورة التى هى أخت الجاثية وأعنى بذلك قوله تعالى فى سورة الدخان ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا

الأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ (٣٥) فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٣٦) أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ...﴾ [الدخان: ٣٤-٣٧].

وموقع الآيات فى السورتين مختلف، لأن الذى فى الدخان جاء بعد ذكر بنى إسرائيل، وابتدأت به الآيات رأس معنى، والذى فى الجاثية جاء امتدادا للذى اتخذ إلهه هواه، وهو امتداد للنهى عن اتباع أهواء الذين لا يعلمون، ومرجع الأمر عند قوله تعالى ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الأَمْرِ﴾، وهذا مختلف لأنه جزء من معنى دار عليه محور من محاور السورة، ثم إن جملة ﴿فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾، تكررت فى السورتين، وجملة ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ﴾ [الدخان: ٣٥]، جاءت فى الدخان، ودلت عليها آيات الجاثية دلالة التزام، لأن قوله تعالى ﴿مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ وقصر الحياة على الحياة التى على هذه الأرض يلزمه نفى النشر، ولذلك تجد جملة ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ﴾ وراء الجمل الثلاثة التى قالوها فى الجاثية فهى وراء ﴿مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾، ووراء ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾، لأن المراد الموت والحياة فيها هى وليس فى غيرها وهى وراء ﴿وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ﴾ والدهر ليس له حاجة فى بعثنا لأنه لم يكلفنا بأمر ولا نهى حتى يكون له علينا حساب.

والجملة التى تكررت انتقل الكلام بعدها فى الدخان إلى ذكر قوم تبع واستمر الكلام فى الجاثية معها ليبين نقضها وأن الله سبحانه يحييهم ويميتهم ثم يجمعهم إلى يوم القيامة لا ريب فيه، ثم يختم بالفاصلة التى تعود بالكلام إلى أم المعنى الجزئى الذى هو ﴿وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ والفاصلة هنا قوله تعالى ﴿ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾، وهذا ظاهر وجيد، وظاهر أيضًا أن المعنى فى الدخان أكثر إيجازًا والمعنى فى الجاثية أكثر رحابة واتساعًا.

والباقى فى المسألة هو لماذا كانت العبارة عن نفى البعث فى الدخان بقوله تعالى ﴿إِنْ هِيَ إِلاَّ مَوْتَتُنَا الأُولَى﴾ والعبارة عن نفى البعث فى الجاثية ﴿مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾.

صورة المعنى فى الدخان هى أن الموت الذى تعقبه حياة هو الموت الأول الذى كان قبل النفخ فى الروح، أما الموت الثانى الذى يكون بانقضاء أجل الحياة فلا حياة بعده.

وصورة المعنى فى الجاثية هى أن الحياة ليست إلا الحياة على ظهر هذه الأرض نموت ونحيا على ظهرها، ومن دخل بطنها فليس له حياة.

والصورتان مختلفتان جداً، الدخان جعلت الموت عمود الصورة فى نفى البعث وأن ثمة موت واحد تعقبه حياة، والجاثية جعلت الحياة عمود الصورة وأنها الحياة الدنيا لا غير.

وصورة الدخان فيها غموض ولذلك اختلف فيها التأويل ولعل الذى ساعد على بيان المعنى وأن المراد الموتة التى تعقبها حياة قوله سبحانه بعدها مباشرة ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ﴾ فدل على أن الموتة المذكورة فى الآية هى الموتة التى بعدها حياة وأن الناس نشروا بعدها يعنى عاشوا بعدما كانوا أمواتًا ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ﴾ بخلاف الموتة الثانية فليس بعدها نشر.

وهذا ينتهى إلى أن السورتين المتجاورتين قد عبرتا عن نفى البعث على ألسنة الذين كفروا بصورتين مختلفتين وأكدتا نفيه من وجهين؛ وجه هو موت لا حياة بعده، ووجه هو حياة لا حياة بعدها، أما لماذا اختصت الدخان بهذه الصورة واختصت الجاثية بتلك فهذا مما ليس عندى فيه شىء، ورحم الله الشافعى الذى أزال عنا الحرج بقوله: «من علم الرجل أن يقول لا أعلم» وإن كان أراد رحمه الله أن يكف غلواء الاجتراء على مسائل العلم وأن يتكلم

الإنسان فيما يعلم ويسكت عما لا يعلم ولو سكت من لا يعلم لاستراح الناس، هذا والله أعلم.

قوله جل شأنه: ﴿قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ [الجاثية: ٢٦].

هذه الآية بدأ فيها ريح نهاية السورة لأنها بدأت تجمع المتاع إلى يوم القيامة، وفتحت الباب للحديث عن أحوال هذا اليوم، كما كان الحال فى الدخان، والزخرف، وقد نبهت إلى بدايات نهايات السور التى درستها فى آل حم.

وهذه الآية لم تلتفت إلى ما قالوه، فى الآية قبلها، ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾ لأنهم لما تليت عليهم الآيات لم يعترضوا على شىء فيها وإنما طلبوا طلبًا ليس داخلا فى موضوع النقاش، وخرجوا بذلك عن الموضوع فاستحق كلامهم أن يطرح ولا يلتفت إليه، وإنما الكلام فيها منصب بقوة على قولهم ﴿مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ لأن إنكار البعث إنكار لأهم ما فى الدين، لأنه إنكار للثواب والعقاب، والجنة والنار، ويوم القيامة، الذى هو يوم الدين، وهذا هدم لأركان كثيرة فى الدين كله، ثم هو إنكار لعدل الله، وللحق، الذى أقام عليه السموات والأرض، ﴿وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾، والآية وإن كانت ردا على ما قالوه فإن أقرب الآيات شبها بها هى آية ﴿وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ وجمع الناس إلى يوم القيامة لا ريب فيه هو لتجزى كل نفس بما كسبت.

ولو رجعت بالآية إلى قوله تعالى ﴿وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ﴾ وجدت الآية تشرح العلم الذى ليس لهم به علم.

وابتداء الآية بكلمة ﴿قُلْ﴾ يشير إلى أهمية مقول القول، وكل ما فى القرآن كلام الله ورسول الله ﷺ مبلغه، فإذا قدرت كلمة ﴿قُلْ﴾ على رأس كل آية

كان تقديرك صوابا، لأن رسول الله ﷺ أُمِـرَ أن يقولها، والآيات التى خصت بهذا الأمر فيها شىء يراد التنبيه إلى أهمية، كالذى هنا وهو خطر اهتزاز اليقين فى البعث، والثواب، والعقاب، لأنه عمود الأديان كلها كما قلت، وهو الذى به تضبط حـياة الناس، ويردع به الظالـم، ويقمع به الفاجـر، وإلا استـحالت الحيـاة؛ ولأن الله سبـحانه علم أنه سـتنبت فى الناس نابتة سـوء يشككون فى الغيب وفى البـعث ويعودون بالأجـيال إلى هذه الجاهليـة، وإن كانت جـاهلية ترتدى رداء الثقافـة والفلسفة والتنوير، وتوسم بسمات حضـارية متطورة جداً، ويجىء الأمر بكلمة ﴿قُل﴾ الموجهـة إلى رسول الله ﷺ ومن ورائه أهل الحق من ورثة نبوته صلوات الله وسلامه عليه حـتى لا يتهاونوا فى مواجهات هؤلاء المبطلين، والمرتدين أثواب الجاهـلية الجديدة، ولا شك أنك تراهم حولك كـما أراهم حولى، وأعجب من شىء هو أنـنى مستعد أن أفهم الـتقليد فى السلوك أوفى الملبس أو فى المأكل، وإن كان كل ذلك مرذولا ومـحتقرا عندى، ولكننى لا أستطيع أن أفهم التقليـد فى الاعتقاد، أو فى المذهب، وأرى وأسمع أن هذا علمانى وهـذا لبرالى، فأعـجب كيف اسـتطاع أن ينزع عقله، وأن يرمـيه فى الزبالة، وأن يضع فى رأسه عقل غيره، والمهـم أن كلمة قل تنبه الأمة إلى أنها محتاجة دائمًا إلى أن تكرر هذا الذى أمر عليه السلام أن يقوله.

ثم ألاحظ أن قوله تعالى بعد كلمة قل حَـدَثَ فيه تغـيـيران أو الـتـفـاتـان أو عـدولان فى بناء الكلام، وهذا لا يكون إلا لمزيد من اللفت، والتنبـيه، أمـا الأول فهو العدول من التكلم فى قوله تعالى ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا﴾ إلى الغيبة فى قوله ﴿اللَّهُ يُحْيِيكُمْ﴾ والثانى الالتفات من الغيبة فى قوله (عليهم.. ما كان حجتهم.. إلى آخره) إلى الخطاب فى قوله ﴿يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ﴾.

والالتفات فـضلا عما فيه من تطرية وتـنشيط وإيقاظ كما قال الزمـخشرى تختص مواقعه بلطائف؛ واللطيفة الأولى هنا هو أن لفظ الجلالة يستحضر كل الكمـالات المطلقة ويبـعد كل نقص وينزه المقـام عنه، ووراء ذلك من اليقـين

بصدق ما يجىء بعده ما وراءه، وأن العدل كل العدل، والبر كل البر والرحمة بالناس كل الرحمة أن يجمعهم سبحانه يوم القيامة لا ريب فيه، هذا هو العدل المطلق، والبر المطلق، والرحمة المطلقة، وهذه هى اللطيفة التى يختص بها الالتفات الأول، أما اللطيفة التي يختص بها الالتفات الثانى فهى الإشارة إلى أن الذين قالوا ﴿مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ﴾، قالوا ما قالوا لأنهم كانوا بمثابة من غاب عنه وعيه وتكلم بما لم يعلم، والآية تحضرهم، وتسمعهم الحق الذى تكلموا فى شأنه، وما لهم به علم، تحدثوا بالباطل بأسلوب الغائب وهم الآن فى حضرة الحق ويتعلمون الحق، وهذه لطيفة الالتفات الثانى ولك أن ترى غير الذى أرى والله يغفر لى ولك إذا رزقنا حسن القصد فى بيان أسرار كلامه، وجعل خطأنا خطأ مأجورا.

وقد بدأ مقول القول بالتصريح الصريح بالمعنى الذى أغمضوه مرة لما قال نموت ونحيا، لأنهم أسندوا الفعل إلى أنفسهم لا من حيث هم فاعلوه ولكن من حيث هم موصوفون به كما تقول مرض فلان ونقول فلان فاعل مع أنه لم يفعل الفعل وإنما وصف به، قلت إنهم أغمضوه مرة، وأهملوه مرة، لما قالوا ﴿وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ﴾ فقد ذكروا أن الدهر يهلكهم، ولم يذكروا الذى أحياهم، لأنهم لو ذكروا الذى خلقهم لعكر ذلك على دعوى أن الدهر يهلكهم، لأنه يقال لهم لماذا لم يكن الذى خلقكم هو الذى يهلككم؟ ولماذا يخلقكم خالق، ويهلككم غيره؟ وكان كل هذا من التلبيس أو من لزوم التلبيس والتدليس فى مقالتهم، ولذلك بدأت الآية بوضع النقاط على الحروف بصورة واضحة جداً، وبدأت بالإحياء الذى هو الخلق، والذى يقرون به، ثم هو الرحا التى يدور عليها كل شىء بعد ذلك، لأنه ما دام خلق فهو الذى يميت وهو الذى يجمعكم وهو الذى يحاسبكم وهو الذى يثيب من أطاع، ويعذب من عصى، كل ذلك راجع إلى الذى خلق لأن الخلق آية الألوهية التى لا ريب فيها، وما دامت قد قامت فكل الذى حولها يقوم بقيامها.

وقوله تعالى ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ تدل ﴿ثُمَّ﴾ هنا على التراخى الزمنى لأنه مدة الحياة لابد أن تطول حتى يبلغ المرء التكليف، ويطالب بفروع الشريعة وفرائض الإسلام، وأركانه، ثم يكون منه ما يكون قبولاً أو رفضا والتزاما أو تهاونا، وتساهلا، ثم يحصى عليه كل ما عمل، ثم يموت وهذا هو الصنف الذى حوله الحديث لأنه سيجمع إلى يوم القيامة لا ريب فيه، ثم يكون ما يكون وهذا لا يتأتى مع من مات جنينا أو صبيا، المهم أن ما قبل ثم هو حياة المكلف بكل تقلباتها، وحلالها، وحرامها، وأهوائها، ونزواتها وصلاتها وصيامها، وطاعتها ومعصيتها، وميلها إلى الحق والعدل أو ميلها عن الحق والعدل، وصراحتها ونفاقها، ورجولتها ونذالتها، وخستها ومروءتها وما ترى من الخلال فى كل ما حولك، ثم إن كلمة ﴿يُحْيِيكُمْ﴾ تعنى أنه سبحانه أحيا كل حى بنفسه سبحانه، وأنه مع كل حى حين يحيا من إنسان وحيوان وطير فى بر أو فى بحر أو فى جو، من كل ذى كبد رطبة ومن ليس ذا كبد رطبة، كل هذا الله معه حين يحيى، وملايين الملايين فى البر والبحر تحيا كل لحظة، والله سبحانه هو الذى يحييها وقل مثل ذلك فى موتها، وتأمل القدرة القابضة على كل حى فى هذا الوجود الذى لا يحاط به، ولا تقل ﴿اللَّهُ يُحْيِيكُمْ﴾ وأنت غافل عن هذه السعة لأنها هى جلال الألوهية، ولو اختصرت هذه الجملة فى أن الله يحيى الحى ثم أغلقت باب معناها على ذلك تكون قد أهدرت من دلالتها ما لا يجوز أن يهدر، وأكرر وقل مثل ذلك فى قوله ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ ولا أشك فى أن القرآن الكريم أومأ إلى ضرورة أن تلحظ هذه السعة فى فعل الإحياء، وأن الإحساس بالجلال والمهابة، وإدخال الروعة فى القلب يقتضى أن أتابع الأحياء التى تحيا فى كل لحظة، فى البر، والبحر، والجو، وفى باطن الأرض وظاهرها من إنسان وحيوان وطير، ودواب، بل وكل الكائنات الحية الصغيرة كل ذلك يحييه الله وإنما اتسع هذا مع أن الخطاب لفريق من الناس لأن فعل الإحياء فى أى حى لا يجوز فى العقل أن يكون له فاعلان وكل

معجز ليس لـه إلا فاعل واحد، ولو كان له فاعلان لفسدت السموات والأرض ولعلا بعضهم على بعض يعنى لاحتربت الآلهة كما فى عقائد الوثنيات القديمة.

أقول إن القرآن أومأ إلى ضرورة أن تستحضر ذلك بصيغة المضارع التى ترى فيها الفعل يتجدد ويحدث شيئًا فشيئًا فى الزمان كله، والمكان كله، ويمتد بامتداد الأحياء ويتسع باتساعهم.

قلت إن كلمة ﴿ثُمَّ﴾ فى قوله تعالى ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ تدل على التراخى الزمنى وبينت ذلك، وأضيف أنها أيضًا تدل على التراخى الرتبى لأن الموت أدخل فى الغرض المسوق له الكلام، لأنه هو الأردع والأزجر فى مواجهة إنكار الصلف والاستكبار، والتلبيس، وليس إنكار الفكر والاعتقاد.

وقوله تعالى ﴿ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ عطف يجمعكم على يميتكم، وهذا غريب لأنه سبحانه لا يجمعنا بعد أن يميتنا، وإنما يجمعنا بعد أن يبعثنا من مراقدنا، وقد طوى هذا البعث من المراقد مع أن الكلام سيق له، وذلك للدلالة على أنه أمر مفروغ منه، وقد تظاهرت عليه الأدلة العقلية والنقلية، لأن حكمة الحكيم فى كل ما خلق حتى فى الذبابة أو فى ساق النباتة التى تطؤها الأقدام تنفى أن يخلق الإنسان وأن يكرمه وأن يسخر له ما فى السموات وما فى الأرض ثم يتركه هملاً، يأكل القوى فيه الضعيف، ويتظالمون، ويتناحرون، وقد ألهمهم فجورهم، لا يجوز فى حكمة من خلق النباتة وفيها من الحكمة ما يحار لها عقل الأريب أن يجعل الإنسان خليفة له فى الأرض وأن يسخر له ما يسخر ثم لا ينزل له كتابًا يهديه إلى الطريق المستقيم، أقول إن الأدلة تظاهرت على وجوب البعث وإمكان البعث، ولذلك أهملته الآية، وضربت عنه صفحًا وضربت بذلك ضربة قوية على أنوف من أنكروه، وأن إنكارهم له كلا إنكار، وسيأتى الآن قوله ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ ليؤكد أنه أُسْقِطَ فى المسافة التى بين يميتكم ويجمعكم عن عمد لأنهم ارتابوا فيما لا ريب فيه، فكان ترك ذكره أفصح من ذكره، هذا والله أعلم.

وثم التى فى قوله ﴿ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ﴾ تدل على تراخى الزمن لأنها تأتى بعد البرزخ وبعد النفختين، وهذا ظاهر ثم فيها ترتيب رتبى أظهر لأن الموت مخوف، والقبر مخوف، ويبلغ الخوف ذروته يوم الجمع، لأنه يوم يؤخذ بالنواصى والأقدام، ولابد أيضًا من تأمل السعة التى فى كلمة ﴿يَجْمَعُكُمْ﴾ والعدد المجموع من أول آدم إلى أن ينفخ فى الصور، وليس هذا مرادا لنفسه وإنما المراد معرفة القدرة التى وراء جمع هذا العرمرم الذى لا يحاط به، وأنه جمع يستقصى واحدًا واحدًا، وهذا لا يكون ولا يتاح إلا لمن خلق، وكان شأنه سبحانه إذا أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون، ثم إنه سبحانه قال ﴿يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ ولم يقل يوم الجمع ليناسب يجمعكم، وذلك لأن السياق سياق ذكر البعث وحديث إنكاره، ويوم القيامة أنسب لهذا لأنه يوم يقوم الناس فيه لرب العالمين، يعنى يوم يبعثون من مراقدهم، ويقومون لله رب العالمين.

وقوله سبحانه ﴿لا رَيْبَ فِيهِ﴾ جملة حالية وموقعها هنا موقع سديد جداً لأن الآية لا ترد على من يرتابون فيه، وإنما ترد على من ينكرونه، وقد ضربت صفحا عن مخاطبتهم فى هذا الإنكار واعتبرت إنكارهم كلا إنكار كما قلت، وهى هنا تعتبر أن الريب فى يوم القيامة منهم أو من غيرهم كلا ريب وهذه الجملة جاءت فى وصف الكتاب العزيز فى أول البقرة ﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ﴾ ودلت فى الموقعين على أن من يرتاب فى الكتاب أو فى البعث بين يديه من الأدلة ما لو تدبره لرجع عن ريبه فى الكتاب، وريبه فى البعث، والجملة الشريفة لم تنف فى الموضعين ريب المرتابين، وإنما سكتت عن هذا ونفت أن يكون يوم القيامة محلا للريب، وأنه الشىء الذى لا ينبغى أن يقع فيه ريب، وكذلك الكتاب.

وقوله تعالى فى الفاصلة ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ كلام واقع موقعا سديدا جدا، ليس لأنه راجع إلى قوله سبحانه ﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾

ولا إلى قوله ﴿وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ وكل هذا كائن وكل هذا جيد، وكل هذا من التشابك، والتشاكل والتطاعم، أيضًا، ولكنه سديد هنا لأنه فى موقع جواب سؤال يثيره قوله جل شأنه ﴿لا رَيْبَ فِيهِ﴾ وهو أنه إذا كان ليس محَلًّا للريب ولا ينبغى أن يكون؛ لتظاهر الأدلة، فلماذا أنكره من أنكره؟ والجواب هو أن الذين أنكروه لا يعلمون، ومعقد المعنى فى هذه الجملة هو تنزيل الفعل المتعدى منزلة اللازم، فى قوله جل شأنه ﴿يَعْلَمُونَ﴾ لأنه لم ينف عنهم علم باب من العلم، وإنما نفى عنهم أن يكون منهم العلم، يعنى ليسوا مهيئين لأن يعلموا ومن كانوا كذلك لا تنفعهم أدلة وإن تظاهرت، ووراء هذا إشارة لطيفة إلى وجه طى ذكر البعث وإخفائه بين يميتكم ويجمعكم، وإن كان يجمعكم يستلزمه، ودلالة الالتزام ليست كافية فى مقام الحديث عن البعث، لأن المقام مقام تصريح، وإنما عدل عنه لما بيناه هناك ولهذه الإشارة التى تقول لا قيمة للحديث فى العلم مع الذين فقدوا أداة العلم.

ومن المفيد أن نجمع بين هذه الآية التى تقول إنهم فقدوا أداة العلم وبين الآيات التى وصفتهم بأنهم قوم يعلمون، كما فى أول فصلت أو أنهم قوم خصمون كما فى الزخرف، ولا يكون الخصم خصما إلا بذكاء، وعلم ولمح، وقال تعالى فى سورة مريم: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا﴾ [مريم: ٩٧]، واللدد فى الخصومة لا يكون إلا بذكاء أكثر وبعلم وذكاء وقدرة، فكيف يتفق هذا مع قوله سبحانه ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾؟ ووجه ذلك أن هنا تنبيها إلى شىء وهو أنه إذا تناول الإنسان شيئًا أى شئ أو بابا من أبواب النظر من غير أن يجمع نفسه ويحتشد بفكره، ووعيه إليه، كان تناوله له تناول من لا يعلم، وإن كان فى الحقيقة يعلم، لأن الأصل فى العلم، والوعى، أن تستيقظ ملكاتك وأنت تعالج ما تعالج حتى فى العبادة، يقول الإمام على كرم الله وجهه «ليس لك من عملك إلا ما وعيت» فإذا تناول الناس أمر الوحى بالاستخفاف والاستكبار كما فى قوله تعالى

﴿يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾، ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا﴾، و﴿اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ﴾، فهذا النموذج قد عزل علمه فصار لا يعلم وعزل فكره فصار لا يفكر، وعزل تذكره فصار لا يتذكر، والمطلوب فى شرع الله أن يلابس المؤمن كل ما يلابس بيقظة، ووعى، وحدة إدراك، وأن يكون شأنه أنه يَدُسُّ عقله، وعلمه، وبصيرته، فى كل ما حوله، وأن يعيش كل شيء فى حياته بحضور وَعْيٍ وحضور علم، وحضور إدراك.

وحالتنا مع الإدراك، والعلم، والوعى، تشبه حالتنا مع السمع والبصر والفؤاد وأن سوء استخدام هذه النعم يلغيها، فكما أن من يتلقى آيات الله باستخفاف قد أهدر علمه، كذلك من لم يتدبر ما يسمع أهدر سمعه، ومن لم يعتبر بما يرى أهدر بصره، ومن لم يتفكر فيما حوله أهدر قلبه، ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾، وإنما كانوا أضل لأن عندهم أدوات الإدراك وأضلوها، وليس هذا عند الأنعام لأنها هكذا خلقت، هذا والله أعلم.

قوله سبحانه ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ﴾ [الجاثية: ٢٧] هذه الآية تأكيد للآية قبلها ﴿قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ﴾ لأن ملك السموات والأرض يعنى ملك ما بينهما وما فيهما، وهو سبحانه متصرف فى ملكه، ولا ينازعه فى ملكه منازع، ويدخل الإنسان فى هذا العموم، فهو سبحانه الذى يحييه والذى يميته والذى يجمعه ليوم القيامة لا ريب فيه، وهذا هو وجه توكيدها لما قبلها، ولك أن تنظر إليها من وجه آخر تكون فيه هذه الآية بمثابة دليل وبرهان على ما قبلها، ويكون وجه الكلام أنه سبحانه يحييكم ويميتكم ويجمعكم ليوم القيامة لأنه ما لك السموات والأرض وأنتم داخلون فى ملكه وفى حماه وفى حوزته فكيف يتصور أن يهلككم الدهر، والدهر لا يملك مثقال ذرة فى السموات ولا فى

الأرض، وكيف تنكرون أنه يحييكم ثم يميتكم ثم يجمعكم، وهل يحال بين مالك السموات والأرض وبين التصرف فى ملكه؟ الذى تذهبون إليه يخالف بديهة العقل، ثم إنك ترى هذه الآية راجعة رجوعًا أبين إلى قوله تعالى ﴿وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ والآية التى معنا مترتبة على آية الخلق لأن الملك من لوازم الخلق فالذى خلق هو الذى ملك، ولا يجوز أيضًا فى بديهة العقل أن يخلق ثم يملك غيره، ثم ترى هذه الآية أيضًا ترجع إلى قوله تعالى ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ وهكذا حتى تصل إلى رأس السورة: العزيز الحكيم وقوله سبحانه ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ﴾ من تمام ملكه للسموات والأرض لأن قيام الساعة يعنى نهاية هذا الوجود وفناءه، ولا يملك ذلك إلا مالكه جل سبحانه.

وذكرت القيامة هنا بقوله تعالى ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ﴾ وذكرت فى الآية التى قبلها بقوله تعالى ﴿يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ وذلك لأن المقصود الأصلى هناك هو الجمع الذى هو نص فى البعث ويوم القيامة ظرف لهذا الجمع، فذكر باسمه المتعالم الشائع، والمراد هنا أن مالك السموات والأرض هو الذى يأذن بفنائهما فى لحظة قد حددها سبحانه لا يعلمها إلا هو، فكان ذكر الساعة هنا أظهر فى بيان أن لحظة فناء هذا الوجود وساعته لا تكون إلا منه جل سلطانه، وكلمة ﴿تَقُومُ السَّاعَةُ﴾ كلمة لا نهاية لسخائها وتأمل لتدرك لأن من أسرار البيان ما لا يستطيع قلم أن يضعها بين عينيك، وإنما أنت الذى تستطيع بتكرار الكلمة ومقاربتها أن تدرك من أسرارها ما تهيأت لإدراكه، والذى أعلمه هو أن قيام الساعة يعنى أمرين، يعنى النفخة الأولى أو الصيحة الأولى، ويكون الخلق كما وصفهم ربنا سبحانه ﴿إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾ [يس: ٢٩]، وتنشق السماء وتكون وردة كالدهان، وأذنت الأرض لربها وحقت، والشمس كورت والنجوم انكدرت، والبحار سجرت، والوحوش حشرت إلى آخر ما وصفت آيات سور جزء عم يتساءلون، ومن أراد أن ينظر إلى القيامة فليقرأ أوائل هذه

السور، وكـل هذا يبدأ فى لحظة واحـدة هى الساعـة، وهذا جزء من قـيامـها، والمعنى الثانى هو عند الصيحة الثانية التى وصفتها الآيات: ﴿فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات: ١٤]، و ﴿فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ ﴿فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾.

قلت إن من أسرار البـيان ما لا تنالـه التحليلات البـلاغية، وإنما فـقط تفتح الباب لتنظر العيـون المروَّضة على ذلك وتتفقد، والمفتاح الـبلاغى المتواضع جداً فى هذه الجملة التى لا نهاية لمعناها هو أن القـيام أسند إلى الزمان، والمراد والله أعلم بمراده قيـام الناس من مراقدهم فى هذا الزمن، وقد قلت إن الـساعة أو القيامـة تعنى الصيحتين صـيحة ﴿فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾ [يس: ٢٩] وصيحة ﴿فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾، وإنما أوثر البيان عنها بالصيـحة الثانية لأنها هى الأهم وهى الأمر المخـوف لمن آمن بها، وهى الزجـر، وهى الروع. وهى وجل قلوب الصالحين، ثم هى موضع الإنكار لمن ضـل، وانتكس وخُذِل، وإسناد القيام إلى الزمن دال دلالة ظاهرة على أنه لا تبقى نفس عند هذه الصـيحة، إلا وقامت لله رب العالمين؛ لأن هذا هو اليوم الذى يقوم فيه الناس لرب العالمين، وفى اللحظة التى تكون فيها الصيحة لا تبقى نفس أنيس؛ من آدم إلى يوم أن ينفخ فى الصور نفخة الصـعق إلا قامت، وإسناد القيام إلى الزمن هو الدال عـلى هذا الشمول، كما تقـول ليله ساهر، ونهاره صـائم، ومن شأن الإسناد إلى الزمن أن يعم كل المقصودين بإسناد الفـعل فلا يتخلف منهم أحد، ومـثله الإسناد إلى المكان، كما فى قوله تعالى: ﴿وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾، ثم إنك حين ترجـع إلى الجملة تجدها قد انعـقدت على معنى أصلى هو الذى قصد قـصده، وبجانب هذا المعنى الذى انعقدت عليه الجملة أفادت الجـملة معانى أخرى من الأهمية بمكان، ولكن بناء الجملة أبعدها عن أن تكون المحور، وربما كان وراء هذا الإبعاد دلالة، يعظم بها هذا المعنى الجانبى، والمعنى الذى انعقدت عليه الجملة هو خسران المبطلين يوم تقوم الساعة، ولا تنسَ أن الكلام سيق للـرد على الذين ينكرون الساعة، والحياة الثانيـة، ويقولون ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾،

والآية لم ترد على هذا رداً مباشرا، وإنما تحدثت عن خسران المبطلين يوم تقوم الساعة، وهذا الطريق الذى انعقدت فيه الجملة على معنى، وصيرت غيره من المعانى الجانبية، قيمته هنا أنها جعلت قيام الساعة أمراً مفروغا منه، وتخطت الحديث عن وقوعه إلى الحديث عن الذى يجرى فيه واختارت من الذى يجرى فيه ما يخص هؤلاء الذين أنكروه وأبطلوه وأخبرت أنهم يخسرون، وهذا طريق بارع جداً فى تثبيت المعنى لأن الكلام تجاوز القصد إلى تثبيته إشارة إلى أنه لا يحتاج إلى هذا التثبيت، وهذا طريق لاحب فى بيان العربية، ترى الشاعر يريد إلحاق الممدوح بالسحاب فى عطائه، ووفرة خيره، فيترك ذلك ويقول إن السحاب لتستحى إذا نظرت إلى نداك فقاسته بما فيها، وينقل الحديث إلى حياء السحابة لأنها ترى عطاءها متواضعًا إذا قاست عطاءها بعطائك.

وتلاحظ فى الجملة الجليلة شيئًا آخر وهو قوله سبحانه ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ وأنه بدل من قوله سبحانه ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ﴾ والتنوين فيه عوض عن الإضافة والأصل ويومئذ تقوم الساعة، وهذا البدل يمنح الجملة الجليلة معنى جليلا، وهو تأكيد المعنى الذى انعقدت عليه الجملة وهو خسران المبطلين وأن هذا الخسران واقع لا محالة، وكأنه أجل شيء يحدث فى هذا اليوم وصاحب البيان جل وتقدس وله المثل الأعلى ينبئنا بأن ذلك واقع لا محالة ومثال هذا أن تقول يوم تلقى فلانا يومئذ تأخذ الجائزة، فرق بين هذا وبين أن نقول يوم تلقى فلانا تأخذ الجائزة، وكان يمكن أن تكون الآية «ويوم تقوم الساعة يخسر المبطلون»، ويابعد ما بين هذا وبين ما جاءت عليه لأن هذا البدل أكد لنا فيه الحق أن الخسران واقع لا محالة يومئذ، والجملة القرآنية التى لها أخوات أو أشباه أخوات فى الكتاب العزيز كأنها تنادى هذه الأشباه فإذا توافت ورددْتَ النظر فيها أعان بعضها على فهم بعض، وهذا باب متسع من أبواب البيان القرآنى، ووراءه أسرار جليلة ولم ندرسه بعد دراسة واسعة وواعية، وأقرب الشبه إلى هذه الجملة أختها التى فى غافر وهى قوله تعالى ﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ

﴿قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [غافر: ٧٨] والنظر فى جملة غافر يشير إلى طى فى جملة الجاثيـة وهذا المطوى هو قوله تعالى ﴿قُضِيَ بِالْحَقِّ﴾ وكأن معنى جـملة الجاثيـة ويوم تقوم الساعـة يقضى بالحق ويخسـر المبطلون، وإنما طوى هنا للمبادرة بذكر خسـران المبطلين، الذين قالوا ﴿مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ﴾ هذا شيء والشيء الثانى أن قوله جل شأنه فى غـافر ﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ بيان جـيد لقولـه جل شأنه هنا ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ﴾، وقد ذكـرت أن كلمة تقوم السـاعة وذكر السـاعة بدل يوم القيـامة للإشارة إلى أن هناك لحظة محددة يعلمها مالك السموات والأرض ولا يعلمها إلا هو، وعندها تكون الصيحة التى لا تكون إلا من مالك هذا الوجود، وذكر كلمة ﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ والعبارة عن القيامـة والساعة بأمر الله يرشح ويؤكد هذا الذى اسـتخـرجـته، وأدع هذا إلى شيء آخـر، وهو أن كلمـة الخسـران ومشتقاتها من الكلمات التى ترددت كثيراً فى الكتاب العزيز، وأكثر ما تستعمل فى وصف حال الذين ضلوا وخسروا الخسران المبين الذى لا ربح بعده، وليس هذا وحده الذى أريد، وإنما أريد أنها تستحضر ضدها، وهو الربح، وقد عبر عن الخسران بنفى الربـح، فى قوله تعالى: ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ﴾ [البقرة: ١٦]، وقد عـبر القـرآن عن أهل الضلالة بأنـهم اشتروا الضـلالة بالهـدى والعذاب بالمغفرة، كما وصف عباده الصالحين بأن الله جلت رحمته اشترى من المؤمنين أنفسهم، وأموالهم بأن لهم الجنة كما وصفهم بقوله ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ﴾ [فاطر: ٢٩]، ونادى عباده وقال سـبحانه ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الصف: ١٠، ١١].

ولا شك أن جملة ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ﴾ لها رحم

واصلة بذلك كله، وأن متابعة هذا ومثله بفهم ووعى وبمنهج متقن تنتج بحوثًا جليلة فى بحث أسرار البيان فى الذكر الحكيم.

ومن المفيد أن نهتم بمتابعة الذى لم يُتَابَعْ والذى فتح علماؤنا الكلام فيه ثم سكت خلفهم عنه، ولنا أن ندخل تعديلات على الذى فتحوه وأن نقيم منه أبوابا جليلة يبحثها المؤهلون لبحثها من العلماء، وليس من المبتدئين، وكثير مما أقوله مما يحوم حول علم المتشابه اللفظى الذى فتحه العالم الرائع المسكوت عنه الخطيب الإسكافى.

وقبل أن أدع هذه الآية الجليلة أشير إلى أن آيات كثيرة فى الذكر الحكيم بدأت بمثل ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ أو ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ ثم أعقبتها جمل تنوعت واختلفت، واقتربت، وابتعدت، وكان السياق وراء هذا التنوع، وهذا الاختلاف، وأذكر آية واحدة توضح شيئًا مما أريده، قال سبحانه فى آل عمران ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ (١٢٨) وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٢٩) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٣٠) وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (١٣١) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٨- ١٣٢].

وإذا وضعنا آية الجاثية بإزائها وجدنا فروقا تحتاج إلى تفسير وآية الجاثية بدأت بقوله تعالى ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ والذى فى آل عمران ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾، فلماذا ذكر الملك فى الجاثية؟ والجواب والله أعلم أن الآية تنقض قول الذين قالوا ﴿وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ﴾ فاقتضى ذلك ذكر ملكه سبحانه للسموات والأرض لأنه لا يتصرف فى ملكه إلا هو، وهذا شأن القوى العزيز الخالق المالك، ولم يكن هذا المعنى فى آل عمران، لأن الذى هناك رأسه هو قول الحق لخير الخلق ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ﴾ وهذه الجملة

التى هى رأس المعنى فى آل عمـران هى التى جعلت جـمـلة ﴿لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ تنتج بعدها ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾ لأن هذه الجملة التى بعد ﴿لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ مؤكدة للتى قبلها وهى ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ﴾ كمـا أن جملة ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ﴾ التى أنتجتـها جملة ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ تأكيد للجملة التى قبلها، وهى قوله تعالى ﴿ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ﴾ ثم إن قوله سـبحانه فى الجـاثية ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ﴾ وهو فاصلة آية ﴿لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ فـتـحت هذه الفاصلة الباب لما بعدها ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾ وكذلك فتحت فاصـلـة آيـة آل عـمـران وهـى قـولـه تـعـالى: ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١] الباب لما بعدها وهو قوله سـبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا الرِّبَا﴾ [آل عمران: ١٣٠] لأن فاصله ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ تدعوهم إلى ترك مـا بقى من الربا فإن فـعلوا فالله غفور رحـيم، وعفا الله عمـا سلف، وإن لجوا فإن الله يعذب مـن يشاء، واقرأ الآية بعـدها لتجـد ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ يعود إلى ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾ وتجد ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ تعود إلى ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ﴾ [آل عمران: ١٢٩] وما كان يمكن أن نقول فى آل عمران ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ﴾، وما كان يمكن أن نقول فى الجاثية ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾ [آل عمران: ١٢٩] ويعذب من يشاء، لأن كل آية تشربَّتَ سـياقها وتَشَرَّبها سياقـها، وما كان لآية أن تخترق سياق آية أخـرى، وهذا هو الذى أعنيه بالتشارب بين الآيات، وأن كل آية مُنْداحةٌ فى سياقـها، وذائبة فيه بسلاسة، وعـذوبة، وأنك حين تكشف ذلك تجد أنك أمام أسـرار من البيان ما كـان يجليها لك إلا أن تضع الأشـباه والنظائر بين عيـنيك، وأن تَرِدِّدَ النظر حتى ترى دقـائق المعانى وخـريطة المعانـى وتضاريسـها وخُلجانها ووِدْيانها وهى خفية ولطيفة ومتسقة مع دقتها وتمنماتها.

وقوله تعالى: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية: ٢٨].

ما بقى من السورة مع هذه الآيات كآية واحدة، وكان من السهل أن أجد أية أو آيتين أو ثلاث آيات تتحدث عن شيء واحد ثم ينتقل الكلام بعدها.

أما هذا القسم من السورة فأمره مختلف لأنك لا تستطيع أن تقف عند مقطع آية منه لأنك ترى التى بعدها امتدادًا لها، هذا ثم إن قوله سبحانه ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾ رجع إلى الوراء الذى قبل ﴿يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ﴾ لأن خسران المبطلين كان بعد الحساب وقضاء الأمر كما جاء فى غافر وغيرها ﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [غافر: ٧٨] وقد طوى هذا المشهد كله فى الآية السابقة ولم يُنْشر ووثب الكلام من قيام الساعة إلى خسارة المبطلين طاويا ما قبل الخسران من مجيء الكتاب ووضع الميزان، والمجيء بالنبيين والشهداء والقضاء بالحق على ما فصلت الزمر ثم أوجزت غافر بعضه، ثم أوجزت الجاثية كله وهذا فى التدرج فى الصور عجيب جدا والذى يعنينى أن الآية السابقة انتقلت فجأة من قيام الساعة إلى خسران المبطلين، تخويفًا وتهديدًا لمن تَرُدُّ باطلهم، حتى يرتدعوا ويعودوا إلى ما يناديهم إليه ربهم الرحيم الرحمن لأنه ما يفعل بعذابنا إن شكرنا، وقد لحظ علماؤنا هذا التشابك الشديد بين قيام الساعة والحدثينْ الجليلين فيها الأول الخسران للمبطلين والثانى الحساب للكافة، والذى قدم فيه فى الذكر المتأخر فى الواقع، وقالوا إن ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾ معطوف على قوله تعالى: ﴿يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ﴾ والكلام ويوم تقوم الساعة يومئذ ترى كل أمة جاثية، وتقديم المؤخر وتأخير المقدم كثير فى الكتاب العزيز أو قل قيام البيان على نقض ترتيبات الواقع ومخالفتها كثير جداً، ونحن نكتفى فى دراستها ببيان سر ما قدم عن تأخير، وأنه الأهم، والعناية به أكثر كما قلنا من تقديم الخسران على

الحساب الذى يبتدئ بقوله سبحانه: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾ ومن الواجب أيضًا أن نلاحظ المشاهد والصور التى يتلقاها المتلقِّى وهو يتابع الآيات، فهذه صورة تَقْذِفُ به إلى نهاية المشهد، ويرى الخاسرين ثم ترجع به الصووة التى تليها إلى أول المشهد فيرى الأمم جاثية ثم يتابع الصور وهى تتوارد على قلبه، على وجوه مختلفة، ولم تترتب على وتيرة وقوعها، وإنما ترتبت على وتيرة بيانها، وأن العلاقة بين ترتيب بيانها وترتيب وقوعها علاقة مختلفة جداً، وأن المعوَّل عليه هو ما جاء فى نسق البيان لأن البيان هو مالك زمام الصُّور، وأن المُتَلَقِّى وراء هذا البيان، يلتفت مرة إلى الأمام، ومرة إلى الوراء، وينتقل من وادٍ إلى وادٍ، وهذا كله له تأثير أى تأثير فى بلاغة البيان، وهو جزء جليل من بلاغة البيان. أقام البيان هذا الجزء الواقع ليس على الوجه الذى يقتضيه الوقوع وإنما على الوجه الذى يقتضيه مقام البيان، وأن المطابقة ليست مطابقة للواقع، وإنما هى مطابقة لما يقتضيه حال البيان، وأرى هذا بابا متسعا جداً، ولم نَلْتَفَت إليهُ فى دراستنا بالقدر الكافى، وأن كلمة سيبويه الرفيعة فى أسرار التقديم شغلتنا عن أحوال رفيعة أيضًا، وراء هذا التقديم وهى جزء من التنقلات الكثيرة من حقل من حقول المعانى إلى حقل آخر، ولو راجعت هذه الآيات من أول قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ﴾ تجد أنك أولا تسمع أهل الباطل وفلسفاتهم الغبيَّة التى تشبه فلسفات الملحدين فى الزمان كله، ثم ينتقل بك البيان فتسمع آيات الله البينات تُتلى عليهم، ثم تسمع روغانهم، وتلبيسهم، وتدليسهم وهروبهم من الاحتجاج ثم تسمع عز الألوهية فى قوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ﴾ ثم تنتقل فجأة إلى عز الألوهية ليس المتمثل فى أنه يحييكم ثم يميتكم،. وإنما المتمثل فى ملك السموات والأرض، ثم يقذف بك البيان إلى يوم تقوم الساعة، ثم يقذف بك أيضًا إلى نهايته، ثم يعود بك إلى بدايته فى ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾ ولو قرأت السورة من أولها

قراءة أخرى تتوخى فيها هذه الانتقالات وكيف يحملك بيانها من وادٍ إلى وادٍ، مرة فى السماء ومرة فى الأرض، ومرة فى اختلاف الليل والنهار، ومرة فى نزول الرزق ومرة فى صحبة الأفاك الأثيم، ثم يعرض عليك تصرفاته الحمقاء البهلوانية وهو يولى مستكبرًا حين سماع الآيات إلى آخره، أقول لو قرأت السورة من هذه الزاوية ستجدك أمام رحلات سريعة جداً وخاطفة جداً، ترى فيها عوالم كثيرة جداً وأحوالا كثيرة جداً، وهذا باب من أبواب تأثير بلاغة القرآن العظيم تجد شيئًا منه فى الشعر ولكنك لا تجد هذا الزخم وهذه العوالم العجيبة، وظنى أن الباقلانى استشعر هذا وهو يتحدث عن البلاغة الخاصة بالقرآن وعدّ منها التنقلات التى لم تحدث فى الكلام شقوقًا ولو كان هذا فى كلام الناس ما سلمت مواطن التنقل هذه من الإعياء ولكان فى الكلام فتور هنا وتبتير هناك إلى آخر ما قال رحمه الله، وأجد فى مثل كلمة ﴿وَتَرَىٰ﴾ إشارة إلى أنْ ترى أن آيات الله من هذه الزاوية التى تكون فيها قد بَدَتْ للحس وظهرت ظهورا تراه العين، حتى يتحقق لنا حسن الاستيعاب، وحسن الوعى، وحسن الإحاطة بالمشهد الذى تعرضه علينا الآيات والذى يصحبنا فيه البيان صحبة يقودنا فيها من وادٍ إلى واد آخر، خذ قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [السجدة: ١٢] ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ﴾ [الأنعام: ٩٣] ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾ [الأنفال: ٥٠].

وهذا كثير جداً فى الكتاب العزيز يُدَرّبنا على أن ترى عيوننا ما تسمعه آذاننا حتى نرتقى إلى حسن الفهم، وحسن الوعى، وحسن التلقى عن الله جل وتقدس.

وعلى هذا جاء قوله تعالى: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾ والمخاطب فى كل هذا من تتأتّى منه الرؤية لأن القرآن يخاطب الناس جميعًا.

وجاثية معناها باركة على الركب وليست مقعدتها على الأرض واللفظ الدائر فى كتب التفسير للدلالة على هذا المعنى هو كلمة (مُسْتَوفَزَةٌ) والاستيفاز البروك على الركب من غير أن تنتهى الأليتان إلى الأرض وهذا حال الذليل الضارع، وقرئ جاذية بالذال بدل الثاء، وقال الزمخشرى الجذو أشد استيفازاً من الجثو لأن الجاذى هو الذى يجلس على أطراف أصابعه، وكلمة جاثية لم تأت فى الكتاب العزيز إلا فى هذه الآية وقد جاء من مادتها كلمة ﴿جِثِيًّا﴾ مرتين متقاربتين فى سورة مريم فى قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴾ [مريم: ٦٨] وفى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ [مريم: ٧٢].

وهذا يعنى أن مشهد جثو الأمم المذكور هنا لم يتكرر فى الكتاب العزيز وهو من أوسع المشاهد وأحفلها لأنه يشمل الأمم كلها من يوم أن خلق الله آدم إلى يوم أن ينفخ فى الصور وهو شامل لمن ضل ومن اهتدى والذين اجترحوا السيئات والذين عملوا الصالحات وأنا وأنت، وهو وهى كلنا سنكون مع الجاثين أو مع الجاذين؛ كلنا سنبرك على الركب مستوفزين وهذا من تمام هذا المشهد ومن تمام الحفاوة به ومن تمام المخافة منه، والذين سبقت لهم من الله الحسنى لن يجدوا فيه مشقة ولن يجدوا فيه خوفًا ولا حزنًا لأن الله وعدهم بذلك، وكل ما بقى من السورة خارج من صلب هذه الجملة وتحليل لأحوال هؤلاء الجاثين الذين تراهم كل عين ترى. ومن الملاحظات العامة فى الآيات الباقية والخارجة من صلب هذا المشهد، أن الذين آمنوا لم يناقشوا وإنما جاء خبرهم أن الله سبحانه أدخلهم فى رحمته وذاك بخلاف الذين كفروا فإنهم خوطبوا وقيل لهم: ﴿أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ﴾ وراجعتهم الآيات فى ضلالاتهم من مثل قولهم: ﴿مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ﴾ واتخاذهم آيات الله هزوا وكلها ضلالات مذكورة فى السورة ولم تتحدث الآيات عن عذابهم كما جاء فى

الدخان من ذكر شجرة الزقوم، وطعام الأثيم، إلى آخر ما جاء وإنما كانت الآيات فى المناقشة والحساب ثم أجْـملت عذابهم، فى جملة دلت على هذا العذاب دلالة واضحة وهى قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾.

والأمة الجماعة العظيمة من الناس يتبعون دينًا واحدًا، ولهم رسول واحد، وكتاب واحد، ومن ضل عن الذى دعا إليه كتابه ورسوله فهو واحد من الأمة، لأنه سيحاسب على الذى جاء فى هذا الدين، وفى هذا الكتاب، ومعنى ﴿تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا﴾ أنها تدعى لتحاسب في ضوء شريعتها وما أنفذت أو أهملت من أمر ربها ونهيه، وذهب بعض المفسرين إلى أن المراد بالكتاب صحيفة أعمال كل فرد، وأن ما فى هذه الصحيفة يعرض على الكتاب الذى أنزله الله على رسولهم، كما فى قوله تعالى: ﴿أَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾ [الحاقة: ١٩] وقوله جل شأنه ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾ [الإسراء: ١٣] وفى ضوء هذا يكون المراد بالكتاب فى قوله تعالى: ﴿تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا﴾ جنس الكتاب وليس كتابا مفردًا، والمآل واحد لأن الفرد إذا دُعِى إلى صحيفة أعماله فسيكون حساب ما جاء فيها مقيسا على ما جاء فى كتاب الشريعة، يعنى توضع صحيفتك وصحيفتى بإزاء القرآن، ما وافق القرآن منها وما خالف، وقد جاء لفظ الكتاب والمراد به صحيفة الأعمال، وذلك فى قوله تعالى فى سورة الكهف ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩] والزمخشرى فسر الكتاب بصحائف الأعمال، ولم يذكر كتاب الشريعة؛ لأن المآل واحد كما قلت، والقراءة المشهورة برفع كل فى قوله تعالى: ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا﴾ على أنها جملة مستأنفة من مبتدأ هو كل أمة وخبر هو تدعى إلى كتابها ويكون معنا جملتان، الأولى: وترى كل أمة جاثية والثانية: كل أمة تدعى إلى كتابها والأصل

أن تتقدم دعوة الأمُم إلى كتابها، ثم تُرى جاثية للحساب. وإنما قَدَّم البيانُ الثانية، فى الحقيقة والواقع على الأولى، لأن المقام مقام البيان، وما يقتضيه، وليس مقام الواقع وذلك لأن التى قدَّمها البيان فيها الصورة الأكثر هولاً والمقام مقام تخويف، وزجر كما قدَّم ﴿يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ﴾ على الدعوة إلى الكتاب، وعلى ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾، وكأننا لما رأينا مَشْهَد كل أمة جاثية تساءلنا وقلنا لماذا هذا المشهد المهيب المخوف؟ فقيل كل أمة تدعى إلى كتابها، الثانية هى السبب والأولى المسبب، وقدم المسبب على السبب، لأنه الأهم والعناية به أظهر، وقرئ ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا﴾ بنصب كل على أنه بدل من المفعول به للفعل ترى، وترى كل أمة، وهذا البدل يفيد زيادة توكيد وتصوير للأمم كل الأمم وهى جاثية فى اليوم المجموع له الناس واليوم المشهود، وجملة ﴿تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا﴾ على هذه القراءة جملة حالية ولو حذفت البدل وقلت وترى كل أمة جاثية تدعى إلى كتابها لذهب شطر المعنى وهو التوكيد والتصوير، وهذا التوكيد وهذا التصوير للردع والزجر؛ ومن عظيم الرحمة وجليلها أن يخوف الله عباده ليبلغوا الأمن وأنه سبحانه يدعوهم إلى دار السلام التى هى الجنة بالترغيب والترهيب.

قلت إن هذا المشهد لم يتكرر بهذه الصورة فى الكتاب العزيز ومن حق كتاب الله علينا أن نحاول البحث عن سر مجيئه فى هذه السورة خصوصًا ومن هذا الموضع منها، وهذا صعب جداً وأرجئ الكلام فيه الآن فإن بدا لى شىء ذكرته وإلا فعلى الذى يفتح الله له بابه أن يدلنا عليه.

ثم إن هذا المشهد الحافل الذى ترى فيه كل الأمم جاثين على الركب مستوفزين لا تسمع منهم همسًا ولا ترى فيهم حركة وإنما هو الخضوع والخشوع والذل والانتظار، ومن تمام فقه الكتاب أن تقترب من الذى وراء هذا الصمت الجليل والذى لَفَتَنا إليه الانتقال من الغيبة فى قوله تعالى: ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا﴾ إلى الخطاب فى قوله جل وشأنه ﴿الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

لنسأل عن الذى وراء هذا الصمت ويلاحظ أن أهل النار تكلموا وهم فى قلب الجحيم، ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ [الزخرف: ٧٧] وتكلموا وهم يساقون إلى النار وأجابوا خزنة النار لما سألوهم ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ﴾ [الزمر: ٧١] فأجابوهم وقالوا لهم: ﴿بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [الزمر: ٧١] وهم هنا فى ساعة الحساب فى صمت شديد، والسؤال هو ما الذى كانوا يجدونه فى نفوسهم؟ والجواب هو أن أكثر هؤلاء الجاثين المستوفزين هم ممن حاربوا دين الله وحاربوا رسل الله، واستهزؤوا بالآيات البينات وأن قلّةً منهم هُدُوا وآمنوا وعملوا الصالحات وأن هذه الكثرة كُشفَ عنها الغطاء لحظة الموت وصاروا كما وصفهم ربنا جلت آلاؤه ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ [مريم: ٣٨] ثم إنهم أدركوا ذواقا من العذاب فى لحظة الموت والملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم، وهذا يعنى أنهم فى هذا المشهد الجليل يعرفون إلى أين يُذهب بهم وليس الهمُّ كل الهم أنّهمُ جاثون فى ذل وترقب؛ وإنما الهم كل الهم فيما يعرفون أنه يعقب ذلك من سواء الجحيم، وأنهم يصطرخون فيها، وأنهم تقطع لهم ثياب من نار ويصب من فوق رؤوسهم الحميم، وأنهم يشربون من حميم آن وأنهم يسلكون فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعًا، وأن سرابيلهم من قطران وتغشى وجوههم النار، إلى آخر ما ذكرت كتب الأنبياء جميعًا من صور الجحيم، وصور الجحيم هذه من الذى أُوحى إلى محمد صلوات الله وسلامه عليه، وأُوحى إلى الذين قبله، يعنى هى من القاسم المشترك بين كتب الله كلها، كالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وأن الصدق فضيلة وأن الكذب رذيلة، وأن الدماء حرام، والأعراض حرام، والأموال حرام، إلى آخر ما اشتركت فيه النبوات؛ وكان فى الصحف الأولى صحف إبراهيم وموسى، ولا يزال كثير منهم محرمًا فى كل النظم؛ وودت لو استطعت أن أجمع صور الجحيم فى الكتاب العزيز، والأمة فى أشد الحاجة إلى هذا الكتاب، لأن نظام الفجرة فتح عليها الفجور من الجهات

الأربع، حتى صارت حياة الناس هى الأخرى جحيمًا، وهذا زمان تأليف الزواجر لندفع بهذا التأليف عن الضعفة الذى تُفزِّعهم الكلابُ الشرسة المرسلة على الناس، من غابة مُدَرِّبى الذئاب، وجوارح الطير.

قوله سبحانه: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

هذه الجملة مقول قول محذوف أى يقال لهم أو قائلين لهم، والقول ومقوله حال. ومقول القول المحذوف الذى تراه فى الكتاب العزيز يخترق الموقف وينطلق جامعًا القلوب والأسماع كثيرٌ جداً وتجد له دلالات تَرُوع كما فى قوله تعالى: ﴿يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦] والموقف هو الموقف ولكن الجاثية تناولته من جهة، وغافر تناولته من جهة أخرى ثم إن جملة ﴿الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ مؤكدة لجملة ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا﴾ لأن الدعوة إلى الكتاب هى ذاتها المجازاة بما كانوا يعملون، ثم هى ترجع لتؤكد أيضًا قوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ وإذا كانت جملة ﴿الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ جاءت فى التسلسل الواقعى بعد الموت، والإحياء، والجمع ليوم الساعة وجثو الأمم فإن الآية التى قبلها كانت مجملة جداً ومتسعة جداً لأن أولها هو أول الخلق ﴿وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾، وآخرها ليس نهاية الخلق فحسب وإنما يدخل فى يوم القيامة ويشمل البعث والحشر، والجزاء الذى هو الثواب والعقاب؛ وهذا من أعجب ما تراه فى البيان، وأن جملة واحدة، تُحيط هذه الإحاطة ولا تبدأ من يوم خلق الناس وإنما من يوم خلق السموات والأرض، وهو قبل خلق الناس، ثم يخطف طرفها الثانى الوجود كله ويتوغل فى العالم الآخر ويتناول أهم ما فيه وهو الجزاء، وقد بدأت هذه الجملة بذكر ﴿الْيَوْمَ﴾ وقد تواتر ذكر اليوم الذى هو يوم البعث وتكرر بعد قولهم: ﴿مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ﴾ لأن هذه

جمل ثلاثة تواردت على تأكيد نفى يوم البعث فجاء ذكر يوم البعث بعد ذلك فى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ﴾ وفيه من توكيد إثباته ما ترى وأظهره نفى أن يكون فيه ريب وهو هنا مقترن بيوم الجمع، ثم جاء مقترنا بعز الألوهية الماثل فى ملك السموات والأرض، ثم جاء مقترنا بهذا المشهد المهيب وهذا التكرار تأكيد لزرع هذا اليوم فى قلوب الخلق لأنه جدار الزجر والردع الذى يحفظ حياة الناس من البغى والبطش والظلم والقهر الذى علم الله سبحانه أنه سيكون من الناس للناس وسيعظم البلاء حين يكون من الذين يملكون أمر الناس، والذين يتحول أكثرهم إلى ذئاب جائعة لأموال الناس، وأعراضهم، ودمائهم، ويتخذون كل وسائل القمع والبطش والغطرسة والقهر لإشباع نهمهم للحوم البشر، وأعراضهم، ودمائهم، وأموالهم، وإذا سألت وقلت لماذا كانت الأمم فى موقف انتظار الحساب على هذه الصورة، ولم يكونوا واقفين خاضعى رؤوسهم أو جالسين على هيئة غير هذه الهيئة، ولماذا هذه الهيئة خصوصًا، والذى أعرفه فى هذا أن هذا الجثو والاستيفاز فيه إذلال وخضوع واستسلام، وقد كان المرجع الأخير لكفرهم وعنادهم وحربهم لله ولرسله عليهم السلام هو الاستكبار ﴿إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلاَّ كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ﴾ [غافر: ٥٦] فناسب ذلك.

قلت إن قوله تعالى ﴿الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ هو خطاب لهم وأول ما يُفْتَتَحَ به هذا اليوم، وأول صوت يسمعونه، ولم أر فيه غضبا وما ينبغى أن يكون فيه غضب، لأن الثواب والعقاب والقضاء لا يجوز أن يحوم حوله كلمة واحدة تَغْضَب أو تُهْدّد أو تتوعّد وأن عدل البر الرحيم يوجب نفى ذلك كله، وتلاحظ بجانب هذا أمرين يؤكدان العدل فى الآية. الأول بناء تجزون للمجهول، لأن الأهم هو الجزاء وهو الذى ينعقد عليه الغرض وليس فاعل الجزاء، والأمر الثانى، حذف حرف الجر الذى يدخل كثيرًا على «ما» فى قوله

تعالى: ﴿تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ وحذف حرف الجر هنا فيه معنى لا يكون مع ذكره، وفرق بين أن أقول جوزى فلان ما عمل، وجوزى فلان بما عمل، إذا دخلت الباء دلت على أنه جوزى بسبب ما عمل وكان الجزاء جزاء العمل، وليس هو العمل، وإذا حذفت الباء دل لفظ الكلام على أنه جوزى عمله وكأن جزاءه هو عمله، وفى هذا معنى أنه لم يزد شيئًا أى شىء على ما يستحق وكأن الجزاء هو العمل نفسه، وهذا ظاهر، والمقام يقتضى المزيد من التأكيد على العدل، وأنهم لا يظلمون، وأنهم وإن عاشوا يحادُّون الله ورسوله وهم الآن بين يديه وأنه هو سبحانه الذى يحاسبهم فإن ذلك لن يكون إلا بمحض العدل الذى لا يشوبه شىء، وأن غضب الله عليهم بَابٌ والعدل فى مجازاتهم بَابٌ آخر، وهو الذى سبحانه نادى عباده وقال: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨] ولم تكتف الآية، بهذا وإنما جاءت بعدها جملة من أرفع الكلام وأوقعه فى حاق سياقه، وهى قوله تعالى: ﴿هَٰذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية: ٢٩] وجملة ﴿هَٰذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ﴾ توكيد لجملة ﴿تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ وهى أقرب إلى الجملة قبلها ﴿كُلُّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا﴾ وبين الجمل فروق أساسية فى المعانى ومع ذلك يؤكد بعضها بعضا، لأن تأكيد الجملة للجملة لا يعنى تكرار المعنى، كما فى تأكيد المفرد، وكل جملة لها خصوصيتها فى المعنى، ولها شخصيتها، إذا صح التعبير، ثم إنها مع هذا تراها فى جانب من جوانبها ترجع إلى التى قبلها لتؤكد معناها، فجملة تدعى إلى كتابها معقود معناها على دعوتها لكتابها، ويتبع هذا معنى المجازاة، ودلالتها على المجازاة دلالة ضمنية، ثم تأتى جملة ﴿الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ وينعقد معناها على المجازاة، فتؤكد بصريح معناها المعنى الضمنى للجملة السابقة ثم تأتى جملة ﴿هَٰذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم

بِالْحَقِّ﴾ وينعقد معناها على أن الكتاب شاهد ناطق بالحق، وأن أصل الجزاء هو حسابكم على ما فى هذا الكتاب وأنه هو الشاهد الذى لا ترد شهادته على ما كان منكم من خير أو شر، والحديث عن الشاهد الناطق بالحق تأكيد لمعنى المجازاة، وهذا ضمان من الله لخلقه الذين سيحاسبهم سبحانه بعدله أنهم لا يظلمون، وكلهم يعلم أنه سبحانه لا يظلم أحدًا مثقال ذرة ﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا﴾ [النساء: ٤٠] لأن من مات من هؤلاء على كفره وفجوره وأتى ربه مجرما كُشِفَ عنه الغطاء، وعرف الله بعدله ورحمته سبحانه كما عرفه عباده المخلصون وكلما تدبَّرْت هذه الجملة، رأيت فيها معنى عميقًا جداً، وأن الله سبحانه يوجه أهل الحكم وأهل القضاء أن يوفروا كل ضمانات العدل لهذا الذى يحاكمونه ولو كان قد أعلن حربهم وعنادهم، وتحديهم وسخر منهم، ولو كانوا هم أصحاب نعمته لأن الله الذى يحاسبه هو الذى خلقه وأنشأ له السمع والبصر والفؤاد وأرسل إليه رسوله بالهدى والبينات التى لا يشك فيها أحد أو التى لا ريب فيها ثم سخر وعارض وعاند وحارب، وهو الآن يجثو على ركبتيه ينتظر القضاء والله سبحانه يقول له لن أحاسبك إلا على شىء نطق به كتابك لا أزيد على ذلك مثقال ذرة، وهذا هو العدل الذى يدعونا ربنا إليه مع من نحب ومن نكره، ولو وضعت هذا بإزاء ما نحن فيه من مظالم لوجدت الفرق المذهل بين ما يَتَبَنَّاه النظام الظالم من نُظم وقوانين وما يحاربه هذا النظام الظالم ويُصر على إبعاده عن حياة الناس وسياستهم، الناس الآن فى معتقلات الظلمة ولا يعرفون لماذا هم هنا ويعيشون السنين الطوال بعيدًا عن أبنائهم وربما يفتقد الأطفال العائل ويتشردون ويكبرون تحت مظلة هذه المظلمة فتمتلئ صدورهم حقدًا على الناس الذين سكتوا عن ظلم آبائهم، وربما خرج منهم الكاره لأوطانه ومن التزوير العجيب أن يصدر النظام الظالم قانون الطفل وقانون المرأة وهو يقتل بظلمه الأطفال ويحرق بجبروته وقمعه كل معنى طيّب فى صدور النساء الذين

حكم عليهم بالثكل وحكم على أطفالهم باليُتْم وليس لدينا إلا أن نسأل الله أن يقطع دابر القوم الذين ظلموا، واعذرنى لأنى لا أستطيع أن أقرأ آية واحدة من كتاب الله وأنا بعيد عن الواقع الذى يعيشه قومى، لأنى على يقين أنها نزلت ليومى وأمْسِى وغدى كما نزلت لكل يوم ولكل أمس ولكل غْد، ولهذا لا غير وجبت علينا تلاوة آيات الله، وأعود إلى لغة الجملة وأول ما تراه فيها أنها بُنِيت على القطع، والاستئناف، وذلك للإشعار بتميزها فى موقعها لأنَّها دعوة إلى أن يطمئن الذىَ نحاكمه، وأن نُوفّر له كل وسائل العدل وألاَّ يؤاخذ بشىء أى شىء إلا بالذى كان منه، ليس هناك تلفيق تُهم، وليس هناك تحديد جزاء لذنب إلا بقدر هذا الذنب، حتى كان الجزاء هو الذنب نفسه، كما أشرت إلى سر حذف الباء، وقد جرى فى خاطرى أن تكون هذه الجملة مؤكدة بسبب حذف الباء؛ هذا الحذف الدال على أن الجزاء ليس جزاء العمل، وإنما هو العمل نفسه، والله هو الذى يقول هذا، وهو الحاكم والمجازى ويعلم أن عباده جميعًا فى هذا الموقف يستيقنون أنه لا يظلم شيئًا، قلت إن الاستئناف مشعر بأهمية المعنى الذى استؤنف له الكلام، ثم إنها بدأت باسم الإشارة الدال على تمييز المشار إليه أكمل تمييز، وهو الكتاب الذى هو أداة تطمين المُحَاكم، ثم إن اسم الإشارة، بدأ بهاء التنبيه التى لها هنا دلالة لا تخفى من اللفت والتنبيه، ثم إنه جاء باسم الإشارة الذى للقريب للإشارة إلى قرب الكتاب منهم وأى قرب أقرب من كتاب لازم صاحبه وسجل وَرَصَد كل ما كان منه من قول أو فعل، ﴿**وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا**﴾ [الإسراء: ١٣] ثم إن الكتاب يضاف إلى نون العظمة فيكتسب من الجلال والحق والصدق ما يكتسبه، ثم إن هذا الكتاب المضاف إلى نون العظمة كان فى الآية السابقة مضافا إليهم ﴿**تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا**﴾ فهو كتابى وكتابك لأن الذى فيه عملى وعملك وهو كتاب الله لأن الله هو الذى أمر ملائكته بكتابة ما كان منى ومنك، وحسب هذا الكتاب أنه

من جهةٍ كتابى ومن جهةٍ كتاب الله فمن أى الجهتين لا يمكن أن يدخل عليه أى اعتراض؟ وحسب المرء حياء من ربه أن يكون كتاب ربه عنده مملوءا بالاجتراء على الله، ومملوءًا بالظلم والكذب والنفاق وجملة ﴿يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ﴾ جملة حالية والنطق يمكن أن يكون حقيقة لأن الغائب لا يقاس على الشاهد، ولأن نطق الكتاب ليس أبعد من شهادة السمع، والأبصار، والجلود، كما جاء فى سورة فصلت ﴿وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [فصلت: ٢١] ولا يجوز حمل هذا على المجاز وإلا فقدت آية فصلت أهم ما فيها، وذهب بعضهم إلى أن النطق مجاز عن الدلالة كما قالوا نطقت الحال بكذا بمعنى دلت دلالة ظاهرة كدلالة النطق، وتَعْديةُ النطق بحرف الاستعلاء فيه إشارة إلى إشراب النطق معنى الشهادة.

وكلمة ﴿بِالْحَقِّ﴾ هى الكلمة الجامعة التى ينتهى إليها معنى الجملة ومعنى الجمل التى قبلها وهى المقصودة بالجزاء وبدعوة كل أمة إلى كتابها وهى المقصودة بكتابنا والمقصود بنستَنْسِخ لأن كل ذلك لإثبات وتحقيق الحق، وهذه الكلمة من أكثر كلمات القرآن شيوعا فخلق السموات والأرض بالحق وإنزال الكتب بالحق وإرسال الرسل بالحق، فالحق هو غاية النبوات وغاية الكتب، وغاية البعث، وغاية الجزاء، وغاية الخلق، ويكفى أنه غاية خلق السموات والأرض، وأنه هو العمود الذى عليه استقرار هذا الوجود، وصلاح البلاد والعباد لا يكون إلا به، وفساد البلاد والعباد لا يكون إلا بغيْبَته، وكل شىء فى حياة الناس يقوى ويضعف بمقدار حظه من الحق، وهذه الكلمة من أوسع الكلمات الجامعة للخير كله، ولم أعرف كلمة أوسع ولا أجمع منها لكل خير وكل فلاح.

وقوله جل شأنه: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ موقعها من قوله سبحانه: ﴿هَذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ﴾ كموقع هذه الجملة من التى قبلها

﴿الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فهى من جهة مؤكدة لها لأن استنساخ ما كانوا يعملون فى هذا الكتاب توكيد لنطقه بالحق، وقد بُنِيت على الاستئناف كما بنيت الجملة التى قبلها، ولكنها زدات التوكيد الداخل على ضمير العظمة وأن الحق سبحانه هو الذى يؤكد، وقوله من محض الصدق لا ريب فيه، وإنما كان التوكيد للدلالة على العناية بالمعنى، وأن المعنى غريب، وكل غريب يرد على النفس تحتاج النفس بفطرتها إلى توكيده مهما كان صدق الخبر لأن هذا من طبع النفوس. ثم إن التوكيد مُنْصَبٌّ على إسناد الاستنساخ إلى ضمير الحق جل وتقدَّس، وأنه سبحانه بيده يستنسخ عملى وعملك فاحذر أن تكتب يد الله فى الكتاب الذى هو كتابك وكتاب الله شيئًا يجعلك تستَحِى من الله حين تلقاه، لا شك أن الذى يكتب هما الملكان ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ٨] وأن كل نفس لما عليها حافظ، ولكن الحق أسند الكتابة إلى نفسه، أولا لأنها بأمره، وثانيًا لمزيد العناية بهذه الكتابة، وبهذا الكتاب لأنه مكتوب بيد الله، وثالثًا لإشعار العبد الذى تكتب أعماله بالحذر والتوخى وأن لا يرسل نفسه على سجيتها، وبغرائزها، وأهوائها وشهواتها، وأن يَنْتَقِى من الأعمال أفضلها وأكرمها، لأن الله جعله خليفة فى الأرض وراقبه بنفسه سبحانه، وها هو يكتب ما يقول وما يفعل، وكل ذلك له ماله عند المؤمن والكافر؛ لأن الكافر بين يديه من الأدلة ما إن تأملها ارتدع، ورجع، ثم هو إن لم يعلم هذا وهو حى سيعلمه ساعة أن تتوفاه الملائكة بضرب وجهه، وقد أسند فعل كتابة الأعمال وإحصائها إلى الحق سبحانه فى الكتاب كثيرًا كما فى قوله تعالى: ﴿سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا﴾ [مريم: ٧٩] وكما فى قوله جل شأنه ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا﴾ [النبأ: ٢٩].

وكلمة ﴿نَسْتَنسِخُ﴾ قال بعض علمائنا من معانيها الدلالة على الكتابة الأُنُف وليست فقط الكتابة المنسوخة من كتاب، ونستنسخها معناها نستكتبها، وقالوا النسخ لا يكون إلا من كتاب وأن الكتاب الذى استَنْسَخَ منه الملائكةُ هو

اللوح المحفوظ، وفيه كل ما كان ويكون من ولد آدم، قال ابن عباس: إن الله وكَّلَ ملائكة ينسخون من أم الكتاب فى رمضان كل ما سيكون من أعمال بنى آدم، وكلمة ﴿مَا﴾ فى قوله تعالى: ﴿مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ يجوز أن تكون مصدرية أى عملكم وأن تكون موصولة، حذف عائدها أى الذى كنتم تعملونه؛ وهى مفعول به لنستنسخ، وظاهر العبارة يفيد أن الاستنساخ واقع على العمل يعنى أنهم يستنسخون العمل وليس الحديث عنه أو وصفه وكأن العمل يتحول إلى حروف هى التى فى هذا الكتاب الذى ينطق عليهم بالحق، وهذا يلاقى حذف الباء فى قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ وكل هذا تدقيق فى تحرى الحق فى المحاسبة والجزاء، فالله سبحانه هو الذى يكتب بيمينه، والكتابة هى ذات العمل، وليست خبرًا عنه، وكلمة ﴿كُنتُمْ﴾ فى قوله جل شأنه ﴿مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ تفيد أنه كان من شأنهم ومن مألوف سلوكهم وأنهم اعتادوا ذلك وزاولوه وصار جزءًا من سلوكهم، لأن كلمة كان فى مثل هذا المقام تفيد أن خبرها صار جزءًا من ماهية اسمها، وكان البقاعى يختصر هذا المعنى ويقول: أى عملكم الذى أنتم عريقون فيه، وهذا لا يعنى أن الكتاب لا يُكتب فيه إلا هذا الصنف من أعمالهم، وإنما يُكتب فيه كل ما يكون منهم، قال سبحانه فى سورة الكهف ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩] ولاحظ هنا أيضًا ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا﴾ يعنى وجدوا العمل نفسه حاضرًا وَضَعَهُ بإزاء ﴿نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ و﴿الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ وراجع ما وراء ذلك من فرط التَّحرِّى والتدقيق فى إقامة العدل فى القضاء والمحاسبة وكيف يُوفِّر الحق كل ضمانات العدل لمن يحاكم ولو كان من أشد أعداء دين الله، ومن أشد المعاندين والمحاربين، والمحادين لله، وهذا من أعظم المعانى وأشدها

أثرا فى نفسى، لأنى أشاهد الظلم المبين من الكذبة الذين يبعدون دين الله عن حياة عباده فى نظام السِّيَاسَةِ والحكم. وأعود إلى رأس الآية وأبين أن هذه الجملة المستأنفة والتى بُنِيتْ على التوكيد جاءت عقب جملة ﴿هَذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ﴾ لتبين وتوثّق ما جاء فى هذا الكتاب الناطق بالحق، وكيف يكون ناطقًا بالحق وما مصدر الحقائق التى ينطق بها، ويشهد علينا بها، أقول جاءت الجملة لتقول إن الذى فى هذا الكتاب كتبته يد الله والذى فيه هو عملكم، سواء كان استنساخًا من اللوح المحفوظ أو كان كتابة تتابع أقوالكم وأفعالكم من ملائكة الله الموكلين بذلك، وهكذا تجد هذه الجمل الثلاثة: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ﴿هَذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ تتتابع لتؤكد عدالة الحكم وسداد القضاء.

وبهذه الجمل الثلاثة انتهى هذا الموقف، وذهب أهل الجنة إلى الجنة وأهل النار إلى النار، والباقى فى السورة هو آيات بَيَّنَتَ لأهل النار أعمالهم التى أفْضَت بهم إلى هذا المصير، ولم يحدث أى كلام مع أهل الجنة.

وهذه الصورة من أول قوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ لا تستطيع وأنت تَدَبّرها أن تصرف عن نفسك صورة هى من أقرب صور القرآن إليها وهى ما جاء فى آخر الزمر، ولما راجعت الصورتين وجدت كل واحدة منهما مبتدئة ببيان عز الألوهية المتمثل فى الجاثية فى قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ والمتمثل فى الزمر فى قوله تعالى: ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ [الزمر: ٦٧] وكانت هاتان الآيتان الدالتان على بسط سلطانه سبحانه فى ملكه مَدْخَلاً لذكر أحوال القيامة، وكأنها شهادة متقدمة لقدرته على الإحياء والجمع والحساب والجنة والنار؛ وكأنها جعلت بسط سلطانه على الشاهد الذى نحن فيه برهانًا على بسط سلطانه على الغائب الذى آمنا به،

بالاستدلال وليس بالحس، ووجدت فى الصورتين عناية شديدة جداً بتوفير ضمانات العدل، مع أن الذى سيحاسبُ هو الله والذين سيحاسبون هم عبادُهُ، وهو لا يسأل عما يفعل وأرى فى مثل هذا إشارة حاسمة إلى ضرورة أن نراعى ذلك نحن، لأن العدل هو الذى يستقيم به كل حال، والظلم والجور هو الذى يُهدم به البُنْيانُ وهذا هو سر الهدم الذى نحن فيه، قلت إن هذه الضمانات توافت فى الزمر فى صورة وتوافت فى الجاثية فى صورة أخرى، هى فى الزمر تراها ناصعة فى قوله تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ﴾ [الزمر: ٦٩] وكانت هذه الجملة كافية وشافية، لأن نور ربها الذى أشرقت به الأرض وأضاء ربنا به الظلمات، هو نور العلم، ونور الإيمان، ونور العدل، والعلم عدل، والإيمان عدل، ولكن الآيات لم تكتف بهذا وإنما ذكرت وضع الكتاب، وجىء بالنبيين والشهداء، وليس له نظير فى الجاثية، وبدلاً من ذكر النبيين والشهداء ذكرت الجاثية الكتاب وذكرت أنه ينطق بالحق، وأن ما نطق به مما هو فيه مُوَثَّق جداً لأن الله سبحانه استنسخه بيمينه، وقوله تعالى فى الزمر ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [الزمر: ٧٠] هو قوله سبحانه فى الجاثية ﴿الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ وقوله سبحانه فى الجاثية ﴿ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ﴾ هو قوله سبحانه فى الزمر ﴿فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨] والزمر ذكرت مقطعا هو مفاجأتهم وقيامهم من القبور واكتفت بذلك، والجاثية سكتت عن هذه اللحظة، ووصَفَتْ ما بعدها وهو جمعهم، وإذا وضَعْتَ ﴿فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ التى فى الزمر بإزاء أختها فى سورة يس وهى قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ [يس: ٥١] رأيت كلمة ﴿فَإِذَا هُم﴾ الدالة على المفاجأة واحدة، وفى الزمر ﴿قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ وليس هناك إلا هذا، وفى يس ﴿فَإِذَا هُم مِّنَ الأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ وهذا بيان آخر لأن الآية بدأت الطريق من أوله، وأوله

الأجداث ثم هم ينسلون أى يسرعون إلى ربهم ولم تذكر لحظة قيامهم، وإنماعرضتهم أول ما عرضتهم بعد المفاجأة وهم يسرعون إلى ربهم، ثم إنهم فى يس كأنهم بعثوا متوجهين إلى ربهم، ولما استوعبوا الموقف قالوا: ﴿يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ [يس: ٥٢] وهذا كله طوى فى الزمر، وفى الجاثية، والزمر رصدت قيامهم ينظرون، والجاثية رصدت جمعهم إلى يوم القيامة ويس رصدت خروجهم من الأجداث ينسلون أى يسرعون إلى ربهم وهذه صور كلها تتكامل وفروق كأنه تفاريق ضياء يجب أن يضاف بعضها إلى بعض حتى تكتمل الصور عندنا، وأعود وأقول إن خروجهم من الأجداث يسرعون إلى ربهم يعين على فهم ما جاء فى سورة القمر: ﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ۝٦ خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾ [القمر: ٦، ٧] الآيتان تتناولان لحظة واحدة هى الخروج من الأجداث ويس تقول: ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ والقمر تقول ﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾ والجراد المنتشر يعين على فهم السرعة التى فى قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ وإن كانت سرعة مفزوعة متخبطة، والقمر تضيف شيئًا ليس فى يس، وهو ﴿خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ﴾ وهو ظاهر فى الجاثية، وفى سورة المعارج صورة قريبة جداً من الصورة التى فى القمر وهى قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ۝٤٣ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِى كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ [المعارج: ٤٣، ٤٤] الخروج من الأجداث هو رأس الصورة فى القمر والمعارج ثم هو فى القمر جراد منتشر وفى المعارج إلى نصب يوفضون، ويوفضون معناه يسرعون والنصب الأصنام التى نصبوها وعظموها، ولم أفهم سر هذا التشبيه إلا أن يكونوا بُعثُوا على ما ماتوا عليه، فمن مات وهو يعظم النصب خرج من قبره مسرعًا إلى ربه

كما كان يسرع نحو نصبه، وجل سبحان ربنا وتقدّس، ومن مات وقلبه مطمئن بالإيمان بعث وهو لا يخاف ولا يحزن. وظاهر جداً أن هذه التفاريق الموزعة فى الكتاب يُتمُّ بعضها بعضا ويفسر بعضها بعضًا وأن الذين نزل فيهم الكتاب كانت قدراتهم البيانية تعينهم على جمع هذه التفاريق وبناء الصور المتكاملة منها، وأن هذه الصورة عندهم لها أول وهو ﴿فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨] ثم يأتى بعدها ما يكون من تمامها من مثل ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ ثم يتنوع هذا الذى هو من تمام الصورة فنرى فريقًا كأنهم جراد منتشر، وفريقًا كأنهم إلى نصب يوفضون، وهكذا كل ما جاء فى الكتاب والسنة فى هذا الباب حتى تكتمل الصورة عندهم رضوان الله عليهم.

وظاهر أيضًا أنه لا يمكن أن تضع ﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾ مكان ﴿إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾، لأن كل صورة من هذه الصور هى من تمام نسيج السورة التى جاءت فيها وهى لبنة من اللبنات التى بُنِيَتْ منها السورة؛ لها شكلها ولها لونها الذى تدخل به فى بناء هذه السورة، ولا تدخل به فى بناء غيرها، وهذا ظاهر والذى ليس بظاهر هو البحث عن العلة لماذا جاء الجراد المنتشر فى القمر، ولماذا لا يوضع مكان الذى فى يس أو الذى فى المعارج ولماذا وقفت الزمر عند ﴿فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾؟ وبَحْثُ هذا والوصول إلى أسراره الصحيحة والمقنعة، يكشف بابا من أبواب أسرار البيان القرآنى، وليس من الوفاء للكتاب العزيز أن يبقى غامضًا وأن تقرأ كل صورة من هذه الصور فى موضعها، من غير أن تكتمل عندنا الصور، ومن غير أن تعرف سر مجىء هذه هنا، ومجىء الأخرى هناك، وبقاء هذا غامضًا أفضل من أن يتعرض له من لم يمتلك أداة بحثه، وأكتب هذا وأنا فى السن العالية، وهو علىّ صَعْبٌ جداً ولا بُدَّ أن يُوجَدَ المنقطعون للبحث والمؤهلون الصادقون، وسيوجدون يوم أن يحكم البلاد من وجدوا يوما ريح العلم ويوم أن يترفَّع من وجدوا ريح العلم عن أن يكونوا خدما لمن لم يجدوا ريح العلم.

ذكرت أن صورة ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾ لم تذكر إلا فى هذه السورة وسألت لماذا وجدت هنا وقلت إن الجواب صعب جداً، ولا يتأتى لنا أن نتكلم فيه إلا على وجه المقاربة، لأن هذا مما لم يَحُمْ أحد حوله كما كان يقول علماؤنا وإذا رأيتنى أفتح الكلام فيما لم يحم أحد حوله فاعلم أن غايتى أن يُفْتحَ هذا الباب من أبواب أسرار البيان القرآنى وما دمنا نَتحَرَّى الصوابَ الذى هو مراد الحق ونجتهد فى ذلك ولا نقصر فلا حرج من الخطأ لأن الله سبحانه يثيب من اجتهد فأخطأ، وذلك لأن خطأ المجتهد غالبًا ما يكون سبيلا إلى صواب مجتهد يأتى بعده فهو الخطأ القائد إلى الصواب، أو هو الخطأ الذى نعتبره علامة مضيئة على طريق الحقيقة.

والذى يبدو -والله أعلم- أن مشهد الأمم الجاثية هو أظهر مشاهد القرآن وأقواها فى الدلالة على غاية الخضوع والضراعة، والانقياد والاستسلام ، وكل المشاهد التى ذكرت من يوم القيامة أحوال الناس فى المُدَّةِ التى بين الخروج من الأجداث والحساب الذى يتبعه الانصراف إلى الجنة أو النار لم أعرف منها مشهدا يزيد على مشهد الأمم الجاثية فى التذلل والخضوع، والانكسار والاستسلام، وراجع الصورة وتأملها وتأمل سعتها، وأن كل الأمم من يوم آدم إلى أن ينفخ فى الصور لم يتخلَّف منها فرد وهم على الحالة التى وَصَفَتْ كلمة ﴿تَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا﴾.

ولابد أن تفرق بين خضوع واستسلام عباد الله الصالحين الذين يجدون لذة فى هذا الخضوع، وهذا الاستسلام، وخضوع المستكبرين والذين يعالجون الإحساس بالمهانة والندم، وقد راجعت صور القرآن التى عرضت أحوال الناس فى هذا الوقت وأقرب الصور إلى صورة الجاثية الصورة المذكورة فى سورة إبراهيم فى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا

يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ (٤٢) مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ ﴾ [إبراهيم: ٤٢، ٤٣] وقرب هذه الصورة من صورة الجاثية ليست قربا فى الهيئة لأن الهيئة لم ترد إلا فى الجاثية وإنما هى قريبة فى الذل والخضوع، والمهطعون المسرعون والمقنعو رؤوسهم هم الذين يرفعونها لأنهم ينظرون أمامهم مسرعين فى إجابة الداعى، وهذه الصورة أشبه بصور القمر كأنهم جراد منتشر أو أشبه بصورة المعارج ﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ (٤٣) خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ﴾ [المعارج: ٤٣، ٤٤]، لأن الحركة السريعة والتوجه من الأجداث إلى يوم الجمع جامعة بينهم جميعًا وهذا بخلاف الجاثية لأنه لا حركة فيها وإنما هم راكعون مستوفزون ضارعون منكسرون.

وهذه الحالة الخاصة بالسورة والتى جاءت فى أول نهايتها دعت إليها واقتضتها صورة مقابلة لها وجاءت فى أول البداية من السورة وأعنى الآيات الثلاث التى افتتحت بها السورة وأنها من أجلى آيات الله وأدعاها إلى الإيمان وأن الحق عقب عليها بكلمة هى وحدها آية وذلك قوله تعالى: ﴿ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ ﴾ ثم تأتى صورة الأفاك الأثيم الذى انصرف عن آيات لا ينصرف عنها من برئت فطرته لأنه لا يؤمن أحد من الناس على آيات أبين منها، وتصور الآيات هذا الأفاك الذى يكذب على نفسه وأن الذى وراء إفكه وصرفه هو الاستكبار، ولم أعرف الاستكبار فى الكتاب العزيز سبق بآيات هى جديرة بمحوه كما سبق استكبار الأفاك الأثيم بهذه الآيات الواردة فى أول السورة وهذا يعنى أن استكبار هذا الأفاك الأثيم بلغ الغاية فى العُتُوِّ وبلغ الغاية فى الغُلُوِّ فقوبل هذا الذى لا نظير له فى الكتاب بصورة الانكسار والتذلل والخضوع والجثو على الركب التى

لا نظير لها فى الكتاب، والصورة الأولى هى التى أنتجت الصورة الثانية، التى هى انقلاب كامل لصورة المستكبر المستهزئ بآيات الله، هذا والله أعلم.

ولا يعكّر على هذا الذى قلته أن الجاثين منهم كل عباد الله الصالحين بدليل قوله سبحانه بعد هذا ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ﴾ وذلك لأن هؤلاء الصالحين قالت لهم الملائكة وهى تتوفاهم ﴿سَلامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٤] وقالوا لهم ﴿أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠] فهم آمنون من العذاب آمنون من الخوف مستبشرون بما بشروا بهم، بخلاف المستكبرين فهم الذين يواجهون الذل والمسكنة والانكسار بمقدار ما واجهوا الدعوة إلى الله بالعتو والطغيان والاستكبار وقمع المتمسكين بشرعه والداعين إلى تحليل حلاله وتحريم حرامه. ومما يرجح ما قلته من أن عتو الأفاك الأثيم وبلوغة الغاية فى الاستكبار والطغيان بعد ما رأى أبلغ الآيات قلت هذه الصورة هى التى أنتجت ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾، يرجح ذلك أن أهل النار الذين هم الأكثر فى آية ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾، والذين عالجوا الذل والانكسار أول ما قيل لهم وهم يساقون إلى النار ﴿أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ وأن القائل هو الله صاحب الآيات البينات وليس الملائكة كما فى الزمر مثلا وهذا يعنى أن الذل الذى صاروا إليه هو ثمرة الاستكبار الذى كان منهم، وجملة ﴿آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ﴾ مرتبطة بجمله ﴿يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ وتكرار الكلمات فى الآيتين شاهد لذلك ومنبه إليه، وكأنه علامة تقول لنا ارجع بهذا الذى هنا إلى الذى هناك، هذا والله أعلم.

قوله سبحانه ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾ [الجاثية: ٣٠].

هذا تقسيم بعد جمع، والجمع فى ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾ وهذه الأمم فريقان فريق فى الجنة وفريق فى السعير، وهذا هو فريق الجنة وتصنيف الناس بعد الحساب إلى قسمين كثير فى الكتاب العزيز، ويقدم أهل الجنة مرة كما هنا ويقدم أهل السعير مرة كما فى الزمر التى سيق فيها الذين كفروا إلى جهنم أولا، ثم جاء ذكر سوق الذين آمنوا إلى الجنة ثانيا، وبيان سر ذلك لا يؤسس إلا على الفهم الدقيق لسياق الآيات، ولا يصح أن يلقى فيه الكلام على عواهنه والذى أراه هنا هو أن جمع الذين آمنوا والذين كفروا فى الأمم كلها فى حالة واحدة وأن البر والفاجر جاث على ركبتيه مستوفز ينتظر الحساب، أقول هذا الجمع يشغل بال القارئ بالذين آمنوا وأنهم فى هذا الموقف يكون حالهم كحال الكفرة الفجرة، فبادرت الآيات بذكر فوزهم المبين، وقد ترى أنهم مع هذا أشرف الفريقين فقدموا لشرفهم، وقد ترى أيضًا أن الحديث والحوار ليس معهم، وإنما مع فريق السعير سواء ما كان قبل الحساب، أو ما كان بعده، فالذى قبل الحساب قولهم ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ والذى بعد الحساب ما ستراه من مناقشات الآيات لهم وهم فى السعير وتذكير الآيات لهم بما قاله لهم ربنا وهم فى فسحة من الوقت: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٦٤].

ولك أن تقول أيضًا إن السورة معقودة فى كثير من آياتها على بيان نموذج الأفاك الأثيم فهو الذى لا يرجو أيام الله، وهو الذى اتبع هواه، واتخذ إلهه هواه إلى آخره، وذكر الصالحين فى السورة جاء لمعا سريعة كما فى قوله تعالى ﴿إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾، ﴿قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ﴾ فبادرت الآية بذكرهم ذكرا مختصرًا ليتفرغ الكلام للفريق الذى انعقد أكثر السورة على بيانه.

هذا فى بيان سر موقع الآية وتقدمها، وهذه الفاء الداخلة عليها قال الشيخ الطاهر -جعل الله له لسان صدق- إنها تعطف ما بعدها على قوله تعالى ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾، ويلاحظ أن ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾ معطوف على قوله سبحانه ﴿يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ﴾ وداخل فى حكمه الذى هو الظرف والمعنى ويوم تقوم الساعة بخسر المبطلون وترى كل أمة جاثية والذين آمنوا وعملوا الصالحات يدخلهم ربهم فى رحمته، لأن كل هذه الأحداث واقعة يوم تقوم الساعة وسيدخل فيها أيضًا الذين كفروا وسؤال الحق لهم ﴿أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ﴾ إلى آخر ما جرى من بيان معاصيهم التى أفضت بهم إلى النار وتركهم فيها ترك المنسى المهمل إلى آخر السورة، ولهذا تستطيع أن تقول إن يوم تقوم الساعة هو الظرف والوعاء الذى دخلت فيه كل الأحوال المذكورة، فى هذا الجزء الأخير من السورة؛ وأن السورة بدأت بآيات الله تتلى عليهم وانتهت ببيان الفريقين المؤمن والكافر وأن هذا وجه من وجوه رد العجز على الصدر وسوف تتضح لنا مسائل أكثر ظهورًا فى هذا الرد الذى لم تره يتخلف فى أى سورة درسناها أو راجعناها فى قراءتنا وراجع الأحداث الثلاث الأساسية الداخلة فى ظرف يوم تقوم الساعة وتأمل أحوالها تجدها على الترتيب المذكور فى الآيات: ١- ﴿يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ﴾، ٢- ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾، ٣- ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ وما بعدها، وأول شىء تلاحظه فى هذا الترتيب أن الآيات بادرت بذكر يخسر المبطلون، وقدمته عن موقعه لأن خسارة المبطلين مفصلة وموضحة فى قوله تعالى ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾، وإنما بادرت الآيات بذكرها لأن السياق سياق رد على الذين قالوا ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ وقد قوبلت المبادرة بذكر خسران المبطلين قبل موقف الحساب بالمبادرة بذكر الذين آمنوا وعملوا الصالحات بعد موقف الحساب، ثم إنك تلاحظ مع هذا التقديم والتأخير المتبادل بين فريق الجنة وفريق السعير، حذفا طوى كثيرًا جداً من

الأحداث، لأن عطف قوله تعالى ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ على ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾، يطوى وراءه الكثير لأن الذين آمنوا لم يدخلوا رحمة الله بعد موقف جُثِيِّ الأمم، لأن هذا الجثىّ كان للحساب، وقد بين لهم ربهم جل وتقدس أنهم لن يظلموا فى شىء قط وإنما يجازون عملهم، وأن كتابهم ينطق عليهم بالحق، وأن الله سبحانه كان يستنسخ ما كانوا يعملون، وهذا كلام جليل جداً؛ أولا لأنه سبحانه لا يسأل عما يفعل ولأن كل هؤلاء المحشورين من الأمم كلها يعلمون أنه سبحانه وتعالى لا يظلم أحدًا شيئًا وإنما القيمة العليا فى هذا الكلام هى أن الله سبحانه حرم ظلم الظالم وأكد على حرمته وأوجب ألا يزاد فى مجازاته عن الذى فعل شيئًا أى شىء وضع هذا بإزاء ما نحن فيه، وأنا أكتب هذا والأمن فى مصر المحروسة يهدم بيوت المشتبه فيهم فى أرض سيناء التى هى درعنا الشرقى، أقول إن هذا المشهد الحافل لم يكن هو الحساب وإنما كان الإعداد له، ولم تذكر الآيات شيئًا عن الحساب الذى يحاسب فيه ناس حسابا يسيرا ويحاسب آخرون حسابا عسيرا، ويأخذ هذا كتابه بيمينه ويقول ﴿هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ﴾ ويأخذ هذا كتابه بشماله ويقول ﴿يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ﴾، وتثقل موازين هذا وتخف موازين غيره وغير ذلك مما فصلته الآيات والأحاديث الصحيحة، كل هذا طوى هنا وأكد الكلام على أشياء الأول الجثى الذى فيه غاية الخضوع وغاية التذلل، والثانى تأكيد العدل المطلق الذى أقام الله عليه السموات والأرض، الثالث انصراف فريق الجنة إلى الجنة وفريق السعير إلى السعير، وهذا مشهد لو قارنته بغيره لوجدت تقاربا وتباعدا واتفاقًا واختلافًا ولوجدت أيضًا غبطة عالية حين توفق وتصل ما ترى من فروق بسياق الآيات وكلمة «أما» التى افتتحت بها الآية تفيد التفصيل والتوكيد قال الزمخشرى: تقول زيد منطلق فإذا أردت أنه لا محالة منطلق قلت أما زيد فمنطلق، والتفصيل فى الآية ظاهر لأنها بداية الحديث المفصل عن مشهد الأمم كلها البر منها والفاجر، والتوكيد توكيد لإسناد الخبر إلى المبتدأ أى الذين آمنوا وعملوا الصالحات يدخلهم ربهم فى

رحمته قطعا، وهذا التوكيد وحده نعمة من نعم الله وفضل من فضله سبحانه، وعطف جملة ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ على جملة ﴿آمَنُوا﴾، وهما معا صلة الموصول يفيد أن هذا الوعد الكريم للذين جمعوا الأمرين الإيمان والعمل الصالح، ويرى المعتزلة أن دخول الرحمة معلق على أمرين الإيمان والعمل الصالح، وأنه إذا افتقد أحدهما لم يترتب عليه ما علق عليه، لأن المعلق على أمرين يكون عدمًا عند افتقاد أحدهما، وهذا مذهبهم من أن الإيمان وحده لا ينجي وإنما لابد من العمل الصالح مع الإيمان، ويرى أهل السنة خلاف ذلك، والآية تذكر الكامل الذى جمع بينهما، والفاء التى فى قوله سبحانه ﴿فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ﴾» هى الفاء الواقعة فى خبر أما، وجمع الصلة بين الإيمان والعمل الصالح يشير إشارة ظاهرة، إلى وجه بناء الخبر، وأن الخبر من جنس النعم، والثواب الحسن والرضى من الله على هؤلاء الذين جمعوا بين أكرم أمرين يجمع بينهما المهتدى الصالح، وهما الإيمان والعمل الصالح، والمضارع فى قوله سبحانه ﴿يُدْخِلُهُمْ﴾ فيه إشارة إلى أن الرحمة التى يدخلونها يتجدد عطاؤها، ويتجدد لهم فيها نعيمها، وأنها كذلك أبدا يعنى المسرة فيها متجددة والنعيم فيها متجدد، وفى إسناد يدخلهم إلى ربهم معنى كريم جدا، وأن ربهم الذى رباهم وأنعم عليهم، وحفظهم وهداهم وأعطاهم فى الدنيا النعم التى لا تحصى هو بذاته وجلاله، يدخلهم رحمته بيده جل وتقدس، وأن رعايته لهم فى الدنيا مستمرة لهم ومعهم فى الآخرة، وهذا إكرام ليس بعده إكرام، وحين يكرمك ربك بالجنة فهذا عطاء عظيم، وحين يدخلك بنفسه دار كرامته يكون إكرامًا آخر، ومن أجل هذه الإشارة الكريمة من إكرام الله للذين جمعوا الإيمان والعمل، والذين هم الكاملون التفتت الآية أو قل لفتت حين انتقلت من طريق التكلم فى قوله تعالى ﴿هَذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ إلى طريق الغيبة لأن هذا الانتقال يكون فى مقاطع من المعنى لها فى سر البيان

سر، وإضافة الرب إليهم فيه دلالة على اقتراب الله من عباده الصالحين وأنه سبحانه يرضاهم ويرعاهم، ثم إنك تجد فرقا ظاهراً بين هذه الآية، المختصرة وبين أختها التى فى الزمر ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا﴾، وأن الملائكة هناك تتولى أمرهم وتقول لهم أكرم ما يقال ﴿سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣] وهذا وإن كان تكريما بالغا فإن الذى هنا شيء آخر، وهو أن ربهم يدخلهم بعزه وسلطانه وجلاله فى رحمته، وأنه سبحانه يفعل ذلك بنفسه وإن كان يؤول الأمر إلى أن ملائكته هم الذين يفعلون بأمره، وإنما أعالج لفظ الكتاب، وكلمة ﴿فِي رَحْمَتِهِ﴾ يقول علماؤنا هذا مجاز مرسل أطلق فيه الحال الذى هو الرحمة على المحل الذى هو الجنة، والمراد بالرحمة هنا الجنة، وهذا جيد ويوجب علينا من أجل أن نحسن فهم الكلمة المفردة ﴿رَحْمَتِهِ﴾ أن نراجع ما فى الجنة مما هو داخل فى الرحمة، وأنهم فى مقام أمين، يلبسون من سندس، وإستبرق، متقابلين، وأنه يطوف عليهم ولدان مخلدون وأنك إذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيراً إلى آخر الآيات التى تحدث عن نعيم أهل الجنة، وكل ذلك مطوى فى كلمة ﴿رَحْمَتِهِ﴾ ومن حق كلمة الله عليك أن تتعرف على ما تنطوى عليه وإن فاتك الإلمام بكل ما فيها فلن يفوتك بعض ما فيها، ومما يثير انتباهك إلى ما تنطوى عليه كلمة ﴿فِي رَحْمَتِهِ﴾ اسم الإشارة ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾ والجملة أولا بنيت على القطع والاستئناف، وهذا فيه دلالة ظاهرة على أهمية المعنى الذى بنى له الكلام على هذا القطع، وهذا الاستئناف، ثم بدأت باسم الإشارة الدال على تمييز المشار إليه أكمل تمييز، وهذا لا يكون إلا لمزيد من العناية بالمشار إليه والمشار إليه هنا هو ﴿فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ﴾ لأنه هو معقد المعنى فى الجملة قبلها وهو المطلوب تمييزه أكمل تمييز، لأن غرض الكلام معقود عليه، ولذلك قلت إن مجىء هذه الجملة مشير إلى ضرورة إثارة المعانى التى فى الظرف ﴿فِي رَحْمَتِهِ﴾ والجملة بنيت على القصر الذى

طريقه تعريف الطرفين والذى أكده ضميـر الفصل، ومعناه قصر الفوز العظيم على ذلك الذى هو الدخول فى رحمة ربـهم، وعليك أن تتأمل لأن البلاغة لا تضع المعنى الرائع بين عـينيك، وإنما تفتح الباب لذلك، وتزيل الغـشاوة والغطاء والسِّتـر وأنت الذى تتأمل، والنظم الذى يرجع إليه الإعـجاز ليس إلا هذا، أعنى فتح الباب وكشف الغطاء، وأنت الذى تدرك ما وراء ذلك من الإعجاز، وإذا فهمنا أن الإعـجاز ناشب فى علم النظم فنحن موهومون، لأن الإعجـاز فى كلام الله والنظم ليس إلا إزالة السـدود التى فى طريق الدلالة، فمن أزال السـدود ورفع يده لم يفعل شيـئًا، وإنما عليه بعـد إزالة السدود أن يجتهد أكثـر وأكثر حتى يدرك فقه علم النظم ويجعلك فى مـواجهة الإعجاز ويقربه منك، ولا يضع يدك عليه.

قوله تعالى ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ [الجاثية: ٣١].

هذه الآية معطوفـة على الآية التى قبلهـا والآية التى قبلها مـعطوفة هى وما عطف عليها على ﴿تَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ﴾ و﴿تَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ﴾ وما عطف عليها معطوفة على ﴿يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ﴾ وهذا العطف من أهم ما يدلنا على روابط الكلام، وإمساك بعضه ببعض، وأما هذه تفـيد توكيد إسناد الخبر إلى المبتدأ، والخبر هنا محذوف وأصل الكلام وأما الذين كفروا فيقال لهم لأن قوله تعالى ﴿أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ لا يصح أن يكون خبـرًا لأنه إنشاء والإنشاء لا يخبر به وذلك لأن الأصـل فى الخبر أن يكون معلوما قـبل التكلم، وجاء الكلام لا ليدل على وجـوده وإنما ليدل على إسناده، فقـولنا زيد منطلق؛ زيد معلوم قبل الكلام وكذلك منطلق، وجـاءت الجملة لتشير إلى إسناد الانطلاق إلى زيد؛ لا لتفـيد وجود الانطلاق، ولما كان هذا هو الأصل فى الخـبر وكان الإنشاء ليست له نسـبة خارجية تطابقه أو لا تطابقـه وإنما يوجد بالكلام امتنع

فى كلامهم الإخبار بالإنشاء، وهذا من منطق اللغة المستقيم جداً، فالتأكيد المستفاد من أما يعنى توكيد أنهم يقال لهم ذلك، وتوكيد أنه يقال لهم ذلك لا مرجع له إلا توكيد المقول وهو أفلم تكن آياتى تتلى عليكم، وكان المتوقع أن يقابل دخول الذين آمنوا وعملوا الصالحات فى رحمة ربهم بدخول الذين كفروا فى عذاب ربهم كما هو الشأن فى آيات كثيرة ومنها آية الزمر، وإنما عدل هنا إلى ما جاءت عليه الآية لأن المقصود الأهم ليس هو الإخبار بعذابهم، وأنهم يسحبون فى النار على وجوههم، أو أنهم يذوقون مس سقر، وإنما المراد بيان الذى رمى بهم فى النار، وليس بيان عذابهم فى النار، وفى الآية إشارة واضحة إلى أنهم فى العذاب، وأول ذلك سياق الآية السابقة التى انتقلت بالفريق المقابل إلى رحمة الله، وهذا يُفْهم منه أن هذا الفريق الآخر صائر إلى ضد ما صار إليه الفريق الأول، ثم وهو أهم قوله تعالى ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ﴾ يعنى فى العذاب، والخلاصة أن دخولهم فى جهنم مدلول عليه دلالة ضمنية، أما الحديث عن أسباب دخولهم فهو الكلام الذى بنيت عليه الآية، وأول ما ألاحظه فى ذلك هو أن الآية تقول إن الأصل الذى أفضى بكم إلى ما أنتم فيه هو أنكم كنتم إذا تليت عليكم آياتنا استكبرتم، وهذا أبرز صفات الأفاك الأثيم، وقلت إن الكلمات تكررت وأن هذه الآية راجعة إلى آية الصدر وأن هذا من رد العجز على الصدر، وأن هذا مما يرجح ما استخرجته من سر مجىء صورة الأمم الجاثية فى سورة الجاثية والتى سميت السورة باسمها أى بهذه الصورة لأن السورة بنيت عليها، ثم إن الأمر الثانى الذى أفضى بهم إلى هذا المصير الذى سكتت الآيات عن تفاصيله هو أنهم إذا قيل إن وعد الله حق والساعة لا ريب فيها أنكروا ذلك وقالوا ما الساعة؟ وهو هو المذكور فى قوله تعالى ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ﴾ وهذا يعنى أن ما قيل لهم وهم فى النار أو وهم يساقون إلى النار هو الذى قيل لهم على ألسنة أنبيائهم وفى كتب الله المنزلة عليهم؛ وما فى السورة أولا هو الذى فيها آخرا وما قيل لهم وهم فى

الأولى الفانية هو الذى قيل لهم وهم فى الآخرة الباقية، وهذا جيد ودال دلالة ظاهرة على الهيئة الكلية لبناء السورة وهذان طرفاها وما عليك إلا أن تراجع الكلام الذى وصل طرفها الأول بطرفها الثانى.

ومما يدلنا على العناية الشديدة بمقول القول حذف القول الذى هو مقوله يعنى لم يقل جل شأنه وأما الذين كفروا فيقال لهم، لأن هذا الحذف يشعر بالانتقال السريع إلى المقول لأنه هو الأهم، والذى خاطبهم بهذا هو الله بدليل قوله ﴿آيَاتِي﴾ والهمزة فى قوله ﴿أَفَلَمْ تَكُنْ﴾ للإنكار ودخلت على الفاء التى تقع فى خبر أما يعنى هى الفاء التى كانت تكون مع الخبر لو ذكر أى فيقال لهم ألم تكن، والإنكار إنكار للنفى، وإنكار النفى إثبات، ويؤول المعنى إلى قولنا كانت آياتى تتلى عليكم فاستكبرتم، وفضل ما جاءت عليه الآية أن الاستفهام دعاهم إلى أن يعودوا إلى أنفسهم، وأن يسألوها هذا السؤال لتقر لهم نفوسهم؛ أو ليجدوا الإقرار داخلهم، وأنهم هم الذين فعلوا ذلك لما تليت عليهم آيات الله البينات فاستكبروا، وتحتمل هذه الهمزة أن تكون للتقرير، أى لحمل المخاطب على أن يقر بما يعرفه من مضمون الحكم الذى دخلت عليه الهمزة، وهو أنه كانت تتلى عليهم آيات الله فيستكبرون والآية تَحْتَمِلُهما، لأن الأسرار البلاغية تتكامل، ولا تتزاحم، ويلاحظ أن الكلام فى هذه الجملة انتقل من الغيبة فى قوله تعالى ﴿فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ﴾ إلى التكلم فى قوله تعالى ﴿أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ وليس هذا فحسب وإنما انتقل أيضًا من الحديث عن الغائب فى قوله تعالى ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ إلى الحديث عن المخاطب فى قوله ﴿تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ ثم انتقل أيضًا من المخاطب إلى الغائب مرة ثانية فى قوله ﴿قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ وهذا كله يفيد حقيقة واحدة، وهى أن هذه الجملة لها فى سياق الكلام أهمية، وشأن، لأنها هى معقد المعنى، ومن أجلها ترك الكلام الحديث عن عذابهم الذى يقابل الحديث عن

نعيم الذين آمنوا وعملوا الصالحات، إلى بيان هذه الخطيئة التى لم يرتكب الإنسان أفظع ولا أشنع منها، وهى أن يرى الآيات البينات ولا يكتفى بإدارة ظهره لها وإنما يواجهها بالاستعلاء، والاستكبار، والغطرسة، وهذا أشنع وأبشع الرذائل الإنسانية، والتى سنرى الآيات تدل على أن هذا السلوك البشع هو الذى يتحول به صاحبه إلى أن يكون من المجرمين، والفاء التى فى قوله تعالى ﴿فَاسْتَكْبَرْتُمْ﴾ لها شأن كبير فى الدلالة، لأنها تعنى أنهم لم ينظروا، ولم يراجعوا كما هو شأن من يطلب الحق، وإنما لوَّوْا رؤوسهم، واستكبروا فور سماع الآيات، وهذه الفاء تشد هذه الآية بآية الأفاك الأثيم، والذى وصفه ربنا بقوله: ﴿يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ وثم هناك لا تدل على التباعد الزمنى، وإنما تدل على التباعد الرتبى، لأن إصراره مستكبرا كأن لم يسمعها فور سماعها بعيد عند أهل الفطرة السليمة وأن ما بعد ثم يتنافى مع ما قبلها، لأن سماع الآيات يوجب النظر فيها، والإقبال عليها، وتدبرها وليس الاستكبار والتولى، ولا أعرف حاجزاً يحجز الإنسان عن معرفة الحقيقة والصواب كالغرور، والاستعلاء، لأن الصواب لا يدرك إلا بخلوص النفس للنظر فيه، والبحث عنه وهذا معنى جانبى من معانى الآية تنتقل فيه الدلالة من البحث عن اليقين والإيمان بما جاء به الرسل، إلى البحث عن الصواب فى كل قضية، وفى كل مسألة، وحين يستعلى الباحث أو يداخله الغرور يكون قد انتهى أمره من حيث هو باحث، وهذه آفة زماننا، كل يدافع ليس عن رأيه وإنما عن نفسه، ومن طبع العلماء الصادقين أنهم دائمون فى البحث عن الصواب، تاركين أنفسهم، وغير ناظرين إلى أعطافهم، فإن بدا لهم اليوم خلاف ما بدا لهم فى الأمس رجعوا اليوم عن الذى قالوه فى الأمس، لأن الحق قديم، كما قال عمر والرجوع إلى الحق خير من التمادى فى الباطل، وكل هذا يدمره خلق الاستكبار الذى أكدت خطره الآية بما رأينا.

وقوله جل شأنه ﴿وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ دلت كلمة ﴿كُنتُمْ﴾ على أن الإجرام صار جزءا من ماهيتكم، والإجرام هنا مهم جداً لأنه من الجرم الذى هو القطع، والاستكبار قطيعة دائمة بين أهله، وبين معرفة الحق، ﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ﴾ ولم يأمر الله الإنسان بوصل شىء أعلى ولا أكرم من أن يكون موصولا بالحق، والصدق، لأن هذا هو الذى قام عليه خلق السموات والأرض، ﴿وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ ثم إن كلمة ﴿قَوْمًا﴾ تدل على أنهم صاروا جماعة قوامهم الإجرام وأنهم عصابة يقوم بعضهم لنصرة بعض كما ترى حولك من الذين تمذهبوا بمذاهب ليس لهم فيها قلامة ظفر، وتستطيع أن تعرفهم من تناديهم، وذكر بعضهم لبعض، وأنهم يتجمعون كالغربان الشؤم التى لا تحب أن تسمع إلا أصواتها، وهذه الآية والتى قبلها لها نظائر كثيرة فى الكتاب العزيز، والناس فى كل فريقان، الذين آمنوا، والذين كفروا، أو فريق الجنة، وفريق السعير، وذكر أهل السنة أن هذه الثنائية المضطردة فى الكتاب العزيز دليل على بطلان ما ذهب إليه المعتزلة، من القول بالمنزلة بين المنزلتين، وليس هذا هو الذى يعنينى وإنما الذى يعنينى الطائفة التى آمنت ولم يردعها إيمانها عن منكر وعاشت تظلم وتبغى وتأكل الحرام، وتسرق وتقتل وتُروِّع وتقهر وتقمع وتبطش ولم يعرف أنهم تابوا ولا رجعوا، حتى كبهم الموت على مناخرهم، وهم كثير فى زماننا ما مصير هؤلاء؟ لا تستطيع أن تدخلهم فى الذين كفروا، لأنهم ناطقون بالشهادتين، ولا تستطيع أن تدخلهم فى السعداء، الذين يدخلهم الله فى رحمته، لأنهم لم يرحموا أهل الأرض، وخصوصًا إذا كانت فى أيديهم سلطة، يقهرون بها، ويقمعون، ويبطشون، وهؤلاء ليسوا أصحاب المنزلة بين المنزلتين لأن المعتزلة أرادوا بهم أصحاب الكبائر الذين لم يتوبوا وهؤلاء ليسوا أصحاب كبائر وإنما حياتهم كلها كبائر ولم يعرف عنهم عمل بر، وقد قرأت للمرحوم الشيخ محمود شلتوت كلاما فى شأنهم لم يقطع فيه برأى، ذكر

رحمه الله فى تفسير سورة البقرة فى كتابه الجيد البالغ «تفسير القرآن الكريم» «أن الناس فى الكتاب العزيز ثلاث طوائف طائفة المتقين، وطائفة الكافرين، وطائفة المنافقين، وهم المدلول عليهم فى الفاتحة الذين أنعمت عليهم هم المتقون، والمغضوب عليهم هم الكافرون، والضالين هم المنافقون لأن الضلال حيرة وتذبذب ثم فتحت البقرة بهم، وهذا ما يستنبط من كلامه، ثم قال «نعم يتبقى فريق ثالث وهو الذى يزعم لنفسه أنه مصدق بالله وباليوم الآخر وهو يفعل الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا يذكر الله فيستغفر لذنبه، بل يستمر طول حياته غافلا عن ربه غير ذاكر لعظمته، اللهم إلا تلك الكلمة التى يجريها على لسانه ليعلن بها تصديقه وإيمانه، دون أن يكون لهذا الإيمان، وذلك التصديق ما يدل على انطباعه فى النفس، وتمكنه من القلب، وهذا فى رأينا ليس من فريق المتقين المؤمنين، وليست هناك منزلة بين الذين سعدوا والذين شقوا، وفريق الجنة وفريق السعير» انتهى كلامه رحمه الله، وظاهر من وصفه لحال هذا الفريق وأنه يفعل الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا يذكر الله فيستغفر من ذنبه، وأنه يستمر طول حياته غافلا عن ربه ظاهر من هذا وما بعده أن الكلمة التى يجريها على لسانه ليس لها وجود فى داخل قلبه، ومع ذلك لم يصرح الشيخ بأنه من فريق السعير، لأن فريق السعير هم الكافرون، والرجل يجرى كلمة الإيمان على لسانه، وإن كان كلام الشيخ يدل دلالة ظاهرة على أنه من فريق السعير، لأنه قطع أنه ليس من أهل الصلاح، والسعادة، وليس هناك إلا فريقان فدل على ما أراد دلالة لزومية، لأن الحكم بكفر من أجرى الكلمة على لسانه حكم صعب، لأن رسول الله ﷺ أخبرنا أن من قالها عصم بها دمه وماله وعرضه.

وكلام الشيخ شلتوت هذا يجعل هذا الصنف ليس فى المنزلة بين المنزلتين وإنما يجعله فى منزلة الذين كفروا، والشيخ رحمه الله يكتب كل حرف بعقل حى يقظ وهو شديد الحفاوة بشيخه محمد عبده وكلامه فى المتشابه قريب جداً

من كلام الأشاعرة لأنه يصرف الكلمات إلى المجاز، وأراه آخر شيوخ الأزهر الذين يؤخذ عنهم العلم، والذين جاؤوا بعده فى مرتبة بعيدة عنه وعن المشيخة إذا استثنينا الشيخ عبد الحليم محمود، وحالنا ينزل من درك إلى درك فى هذا العهد الذى طال وطال جهله وطال فساده حتى صار شيخ الإسلام يُخْتار من كوادر الحزب بدلا من أن يُخْتار من هيئة كبار العلماء؛ يعنى صارت الهيئة العليا للحزب التى فيها «زعيط ومعيط» تقوم مقام هيئة كبار العلماء، التى تختار شيخ الإسلام، وإمام المسلمين، وناهيك عمن يختاره رجال حكم على بعضهم فى قضايا مُخِلَّةٌ بالشرف»، وقتل، وسرقة، وغش إلى آخر ما تراه فى مصر التى كانت يومًا ما يسميها علماؤنا كرسى الإسلام بأزهرها العريق الذى مُسخ، وصار لعبة فى أروقة رجال دربوا على الغش والتزوير وعرفوا بذلك وشهروا به، وماذا يفعل المسلمون إذا كان شيخ الإسلام صار يخرج إليهم من هذه الأروقة التى يخرج منها من تراهم كل يوم فى قفص الاتهام؟ ولا نملك إلا أن نكتب ونسأل الله سبحانه أن يقطع دابر المفسدين وأن يخلص البلاد والعباد من هذه العصابة. . وبقيت إشارة لابد منها قبل أن أنقل الكلام إلى آية أخرى هى أن الغضب الذى تراه فى قوله تعالى ﴿**أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ**﴾ لم تجد شيئًا منه ساعة الحساب، وإنما رأينا حيادًا كاملا، وكفًّا ظاهرا، عن الظلم، وأن الجزاء مؤسس على الكتاب وأن ما فى الكتاب موثق لأنه كتابكم وفيه ما كنتم تعملون، وهو الشاهد الناطق بالحق، ولن يشهد عليكم أحد من خارجكم، وكل هذا الكلام إعلان عن أنه لن يكون فى هذا اليوم ظلم، ﴿**الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ**﴾ [غافر: ١٧] فلما تم الحساب وأدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات فى رحمة ربهم، وأدخل الذين كفروا فى جهنم خالدين تلفح وجوههم النار، ظهر الغضب، وقيل لهم ﴿**أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ**﴾ هذا والله أعلم.

قوله سبحانه: ﴿ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلاَّ ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴾.

أول ما يلاحظ فى الآية أن الكلام انتقل من المتكلم فى قوله سبحانه ﴿ أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾ إلى الغائب فى قوله جل شأنه ﴿ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾ بوضع لفظ الجلالة مكان ضمير المتكلم، وهذه إشارات لا يجوز إغفالها وقد أصاب الزمخشرى حين ذكر أن الالتفات يفيد الكلام تطرية وإيقاظًا وذلك لأن بقاء الكلام على أسلوب واحد لا يفيد ما يفيده مع تنوع الأساليب وتوارد الصور واختلافها، فرق بين أنْ يخاطبهم ربهم جل شأنه ويقول لهم ﴿ آيَاتِي ﴾ وبين أن يكون الحديث الموجه إليهم صادرا عن غيره، وهذا الغير هو الذى يقول لهم ﴿ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾، وهذا كثير جدا فى الكتاب وكلها مواطن تنبيه وإثارة وإيقاظ، ثم إن الواو التى فى أول الآية تعطف ما بعدها على قوله تعالى ﴿ أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾ وبهذه الواو تدخل هذه الآية فى مقول القول المحذوف الذى هو خبر الذين كفروا، وكل خبر الذين كفروا ما قلناه وما سنقول يمثل جملة معانٍ مرتبطة فى غرض جزئى، وهو مضام ومعطوف على جملة خبر الذين آمنوا؛ وعليك أن تتابع خط سير المعانى، وكيف يرد بعضها إلى بعض، حتى تنتهى إلى ظرفها الجامع، وهو ﴿ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ ﴾ ولا يجوز إهمال هذا لأنه هو الذى يكشف لنا تماسك الكلام وبناء بعضه على بعض وبه تكمل هيئة السورة أعنى هيئة بنائها، التى هى صورتها، التى تميزها عن غيرها والتى بها تكون البينونة بينها، وبين غيرها، كما تكون البينونة بين رجل ورجل، وفرس، وفرس، كما يقول الكملة رضوان الله عليهم، وكلمة ﴿ إِذَا ﴾ التى دخلت عليها الواو أداة شرط يؤتى بها للدلالة على كثرة وقوع الشرط الذى دخلت عليه، وهذا معناه أنهم كانوا يقال لهم ﴿ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لا رَيْبَ فِيهَا ﴾ فى أوقات كثيرة وأن دعوتهم إلى الله

وإلى الحق كانت قائمة فى الوقت بعد الوقت، وأن هذا الصوت لم ينقطع عنهم وهذا تمهيد لكذبهم وهروبهم وتدليسهم فى الجواب، لما قالوا ﴿مَّا نَدْرِى مَا السَّاعَةُ؟﴾ كما سنبين من استعمالهم لكلمة ما الاستفهامية ﴿مَا السَّاعَةُ﴾ وبناء كلمة ﴿قِيلَ﴾ للمجهول إشارة إلى أن المهم هو المقول، وأن هذا هو الذى يتعلق به الغرض أما الذى قال فليس مما يتعلق به الغرض؛ المهم ما تسمع وليس المهم ممن تسمع، وأن الذى عليك أن تتدبر ما تسمع، وأن تعمل عقلك فيه من غير أن يشغلك شأن الذى اسمعك، ثم إن هذا البناء للمجهول فيه معنى آخر وهو أنكم كنتم تسمعون ذلك؛ ليس من قائل واحد يمكن أن ينص عليه وإنما هو كلام مستفيض ممن بلّغ عن ربه، وممن بلَّغوا عن المبلغ عن ربه، ولابد أن تتذكر أننا لسنا مع أمة دون أمة، وإنما الكلام شامل للأمم كلها، وكل أنبياء الله مَنْ قَصَّهُم ربنا علينا وَمَنْ لم يَقْصُصْهم كلهم قالوا ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لا رَيْبَ فِيهَا﴾ لأن هذا مما فى الصحف كلها والنبوات كلها، وقد ظل باقيًا فى الأمم بعد انقطاع النبوات قبل نبوة محمد ﷺ، وهى الكلمة التى جعلها إبراهيم عليه السلام باقية فى عقبه، وبقيت فى بعض العرب قبل البعثة وهى قائمة فى سلسلة نسبه عليه السلام إلى آدم عليه السلام، لأنه عليه السلام تقلب فى أصلاب برئت من الشرك وطهرت من الوثنية، وقال سبحانه ﴿أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ وقيد بالجار والمجرور الذى هو (عليكم) ولم يذكر هذا القيد مع جملة الشرط ولم يقل سبحانه وإذا قيل لكم ليتلاءم المعطوف مع المعطوف عليه لمعنى جليل أفاده عدم ذكر القيد وهو أنكم تواجهون الكلام عن وعد الله والساعة بالنقض والرفض حين تسمعون ذلك سواء قيل لكم أو قيل لغيركم ويكفى أن يقول قائل ما إن وعد الله والساعة لا ريب فيها حتى تنبعثوا وتنهضوا لرد قوله، وكأنهم كانوا يترصدون ما يدعو إليه الأنبياء وكأنهم فريق محارب ومجهز لمواجهة ما يبلغه الأنبياء عن الله ولو كان الكلام (وإذا قيل لكم إن وعد الله حق) لم يكن فيه

هذا المعنى لأن ردهم سيكون حين يتوجه القول إليهم. وقوله سبحانه ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ جملة متسعة المعنى جداً وصدقها صدق مطلق وهى من الكمالات المطلقة، ومن عرف الله لا يقول غير ذلك، وقد لاحظت أن كل ما قيل للذين كفروا فى هذه الآية قد قيل لهم قبل موتهم، ودُعُوا به إلى الله مثل تلاوة الآيات، والساعة التى لا ريب فيها كل ذلك ذكرته السور، أما معنى ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ﴾ فلم يكن ظاهرًا فى السورة ظهور تلاوة الآيات، وذكر الساعة، وقد رجعت به إلى قوله تعالى ﴿قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ ورأيت الوعد الحق، والساعة معا فى هذه الآية لأن الجمع إلى يوم القيامة وعد وقد أكدت سورة النساء هذا فى قوله تعالى ﴿اللَّهُ لا إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧] قوله سبحانه ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ هو ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾، ﴿يَوْمِ الْقِيَامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ﴾ هو ﴿وَالسَّاعَةُ لا رَيْبَ فِيهَا﴾ وجملة ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ وإن كانت منصرفة إلى البعث الذى هو جمع الناس بعد موتهم فإن هذا الصرف صرف السياق، وليس دلالة اللغة، لأن دلالة اللغة تشمل كل وعد كان من الله سبحانه وقد وعد الذين آمنوا وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض وليمكنن لهم، ووعدهم أيضًا بالمغفرة، ووعد المنافقين والكافرين نار جهنم وكل ذلك كثير جداً فى الكتاب العزيز وكثير أيضًا وعد الله بغير لفظ الوعد مثل ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا﴾ و﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ [محمد: ٧] و﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزَىٰ إِلاَّ مِثْلَهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠] ووعد أصحاب الغرفات بأنهم يجزون بالغرفات، ووعد المستغفرين بالمغفرة، ووعد التائبين بأنه سبحانه يبدل سيئاتهم حسنات، واقرأ قوله تعالى ﴿أُوْلَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلامًا (٧٥) خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان: ٧٥، ٧٦] واستخرج ما فيها من وعد: أولا: الجزاء، ثانيًا: أن الصبر يفضى إلى هذا الجزاء،

ثالثا: أنهم يلقون فيها تحية وسلاما، رابعا: أنهم خالدون؛ خامسا: أنها حسنت مستقرا ومقاما، وهذا هو الذى أردته حين قلت إن جملة ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ متسعة جدا، ولو قصدت إلى استخراج ما وعد الله به عباده لقصدت إلى خير كثير جداً، ولو وضعته بين يدى عباد الله تكون قد غرست لنفسك موضع عطاء فى الأرض يمدك وأنت بين يدى ربك، والمهم الآن أن قوله سبحانه ﴿وَالسَّاعَةُ لا رَيْبَ فِيهَا﴾ داخلة فى الجملة قبلها لأن الساعة من وعد الله الحق والجزاء من وعد الله الحق وأنه ينطق عليهم كتابهم من وعد الله الحق، وأنهم لا يظلمون من وعد الله الحق وراجع التشابك اللغوى بين الجملتين ليدلك هذا التشابك على أن الجملتين كأنهما جملة واحدة، وأن ذكر الساعة بعد الوعد الحق ذكر خاص بعد عام، وأن هذا الخاص هو المقصود الأول، لأن ردهم بعد هذه الجملة منصب على الساعة، ولم يتكلموا فى الوعد الحق، قلت راجع التشابك اللغوى لأن الساعة قرئت فى المشهور بالرفع وفى غير المشهور بالنصب، أما النصب فلأنها معطوفة على وعد، اسم إن، وداخلة فى حيز إن وكأن الكلام وإن الساعة لا ريب فيها، وفى المشهور بالرفع على العطف على محل إن، والعطف على المحل أدخل فى جذر المعنى من العطف على اللفظ، ثم راجع كلمة لا ريب فيها، وكيف نفت الريب عن الساعة مع أنها داخلة فى الوعد الحق، والوعد الحق لا ريب فيه، ثم إن الجملة قالت ﴿لا رَيْبَ فِيهَا﴾ مع أن المخاطبين ارتابوا بل ورفضوا، أما وجه ذكر ﴿لا رَيْبَ فِيهَا﴾ بعد دخول الساعة فى الوعد الحق فهو توكيد بعد توكيد، ولوحظ أن جملة ﴿لا رَيْبَ فِيهَا﴾ تأتى بعد كلام تكون فيه مؤكدة لا مؤسسة مثل قوله تعالى فى أول البقرة ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ﴾ الجملة قبلها تعنى أنه الكتاب البالغ الكمال فيما يكون به الكتاب كتابا، ولا يكون ذلك مع الريب فيه ولذلك كانت جملة ﴿لا رَيْبَ فِيهِ﴾ مؤكدة لما قبلها وأنها موصولة بها كمال الاتصال كما يقول أهل العلم بأسرار البيان، وقد سبق فى السورة ﴿قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ

﴿يَجْمَعَكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ﴾ راجع ﴿ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ﴾ وأن هذا من الوعد الحق تجد أن وصف يوم القيامة بأنه لا ريب فيه وصف توكيد وليس تأسيسًا، ولو سألتنى وقلت أى شىء قال الله فيه ﴿لا رَيْبَ فِيهِ﴾ قلت قال الله ذلك فى كتابه وفى يوم الجمع، ووصف يوم الجمع بأنه لا ريب فيه وصف توكيد، وليس تأسيسا، لأنه ما دام يوم جمع يعنى بعث وجمع فهو لا محالة لا ريب فيه، وإنما تكررت هذه الجملة وأكدت يوم القيامة وأنه لا ريب فيه، ويوم الجمع وأنه لا ريب فيه، والساعة لا ريب فيها كل ذلك لينزع ما تشبثت به نفوس أهل الضلالة لأنها أخوف ما تخاف منه هو البعث، وهو الجزاء، ولذلك تمترست وراء هذا الشك حتى لا تعكر ما انهمكت فيه من باطل بأى إحساس بالعقوبة، هذا والله أعلم، أما نفى الريب فى الكتاب وفى يوم الجمع مع أن القوم مرتابون بل رافضون فهو لاعتبار ريبهم كلا ريب، لأن الأدلة التى بين أيديهم لو تأملوها ارتدعوا ورجعوا، فهو خطاب لا يراعى ما عليه المخاطب لأن الذى هو عليه لا يؤسس على دليل، فكان الأولى عدم اعتباره.

قلت إن يوم القيامة هو يوم الساعة، وأن كلمة القيامة تشير إلى قيام الناس من مرقدهم ﴿فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨] وأن كلمة الساعة تشير إلى لحظة الأمر بكن فيكون، وأن الاجتهاد فى التدبر يكشف لنا سر مجىء القيامة هنا والساعة هناك، والذى أريده الآن هو بيان سر كلمة الساعة فى قوله تعالى ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لا رَيْبَ فِيهَا﴾ ثم فى قولهم ﴿مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ﴾ ووجه ذلك والله أعلم أن الكلام لا يزال داخلا فى حيز ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ﴾ لأن جملة الكلام الذى دار مع الذين كفروا من أول قوله تعالى ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ معطوف على ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وهو معطوف على ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾ وهى معطوفة على ﴿يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ﴾ وما أعظم هذه الخيوط التى تشد الكلام إلى الكلام

وتمسك الكلام بالكلام لأن هذا هو الذى يُظهر لنا سر استعمال كلمة الساعة هنا لأننا لا زلنا مع الساعة التى هناك والتى لا يزال يأرز إليها الكلام ويعود، وقد ذكرت فى سر ذكر الساعة هناك أنها جاءت مصاحبة لقوله تعالى ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾، وأن المالك للسموات والأرض هو الذى يحدد لحظة وساعة الفناء، وأن النفخة الأولى التى هى نفخة الفناء ليست إلا مدخلا للنفخة الثانية التى هى نفخة البعث والجزاء، هذا والله أعلم.

قوله سبحانه: ﴿قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا السَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلاَّ ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ هذه الجمل الثلاثة مقول القول والقول جواب الشرط: ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ﴾ وهذا يعنى أن سبك الكلام صير هذه الجمل كلها جملة واحدة، وما فى قوله سبحانه ﴿مَّا نَدْرِي﴾، هى ما النافية، والتى فى قوله ﴿مَا السَّاعَةُ﴾ هى ما الاستفهامية، وما الاستفهامية يسأل بها عن الماهية ومعنى ما الساعة ما هى مع أنه قيل لهم ﴿وَالسَّاعَةُ لاَ رَيْبَ فِيهَا﴾ ولو كان الحوار فيما فيه الحوار لقالوا إننا مرتابون فيها وإنما قالوا ما هى؟ مع أن الكلام ليس فى ماهية الساعة وأنها يقوم الناس فيها من مراقدهم، وإنما الكلام فى إثباتها وأن المغروس فى الفطرة أنها كائنة بلا ريب، وهذا الجواب فيه إساءة أدب لأن الذى قال لهم ﴿السَّاعَةُ لا رَيْبَ فِيهَا﴾ لا يريد أن يثبت الساعة وإنما يريد أن يثبت الإسناد الذى هو نفى الريب عن الساعة وهذا أصل الدلالة، وأن الإسناد هو مناط الفائدة وليس إثبات المسند إليه ولا المسند، وهم عدلوا فى جوابهم من الإسناد الذى هو النسبة إلى التشكيك فى وجود المسند إليه، ولا يجوز أن تخبر بشىء عن شئ إلا إذا كان الشيئان ثابتين وكان القصد إلى الإخبار بأحدهما عن الآخر وهذا الرد يفيد أن من قال لهم ﴿السَّاعَةُ لا رَيْبَ فِيهَا﴾ يحدثهم بنفى الريب عن شىء لا يعلمونه من أصله وكأنهم يقولون عن أى شىء تحدثوننا إننا لا ندرى ما الساعة يعنى ما هى، ثم إنهم كذبوا لأن خبر الساعة مستفيض فى

النبوات كلها؛ ثم إنهم لما قالوا ﴿مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ﴾ كانوا يردون على البعث والجزاء ثم إن هذه الجملة لا تلتئم مع الجملة التى بعدها وهى ﴿إِن نَّظُنُّ إِلاَّ ظَنًّا﴾ لأن هذه الجملة الثانية تثبت أن عندهم ظنا بالساعة وهذا ينقض ﴿مَّا نَدْرِى مَا السَّاعَةُ﴾؛ وقد أراد بعض المفسرين أن يجد وجها لصواب قولهم فذكروا أنهم فريقان: فريق ينكر الساعة، وفريق يرتاب فيها، وعليه تكون واو الجماعة فى قوله سبحانه ﴿قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ﴾ جامعة لفِرَقٍ منهم مختلفة فى عقائدها، وموقفها من الساعة، واللفظ يحتمل، وقد ذهب بعض علمائنا إلى أن هذه الجمل الثلاث المتعارضة فى كلامهم ليست صادرة عن فرق مختلفة وإنما هى صادرة عن فرقة واحدة وقالوا هذا الكلام المتعارض من باب الاستخفاف، والاستهزاء، ويرجح هذا قوله سبحانه بعد ذلك ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾.

وجملة ﴿إِن نَّظُنُّ إِلاَّ ظَنًّا﴾ من أفصح الكلام وأعلاه وإن كانت فى ظاهرها تصادم ظاهر كلام النحاة، وبيان ذلك أنهم قالوا إن الاستثناء المفرغ الذى لم يذكر فيه المستثنى منه لا يجوز إعمال الفعل فيه فى المفعول المطلق فلا تقل ما ضربت إلا ضربا، لأنه يكون بمنزلة قولك ما ضربت إلا ضربت وهذا يعنى استثناء الشيء من نفسه، وهو لا يجوز، وقد ذهبوا فى توجيه الآية إلى وجوه مختلفة أقربها وأولاها أن التنكير فى المستثنى يكسبه صفة يعين عليها السياق، فإذا قلت ما قلت إلا قولا يفهم منه بمعونة السياق أنك ما قلت إلا قولا سهلا ميسورا إن كان المخاطب قد التبس عليه قولك، أو ما قلت إلا قولا لا يغضب، إذا كان المخاطب قد أغضبه ما قلت، وهكذا، والمعنى فى الآية إن نظن إن ظنا واهنا ضعيفًا، وأراد الزمخشرى بيان ذلك بصورة أوضح فقال «أصل الكلام نظن ظنا فأدخل حرف النفى والاستثناء ليفيد إثبات الظن مع نفى ما سواه» وقوله سبحانه ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ لها خصوصية فى مبناها وخصوصية فى موقعها، أما خصوصيتها فى مبناها فإن دخول النفى على المسند إليه الذى خبره

اسم مشتق يفيد الاختصاص عند كثير من العلماء كما فى قوله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ أى بخلاف غيرهم فإنه يخرج، ولذلك احتج بها أهل السنة على أن مرتكب الكبيرة لا يخلَّد فى النار كما يقول المعتزلة، ويفيد التوكيد عند بعض العلماء ومنهم الزمخشرى حتى لا يلزمه القول بالاختصاص ويبطل ما ذهب إليه هو وجماعته من أن مرتكب الكبيرة يخلد فى النار، وإذا قلنا إن هذا البناء فى الجملة التى معنا يفيد الاختصاص كان المعنى أننا خصوصًا لسنا مستيقنين بالساعة وأن غيرنا مستيقن بها، وقد تأكد هذا بدخول الباء التى تدخل على الخبر المنفى مثل قولنا ما زيد بقائم، وإذا قلنا إن التقديم للتقوية والتوكيد كان مرادهم تأكيد نفى اليقين فى شأن الساعة والباء أيضًا تزيد التوكيد توكيدًا ومما زادوا به التوكيد توكيدًا قولهم ﴿بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ من استيقن ولم يقولوا بموقنين والهمزة والسين والتاء هنا للمبالغة، كالتى فى مستجيب.

هذه خصوصيات مبناها، أما خصوصيات موقعها، فإنك تراه يبتعد كثيرا عن جملة ﴿إِن نَّظُنُّ إِلاَّ ظَنًّا﴾ لأن نفى اليقين المؤكد بما تراه لا ينفى ما قبل اليقين من الظن ولو كان ظنا راجحا، ولذلك يصح لنا أن نقول أنا أرجح هذا ظنا لا يقينًا، وكل راجح هو مظنون؛ والمتيقن لا يقال له راجح وإنما يقال فيه قاطع، وهذا هو معنى أن هذه الجملة تبتعد كثيرًا عن التى قبلها. ﴿إِن نَّظُنُّ إِلاَّ ظَنًّا﴾ أى ضعيفًا واهنا، وجملة الظن الواهن هذه تبتعد عن التى قبلها ﴿مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ﴾ لأن الذى لا يدرى شيئًا لا يقال فيه إنه يظنه ظنًا ضعيفًا، وهكذا ترى الجملتين الثانية والثالثة تتحركان فى اتجاه واحد؛ لو قلت إنهما فى الطريق الذى ينتهى عند ﴿لا رَيْبَ فِيهِ﴾ لم تكن أخطأت لأن الكلام بدأ بما ندرى ثم تعدّل إلى الظن الضعيف ثم تعدّل إلى نفى اليقين ونفى اليقين لا ينفى الظن الراجح، وهذا هو مرادى بالقول بأنهما فى الطريق الذى ينتهى عند ﴿لا رَيْبَ فِيهَا﴾ ولكنهم وقفوا عند هذه النقطة ولم يتحركوا بعدها وكأن هذه الحركة فى الجمل تومئ إلى صوت

الفطرة التى فطرهم الله عليها وقد ذكر علماؤنا أن الإيمان بالبعث والحساب والعقـاب والثواب كل ذلك من الفطرة لأن نفْى البـعث والجزاء ظلم للذين ظلمـوا فى هذه الأرض ولم يستطيـعـوا نصر أنفـسهم وخـالق السمـوات والأرض منزه عن الظلم لأنه أقـام السموات والأرض علـى الحق والعدل، هذا مـسـتـقـر فى النفوس كلهـا ولكن أهل الضـلالة يشـوِّهون هذه الفطرة ويصرفون صوتهـا إلى السخرية والاستهزاء، واتبـاع الأهواء وقد أشار الحق إلى أن الدين هو فطرة كل نفس: المؤمنة والـكافرة، ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠] يعنى يستطيع الكافر أن يكفر ولـكنه لا يستطيع أن يبدل فطرة الله التى فطره الله عليها، وهذه الفطرة هى التى قال الله فى شأنها: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ [الشمس: ٩، ١٠].

بقى من هذه الآيات شىء آخر هو أن الذى لا يستيقن أمر الساعة يعنى الذى لم يبلغ إيمانه بها درجة اليقين القاطع كالذى يظنُّها ظنّاً واهنًا ضعيفًا وكالذى لا يدريها، وكل هذه الدرجات سواء لأن الله لا يقبل من عبده فى شأن الساعة وفى شأن التـوحيد وفى شأن النبـوة وفى كلّ شأن طالبنا فيـه ربنا بالإيمان إلا أعلى درجات اليـقين فالإيمـان بالله وملائكته وكـتبه ورسله واليـوم الآخر كل ذلك لا يُقْبل فيـه الإيمان إلا إذا كان فى درجة اليقـين ومن تزحزح إيمانه عن درجة الـيقيـن شعـرة واحدة فليس من هذا الإيمـان فى شىء، وهذا هو الذى يخافـه أهل الله ويمدون أيديـهم إلى الله فى كل حال يسـألونه درجة اليـقين ويقولون: اللهم إننا نشهدك أننا نشهد أن الموت حق وأن القيامة حق وأن القرآن حق وأن محمدا حق وأنت الحق اللهم أحينا على ذلك واقبضنا على ذلك حتى نلقاك على ما قبضتنا عليه.

ومراجعـة ما كان مع الذين كفـروا مراجعة تبـتعد قليلا عن سـياق الآية

تفيدنا هذه المراجعة أن الذى يعاقَبُ لا يُعاقَبُ إلا بعـد حساب تتوفر فيه كل ضمانات العدالة، وأن يشهد عليه شاهد لا ترد شهادته، لأنه هنا كتابه الذى ينطق عليه، وأنه لا يغاضب وهو يحـاكم، ولا يُنْهر ولا يُهدَّد، لأننا لاحظنا أن الآيات التى تحدثت عن الأمم الجاثية التى دعيت إلى كـتابها ليحكم بينها لم تخاطب خطاب تهـديد، ولا وعيد، وإنما كان ذلك بعـد الحكم عليهم، وقد أشـرت إلى ذلك والذى أريده هنا أن الـمُـعَاقَب حـين يواجه العـقاب وُوجِهَ بالذنب الذى أفضى به إلى العقاب مرة ثانية بعد الحساب، الذى شهد عليه فيـه عمله نفسه، ولم يأته شاهد من خـارجه، قيل له وهو داخل باب العقاب كان منك كذا وكذا وربنا سبـحانه وتعالى هو الذى يخاطبه ويقول له كانت آياتى تتلى عليك فاستكبرت وقالوا لك وعد الله حق والساعة لا ريب فيها سخرت واستهزأت وهكذا يقول لنا ربنا، ليس فى الأرض من يملك أن يعاقب مواطنًا من غـير ذنب إلا أن يكون ظالمًا من الظالمين وليس هناك أى سلطان فى يد أى مسؤول يعـاقب الناس أو يرميهم فى المعتـقلات وينزعهم من بين أبنائهم إلا بذنب معلوم تقوم البينات التى لا تدفع على ارتكابه وبعد الحكم عليـه ويقال له: كان ذلك لأنك فـعلت كذا وكـذا، وهذا هو العدل الواجب وهذا هو حق الإنسان كما يقـرره خالق الإنسان، وعليك أن تقيس هذا بالذى يجـرى فى أرض الكنانة من ظلم وبغى وقـهر ثم تقـرأ ما يكتـبه المنافـقون عن حكمـة الحكيم، وعـدله، ورحمـتـه وحرصـه على الوطن، والمواطنين وأنا أرى وأقـرأ ويقينى أن الحـرَّة لا تلد منافقًـا، وأن الأقلام فى أيدى هؤلاء المنافقين دليل قاطع على أنهم لم يُربـوا فى حُجُور حرائر النساء «والأم إذا أعددتها أعددت شعبًا طيب الأعـراق» وهذه الأعراق الخبيثة ليست من الأمهات التى ذكرها الشاعر، ﴿**وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لا يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ**﴾ [الأعراف: ٥٨] وأنا أحتـقر الظالم وأحـتقر أكـثر من يدافع عن ظلم الظالـم وأعذر المظلوم

الصامت المستكين لأنه صَمَتَ واستكان حتى لا يظلم أكثر، لأن الفجور الذى أراه فجور فاجر، صار يقتل الناس على قارعة الطريق بمرأى ومسمع من الناس ثم يزعم الفاجر أن المقتول هو الذى قتل نفسه، وأن من يراهم الناس يقتلونه كانوا فى الحقيقة رسل رحمة، جاءوا لينقذوه من نفسه، ثم تدافع أقلام العبيد وألسنة العبيد عن كل ذلك، كل هذا أثاره فى نفسى أن الله جل جلاله بعدما حاسب الظالمين حسابًا دقيقًا ولم يظلمهم شعرة واحدة أوقفهم وهم فى الجحيم أو فى الطريق إليه وأسمعهم الذنوب التى جاءت بهم إلى هنا لأنه لا عقوبة من غير ذنب وأنك لو زدت قيد نملة فى عقاب الظالم تصبح أنت الظالم ويصبح هو المظلوم ودعوة المظلوم ليس بينها وبين الله حجاب، وعليك أنت أن تراجع واحذر أن تكون مغمض العين عن الذى يجرى حولك، لأن من لم يُشغل بأمرنا فليس منا؛ واحذر أيضًا أن تقرأ القرآن من غير أن تضعه على الذى حولك، لأن الله لم ينزله لنتبرك به أو لنقرأه على قبور موتانا وإنما أنزله شريعة نحيا بها وعليها نموت وعليها نلقى الله اللهم آمين، إن الله سبحانه لم ينزل القرآن للموتى وإنما أنزله للأحياء وجعله لهم نورًا يهتدون به، وروحًا يعيشون بها، وشريعة يطبقونها فى حياتهم، ومن حارب تطبيق الشريعة فقد حارب الله، ولا يجوز لمن يخاف الله أن يركن إلى من يحارب تطبيق شرع الله، لأن الله سبحانه يقول لنا: ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾ [هود: ١١٣] وليس أظلم ممن يحارب تطبيق شرع الله، والمسلمون جميعًا كما يقول الشيخ محمود شلتوت رحمه الله لايزالون يعتصمون بالقرآن ويدينون بقدسية القرآن ويتآزرون على خدمة القرآن، وأنهم لَيستشرفون جميعًا لمطلع ذلك اليوم الذى يعود فيه سلطان القرآن، فيكون التشريع تشريع القرآن، والأخلاق أخلاق القرآن، والهَدْىُ هَدْىُ القرآن، ونرجو أن يكون قريبًا، انتهى كلامه رحمه الله من مقدمة تفسير القرآن الكريم ص٨.

قوله سبحانه: ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ هذه الآية الكريمة مكونة من جملتين متقاربتين جداً، فى المبنى والمعنى، وعدد الكلمات وأوزانها وترتيبها، وتأمل لتدرك ولاحظ المتقارب الذى بين ﴿وَبَدَا لَهُمْ﴾ ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾، وأن رأس الجملتين فعل ماض وبعده جار ومجرور، متقدم على الفاعل، ثم إن الذى حاق بهم هو ذاته الذى بدا لهم، لأن سيئات أعمالهم هى استهزاؤهم بما استهزؤوا به الذى هو البعث والعذاب، الذى أنكروه يعنى أن الذى أحاق بهم هو ذاته الذى لم ينكروه فقط وإنما كانوا به يستهزئون، ثم إن الجملة الثانية لابد أن تكون بعد الأولى لأنهم فوجئوا بظهوره، ثم بإحاطته بهم، فما كان يمكن أن يقال أحاط بهم وبدا لهم، لأن هذا تَنْكِيس للمعانى، ثم إن جملة ﴿وَبَدَا لَهُمْ﴾ مع ما عطف عليها معطوفة على خبر الاسم الموصول الذى هو رأس الكلام عنهم، وهو قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي﴾ أى فيقال لهم ألم تكن آياتى وبدا لهم والمعنى، وأما الذين كفروا فبدا لهم وحاق بهم، وهكذا ترى شبكة الكلام؛ وتماسك فروعه بجذور هذه الفروع، ثم تماسك جذور هذه الفروع بجذور السورة، هذا وجه من وجوه النظر فى الآية والوجه الآخر هو أن الكلام بها انتقل من الحديث معهم، وبيان خطاياهم التى أفضت بهم إلى هذا المصير إلى المشاهد، والأحوال العملية، وفرغنا مما تسمعه الأذن فى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ﴾ إلى آخره، إلى ما تراه العين فى قوله: ﴿وَبَدَا لَهُمْ﴾ أى ظهر لهم، وكل هذا تأكيد لبيان الذى أفضى بهم إلى العذاب، وأنهم لم يُظْلموا، وإنما عوقبوا بما فعلوا، وأنه لا عقوبة إلا بذنب وأن المذنب المعاقب يجب أن يَتَبَيَّن ذَنْبَه ولا يكفى أن يحدَّث عنه، ولا أن ينطق به كتابه أو تنطق به جوارحه وجلوده، وإنما أيضًا تراه عينه، وكل هذا من باب التحرِّى والتدقيق فى أن الله سبحانه لا يظلم الظالم، ولا يُفْرطُ فى عقاب من حاربوه، لأن الله سبحانه لم يُشدِّد فى تفظيع ذنب كما

شدَّد فى تفظيع ذنب الظلم، وسماه ظلمًا لأنه من الظلمات، وهذا شىء جديد جداً ويجب على أهل الدين أن يشيعـوه فى الناس، وهذا وجه آخر من وجوه النظر فى الآية ووجه ثالث وهو أن الحـديث انتقل من الحديث إليـهم فى قوله تعالى: ﴿قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا السَّاعَةُ﴾ إلى الحديث عنهم فى قـوله جل شأنه: ﴿وَبَدَا لَهُمْ﴾، وكأنهم غابوا عن مقام الحـديث إلى مقام المشهد الذى بَدَا لهم وأحاق بهم، وليس هنا شىء يجب أن يسمعـوه كما فى الآية السابقة: ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ فليست هناك ضرورة لأسلوب الخطاب وصار المقام مقام حديث عنهم وليس حديثًا إليهم، وأنهم بعد أن كان ما كان من بلاغهم بالذى أفـضى بهم، دخلوا غيب الغـذاب، وأحـاط بهم العذاب، وغـابوا عن مقـام الخطاب وكلمة ﴿سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾ تقدمت فيهـا الصفة على الموصوف لأن الأصل عملهم السيئ وتقديم الصفـة لأنها هى الأهم وأن الذى وقعت عيونهم عليه هو السيئ، ويلاحظ أن الذى بدا لهم هو جـزاء سـيئات ما عمـلوا، لأن ما عملوا قد ذهب مع ذهاب أيامهم، وفَنِى بفنائها، وإنما وُضعت السيئات مكان جزاء السـيئـات للإشارة إلى محـض العدل، وأن الذى ظهر لهـم ليس جزاء الأعـمال، التى يمكـن أن يزاد فيـها شىء، وإنما الـذى بدا لهم هو الأعمـال نفسها، وهذا كقوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ وقد تقدم.

وقوله تعالى: ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ حاق بهم معناه أحاط بهم، والفرق بين حـاق وأحاط، أن حاق لا تكون إلا فى الشر، وأحـاط تكون فى الشر وفى الخيـر، تقول: أحاط بهم العَـدُوُّ وأحاط بهم سُرادقُـها، وتقول: أحـاط فلان بالخبر أو بالمسألة، وحاق تفيد إحاطـة العذاب لاغير، كما فى قوله تعالى: ﴿فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الأنعام: ١٠] وقـوله جل شأنه: ﴿وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٥] وفى الزمر أخت هذه الآية: ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الزمر: ٤٨] والفرق أنه قال

فى الجاثية: ﴿سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾ وقال فى الزمر ﴿سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾، وهنا الحساب عن الأعمال ﴿الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فناسب كلمة ﴿سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾، وفى الزمر سُبقت الآية بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لافْتَدَوْا بِهِ مِن سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ [الزمر: ٤٧، ٤٨] وقوله سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الأَرْضِ﴾ مناسب للكسب لأنه يعنى لو يمتلكون.

قلت: إن حاق أخت أحاط، ولكنها خاصة بالشر، وأزيد شيئًا هو أن حاق من معدن مادة الحق، حتى إن بعضهم قال: إن حاق أصلها حق قلبت القاف الأولى ألفا كما قالوا فى زال أصلها زلَّ قلبت اللام الأولى ألفًا، وهذا يعنى أنها تفيد معنى أنه أُحيط بهم إحاطة حق لا ظلم فيها، ولا تجاوز بشىء، وإن كان قيد شعرة، وقوله سبحانه: ﴿مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أى الذى كانوا به يستهزئون، والذى كانوا به يستهزئون آيات الله التى كانت تتلى عليهم فيستكبرون، والاستكبار على الآيات استهزاء بها، وكذلك الساعة التى قالوا فيها: ﴿مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلاَّ ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ وكل هذا راجع إلى الأفاك الأثيم الذى يَسْمَع آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبرًا كأن لم يسمعها، وإذا علم من آيات الله شيئا اتخذها هزوًا. والكلام كما ترى بعضه من بعض ويرجع عجزه إلى صدره بصورة ظاهرة، والمهم أن الذى بدا لهم سيئات ما عملوا، وأن الذى حاق بهم ما كانوا به يستهزئون وهو أنكى وأوجع، وإذا كانت الجملة الأولى وضعت سيئات ما عملوا موضع جزاء سيئات ما عملوا فإن الجملة الثانية وضعت الذى كانوا به يستهزئون موضع استهزائهم، واستهزاؤهم أسوأ ما عملوا، وإحاطة الآيات التى كانوا يستهزئون بها يعنى إحاطة ما أخبروا به عن الساعة ووعد الله الحق والويل لكل أفاك أثيم وأن الذين كفروا لهم نار جهنم هذا هو الذى أحاط بهم، لأنه وعد الله الحق والساعة لا ريب فيها، ونلاحظ فى

جملة ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ غضبًا شديدًا لأن أسوأ من كل الأسوأ الذى اكتسبوه هو الاستهزاء بآيات الله، والله سبحانه وتعالى يقول: إنه يجازيهم بهذا على أسوأ أعمالهم، وإذا كان سبحانه يتقبَّل من الصالحين أحسن ما عملوا، فإنه جل شأنه يجازى الضالين بأسوأ الذى عملوا، وتلاحظ فى بناء الجملة شيئًا لا يُهْمل وهو قوله سبحانه: ﴿مَّا كَانُوا بِهِ﴾ ولم يقل وبدا لهم سيئات ما عملوا وحاق بهم ما استهزؤوا ولم يقل: وبدا لهم سيئات ما كانوا يعملون ليناسب ما كانوا به يستهزئون، وذلك لأن المراد ببدا لهم أنهم رأوه وظهر لهم ظهورًا حسيّاً لا يلتبس، والعقاب فى قوله ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾ وليس فى ﴿وَبَدَا لَهُمْ﴾ لأن ﴿وَبَدَا لَهُمْ﴾ مقدمة للعقاب وهذا داخل فيما قلناه من بيان أن المعاقب ولو كان ظالمًا ضالاً مضلاً فلا يجوز أن يعاقب إلا على ذنب يعرفه ويشهد به كتابه ويراه بعينه، أما الذى يحيق بهم فهو الذى يعذبون به فأضيف فيه شىء وهو كلمة ﴿كَانُوا﴾ الدالة على أنهم مارسوا ذلك وزاولوه وأكثروا من ممارسته، ومزاولته، حتى صار جزءًا من طباعهم، وعادة من عاداتهم، وأعنى الاستهزاء بآيات الله ومن كان هذا شأنه فلا يرق له أحد، لأن فعله هذا يوجب مَقْتَه، والغضبَ عليه، لأنه زاول ذلك وقد وصف الله له وهو فى الدنيا مصير من يفعل ذلك؛ ودلَّه سبحانه بالآيات التى لا يؤمن البشر على آيات أفضل منها وآتاه ربه برحمته من كل جهة، يدعوه إليه وهو مُصر على ما هو عليه، مزاول له، حتى كان هذا السوء وهذا الفساد وهذا الاستهزاء هو جزاؤه ويضاف إلى ذلك صيغة المضارع فى الفعل ﴿يَسْتَهْزِئُونَ﴾ التى تفيد أن ذلك كان يَحْدث منهم ويتجدَّدُ، هذا والله أعلم.

وقد ذكر الطاهر أن قوله تعالى: ﴿مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ هو ﴿سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾ وإنما عدل عن الإضمار إلى الموصولية، لأن فى الصلة تغليظًا لهم، وتنديمًا على ما فرَّطوا من أخذ العدة ليوم الجزاء، على طريقة قول عبدة ابن الطبيب:

إن الذين ترونهم إخـــوانكم   يشفى غليل صدورهم أن تصرعوا

قال سبحانه: ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ (٣٤) ذَلِكُم بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ [الجاثية: ٣٤، ٣٥].

هاتان الآيتـان مقول الـقول ﴿وَقِيلَ﴾ وراجع كـيف سبكت هذه الجـمل الثمـانية سـبكًا واحدًا وصـارت بمثابة جمـلة واحدة وهذه الجمل كـل جملة مستقلة بمعنى سبكت هذه المعانى المختلفة سبكًا واحدًا، وراجعها وتأملها:

١- ﴿الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ﴾.

٢- ﴿كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾.

٣- ﴿وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ﴾.

٤- ﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾.

٥- ﴿ذَلِكُم بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا﴾.

٦- ﴿وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾.

٧- ﴿فَالْيَوْمَ لا يُخْرَجُونَ مِنْهَا﴾.

٨-﴿وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾.

الجملتان الأولى والثانية مؤتلفتان، والجمـلتان الأخيرتان أيضًا مؤتلفتان وما بين هذين الطرفين جـمل مختلفة وقـد ألف شريف النظم بين ما اخـتلف وما ائتلف على حد طريقـة الباقلانى، وشـريف النظم هو وقوعهـا جميـعًا مقـولاً للقول، وراجع هذا لتستخرج منه ما لم أستخرج لأنه من السبك العجيب النادر.

وكلمة ﴿وَقِيلَ﴾ الـتى هـى آخذة بنواصـى كـل هذه الجـمـل معطـوفة بكل ما تعلق بها على قوله سبحانه: ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾ وقد عطف عليها

قبل ذلك قوله جل شأنه: ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾ وفرق بين العطفين لأن ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾ جزء من تمام معنى ﴿وَبَدَا لَهُمْ﴾ ولو تأملت قليلاً وجدت الآية الثانية كأنها مولودة من التى قبلها بخلاف ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ﴾ لأن العطف فيها أفاد ضَمَّ معنى إلى معنى، وحين نقول إنها معطوفة على قوله تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُمْ﴾ يكون كلامنا قاصرًا جداً وينتفى هذا القصور حين نتابع المعطوف عليه وهل هو رأس تنتهى إليه المعانى اللاحقة به، أم هو متحرك نحو جهة أخرى، وإذا كان متحركًا نحو جهة أخرى فمن باب فقه ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ﴾ الذى نحن فيه أن نتبين هذه الجهة لأنه سيحمل معه الآية المعطوفة إلى هذه الجهة ولم أعرف فى الكلام جملة ساكنة فى مكانها لا تنزع إلى ما قبلها كما ينزع إليها ما بعدها، والجمل كأنها ذات أرواح، وذات علائق وأنساب ووشائج وأرحام تنزع إلى ما هى منه كما ينزع الحى إلى أُرُومَتِه الجمل أرواح ما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف ولا تنكر علىّ هذا لأنك قبلت قولهم اللغة كائن حىّ، وقد ذكرت أن جملة ﴿وَبَدَا لَهُمْ﴾ وما تولد منها وما ألحق بها، معطوفة على جملة ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لا رَيْبَ فِيهَا﴾ وتوابعها التى هى من تمام معناها، وجملة ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ ليست أول طريق وإنما هى نازعة ومستشرفة ومتحركة نحو رحم هى منه، هذا الرحم هو قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ وهذه الجملة مقول قول محذوف، هذا القول المحذوف خبر مبتدأ، وعليك أن تراجع بصبر ما عُطِف وما حُمِل على مقول الخبر المحذوف لأنه آيات ٣٢، ٣٣، ٣٤، التى نحن فيها وآية ٣٥ التى هى من تمام الذى نحن فيه، أقول كل ذلك داخل فى شأن ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ثم تجد واوًا فى أول ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ تَجْذبُها إلى ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ ثم تجد فاء فى أول ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ تشدُّ أحوال الذين آمنوا وأحوال الذين كفروا معًا إلى ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾ لأن

أحوال الذين آمنوا والذين كفروا تفصيل لإجمال الأمم الجاثية، وهما قسمان وليس بينهما ثالث، ثم تجد ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾ أولها الواو التى تشدُّها إلى يوم تقوم الساعة لأن ما بعد هذه الواو من أحوال اليوم الذى قبلها؛ ثم تجد هذا الحشر من الخلائق والأحوال والمعانى وتأكيدات العدل والحساب ونطق الكتاب إلى آخر ما ترى فى هذه الآيات من معان ومشاهد وأحوال لا يمكن أن توجد تحت أى كلام يَصْدُر عن نفس بشرية، أقول تجد يوم القيامة الجامع لكل هذا داخلاً فى سلطان وجلال قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ وهذه الجملة المكونة من مبتدأ وخبر هى التى انتهى إليها كل ما بعدها، إلى الذى نحن فيه، وهى الوُكنة التى آبت إليها كل الآيات قبلها، وقلت هى الوُكنة وأنا أعنى أنها بمثابة منطقة تجمُّع تلتقى عندها الآيات وهى بالطبع غير التجمعات الصُغيرة التى جاءت فى الآيات مثل: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وهذا ما أكرر الإلحاح على بيانه، وأن الكلام يعطف على كلام ثم يعطف الكلامان على كلام وهكذا يأرز الكلام إلى الكلام، حتى تراه مجموعًا فى آية هى أم لكل هذا الذى تجمَّع، ثم تُرَاجع فتجد هذه الأم ليست هى حواء الأولى وإنما هى أمٌّ صغيرة تحمل كل أولادها وأحفادها وترجع إلى بيت آخر، هذا البيت الآخر هنا هو قوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ﴾ لأن قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ﴾ معطوف بهذه الواو على ﴿قُلِ اللَّهُ﴾ ولا يعكِّر عليك مسألة عطف الخبر على الإنشاء لأنه من باب عطف المعنى على المعنى، وراجع فقط علاقة الكلام تجد أن ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ بمثابة الدليل على ﴿قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ لأن من يملك السموات والأرض هو وحده الذى يفعل ذلك بكم، وهكذا وجدت الآية الأم صارت برهانًا على معنى آخر ودليل صدق له.

و﴿قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ﴾ التى رجع إليها كل الذى مضى ردٌّ على قولهم ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ ومعطوفة عليه، وهكذا صارت هذه «الحزمة» العريقة من المعانى مُتَدَرِّجة فى السياق، ووظيفتها ردٌّ على قول الضالين، وصارت هذه الشواهد القاطعة دحضًا لضلالة لا يقبلها عقل، وصرنا أمام صورة عملية لقوله تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ١٨].

قلت إن الجمل فى البيان الأعلى أرواح تنزع إلى أُرُومَتِهَا وتستشرف دومًا إليها؛ وأنها وإن كانت قارَّةً فى مكانها قرارًا ليس بعده قرار فإنها تنزع بوشائجها القارة فى معانيها إلى أخواتها، قلت هذا لأنه لابد لى من أن أتابع ما أريد بيانه، وقد كررته، وذلك أن جملة وقالوا: ﴿مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ مثال واحد لضلالة واحدة من ضلالات كثيرة غارقٌ فيها الذين اتخذوا إلههم هواهم وهؤلاء هم الذين حذّر صاحب الشرع سبحانه وتعالى من اتباع أهوائهم. وكل هذا متفرع من ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ وكل ما بعد هذا هو تحليل لأهواء الذين لا يعلمون، ورد على هذه الأهواء، ومتابعة الذين لا يعلمون وهم جاثون على الركب مستوفزون لساعة وساحة الحساب والحكيم العادل يؤكد لهم أنهم لن يظلموا قلامة ظفر، وهم الذين قيل لهم ﴿الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ﴾. وأرجو أن يكون هذا ظاهرًا ولو سكتُّ عند هذا لكنت قاطعًا لسلسلة لا يجوز أن تقطع، لأن قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ﴾ وإن كان تجمُّعًا أوسع تأرز إليه الآيات فإنه هو نفسه جاء فى سياق تحرك به إلى هنا، لأنه ترتب على قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ﴾، فهو راجع إلى هذا الأصل الأكبر، وكلمة ﴿ثُمَّ﴾ لها دلالة بيناها هناك والمهم أن الواو التى فى ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ بداية معنى جديد هو بيان النعم التى أصلها الوحى، وهى عاطفة لنعم الوحى على نعم الحس

المتمثلة فى قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ فهى الشق الثانى لهذه النعم وليست أصلاً برأسه، ثم إن تسخير ما فى السموات وما فى الأرض جاء فى سياق نعم الله لعباده جميعًا من آمن ومن كفر، ومن استقام ومن فجر، وكان من أفضل ما ترى نعم الله فيه أن يذكر سبحانه وأن يذكِّر بها بعد ذكر الأفاك الأثيم الذى يُبَشّرُه الله بالعذاب الأليم والعذاب العظيم لأنه كفر بآيات الله التى لا يؤمن أحد من البشر على آيات أبين ولا أجل ولا أعلى منها وهى آيات السموات والأرض وخلقكم وما يبث من دابة واختلاف الليل والنهار إلى آخره وكل هذا راجع إلى العزيز الحكيم وهذا هو التجمع الأول لمعانى السورة، والرأس الحاوية لكل ما فيها ورحم الله الرازى الذى قال: إن أكثر لطائف القرآن مودعة فى الترتيبات واللطائف، وهذا لم تتوفر عليه الدراسات القرآنية وتمهد السبيل لدراسته وهذا مما أحاوله:

وإنما يَبْلُغُ الإنسان طاقته ما كل ماشيةٍ بالرَّحْل شملالُ

قلت إننى كررت بيان الروابط فى الجاثية لأن هذه الوحدة لم تتضح لى فى سورة من السور التى درستها كما اتضحت لى فى الجاثية ولك أن تُسمِّيها الوحدة الفكرية أو المعنوية أو البيانية، أو العضوية، أو ما شئت من تسميات والمهم أن تُزَال كل الأغطية والأغشية التى تُموِّهْها على القارئ. وأعود إلى الآيات وأقول إن بناء الفعل للمجهول فى قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ﴾ ليس كبنائه للمجهول فى قوله جل شأنه: ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ وذلك لأن الذى يقول: ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لا رَيْبَ فِيهَا﴾ كل من آمن، ولا يقول ﴿الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ﴾ إلا قائل واحد هو الله سبحانه وتعالى. والبناء للمجهول فيها يساوى البناء للمجهول فى قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي﴾ [هود: ٤٤] لأنه لا يقول للأرض ابلعى فتبلع ولا للسماء اقلعى فتُقْلع إلا الذى قال للسماء والأرض كونا فكانتا.

وننساكم مجاز عن الترك والإهمال، لأن إهمال الشيء وتركه يُفضى إلى نسيانه أو أن نسيان الشيء يُفضى إلى تركه، وإهماله، فهو من المجاز المرسل، وعلاقته السببيه أو المسببة، والله سبحانه وتعالى لا يوصف بالنسيان لأنه جل شأنه منزه عن مشابهة الحوادث ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم: ٦٤] وهذا المجاز كناية عن الخلود فى النار وأنهم باقون فيها ما بقى الشيء المنسىُّ، وقوله جل شأنه: ﴿كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ هذه الكاف قالوا هى كاف التعليل، أى بسبب نسيانكم يومكم هذا، ويصح أن تكون كاف التشبيه، أى مثل نسيانكم يومكم هذا، والمهم أن الله سبحانه وتعالى يعلمنا وهو يحدثنا عن غضبه على أعدائه الذين حاربوا رسله وكتبه والإيمان به، أن العدل لا يجوز أن يغيب عنكم وإن كنتم فى قمة الغضب، وأن المجازاة لابد أن تكون بالمثل، وأنك إذا زدت عن المثل قلامة ظفر صِرْتَ أنْت الظالم، وصار الذى بين يديك هو المظلوم، وهذا من أرقى مبادئ العدل الذى تعمر به الأرض وله وقع شديد جداً على نفسى لأنى أرى وطنى يهدَّم بالظلم، والغطرسة، والجور، والبلطجة، التى هى شرط أساسى فيمن يختارهم الذى يختار للبلاد من يديرون شئونها، وإذا كان النسيان فى الجملة الأولى مجازاً عن الترك والإهمال فإن النسيان فى الجملة الثانية المراد به إنكار لقاء هذا اليوم، يعنى إنكار البعث لما قالوا: ﴿مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ ووجه التجوز بالنسيان عن الإنكار أن من نَسِيَ البعث لا يعمل له، وكذلك من أنكره، وفى هذا المجاز إشارات لطيفة أولها تحذير المؤمنين بالبعث من نسيانه، وعدم مراقبته فيما يزاولون من أقوال وأفعال، وأن يوم الآخرة ساعة أن يغيب من بين عينيك يشبه حالك حال من أنكره، ومقتضى الإيمان به أن يكون حاضراً بين عينيك، لأنه هو الضابط لقولك وفعلك، على صراط الله المستقيم، ولأنه هو البُوصلة التى توجهك دائمًا نحو جهة مَرْضاة الله فإذا نسيتها ربما

سرت فى غـير الطريق، هذا وجه والوجـه الثانى لهذا المجـاز أنه يقول لمن أنكروا البعث أنتم فى الحقيقة لم تنكروه وإنما نسـيتموه، والمنسى ليس منفياً وإنما هو مـوجود فى الضـميـر، لأن الفطرة توجب الإيمان بالبـعث، لأن خالق هذا الوجـود لابد أن يكون حكيمًـا، ولو لم يَنْزِلْ كتابٌ من السـماء يصفه بالحكمة، فإن النظر فى هذا الخلق يوجب وصفه بالحكمة. ويستحيل أن يخلق الحكيم الإنسان ويتـركه سُدًى من غير أن يحـاسب الظالم الباغى الفاجـر المتسلط، وأن يـجعل الضعـيف العاجـز عن أن يَنْتَصف آيـسا من الانتصـاف، لأن كثـيرًا من الناس إذا أحـسوا بالقـهر، والظلم، والـبغى، يأملون فى نصر الله يوم يقوم الناس لرب العالمين.

ووجود هذا اليـوم هو الداعى الذى يدعو الناس إلى الإنصاف، والرحـمة كما قال مؤمن آل فرعون: ﴿**إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ (٣٢) يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ**﴾ [غافر: ٣٢، ٣٣] ولو غاب يوم التناد هذا لتحولت الأرض إلى غابة، ولكانت غابة مختلفة لأن الوحوش التى فيها غير الوحوش التى فى الغابات، لأن الإنسان حين يتـحول إلى وحش يكون وحشًا أسوأ من كل وحش ويكفى أن تنظر إلى الأنيـاب الشرسـة التى فى الغابة التـى حولك والتى تعاظمت وزاد سلطانها فى هذا العهـد الذى يحارَبُ فيه يوم التناد ويُعَدُّ ذكره رجوعًا إلى الظلام، وهذا حسبى.

وقد تكررت كلمة اليوم فى هذه الجملة ثلاث مرات لأن اسم الإشارة راجع إليه وكان يمكن أن يقال: ﴿**الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ**﴾ ولكن اسم الإشارة ميّزه وحققه وأكده لأنـه لم يذكر بعد هذه الجملة وقد تكرر ذكر اليوم فى هذا القسم الأخـير مـن السورة الذى كـان رداً على من أنكـروه، فقـال سبـحانه: ﴿**ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ**﴾ ثم قال: ﴿**وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ**﴾ ثم قال: ﴿**الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾ ثم

قال: ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ﴾ ثم قال: ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ ولم يذكر يوم القيامة فى السورة قبل هذا التكرار والتوكيد، إلا مرة واحدة فى شأن بنى إسرائيل فى قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

واليوم المذكور فى أول الجملة هو اليوم المذكور فى آخرها، وهو معرف فى الأول بالألف واللام وفى الثانى بالإضافة إليهم، أما تعريفه بالألف واللام فهو للإشارة إلى أنه اليوم المتعالم المعروف، والذى لا يكون غيره بالنسبة إليه يومًا، فهو اليوم الذى تشخص فيه الأبصار، وهو يوم يقوم الناس لرب العالمين، وهو الذى يجعل الولدان شيبًا، وهو الذى تبيض فيه وجوه وتسود وجوه، وهو يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شىء، ولو تتبعت ذكر القرآن لهذا اليوم لوجدت أوصافًا عجيبة فى مقامات خفية، لا يكشف سترها، وتلاؤمها مع وصف اليوم إلا عرَّافٌ لَقِنٌ له من لدُن مُنزِّل الكتاب علم، هذا هو شىء من معنى الألف فى كلمة اليوم: أما تعريفه بالإضافة إلى ضمير المخاطبين فى قوله جل شأنه: ﴿لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ ففيه إشارة إلى تجهيلهم ومَقْتهم ومكابرتهم لأنهم يعرفون لقاء يومهم هذا، أو يعرفون هذا اليوم، والله سبحانه وتعالى يقول لهم: ﴿يَوْمِكُمْ﴾ يعنى أنتم أصحابه وهو معرف بكم ومضاف إليكم كما أقول دارك وكتابك ويومك. وأمسك، كل هذا يعنى أن ما أضيف إليك معلوم عندك وإنما أنكرتموه مكابرة، واتخذتموه هزوًا، كما ستدل الآيات بعد ذلك.

ومما يرجح هذا المعنى وأن إضافة اليوم إليهم إضافة دالة على أنهم يعرفونه وإنما أنكروه مكابرة مراجعة كلمة: ﴿نَسِيتُمْ﴾ ووقوعها على ﴿يَوْمِكُمْ﴾ لأن المنسى ليس وجوده مرفوضًا، وإنما وجوده ثابت ونُسى، وكل من سيقوا إلى النار سِيقُوا لأنهم كفروا بالحق بعد ما علموه، لأن الله سبحانه قال ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ

﴿حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ [الإسراء: ١٥] ولا يكون الرسول رسولا ملزما لمن بُعث إليهم إلا إذا كان مؤيدا من الله بأمر ظاهر، وقاهر، وقاطع للأطماع، ويعلم الكافة أن هذا الذى أظهره الله على يد هذا الرسول لا يخرج من وسع البشر، وفى السورة ما يدل على هذا؛ لأن الأفاك الأثيم كان إذا سمع الآيات أصر مستكبرًا كأن لم يسمعها وهذا لا يكون إلا لإحساس قوى فى داخله أنها الحق، ولا معنى لكلمة ﴿مُسْتَكْبِراً﴾ هنا إلا أن استكباره هو الذى كفه عن الاتباع؛ ولولاه لاتبع، ولهذا قال الضعفاء للذين استكبروا ﴿لَوْلا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ [سبأ: ٣١] يعنى أننا رأينا الحق لأنه لا شك فى أنه حق وإن استعلاءكم واستكباركم هو الذى حال بينكم وبينه وأن خطأنا أننا اتبعناكم، وفى السورة أيضًا ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا﴾ وهذا يعنى أنه علم شيئًا من آيات الله، وأول ما يعلم من آيات الله أنها حق وأنها لذلك سميت، آية، هذا والله أعلم.

بقى انتقال الكلام من الغيبة فى قوله تعالى ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ إلى الخطاب فى قوله سبحانه ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ﴾ وقد لاحظنا هذا الترواح بين الأساليب وتكرر ذلك كثيرًا؛ وأريد فقط أن أراجع آيات يوم تقوم الساعة وما كان فى هذا اليوم كما تصوره صورة الجاثية، وأن أتبين طبيعة المعانى التى أوثر فيها طريق الخطاب، وقد لاحظت أن الخطاب جاء فى هذه الجمل ﴿الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ وهذه الجمل الثلاثة الأولى إعلام بأن اليوم يوم الجزاء، والثانية بيان الشاهد الذى يشهد عليهم، والثالثة توثيق شهادة هذا الشاهد، والخطاب فى هذه الثلاثة مهم جداً لأن أعدل العدل أن تحاكم الحاضر المخاطب، وأن يكون شهوده لا ترقى إليهم الشبهة، وأن يواجه بذلك حتى يتأكد هو وكل من أذنب أنه لا عقوبة إلا بذنب، ولا ذنب إلا بشهادة شاهد لا ترقى إليه الشبهات، وأن مالك السموات والأرض لا يقضى على عبده إلا

بذنبه، وإلا بشهود هذا الذنب، وأن العدل الذى قامت عليه السموات والأرض فى الدنيا هو العدل الذى قام عليه أمر الآخرة، وأن النار لا يدخلها مظلوم، وكل هذا لا يكون الإخبار عنه وإنما يكون الخطاب به.

ثم انتقل الكلام إلى الغيبة فى الإخبار عن الذين آمنوا، وأدخلهم ربهم فى رحمته ثم لما جاء الكلام إلى الذين كفروا وهم يساقون إلى العذاب عاد أسلوب الخطاب وكأنهم يسمعون قائمة الذنوب تتلى عليهم، وهم شهود مخاطبون، وهذا أيضًا داخل فى الذى قلته وأن عدل الحق سبحانه يقتضى أن تكرر فى مسامع هذا الظالم الآثم الأفاك الخطايا التى أفضت به فقيل له ﴿أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ وهذه واحدة والثانية أنه كان إذا قال أهل الإيمان ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ سخرتم وقلتم ﴿مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا﴾ ثم يغيب وجودهم ويحيط بهم ما كانوا به يستهزئون، وهذا عدل آخر لأن العذاب الذى أحاط بهم هو عملهم واستهزاءهم بآيات الله، وانتهى موقف الجزاء وأحاط بهم سرادقها ولم يبق إلا كلمة الحق التى لا يقولها غيره سبحانه وهى أن يستيقنوا الخلود فى قلب الدائرة التى أحاط بها العذاب، والخلود فى النار هنا لا يحدَّث به عنهم وإنما يحدَّث به إليهم، فقيل لهم ﴿الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ والجزاء هنا نسيان بنسيان، كررت كثيرًا كلام العلماء فى الالتفات، وأنه يفيد الكلام تطرية وإيقاظا، وأن مواضعه تختص بلطائف، وهذا من أكرم ما قاله علماؤنا وأضيف هنا أن الانتقال إلى طريق الخطاب خصوصًا يوجب علينا تحليل موطن هذا الخطاب، والذى لاحظته فى الآيات أن مواطن الخطاب فيها تؤكد ضرورة العدل فى محاكمة أشرس الظالمين، والأفاك الأثيم وأنه ليس هناك مبرر يبرر القسوة على المحكوم عليه مهما كان جرمه وأن الله حمى الظالمين الفجار إلا فيما ظلموا فيه وفجروا، وما أحوج أهل الأرض إلى عدل السماء، وربما كان الذى لفتنى إلى هذا المعنى هو الواقع الظالم الفاجر الذى يعيشه قومى

على أرض الكنانة، وما يواجـهون من عسف وقمع وتدميـر للرجل ولأسرته وأولاده وتغييب له سنوات ربمـا تكون أكثر سنوات عمره، من غـير أن يعرف هو نفسـه أنه لماذا رُمِىَ فى سجون الفجـرة، لم يقع على أرض الله أبشع من هذا الذى نراه، أقول هذا هو الذى وجَّه فهمى للآيات، ورأيته فهـما مستقيمًا جداً واللغة دالة عليه دلالة ظاهرة، وعجـبت لمن يخافون من تطبيق شرع الله ويركنون إلى هذا الظلم الذى نعانيه تحت اسم الدولة المدنية الحـديثة والليبرالية وحقوق الإنسان وكلهم يتكلمون بهذا وكلهم يكذبون.

قوله جـل شأنه ﴿وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ﴾ هذه الجملة مـعطوفة على قـوله تعالى ﴿الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ﴾ وداخلة فى مقول القـول، وإذا فسـرناها بأن مـثـواكم النار أو مصيركم النار، أو هى داركم ومستقركم كانت بهذا التفسير لا تعطى معنى زائدًا على قـوله سـبحـانه ﴿الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ﴾ لأنه كناية عن الخلود فى النار ودلالة اللغة تفيد أن لها معنى آخر غير كل هذه الوجوه من التفسير وذلك لأن كلمة المأوى من آوى إلى كذا إذا رجع إليه، وهو على حـالة يرجو صلاحها، فالمأوى ما يأوى إليه الخائف ليأمن، والمكـروب ليذهب كربه، والجائع ليشبع، والضال ليـهتدى، ويقال فـلان مأوى الخائف الفزع، أى يأوى إليـه الخائف، وفلان مأوى البائس، قال زهير فى هرم بن سنان:

تالله قـد علمـت قـيسٌ إذا قَـذَفت ... ريحُ الشـتـاء بيـوت الحىَّ بالـعُنَنِ

أن نعم مُـغـتَـرَكُ الجـيـاع إذا ... خَبَّ السـفيرُ ومأوى البـائس البَطِنِ

والعُنَن بضم العين جمع عُنّة وهى حظيرة من شجر تُعمَل حول البيت.

والسفـير مـا حملتـه الريح من ورق الشجـر، وأراد الشاعر شـدة الوقت ومأوى البائس أى يأوى إلـيه البائس لأنه يرعاه، والبَطِن الجـائع، وقال زهير أيضًا فى سياق مشابه:

ولَنِعْـمَ مـأوى القـوم قَـدْ عَلِمُـوا ... إذا عَـضَّـهُمْ جَلٌّ من الأمـر

وتأمل كلمة «جَلٌ من الأمـر» بفتح الجيم «وعضـهم» وأنهم يأوون إليه فى هذه الشــدة، وهى غير الشــدة التى سبـقت، وأنهم قد علمـوا أن هذا مكانه فيهم، وراجع لتعرف قيمة الجيل الذى أنزل الله عليه الكتاب.

وقال سبحانه: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۝ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ [الضحى: ٦-٨] ذكر الغنى مع العيلة وهى الحاجة وذكر الهدى مع الضلال، وذكـر الإيواء مع اليتم، لأن العـيلة والضلال أحـوال محـدودة بخلاف اليتم فإنه جامع لأحوال كثـيرة، وكل هذا يعنى أن قوله سبحانه ﴿وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ﴾ ليس معناه أنها مثواكم ومصيركم فحسب وإنما فيه أنكم تواجهون فى العذاب كروبا وأهوالا وفزَعا وخوفا وتبحثـون عن مأوى تأوون إليه من الذى أنتم فيه فلا تجدون إلا النار، وهذا شىء آخـر، وأهول من الهول أن يفزع المرء مـن الهول إلى أهول من الهول، ولبـيان هذا المعنى قـال سبـحانه ﴿وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ﴾ ولم يقل مأواكم جهنم، وإنما ذكر النار التى فى جهنم وهى أصل العذاب وأصل الهول فى الجحيم وأن هذه النار التى هى الأصل هى مأواهم الذى يأوون إليه مـن هول ما هم فيه، والمعنى ننسـاكم فى هول تأوون منه إلى أهول من الهول، وفـيها غـضب شديد، وفيهـا أيضًا رحمة الرحمـان لأن الله سبحانه صور لنا هذا ونحن فى فـسحة من أمرنا لـنحذر ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾ [مريم: ٣٩] وهذا هو سطح هذه الجملة، وإن أردت فقـه أكثر فادخل فى معمـعمة هذا المأوى لتجد صـورا أخرى، منها ثياب قطعت من نار يصب من فوق رؤوسـهم الحميم، ومنها مقامع من حديد، ومنها جلود تحترق ثم تنبت مكانها جلود لتذوق العذاب، ومنها أنك تسمع لجهنم تغيظا وزفيـرا، وتسمع الضُّلَّال وهم يصطرخون فيها إلى آخر ما يملأ سقر من أوصاف أهوال الجحيم، وإن أردت مزيدا من التغلغل فى هذا المأوى فقف عند بعض من ترى ممن يصطرخـون واسأله عن الذى جاء به إلى هنا واسمع منه ما زاوله فى الدنيا، لأنه لن يكـذب عليك هناك كما كذب على الناس

هنا وكيف زاول الظلم والقمع والسلب والنهب واستباح الأموال والدماء والأعراض وأدخل الهم والكرب على أهل الأرض الآمنين وهذا حسبى، وقد فتحتُ البابَ والمسيرُ عليك كما كان يقول الباقلانى، قوله جل شأنه ﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ هذه الجملة لها خصوصية فى مبناها وهى دخول حرف النفى على الخبر الجار المجرور المقدم على المبتدأ وهى أخت قوله تعالى ﴿لا فِيهَا غَوْلٌ﴾ [الصافات: ٤٧] وقد ذكر جمهور البلاغيين أن هذا البناء يفيد الاختصاص وأن نفى الغول خاص بخمر الجنة بخلاف خمر الدنيا ففيها غول وقالوا ولهذه الدلالة جاء قوله تعالى ﴿لا رَيْبَ فِيهِ﴾ على غير هذه الخصوصية لأنه لو قال لا فيه ريب لأثبت الريب لغيره من كتب الله وليس هذا مرادا.

وإذا قلنا بهذا فى هذه الجملة يكون نفى الناصر خاصا بهم بخلاف غيرهم من عصاة أهل الإيمان فإنهم ينصرون بالخروج من النار، وإذا قلنا برأى غير الجمهور وأن هذا لا يفيد الاختصاص قطعا وإنما قد يكون للتوكيد وحملنا هذه الآية على ذلك يكون المعنى توكيد أنه لا ناصر لهم، والمعنيان سائغان واللفظ يحتملهما، وكلمة ﴿مِّن﴾ فى قوله جل شأنه ﴿مِّن نَّاصِرِينَ﴾ داخلة على المبتدأ وهى زائدة تفيد استقصاء نفى ناصر أى ناصر وكل هذا ظاهر من تركيب اللغة، والذى يحتاج إلى مراجعة هو أنهم حين كشف عنهم الغطاء بسكرة الموت استيقنوا أنه ما لهم من ناصر، فما وجه خطابهم بالأمر المستيقن عندهم؟ والذى فى كلام علمائنا رضوان الله عليهم أن هذه الجملة تفيد أن النار مأواكم الدائم وأنه ليس لكم منها مخلص، وأنها تفيد الإشارة إلى تخطئتهم .فى الدنيا لما ظنوا أن المعبودات بالباطل يمكن أن تنصرهم أو أن تكون لهم شفعاء وهذا صحيح واللفظ يحتمله ولا يصح لأحد أن يبعد معنى تحتمله كلمة من القرآن ولو على وجه بعيد لأن ما يفيده لفظ القرآن خطاب الخالق لخلقه ولا يجترئ مسلم على أن يبعد من خطاب الله شيئًا دلت عليه كلماته دلالة ما وإن بعدت جداً.

ويمكن أن يضاف إلى ما قالوه معنى آخر وهو الإشارة إلى أنكم ستجدون فى هذا المأوى الذى تأوون إليه ضروبًا من العذاب تجعلكم تختلطون فتطلبون ما تعلمون أنه لا سبيل لكم إليه، ستقولون ربنا أخرجنا منها، وأنتم تعلمون أن ذلك لن يكون وستقولون لأهل الجنة أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله، وأنتم تعلمون أن ذلك لن يكون وستقولون يامالك ليقض علينا ربك، وهكذا.

وراجع ما قيل للذين كفروا مرة ثانية تجد أن الآيتين الأولى والثانية تقرير لهم بخطاياهم ﴿ أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ (٣١) وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلاَّ ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴾ [الجاثية: ٣١، ٣٢].

ليس فى هذا أكثر من التقرير بالذنوب وحصرها وعدها ثم يجىء قوله تعالى: ﴿ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ ليبين أن الذى قررناهم به صار أمامهم، ورأته عيونهم، وحاق بهم، ثم تجىء آية ﴿ وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ ﴾ للدلالة على الخلود، وجملة ﴿ وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ ﴾ هى الجملة المتميزة فى دلالتها على العذاب وأنهم يئلون من شر إلى شرٍّ أهول منه ثم تجىء هذه الجملة لنفى النصير، وهكذا تجد الجمل بينها فروقًا خفية ودقيقة فى الدلالة وغيابها يعنى غياب الفهم الواجب.

لخصت هذا لأقول إن قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا فَالْيَوْمَ لا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ سلكت الآيات مسلكًا آخر، لأنها ليست تقريرا بالخطايا كالآيات الأولى، وليست بيانًا للعذاب كآية مأواكم النار، وإنما هى تعليل للذى هم فيه، وهذا جيد من جهة أن إقرارهم بالذنوب ليس كافيًا وحده لرميهم فى جحيم العذاب، وإنما بعد هذا الرمى وبعد التيئيس من الخروج منه لابد أن يسمعوا مرة ثانية سبب مصيرهم هذا، ولابد أن أسمع أنا وأنت وكل المكلفين بشريعة الله أن هذه الخطايا المذكورات وهى الاستهزاء بآيات الله والاستكبار عليها

وتكذيب وعد الله والغرور بالدنيا وكل ما هو محيط بى وبك وبكل من عاش من ولد آدم على هـذا الكوكب، لابد من أن يسمع الكل أن هذه المذكورات هى الأدوات التى يُبنى لمجترحها بها بيت فى الجحيم، وهذه هى رحمة الرحمن لأنه كشف لنا الغيب، وأبدى لنا منه أخطر صفحة، لأن من لم يردعه هذا فلا يلومنَّ إلا نفسه، اللهم إنك إن تكلنا إلى أنفسنا لنكوننَّ من الهالكين.

واسم الإشارة فى قوله تعالى ﴿ذَلِكُم﴾ يرى البعض أنه راجع إلى قوله تعالى ﴿وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ﴾ وهذا فهم دقيق لدلالة الجملة التى رجع اسم الإشارة إليها لأنها خلاصة الكلام من أول قوله تعالى ﴿أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ ولأنها الجملة المتميزة فى دلالتها على العذاب وإن لم تدل دلالة مباشرة، وإنما قالت إنكم ستأوون إلى ما هو أهول مما تفرون منه؛ واسم الإشارة يميز المشار إليه أكمل تمييز، حتى يكون الحديث عنه حديثًا ظاهرًا، ودالا على شدة عناية البيان بهذ الحديث، والذى تميز أكمل تمييز هو مأواكم النار؛ لأنها معقد معنى هذا الجزء من أول قوله ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ﴾، وراجع تجد كل ما فى هذا القسم مُنْتَهيًا إلى ﴿وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ﴾ وأن القسم الأول تأكيد على العدل الواجب فى محاسبة القوم المجرمين والقسم الثانى تقرير بالخطايا، وهكذا، ويذكر علماؤنا أن اسم الإشارة هنا فيه معنى التعليل كالكاف التى فى قوله ﴿كَمَا نَسِيتُمْ﴾ والتعليل بالكاف يُشَامُ التشبيه، والتعليل باسم الإشارة يشامم السببية؛ وقوله جل شأنه ﴿بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُم آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا﴾ فيه إشارات سخية فى مبناها، أولها التوكيد بإن وهى مُنْسبكة مع ما بعدها بمصدر، وإنما جىء بالمصدر المؤول لهذا التوكيد ولمطل الدلالة أعنى التطويل فيها حتى يستوعبها القارئ والسامع، ثم فيها تقديم المسند إليه على الخبر الفعلى المفيد للتوكيد ﴿بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ﴾ وصيغة الافتِعَال فى قوله تعالى﴿اتَّخَذْتُمْ﴾ تدل على أنكم زاولتم ذلك بموفور همة ورغبة ونشاط ثم إضافة الآيات إلى الله الذى هو اسم الجلالة الدال على الاتصاف بكل كمال والمنَزَّه عن كل نقص، وكذلك

آياته، وهذا يوجب لهـا التقديس والتـعظيم، وليس الاستهـزاء، ثم استعـمال المصدر فى قـوله تعالى ﴿هُزُوًا﴾ والمرادُ به اسم المفعـول أى جعلتم آيات الله موضع الهزء، وهذه الجملة مليئة بالغضب وهى جملة عريقة فى موقعها، لأنها وهى فى آخر الســورة رجعت إلى الأفاك الأثيم الذى لا يـتم العلم به إلا بذكر الآيات التى قبلـه والتى يسمعـها ثم يصر مـستكبرًا والـذى إذا علم منها شيـئًا اتخذها هزوًا والذى لا يرجو أيام الله والذى اتخذ إلهه هواه والذى قيل له وهو يساق إلى الجحيم بعدما جثا عـلى ركبتيه وبعدما حوسب ﴿أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ﴾ وكل هذا معناه أن هذه الجملة تجـمع أهم الخيوط التى قام عليها نسيج السورة، وأنها لا تطوى صـفحة الذين كفروا فحسب، وإنما تطوى هى وما بعدها صفحة السورة وتَرُدُّ عَجُزَها إلى صدرها وإذا رأيت العجز ينتهى إلى الصدر وتكتمل بذلك حلقة السورة ويلتقى طرفاها ثم رأيت أن هذا الالتقاء يمثل طرفين من الأطراف الـتى هى أقطاب دارت عليها أكثر مـعانى السورة إذا رأيت ذلك فاعلم أنك خطوت خطوة اقتربت بك إلى سر من أسرار بيان السورة.

قوله سبحانه: ﴿وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ يقال غرتكم الدنيا كما يقال غرّهم العَدُوُّ وغَرَرْت فلانًا أصبت غِرّته أى غفلـته، والعدو أصاب غِرّة القوم، والدنيا أصابت غِـرة الذين غرتهم لأنهم لولا هذه الغـرة أى الغـفلة ما اغتـروا بالدنيا لأنها ظل زائل وعارية مستردة، والمكث فيـها قليل وهــذا ما يدركه العقل قبل أن ينزل به الشرع، واليقظة حـصن حصين، وجملة ﴿وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ مـعطوفة على جـملة ﴿اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا﴾ وأنهـا قـسيمتـها فى سـبب ﴿وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ الذى يعـود إليه اسم الإشـارة، وأنهم ارتكبوا خطيئتين الأولى اتخاذهم آيات الله هزوًا، والثـانية غرتهم الحياة الدنيا، وتجد تقاربًا شديدًا بين الجملتـين؛ أولا لأن العاقل لا يتخذ الآيات البينات هزوًا وإنما يقف ويُحلّل ويراجع، ولا يتخذ الآية أعنى العلامة القاطعة هزوًا إلا طياشٌ أحمق مغيَّب العقل، وهذا ظاهر، والذى غرته الدنيا هو الذى انتـهزت الدنيا

غِرته يعنى غفلته وباغـتته وهو فى هذه الغِرة واستولت عليه كـما يباغت العدو غرة قوم وينتهزها قبل أن يتنبهوا، المتخذ آيات الله هزواً، وصاحب الغفلة الذى غرته الدنيا أُبْعدَتْ وأُبطلت وسائل يقظته، ووسائل إدراكه، وهم الذين قال الله فيهم ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٧٩] وكل هذا يفسر بعضه بـعضًا فصاحب الغِرة هو الذى لا يفقـه بقلبه ولا يرى بـعينه وهو المسـتعلى بالجـهالة والعمـاية، ولا شك أن حضور القلب، وتدبر العقل وإعمـال القوى الإنسانية النشطة فى داخل الإنسان تدعوه إلى تقديس آيات الله بدل اتخاذها هزواً، وتدعوه إلى أن يَضع الدنيا فى موضعـها الصحيح بدل أن تنتـهز هى غِرّته، وتنتزعـه من نفسه، ويصيـر عبداً متعوسًا للدينار والدرهم والقطيفة وقـد لاحظت فى الجملتين شيئًا أقوله وأرجو أن يصح وهوُ أن ترتيب الأحداث ووضع الجمل فى الترتيب على وقعها يقتضى تقديم جملة وغـرتهم الحياة الدنيا على اتخـاذ آيات الله هزواً لأن هذا الاغترار الذى تكون من نتائجـه تغييب قوى الإدراك والـتعقل والتيـقظ هو الذى ينتهى بالطيش والحمـاقة والعماية الممـثلة فى اتخاذ آيات الله فى الكون، وفى الأرض وفى السـمـاء، وفى الحديث هزواً، وقلـت إنه لا يتخـذها هزواً إلا الأحـمق الطياش، ولكن الكـلام الشريف جاء على تقـديم الـمُسّبب عـلى السبب وهو عكس الترتيب، وذلك لبيان فظاعـة وشناعة اتخاذ آيات الله هزواً لأنه لا يقدم على ذلك إلا من أفرط فى سوء أدبه مع الله

وهناك شناعة ثـالثة تأتى مع الاستـهزاء بآيات الله كـثيراً وهى الاسـتكبار ويبدو أن الاستكبـار واسطة بين الاغترار والاستهـزاء؛ لأنه لا يتخذ آيات الله هزواً إلا من استعلى عليـها، ولا يستعلى عليها إلا فـارغ ومغرور، وكاذب، وقد ذكر الكتاب العزيز فى شـأن الأفاك الأثيم وهو الشاغل الأكبر لآيات هذه السورة، ذكر الكتاب أنه استكبر أولا واستهزأ ثانيًا ﴿يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ ثم ذكر ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا

هُزُوًا﴾ وفى قوله تعالى ﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ إشارة إلى تغييب قوى الإدراك واليقظة الذى هو الغفلة والتى هى سبيل الحياة الدنيا حين تَغُرُّ من تَغُرّ.

والاغترار بالدنيا قد يخامر نفوس أهل الإيمان، وهو الخطوة الأولى إلى سواء الجحيم، ولذلك كان ﷺ يحذر أصحابه من الدنيا التى هى مزرعة شر للآخرة وليست التى هى مزرعة خير لها، ويقول لهم إن الدنيا خضرة حلوة، وكان على رضى الله عنه يخاطب الدنيا ويقول غُرِّى غيرى، وعلا صوت الصديق وهو على فراش موته بتحذير أصحاب رسول الله ﷺ منها، وليس محرمًا أن تمتلك ما تمتلك منها وإنما المحرم أن يمتلكك ما تمتلك منها، وامتلاكها لك هو معنى غرتك أى انتهزت غرتك وامتلكتك فليس علينا من حرج أن نملك الدنيا والحرج كل الحرج أن تمتلكنا الدنيا، وكيف والله سخرها لنا ولم يسخرنا لها، ومن العبث الفارغ أن ننسحب من الدنيا وأن ندعها لأعدائنا وهذه آخر جملة يخاطب فيها الذين كفروا ﴿وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ وهى بداية طريق الضلال وهى مساحة قد يلتقى عليها أهل الإيمان الذين حذرهم رسول الله منها وأهل الباطل، وتنتهى مع أهل الباطل بالاستهزاء بآيات الله، ولهذا كانت آخر خطابهم ليبقى هذا الآخر فى النفوس ويبقى التحذير واضحًا ولا يهلك على الله إلا هالك.

وقوله سبحانه ﴿فَالْيَوْمَ لا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ انتقل الحديث فى أقل من لمحة عين من الخطاب إلى الغيبة وكان خطابهم تحت لسانك ولبيانى ثم ذهب وصار الحديث عنهم بعد ما كان الحديث معهم، ولا أعرف سرًا للذى أخفاهم بأسرع من البرق الخاطف وكأنهم هم أيضًا خُطِفُوا من مشهد الحوار، قلت إنى لا أعرف سر هذا الالتفات فهل تراه إشارة لمن غرتهم الحياة الدنيا فعاشوا فيها ما عاشوا وهم عبيدها ثم إذا خطفهم الموت ضاع ذكرهم من الأرض لأنهم لم يزرعوا فيها خيرًا لأنه لا يزرع فيها الخير إلا أهل الإيثار، والذين غرَّتهم الدنيا هم أهل الأثرة والأنانية، وهؤلاء لا يَبْقى لهم

لسان صدق فى الناس، وكلمة ﴿الْيَوْمَ﴾ التى بدأت بها هذه الجملة راجعة وهى كلمة الختام فى هذا المشهد الذى بدأ بيوم تقوم الساعة إلى رأس هذا المشهد الذى بدأ به وبهذا يُرَدُّ عجز هذا القسم على صدره، وكان صدره بذكر اليوم من حيث هو ظرف لخسران المبطلين، وجاء عجزه بذكر اليوم نفسه من حيث هو ظرف لعدم خروج هؤلاء المبطلين من النار، وكان هذا العجز بيانًا لهذا الصدر، يعنى أن خسرانهم فى يوم تقوم الساعة هو عدم خروجهم اليوم من النار، وهذا جيد، وجيد أيضًا أن تذكر أن هؤلاء الخاسرين المبطلين هم الذين أنكروا يوم الساعة، وقالوا ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ﴾ وأن ختام الحديث معهم وعنهم هو أن يوم الساعة الذى أنكروه هو يوم لا يخرجون منها، يعنى هو الظرف الذى حبسهم فى النار فكان جزاء وفاقًا أن يحبسوا فى النار فى اليوم الذى أنكروه، وقالوا فيه ﴿إِن نَّظُنُّ إِلاَّ ظَنًّا﴾ ومنهم الذى سيقول فى الأحقاف ﴿أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾ أنكر الساعة وأنكر أن وعد الله حق كالذى معنا.

وقوله سبحانه ﴿فَالْيَوْمَ لا يُخْرَجُونَ مِنْهَا﴾ قرئ بالبناء للمجهول وهى القراءة المشهورة وفيها معنى يقترب من قوله تعالى ﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ يعنى أن الهول الذى يواجهونه سوف يجعلهم يطلبون ما يعلمون أنه لا سبيل لهم إليه، فهم يعلمون أنهم لن يخرجوا من النار ومع ذلك سيقولون ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا﴾ ويشتد عليهم الهول فيقولون ﴿فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾ وفى غير المشهور قرئت الآية بالبناء للمعلوم والمعنى أنهم يَهمون بالخروج فلا يستطيعون كما فى قوله تعالى ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا﴾ والقراءتان تجمعان الحالتين.

وقوله تعالى ﴿وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ معطوف على قوله ﴿لا يُخْرَجُونَ

مِنْهَا﴾ وداخل معه فى الظرف، ومعنى البناء للمجهول أنه لا يستعتبهم أحد والاستعتاب كما فى اللسان طلبكَ من المسيئ الرجوع عن إساءته، وفى الحديث «ولا بعد الموت من مستعتب» أى ليس بعد الموت استرضاء فليس بعد الموت رجوع عن ذنب، لأن الرجوع والتوبة زمانها دار التكليف، وبالموت يبطل التكليف، ويطوى الكتاب على ما فيه لا يزيد ولا ينقص، وذكر صاحب اللسان وجهًا للآية قال فيه وفى التنزيل العزيز ﴿وَإِن يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ﴾ [فصلت: ٢٤] معناه إن أغاثهم الله تعالى وردهم إلى الدنيا لم يعتبوا يقول لم يعملوا بطاعة الله، لما سبق لهم فى علم الله من الشقاء وهو قوله تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ ومن قرأ ﴿وَإِن يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ﴾ [فصلت: ٢٤] (يعنى بالبناء للمعلوم) فمعناه إن يستقيلوا ربهم لم يقلهم ولاحظ التقارب بين القراءتين فى الجملتين.

وقد اختلف بناء الجملتين؛ الأولى ﴿لا يُخْرَجُونَ مِنْهَا﴾ دخل النفى على الفعل فأفاد نفى خروجهم منها من غير أن يتعرض لخروج غيرهم بنفى ولا إثبات. والثانية ﴿وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ دخل النفى على المسند إليه المقدم على الخبر الفعلى وهذا يفيد عند عبد القاهر الاختصاص قَطْعًا يعنى أن نفى الاستعتاب أى الإقالة من العذاب خاص بهم بخلاف غيرهم فإنه يُقْبل منه الاستعتاب وهم عصاة المؤمنين الذين يستقيلون من النار فيقالون.

ويلاحظ أن نفى الخروج من النار هو أيضًا خاص بهم بخلاف عصاة أهل الشهادتين فإنهم يخرجون، ولو قال سبحانه فاليوم لا هم يخرجون من النار ولا هم يستعتبون لاستقام المعنى، ولم يأت الكلام على هذا الوجه لسر لا أعلمه، وقد يقال إن الجملة الثانية فيها إشارة إلى إكرام الله لأهل الشهادتين الذين وقعوا فى معصيته وأنهم يستقيلون فيقالون ويستعتبون فيعتبون ولهذه الجملة بهذه الدلالة نظائر منها قوله تعالى: ﴿وَإِن يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ﴾ [فصلت: ٢٤] ودخول من الجار على الخبر فيه إشارة إلى أن هناك

معتـبين وليس هؤلاء منهم ولعل المراد بهم أهل المعصيـة من المسلمين وأن الله سبحانه وتعالى يرفع عنهم العذاب في بعض ما اجترحوا. هذا، والله أعلم.

وهاتان الجملتان متقاربتان في البناء من الجملتين السـابقتين ﴿وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ جملة ﴿وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ﴾ جاء بناؤها على مـا يجيء عليه أصل الكلام وهي أخت جملة لا يخرجون منها التي جاء بناؤها على ما يجيء عليه أصل الكلام ثم هما متقاربتان جداً في الدلالة، لأن الذي مأواه النـار لا يخرج منها؛ . فـالتقارب في المبنى وفـي المعنى، وجملة ﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ أخت جملة ﴿وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ من حيث المعنى والمبـنى، والذي لا ناصر له هو الذي ليس من المعتبين، هذا لا يُنْصَر وهذا لا يُعتب وهم يقولون أعتبه أزال عَتْبه أي غضـبه كما يقـولون أشكاه أزال شكواه فالهمـزة للإزالة، وفي الأولى تقدم النفي على الخبـر الجار والمجرور، والمفيـد للاختصـاص غالبًا، وفي الثانيـة قدم النفي على المسند إليه المقدم على الخبر الفعلي المفيد للاختصاص أيضًا لازمًا عند البعض وغالبًـا عند البعض، وهذا التناسب في بناء الجمل سرٌ من أسـرار البيان فإذا أضـفت إلى ذلك هذا التعـادل، والتناسب في عدد الجـمل، وجدت نَسَـقًا بيانيا عاليًـا، اقرأ من أول قوله تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ تجد جملتين ثـم قوله جل شأنه ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ تجـد جملتين ثم قـوله ﴿وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ تجد جملتين، ثم ﴿اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾، ثم ﴿فَالْيَوْمَ لا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ كل جملتين أحاطتا بمعنى وإذا رجعت إلى أول هذا القسم وجدت إحاطة كل جملتين بمعنى شائعًا جداً، خذ قوله تعالى: ١-﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ ٢- ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ﴾ [الجاثـية ٢٧]، ١- ﴿وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَـةً﴾ ٢- ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية: ٢٨] ١- ﴿هَذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ﴾ ٢- ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَـلُونَ﴾ [الجاثية: ٢٩]،

١- ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، ٢- ﴿فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾ [الجاثية: ٣٠]١- ﴿فَاسْتَكْبَرْتُمْ﴾ ٢- ﴿وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ [الجاثية: ٣١] ١- ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ ٢- ﴿وَالسَّاعَةُ لا رَيْبَ فِيهَا﴾ [الجاثية: ٣٢] ١- ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾ ٢- ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾ وبقى فى السورة جملتان ١- ﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ٢- ﴿وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الجاثية: ٣٦، ٣٧].

والازدواج بين جملتين يستوعبان معنى واحدًا كثير جداً فى الكتاب وفى أى سورة تقرأ ستجد ذلك، خذ قوله تعالى ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ (٣٢) وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ [إبراهيم: ٣٢، ٣٣] راجع تسخير الفلك مع تسخير الأنهار ثم تسخير الشمس والقمر مع تسخير الليل والنهار والليل والنهار نتاج تسخير الشمس والقمر ثم اقرأ ﴿وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: ٣٤] واقرأ ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم﴾ [إبراهيم: ٢٢] واقرأ ﴿كَلاَّ سَيَعْلَمُونَ (٤) ثُمَّ كَلاَّ سَيَعْلَمُونَ (٥) أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهَادًا (٦) وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا (٧) وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا (٨) وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا (٩) وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا (١٠) وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا (١١) وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا (١٢) وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا (١٣) وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا (١٤) لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا (١٥) وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا (١٦) إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا (١٧) يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾ [النبأ: ٤: ١٨] وقد يمتد الكلام فيستوعب آية ثم تأتى بعدها آية هى الوجه الثانى للمعنى وهذا كثير، وقد يقصر الكلام فتتلاقى المفردات، راجع أول التكوير ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ (١) وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ (٢) وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ (٣) وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ﴾ [التكوير: ١: ٤] راجع كورت..

سيرت . . عطلت . ومثل هذا كثير جداً وهو باب من أبواب البلاغة القرآنية العالية وله نظائر فى الشعر والنثر، ونحن فى الشعر والنثر ندرسه تحت عنوان صنعة الشاعر والكاتب، واللغة التى نصف بها بلاغة كلام الله لا يقال فيها كل ما يقال فى بلاغة كلام الناس .

والفنون البلاغية التى استخرجها علماؤنا فنون جليلة جداً وقد أنجز بها علماؤنا إنجازًا عاليًا جداً، ويعلم ذلك من يحاول أن يضيف فنّاً واحدًا ويواجه الصعوبة التى يجدها، وهى مع ذلك أضيق مساحة من مساحات بلاغات الكلام وأسراره، لأن مساحة بلاغة الكلام تتجدد وتتلون بألوان وظلال تكون لها فى زمان دون زمان وفى بيئة فكرية وثقافية دون غيرها .

وقد شاع عند بعض المبتدئين أن ما يتصل بالألفاظ ليس من البلاغة وربما نسبوا ذلك إلى بعض القدماء وهو كلام صحيح إذا كان هذا الشأن اللفظى جىء به فى الكلام ليحقق هذا الجمال اللفظى فقط، وأن يكون الذى استدعاه هو تلك الحلية اللفظية أما إذا كان استدعاه المعنى استدعاء لا يتم المعنى إلا به فهو من جوهر البلاغة، والدارس المتمرس هو الذى يفصل فى هذا الشأن . وقوله سبحانه ﴿ فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ من أظهر آيات الكتاب فى دلالتها على ختام السورة، ومن أكرم ما يرد به العجز على الصدر ومن أبرع ما يتضمن كل المعانى الواردة فى السورة، وعجيب أنك تراها فى المطالع فتكون من خير المطالع كما تراها فى الخواتيم فتكون من خير الخواتيم .

قلت هى من أظهر ما يدل على الخواتيم لأن القرآن العظيم علمنا أنها تأتى بعد الحساب والجزاء ودخول أهل الجنة الجنة، ودخول أهل النار النار كما فى الزمر ﴿ وَتَرَى الْمَلائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الزمر: ٧٥] وفى آخر المائدة بعد القضاء الذى ختمه ربنا بقوله ﴿ هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ

تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١١٩) لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: ١١٩، ١٢٠] ثم جاء الحمد فى أول الأنعام وكأنها امتداد للمائدة، وكأن آخر آية فى المائدة هى التى أنتجت أول آية فى الأنعام لأن آية الجلال التى تقال بعد قضاء الأمر وهى ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ تستدعى آية الحمد لأن الحمد يقع موقعه الأحسن فى مقام الجلال والإكرام هذا شىء من دلالتها على ختم السورة.

أما أنها يرد بها العجز على الصدر، فيكفى فى بيان ذلك هذه الفاء التى افتتحت بها وقد ذكر شيوخنا رحمهم الله أنها ترتب ما بعدها الذى هو الحمد والكبرياء على ما قبلها وهو كل ما جاء فى السورة، فلله الحمد الذى أنزل الكتاب، ولله الحمد الذى بين لنا آياته، ودلنا بها عليه، ولله الحمد الذى جعل حديثه لنا آية لا يؤمن الناس على آية أبين منها، ولله الحمد الذى دلنا وحذرنا من شدة غضبه على الزائغين عن الحق المتلاعبين بالباطل، والذين يعيشون بيننا عيشة المهرجين، ولكن فى لباس الثقافة والعقلانية، والإفك الأثيم، وهم فى الحقيقة خدم تحت أحذية الجهلة الطغاة الذين سرقوا أمر البلاد واستعانوا بثرواتها على بقاء جريمة السرقة وهؤلاء هم بأعيانهم الذين قالت السورة فيهم ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٧) يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ إلى آخره، والحمد لله على نعمه التى سخر لنا فيها كل ما فى السموات وما فى الأرض، للبر منا والفاجر، وعلمنا كيف نكرم من نخالفه، وحثنا على أن نغفر لأعدائه الذين لا يرجون أيامه، والحمد لله الذى أنزل لنا شريعة من الأمر، وأمرنا باتباعها، ونهانا عن اتباع أهواء الذين لا يعلمون، وهكذا نمضى مع السورة فنجد الفاء التى ابتدأت بها الآية تصلها بكل فكرة وكل جملة، ثم إن الحظ الأوفر من الحمد، يرجع إلى الحظ الأوفر من النعم التى فى السورة، والحظ الأوفر من النعم التى فى السورة هو نزول

الكتاب الذى هو كلام الله، وأن الله أكرمك وأكرمنى لما جعل كلامه بين يديك ويدىّ وجعله يدور به لسانى ولسانك، وجعله يخالط قلبى وقلبك، وأى كرامة أكرم من أن يضع الله كلامه تحت لسانك وأن يدور هذا اللسان بكلامه جل وتقدّس، وأن يخالط خواطرك، فإذا دار لسانك بكلام الله فمن الأدب مع الله ألا يدور بباطل، وإذا خالطت معانيه خواطرك فلا يجوز لهذه الخواطر أن يختلط بها باطل ولكنك تقع فى سوء الأدب هذا، وأقع فيه كما تقع فيه ثم تجد نداء يناديك بالتوبة وأنك إن أحسنتها بدل الله سيئات أعمالك حسنات، ثم تتوب، ثم تخطئ، ثم تتوب، وكل ذلك والباب مفتوح فهل هناك ما يدعو الطبع الكريم إلى الحمد أفضل من هذا الإكرام، وبين يدى الآن شرح الشيخ محمود شلتوت لحمد رب العالمين وأريد أن أضعه بين يديك، لتذكر الزمن الأفضل، لأنه لم يأت أحد بعد شلتوت شيخًا للأزهر، ويؤخذ عنه العلم لأن جيل شلتوت كان يخرج من صفوف هيئة كبار العلماء، والآن يخرج من صفوف كوادر الحزب، وشتان ما بين صفوف هيئة كبار العلماء وصفوف كوادر الحزب، وربما كان مقعده فى صفوف الكوادر بجوار مقعد تجار الدم المسرطن، أو لص من لصوص البنوك، أو فاجر قاتل حكم عليه بالإعدام، أو ما شئت مما ترى وأرى، وفجور النظام رفع عنه حرج الحياء فاستخرج من يشغل وظيفة الإمام الأكبر من هؤلاء، وغيب هيئة كبار العلماء، وربما اضطهدها لأنها لا تستطيع أن تنكر وجوب الحكم بما أنزل الله، وأنها مرجعية لمن يسميهم عبيد السلطة «المتأسلمين»، المهم أن هذا موضوع آخر وأذكره وأكرره حتى يستيقظ أبناء الوطن لأن ترك الأمر فى يد غير أهله بلاء، وإذا سكتنا عن البلاء فلا نلوم إلا أنفسنا إذا وجدنا رقابنا فى يد أعدائنا، وأخطر ما ينتجه نظام فاشل هو ضعف مقاومة البلاد ومناعتها ولا يسكت عن ذلك محب لوطنه وقومه، قال الشيخ شلتوت يشرح حمد رب العالمين: والحمد هو الثناء بالجميل على واهب الجميل و﴿اللّه﴾ علم الذات

الأقدس واجب الوجود ذى الجلال والجمال و﴿رَبِّ﴾ المولى السيد المالك المربى و﴿الْعَالَمِينَ﴾ جمع عالم أريد به جميع الكائنات من كل ما سوى الله عز وجل.

تقرر هذه الآية يريد ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ثبوت الثناء المطلق الذى لا يحد لله سبحانه، وتقرر اختصاصه الأقوى به، فليس لأحد أن ينازعه إياه، وليس لأحد أن ينال منه ذرة إلا والله مرجعها، ومنه مبدؤها وتقرر أن هذا الاستحقاق العام الشامل للثناء المطلق إنما كان لأنه سبحانه هو رب العالمين، فليس شيء من الكائنات سماويِّها وأرضيِّها مجردها وماديِّها روحانيِّها وجسمانيها إلا والتربية الإلهية شملته فى جميع أطواره، ومن جميع نواحيه فى ذاته، وخواصه، فى وجوده، وبقائه، فى تمكينه، ونفعه، والانتفاع به، ثم قال عمت تربيته جميع الكائنات، وأعطى كل شيء نهاية ما يطلبه استعداده ومركزه فى مراتب الوجود، وهذا هو الإنسان الذى جعله الله فى أقصى درجات الوجود المادى، ومنحه مركز الخلافة فى الأرض، قد رباه فوق هذه التربية الجسمية الكونية العامة تربية نفسية وعقلية، ثم رباه تربية تشريعية، سبيلها الوحى، وبعث الرسل، وكما أنه لا شريك له سبحانه فى تربية الخلق، والتكوين، فلا شريك له فى تربية الوحى، والتشريع، وكما أنه ليس لأحد أن يزعم لنفسه نصيبًا فى الخلق، أو حقًا فيه، فليس لأحد أن يزعم لنفسه نصيبًا فى التشريع، والتحليل والتحريم، انتهى كلامه رحمه الله.

وراجعه واسأل نفسك لو كان حيا هل كان سيختار شيخًا للأزهر؟ وأين هو ممن يسميهم الفجرة العبيد «متأسلمين»؟ ثم ضع عقل من جاءنا من صفوف تجار الدم المسرطن والفجرة المحكوم عليه بالإعدام بجوار هذا العقل واسأل أين كنا وإلى أين صرنا فى هذا الزمن الأسوأ، والبلاء الآخر الخفى أنهم لما جعلوا صفوف لصوص البنوك والتجارة فى الدم المسرطن مدرسة لتخريج قيادات الوطن، هجر الناس صفوف الشرفاء وولوا وجههم جهة صفوف المنافقين،

والانتهازيين، والعبيد، وهذاء البلاء الآخر أشد فتكا بك يا أم البلاد من كل بلاء آخر، لأنه محو للصدق وقتل لمعنى الشرف فى النفس، وبقى فى الآيتين الأخيرتين ما يجب أن تراه وحدك من إمساك كل آية بأختها سواء أمسكت بها من جهة مبناها أو أمسكت بها من جهة معناها، والآيتان كأنهما آية واحدة، آية الحمد، وآية الكبرياء، ونحن نقول دائمًا الحمد لله والله أكبر، وهاتان صيغتان للحمد وللكبرياء، وقد ذكر لفظ الرب فى الآية الأولى أو فى الجملة الأولى ثلاث مرات ولم يذكر فى الثانية، وبدأت الأولى بلفظ الجلالة، ودل هذا على أنه سبحانه يحمد لجلاله وكماله كما يحمد لفضله وعطائه، وراجع عطاءه لأهل السموات، وعطاءه لأهل الأرض، وعطاءه لكل من هو دونه سبحانه، يعنى أنه نبع العطاء الذى لا يستثنى أحدًا ممن خلق، فكل ما هو دون الله له عطاء من الله، وأن على الإنسان الذى أوجب الله عليه حمده أن يفكر فى ذلك كله، وأن يتدبر عطاء ربنا فى السموات، وعطاء ربنا فى الأرض، حتى يكون حمده حمدا، صادرًا عن معرفة المحمود جل وتقدس، ويجب أن تلتفت مرة ثانية إلى تكرار لفظ الرب، فى جملة الحمد وأنها فى كل مرة تذكر بموجب الحمد وأنه من كمال النفس أن تحمد المنعم جل شأنه، وأن من خبث النفس ألا تحمد من باتت وتبيت فى نعمائه تتقلب، هذا تعليم جليل يعلمنا فيه ربنا أن صنائع المعروف التى يجريها لنا على يد خلقه يجب أن نتلقاها بالجميل والثناء، وأن شر النفوس نفس تأكل المعروف سحتا، وقديما قال أهل المروءة إن عارا ونقيصة على الكريم أن يموت وعليه دين من ديون المعروف، هذا شىء مما فى جملة الحمد.

وجملة الكبرياء خلت من لفظ الرب، لأن الرب علم الإحسان الموجب للحمد كما قلت، والموجب للكبرياء هو الجلال والهيمنة والقدرة والسلطان ونحن نحمده على نعمائه، ونكبره لجلاله، وسلطانه، والمناسب للكبرياء هو العزيز الذى لا ينازع؛ والحكيم فيه إشارة إلى أن هذه القدرة التى لا تنازع

ولا تغالب قائمة على الحكمة، وأن هذا المقتدر العزيز لا يصدر عنه شيء إلا بحكمة، وهاتان الكلمتان اللتان تنتهى بهما السورة ممسكتان وراجعتان إلى العزيز الحكيم التى ابتدأت بهما السورة، وهذا أعمق وأوسع مما نقوله، حين نذكر رد العجز على الصدر وهى كلمة تريحنا وتوهمنا أننا كشفنا السر، أما كيف كانت الكلمتان الكريمتان بداية طريق المعنى، ونقطة الانطلاق، ثم كانتا نهاية طريق المعنى ونقطة الالتقاء، فهذا مما يغيب عنى، وقد قلت فيه ما عندى، وبقى شيء هو أن هذه الجملة الأخيرة فيها الكبرياء الذى لا يُنازع فيه منازع، وقد روى مسلم عن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله ﷺ قال يقول الله عز وجل: «الكبرياء ردائى، والعظمة إزارى، فمن نازعنى فيهما أدخلته النار»، وفى رواية «عذبته» وفى رواية «قصمته»، وقد جعل الله لنا من عزه عزا وأشركنا فى عزه، وقال ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨]، فأهل الله أعزة بعز الله ولكنه سبحانه لم يجعل لأحد نصيبًا فى كبريائه، كما أنه سبحانه جعل لنا من حكمته حكمة، وأنزل علينا كتابا، وبعث فينا رسولا يعلمنا الكتاب والحكمة.

وقوله سبحانه ﴿وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾، بهذا البناء المفيد، للاختصاص وإن كان المؤمنون بالله يعلمون أنه مختص بالكبرياء لا يشاركه غيره فيه دلالة على تجهيل المستكبرين الذين توزع ذكرهم فى السورة، وأن استكبارهم هذا وهم، وكل من يستكبر فى الأرض واهم، وفارغ، ومغرور، وأنت فى حاجة إلى أن تتغلغل بعلم، وفقه، لترى صورة كبريائه فى السماء سبحانه، وأن السموات يكاد يتفطرن من فوقهن، وأنه ليس فيها موضع قدم إلا وفيه ملك ساجد، وأن الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم، ويستغفرون لمن فى الأرض، أقول فقه الدلالة يقتضى أن تتدبر معنى تفرد كبريائه فى السموات وتفرد كبريائه فى الأرض، وتفرد عزه وحكمته، وكان الشيخ محمود شلتوت رحمه الله يدعو إلى التغلغل بالعقل والعلم فى

الكون، وفى الأرض، وفى السماء، وفى الرياح، وفى الحيوان، والإنسان، لتعرف سر الله فى هذا الوجود، لأن أسمى آياته سبحانه فى هذا الوجود تسكن فى أسرار هذا الوجود التى يكتشف العلم منها ما يكتشف، ويبقى منها ما يبقى وأسرار الله فى الكون كأسرار الله فى الكتاب يأخذ العلماء من الكتاب ما يأخذون ثم يعود إلى ربه يوم القيامة بكرا، وهكذا أسرار الله فى هذا الوجود يكتشف العلماء منها ما يكتشفون ثم تعود إلى ربها يوم يأذن سبحانه بفنائها وهى بكر لم تمس، ثم إن الآيتين الكريمتين ﴿ **فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٣٦) وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** ﴾ ليستا راجعتين لصدر السورة بالعزيز الحكيم فحسب، وإنما هما راجعتان للآيات التى بينت عزته سبحانه وحكمته، أيضًا وأعنى قوله تعالى ﴿ **إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ (٣) وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٤) وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٥) تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ** ﴾ ومن أجل أن نتجنب الكلام العام الذى يريحنا من مثل قولنا هو من رد العجز على الصدر لابد أن نراجع ما بنى عليه المعنى فى آيات المطلع، وما بنى عليه المعنى فى آيات المقطع، لندرك شيئًا من أسرار رد العجز على الصدر، وآيات المطلع بنيت على أن فى السموات والأرض آيات، وفى خلقكم آيات، وفى اختلاف الليل والنهار آيات، يعنى بنيت على اللفت إلى الآيات، وأنها آيات بينات، يؤمن عليها البشر، وليس فيها شىء وراء ذلك أعنى ليس فيها ذكر للصانع جل وتقدس، وآيات المقطع بُنيت على أن الحمد له والكبرياء له، وأنه رب السموات ورب الأرض، ورب العالمين، أعنى بنيت على ذكر الصانع وصفاته العلى وأن الآيات التى سبقت هى آيات لقوم يوقنون، ولقوم يؤمنون، إلى آخره، وآيات المقطع هذه تبدأ بإشارة واضحة للقوم المؤمنين، والقوم الموقنين، والذين يعقلون هذه الإشارة هى أن حمدهم

خاص بالله لا ينازعه فيه منازع، وأن لهذه السموات ربا يرعاها، وله الكبرياء فيها، ولهذه الأرض بكل كوائنها ربا يرعاها وله الكبرياء فيها، وأن هذا العالم كله ما عدا الله هو فى رعاية الله، وربوبية الله، وله وحده فيه الكبرياء، وإذا قلت إن آيات المطلع هى آيات اللـه التى نصبـها ليـهتـدى عبـاده الذين برئت نفوسهم من السفـه، وأوهام الكبرياء، وآيات المقطع ذكرت هؤلاء الذين آمنوا والذين خصوه سبحانه بالحمد وخصوه بالاعتقاد، بأنه وحده الذى له الكبرياء فى السـمـوات والأرض، وهو وحـده العـزيز الحكيم، إذا قلـت هذا ظننتك شرحت معنى رد العـجز على الصدر، ولم تكتف بهذه الكلمة المبـهمة، بقى شىء وهو أن ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ الذى كان أول كـلام فى الجاثية وآخـر كلام فيها وبه ردت الجاثية آخرها على أولها هو ذاته الذى فتح باب الأحقاف لأنها بدأت بقولـه تعالى ﴿حم (١) تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ يعنى أن كلمتى ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أغلقتا بابَ الجاثية ثم استـدارتا وفتحتا باب الأحقاف، وهذا لم يتكرر فى القرآن إلا فى هذا الموضع وأعنى أن تبـدأ السورة بكلمة ثم تنتهى بها ثم تبتـدئ التى تليها بالكلمة نفسها، وأقـرب ما جاء فى القرآن إلى هذا ما جاء فى سورة الحشر فقد ابتدأت بقوله تعالى ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الحشر: ١] وانتهت بقوله جل شأنه ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الحشـر: ٢٤] وهى بهذا تشـبه الجـاثية، وأن ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ هو مطلع ومقطع السورتين ثم تتـميز الجاثية بأن مطلعهـا ومقطعها هو مطلع جارتها الأحقاف، وليس هذا فى الحـشر لأن جارتها الممتحنة بدأت بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الممتحنة: ١] ومن السور التى ابتدأت بالكلمة التى ختمت بها سابقـتها سورة الحديد فقد ختمت الواقعة بقوله تعالى ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ [الواقعة: ٩٦] وابتدأت الحديد بقوله جل شأنه ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الحديد: ١]

وسورة النجم فقد ختمت الطور بقوله تعالى ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ﴾ [الطور: ٤٩] وبدأت النجم بقوله تعالى ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ [النجم: ١] وهكذا لو فتحت هذا الباب لوجدت تنوعا وتقاربا وتباعدا كثيراً جدا، والدلالة عليه لا تكلف أكثر من النظر فى المصحف، أما بحث أسراره والمعانى والمقامات التى اقتضته فمن الصعب جدا، ولا يتأتى لعالم واحد أن يبلغه وإنما هو فى حاجة إلى كتيبة من العلماء الصادقين المنقطعين المتعاونين والمتفاهمين المتواصلين، ويوم توجد فى بلادنا هذه الكتائب من العلماء فلن نجد فيها هذا الهزل الذى فتح الباب لكل أفاك أثيم وأغلقه فى وجه كل صادق أمين، ولولا أن الله منح بعض عباده الاستمرار فى خدمة أوطانهم بروح شعارها العطاء وليس الأخذ لما وجدت على أرض مصر صادقا لأن نظامها نظام طارد للصادقين ولا يهش لأهل العلم، لأنه ليس من رجال القمة رجل واحد عُرف بحبه لباب من أبواب العلم، واشتغاله به، ولم يلد واحد منهم ولدًا عرف بحبه لباب من أبواب العلم وشغفه به، وإنما كلهم شغوفون بالمال والسلطة ومولعون هم وأولادهم بالمال والسلطة، وقد ترى أحدهم لا شأن له فى الظاهر بالثروة ومن ورائه كتيبة كاملة ليس لها علاقة بمصر إلا الأخذ وجمع ما فيها من خيرات كأنها خلقت له، ولأبيه، وسيرينا الله فيهم. والمهم أنك تجد شبها واضحًا بين الجاثية والحشر لأن كل واحدة منهما افتتحت وختمت بالعزيز الحكيم، وهذا لم يتكرر فى القرآن إلا فيهما، والسر فى ذلك لا أعلمه وإن كنت أرى شبها ظاهرًا بين الاسمين لأن الجاثية تعنى حشر كل الأمم جاثية تدعى إلى كتابها والحشر فى الحشر هو إخراج أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر فالجمع الحاشد هو عنوان السورتين ولو وضعت الشريعة مكان الجاثية لوجدت أصل الشريعة شريعة الماء التى يحتشد الناس حولها وهذا يشبه حشد أهل الكتاب وإخراجهم من ديارهم لأول الحشر، ثم إن إخراج أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر حساب فى الدنيا وعقاب وهو

قريب من حساب الآخرة وعقابهـا، والحديث عن ضلالات أهل الجاثية قريب جداً من حديث ضلالات الذين أخرجوا من ديارهم لأول الحشر، وهذا الذى أقـوله هو الذى عندى وليس فيـه غناء، وأنا مـغتـبط بقول كـرامنا «من علم الرجل أن يقول لا أعلم» وهى زورق نجاتى إذا أحاطت بى الأسرار الغامضة، ومن الذى لا أعلمه وهو علم متسع اتساع علوم الفقه والتفسير ولم يكتب فيه إلا القليل جداً هو علم أسـرار ترتيب سور القرآن الكريم ولماذا جـاءت سورة الحشـر بعد سورة المجـادلة وجاءت بعـدها سورة الممتـحنة، والكلام العلمى المحقق والمدقق فى هذا لم يكتب شىء منه بعد، وأنا على استحياء أحاول هذا فى السور التى درستها وأحاول بيان سر ابتـداء الأحقاف بما اختتمت به الجاثية وبما ابتدأت به أيضًا، والله المستعان، وعليه التكلان.

***

أول شيء تنظر فيه هو علاقة أول الأحقاف بآخر الجاثية لأن هذه العلاقة حين تراها واضحة، كفلق الصبح، تكون مؤذنة بأن الأحقاف امتداد للجاثية وأن المناسبة بين أولّها وآخر الجاثية كالمناسبة بين آية وآية، فى أى سورة من سور القرآن؛ وحين نسكت عن القول بأنها امتداد لأختها التى سبقتها مع ظهور هذا يكون خطؤنا كخطئنا حين نقول إنها امتداد من غير أن نرى المناسبة الرابطة بين السورتين، وعلينا أن نذكر دائمًا أن القرآن العظيم غنىٌّ عن التكلف، والذين يتكلفون أو يتزيدون لإظهار أسرار ومحاسنِ فى الكتاب العزيز يسيئون إلى أنفسهم.

وأول ما تراه فى هذه الرابطة بين السورتين هو أن آخر الجاثية جملة ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ وهى كما قلت فى الجاثية رادةٌ للعجز على الصدر، لأنها أول الجاثية وهذه الجملة أول الأحقاف، وتكرارها فى الموقعين يؤكد ربط الأحقاف بالجاثية وأن هذه الجملة بمثابة العُرْوَة المُمْسكة بالسورتين.

ومن الذى يجب أن يلاحظ هو أنك لو رَاجَعْت ما بَعْد ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ التى فى الأحقاف وما قبل ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ التى فى الجاثية، لوجدت تقاربًا شديدًا جداً؛ فالذى قَبْلَ ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ فى الجاثية هو قوله تعالى: ﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وهذه الآية أخت قوله تعالى فى الأحقاف ﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ﴾ فإذا كانت الجاثية تشير إلى اختصاصه بالحمد وأنه رب السموات ورب الأرض ورب العالمين، فإن آية الأحقاف تبين سِرَّ هذا الحمد وسِرَّ هذه الربوبية وأنه سبحانه خلق السموات والأرض وما بينهما وهذا شامل للعالمين، وهذا ظاهر.

وقوله سبحانه فى الأحقاف ﴿إِلاَّ بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ إشارة صريحة إلى البعث والثواب والعقاب، لأن هذا من لوازم الحق، ونفى البعث والثواب والعقاب باطل يناقض الحق، وهذا راجع رجوعًا ظاهرًا إلى قوله تعالى فى الجاثية ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلاَّ ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾.

وقوله سبحانه فى أول الأحقاف ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ﴾ هو قوله سبحانه فى آخر الجاثية ﴿ذَلِكُم بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا﴾ ولا شك أن الإعراض عن الإنذار واتخاذ آيات الله هزوا من باب واحد.

وكل خطوة تخطوها إلى الإمام فى الأحقاف، تراها مرتبطة بالخطوة التى تخطوها إلى الوراء فى الجاثية، وهذه هى الرحم التى بين السورتين الأختين وهذا وجه من وجوه أسرار الترتيب بين السور.

ومما يجب أن أُنَبِّهَ إليه وهو من أسرار البيان فى وجوه ترتيب السور فى القرآن هو أنك لو رجعت إلى رأس السورتين وجدت علاقة تربط السورتين على وجه آخر. ورأس السورة هو المعنى الأم الذى تتولد منه معانى السورة، وكأنه النَّفْسُ الواحدة التى بث الله منها رجالاً كثيرًا ونساء، وهذا البَثُّ الكثير من الرجال والنساء مختلف ومشتبه، يَخْتَلِفُ عن الأم ويشتبه بها، ويختلف بعضه عن بعض، ويشتبه بعضه ببعض، وكل هذا من آيات الله التى تحار فيها الأفهام.

بدأت آيات الجاثية بعد ذكر ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ بذكر آيات الله فى السموات والأرض وفى خلقكم وما يبث من دابة، واختلاف الليل والنهار، وما أنزل الله من السماء من رزق إلى آخره، وهذه الآيات المجتمعة فى أوَّل هذه السورة من أعظم آيات الله وأشملها، وقد وصفها ربنا بقوله: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ ولم يبق بعدها إلا الغضب الشديد والمقت الشديد والتهديد البالغ لمن أعرض عن هذه الآيات

وقال سبحانه بعدها ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ⑦ يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ﴾ إلى آخر الآيات، وهذه من أشد الآيات غضبًا وتهديدًا ووعيدًا، ثم مضت الآيات فى الجاثية خارجة من هذا الجذر الملتهب ولعلَّ هذا من أسرار مجىء ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا﴾ وأن هذه الآية الواصفة لهذا الكرب لم تذكر بهذا التصوير إلا فى الجاثية، والمهم أن الآيات التى خرَجَتْ من هذا الجذر الملتهب انتهت بحبسهم فى العذاب ونسياهم فيه وأنهم لا يُخرجون ولا هم يُسْتَعْتبونَ ثم ختمت السورة بعز الألوهية وتفرده سبحانه بالحمد والكبرياء فى السموات والأرض وأعادت العزيز الحكيم الذى خرجت منه الآيات العظيمة والتى كانت رأسًا ونَفْسًا بَثّ الله منها ما بث فى هذه السور العظيمة.

وبدأت الآيات فى الأحقاف بعد ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ بقوله تعالى: ﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ﴾ وهذه الآية جمعت كل آيات الجاثية إلى قوله تعالى: ﴿مِن وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلا يُغْنِي عَنْهُم مَّا كَسَبُوا شَيْئًا وَلا مَا اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ⑩ هَذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾ وهذا من أفضل ضروب الإيجاز الذى لم أقع عليه فى شعر ولا فى نثر.

ومن المفيد أن تنظر أنت أيها القارئ لتضع الآيات الثلاث الأولى فى الجاثية بإزاء جملة ﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ وكيف كانت هذه الجملة مستوعبة للجمل الثلاث الأولى وزائدة عليها بكلمتى ﴿بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ ثم تضع جملة ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ﴾ بإزاء ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ وما بعدها إلى قوله سبحانه ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾ وكأن الموصول وصلته الذى جاء فى ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ كان منبهًا لهذا الربط بين مطلع السورتين ،أقول عليك أنت أن

تراجع هذا وعلىّ أنا أن أقول إن السياق الثانى الذى جاء فيه الكلام موجزًا فى سورة الأحقاف غيَّر كثيرًا فى دلالة الكلام الموجز لأن المغزى من ذكر ذلك فى السياق الجديد غير المغزى من ذكره فى السياق الأول وهذه المغايرة فى السياق دعت إلى تصفية وترويق الصياغة وهيأت الكلام لما يأتى بعده وإن كان الكلامان من أُرُومة واحدة. وأُنبِّهُ إلى أن باب الإيجاز فى الدرس البلاغى يجب أن يستوعب مثل هذا لأن هذا وإن كان ليس له نظير فى الشعر والنّثر فإن فى الشعر والنثر قَبْضًا وبسطا على وجه آخر لم يدرس بعد على الوجه الذى يحقق ويدقق ويُبيِّنُ فى شِعْر الشاعر مواضع القبض ومواضع البسط وكيف قبض هنا ولماذا وكيف بسط هناك ولماذا مع ملاحظة أن القدرة على البسط مرة والقبض أخرى من أبين القدرات على تمكن الشاعر والكاتب ومراوحته فى ذلك على وفق الدواعى والأغراض.

قلت وهذا باب فى الكتاب العزيز له فى البلاغة والإعجاز أسرار لاتزال مكنونة مع أن علماءنا فطنوا إليه ونبهوا إليه وذكروا أن القبض والبسط فى الكتاب العزيز باب من أبواب إعجازه، وكانوا يذكرون الطىّ أحيانًا بدل القبض لأن كلمة الطىّ أقرب إلى الدلالة علىْ طريق الاختصار، وبعد هذا التنبيه أرجع إلى ما أريده وهو أن الغرض المسوق له الكلام فى الجاثية هو الدلالة على المعبود بحق جل شأنه ولذلك تكررت كلمة (آيات) مع كل آية وجاءت الآيات على الوجه الذى ترى فبدأت بالسموات والأرض، وهما ألصق الأشياء بالإنسان، فالأرض تُقِلُّه والسما تظله، ثم جاءت الآية الثانية وانتقلت من محيطه الذى هو فيه إلى داخله ونبهته إلى أن يفكِّر فى سِرِّ خلقه ووجوده، وما يَبُث منه ومن غيره من الكائنات المحيطة به من دابة مما يعمر به الوجود وهذه الآية والتى قبلها تصف أحوالاً ثابتة فالأرض ثابتة والسماء ثابتة والإنسان والدواب مستقران فى الأرض يتكاثران فى الأرض، ويعيشان من خيرها، ثم انتقلت الآيات إلى آيات متغيرة فاختلاف الليل

والنهار اختلاف يتغيّر، فالليل ليس سَرْمَدًا، والنهار ليس سرمدًا، والمطر ليس سَرْمَدًا، وتصريف الريح ليس سَرْمَدًا، وإنما كل ذلك يتغيّر ويتبدّل بسنن كونية يدركها قوم يعقلون أى يستكشفون حركة الكائنات ويستكشفون ضوابط العلم التى وراءها، ويعقلون كل ذلك بعُقَلِ العلم وضوابطه.

ثم إن الأحقاف التى أوجزت ذلك وأخذت منه ما أخذت وتركت ما تركت وصَّفَت وروّقت ساقت الآيات لغرض آخر وهو الدلالة على الثواب والعقاب المقتضيان للبعث. ومغزى جملة الأحقاف ليس هو الدلالة على أن الله سبحانه خلق السموات والأرض كما هو الحال فى الجاثية وإنما المغزى أنه ما خلقها إلا بالحق وأجل مُسمًّى أى خلقا مقترنًا بالحق وموقوتًا بأجل مُسمّى عند الله. والحق هو الحكمة. والثواب والعقاب أسمى صور الحكمة، والإنسان الذى سخر الله له كل ما فى السموات والأرض إنسان ظلوم؛ ولابد له من ثواب يُغْريه، وعقاب يَرْدَعُه، ولابد له من كتاب يهتدى به، وشرع يُرْشِدُه، ولابد له من رقيب يضبط كل ما يصدر عنه؛ ولابد له من صَحِيفة أعمال لاَ تُغَادِرُ صغيرة ولا كبيرة، ولابد أن ينشر كل ذلك يوم ترى كل أمة جاثية إلى آخر ما بيَّنه الكتاب العزيز مما تراه مذخورًا فى كلمة ﴿ بِالْحَقِّ ﴾.

وهذا بعض دلالتها لأن لها دلالة فى أفق آخر هى أن كل ما برأ ربنا فى السموات والأرض من شىء قائمٌ على أدق ما يكون من الحكمة، ولو وقفت عند أصغر الكائنات ودرست ما بُنِيَتْ عليه من الحكمة لحار عقلك فيها، فكيف بهذا الكون الكبير، وكان علماؤنا فى كل أبواب العلم، ليس فى اللغة والشريعة فحسب، وإنما فى علوم الأفلاك، وعلوم البحار، وعلوم الأحياء، وعلوم الرياضة، وغيرها كانوا يدرسون كل ذلك من أجل فقه القرآن.

وقد ذكر الشيخ محمود شلتوت رحمه الله هذا المعنى وقال: لا نكاد نعرف علما من العلوم التى اشتغل بها المسلمون فى تاريخهم الطويل إلا كان الباعث

عليه خدمة القرآن الكريم من ناحية هذا العلم، وذكر علوم اللغة، والشريعة، والتاريخ، وتقويم البلدان، وعلوم الكائنات التى يُوحِى بهـا مثل قوله تعالى: ﴿أَوَ لَمْ يرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠] ثم قـال: وهكذا علوم الفلك والنجوم والطب وعلوم الحيـوان والنبات لا يخلو علـم منـها أن يكـون الاشـتغـال به فى نظـر ما اشتغـل به من المسلمين - مقصودًا به خدمـة القرآن «مقدمة تفسـير القرآن الكريم» صـ٦، ٧.

وأكـرر أن هذا الفـيض الذى يتـدفق من هذا الأفق هو بعض دلالة كلمـة ﴿بِالْحَقِّ﴾ المتعلقة بالخلق.

قلت إن جملة الأحـقاف اختصـار لآيات الجاثية ونبـهت إلى تدفق المعانى التى أثارتها كلمة ﴿بِالْحَقِّ﴾ وهذا باب آخر من أبواب الاخـتصار الذى ترى فيه الكلام الذى طَوَى معانى آيات كثيرة قد اتَّسع معناه من جهة أخرى بسبب لفظة والمهم الآن هو تأكيد معنى سيـاق آية جملة الأحقاف، وأنها بُنِيَتْ على أصل معنى هو إثبات البَـعْث والثواب، والعقاب، لأن القصر فـيها هو رأس معنـاها؛ ونظمها يـفيد أن الله مـا خلق السمـوات والأرض إلا بالحق، وهذا يعنى أنه ليس المقصود بيان أن الله خلق السموات والأرض، وإنما المقصود هو معنى القـصر كما تقول مـا جاءنى إلا زيد ليس المقصود بـيان أن زيدا جاء، وإنما المقصود أنه لم يجئ إلا هو.

وقوله سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ﴾ فيه دلالة على أن الجملة التى سبـقته وهى ﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى﴾ فيها إنذار وأن الذين كفـروا أعرضوا عنه وهذا يعنـى تقـوية وإظهار ما فى كلمتى ﴿بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى﴾ من دلالة على البعث والثواب والعقاب، لأن هذا

هو الإنذار، ثم إن هذه الجملة ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ﴾ مقابلة لآيات الأفاك الأثيم فى الجاثيـة والتعبير عن الأفاك الأثيم بهـذه الجملة، أطفأ كثيراً مـن لهيب الغضب الذى فى الجاثية وتتأكـد من ذلك إذا راجعت صورة الأفاك الأثيم وهى صورة مليئة بالحركـة الطائشة وفيها الإفك والكذب والباطل والاستهـزاء بالآيات والتولى والإصرار والاستكبار وهذا بخـلاف الذين كفروا المعرضون عن الإنذار لأن الذى كفر ستر الآيات وغطّاها وأعرض عنها وانسحب وأكتفى بهذا وهذا شىء آخر.

وهذا الفرق بيـن الصورتين هو الذى أنتج مـا بعدهما فـقد جـاء الغضب شديدا فى الجاثية، وجاء فى الأحـقاف نقاشٌ هادئٌ وحوارٌ حكيمٌ دقيقٌ ﴿قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الأَرْضِ﴾ إلى آخره ومن تمام حكمة الحوار أن ينتـقل الكلام معهم من الغيـبة إلى الخطاب وأن يظل الكلام عن أفاك الجاثية بطريق الغيبة وإبعاده عن مقام الخطاب.

وأزعم أن كل ما جاء فى الأحقـاف خارج من جملة ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ﴾ ولم أستخـرج المعنى الأم لسورة من سور آل حم إلا وفى داخلى إحساس بأن الذى استخرجـته يمكن أن يخالف فيه لأنى قلته من باب غلبة الظـن إلا الأحقاف لأن خـروج كل ما فى الســورة من جملة ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ﴾ ظاهر ظهوراً قوياً وأرجو أن أُعان على بيانه.

وهذه الجملة الأم امتداد للجملة التى قبلها وهى ﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ﴾ لأنها هى التى أنتجت جملة ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ﴾ والجملة التى تقابلها فى الجاثية وهى جـملة الأفاك الأثيم أنتجتها جملة ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ والكلامان فى الجاثية والأحقاف

راجعان إلى العزيز الحكيم لأن العزيز هو الخالق والحكيم الذى قام خلقه على الحكمة والحق سبحانه.

وأنا الآن أحاول بيان علاقة رأس المعنى بالأحقاف وصلته برأس المعنى فى الجاثية وما بين السورتين من تقارب وتباعد.

وآيات الجاثية الأولى من أشد آيات الله تأثيرًا وخصوصًا قوله سبحانه ﴿ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ ﴾ ثم انتقل الكلام إلى الأفاك الأثيم وبدأ بذكر الويل، وقد ذُكرت كلمة الويل فى المرسلات عشر مرات ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ [المرسلات: ١٥] وانتهت بأُخْت الجملة التى انتقل الكلام منها فى الجاثية وهو قوله تعالى ﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ ﴾ وهى أخت ﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ ﴾ وقد أشرت إلى ذلك فى الجاثية، والويل هنا هو الويل هناك والأفاك الأثيم فى الجاثية هو المكذب فى المرسلات، وقد جاءت هذه الجملة فى آية ثالثة فى الأعراف فى قوله: ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف: ١٨٥] وراجع هذه الجمل الثلاثة لأن أعظم ما فى الكتاب أن تدرك أنت بتدبرك وليس بتدبر غيرك، ولم تتكرر هذه الجملة فى الكتاب فى غير هذه السور الثلاث وسياقها متقارب فى السور الثلاثة وإن كانت الأعراف أقرب إلى الجاثية وقد أطلت مع هذه الجملة لأنها من أوقع الجمل وأشدها إصابة وكلما قرأت أول الجاثية خُيّل إلىّ أنى لم أقرأها قبل ذلك، وأعظم آيات الله هى الآيات الدالة على الله، وأجل نعم الله هى نعمة الخلق، وأنه سبحانه أخرجنا من كتم العدم، وأجل من ذلك أنه هدانا إليه، ولو خلقنا وتركنا سدًى لكنا أضل من السائمة، وليس فى الوجود أفضل مما يقرب إلى المعبود جل وتقدس، بيَّنْت أن الجاثية تفرع الحديث منها بعد ذكر الأفاك الأثيم وانتقل من

معنى إلى معنى حتى انتهى إلى اختصاصه سبحانه بالحمد واختصاصه بالكبرياء فى السموات والأرض.

وكذلك تحرك الكلام فى الأحقاف منحدرًا من هضبة هذه الجملة ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ﴾ وتَجَانُسُ معانى الأحقاف وترتيبها وخروج بعضها من لحم بعض ظاهر فيها ظهورًا أبين من أخواتها آل حم، والغريبُ فى بيان الكتاب العزيز أن الأمر الذى تراه غامضًا بعيدًا إذا ما انكشف لك رأيته قريبًا جداً حتى إنك تنكر على نفسك أن يغيب عنها هذا الزمن الذى استغرقته فى الكشف عنه، وقد عالجت هذا فى دراستى لآل حم وكنت أستهول الكشف عن المعنى الأم فى السورة أو المعنى الجامع لوحدتها وأتوفر على قراءة كتب التفسير ثم أراجع السورة فى المصحف مرة بعد مرة فإذا ما أذن الله وزالت هذه الحجب وانحسرت الغشاوات وبدا لى وجه المعنى الأم رأيته وكأنه بدر السماء إذا تبدَّى.

وكانت سورة الأحقاف من هذه السور التى حَيّرنى البحث عن معناها الأم وكانت تحيرنى فيها أشياء منها مجىء آيات ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ﴾ فى آخرها ولم تتكرر هذه الصورة فى الكتاب العزيز وأقول لماذا جاءت فى هذه السورة خصوصًا؟ وفى آخرها خصوصًا؟ وكذلك كان يحيرنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾، ولم تأت هذه الآية إلا فى الأحقاف وفى فصلت. وقوله سبحانه ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ﴾ [العنكبوت: ٨] ولم يأت هذا إلا فى الأحقاف والعنكبوت ولقمان، وكل هذا كان يحتاج منى إلى الاجتهاد فى الكشف عن سره لأنى لم أقرأ لأحد ممن يؤخذ عنهم العلم كلامًا فى ذلك، ولابد أن أقتنع بما وصلت إليه فإذا اقتنعت به كتبته وفرق شاسع بين أن تكتب مما قرأت وأن تكتب مما وجدت، وتحصيل العلم شاق جداً ومشقته متعة والكشف عن غائبه أشق والمتعة فيه أمْتع.

وأبدأ فى بيان ما أراه من إمساك آيات الأحقاف بعضها ببعض وكيف كانت معانيها وخُطَّةُ سير هذه المعانى كأنها حلقات متواصلة؟ وكيف كانت كلها موصولة وصلاً قريبًا جداً وظاهرًا جداً بالآية الأم أو الجملة الأم؟

وأقول إن الجملة الأم ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ﴾ مكونة من مبتدأ وخبر، المبتدأ صريح فى بيان كفرهم بالمعبود الحق جل وتقدس والخبر صريح فى بيان ردهم لنبوة محمد صلوات الله وسلامه عليه وهذان واضحان لأن صلة الموصول ﴿كَفَرُوا﴾ كأنها علم على الكفر بالوحدانية ثم إن البناء للمجهول فى الخبر ﴿أُنذِرُوا﴾ واضح الدلالة فى أن الذى أنذرهم معلوم معروف لهم صلوات الله وسلامه عليه وأنه هو الذى بلّغهم إنذار الله لهم.

وهذان الطرفان وهما الكفر بالله، ورد نبوة المصطفى صلوات الله وسلامه عليه ليس فى السورة كلمة واحدة إلا وهى راجعة إليهما، وقد بدأت بنقض الشرك وذلك من أول قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ﴾ وهذا نقض مؤسس على ما تُقِرُّه الفطرة ولا يأباه من له عقل لأن الأصل فى المعبود بحق أن يكون له خلق وملك يعنى أن يكون خالقًا مالكًا ولا يُعْبَدُ إلا من كان كذلك، وهذا من المعلوم من العقل بالضرورة، والعقل مناط التكليف وهو فى كيان الإنسان القبس الهادى إلى الخالق الواحد سبحانه. وقال: ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ﴾؛ لأن الإنسان قد يملك فى الأرض ما شاء أن يملك. أما السماء فلا يملك الناس كل الناس منها ذرة واحدة، وبعد هذه الجملة التى أصابت مقتل الشرك من أقصر طريق جاءت آيتان لا تناقشان الشرك وإنما تنبهان إلى حجم الضلال الذى يقع فيه من يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة فإذا كان يوم القيامة وحشر الناس كانوا لهم أعداء، وانتهت آيات نقض الشرك الذى عليه الذين كفروا.

ثم بدأت آيات نقض ردِّهم لنبوة الصادق المصدوق صلوات الله وسلامه عليه واستمرت إلى آخر السورة ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾.

ومن المفيد أن أنبه إلى أن جملة ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ﴾ خارجة من تحت معنى الجملة التى قبلها ﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ لأن الذين كفروا شَذُّوا عن قاعدة الحق، التي خلقت السموات والأرض عليها، وخلقوا هم أيضًا عليها، لأن كلمة ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ شاملة لما لا يُحْصَى من خلق الله، وما نعرف وما لا نعرف؛ وكل هذا مُؤَسَّسٌ خلقه على الحق فمن زاغ عن الحق فقد زاغ عن الأصل الذى كانت له وعليه الكائنات، وهذا ظاهر، وإنما أردت شيئًا آخر وهو أن كلمة بالحق مُتَضَمِّنَةٌ فيما تَضَمَّنَتْ النبوات، لأن العقل وإن كان هادينا إلى الله فإن النبوات والشرائع تهدينا إلى الطريق الواصل إلى مرضاته سبحانه وتعالى، ومادامت متضمنة معنى النبوات فهى لا محالة متضمنة النبوة الخاتمة، التى تنسخ ما قبلها ولا ينسخها شيء بعدها، وهى نبوة محمد صلوات الله وسلامه عليه وكأن فى كلمة ﴿بِالْحَقِّ﴾ إنذارًا بنبوة محمد ﷺ وهذا وجه مجيء الجملة الثانية بعد مجيء الجملة الأولى، وإلا بدا الكلام متباعدًا لأن الجملتين من المختلف وقد ألف خفى النظم بينهما على الوجه الذى بَيَّنْتُ.

ثم إنك لابد أن تراجع طرفى الجملة الأم وهما الكفر بالوحدانية والكفر بالنبوة وأنهما طرفان متشاربان جداً لأن الكفر بالوحدانية هو لا محالة كفر بالنبوة لأن النبوة رسالة الله إلى خلقه، ومادام الكافر لا يؤمن بالله الذى يرسل رسله فهو لا محالة لا يؤمن برسل، وهذا ظاهر، ورد النبوة المؤسسة على الحجة القاهرة، والإعجاز الظاهر قَدْحٌ فى الوحدانية؛ لأن صفاء التوحيد يفضى إلى تصديق من جاء بالحق ولذلك كان رد أهل الكتابين لنبوة محمد ﷺ راجعًا إلى افتقادهم التوحيد لأن اليهود قالوا: ﴿عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠]؛

والنصارى قالوا ﴿وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ﴾، وحرَّفوا كتب الله، وكتبوا الكتاب بأيديهم وقالوا هو من عند الله وما هو من عند الله إلى آخره، وذكرت ذلك لأبين ارتباط الإقرار بنبوة خير الخلق صلوات الله وسلامه عليه بالتوحيد الحق الناصع الصادق الصافى، ولأَدُلَّ على ما يمكن أن يشرح لنا اختصار الأحقاف فى الرد على الشرك هذا الاختصار الشديد والذى يدور حول كلمتين ﴿مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ﴾ ثم الإفاضة فى الرد على إنكار النبوة وبناء أكثر السورة على هذا الرد، وإن كان من حقك أن تقول إن كل آل حم من أول غافر إلى الأحقاف عرض لضلالات المشركين ونقض لها، ثم جاءت الأحقاف واختصرت ما بسطته أخواتها ثم بسطت ما اختصرته أخواتها، وهو الرد على منكرى النبوة.

وأول ما جاء فى عرضهم لإنكار النبوةِ قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾.

وأول ما تلاحظه هو برهان النبوة القاطع القاهر الغالب الذى دلت عليه كلمتا ﴿آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾ فالآيات مُضافَة إلى ضمير العظمة جل وتقدس وليس هذا فحسب وإنما وُصِفَتْ بأنها بينات والآية لابد أن تكون بيِّنة وقاطعة وقاهرة وغالبة وإلا لما صح أن تسمّى آية. ثم قال: ﴿تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾ بالبناء للمجهول وهذا البناء للمجهول قريب فى دلالته من البناء للمجهول فى قوله: ﴿عَمَّا أُنذِرُوا﴾ لأنه لا يتلو عليهم آيات الله البينات إلا رسول رب العالمين، وكلمة ﴿تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ فيها إشارة إلى الإعجاز وأن هذه التلاوة حُجَّةٌ عليهم.

ثم نلاحظ أيضًا وضع المظهر موضع المضمر فى قوله: ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وكان يمكن أن يقول قالوا كما قال قبل ذلك ﴿كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً﴾ وهذا الظاهر مؤذن بأن من كفر دليل الوحدانية قمين بأن يكفر دليل النبوة لأن من شأنه كفران الأدلة، وهذا الربط يرجّح ما قلته من أن إنكار أهل الكتاب فى زماننا

نُبُوَّةَ محمد ﷺ برهان على إنكارهم أدلة التـوحيد، وأن ما هم عليه ليس هو التوحيد الذى جاء به موسى وعيسى عليهما السلام.

ولما دعاهم القـرآن الكريم إلى الإقرار بنبوة محـمد ﷺ قال لهم: ﴿تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا﴾ [آل عمران: ٦٤] فلم يأتوا لأنهم ليسوا عـلى الكلمة السواء التى هى كلمة التوحـيد ولو كانوا عليها لأتوا ولو أتوا لدخلوا فى دين الله، ولا تستكثر علىّ أنى أرى ذلك فى سر وضع المظهر مـوضع المضمر لأن الدخول على إنكار نبـوة المختار بوصف الكفر بالوحدانية فيه ما قلت وأكثر مما قلت.

بل إنى أريد أن أقول شيئًا آخر وهو أن كلمة «كفر» أصلها فى اللغة غطى، يقال كفر الفـلاحُ الحب أى غطّاه، وكفر المتاعَ فى الوعاء، قـال الزمخشرى: ويقال للزرّاع كفار ويقال لليل كافـر كما يقال كفرت الريحُ الرَّسْمَ، وكل هذا يعنى أن من كفر شيئًا علمه، فالفلاحُ يكفر الحبَّ وهو يعرف الحب، والكافر يكفر بالآيات وهو يعلمهـا، ويكفر بالله وهو يعلمه، ونلاحظ أن آيات نقْض الشرك قامت على إثارة ما لاشك فيه، فَـعَبَدَةُ الأصنام يعلمون أنها لم تخلق فى الأرض شـيئًا وأنهـا ليـس لـها شـرك فى السـمـاء وأنهـم حيـن يـدعونها لا تستجيب لهم إلى يوم القيامة، وأن خلق السموات والأرض لا ينكر ما وراءها من خالق صانع من رَجَع لحظةً واحدة إلى عـقله، وأن من يكفر بهذا الصانع القادر كَفَرَهُ وهو يعرفه، والخلاصة أن كلمـة كافر تعنى أن فاعلها يَفْعَلُ الكفر أى تغطية الحق وطمـسه وهو يعلم ما يفـعل، ومعنى ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أعنى قال الذين كفروها وهـم يـعلمـونها وأن بيانها لا ينكره منكر وإنما ينكره من كَفَرَهُ بمعنى عـلمه وغطّاه وطمسه، ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦] وراجع كلمة ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وكلمة ﴿وَالْغَوْا فِيهِ﴾ وكلمة ﴿تَغْلِبُونَ﴾ ولولا أنهم

علموه لما قالوا لقومهم لا تسمعوا له، ولولا أنهم علموا سطوته لما قالوا لهم وألغوا فيه، ولما قالوا أيضًا لعلكم تغلبون واشترطوا للغلبة عدم سماعه واللغو فيه، يعنى إبعاده عن ساحة المعركة وإلا لو حضر فلن تكون الغلبة إلا له، هكذا كان عند أعدائه الأولين، وهو كذلك عندهم اليوم يعلمون أن حضور الذكر الحكيم فى المعركة معهم لن تكون النتيجة لصالحهم ولهذا حاربوا وجوده وكذبوا على الشعوب وقالوا إننا نحارب وجوده فى السياسة فقط ثم بدأت المرحلة الثانية وكتب عبيدهم يحاربون وجوده فى التعليم وقالوا لسنا فى حاجة إلى تعليم متدين وهكذا يمضون فى خطوات أعداء الدين الأول الذين قالوا: ﴿**لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ**﴾.

وأعود إلى نقض السورة لحجج رفض النبوة وقد بدأت من قوله تعالى: ﴿**وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ**﴾ [الأحقاف: ٧] إلى آخر السورة وقد أومأت الآية إلى أنهم كفروا بما علموا وكذبوا فيما قالوا. فلم تكتف بوصفهم بالكفر، وإنما أضافت ﴿**لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ**﴾ فجعلت الحق ظاهرًا بارزًا مشرقًا، وجعلته يجيئهم، وأنهم يواجهون هذه الحقيقة البارزة المشرقة بكلام غامض لا قيمة له، وهو قولهم ﴿**سِحْرٌ مُّبِينٌ**﴾ وقد كان لفرعون بعض العذر لما رأى عصى موسى حيَّة تسعى، لأن هذا قريب من جنس السحر الذى عرف فى زمانه، ورسول الله الذى جاءهم بالحق لم يلق عصاه فإذا هى ثعبان وإنما أَسْمَعَهُم قرآنا يُتْلى، وليس له صلة بالنفَّاثات فى العقد، ولهذا لم تقف الآيات عند هذه التُّهمة، وإنما تَخَطَّتْها إلى غيرها بسرعة ﴿**أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ**﴾ وقد كذبوا أيضًا ولو صدقوا لجاؤوا بمثله.

والملاحظ أن الآيات وهى تحاور فى هذا الباب أومأت إلى أشياء جليلة ولها أثر ظاهر فى بناء السورة وإقامة هيئتها وعمودها من ذلك قوله سبحانه ﴿**قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ**﴾ وهذه الجملة هيأت

لمعنيين جليلين بعدها، المعنى الأول قوله سبحانه: ﴿وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ ويكاد يكون هذا تفسيرا لقوله ﴿مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ﴾ وفاتحًا باب ﴿وَهَٰذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ﴾ وهذا ظاهر. والأمر الثانى الذى فتحته جملة ﴿مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾ هو قوله تعالى ﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ﴾ وإشارة آية ما كنت بدعًا إلى ذكر هود عليه السلام غير إشارتها إلى ذكر موسى عليه السلام لأنها أشارت إلى موسى من حيث إن الله سبحانه وتعالى جعل له كتابًا إمامًا ، كما جعل لمحمد كتابًا إمامًا، وليس فى هذا ذكر لليهود والذين بُعث إليهم موسى عليه السلام والذين يقابلون أهل مكة الذين بُعث فيهم محمد عليه الصلاة والسلام، وآية هود لم يذكر فيها هود وإنما ذكر قومه عاد، وكلمة ﴿وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾ جاء تفسيرها فى عاد ولم يأت تفسيرها مع بنى إسرائيل وهذا التفسير هو قوله تعالى ﴿فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ﴾.

ومن المفيد أن نذكر أن آيات نقض الكفر بالوحدانية اتجهت إلى نقض الشرك، وأن معبوداتهم لم تَخْلُق فى الأرض شيئًا، وليس لها شرك فى السماء، وأنه ليس لها كتاب أو أثارة من علم، ولم تذكر الآيات فى هذا الباب أباطيلهم، كما ذكرت أباطيلهم فى نقض إنكار النبوة، وأنهم قالوا ﴿سِحْرٌ﴾ وقالوا ﴿افْتَرَاهُ﴾ وقالوا ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ وقالوا﴿إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ وهذا مذهب آخر وهذا القسم كما قلت هو الذى شغل أكثر السورة بخلاف القسم الأول فقد اكتفى بنقض الشرك بضربة واحدة وهى نفى الخلق، ونفى الملك، ثم عقب بتجهيلُ وتشهير من اعتنقوا هذا الاعتقاد الفاسد، ومن المفيد أيضًا أن أُنَبِّه إلى أن آلَ حم وفَّت واستَقْصَتْ شبههم وضلالاتهم، وختمت الأحقاف التى هى خاتمة آل حم بهذا الإجمال فى شأن التوحيد وفصلت فى شأن النبوة، وقد سبق ذكر هذا.

وقولهم ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ هو الذى فتح الباب لقوله سبحانه ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٣) أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٤) وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا...﴾ إلى أول قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ وبيان ذلك أن قولهم لو كان خيرًا ما سبقونا إليه صادر عن إحساس طاغ بالتميز، وأنهم لا يسبقهم أحد إلى خير، وأنما يسبقون الكل إلى الخير، والآية قَلَبَتْ هذا الإفك والكذب على رؤوسهم، وذكرت أن الذين سبقوا إليه هم الأفضل، والأعلى مقامًا فى الدنيا، وأنهم لا خوف عليهم فيها، ولا يحزنون وهم الأكثر خيرًا وفضلا فى الباقية، وأن لهم الجنة خالدين فيها، وهذا ظاهر ثم إن الآية لم تكتف بأن الذين سَبَقُوا إلى الخير هم الذين سَبَقَتْ لهم من الله الحسنى، وإنما ذكرت الخيرية، فيما دعا المختار صلوات الله وسلامه إليه، وفيما بلغه عن ربه، وأعنى وصية التراحم، فليس على الأرض أعلى من التراحم حتى ترفع الدابة حافرها عن ولدها خَشْية أن تصيبه والوصية بالإحسان الذى هو أسمى وأعلى صور التراحم، وإن كانت بين كل مولود ووالديه فليس على الأرض حىٌّ إلا وهو مولود لوالديه، يعنى أن وصية الله للإنسان بالإحسان بوالديه، دخلت كل بيت فيه والد وما ولد، فلم يبق فى الأرض شبر يسكنه الناس إلا وقد كتبت عليه وصيه الإحسان وهذا هو قَبَسٌ من الخير الذى سبق إليه الذين سَبَقَتْ لهم من الله الحسنى والذى تغطرس المتخلفون المغرورون عنه، وقالوا ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ وراجع قوله تعالى: ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ وتأمل كلمة ﴿لَمْ يَهْتَدُوا﴾ ولم يقل وإذا لم يعرفوه أو يفهموه، وإنما قال يهتدوا، ومعناه أنهم عرفوه، ولكن لم يهتدوا به، ولم ينقادوا له، لصوارفهم التى لخصها القرآن

فى الاستكبار، والذى سَتُفَسِّره تفاصيل عاد، وأنهم كانوا يجحدون بآيات الله، والجحد هو إنكار ما تعرف. ثم إن قولهم ﴿هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ جاء على لسان شخصية هى نموذج وقد جاءت فى مقابلة الإنسان الأعلى الذى قال: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ﴾ [النمل: ١٩]، وهذا جاء مقدمة تبيِّن الصورة الفظة الغليظة الخشنة وهو الذى ﴿قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ وهذه الجملة الأخيرة هى ﴿هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ ويكفى هذا رابطًا.

والذى جاء بعد هذا إلى قوله تعالى ﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ﴾ هو تعقيب على هذا الموقف، ولما انتقل الكلام إلى ذكر هود عليه السلام وقومه أومأ الكلام إيماءة حية تشير إلى الآية التى هى أم كل ما فى السورة وهى قوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ﴾ هذه الإيماءة هى قوله ﴿إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ﴾ فذكرت كلمة الإنذار التى انعقدت عليها الجملة الأم ﴿عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ﴾ وقد استدعت هذه الكلمة فى الموضعين كل ما وراءها مما كان من قومه عليه السلام لما أنذرهم وما كان من قوم هود عليه السلام لما أنذرهم، ووراء ذلك ما وراءه من ضرب المثل لسيدنا رسول الله ﷺ إلى آخره، وانجر الكلام من ذكر عاد إلى ذكر الجن ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ﴾ ولا يجوز لى أن أهمل الرابطة بين ما جاء من قصة هود عليه السلام وقصة النفر من الجن الذين صرفهم الله إلى رسوله ﷺ هذه الرابطة هى كلمة ﴿إِذْ﴾ التى جاءت فى رأس الموضعين ﴿إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ﴾ ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ﴾ ثم لا بد من ملاحظة ذكر هود عليه السلام بكلمة ﴿أَخَا عَادٍ﴾ مع أن كلمة هود أخصر وأكرم. وذلك لأن المراد ليس هودًا وإنما تَمَرُّد قومه عليه،

ورفض قومه للحق لما جاءهم، ويقابله هنا مقابلة عالية جداً في بيانها لمقامه العالى، صلوات الله وسلامه عليه، وهى إيمان الجن به وهم أهل التمرد، وأشد خلق الله بعدًا عن الانقياد والاستسلام، ولم يرسلهم الله سبحانه لنبى قبله عليه السلام، ولم تعم رسالة عموم الثقلين قبل رسالته عليه السلام، قلت إن هذه الرابطة تؤكد أن ذكر الجن وانقيادها لما أنزل عليه صلوات الله وسلامه عليه فى مقابلة ذكر عاد وعتوهم وتجبرهم على نبى الله هود مقابلة سخية وفيها ما فيها، ثم إن ذكر الجن فى ختام نقض إنكار النبوة فيه شىء آخر وهو أن ما أنكره هؤلاء من آيات الله التى تتلى عليهم بلسانهم، وهو أعلم الناس بهذا البيان قد أيقنت الجن بمجرد سماعه أنه من عند الله وأنه يهدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم، وراء هذا ما وراءه، ثم إن ذكر مجىء الجن وسماعهم لما أنزله الله عليه صلوات الله وسلامه عليه وسرعة استجابتهم فى آخر آيات آل حم التى دارت كلها حول إبطال شبه المبطلين ودحض ضلالاتهم فيه أيضًا ما فيه، ووراءه ما وراءه، وأن آخر الأمر ليس إيمان الإنس به فحسب وإنما إيمان الجن أيضًا، وأن الذى آتاك ربك من البرهان لا يَنْقَادُ إليه أهلُ الحق من بنى الإنسان فقط، وإنما يَنْقاد إليه أهل الحق من الجن الذين لا ينقادون إلا لما لا يجوز إنكاره، هذا والله أعلم.

هذه هى وحدة الأحقاف وهذا تسلسلها من الجملة الأم وهذه فروعها ولم أجد فيها شيئًا يلتبس أو أتردَّد فيه والآن أبدأ دراسة السورة.

قوله تعالى: **﴿حمٓ ① تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ② مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ﴾** [الأحقاف: ١ - ٣].

سبق بيان هذه الآيات، وقد بنيت الجملة الأولى على بيان مَصْدَر الكتاب وأنه تنزيل من الله، والموصوف بكل كمال والمنزه عن كل نقص، وأنه ليس لغير الله فيه شىء، وأن المُنْزَلَ من الموصوف بكل كمال والمنزه عن كل نقص هو

أيضًا موصوف بكل كمال، ومُنَزَّه عن كل نقص، فكماله من كمال الذى أنزله، وتنزيهه من تنزيهه وهذه هى حقيقة القرآن وأنه من الحقيقة الإلهية بهذا المكان.

وبعد لفظ الجلالة الجامع تأتى هاتان الصفتان: ﴿الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ للإشارة إلى أن هذه السورة أخذت من كمال الجلالة العزة والحكمة.

والجملة الأولى هى بلفظها فى الزمر والجاثية، وما دار عليه الكلام فى كل سورة من هذه السور له أطياف وظلال رادة إلى هذه الجملة فتصير بها ذات لون يختلف عنها فى مطلع السورة الأخرى، وإن كان أصل المعنى وجوهرة واحدًا فالعزيز الحكيم فى مطلع سورة أصل معناها غضب ملتهب على كل أفاك أثيم يسمع آيات العزيز الحكيم تتلى عليه ثم يصر مستكبرًا كأن لم يسمعها، فيه شوب يميزه ويغايره عن العزيز الحكيم فى مطلع سورة تدور رحاها على الحوار والتحليل وكشف الأقنعة عن الباطل الذى يتسَتَّر به الذين أعرضوا عما أنذروا، والعزيز الحكيم فى مطلع سورة يدور بيانها حول إخلاص العبادة لله رب العالمين لابد أن يكون له نكهة أخرى فالعزيز فى الجاثية عزيز غاضب والعزيز فى الأحقاف عزيز مرشد؛ آخذ باليد ليضع هذه اليد على أخطائها، وأوهامها، والعزيز فى الزُّمر عزيز تُخبِتُ له قلوب العارفين، وهكذا علمنا علماؤنا أن البسملة لها أصل واحد فى المعنى ثم تَنثر كُلُّ سورة عليها من طابعها ما يُجرى فيها شوبا من الاختلاف، فالبسملة فى أول ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ هى البسملة فى أول ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ ولكن لهب أبى لهب قد أضْفَى على بسملة سورته ما لم تُضْفِ الوحدانية والصمدية على بسملتها وهذا ظاهر وهذا مما يجب أن ينتقل إلى درس الشعر فمنازل قفا نبك للكندى غير منازل أم أوفى لزهير، الأولى فاضت فيها دموع شيخ يبكى شبابًا وصبوة والثانية تحترق من دمنة طوى صاحبها كَشْحًا عليها فلا هو أبداها ولم يتكلم، وقد وصف دمنة أم أوفى بالصِّفَة نفسها وأنها لم تتكلم.

وجملة ﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، هذه الجملة راجعة إلى ﴿الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ لأن الخلق لا يكون إلا من واحد لا يقبل أن يكون له شريك والعزيز هو الغالب الذى لا يُغلب والفرد الذى لا يتعدد، والخلق راجع إلى قدرة العزيز الذى لا يُغْلب ولا يتعدَّد. وقصر الخلق على الحق والأجل المسمى راجع إلى الحكيم، لأن المراد إلا خلقًا ملتبسا بالحق، وبتقدير أجل، لأنه لا معنى لالتباس الخلق بالأجل إلا أن يكون على الحذف وتقدير أجل، والتباس الخلق بالحق فسّره العلماء بالتباس الخلق بما تَقْتَضيه الحكمة وهذه الحكمة لها وجهان حكمة فى التكوين، وحكمة فى التشريع، أو كما قالوا الحكمة التكوينية، والتشريعية، والحكمة التكوينية هى الحكمة التى وجدت عليها الأشياء فى نفسها، أعنى الحكمة التى تراها فى خلق الإنسان فى بنْيته التشريحية وفى أعضائه، ووظائف هذه الأعضاء، وكيف يرى وكيف يسمع وكيف يعمل كل عضو وكل خلية داخل هذا الإنسان، وكيف يشعر وكيف يفكر وكيف يتكلم وكيف يُحَصِّل وكيف يُبْدع إلى ما لا نهاية له مما يقوم عليه بحث العلماء فى هذا الإنسان الذى هو الجرم الصغير وانطوى فيه العالم الأكبر، وهكذا قل فى كل ما خلق الله فى السموات وفى الأرض وفى الذى بينهما، ولذلك قلت إن كلمة بالحق لا حدود لمعناها من جهة الحكمة فى التكوين. وكذلك الحكمة فى التشريع؛ لأن التباس الخلق بالحق يقتضى وجود شريعة تحدد خطوط السير لهذه المخلوقات، ولهذا أنزل الله كتبه، وأرسل رسله من يوم أن جعل الإنسان خليفة فى الأرض وعلمه الأسماء؛ وكتب الله وشرعه موجهه إلى الإنسان لأنه هو مركز هذا الوجود وأن الله سخر له هذا الوجود، وكل كتب الله وكل أنبيائه ورسله مجتمعة حول أمرين كبح نوازع الشر والفساد والإفساد فى النفس الإنسانية وهو الجانب المتمثل فى فجورها وطغواها وإطلاق كل نوازع الخير وإثارتها واستفزازها والمتمثل فى خيرها وتقواها، وارتباط التشريع بالتكوين فى تفسير علمائنا للحق يعنى أنه لا يشرّع لهذا الإنسان إلا الذى خلقه لأن الذى خلق هو الذى يعلم

وعلمه بالذى خلقه لا يبلغه علم مخلوق والتشريع الصادر عن علم لا يُنَازَعُ هو التشريع الأكثر أمنًا وأمانًا والذين يغيّبون تشريع الله لخلقه ينازعون الله فى خلقه، لأن التشريع ارتبط بالخلق وهذا ظاهر، ومن نازع الله فى خلقه لا طاعة له علينا.

وعطف كلمة ﴿وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ على الحق هو الذى دلنا على أن الحق يعنى الحكمة فى التكوين والتشريع لأن الأجل المسمى هو يوم القيامة أو يوم الطامة الكبرى كما يقول الأشياخ رحمهم الله، وخطر هذا اليوم لا يتصور وجوده إلا بالتشريع لأن الله لا يحاسبنا إلا بكتاب يوضع مع الميزان يوم القيامة وعليه تعرض الأعمال ولو لم يشرع لنا شرعًا لما حاسبنا لأنه لا حساب إلا بتكليف ولا تكليف إلا بشرع، وهكذا تجد الكلمات فى الظاهر متباعدة فإذا اقتربت من باطنها رأيتها شديدة التقارب، وكأنها أرواح تعارفت وتآلفت، والذين يبعدون الدين والقرآن عن حياة الجماعة ينقضون التكليف، وهذا التواصل الذى بين الحق والأجل المسمى والذى تراه خفيّاً لا يظهر إلا بالمراجعة هو الذى أنتج الإنذار لأن ذكر التشريع الضمنى والمفهوم من كلمة الحق وذكر الفناء المدلول عليه بالأجل المسمى يعنى الحساب والثواب والعقاب كما قلت، وهذا يعنى الإنذار الموجه للإنسان المكلف بالشريعة، وهذا الإنسان الذى توجه إليه هذا الإنذار على هذه الوجوه البالغة فى الدقة والخفاء قسمان أو فريقان، فريق آمن وأجاب وفريق أعرض؛ وهذا هو وجه مجىء الجملة التى قلت إنها جذر معانى السورة ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ﴾ بعد قوله ﴿بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ وهذا عجيب جداً فى أسرار بيان القرآن لأنك تجد الربط ليس بين الكلام والكلام الذى سبقه وإنما بين الكلام والغور البعيد الذى تحت الكلام الذى سبق، فهذه الجملة فيها الناس الذين كفروا وفيها الإنذار وفيها أنهم أعرضوا عن الإنذار وهذا يقتضى أن تكون مسبوقة بكلام فيه الناس وفيه الإنذار، والواقع أنها مسبوقة بكلمتى الخلق والحق وأجل مسمى وقد قصر خلق الخلق كل الخلق عليهما أى الحق والأجل المسمى، وتحتهما الإنذار الذى

لا يتوجه إلا إلى الناس والذى لا محـالة يكون هناك من أجاب الإنذار وانقاد ومن كفـر وأعرض، فـاكتفى بذكـر الأجل بعد شطر دلالة كلمـة بالحق وهو الحكمة فى التشريع، وتولَّد فى الغَوْر الغـامض من هاتين الكلمتين معنى إنذار الخلق وتأسس على هذه الإشارات بناء جملة هى جذر معـنى السورة وموقعها الإعرابى موقع الجملة الحالية، والحال فضلة منتصب وكل هذا غريب أن تكون الجملة الآخذه بزمـام المعنيين الأصلين فى السورة جملة من الجـمل الفضلات وليست من الجمل العُمَد، ثم يكون باعثهـا ومثيرها من الكلام قبلها على هذا القدر من البُعْد والدلالات الضمنية أقول كل هذا عجيب، والجملة الحالية لابد لها من صاحب هى بيان لحاله، ولا بد لها من عامل تتعلق به، وصاحبها غير مذكـور، وكذلك عـاملها، لأن كل هذا مـدلول عليه دلالة تضـمن أو دلالة فحوى، وذلك قدر المفسرون ما لم يُذكر، وقالوا فى بيان أنها حالية: والجملة حاليـة أى ما خلقنا الخلق إلا بالحق وتقدير الأجل الذى يجـازون عنده والحال أنهم غير مؤمنين به معرضون عنه غير مستعدين لحلوله.

والخلاصة أن المعنى قد يترتب على المعنى الذى سبقه أو يترتب على معنى ليس فى الكلام الذى سبـقه إلا إيماءات، وإيماضات تومئ إليه وتشـير إليه، كمـا يشار إلى مكان الدفـين ثم يتعـامل الكلام الآتى مع هذا الدفـين وكأنه استخرج وهذا حسبى.

قوله سبحانه: ﴿**قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ**﴾ [الأحقاف: ٤].

قلت إن قوله سبحانه ﴿**بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى**﴾ تضمن إنذارا، وأن هذا الإنذار أعـرض عنه الذين كـفروا، وهذا يعـنى أنه لم يعـرض عنه الذين آمنوا وأن هذا الإنذار أنتج فـريقـين من النـاس، وأن هذه الآيات تحـدثت عن فـريق الذين

أعرضوا، وسيأتى الحديث عن الفريق الآخر الذى آمن فى قوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ وقد بدأت الآية بقوله سبحانه لنبيه صلوات الله وسلامه عليه ﴿قُلْ﴾ وهذا يؤكد شق المعنى الذى دلت عليه كلمة ﴿بِالْحَقِّ﴾ وهو شق التشريع المتمم والمكمِّل لشق التكوين، وأن التشريع له وحده كما كان التكوين له وحده سبحانه وأن نَبِيَّه صلوات الله وسلامه عليه ليس له فى التشريع إلا البلاغ ثم إن كلمة ﴿قُلْ﴾ توحى دائمًا بأن مقول القول الذى أمر عليه السلام ببلاغه له عند الله شأن، ثم إن الحديث الموجه إلى الذين أعرضوا عما أنذروا يدور حول افتقاد معبوداتهم أهلية أن تعبد، وليس دائرا حول أدلة الوحدانية، وأدلة الألوهية، كما أنه ليس دائرا حول مقولاتهم الباطلة كقوله تعالى ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا﴾ [الزخرف: ١٥].

الآيات هنا سلكت طريقًا غير الذى سلكته آياتِ الزخرف والشورى، وكل آل حم وهى أشبه بما جاء فى سورة الأعراف: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (١٩١) وَلا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾ [الأعراف: ١٩١، ١٩٢] ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٤]، والفاصلة واحدة اكتفت الآيات هنا فى بيان أهلية المعبود بالحق بالجملة الجامعة الساطعة التى لو لم ينزل الله إلا هى لكانت كافية لهداية الباحثين عن الهدى، وهى قوله تعالى: ﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ وأكَّدَتْ هذه الجملة أنه لا يعبد إلا من خلق لأن الخلق لا يقدر عليه إلا من لا يغالب جل شأنه، وقد جاءت المناقشة فى الآية التى معنا مؤسسة على هذه الحقيقة، التى لا تُنَازع ولا ينكرها منكر، والمخاطبون بالآية إن سألتهم من خَلَقهم ليقولن الله، ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض والشمس والقمر ليقولن الله، يعنى بدأت من حقيقة مُسَلّمة، وهذا هو النمط الأعلى

فى أسلوب الحوار، وقد انتقل الكلام فى الآية من الحديث عنهم بطريق الغيبة فى قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ﴾ إلى الحديث إليهم بطريق الخطاب ﴿أَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ وفى هذا الانتقال قدر من المقاربة يهيئ لقبول الحق والإصغاء للصدق، وقد فسّر علماؤنا ﴿أرأيتم﴾ بمعنى أخبرونى، وبينهما فرق وتفسير كلام بكلام لا يعنى أنهما سواء لأن ﴿أرأيتم﴾ دخلت فبه همزة الاستفهام على الفعل رأى، وسواء كانت الرؤية بصرية أو علمية وذلك لأن الرؤية العلمية فيها معنى الظهور والانكشاف حتى كأن ما يرى بالقلب أو شَكَ أنْ يُرى بالعين، والسؤال هنا عن تحقيق ما تَقَع عليه الرؤية تحققا يلحق ما تراه البصائر بما يراه البصر، وفيه إشارة إلى أن ما يعبد لابد أن نكون متأكدين من أهليته للعبادة تأكيدًا فى القلوب ملحقًا بما تراه العيون كما قال أبونا إبراهيم ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ وهذا شيء جيد لأن الإيمان يجب أن يكون يقينًا لا شك فيه، وهذا فرق ظاهر بين أرأيتم وأخبرونى، وهمزة الاستفهام هذه دالة على محض التنبيه وغالبا ما تكون كلمة رأيت لمخاطب واحد والاستفهام الذى هو محض التنبيه ليست هى المقصودة به، وإنما المقصود ما بعدها وإنما جيء بها لإحضار الذهن وتهيئته كما فى قول فتى موسى عليه السلام ﴿أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ﴾ المقصود هو الإخبار بأنه نسى الحوت وإنما ذكر أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة ليستحضر الزمان والمكان الذى نسى فيه الحوت، وكذلك المعنى هنا ليس المقصود هو التنبيه إلى ما يدعون من دون الله، وإنما المقصود ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ﴾ لأنه هو الذى ينقض أهليتهم لأن يعبدوا، ولاحظ أن كلمة ﴿أَرُونِي﴾ هى من كلمة ﴿أَرَأَيْتُم﴾ يعنى إن كنتم تحققتم من أنهم خلقوا شيئًا فى الأرض وأن لهم شركًا فى السماء فَحَقِّقُوا عندى هذا كما تحققتموه، لأن العبادة لا تبنى إلا على التحقق واليقين ويؤول الكلام إلى قولنا إن كنتم رأيتُمْ فأرونى، لأن من رأى حقّاً أمكنه أن يريه غيره.

وقوله سبحانه: ﴿مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ هذه الجملة جمعت بين ما يكثر فيما لم يَعْقِلْ وهو «ما الموصولة» وما لايقال إلا فيمن يَعْقل وهو «واو الجماعة» وهذا جيد لأن آلهتهم كانت خليطًا من الجماد ومن الجن ومن الملائكة ومن البشر، والذين يقولون المراد الأصنام وذُكروا بما يُذكر به العقلاء لأنهم لما عبدوها أنزلوها هذه المنزلة، إنما قالوه لأن أهل مكة كانت تشيع فيهم عبادة الأصنام والآية عامة فى كل من أعرض عن ما أنذر به، وكلمة ﴿تَدْعُونَ﴾ تفيد معنى العبادة، ومعنى طلب الحاجة، وهى صالحة لأن تفيدهما معًا والعبادة فيها طلب الحاجة؛ لأن العابد له عند الله حاجة، هى أن يقبل الله منه عبادته، صلاته، وتسبيحه، وزكاته، وكل ما يباشر من عمل الصالحات، وكلمة ﴿مِن دُونِ اللَّهِ﴾ هى موطن الزلل، وذكر لفظ الجلالة للتشهير بهذا الزلل لأن لفظ الجلالة جامع لكل صفات الجلال والكمال، ومن يتجاوز عبادة الموصوف بكل كمال والمنزه عن كل نقص، وخالق السموات والأرض، إلى عبادة من لا يستجيب له إلى يوم القيامة فقد شهَّر بعقله، ونادى على فساد طبعه، وأزرى بنفسه.

وقوله سبحانه: ﴿أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الأَرْضِ﴾ هذا هو المقصود وما جاء قبله مهيئ له، وفيه أن العبادة فطرة النفس وذلك لأنه لم يسبق مايفيد الاعتراض على العبادة وإنما ما يفيد أنهم عبدوا غير الله وما يفيد أنهم أعرضوا عن الإنذار المتضمن في الجملة الأسبق، وماداموا أعرضوا عن الحق وعن المعبود بحق فقد عبدوا غيره سبحانه لأن الفراغ من المعبود فراغ لا وجود له، ومن لم يشغله الحق شغله الباطل، وقد بُنِيَت الجملة على العلم بهذه الطبيعة الإنسانية وهذا من الأسرار الإلهية وليست البلاغية فحسب، ثم إن الأمر هنا وإن كان معناه التعجيز لأنهم لا يجدون سبيلا إلى الجواب فإن فيه معنى آخر هو التنبيه أعنى تنبيههم إلى ضلالهم وقد تواترت الكلمات المشيرة إلى هذا التنبيه فلم يقل مثلا أرونى الذى خلقوه فى الأرض أو الذى هو شرك

لهم فى السماء وإنما قال ﴿مَاذَا خَلَقُوا﴾ فجاء بالاستفهام الذى يطلب منهم أن يعودوا إلى أنفسهم وأن يسألوها عن الأهلية التى تؤهل هذه المعبودات لتعبد والحقيقة المسلمة عندهم وعند كل عاقل أنه لا يُعْبَدُ إلا الذى خلق؛ وأن الخلق دليل الألوهية؛ ويستوى فى الخلق قليله وكثيره، وكبيره وصغيره لأن الخلق شأن إلهى، والشأن الإلهى قليله ككثيره، لأنه لا يكون إلا من الله، كالإعجاز فى القرآن العجز عن سورة من مثله تساوى العجز عن مثله والعجز عن سورة كالعجز عن خلق السموات والأرض، وهكذا ولذلك أرْخَتْ الآية لهم العنان، وقال ﴿مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الأَرْضِ﴾ وكلمة ماذا يصح أن تكون «ما» الاستفهامية و«ذا» التى للإشارة والتى تسد مسد الاسم الموصول، وقد جاء الاستفهام مع الاسم الموصول فى قوله تعالى: ﴿مَن ذَا الَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾ والمعنى فى الآية ما هذا الذى خلقوه من الأرض ووجود اسم الإشارة فى صيغة الاستفهام يفيد معنى أن الأرض تحت أعينكم وتستطيعون أن تشيروا بأيدكم إلى أى شىء، وإن قل وأن تقولوا هذا ما خلقته الآلهة. وقوله: سبحانه ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ﴾، وأم بمعنى بل والهمزة أى بل ألهم شرك فى السموات، وبل معناه الإضراب الانتقالى، وليس الإبطالى لأن الكلام انتقل من بعيد إلى أبعد أو من مستحيل إلى ما هو أبعد منه فى الاستحالة، وقد تفرّد سبحانه وتعالى بالخلق، فلم يدع فى ملكه شيئًا يخلقه غيره، وجعل الخلق أمره وحده، وكشف باطل كل معبود سواه بهذا الخلق، لما نادى كل الناس من آدم إلى آخر إنسان يمشى على الأرض ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾ [الحج: ٧٣] وهذه من أعظم الآيات التى تهدم الباطل وراجع كلمة ﴿فَاسْتَمِعُوا لَهُ﴾ ثم ضعها بإزاء ﴿وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾ وكيف آلت إلى نغمة تحفظ لتكون فى كل صدْر درعا له وحاميًا من الباطل، وتأمل كيف آثر

الذباب؟ أقول إن الله سبحانه جعل الخلق شعار الألوهية، وشأنًا من شئونه لا يشاركه فيه مشارك، فكل ما على الأرض هو خلقه، حتى أفعال العباد لأنه سبحانه خلقكم وما تعملون، ونفى الخلق يقتضى نفى الشرك، ومن لم يخلقوا فى الأرض ذبابًا، ولو اجتمعوا له، لن يخلقوا فى السماء شيئًا، ومن لا خلق له لا شرك له، وهذا استدلال عقلى على إبطال معبوداتهم، وهو استدلال مؤسس على بدهيات معلومة من العقل بالضرورة، وهم مقرون بها، وإن المراد وإن كان التعجيز إلا أن وراءه التنبيه الذى هو أشد تأثيراً، والتنبيه من الغفلة هو أفضل سلاح يواجه به الباطل، وما لبث هذا التنبيه أن كشف الغَفْلَةَ عن القوم فدخلوا فى دين الله أفواجًا، وقوله سبحانه: ﴿ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾ انتقل الكلام من إبطال معبوداتهم بالدليل العقلى إلى الدليل النقلى لأن الإيمان لا بد أن يؤسس على برهانين قاطعين؛ برهان من العقل وبرهان من النقل، وأن تكون براهينه باهرة قاطعة، كما مر فى الجملة السابقة ويلاحظ أن برهان النقل ابتدأ بجملة بُنيت على فعل الأمر ﴿ائْتُونِي﴾ وهذا الأمر واضح فيه معنى التعجيز إلا أن التنبيه فيها هو المقصود الأظهر وأن المعبود بحق يضع دلائل ألوهيته بين أيدى عباده ظاهره كعمود الصبح، كآية ﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ وهذه الآية فى رأس السورة كأنها فنار لا حدود لضيائه وهى من نور الله الذى هو نور السموات والأرض، ثم سبحانه لا يكتفى بهذا وإنما يرسل رسله، وينزل كتبه، ويضع بين أيديهم شريعته كما وضع بين أيديهم برهان ألوهيته، ولما فرغت الجملة الأولى من إبطال دليل العقل على صحة العبادة، والتى بدأت بـ ﴿أَرُونِي﴾ وهو المناسب لطلب إحضار ما خَلَقَت الآلهةُ، بدأت هذه ﴿ائْتُونِي﴾ وهو المناسب للكتاب أو إثارة العلم واسم الإشارة فى قوله تعالى ﴿مِّن قَبْلِ هَذَا﴾ راجع إلى القرآن الكريم، والمراد كتاب فيه أن

الله جعل آلهة تُعبد من دونه ﴿أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٥] وإنما حذف ما فى الكتاب لدلالة جملة ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الأَرْضِ﴾ عليه لأن المقام مقام نقض عبادة دون الله، وربما كان فى هذا الحذف إشارة إلى أنهم لا يأتون به لأنه لا وجود له؛ فناسب حذفه فى الذكر حذفه فى واقع الأمر، وهذه الجملة التى تتحدى عُبَّاد غير الله بأن يأتوا بدليل من كتاب-من كتب الله على صحة عبادتهم وإن كانت فى الظاهر تخاطب كفار مكة فهى فى الحقيقة تخاطب أهل الكتابين من اليهود الذين عبدوا عزيراً ومن النصارى الذين عبدوا المسيح ابن مريم وفسروا الكتابين التوراة والإنجيل بما يدل على الباطل الذى هم عليه، وهذا مهم لأن عبادة الأصنام قد انتهت من الأرض وبقيت الآية لتدفع كل تحريف تُحَرَّف به كتب الله، والجملة قاطعة بأن كل كتب الله التى أنزلها؛ وكل رسله الذين أرسلهم، يؤكدون ما أكده دليل العقل وهو عبادة الله وحده لا شريك له فى أرض ولا فى سماء؛ لا من الإنس ولا من الجن، ولا من الملائكة، وهذا هو جوهر معنى الآية الكريمة، وإن قيلت لجماعة خاصة فى زمن خاص، ومكان خاص: وقوله سبحانه: ﴿أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾ يعنى بقية من علم، قال الزمخشرى: الأثارة بقية من علم بقيت عليكم من علوم الأولين، قولهم سَمِنت الناقة على أثارة من شحم أى على بقية كانت بها من شحم ذاهب، وقرئ أثرة أى من شيء أُوثِرْتُم به، وخصصتم من علم لا إحاطة به لغيركم، وعليك أنت الآن أن تراجع التدرج الواثق من خطواته، والواثق من بطلان ما هم عليه، وكيف بدأ بطلب رؤيته الذى خلقته الآلهة فى الأرض، ثم السؤال هل لهم شرك فى السماء، وهذا وإن كان مُغَيَّبًا إلا أنهم لا يمكن أن يجترؤوا على الكذب والقول بأن لهم شركا فى السماء؛ لأنهم يعلمون أنهم لو قالوها لما راجت عند الناس، ولربما كانت عليهم، وليست لهم، ثم الانتقال إلى أن يأتوا بدليل من كتاب، أو بقية من علم يعلمه الناس، أو بقية من علم خُصُّوا هم به،

راجع هذا التوسع عليهم وإرخاء العنان لهم وإعطائهم كل فرصة ليثبتوا ولو على سبيل الكذب ما هم عليه؛ حتى إنهم لو قالوا خصصنا بعلم ذلك وجاؤوا بأسطورة، أو كذبوا كذبه؛ لكان ذلك جوابًا، ولكن القرآن يعلم أنهم وإن ضلوا كل الضلال إلا أن لهم خلقًا يعصمهم من الكذب فى هذا الباب، وهذا جيد جداً لأنهم صاروا خير أجيال الأرض وخير أجناد الله لما فتح الله أقفال قلوبهم وشهدوا الشهادتين.

وقوله تعالى ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ فاصلة تكررت مع هذا المعنى فى سورة الأعراف، وهى فاصلة واقعة موقعًا سديدًا؛ لأنها صالحة لأن تذكر عقب كل مطلب من هذه المطالب الأربعة فإذا قلت أرونى ماذا خلقوا من الأرض إن كنتم صادقين لصح هذا، ولو قلت أم لهم شرك فى السماء إن كنتم صادقين لصح ذلك، وهكذا، وهذا من سداد موقع الفاصلة، وكلمة ﴿إن﴾ مستعملة هنا فى المقطوع بنفيه، والأصل أن تستعمل فى ما فيه شك، وقد أفادت افتراض أن المقطوع بنفيه مما فيه شك، واحتمال أن يكونوا صادقين وذلك أيضًا من المساهلة معهم والاقتراب منهم وإغرائهم بالإصغاء والمراجعة، وهذه الآية من أول قوله تعالى ﴿قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ صورة بالغة فى دقَّتها ورقيها واستعلائها فى حوار المخالف أشد المخالفة وكيف تعرض الحقائق المسلَّمة، وتبنى عليها مواضع الخلاف فى هدوء، ودقة وجدال، وكيف تتدرج وتبدأ من الكبير الذى هو الخلق فى الأرض، والشرك فى السماء، إلى أثرة من علم خاص بكم.

ثم إن قوله تعالى ﴿كُنتُمْ﴾ كلمة «كان» فى مثل هذا الموقع تفيد معنى إن كان شأنكم الصدق، وكنتم من أهله المعروفين به، وهذا كله ظاهر من دلالة اللغة والذى يحتاج إلى فهم هو أن الظاهر أن يقال فى فاصلة آية تقيم الدليلين العقلى والنقلى على إبطال أهْليَّة المعبودات الباطلة أن يقال مثلا إن كانوا آلهة حقّاً، يعنى أرونى ماذا خلقوا من الأرض إن كانوا آلهة، أم لهم شرك فى

السماء إن كانوا آلهة، وهكذا لأن المطالب المطلوبة فى الآية إن أجابوا عليها بالإيجاب تُثبتُ أهلية الآلهة بأن تعبد حتى ولو كان ذلك أثرة من علم خاص بهم لأن الله سبحانه لم يترك فى خلقه شبهة ولو كانت ضئيلة توهم بعبادة غيره، وهذا يقتضى فاصلة تحدث عن الآلهة وليس عن الذين عبدوها، وإنما سلكت الآية الذى سلكته، وجاءت الفاصلة التى كان الشأن أن تحدِّث عن الآلهة وحدثت عن الذين عبدوها، لمعنى جليل جداً وهو أن الفاصلة ضربت صفحا عن الآلهة، لأن افتقادها لأهلية أن تعبد لا يحتاج إلى بيان أكثر من الذى عبرت عنه الآية، وانتقلت إلى الناس، وسألتهم سؤالا مفاجئًا جدا وقالت لهم إن كنتم صادقين فى عبادتها أو كنتم صادقين فى اعتقادكم بألوهيتها أو كنتم صادقين فى أى باب من أبواب الصدق، يعنى إن كان من شأنكم الصدق فهل ترونها أهلا لأن تعبد، أو فهل ترون أنفسكم مقتنعة بألوهيتها، وعبادتها وهذا كشف لعالم آخر هو عالمهم الداخلى، وما تنطوى عليه نفوسهم فى شأن هذه الآلهة التى لا يشكُّون لحظة واحدة فى أنه ليس لها خلق فى الأرض وأنه ليس لها شرك فى السماء، وأن الله لم ينزل بها كتابا ولا أثرة من علم وهذا يعنى أن الآية الكريمة فى صلبها نفت أهلية آلهة الباطل، وفى فاصلتها نفت صدق الذين عبدوها، لأنهم هم أنفسهم يعتقدون افتقادها أهلية أن تعبد، ثم فى هذه الفاصلة معنى خفى وهو أن المخاطب قد يكذب من يخاطبه، وقد يكذب الناس، ولكنه لن يستطيع أن يكذب على نفسه، والفاصلة تقول لهم إن كنتم صادقين، وعليكم أن تحددوا صدقكم أو كذبكم فى اعتقادكم فى هذه الآلهة أو فى أهليتها لأن تعبد؛ أن تحددوا هذا بينكم وبين أنفسكم، وخلَّتْهُم الفاصلة لأنفسهم فى هذا الشأن، الذى إن صحت فيه المراوغة مع الغير فلن تصح فيه المراوغة مع النفس، وهذا جيد بالغ لأنه من باب كشف سر النفس للنفس، وليس المطلوب كشف سرها للغير لأنه لا يعلم صدقك فى اعتقادك أو كذبك فيه إلا أنت وكلمة ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ تركتهم لأنفسهم، هذا والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لاَّ يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾.

هذه الآية معطوفة على قوله تعالى ﴿قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ وهى من ذكر العام بعد الخاص لأنها تشمل المخاطبين وكل من كان على شاكلتهم؛ وتؤصل لقاعدة عامة وهى التعريف بأضل الضلال فى الأرض، وأهل أضل الضلال، وأنهم الذين يدعون من دون الله من لا يستجيب لهم إلى يوم القيامة، والذين ذكروا فى الآية المعطوف عليها فصيل منهم، ثم إنها تفيد أن أضل الضلال هذا وأهله باقون يتعاقبون فى الأرض جيلا بعد جيل، حتى يأتى يوم القيامة، وأن الذين يحلمون بخلو الأرض من أضل الضلال واهمون، وفى الآية الكريمة شىء ينبغى أن يلاحظ، وهو أن الآية عبرت عن أضل الضالين بصيغة المفرد ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو﴾ ثم جمعت فى آخر الآية ﴿دُعَائِهِمْ﴾ وهذا معناه أن أضل الضالين فى الأرض نمط واحد، وصورة واحدة، وكأنهم رجل واحد، وأن أجيالهم المتعاقبة بمثابة جيل واحد، وأن بعضهم من بعض لا يختلف آخرهم عن أولهم، وأن على أهل الحق أن يعوا هذه الحقيقة، وأن لا يتوقعوا غيرها، وأن المدينة الفاضلة جموح من خيال فيلسوف يحلُم، وأن الآية السابقة قدمت الصورة المثالية للتعامل مع أهل أضل الضلال، وأن الذى على أهل الحق هو كشف الباطل، وليس إزاحة الباطل.

وفى الآية شىء آخر وهو أن الآية لما انتقلت إلى وصفهم بالضلال حولت الكلام من طريق الخطاب فى آية الحوار الراقى إلى طريق الغيبة، وقد كان الكلام فى الآية السابقة عن الباطل وبيان بطلانه، وهى هنا عن أهل الباطل، وأنهم ضلوا أضل الضلال، وهذا الصرف إلى طريق الغيبة وتجنب الخطاب فى الوصف بالضلال من الأدب العالى فى الكتاب العزيز وفيه ما فيه من المقاربة، والملاطفة، والبعد عن الغلظة والفظاظة لأن ذلك مما يصد عن سماع الحق.

والاستفهام فى قوله ﴿وَمَنْ أَضَلُّ﴾ استفهام إنكارى والمعنى ليس فى الضلال أضل ممن يدعو من لا يستجيب، وإيثار الإنكار بحرف الاستفهام على الإنكار بحرف النفى ليعود السامع إلى نفسه، ويراجع المعنى فى داخله، ويتدبره، والشأن أن الإنسان لا يكذب نفسه، وكلمة ﴿يَدْعُو﴾ أقرب إلى طلب الحاجة بدليل من لا يستجيب له، ولأن طلب الحاجة ممن لا يستجيب أظهر فى الدلالة على أضل الضلال، لأنه يمد يده بحاجته لمن هذا حاله. وكلمة يدعو من دون الله تكررت فى الآيتين، لأنها جذر المعنى فيهما، ولأنها رأس الخطيئة، وكلمة ﴿تَدْعُونَ﴾ فى الآية الأولى أقرب إلى العبادة، بدليل ﴿أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الأَرْضِ﴾ لأن الخلق موجب للعبادة، وكلمة ﴿يَدْعُو﴾ فى الآية الثانية أقرب إلى طلب الحاجة فاستوفت الكلمة دلالتها، وعبرت الآية الأولى عن المعبود بالباطل بكلمة ﴿مَّا تَدْعُونَ﴾ وأكثر ما تستعمل فيما لا يعقل، وعبرت فى الآية الثانية عن المعبود بالباطل بـ﴿مَن لاَّ يَسْتَجِيبُ لَهُ﴾ وأكثر ما تستعمل فيه «من» هو من يعقل، فأحاطت الكلمتان بأحوال الآلهة من الأصنام والملائكة والجن وعزير وعيسى ولاءمت «مَنْ» الاستجابة لأنه لا يستجيب إلا من يعقل.

وقوله سبحانه ﴿وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾ جملة حالية من تمام الجملة الأولى وصاحب الحال ﴿مَن لاَّ يَسْتَجِيبُ لَهُ﴾ وعاملها ﴿يَدْعُو﴾ وهذا تشابك فى نسج البيان لا يجوز إغفاله، لأن هذه الحال هى الجملة التى تكلمت عن المدعوين وهم خليط من الأصنام، والجن، والملائكة، والناس، والجملة قبلها تحدثت عن الداعين وهم أضل من ضل. وهذه الجملة الحالية هى فاصلة هذه الآية ويقابل هذا فى الآية السابقة أن الآية تكلمت عن المدعوين، وأنهم لم يخلقوا فى الأرض وليس لهم شرك فى السماء، والفاصلة تكلمت إلى الداعين وقالت لهم إن كنتم صادقين، وبهذا ترى أن

آية ﴿وَمَنْ أَضَلُّ﴾ امتداد لفاصلة الآية السابقة ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ من جهة أنهما يحدثان عن الداعين، وجملة ﴿وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾ ترجع إلى رأس الآية السابقة ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الأَرْضِ﴾ وهذا ضرب من التماسك لا ترى فيه الجملة ممسكة بالجملة قبلها وإنما تراها ممسكة بما هو أشبه بمعناها، ثم إن هذه الجملة الحالية أتمت معنى الجملة التى هى حال منها لأن الجملة الأولى أفادت أنهم يدعون من لا يستجيب، وهذه أفادت أنهم أى المدعوين غافلون عن دعائهم، فكان غباء الضالين أنهم يدعون من لا يستجيب وهذا الذى لا يستجيب لا ذنب له لأنه غافل عن دعاء من يدعوه؛ ولا علم له به، وهكذا لو تأملت وجدت طرفى الجملة يتم كل طرف منها معنى، ولو جاءت الآية هكذا ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة، وانتهت الآية لكان المعنى ناقصا نقصانا ظاهرا، لأن تمامه فى هذه الفاصلة، وتلاحظ فى بناء هذه الفاصلة خصوصيات تلفت أولها تقديم ضمير المدعوين ﴿وَهُمْ﴾ وبناء الجملة عليه، وهذا يفيد شدة العناية بخبرهم، ثم إنه عبر عنهم بضمير جماعة العقلاء، ومنهم من يعقل ومنهم من لا يعقل، كما أنه قد سبق الحديث عنهم بالمفرد ﴿مَن لاَّ يَسْتَجِيبُ لَهُ﴾ ثم تقديم الجار والمجرور المتعلق بالخبر ﴿عَن دُعَائِهِمْ﴾ لأن الذى يلى المدعوين فى الأهمية هو الدعاء وهو الذى يجىء إثره فى المعنى فجاء إثره فى اللفظ، ثم إنك تجد فى كلمة ﴿غَافِلُونَ﴾ شيئًا قد تراه مجازا؛ وقد تراه سخرية، لأن الغفلة معناها نفى اليقظة، أو هى كما قال الراغب سهو يعترى الإنسان من قلة التحفظ، والتيقظ، وهذا لا توصف به الأصنام، كما لا توصف به الملائكة، ولا الجن، ولا عيسى، ولا عزير، لأن هذه جميعًا دعاهم من دعاهم وهم لا يدرون، والذى لا يدرى الشىء لا يقال إنه غفل عنه، وإنما يقال غفل عنه إذا علمه، ثم اعترته الغفلة، أو النسيان، كما فى قوله تعالى: ﴿لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً﴾ [النساء: ١٠٢]

ثم إن هؤلاء المدعوين سينكرون دعوتهم يوم القيامة، ويكفرون بهم، وما داموا كذلك فما وجه وصفهم بالغافلين؟

الذى قاله العلماء أنه إذا كان المراد الأصنام فوصفهم بالغفلة من باب التهكم، ويرجع التهكم بالأصنام إلى التهكم بالذين عبدوها، وإذا كان المراد المعبودات من الإنس، والجن والملائكة، والأصنام، كان الكلام من باب التغليب، لأن العقلاء يوصفون بالغفلة، وغلّب العقلاء على غير العقلاء وجرى وصف الغفلة على الكل، وقد تأولوا الغفلة بأنهم لا يسمعون ولا يدرون لأن نفى السماع والدراية حقيقة بالنسبة لكل المعبودات من إنس وجن، وملائكة، ويبقى السؤال لماذا عبر بالغفلة عن نفى السماع والدراية؟ ولماذا لم يكن الكلام وهم لا يسمعون؟ ما دام نفى السماع هو المراد؟ وليس عندى فى الجواب إلا شىء واحد هو الفرق بين أن أقول فلان لا يسمع فلانا ولا يدرى عنه شيئًا، وفلان غافل عن كلام فلان، والعبارة الثانية فيها معنى الأولى وزيادة، هذه الزيادة هى عدم الالتفات إليه، وعدم العناية به.

وأن هذه المعبودات لا تسمعهم، ولو سمعتهم ما التفتت إليهم، وقد أشار البقاعى إلى أن ذكر ﴿وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾ بعد بيان أنهم لا يستجيبون له يفيد تأكيد أنهم لن يستجيبوا لهم يوما ما، قال: ولما كان من لا يستجيب قد يكون له علم بطاعة الإنسان له، ترجى معه إجابته يوما ما، نفى ذلك بقوله ﴿وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾ وهذا الذى قاله البقاعى افتراض غير قابل لأن يكون لأن المعبودين بالباطل لا يستجيبون ولو أرادوا ما استطاعوا، وهذا لا ينطبق على مثل عيسى وعزير والملائكة لأنهم لا يعصون الله ما أمرهم، وإنما ينطبق على مردة الجن وضُلاَّل الإنس الذين أغروا الناس بعبادتهم، وقد ألم صاحب روح المعانى بكثير مما قاله المفسرون فى الآية ويبدو أنه لم يجد فيه مقنعا فقال كلمة تدل على ذلك، وقد اعتاد علماؤنا أن يذكروها فى خاتمة كلام لم يظهر لهم فيه المقطع، وهى كلمة «فتدبر» أو فتأمل أو فانظر.

وقولـه سبحـانه: ﴿وَإِذَا حُشِـرَ النَّاسُ كَـانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَـانُوا بِعِبَـادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٦].

هذه الآية معطوفة على قوله تعالى ﴿وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾ وهى جملة حالية تبين حال المدعوين بـالباطل وأنهم غافلون عن دعائهم فى الدنيا وأنهم إذا حشر الناس كـانوا لهم أعداء، إلى آخره، والجملة المعطوف عليـها فاصلة وهى وإن كانت تمام معنى الآية قبلهـا التى بنيت على بيان الأصل فهى ابتداء لمعنى الكلام بعدها، لأنها اللبنة الأولى فى بيـان أحوال المعبودات الباطلة أو الآلهة الباطلة، وكلمة الحشر لها فى نفـوس المؤمنين بالبعث مهابة ومخافة وفيها فزع وإثارة لأن أصل معنى الحشـر أن يجمع الناس لمواجهة حرب وغزو وسمى يوم القيامة يوم الحشر، وقد خوفنا ربنا من يوم الحشر، وأمرنا بالتقوى لأننا نحشر إليـه، وذكر سبحانه حشـر أعدائه إلى النار، والأصل الذى عليه عبـد العابد من لا يستجـيب له إلى يوم القيامـة هو أن يكون شفيـعًا له عند الله، وليقـربه إلى الله زلفى وهو معتـقد فى البعث والحشـر، ولكنه خُذِل، وسلك غـيـر الطريق الواصل بـه إلى الأمـان، فى هذا اليـوم الصـعب وهو الإيمان بالله وعبادة مالك يوم الدين سبحانه.

ولو راجعـت الجمل، ووجوه تـرتيبهـا، لرأيت تصـاعدًا فى بيـان أحوال المعبـودين بالباطل، فهم أولا لا يسـتجيبـون لهم، وهذه أولى الدرجات، ثم هم عن دعائهم غافلون، وهذه الثانية، وهى تأكيد للأولى مع زيادة نفحة من السخـرية، والتهكم، والإهمـال، وقل هذا فى الدنيا فـإذا انتقلنا إلـى العالم الآخر، عالم الجزاء وليس عالم العمل، وعالم المخافة، وعالم الحشر، واليوم الذى ﴿يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا﴾ [المزمل: ١٧]. إلى آخر أهـوال القيامـة، كان هؤلاء المدعوون بالباطل، أعداء لمن عبدوهم، لأن من كان راضيا عن عبادتهم له من مردة الإنس، والجن نزل بهم العذاب، لأنهم سـيرتبطون بهم ويقذفون

معا فى النار، كما قال تعالى ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨] وكما قال سبحانه: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ [الصافات: ٢٢، ٢٣] وحال الداعى والمدعو كحال القرين مع القرين، يوم القيامة، بل أسوأ لأن القرين يقول ﴿يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ﴾ [الزخرف: ٣٧] ويقول الحق لهما ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ [الزخرف: ٣٩] هذا حال المدعو بالباطل والراضى عن دعوته كمرده الإنس، والجن، أما الصالحون من الملائكة والأنبياء مثل عيسى وعزير فإن هؤلاء من شأنهم أن ينكروا هذا الباطل، وأن يكونوا أعداء لأهله، وأن يتبرؤوا منه كما وصفت آيات كثيرة مثل قوله سبحانه فى سورة الفرقان ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ﴾ [الفرقان: ١٧-١٩] وكلمة ﴿كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً﴾ كلمة مجملة وآية الفرقان تفسر جانبا من هذه العداوة وهو قولهم ﴿سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ وأظهر من هذا فى العداوة قولهم ﴿وَلَكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا﴾ وترى شيئًا من بيان هذه العداوة فى يونس ٢٨ ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾.

وقوله سبحانه ﴿وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ جملة معطوفة على جملة ﴿كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً﴾ [الأحقاف: ٦] وهى جواب الشرط، وهذه متممة لهذا الجواب، ولاحظ تشابه الجملتين فى البناء فقد دخلت كلمة «كان» عليها فأومأت إلى معنى أن خبرها جزء من ماهية اسمها وأن عداوتهم لهم عداوة

عريقة، ساكنة فى اللحم والدم، وأن كفرهم بعبادتهم هو الآخر كفر عريق ساكن فى اللحم والدم، وهذا كله توكيد لشناعة الأضل الذى هم فيه ثم ترى الجار والمجرور مقدما فى الجملتين لأنه هو الكلمة الدالة على الذين ضلوا، والكلام معقود عليهم فقدموا لأنهم الأهم، ولك أن تقول إن قوله ﴿كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً﴾ يمكن أن يفيد معنى ﴿وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ فما وجه ذكر الجملة الثانية؟ والجواب والله أعلم بأسرار كلامه هو أن المعنى المدلول عليه دلالة ضمنية أو دلالة فحوى حين يؤتى صريحا بعد هذه الدلالة الضمنية يدلك هذا على أنه من المعانى التى لها شأن فى الغرض المسوق له الكلام، وكفر المعبودين بعبادة الضالين أشنع من عداوتهم لهم ومن منازعتهم، وأظهر فى الدلالة على الخذلان والخسران ولا يجوز أن تغفل أننا مع الذين كفروا، وأعرضوا عن ما أنذروا، وأنهم كفروا بالحق الأظهر الأنور، والذى كانت الآية الثانية فى السورة علامة ومنارة هادية إليه، ولما كفروا بالحق الذى وضعه الله فى طريقهم كفر بهم الباطل الذى وضعوه لأنفسهم، والمفاجأة المثيرة أن يكفر المعبود بعبادة عابده، والعابد بذل نفسه وجعل نفسه عبدا لهذا المعبود، ففوجئ بضراوة العداوة وشناعة الكفر بعبادته وعبوديته، والعبادة إذا اتجهت إلى غير جهتها ردت. وكانت كلمة ﴿كَافِرِينَ﴾ فى آخر هذه الجملة هى آخر الكلام فى بيان ضلالهم فى شأن الوحدانية، وسيبدأ الكلام بعدها فى بيان ضلالهم فى شأن النبوة، وراجع الآية الأولى التى تبدأ بقوله تعالى ﴿قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ لأنها هى التى بنيت على نقض عبادة غير الحق سبحانه وما بعدها تعقيب عليها وبيان لضلال من ضل إلى آخره، وهذه الجملة الأولى تقرؤها وتسمعها فتجد فيها شيئًا يلفت ويميزها، هذا الشىء هو أنها بنيت على الإيقاظ، والتنبيه، وأن عناصر الإيقاظ، والتنبيه توفرت فيها أكثر، لأنها بدأت باستفهام ﴿أَرَأَيْتُم﴾ أعقبه أمر ﴿أَرُونِي﴾ ثم باستفهام

﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ﴾ أعقبه أمر ﴿ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا﴾ وهذه المراوحة بين أظهر طريقين من طرق الإنشاء أضفت على معانى الآية مزيدًا من العناية، لأنها تقتلع الشرك بسداد عجيب، وقوة لا ترد، ولم يتكرر هذا الطريق فى الآيتين بعدها، والآيتان بعدها بمثابة جملة واحدة طالت واسترسلت بعد هذه الجمل القصيرة، التى تواترت فى الآية الأولى.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ⑦ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الأحقاف: ٧، ٨].

أبرز ما فى بيان الكتاب العزيز أنه لا يدعك فى واد واحد من أودية معانيه التى لا تجدها إلا فيه، وإنما يدخل بك من عالم إلى عالم حتى إنك تشعر وأنت فى صحبته أنك مرتحل دائمًا، وتطوف فى عوالم لا ترى منها شيئًا فى عالم شعر القوم الذين نزل فيهم، واقرأ صفحة واحدة من المصحف، ثم اقرأ ما شئت من كلام قومه ﷺ وتأمل الكلامين من هذه الزاوية، راجع الآيات التى قرأناها من أول الأحقاف، تجد أولا أنك فى مواجهة خلق السموات والأرض بالحق، ثم إشارة إلى فناء كل هذا العالم، ثم مع الذين أعرضوا عما أنذروا، ثم مع الذين عبدوا غير المعبود بالحق، وكيف كان باطلهم، ثم يوم الحشر، ثم المنازعة بين العابدين وآلهتهم، ثم تسمع إعلان هذه الآلهة كفرهم بمن عبدوهم، وهكذا، تراجع صورا مختلفة وأحداثا وأشخاصا وآلهة ليست كاذبة لأنها لم تدَّع الألوهية بل هى ترفض هذا وتعلن رفضها إلى آخره، ثم راجع قفا نبك وهى ملكة شعر العرب وتنقل فى أوديتها وقارن بين الكلامين لتدرك الإعجاز.

قلت هذا لأن هذه الآية انتقلت بنا من زحام المحشر وما فيه من منازعة وعادت إلى الحياة الدنيا وكأن محمدًا ﷺ قد نزل عليه الوحى الآن وهو يتلو على قومه آيات الله، وهم يردون عليه آياته، يعنى صرنا إلى مشهد آخر فيه

آيات تتلى ومشهـد من الناس يفكر فيما يسمع ثم يروغ ويصيح بلسان واحد ﴿هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾، وهذه الأحـداث والمشاهد التى وراء كلمات الفرقان العظيم لم أعطها حقـها لأنك وأنت مع الكتاب العزيز يشغلك شـأن فيه عن شأن، ولا يستطيع أحد أن يلم منه إلا بالشيء الذى قصد إليه.

وهذه الآية ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾ معطوفة على قوله تعالى ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لاَّ يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ والمناسبة بين المعطوف والمعطوف عليـه أن الأول عبـد غيـر المعبـود بحق، فكان أضل من ضل، والثانى رد الحق الظاهر الـبين وقال هو سحر، فـهو كافـر ككفر الذى كفر بالله، الأول كـفر بالله والثانى كفر برسـوله، الأول رد الشهادة الأولى وهى أشـهد أن لا إله إلا الله، والثـانى رد الشهـادة الثانيـة وهى أشهـد أن محمـدًا رسول الله، وليس لى ولا لك غاية أعلى وأسـمى من أن يُثَبِّتَ الله فى قلبى وقلبك هاتين الكلمـتين، ويمكن أن نقـول إنها معطوفـة على قوله تعالى ﴿قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ لأن قوله ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لاَّ يَسْتَجِيبُ لَهُ﴾ ملحق به، وتعقيب عليه، ورأس المعنى الذى هو أجدر بأن يعطف عليه هو آية ﴿قُلْ أَرَأَيْتُم﴾ لأنها بداية الحديث المتسلسل من رأس السورة، والعطف من بـاب عطف المعنى على المعنى، والمعنى الأول هو رد الشرك والمعنى الثانى هو رد رَدِّ النبوة، ويلاحظ أن رد الـشرك اختصر فى الآيات التى شرحناها، ورد ردِّ النبوة طال حتى انتهى إلى آخر السورة، ووجه ذلك أن حقائق أدلة الوحـدانية ماثلة فى السموات والأرض، وصـارت كأنها معلومة من الدين بالضرورة، وهى مختـصرة جدا لأنه لا يعبد إلا الخالق، ولا خالق إلا الله، فـلا يعبد إلا الله، وأن الله سـبحانه وتعـالى جعل أدلة عبادته تحت عيون خلقـه الخاصة منهم والعامة؛ لأن الكل مكلف ولا تكليف إلا بحجة فـلابد من أن تكون الحجة فى متناول الكل، والعـامة يقولون «ربنا عرفوه بالعقل» فليس الأمر فى حاجة إلى فلسفة ولا إلى تنطس.

وهذا بخلاف دلائل النبوة فإنها ليست مطروحة فى مطارح الأبصار وإنما هى قرآن يتلى من سمعه قامت عليه الحجة، ومن لم يسمعه لم تبلغه الدعوة، ولهذا بدأ هذا القسم بقوله تعالى ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا﴾ لأن هذه الآيات هى الحجة وبدأ القسم الأول بقوله ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا﴾ لأن الخلق هو الحجة، وبناء الفعل للمجهول فى قوله تعالى ﴿تُتْلَىٰ﴾ إشارة إلى أن المتلو هو الذى يتعلق به الغرض، بخلاف الذى يتلو الذى هو مبلغ الآية، ولا شأن له بها، وهذا بخلاف ﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ﴾ [الأنبياء: ١٦] لأن إسناد الخلق إلى ضمير ذى الجلال هو مناط الفائدة وهو الحجة.

وقوله سبحانه ﴿آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾ فيه إعلاء لشأن هذه الآيات من جهات، أولها: أنها سميت آيات، والآيات جمع آية وهى العلامة والحجة فآيات الله التى نتلوها هى علامات النبوة، وهى حجتها، وهى فى قوة دلالتها على النبوة كخلق السموات والأرض، فى قوة دلالتها على الوحدانية، ثم هى مضافة إلى ضمير العظمة، وهذا يكسبها جلالا؛ وعزة، وغلبة، وأنها تَغْلِب ولا تُغْلَب لأنه لا يشاد هذا القرآن أحد إلا غلبه وأنه قصم الله به ظهور الجبارين، وإنا لمنتظرون آية الله فى اللصوص الظالمين، ثم تأتى كلمة ﴿بَيِّنَاتٍ﴾ لتؤكد معنى الآية ومعنى إضافتها إلى ضمير العظمة ولتدل على أنه لا ينكرها إلا من ينكر الأمر البين الذى لا ينكر، ولا يكفرها إلا من يكفر الأمر الظاهر الذى لا يكفره مستقيم الفطرة، وكل هذه التوكيدات التى فى الشرط تهيئ للمخالفة الفجة والخطيئة التى لا مبرر لها فى جواب الشرط، وأول ما يلاحظ فى هذا الجواب أنه وضع المظهر موضع المضمر فى موضعين، الأول: قوله سبحانه ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ والأصل أن يقول قالوا كما قال تتلى عليهم، وإنما ذكر الموصول من أجل الصلة، وهو أنه لا ينكر آياتنا البينات إلا الذى من شأنه الكفر، ويجب أن تذكر أن الأصل فى الصلة

أن تكون قصة معلومة ومتعارفه، ولهذا صح التعريف بها، ومعنى هذا أنه لا يقول فى آياتنا البينات أنها سحر إلا قوم عرفوا بالكفر وشُهروا به، وتذكر أيضًا أن الكفر معناه أن تستر شيئًا وأنت تعرفه، وأن الكافر ستر الإيمان وهو يعرفه، كما ستر الزارع البذر وهو يعرفه، ولهذا سمى الزارع كافرا، ثم إن كلمة الذين كفروا مع تلاؤمها للمؤكدات الواردة فى الشرط ترجع بهذه الجملة إلى الجملة الأم ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ﴾ وهذا حديث عنهم وآياتنا هى الإنذار وقولهم سحر هو الاعراض.

وقوله تعالى ﴿لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ إسناد المجىء إلى الحق تكرر كثيرًا فى الكتاب العزيز كما فى قوله تعالى ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [يونس: ٧٦] وقوله ﴿قَالَ مُوسَىٰ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا﴾ [يونس: ٧٧] وقوله ﴿لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ [يونس: ٩٤]، ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ﴾ [الإسراء: ٨١] وهذا الإسناد يؤكد تجليات الحق، وأنه لا يُرتاب فيه، وأنه كأنه تراه العيون، وأنه نور وبرهان مبين، وقد يقترن بالرسول فى مجيئه كما فى سورة الزخرف ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ﴾ [الزخرف: ٢٩] الرسول فى الآية الكريمة لم يجئ بالحق، ولم يجئ وفى صحبته الحق، وإنما جاء هو فى صحبة الحق، وتقدم الحق على الرسول، لأن الحق هو حجة الرسول وهو رسالة الرسول.

وكلمة ﴿لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ وضع فيها الظاهر موضع المضمر، لأن الحق هنا هو ﴿آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾ وأصل الكلام أن يقال وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قالوا لها هذا سحر مبين فوضع الذين كفروا موضع واو الجماعة لما بيناه ووضع الحق موضع (لها) أولا لتأكيد وصف آيات الله البينات بأنها حق وإن كان الحق مفهوما من إضافتها إلى ضمير العظمة، ووصفها بأنها بينة ولكننا

لاحظنا أن بعض المعانى لا يكتفى فى الإبانة عنهـا بالدلات الضمنية، لأنها من صلب المقصود، وثانيا لأن لفظ الحق له قرع لـلقلب ليس للضمير، وهذا قريب من قوله تعالى ﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾ [الإسراء: ١٠٥] وثالثا لأن ذكر الآيات بالحق يمـهد لشناعة وصـفهم لهـا بأنها سحـر مبيـن، لأن الحق نقيض السحر، الحق ثابت ثباتا لا يزول ولا يحول، والسحر أوهام «وتخيلات لا أصل لها والذين كفروا يعلمون ذلك، ولهذا راوغوا وكذبوا واحتاطوا فى وصف الحق بالسحر، وجاؤوا باسم الإشارة الذى يدل على تمييز المشار إليه أكمل تمييز لتأكيد أنه المقصـود بالخبـر، واسم الإشارة عائد إلى الحق، وأنهم عـاجلوا بذلك ولم يتدبروا الآيات، ولم يراجـعوها، أدنى مراجعة، وإنما مـا إن جاءتهم حتى بادروها بقـولهم هذا سحـر مبـين، وهذه المبادرة مـفهومـة من ﴿لَمَّا﴾ الحينـية المتضمنة مـعنى الشرط ﴿لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ كما فى قوله تعالى ﴿فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا﴾ [يوسف: ٩٦] أى ما إن جاء البشير حتى ألقاه على وجهه فارتد بصيرا كل ذلك كان سريعًا متلاحقًا وهكذا الآية.

ووصف ما جـاء به الأنبياء بالسـحر قالتـه كل أمة لنبـيها وهى كلمـة تخفى وراءها عجزًا عن المواجهة، وتوشك أن تكون إقـرارًا بأن ما يواجهونه حجة لا تقاوم، وبرهان من الله لا يدفع، والسحر قوة خفية تغلبهم على أنفسهم، ولا يجدون سبيلا لمقاومتها، وتواتر الأمم على وصف النبوات بالسحر راجع إلى أن الله سبحانه ما أرسل رسولا إلا أيده بما لا يدفع ولا يقاوم، وقد أومأ فرعون فى كلامـه إلى أنه يجد فى آيات موسى التى سمـاها سحرا قوة قـاهرة، وقادرة جعلته يقول لقومه ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ﴾ [الشعراء: ٣٥] وأى سحر هذا الذى يخرج الأمة من أرضـها؟ هذه الجملة ظاهرة فى دلالتها على أن الذى سمـاه فرعون سـحرا لم يكن عند فرعـون سحرا، لأن الأثر الذى أحـسه فرعـون وهو يواجه آيات الله التى أيد بهـا كليمـه صلوات الله وسلامـه عليه،

كانت أهول من السحر، لأنه هو وشعبه وكانوا أمة ظاهرة فى الأرض، لا يخرجهم سحر من هذا الملك وهذه القوة، وخصوصًا أن مدائن مصر كانت عامرة بالسحرة.

قلت هذا لأننى أجد وراء قول المبطلين فى مواجهة براهين رسل الله ﴿ **هَذَا سِحْرٌ** ﴾ إقرارًا خفيا بحجج الأنبياء، وقد دلنا القرآن على أن فرعون وهو أطغى الطغاة كان يقول سحرا وهو يعلم أنها بصائر كما قال له كليم الله: ﴿ **لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلاءِ إِلاَّ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا** ﴾ [الإسراء: ١٠٢] تأمَّل قوة أهل الله فى مواجهة أهل الباطل وطواغيت الأرض، موسى عليه السلام الذى هو من القوم الذين تعبدهم فرعون يواجهه بهذه الآية العظيمة ويكذبه فى ملئه ويقول لقد علمت خلاف ما قلت: علمت أنها بصائر ثم يهدده بالهلاك ﴿ **وَإِنِّي لأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا** ﴾ [الإسراء: ١٠٢] وقد دلنا القرآن الكريم على أن أهل الباطل يواجهون أظهر الآيات وأقهرها وأقطعها بهذه الكلمة التى يروغون وراءها من مواجهة الحق وهى كلمة السحر، قال تعالى: ﴿ **وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ** ﴾ [الأنعام: ٧] وليس بعد لمس الدليل باليد مجال للشك، ولاحظ وضع المظهر موضع المضمر لأنه قال ﴿ **فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ** ﴾ ثم قال ﴿ **لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا** ﴾، والمظهر هو الذين كفروا ولو تقصيت مواضع ذكر الذين كفروا مواضع المضمر فى الكتاب العزيز لرأيت كثيرًا من هذه المواضع ظهرت فيها الآيات ظهورًا أوشكت أن تكون من الآيات الملجئة التى ينتفى بها الاختيار وهذا يعنى أنهم كفروا أى غطوا وستروا وأخفوا الظاهر البين عن عمد منهم، وأن تعبير كفروا يعنى أنهم كفروا ما ظهر لهم ولم يلتبس.

وقوله سبحانه: ﴿ **أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا** ﴾ أم معناها بل والهمزة، وبل تفيد الإضراب والإضراب هنا إضراب انتقالى أى ينتقل فيه الكلام من معنى إلى معنى مع بقاء المعنى الأول وعدم إبطاله

و﴿افْتَرَاهُ﴾ معناه قاله هو من نفسه واختلقه، والآية لم ترد على قولهم ﴿هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ وإنما تجاوزت قولهم هذا إلى قول آخر، لأنها فى هذا القسم الذى ترصد فيه أقوالهم التى أسسوا عليها رفض النبوة، وهذا بخلاف الآيات السابقة التى لم تؤسس على أقوال لهم وإنما تأسست على بيان افتقاد معبوداتهم أهلية أن تعبد، والطريقان مختلفان، وإنما لم تراجع الآيات قولهم ﴿هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾، أولاً للإشارة إلى ظهور بطلانه، وأنهم لم يقولوه عن اعتقاد، وأنه لم يَرُجْ عنهم بدليل أنهم لم يَثْبُتُوا عليه فى الحديث عن القرآن؛ وإنما قالوا سحر، وقالوا شعر وقالوا كهانة وقالوا افتراه إلى آخره، وكل هذه الأقوال يضرب بعضها بعضا، فلو كانوا يعتقدونه سحرا، لثبتوا عند هذا القول، ولو كان قولهم هذا سحر فيه مُسكَةٌ من شبهة لردّها القرآن؛ لأن القرآن لم يدع لهم شبهه إلا رد عليها؛ ورد القرآن على قولهم سحر جاء فى صورة مخيفة وفيها قدر من التهكم، وذلك فى مثل قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا﴾ [الطور: ١٣- ١٦].

وهذا هو الرد المناسب لقولهم سحر، لأنه ظاهر الكذب ظهورًا لا مجال فيه للمناقشة وإنما يكون رده بدعّهم إلى نار جهنم دَعّاً وذلك لفرط إفراطهم فى الباطل، وقولهم: ﴿افْتَرَاهُ﴾ تكررت الردود عليه فى الكتاب العزيز، فقال هنا ﴿قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾، وقال فى يونس ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [يونس: ٣٨]، وقال فى هود: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [هود: ١٣] وقال فى هود أيضًا ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي﴾ [هود: ٣٥]. وقال فى الطور: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ﴾ [الطور: ٣٤] .

وهذا هو الأخصر فى إسكاتهم ورد باطلهم، ومن السهل أن نفهم قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾، وكذلك من السهل أن نفهم ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾، ومن الصعب أن نفهم لماذا جاء هذا الردُّ فى يونس وجاء الآخر فى الأحقاف أو فى الطور أو فى هود؟ ومن المهم أن نحوم حول الذى لا نستطيعه لنعبِّد الطريق من حوله، وأول ما يلاحظ فى الرد فى الآية التى معنا أنها ابتدأت بقوله تعالى: ﴿قُلْ﴾ وهكذا نظائرها، وهذا يعنى أنهم لما اتهموه عليه السلام بالكذب على الله، وكان هذا يشتد عليه جداً لأنه لبث فيهم سنين وهو صادق، وما كان له أن يدع الكذب على الناس، ويكذب على الله كما قال هرقل الروم، أقول لما اتهموه بالكذب على الله أجاب الله عنه، وهذا تأنيس له عليه السلام، وقوله: ﴿إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ الأصل فى ﴿إِنِ﴾ أنها تدخل على الشرط المشكوك فى إثباته أو نفيه وقد دخلت هنا على المقطوع بنفيه وهم يعلمون ذلك ليس لأنهم يعلمون أنه عليه السلام صادق أمين ولكن لأنهم يعلمون أيضًا أن هذا القرآن ما كان له أن يفترى من دون الله، لأن فيه أمرًا إلهيًا يتجاوز طاقة البشر، وما كان أن يفترى معناه، أعنى لا يصح ولا يمكن أن يفترى وجاءت ﴿إِنِ﴾ هنا من باب المساهلة ومجاراة الخصم الذى ادَّعَى أن محمدا عليه السلام افتراه، وموقع ﴿إِنِ﴾ هنا قريب من موقعها فى الزخرف ومغاير له، لأنها هنا فى المقطوع بنفيه وفى الزخرف فى المقطوع بإثباته، وذلك فى قوله تعالى: ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾ [الزخرف: ٥] فى قراءة كسر إن، وقد قال العلماء فى بيان وجه دخولها على ما دخلت عليه فى الزخرف، إن المقام لاشتماله على ما يقلع الشرط من أصله صار لا يصلح إلا لفرضه، (والشرط هو إسرافهم) والأدلَّة قاطعة فى وجوب نفى هذا الإسراف، وهذا هو معنى أن المقام لاشتماله على ما يقلع الشرط من أصله، وهذا كلام جيد،

وهذا لا يصلح لتعليل وقوع إنْ فى الشرط المقطوع بنفيه، فى الآية التى معنا، وإنما يقال فيها إن (إن) استعملت فى المقطوع بنفيه مجاراة للخصم، واقترابا منه، حتى يأنس للدليل.

وقوله سبحانه: ﴿فَلا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ ليس هو الجواب، لأن معناه غير متوقف على الشرط، لأنهم لا يملكون له من الله شيئًا تَقَوَّلَهُ أو لم يَتَقَوَّلْه، والجواب محذوف وهذا دليله، والتقدير إن افتريته عاقبنى ربى أشد العقاب وأفظعه وأهوله حتى إنكم وأنتم المعارضون لى تَرقون لما ينزله الله بى من العذاب ولكنكم لا تملكون لى منه شيئًا، وهذا مهم جداً فى دلالة هذه الجملة لأنها تعنى أن الكذب على الله من أفظع الذنوب، وأشنعها، والكذب على الله أخو الشرك، لأن جملة ﴿فَلا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ جاءت أختها فى سياق من ألّهوا المسيح قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ١٧] راجع الجملة بعدها أعنى هلاك المسيح وأمه، ومن فى الأرض جميعًا، والخلاصة أن جملة ﴿فَلا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ وراءها غضب شديد، لأن الكذب على الله مَفْسَدَةٌ أى مَفْسده وسوء أدب مع الله وقد نَبَّهتْ آية الحاقة إلى ذلك فى قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ (٤٤) لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦) فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤، ٤٧] وراجع ﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ وضعها بإزاء ﴿فَلا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾.

وقد ترى أن مناسبة الغضب الشديد فى الرد على قولهم ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ فى سورة الأحقاف هو أن الكلام موصول بالجملة الأم ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ﴾ وقولهم: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ نقض للإنذار وتبرير

لإعراضهم وهم أعلم الناس بأنه لا يفترى وأعلم الناس بأن الذى يتلوه عليهم لا يفتريه، وهذا بخلاف سياق سورة يونس ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ﴾ [يونس: ٣٨] وقد سبقت الآية قبلها ببيان أنه لا يفترى ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [يونس: ٣٧] وقوله سبحانه ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾ إحالة إلى ما لا يستطيعون لأن الشأن فى القرآن أنه لا يفترى فتلاءم الرد فى الآية الثانية مع ما جاء فى الآية قبلها، هذا والله أعلم.

والتقوّل على الله فى معانى كلامه ليس بعيدًا عن التقوُّل على الله فى كلامه فالذين يكتبون الكتاب بأيديهم ويقولون هو من عند الله وليس من عند الله افتروا على الله وتقولوا عليه، وقريب منهم الذين يستخرجون من دين اللله ما ليس فيه ويتسامحون فى مجاراة القِيمَ الثقافية الغالبة والتى سَادَت فى مجتمعاتنا وهى غريبة عنا ولم يواجهوها بالأحكام الفقهية الصحيحة، وإنما يتمحلون ويعتمدون على كلمة هنا، وكلمة هناك، ويعقدون مصالحة بين دين الله، وما ليس منه. أقول هؤلاء ليسوا بمعزل عن دلالة الآية، ولهذا كان الكلام فى الكتاب العزيز محفوفًا بمخاطر كثيرة، حتى إن بعض علمائنا كان يمسك عن القول فى القرآن.

قوله سبحانه ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾.

راجع هذه الجمل الثلاثة وتأمل المعنى الذى تستقل كل جملة بآدائه وكيف تقاربت معانى الجملتين الأولى والثانية وكيف تساويتا فى عدد الكلمات وكيف اختصرت الفاصلة وكيف اتسع معناها وفتحت أبوابها لكل ما مضى من أول ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ﴾ وقد بُنِيَتْ الجملةُ الأولى على

القطع، والاستئناف، وهذا البناء يفيد أن معنى الجملة فى الكلام الذى سيقتْ فيه له خطر وله بال، ووجه ذلك أن الجملة التى قبلها دفعت باطلهم ودَعْوَاهم وأنه عليه السلام افترى ما أنزله الله عليه وأسَّسَت هذا الدفع على أصل هو غضب الله الشديد على من يفترى كلامًا ويقول هو من عند الله، وأن من فعل هذا يقع عليه من عذاب الله ما لا يطاق دفعه؛ ثم انتقل الكلام من هذا إلى بيان أن ما اتهموه عليه السلام به وقعوا هم فى شر منه وهو الخوض فى آيات الله، وقد ابتدأت الجملة بتقديم المسند إليه على الخبر الفعلى، وجىء بأفعل التفضيل، ولم يقل هو يعلم مثلا للإشارة إلى إحاطة علمه بما يكون منهم من كبير وصغير، وكلمة تفيضون من فاض الماء إذا كثر وصار غامرًا وفاض فى الحديث أكثر فيه وقد كانوا يكثرون القول فى القرآن من باب قولهم شعر وكهانة، وسحر، وافتراه، إلى آخره وهم أعلم الناس بأن هذا الخوض من الباطل لأنهم مستيقنون أنه ليس من كلامهم، وهذه الجملة المستأنفة تكشف سراً من أسرار نفوسهم وهذا السر هو علمهم بأنه عليه السلام لم يفتر هذا القرآن، لأنه لا يفترى وأنهم يكثرون الكلام فيه مع علمهم أنه كلام الله، وأن قولهم افتراه قليل من كثير من كلام لهم يفيض فى القرآن فيضًا وهذا هو وجه التهديد فى هذه الجملة،وقوله: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ تهديد صريح وقد أكده بالجملة بعده - ﴿كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾؛ لأن هذه الجملة أحالت ما قالوه فى شأنه عليه السلام وما قالوه فى القرآن إلى الله الذى هو أعلم وهو شهيد يعني شهد ورأى وسمع سبحانه وهو الحكم العدل، وهذا الكلام لا يردع إلا من علم صدقه واستيقنه، وهذه الآية من أول قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ تتضمّن معنى قريبًا جداً من المعنى المصرح به فى شأن من عبدوا غير الله وهو قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ وبيان ذلك أن الله الذى قال هذه الآية قال آية شبيهة بها وهى قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ

جَاءَهُ﴾ [الزمر: ٣٢] وهؤلاء كذبوا بالصدق إذ جاءهم وقالوا افتراه، وفاضوا فيه من قولهم هو سحر، وشعر، وأساطير الأولين، فهم هناك الأضل، وهم هنا الأظلم، ومن فرط إكرام الله لأهل الحق أنه سبحانه ألْحَقَ من صدَّق بالصدق إذ جاءه بمن جاء بالصدق، فى قوله تعالى: ﴿**وَالَّذِى جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ**﴾ [الزمر: ٣٣] وافتراء الكذب شناعة وافتراءه على الله أشنع وملحق بهذا من كذّب بالصدق وهاتان الآيتان تعليان شأن الصدق ومن صدّق به كما تحطَّان وتَضَعان من الكذب، ومن كذب بالصدق، وهذه قِيمٌ لا يجوز لمجتمع يحرص على وجوده أن يُفَرّطَ فيها ولك أن تتصور لو أن مجتمعنا كان نظيفًا من الكذّابين والكتاب المنافقين، وصَدَقَ الكل فيما يقول، وفيما يعمل، ولو حرص الكبار على هذه القيم والتزموا بها ولم يقربوا الكذبة، والمنافقين، أقول لو تم هذا لتغيرت أمور كثيرة، وقد ربط القرآن صلاح الحال بالقول السديد، قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ**﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

الآية غضب شديد على من يتهمون الصادق بالكذب ومن يخوضون فى الحق بالباطل، ولو فتحت عينك على ما حولك وجدت هؤلاء الذين تُخَاطبهم الآية بشحمهم ولحمهم ومن غير أن ترهق نفسك بالنظر فى زوايا المجتمع أو بالنظر فى أحوال من يغتصبون حكم البلاد ونظرت فقط فى الجماعات القريبة منك من الكتاب والباحثين لوجدت ترويجًا وتسويقًا لكل ما يقول «الرفاق» وإقصاء لكل ما يخالف أصول مذهب الرفيق أو ما هو قريب من الرفيق لأن تصديق الصدق أُبعِدَ عن الساحة وحل محله تصديق الرفاق والأصحاب أو تصديق النافذين إلى السُّدَّة التائهة فى ضباب التضليل أو تصديق أصحاب الثروة الذين جمعوا فى أيديهم المال والسلطان وتركوا لنا الفقر والقمع.

إن كفار الزمن الأول يذبحون الذبائح قربانًا للأصنام التى عبدوها، وضلال هذا الزمن يذبحون البشر قربانًا للفجار الذين عبدوهم وما ربك بغافل عما

يعملون، وقد رأينا ما أنزله الله بمن سبقوهم ممن ذبحوا البشر قربانًا لفاجر ذبحه الله وذبحهم معه.

ومن رحمة الله بعباده الذين أسرفوا على أنفسهم وضلوا الضلال الذى هو أضل الضلال، وكذبوا على الله لما كذَّبوا نَبِيَّه ﷺ أقول من رحمته أن كانتْ فاصلة هذه الآية هى ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾، والآيات التى قبلها ناطقة بالغضب الشديد وكان المتوقع أن تكون الفاصلة مُشربة من معنى الجمل قبلها وأن يقال مثلا وهو شديد العقاب، أو هو سريع الحساب، أو ما شئت مما يلائم هذه الحالة، ولكن الفاصلة خالفت وفاجأت وأدْهَشَتْ ولَفَتَتْ لأن الله سبحانه يدعو إلى دار السلام التى هى الجنة، ويضع اللأَّفتَات التى تُحذِّر على طريق جهنم، وهذه اللافتات المحذرة من الجحيم والتى هى على رأس كل مرحلة من مراحل طريق الجحيم هى رحمة لأن الذى يُخَوِّفُكَ حتى تبلغ الأَمْن أرْحَمُ بك من الذى يؤمِّنك حتى تبلغ الخوف، والترغيب فى كلام الله أكثر من الترهيب، مع أن الترهيب فى جوهره أيضًا ترغيب.

ومعنى الآية لا يقف عند الجيل الذى قال قائلهم افتراه، ورد الكتاب العزيز عليه كما هو ظاهر، الآية، وإنما أفهمُ منها كل رَادٍّ لدين الله ومُعاندَ له فى كل زمان وكل مكان كما نَبَّهت كثيرًا، وحولى ناسٌ يقولون افتراه ونبوته ﷺ صناعة جَدِّه عبد المطلب، وحولى نظام أعطاهم وأمثالهم جوائز من أموال المسلمين، وقَمَع أهل الحق، ورماهم فى أعماق السجون، ودمَّر أُسَرهم من غير محاكمة وبعضهم برأه القضاء وهم فى القمع وأطفالهم مشردون وهؤلاء هم الذين يدعوهم ربنا إلى دار السلام وليسوا ضلال مكة لأن ضلال مكة ذهبوا وذهب زمانهم، نعم لقد كان ضلال مكة يسجدون للأصنام حول البيت وكفى، وعُبَّاد الفجرة يدمِّرون من حولهم ولم يكتفوا بعبادة الفجرة وإنما قتلوا البشر قربانًا للفجرة، وكل هؤلاء من مختلف العقائد والمذاهب والديانات داخلون فى معنى الآية ابتداء مِن قوله ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ وانتهاء بقوله

﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾، ولقد دعا الله سبحانه فرعون إلى دار السلام وفتح له بابه ولكن فرعون تأخر فى إجابة الدعـوة، وأجاب وهو يغالب الغرق، وكان الغرق آية ملجئة، والله سبحانه وتعالى يدعو فرعون الذى لم يدع مظلمة فى الأرض إلا ارتكبـها، يدعـوه الله إلى دار السلام، ويفـتح له باب الرحـمة، ويبدو أنه قد أحكمت على قلوب أقفالها.

وهاتان الكلمتان ﴿الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ تعنى الأولى منهما المغفرة التى هى ستر الذنوب وتغطيتها، وكأنها لم تكن، مهـما بلغت، لأن التوبة محَّاءة، والثانية تعنى فـتح باب الرحمـة التى هى الجنة، والعطـاء فيـها لا حـدود له، فكل الضُّلَّال مدعوون للمغفرة، والرحمة ولا يهلك على الله إلا هالك.

قوله سبحانه: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الأحقاف: ٩].

راجع هذه الجمـل الأربع، وكيف استـقلت كل جملة بمعنى، وكـل جملة بمعناها صالحـة لأن تحكى وحدها من غيـر أن تكون مرتبطة بما قـبلها ولا بما بعدها، ثم تراها فى نَسَقِها متماسـكة مترابطة، وكان الباقلانى يرى هذا وجها من وجوه الإعجاز البلاغى.

وابتداء هذه الجمل المكونة لهـذه الآية بقوله سـبحـانه ﴿قُلْ﴾ مـع أن كـل ما يبلغه عن ربه هو فى حكم ما قيل له ﴿قُلْ﴾ أقول ابتداؤها بكلمة ﴿قُلْ﴾ فيه إشـارة إلى أن مقول القول عـند الله له خطر وله بال، وذلك لأن الجمل الأربع تقرر حقـيقة من أهم حقـائق الدين والأديان قبله، وهى أن رسل الله صلوات الله وسلامـه عليهم ليس لهم من أمر الأديان شىء إلا البـلاغ وحده من غـير أن يكون لهم فى الدين أى شىء، وإنمـا الدين كله لله، وليس المراد البلاغ بهـذا فحـسب، وإنما المراد تحذير الأمـة عامَّـتُها وخَـاصتَّـها حكامـها

ومحكموها أن يدخلوا فى دين الله كلمة واحدة ولا أن يخرجوا من دين الله كلمة واحدة؛ لأن الدين كله لله، وما كان لله لا يزاد عليه ولا ينقص منه، هذا هو ما يبدو لى من سر ابتداء الآية بكلمة ﴿قُلْ﴾ وقوله جل شأنه ﴿مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ﴾ هى الجملة الأولى وهى مستقلة كما ترى، وهى رأس الجمل الثلاث بعدها، لأنها متولدة منها والمقصود العام أن حاله عليه السلام كحال الرسل قبله، والجمل الثلاثة تَنَصُّ على أحوال معيَّنة هى عامة فى جميع الرسالات، وهى أنهم لا يعلمون الغيب، وأنهم يتبعون الوحى لا غير وليسوا إلا منذرين، وهذه كلها مشتركة بينهم جميعًا صلوات الله وسلامه عليهم؛ ورأسها أنه لم يكن بدعا منهم، وهذا ظاهر، والبدع بمعنى البديع كالخِلِّ بمعنى الخليل والخِفِّ بمعنى الخفيف، ودخول النفى على كان ولم يكن الكلام لست بدعا من الرسل، لأن كان المنفية هنا تفيد معنى زائدًا على النفى وهو أنه ما كان يمكن أن يكون ولا ينبغى أن يكون ولا يصح أن أكون بدعا من الرسل يعنى لم أكن مُحْدثا شيئًا لم يكن من الرسل، وإنما أنا واحد منهم وطريقى هو طريقهم فلماذا تنكرون أن ينزل الله علىَّ كتابًا كما أنزل عليهم، وتنكرون نبوتى ولا تنكرون نبوة موسى، وعيسى، وأتباعهم من حولكم، وكلمة (بدع) لم تأت فى القرآن إلا فى هذه الآية، ومادتها قليلة الاستعمال فى الكتاب العزيز، وقد جاءت منها صيغة الافْتِعَال فى قوله تعالى: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا﴾ [الحديد: ٢٧].

وراجع انتقالات الكلام الأول، دحض عبادة ما يعبدون من دون الله، ثم ذكر أقوالهم الباطلة فى النبوة، وأنها سحر، وأنه عليه السلام افترى ما زعم أنه أنزل عليه، ثم الحديث عنه عليه السلام، مع عشيرته، من النبيين المكرمين؛ وأن حاله كحالهم وفى هذا توطئة أو إرهاص لقوله تعالى: بعد ذلك ﴿وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ وقوله: ﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالأَحْقَافِ﴾.

والجملة الثانية قوله تعالى: ﴿وَمَا أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلا بِكُمْ﴾ قالوا المراد ما يفعل بى ولا بكم فى الدارين على التفصيل، وإن كان علم ما يكون على الإجمال من أن الله ينصره، لأن الله وعد أن ينصر رسله، والذين آمنوا، وأن الذين آمنوا وعملوا الصالحات فى الجنة، والذين كفروا فى النار، والتفاصيل التى وراء ذلك لا يدريها عليه السلام، وطال كلام العلماء فى هذا واستهول بَعْضُهم أن يكون عليه السلام لا يدرى ما يُفْعَل به ولا بهم فى الآخرة لأنه من يوم أن نزل عليه جبريل عليه السلام وعلم أنه نبى علم أنه مغفور له، وأنه من أهل الجنة، لأن رتبة النبوة فوق رتبة الولاية ﴿أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢].

والظاهر أن المراد نفى علم الغيب وأنه عليه السلام لا يدرى ماذا سيكون غدًا سواء فى الدنيا وفى الآخرة لأن علم ذلك عند الله سبحانه، وأن سبيله الوحيد إلى علم ما سيكون هو الوحى ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾ [الأعراف: ١٨٨] فعلمه بأن من مات على كفره فهو فى النار علم طريقه الوحى، وعلمه بأن الله ينصر رسله علم طريقه الوحى وعلمه بأن الله رفع عن أمته عذاب الاستئصال علم طريقه الوحى وليس هناك طريق لمعرفة أى شىء فى الذى يأتى إلا الوحى، وهذا إغلاق باب الضلالات والبدع التى يتهالك فيها الناس حين يُفْتَنُون بالصالحين منهم ويتوهمون أنهم يعلمون من علم الله شيئًا، وقد جُبِلَ الناسُ على حب الاستشراف نحو الغد، وماذا سيكون فيه، وحدثوا النجوم، وقرؤوا الطالع، وطرقوا الحَصَى وزجروا الطير، وهذه الجملة تواجه هذه الطبيعة الإنسانية وتردع جنوحها وتؤكد أن صفوة من خلق ربنا، وهم الأنبياء لا يدرون ما يفعل بهم ولا بأممهم، ومن سكينة الإيمان أن تترك الغيب لله، وأن تدعوه اللطف فيما جرى به قضاؤه، وعليك أن تتذكر كلمة ﴿قُلْ﴾ وأن تراجع لكى تسمع الحق

يقول لصفوة الخلق قل وما أدرى ما يفعل بى ولا بكم لتتأكد ولتؤكد لأمتك استئثار رب الخلق يعلم ما يفعل بهم، وأنه وحده عنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو، ليتطَّهَر المجتمعُ من الأوهام، والدجل والشعوذة، وقد وقف العلماء عند كلمة «لا» التى فى قوله سبحانه ﴿وَلا بِكُمْ﴾ وقالوا إن فعل ﴿يُفْعَلُ﴾ غير منفى والأصل أن يقال ما يفعلَ بى وبكم، من غير لا النافية وكلمة ﴿مَا﴾ التى قَبْل ﴿يُفْعَلُ﴾ إما أن تكون موصولة ويفعل صلتها، وإما أن تكَون استفهامية، وأجابوا عن هذا بأن يُفعل وإن لم تكن منفية، فهى واقعة فى حيز النفى ﴿وَمَا أَدْرِى﴾ والكلام الواقع فى حيز النفى يأخذ حكم الكلام المنفى كما فى قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِىَ الْمَوْتَىٰ﴾، فقد زيدت الباء فى خبر إن لأن أصل الكلام أو لم يروا أن الله بقادر وهى لا تزاد إلا فى النفى وإنما جاز ذلك لأن إن واقعة فى حيز النفى ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾.

وجملة ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰ إِلَىَّ﴾ جاءت بدون واو بخلاف الجملة التى قبلها لأن التى قبلها معطوفة على ﴿مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ﴾ والأصل قل ما كنت بدعا وقل ما أدرى، وهذا جيد جداً فى المعنى لأننا كما قلت يجب أن نذكر أن ربنا قال لخير خلقه قل لا أدرى ما يفعل بى ولا بكم لأن الغيب لله وحده، والذى جعلنى أُرَجّح أن هذه الجملة معقودة على نفى الغيب، هو مجىء جملة ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰ إِلَىَّ﴾ بدون واو لأن هذا يعنى أنها مؤكدة لها، وأنها موصولة بها كمال الاتصال، لأن الذى لا يَتَّبِعُ إلا ما يوحى إليه هو الذى لا يدرى ما يفعل به ولا بهم، وإنما يتلقى عن ربه ويبلّغ ولا يزيد حرفًا، ولا ينْقُصُ حَرْفا، وهكذا الدين وهكذا سياجه وحصانته، ومن الفساد الوبيل أن يَدْخُله حرف من خارجه، أو أن يسقط حرف من داخله وهذا هو واجب العلماء، وهذا لا يَمْنَع أن يجتهد من توفَّرت فيهم شروط الاجتهاد، والاجتهاد واجب، وهو

من أعظم القربات وهو من فروض الكفاية فى الأمة يعنى لابد أن يكون فى صفوفها وفى معاهدها ومن بين علمائها من تأهلوا للاجتهاد على الوجه الشرعى الذى يعتبره العلماء، وليس على وجه الهزل الذى تَصْنَعُه الأحزاب والحكومات، وأبو بكر رضوان الله عليه كان واعيا لما فى الكتاب والسنة من حصانة، وحرص على هذا الدين، وألا يَدْخُلَ فيه ما ليس منه، ولذلك قال فى أول كلمة بعد رسول الله ﷺ «إنما أنا مُتَّبِعٌ ولست بمبتدع» مع أنه إمام المجتهدين بعد المختار صلوات الله وسلامه عليه، ومجيء القصر بالنفى والاستثناء لتأكيد هذه الحقيقة، وأن الدين اتباع، وأن المبلِّغ عن ربه يؤكد لنا أنه متبع لا غير، وقد يضاف إلى هذا أنها جاءت فى الرد على الذين قالوا ﴿افْتَرَاهُ﴾ أو فى الرد على من كانوا يسألونه عليه السلام عن الغيب كالذى كان يقول له عليه السلام أين ناقتى؟ أو مَنْ أبى؟ أو قول الأصحاب وقد ضَجِروا مما عانوا فى مكة إلى متى نظل على ما نحن عليه، كل ذلك يلاحظ ولكن بعد تأكيد المعنى الأهم وهو أن الدِّينَ اتباعٌ ويجب أن تكون هذه الحقيقة جليَّةً فى نفس كل من شهد الشهادتين والله أعلم.

قوله سبحانه ﴿وَمَا أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ هذه الجملة الفاصلة فى هذه الآية، مؤكدة للجمل الثلاث التى قبلها، وهى أقرب إلى أن تكون معطوفة على الجملة الأولى ﴿مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ﴾ يعنى قل ما كنت بدْعًا من الرسل، وقُلْ إن أنا إلا نذير مبين، وجملة ﴿مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ﴾ أنتجت جملة ﴿وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلا بِكُمْ﴾ وجملة ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ تأكيد لجملة ﴿وَمَا أَدْرِي﴾ وجملة وما أنا إلا نذير مبين شاملة لمعانى الجمل الثلاث ومعطوفة على الجملة الأولى، وبهذا العطف رجع آخر الآية إلى أولها، وإذا كانت جملة ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ بُنِيَتْ على أنه عليه السلام مُتَّبِع فإن هذه الجملة بُنِيَتْ على أنه نذير لا غير، وكل جملة من الجمل الأربع لها شيء خاص بها، فالأولى أنه لم يشذ عن طريق الرسل، والثانية أنه لا يعلم إلا ما علمه الله، والثالثة أنه متبع

للوحى لا غير، والرابعة أنه نذير لا غير، والـمُلْبِسُ أن تكون بين جمل يؤكد بعضها بعضا وأنت تريد أن تستخرج من كل جملة خصوصيتها أو نَكْهَتَها، إن صح الوصف لأن لكل جملة فى مذاقها شيئًا لا يوجد فى غيرها، وهذا المذاق الخاص بها هو ضالّة الباحث فى أسرار البيان، وقد عقبت على كل جملة بما يفيدنا منها فى زماننا، وبَقِيَتْ هذه الرابعة الخاتمة، وهى تحمل إلى زماننا شيئًا جليلاً جداً، وهو أن إرْث النبوة، والبلاغ عن الله سبحانه يقتضى العلم الواعى بما نُبَلِّغُه، والقدرة العالية فى الإبانة عنه، وتجلية جوهره لعامة المسلمين وخاصتهم، وهذان اللذان هما العلم بما نُبَلِّغُه وإحسان بَلاَغِه يحتاجان إلى علم جليل، ودُرْبة واعية، وقدرة فى فهم الشريعة، وقدرة فى نقل الذى وعيناه، وقدرة على إقناع من نُخَاطِبُهم بما عرفناه، ثم بعد ذلك نرفع أيدينا عن الناس، يَهْتدى من يهتدى، ويضل من يَضلُّ وليس لنا على أحد سلطان، لأن رسول الله ﷺ قال له ربه إنما عليك البلاغ وعلينا الحساب، وقال له ﴿لَسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ﴾ وهذا هو الأسلوب العالى فى التعامل مع العقائد، والمذاهب، والاتجاهات، عليك أن تبين ثم تدع الناس يختارون، وليس من حقك أن تفرض عليهم رأيًا ولا مَذْهبًا فى السياسة، ولا فى غير السياسة، اشرحوا الحقائق بِصدْق واتركوا الناس، لأنه لا قمع ولا إكراه ولا فرض فى باب الأفكار والعقائد والاتجاهات والآراء، ورسول الله ﷺ كان يَضَعُ الحَدَّ بين الإيمان والكفر، ثم لا يزيد عن ذلك، نعم كان يتألم لرفض الحق البيّن ولكنه لم يكره أحدًا على رأى.

قوله سبحانه: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأحقاف: ١٠].

كل آية تنتقل انتقالة إلى حقل جديد، فى واد واحد، راجع خطوات الآيات من أول السورة، ثم تفقّد العمود الذى دارت عليه الآية السابقة وهى قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ﴾ ثم نفقد العمود الذى دارت عليه

هذه الآية، ووازن بينهما وحدِّدْ الخُطْوَةَ التى خَطَتْهَا هذه الآية، وأنها لم تتكلم عن نقض مقالتهم في القرآن، وأنه سحر أو أنه افتراه، كما لم تَتَحدَّث عن الرسول وأنه كغيره من الرسل ليس عليهم إلا البلاغ، وإنما عَرَضتْ احتمالا، وفرضت فرضا، وسألت ماذا سيكون لو وَقَع هذا الاحتمال وصح هذا الفرض وعلى أى حال ترون أنفسكم لو كان حقاً وشهد له من لهم علم بالنبوات، وآمنوا به، وكفرتم أنتم به؟ أَلَيْست هذه الصورة دالة على تباطئكم وتخاذلكم فى الحق، ومعرفة الحق، والإيمان به؛ مع أنكم الأولى أن تكونوا سابقين لأنكم ترون آياته فى البيان الذى يخاطبكم به، وقد نزل على رجل منكم، وأنتم أعرف الناس به، وهو صاحبكم، أليس من المُستَغْربِ أن يُؤمنَ به الغرباء ويكفرَ به أهل قرابته؟ وأليس من المستنكر أن ينزع اليهودى يهوديَّته وقد عُرِف تشبثُّه بها ويدخل فى الدين الذى رفضتم الدخول فيه؟

أقول الآية دخلت هذا الحقل، حقل الحوار والمناقشة بعدما فرغَتْ من نَقْض أسوأ ما قالوه فى الكتاب، وأنه سحر، وأنه مُفْتَرى، وأن الذى أُنزل عليه لم يَخْرق ناموسًا، وإنما كان حاله كحال من سبقوه من رسل الله.

وقد بدأت الآية بقوله تعالى: ﴿قُلْ﴾ وهذه هى المرة الرابعة التى تتكرر فيها كلمة﴿قُلْ﴾ فى هذه السورة، وهى كثيرة جداً فى الكتاب العزيز، ولها دلالة بالغة فى أن الذى تسمعه من رسول الله ﷺ ليس له فيه كلمة واحدة، وإنما هناك صَوْتٌ مَهيبٌ من ورائه يقول له قل فيقول صلوات الله وسلامه عليه، وهذا من أهم الحَصَانات التى حفظت لنا نقاء هذا الكتاب العزيز، قبل أن نسمع صوت محمد ﷺ بالذى أنزله الله عليه نسمع صوت الحق يقول له ﴿قُلْ﴾، ولهذا من الأثر ما له، ثم إننا نُلاحظ أن رأس الآية ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ﴾ يسترجع لنا رأس آية نقض دعائهم آلهة من دون الله ﴿قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ ولا أشك فى أن تماثل الآيتين فى المطلع مُنَبِئٌ بِشَبَهٍ بينهما، فى

المضمون والمقصد وهو - فيما أرى والله أعلم- أن كفركم بما أنزله الله عليكم مع إيمان شاهد من بنى إسرائيل به هو فى الغرابة وافتقاد ما يَصْلُح به، كدعائكم من دون الله الذى لم يخلق فى الأرض وليس له شرك فى السماء، وكدعائكم من لا يستجيب لكم إلى يوم القيامة، الحالتان حالة الشرك، وحالة رفض النبوة، سواء فى قيام الدليل القاطع على نقضهما.

وجملة ﴿إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ ﴿إن﴾ التى للشك فى الشرط دخلت على المقطوع به كما دخلت على المقطوع به فى آية الزخرف ﴿أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾ [الزخرف: ٥] وكما دخلت على المقطوع بنفيه فى قوله تعالى: ﴿إِنِ افْتَرَيْتُهُ﴾ وفى كل لها وجه، ولها مذاق، ولا يقاس بعضه على بعض، لأنها هنا، فى المقطوع به، مجاراة للخَصْم ومساهلة له، واقترابًا منه ليُصْغِى إلى الدليل لعله يرجع، وفى الزخرف لأن المقام لاشتماله على ما يقلع الشرط من أصله لا يصلح إلا لفرضه، وهذه عبارة العلماء، وهى من أدق ما يقال، ومن نوافل العلم حفظ كلام علمائه الناصحين، وجملة ﴿وَكَفَرْتُم بِهِ﴾ يَصحُّ أن تكون حالا، ويصح أن تكون معطوفة على الشرط، أما وجه كونها حالاً فلأنها تقرن حال كفرهم بحال كونه من عند الله وأنهم لم يتريثُوا ولم يَتَدبّروا، ولم يكفُروا عن اقتناع بالكفر، وهذا مَغْمز شديدٌ فى موقفهم، وإذا اعتبرناها معطوفة فإن الواو تفيد الجمع أى أنهم جمعوا افتراض كونه من عند الله بكفرهم، وهذا مغمز أيضًا، واقرأ الجملتين ﴿إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِ﴾ تجد جَمْعَهَما فيه تشهير بهم وبمسارعتهم بالكفر، بما هو من عند الله، وكونه ﴿مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ أدْعى إلى الإيمان به، وتقديسه وتبجيله، وكان يمكن أن يقال قل إن كان حقا وكفرتم به، ولكن عبارة ﴿مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ فيها إشارة إلى إساءتهم وجرأتهم وسوء أدبهم مع الذى جاءهم من عند الذى خلقهم ولفظ الجلالة له مهابة فى قلوب المؤمنين والكافرين لأنهم يقولون الله خالقنا ويقولون الأرض لله ورب

السموات هو الله والذى يجير ولا يجار عليه هو الله، وهذا هو سر إيثار كلمة ﴿مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ ولهذا يقول العلماء إن لفظ الجلالة يُربِّى المهابة، وقوله سبحانه: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِى إِسْرَائِيلَ﴾ هذا معطوف على الشرط ﴿كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ وداخل فى حيزه، وأول ما يلفتك فى هذه الجملة أنك ترى الكلام فيها يَنْحُو مَنْحَى الإشباع، لأنه كان يمكن أن يقال وشهد من بنى إسرائيل على مثله من غير أن يذكر كلمة ﴿شَاهِدٌ﴾ لدلالة شَهِدَ عليه وهذا يشبه ﴿سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلإِيمَانِ﴾ [آل عمران: ١٩٣] لأن كلمة مناديا تدل على كلمة ينادى، ومقام الإشباع يعنى اللفت إلى هذه الفكرة التى وقع فيها الإشباع، لأن شهادة اليهودى على القرآن وإيمانه بالقرآن ودخوله فى الإسلام شهادة بَعِيدَةٌ عن التجريح، لأن اليهود من أشد الناس رفضا لغير دينهم، ولهذا كانوا قتلة الأنبياء، ولم يؤمنوا إلا لمن تبع دينهم، ولهذا المعنى أيضًا قالت الآية من بنى إسرائيل، ولم تقل مثلاً ممن آمن بموسى أو من أهل الكتاب لأن إسرائيل عليه السلام أبوهم، وموسى عليه السلام كانت رسالته إلى فرعون أن يرسل معه بنى إسرائيل، وكان فرعون قد تعبّدهم، ﴿أَنْ عَبَّدتَّ بَنِى إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء: ٢٢] يعنى اتخذهم عبيدًا، وستأتى الآية الثانية بعد هذه وتصف كتاب موسى بأنه إمام ورحمة، وكل هذا يجعل بنى إسرائيل أكثر الناس تشبثا بدينهم لأنه اختلطت فيه القومية بالرسالة، فموسى من بنى إسرائيل، وهو الذى أخرجهم من قبضة فرعون، ومن هنا كانت شهادة شاهد من بنى إسرائيل على مثل القرآن شهادة ناصحة وناصعةً، وفرق بين بنى إسرائيل الذين مَعَنا وبنى إسرائيل الذين لهم تاريخ يَقْتَرب ويَبْتعِدْ عن الذين معنا، والمهم أنه كان منهم أمَّة مقتصدة، وأمة قائمة بالعدل، هذا هو سر مطل الكلام وإشباعه، وذكر بنى إسرائيل فيما أرى. والله وأعلم، وقوله سبحانه ﴿عَلَىٰ مِثْلِهِ﴾ قالوا المقصود على مثل القرآن، وهو التوراة، والزبور وغيرهما من كتب بنى إسرائيل

والمقصود بالشهادة على مثله أنهم شهدوا بما فى هذه الكتب مما هو مثل القرآن كالتوحيد، والبعث، والجنة، والنار، وحرمة الدماء، والأموال وغير ذلك مما هو مشترك بين كتب النبيين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

وقالوا المراد بمثل ما أُضِيفَتْ إليه كما فى قولهم مثلك لا يبخل، والمراد أنت لا تبخل، والمعنى وشهد شاهد من بنى إسرائيل على القرآن، فآمنْ؛ لأنه رآه امتدادا للنبوات، وكان العرب فى مكة يسألون اليهود عن الأدْيان وورقة ابن نوفل كان من علماء التوراة، وكان يكْتُب الكتاب العبرانى، وهو قرشى من ولد قصىٍّ، والآية الكريمة قالت ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِى إِسْرَائِيلَ﴾ ولم يعين الشاهد، وذهب البعض إلى أن المراد به عبد الله بن سلام، ورُدَّ هذا بأن عبد الله شهد بالمدينة بعد الهجرة، والآية مكية، وقالوا نزلت الآية بالمدينة وَوُضِعَتْ فى مكانها فى السورة المكية بأمر الله، وفى المسألة كلام، وأرجح ما ذكره الطاهر من أن الآية إخبار بالغيب، وأنها أشارت إلى إسلام شاهد بنى إسرائيل قبل أن يكون بزمن، ويرجح هذا ما قلته من أن مطلع الآية مشترك مع مطلع آية نقض الشرك، وأن الجامع بين الآيتين قوة الدِليل وظهوره وآية ﴿أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الأَرْضِ﴾ من أقوى الأدِلّة على نقض الشرك وهذه الآية من أقوى الأدلة على نقض رفض النبوة، لأنها أخبرت بأمر سيحدث ثم حدث كفلق الصبح، ومما لا يجوز أن يهمل أن هذا الإخبار بالغيب وهو أمر ظاهر جاء عقب الآية التى تبرئ كل رسل الله من العلم بالغيب ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰ إِلَىَّ﴾ وهذا الإخبار بالغيب فى هذه الآية مثال واضح لجملة ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰ إِلَىَّ﴾ ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِى إِسْرَائِيلَ﴾ مثال واضح لجملة ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ﴾.

والفاء فى قوله سبحانه ﴿فَآمَنَ﴾ دلت على المسارعة إلى الإيمان فور ما شهده وقد تراءت له نبوة موسى عليه السلام فى نبوة محمد صلوات الله وسلامه عليه، ورآها تخرج من المشكاة التى خرجت منه نبوةُ موسى عليه السلام، وهذا يقابل من وجه خَفِىٍّ مسارعتهم إلى الكفر فى قوله تعالى ﴿إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِ﴾ مع ملاحظة أن شاهد بنى إسرائيل لما رأى الحق فآمن؛ خلعَ نفسه من دين اختلط بالقومية وخرج من ضيق التعصّب اليهودى لقوميتهم إلى أفق الإنسانية التى تمثّله رسالة محمد ﷺ الذى بعث إلى كل أسود وأبيض، وإلى الثقلين، وقوله: ﴿وَاسْتَكْبَرْتُمْ﴾ قالوا هذا معطوف على (آمن) أو هو معطوفٌ على (شهد) وجملة ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ﴾، وما تعلق بها، معطوفة على جملة ﴿إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ وما عطف عليها وهذا باب فى العطف دقيق، قلما يتنبه إليه الناس، كما قال عبدُ القاهر والقول بعطف استكبرتم على آمن لا يعنى أن الاستكبار مترتب على الشهادة كما ترتّب على الإيمان عليها، لأن الاستكبار قائم فيهم قبل الشهادة والإيمان وهو سبب كفرهم، وإنما عطف على آمن لإظهار الفرق الكبير بين من شهد فآمن، ومن شهد فاستكبر، والقول بأنه معطوف على «شهد» يعنى بيان الفرق بين حال الشاهد الذى يتأمل ويتدبر ويقيس نبوة على نبوة وكتابا على كتاب فيرى أن هذا الذى أنزله الله على محمد هو الناموس الذى أنزله الله على موسى، وبين من لم يتأمل ولم يتدبر وإنما يجمع به الغرور والاستكبار، ووجه تأخير استكبرتم على كفرتم، مع أنهما متلازمان تلازم السبب بالمسبب، هو بيان معاجلتهم بالكفر من غير مراجعة، كما دلت جملة ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [يونس: ٧٦] ولما الحينية تفيد ترتب الجواب على الشرط، فى وقت واحد، ثم تأخير الاستكبار بعد بيان شهادة شاهد بنى إسرائيل، وأنه استكبار ليس له ما يبرره لا من عصبية لأن الإسرائيلى من أشد الناس تعصبًا ولا من بصيرة فى الدين لأن شاهد بنى

إسرائيل ما كان له أن يدع دين قومه، ويدخل فى الإسلام إلا لأن الحق ظهر له كفلق الصبح، وقد سبق دخوله فى الإسلام كفره بالمسيحية، ورضى ما فعله قومه فى عيسى ابن مريم ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٥٧] وما كان له أن يدع دين عيسى ابن مريم ومَرْيَمُ من بنى إسرائيل إلى دين محمد العربى القرشى إلا لأنه رأى حقاً لا يستطيع الروغان منه، كل هذا جعل كلمة ﴿وَاسْتَكْبَرْتُمْ﴾ واقعة فى موقع ما كان لها أن تتقدم عنه.

قوله سبحانه ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ جملة قطعت الكلام قبلها من قبل تمامه، لأن جواب الشرط لم يذكر، ثم استؤنفت وبنيت على التوكيد بأم أدوات التوكيد، ثم بتقديم المسند إليه على الخبر الفعلى، ثم ذكر لفظ الجلالة الجامع لأسماء الله الحسنى، وصفاته العلى، ثم ذكر القوم الدال على أن الظلم قوامهم الذى بُنوا عليه، ثم تعريف الظالمين بالألف، واللام، الدالة على اتصافهم بكل ما يكون به الظالم ظالما، وهذا كله من دلالة اللغة، أما دلالة الموقع فأول ما يظهر فيه أنها نقلت الكلام من الخصوص إلى العموم، وكان ما قبلها يحدث عن الذين كفروا واستكبروا، وهذا الانتقال يشبه الانتقال الذى فى الآية قبلها، ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لاَّ يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ وهذا من جليل كمال أدب الكتاب العزيز، وأنه لم يواجه الذين عبدوا من دون الله من لا يخلق ولا يملك بالضلال الأضل وإنما عمم وهنا أيضًا لم يواجه القوم بأنهم ظالمون، وإنما عمم وبهذا كان يتأدب رسول الله ﷺ فى خطابه من خالف، وكان يقول ما بال أقوام، وهذا من أرقى الأساليب فى حوار المخالف، ودعوة الجامح، ثم إن هذه الجملة أشارت إلى جواب الشرطِ المحذوف وقد قالوا إن سر حذف الجواب هو أن تذهب النفس فيه كل مذهب، وهذا صحيح ولكنها تذهب كل مذهب باحثة عن هذا الغائب الذى سكت عنه الكلام عن عمد، وسكوت الكلام عن

الكلام يعنى كما علمنا علماؤنا أن الكلام أنطق ما يكون إذا لم ينطق، وأتم ما يكون بيانا إذا لم يُبن، وهذا كلامهم وهو كلام مِنْ ذَهَبٍ، قلت هذا لأننى حين أقرأ الآية ونظائرها وأتدبر الشرط وما عطف عليه وكيف افتن البيان العالى فى تجلية حقيقة المعنى الذى فى الشرط، من كفر الضالين، وشهادة الصادقين، واستكبار المغرورين، وتتشوف نفسى إلى معرفة الجواب ثم لا أجده، كل ذلك يدخلنى فى حيرة وتهويل واستعظام معنى كنت أتوقعه، ولكن البيان سكت عنه، ولذلك لم أجد تقديراً قدره العلماء يفى بما كنت أتوقعه، وقد قالوا هنا إن المعنى إن كان من عند الله وكفرتم به وشهد شاهد من بنى إسرائيل إلى آخره فأنتم ظالمون، بدليل الجملة المستأنفة أو أن المحذوف هو ضللتم ضلالا لا يرجى له زوال، الشرط يبين مخالفات باطله لحق ظاهر فى أمر جليل، ويطلب منك الكلامُ أن تعقب بوصف يناسب حال هؤلاء الذين ارتكبوا الباطل المحض، فى مواجهة الحق المحض، فى شأن النبوة وهى أعظم شأن من شئون الخالق مع خلقه لأن النبوة من الحق الذى أقام الله الخلق عليه، لأنه ليس من الحق أن يخلق الخلق ويتركهم هملا من غير نور وكتاب مبين، يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام، وقد أشرت إلى أننا مهما اجتهدنا فى تقدير المحذوف، ووضعناه فى موضعه من نسق الكلام، أظهرت بلاغة القرآن المعجزة ما قدرناه فى صورة هزيلة جداً يكره اللسان نطقها فى سياق الكلام الواردة فيه، لأن بلاغة القرآن طاردة لكل كلمة تدخل فى القرآن من خارجه وهذا من حفظ الله له، مع ملاحظة أن رأس الآية تطالب القارئ بأن يقدر المحذوف، أو على الأقل أن يراجع نفسه وأن يتصور نتائجه لأن الهمزة التى فى قوله تعالى ﴿قُلْ أَرَأَيْتُم﴾ معناها محض التنبيه أو التقرير وكلاهما حاث للقارئ والسامع أن يراجع ما دخلت عليه، وأن يتأمل الموقف، وأنه من عند الله، وأن هؤلاء كفروا به وأن أهل العلم بالنبوات أدركوا النبوة فيه فآمنوا، عليك أن تتدبر وأن تراجع، وأن تحدد موقف الذين كفروا بكتاب هذا مقامه، وهذا موقف علماء الأديان منه، وهذه الجملة كثيرة فى الكتاب ﴿قُلْ أَرَأَيْتُم﴾

ويأتى بعدها الشرط فى مواقع كثيرة، ويكون الجواب متروكا ليقظة القارئ ونشاطه، وقدرته على الوعى، وقدرته على تقييم الموقف، وكأن القارئ أو السامع مطالب بأن يسد هذا الفراغ اللغوى، ومطالب أيضًا بأن يدرك الفرق بين ما يقدره والكلام الواقع فيه وهذا التقدير ليزداد يقينا بالإعجاز، وكأن هذه الآيات محطات فى الكتاب العزيز، يحط القارئ عندها رحله قليلا ليتدبر ويزداد يقينا بما استيقن، ولا يهلك على الله إلا هالك، هذا والله أعلم.

قوله سبحانه: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ [الأحقاف: ١١].

هذه انتقاله جديدة تجاوزت المقارنة بينهم وبين شاهد من بنى إسرائيل رأى في الذى يتلى عليهم مثال النبوة فآمن واستكبروا، إلى قول قالوه فى الكتاب العزيز من الباطل المحض وأنه لو كان خيرًا ما سبقهم إليه الذين آمنوا، ومجيء هذا بعد شهادة شاهد بنى إسرائيل فيه زيادة من كشف الباطل، وتناقضه، لأنهم كانوا يقرون بأن اليهود أهل دين وكانوا يسألونهم فى الديانات، ثم إن مجيئه أيضًا بعد كلمة ﴿وَاسْتَكْبَرْتُمْ﴾ مناسب جداً لأن قولهم ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ ناشئ عن إحساس بالاستعلاء، وأنه لا يسبقهم إلى الخير سابق، ورأس الآية ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يرجع بها إلى الجملة الأم ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ﴾ لأن هذا وكل الذى قبله تحليل لإعراضهم، وقد ابتدأت الآيات التى قيلت فى نقض ما قالوه فى النبوة بذكر الذين كفروا ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وهذه الآية كما هى راجعة إلى الجملة الأم هى أيضًا راجعة إلى مطلع حديثهم فى القرآن، والنبوة، وهى خاتمة الحديث فى هذا الباب لأن السورة ستبدأ بعد ذلك فى أبواب أخرى من أبواب المعانى، وكأن رأس هذه الآية يرد عجز هذا القسم إلى صدره، ثم إن تكرار الصلة ﴿كَفَرُوا﴾ فيه تنبيه إلى أن الذى قالوه

فى الكتاب، وأنه سحر، وأنه افتراه، وأنه لا خير فيه، هذا كله صادر عن نفوسهم ليس عن جهالة بهذا الكتاب، وهذا النبى، وإنما صادر بسبب الكفر الذى هو ستر الحق وطمسه وتغييبه، ووضع الباطل مكانه، وهذه هى حقيقة القوم لأنهم كانوا أعلم الناس بأنه ليس من كلام الناس، وأعلم الناس بمحمد ﷺ، وأنه ما كان له أن يدع الكذب على الناس ثم يكذب على الله، كما قال هرقل وكان رجلا عاقلا، ولكن سبق الكتاب، والكلمات التى تتكرر فى البيان كله يذكّر صوتها بأخواتها، ولابد أن يكون لها شأن فى الكلام الذى تكررت فيه، ولا نستطيع أن نبعد عن أنفسنا جذر اشتقاقها، فإذا كان الكفر هو ما قابل الإيمان، فإن معنى التغطية ملازم له، قلت هذا لأن كلمة ﴿كَفَرُوا﴾ تكررت فى هذا القسم من السورة وهو يدور حول مراجعة باطلهم فى عبادة ما يعبدون، ومراجعة باطلهم، فيما قالوه فى القرآن الذى هو حجة النبوة. ووراء ذلك إحساس عندهم هم أنهم كفروا ما رأوه حقا، يعنى طمسوا الحق بالباطل والآية التى قبل هذه الآية تكاد تصرح بهذا المعنى، لأن قوله تعالى ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ﴾ فيه إشارة قوية إلى أنهم كفروا استكبارا وليس عجزا عن إدراك الحق، لأنه قابل إيمان بنى إسرائيل ليس بكفرهم، وهذا كان أنسب لأن الذى يقابل الإيمان هو الكفر وإنما عدل وذكر الاستكبار لأنه هو سبب الكفر، وهذا يعنى أن القوم لما قالوا ﴿هَٰذَا سِحْرٌ﴾ كانوا يعلمون أنهم يطمسون الحق بالباطل وكذلك لما قالوا ﴿افْتَرَاهُ﴾ وهم فى الآية التى معنا لما قالوا ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ كانوا يعلمون أنهم يطمسون الحق بالباطل، قلت إن كلمة ﴿كَفَرُوا﴾ تكررت فى هذا القسم وكان يمكن أن يقال الذين أشركوا وهو أشبه بقوله سبحانه ﴿قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ لأن دعوة ما دون الله محض الشرك أو يقول الذين كذبوا لأن قولهم سحر أو افتراه من محض الكذب وإنما تكررت كلمة ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ لأنه لم

يغب عن واحد منهم أنه حق، هذا فيما أراه وجه مجيء هذه الصلة فى رأس هذه الآية لأن إنكار أن القرآن خير وبر شىء عجيب ليس لأن شاهد بنى إسرائيل شهد له ولكن لأن التاريخ مليء بكلام شيوخ وفود العرب الذين كانوا يَفدون إلى الحجاز فى أسواقها ويفدون إلى الحج وكان رسول الله ﷺ يلقاهم ويقرأ عليهم القرآن، وكانوا يجمعون على أنّه برٌّ وخَيْر وعَدْل وأنه عليه السلام نعم ما يقول، هذا شيء ثم إن الذى تَقْرؤه بين الدفتين خيّرٌ كُلَّه ليس فوقه خير، وأن الله سبحانه ما ترك خيراً إلا أمرنا به، ولا ترك شراً إلا نهانا عنه؛ وهم يعلمون ذلك، ولهذا أجد أن هذه المقالة فى القرآن وهى قولهم ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ ظاهرة البطلان ظهوراً لا يخفى على رجالهم ونسائهم وهذا هو الذى نَبَّهَنِى إلى كلمة ﴿كَفَرُوا﴾ فذكرت فيها ما ذكرت.

واللام التى فى قوله سبحانه ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ لام التعليل، وليست لام التبليغ التى فى مثل قوله تعالى ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ ومعنى التعليل هنا أنهم قالوا هذا لأجل الذين آمنوا أو قالوه، وهم يقصدون الذين آمنوا يعنى لم يقولوه لهم، وإنما قالوه من أجلهم، ومثل هذه اللام قوله سبحانه فى الآية الأسبق ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ هم لم يقولوا للحق وإنما قالوا من أجل الحق أو قالوا وهم يريدون الحق، ولا يجوز أن نهمل التماثل فى الصياغة والكلمات فى الآيتين آية هى مطلع حديثهم عن القرآن وآية هى خاتمة حديثهم عن القرآن، وقولهم ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾، واو الجماعة التى فى كلمة ﴿سَبَقُونَا﴾ أرادوا به السابقين الأولين رضوان الله عليهم، وهم ثُلَّةٌ من الأولين وقليل من الآخرين، وهم أهل السابقة، وهم المهاجرون، والذين قالوا هذا يعلمون أنهم يكذبون، لأن كلامهم هذا وإن كان مُنْصرِفًا إلى الضعفاء من أمثال بلال وعمّار وغيرهم من فقراء العرب كعبد الله بن مسعود فإن الأسبق من هؤلاء كان أبا بكر وكان من ساداتهم فى الجاهلية ومثله على وعثمان وغيرهم، ولكن نَزْعة الاستكبار التى

هى أصل الكفر هى التى دعت إلى قولهم ﴿لَوْ كَانَ خَيْراً مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾، كما قال قوم نوح عليه السلام ﴿وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾ [هود: ٢٧]، وقد أشَرتُ إلى أن هذه الآية كأنها مثال لقوله ﴿وَاسْتَكْبَرْتُمْ﴾ فى الآية قبلها، ثم إن الفكرة نفسها فكرة باطلة لأنها تؤول إلى أن الخير والصواب النافع هو ما سبق إليه السادة أو الذين يتوهمون أنهم سادة، وهذا صرف للأنظار عن الموضوع أو المسألة أو الفكرة إلى الذين يَحْمِلون أو يدافعون عن الموضوع وأن الصواب والحق ما قاله الكبار، وهذه آفة ومفسدة لأن ناصر الحق هو العقل الذى يميِّز بين الحق والباطل والذى يُحَلِّل ويَنْقُد ويختار وهذه التى كانت مفسدة الجاهليين لازلنا نعانى منها لأننا نضفى على الرأى من مكانة القائل به وكم من كلام فاسد شاع فى الناس وتلقَّوه بالقبول لشهرة القائل به، آفة آيامنا أننا نعرف الحق بالرجال وهذا ما تقرره تلك الكلمة الجاهلية القديمة، والأصل أن نعرف الرجال بالحق، ولو نظرت إلى قوله ﴿لَوْ كَانَ خَيْراً مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ ووضعته بإزاء قولهم ﴿هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ لوجدت فرقًا كبيرًا لأن الباطل فى كلامهم الأول يوهم أنه مؤسس على النظر فى القرآن، والباطل فى كلامهم هذا مؤسس على ما يُروِّجونه عن أنفسهم وأنهم هم السبَّاقون إلى الخير، وهذا أقرب إلى بيان أنهم أفلسوا، أى صارت أراؤهم زيوفًا كما يقال أفْلَسَ الرجل إذا صارت دراهمه زيوفًا، والخلاصة أن هذا كلام من لم يجد شيئًا يدفع به الحق المبين، وكل هذا من القوم كان حيرة واضطرابًا ثم استقام المِيَسم كما قال خالد بن الوليد لعمرو بن العاص وقد لقيه على طريق الهجرة ليبايع رسول الله ﷺ، ولم أعرف نبياً لم يلحق بربه إلا بعد ما رأى قومه يدخلون فى دين الله أفواجًا إلا رسول الله ﷺ، وهذا يساعدنى على قبول هذا الكلام الفارغ الذى كانوا يقولونه فى كتاب الله لأنى لا أشك أن الأمر الإلهى الذى فى الكتاب العزيز كان أظهر وأبين عندهم، هذا والله أعلم.

قوله سبحانه: ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ هذه الآية معطوفة على قوله تعالى ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ وليست معطوفة على قولهم ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ لأنها ليست داخلة فى قولهم وإنما هى إخبار من الله سبحانه عنهم وآية ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وما عطف عليها معطوفة على الآية التى هى رأس كلامهم فى القرآن وهى قوله تعالى ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ أعنى أنها معطوفة على جواب الشرط، وداخلة فى حيز الشرط وأن المعنى إذا تليت عليهم آياتنا قال الذين كفروا ﴿هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾، وقالوا ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ وهذه الآية آخر كلامهم فى القرآن وبهذا العطف يلتقى آخر الكلام فى القرآن بأوله وتتم الدائرة المحيطة بهذا الجزء من المعنى؛ ومن أجل مزيد بيان ما أُريد بيانه أقول إن هذه الدائرة من أولها إلى آخرها والتى فتحها قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾ معطوفة على الدائرة التى دارت حول إبطال الشرك والتى فتحها قوله تعالى ﴿قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ﴾ وبهذا يلتقى نقض الضلالتين؛ ضلالة الشرك فى العبادة وضلالة ردِّ النبوة، وهكذا تتشابك دوائر المعانى.

وهذه الجملة ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ﴾ بُنِيَت على إذ التى ظرف لما مضى وللعلماء كلام فى عاملها وكلام فى معناها، أما كلامهم فى عاملها فقد ذكروا أنه لا يستقيم أن يكون العامل فسيقولون لتدافع الزمانين لأنها للماضى وسيقولون للاستقبال بدلالة السين، ولهذا قدَّروا محذوفًا، قال الزمخشرى: وتقديره إذا لم يهتدوا به ظهر عِنَادهم فسيقولون هذا إفك قديم، وقد ذكر ابن المنير فى الآية كلامًا جيدًا ارتضاه كثير من المفسِّرين وخلاصته أن السِّين فى قوله تعالى ﴿فَسَيَقُولُونَ﴾ وإن كانت دالة على الاستقبال فهى أيضًا دالة على الماضى والحاضر، أى أنهم قالوا ﴿هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ ويقولون ﴿هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾

وسيـقولن ﴿هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾، وهذه السين أخـت السين التى فى قولـه تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام ﴿إِلاَّ الَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ﴾ ليس المعنى أنه سيهدينى فى المستقبل، وإنما المعنى أنه هدانى ويهدينى وسيهدينى، قال ابن المنيّر وقد كانت الهداية واقعةً وماضيةً ولكن أخبر عن وقوعها ثم دوامها فعبَّر بصيغة الاستقبال وكذلك الآية الاستـقبال فيهـا خرج مخرج الإشـعار بدوام ما وقع ومضى، وهذا كـلام جيد جـداً ولو قيل وإذا لم يهتـدوا به قالوا لذهب المعنى الجليل الذى فى الآية وهو أن هؤلاء المضادين لدين الله سـيقولون فى كل زمان وكل مكان هذا إفك قديم، وأن عليكم يا أهل الإسلام أن تفـهموا ذلك جيداً، وأنه لن يخلو زمـان ولا مكان من الأرض من ضـال يقـول فى كـلام الله هذا القـول المكذوب، وأن صراع البـاطل مع الحق سُنَّة الله فى الأرض ولن تجـدوا لسنة الله تبديلا، فاحتـشدوا دائمًا لهذه المواجهة، وأعدوا لها مـا يواجهها من تجلية حقائق ما أوحاه الله إليكم، واعتـبروا أنفسكم فى رباط إلى يوم القيامة، وهذا أهم ما يَشُد عزائم الأُمَّة ويَحْشِـدُ رِجَالها ليس للباطل، وإنما للبر والعدل وتثبيـت الحق، والدفاع عنه فى أرض الله، وهذه رسالتكم وهذه لمحـة سريعة من دلالة الآية ولو فتحت الكلام فيها لوجـدتها تقذف فى كل قلب همّاً وهمة وما أروع الإنسان الذى يعيش بهمٍّ وهمَّة، هذا هو ما قيل فى إعرابها.

أما كلامهم فى معناها فقد ذكـروا أنها وإن كان الأصل فيها هو الظرف فى الماضى فإن المقـصود بهـا هنا هو التعليل أى ولأنهم لم يهـتدوا به سيـقولون ﴿هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾.

قال ابن هشام: إن كلمة إذْ تكون للتعليل كقوله تعالى ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ أى لن ينفـعكم اليوم إشـراككم فى العـذاب لأجل ظلمكم فـى الدنيـا، ثم قـال: وهل هذا حـرف بمنزلة لام العلة، أو ظرف، والتعليـل مستفـاد من قوة الكلام؟ انتهى كـلام ابن هشام، وقد نقلته من أجل قـوله والتعليل مستفاد من قوة الكـلام، وهى كلمة جيدة

جداً لأنها تعنى أن تدفق المعانى من عيون اللغة التى هى ينابيع الكلام ليست وقفًا على الكلمات وأحوالها وتراكيبها، وإنما قوة الكلام الذى هو السياق القوى المتدفّق يُعَدُّ من أدوات الإبانة وكأنه لغة ولكنها لا تكتب ولا تنطق، وكلمة ابن هشام هذه صالحة لأن تُسْقى بعقل نحوى حىٍّ تائق للفكرة الرَّطبة فى كلام العلماء، ولو سُقِيَت لأثمرت ثمرة جديدة، ثم ذكر ابن هشام الآية التى نحن فيها وأنها مما حملوه على التعليل وأنها مثل قوله تعالى ﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ﴾ ومثل قول الشاعر:

فأصبحوا قد أعاد الله نِعْمتَهم إذ هُمْ قريش وإذ مَا مِثْلُهم بَشَرُ

وقوله سبحانه ﴿هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ كلمة ﴿إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ لم تذكر فى القرآن إلا فى هذه الآية والإفك معناه الكذب المفترى، قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ﴾ [الفرقان: ٤] وهذه الجملة أَشْنَعُ من قولهم ﴿لَوْ كَانَ خَيْراً مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ لأن هذه تَنْفى الخَيْرِيَّة فقط، والإفك القديم يعنى الكذب المفترى المتأصل فى الكذب والافتراء، وهو غير الأساطير، لأن الفرقان ذكر أساطير الأولين بعد الإفك، فقد جاء بعد الآية السابقة فى الفرقان ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ﴾، قالوا فى الإفك (أعانه عليه قوم آخرون) وقالوا فى الأساطير (اكتتبها فهى تملى عليه) وهذا معناه أن الأساطير مدوَّنة فى كتب وأنه عليه السلام لم يكتبها وإنما اكتتبها، وهى تملى عليه نظراً لأمِّيَّته صلوات الله وسلامه عليه، وقالوا فى الإفك أعانه عليه قوم آخرون لأن الافتراء اختلاق، وكأن هناك مجموعة تَصْنع الأكاذيب فى صياغة أَدَبيَّة عالية وأن هذه صناعتها، وأنها تُعين من يستعين، ولم أعرف هذا فى تاريخ الجاهلية، وهل هو من لهو الحديث الذى كانوا يعرفون، ولم يتضح لى سِرٌّ وصف الإفك بالقديم، نعم أعلم أن هناك ما كان يُسَمَّى أكاذيب العرب من مثل حديثهم عن الجن وأن منهم من صاحب الجن وأن قبيلة كذا أَنَّهم من الجن، ومصاحبتهم للذئاب والغيلان، وغير ذلك كثير،

وقد ورد كثير منه فى الشعر، وأدع ما لا أعلم إلى ما تدل عليه اللغة، لأن الآية الكريمة علّقت قولهم ﴿هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ على عدم الاهتداء، ولم تُعَلّقْه على عدم العلم، لأنهم قد يعلمون ولكنهم لم يهتدوا، وهم بالقطع يعلمون القرآن ولم يهتدوا به، هناك فجوة بين العلم والهداية فرق بين أن تعرف الحق، وأن تؤمن بالحق، والجيل الذى نزل فيه القرآن علم أنه حق، والمروى عن أبي جهل وطبقته يفيد أن أبا جهل كان مُستيقنًا أنه رسول، ولكنه لم يؤمن به، وأمُّنا صفية بنت حُيىّ اليهودى روت عن أبيها وعن عمها ما يفيد أنهم استيْقنوا أنه هو المبعوث صلوات الله وسلامه عليه، وأعلنوا أنهم لن يؤمنوا به، والفجوة التى بين العلم والهداية كالفجوة التى بين العلم والعمل، فكل فاسق يعلم أن الفسق حرام، وكل لص يعلم أن السرقة خساسة، وكل طاغية يعلم أن الطغيان حرام، وكل قاتل يعلم أن القتل حرام، ولكن العلم لا يكف النفوس وإنما تكفها الهداية، وهذا باب يتسع حتى ترى فرقًا بين أن تعلم هذا العلم، وأن تكون مُقْتَنعًا بهذا العلم، وحتى ترى فرقًا بين أن تُعلِّمَ ما تَعَلَّمَ ما تعلّمته وأن تعلم ما اقتنعت به، فروق شاسعة وتترتب عليها نتائج مختلفة وشاسعة أيضًا، أقرأ هذه الجملة مرة ثانية ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ وانظر إليها من حيث هى معبرة عن حالة من أحوال النفس الإنسانية لا تزال هذه الحالة فى زماننا كما كانت فى زمن النزول، وستظل ما بقى الإنسان وهى أن القوم لما كرهوا ما أنزل الله وعلموه، لم تَتَلَقَّ نفوسهم هَدْيًا من هديه مع أنه كله هُدًى ورحمة كما وصفه الذى أنزل جل وتقدس، فقالوا ﴿هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ وهم أنفسهم بهذه الطبيعة فى زماننا، ولكن الثّياب غَير الثّياب واللسان غير اللسان درسوا القرآن وكفّت كراهيتهم له نفوسهم عن أن تهتدى بهديه وبدل أن قال الأولون إفك قديم قال المتنورون ثقافة الظلام أو ثقافة الصحراء أو فقه البَدْو وسمُّوا الذين يدعون إلى الحكم بما أنزل الله وهذه فريضة على كل مسلمة ومسلمة الظلاميين أو الرجعيين، وهكذا ترى فى مضمر هذه الجملة صورة عصور، وأجيال تختلف فى ظاهرها، ولكنها تعود إلى طبيعة

واحدة، وكان الرافعى يَرَى أن تـعبير القرآن عن مختلف الطبـائع البشرية فى الأزمنة كلها من صور إعجازه وأرجو أن أكون قد بَلَغْت ما أريد.

قوله سبحانه: ﴿وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَٰذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأحقاف: ١٢] هذه الآية نقض لقولهم ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾، ولقولهم ﴿هَٰذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ أما أنها نقضت قولهم ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾، فإنها وصفت كتاب موسى عليه السلام بأنه إمام يُؤتَمُّ به ويقتدى به وأنه رحمة، وهذان وَصْفَانِ جامعان للخير كله، وسبق أن شهد شاهد بنى إسرائيل على مثله، وأن الذى أُنْزِل على محمد ﷺ مع اشتمالـه على ما أنزله الله على النبيين من قبله فيه شرع جـديد وزيادة عن هذه الكتب فهو مـصدق لصوابهـا ومهيمن عليـها، ومضيف لهـا، وأمَّا أنَّ الآية ردٌّ على قولهم ﴿هَٰذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾، فإن كتابَ موسْى عليه السلام المقرونَ به كـتابٌ من قبله، ومن أجل أن تشير الآية إلى هذا الرد قدمت الخبر على المبـتدأ ﴿وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ وراجع الجملة تجد أنها تركز على أمـرين الأول أن كتاب موسى من قبله، يعنى هو أقدم منـه، والأمر الثانى أن كـتاب موسى إمـام ورحـمة، يعنى هو خـير كله، ولا يجـوز أن نهمل صلـة هذه الجملة بشـهادة شـاهد بنى إسرائيل على مـثله، لأن هذا المثل هو كتاب مـوسى، وأن هذا الشاهد رأى فى الذى أنزله الله على مـحـمد صـورة الذى أنزله الله على مـوسى، وأن سَمْت النبـوَّة قائم فى الكتابين، كمـا لا يجوز أن تُهمل علاقـة هذه الجملة أيضًا بقـوله تعالى ﴿مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ﴾ ثم أيضًا لا يجـوز أن تهمل علاقة هذه الجملة بما سيأتى على لسان الجن ﴿يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ﴾ والخلاصـة أن البحث عن الرحم الواصلة بين مكونـات السورة بحث فى أدق أسـرار البيـان لأن هذه

الرحم الممسكة بهذه المفردات من أهم عوامل بناء عمود السورة وبناء سمتها، أو شخصيتها كما كان يعبِّر الشيخ عبد الله دراز.

ووصف التوراة بأنه إمام من باب المجاز، وأن ما فى التوراة يُؤتم به، كما يؤتم بالإمام،وأن اتباعه واجب، وأنه قُدْوَةٌ وهكذا كتب الله، وأن من انحرف عنها يكون كمن انحرف عن الإمام وخرج من اتباع الهدى إلى الضلال، وكذلك الرحمة التى هى رِقة فى القلب، وكأنك مع كتب الله تكون مغموراً ببرٍّ ورحمة، وإنما عُبر عن التوراة بكتاب موسى، للإشارة إلى سنّة الله، وأنه ينزل كتبه على من يشاء من عباده، وأن نزول القرآن على محمد صلوات الله وسلامه عليه ليس بدْعًا ويجب ألا يكون مما يخالف فيه، وهذا شأن الله مع خلقه يَبْعَث فيهم رسلاً منهم ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً﴾ [الأنعام: ٩]، وكانوا لجهالتهم بالنبوَّات ينكرون أن يبعث الله بشراً رسولاً وإنما ذكر سبحانه كتاب موسى. وعيسى أقرب زمانًا من موسى لأن كتاب موسى مُجْمَع عليه، من أهل الكتاب. يؤمن به النصارى، كما يؤمن به اليهود، وكان عيسى عليه السلام مصدقًا لما بين يديه من التوراة، ومُبَشّرًا برسول اسمه أحمد، وبين لليهود ما اختلفوا فيه، وكان عليه السلام رسولا إلى بنى إسرائيل، وكتاب عيسى ينكره اليهود،والمقام مقام ذكر الكتاب الذى لا مُشَاحَنَة فيه، لدفع مشاحنتهم فى القرآن.

وقوله سبحانه: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾.

هذه الجملة معطوفة على الجملة قبلها، والجملة الأولى معقودة على معنى سبق كتاب موسى للقرآن، وإن كتاب موسى إمام ورحمة، ولك أن تقول إن القسم الأهم من معنى الجملة الأولى معلوم علم ضرورة، لأنه ليس هناك من يجهل أن كتاب موسى من قبل القرآن، وجواب هذا أن الخبر الذي قُدِّم ﴿وَمِن قَبْلِهِ﴾ ليس المقصود إفادة معناه، لأن معناه لا يخالف فيه، وإنما

المقصود ردُّ قولهم ﴿إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ وكأنهم كانوا «حداثيّين» يرفضون الثقافات القديمة، فرُدَّ هذا عليهم ونبّهوا إلى أن القديم والحديث ليس ميزان تورن به الثقافات والمعارف فهذا كتاب موسى قديم، ولكنه يؤتم به ثم هو محض رحمة.

والجملة الثانية معقودة على أمرين أن القرآن مصدق لما بين يديه، وأنه إنذار لمن ضَلَّ وبشارة لمن اهتدى، وهذا العطف الجامع بين كتاب موسى وهذا القرآن فيه إشارة إلى أن من يُقِرُّ بكتاب موسى فليس له أن ينكر كتاب محمد عليه السلام، وأن الترجيح بين متساويين من غير مرجح فساد فى العقل، وفى القرآن الكريم آيات كثيرة جمعت بين كتاب موسى عليه السلام وهذا القرآن كما فى قوله تعالى فى سورة الأنعام ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِى أَحْسَنَ وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (١٥٤) وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٤، ١٥٥] وقد يتشابه الكلامان كآية الأحقاف التى معنا وآية هود ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُوْلَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ [هود: ١٧] جملة و﴿وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾، هى بلفظها جملة الأحقاف، وربما كان ذلك لتأنيس قومه عليه السلام بقبول النبوة، لأنهم لم يأتهم نذير من قبله صلوات الله وسلامه عليه.

وابتداء الجملة باسم الإشارة ﴿وَهَذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ﴾ تميز المشار إليه أكمل تميز والمراد اللفت والتنبيه إلى الذى قالوا فيه سحر، وقالوا افتراه، وقالوا إفك قديم، وقد جاء اسم الإشارة هنا بعد جملة من كلام الباطل، والسوء الذى قالوه فى الكتاب، وكلمة «لتمييزه أكمل تمييز» أكررها كثيرًا لأنها من كلام الكملة رضوان الله عليهم، ولها فى كل موضع مذاق، ومذاقها هنا أنها تُعلى شأن الكتاب، وتميزه، فى مقام كثر باطلهم حوله، ومن عظمة القرآن أنه حدثنا عن أسوأ ما قيل فيه لأن الله سبحانه يعلم أنه غالب على أمره، وناصر من ينصره.

وكلمة «مُصَدِّق» ليس لها مفعول فصح أن يكون المراد بها مصدقا لما فى التوراة من ذكر نبوة محمد ﷺ، أو مصدقا لكل ما فى التوراة مما أنزله الله، ومميِّزا ما صَحّ منه مما هو كلام الله، وما حرفوه وأضافوه، وصح أن يكون المراد مصدقا لكل كتب الله التى كانت بين يديه، وصح أن يكون المراد مصدقا الذى أنزله الله عليه لأنه معجز وأنتم تعرفون إعجازه، وقد ذكر علماؤنا كل هذه المعانى، وأن عدم ذكر الذى صدقه الكِتاب وسَّع هذه الدلالة وجعل كل ذلك محتملا، وأكثر من ذلك أنه مصدق كل صدق وكانت كلمة مصدق تذكر فى الكتاب مُتَعَلِّقَةً مرة ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ ومرة ﴿لِّمَا مَعَكُمْ﴾ ولم تأت فى القرآن مطلقة من قيد التعليق إلا فى هذه الآية التى جاءت عقب عاصفة من الكلام الأسوأ، الذى قالوه فى الكتاب العزيز وذلك لتأكيد مطلق صدقة ودحض كل ما قالوه فيه، هذه الخصوصية فى هذه الجملة هى التى جعلتنى أقول إن تمييز المشار إليه أكمل تمييز له فى كل موقع مذاق، لأن هذا الموقع بين أكرم المواقع التى كرّم الله فيها كتابه المجيد، وقوله سبحانه ﴿لِّسَانًا عَرَبِيًّا﴾ قالوا هو حال من كتاب (وعربيا) وصف للسان، وفى وصف القرآن بأنه لسان عربى إشارة إلى أنهم يعلمون أنهم يكذبون فى كل ما قالوه فيه، وكأن كلمة ﴿لِّسَانًا عَرَبِيًّا﴾ تَنْسِفُ هذه العاصقة من التُّهم بل وتردها عليهم وأنهم هم أنفسهم يعلمون أنهم يكذبون، لأنه بلسانهم، وإعجازه فى لسانه وهم أعرف الناس بهذا، ثم إن وصف الكتاب العزيز بأنه بلسانٍ عربىٍّ مبين لا يراد به مدح القرآن، لأن القرآن كلام الله والله سبحانه موصوف بكل كمال، ومنزه عن كل نقص وليس كمثله شىء، وكذلك كلامه سبحانه، فالقرآن موصوف بكل كمال ومنزه عن كل نقص وليس كمثله كلام ولا يمدح بأفضل من ذلك، وهذا وجه إعجازه وإنما يراد بوصف القرآن باللسان العربى المبين مدح هذا اللسان على حد قول الشاعر ولله المثل الأعلى:

ما إن مَدَحْتُ محمدا بمقالتى ... لكن مدحت مقالتى بمحمد

ولم يذكر الحق جل شأنه اللسان الذى أنزل به كتابا من كتبه إلا القرآن، وأنه بلسان عربى مبين فليس الثناء على هذه العربية وأنها أعلى اللغات وأسماها ثناء ابتدعه الناس وإنما هى إشارات الحق للخلق، يتلقَّاها بالقبول من يتلقى عن الله بالقبول، ويعارضها من يعارضها ممن فى قلوبهم دَخَن من العربية وكتابها، ولم أعرف أن الله سبحانه وتعالى حث أقواما على العناية بلغة كما حث الخلق جميعا على العناية بالعربية لأنها لسان الكتاب الذى طالب الله الثقلين بالإيمان به، وبقراءته ومعرفة حلاله وحرامه، ثم إن ذكر عروبة اللسان لا تعنى أكثر من أن لغتة أعنى ألفاظه وصيغه وصوره عربية وأن هذه العربية تخلَّت عن كل مضامينها وغُسِلت منها والتحمت بالذى جاء فى الكتاب العزيز من معانٍ لا عهد لهم بها، وإذا كانت مضامين اللغة يَجْرِى كثير منها فى كلام شعرائها، وكتابها فإن الذى فى المصحف لم يَجْرِ شىء منه فى كلام من تكلموا بها فى الأزمنة البعيدة إلى زمنه، فلو أخذت قصيدة لامرئ القيس وراجعتها فى محيط شعر زمانها وما قبل زمانها لوجدت كثيرا منها مما جاء فى هذا الشعر سواء كان فى ذكر الصبوة أو المرأة أو الخيل أو الطَّلَلَ أو ما شئت ولو نظرت فى سورة من القرآن فلن تجد فيها شيئًا مما جاء فى لسانهم، ليس هناك قصيدة إلا وبينها وبين شعر زمانها وقبل زمانها رحمٍ واصلة، أخذت منه وأعْطَتَه إلا الذى بين الدفتين فليس بينه وبين محيطه الأدبىّ أى نسب إلا الألفاظ العربية، وصيغها ونظامها، نعم لقد أمدت هذه السور القرآنيه اللسانَ وأخذ منها الشعراءُ والكتابُ، ولكنه لم يمدها اللسانُ بشىء قط، وهذا هو الذى كان يقوله العرب لما سمعوه فقد كانوا يقولون ليس هذا من كلامنا أى ليس فيه شىء من كلامنا، والذى أريد بيانه هو أن عروبة القرآن عروبة لغة، وبيان، وليست عروبة معانى لأن المعانى القرآنية معان إلهية من خالق الناس إلى جميع الناس، فى جميع الأقطار، والأزمان، فهى مُطْلَقة من القيد، ومطلقة فى كمالاتها. ولم تعرف لغة من لغات الأرض طبقات من

العلماء من غير أبنائها انقطعوا لخدمتها كما تعرف العربية، ولا يزال طلاب العلم فى الأزهر من كل أجناس الأرض يتفوق بعضهم على بعض فى علوم العربية وقد فتح لها القرآن الكريم ينابيع المحبَّة فى قلوب الصادقين من أهل الإسلام، وكان يجب أن يكون العرب هم الريادة فى خدمة هذا اللسان، وقد كانوا كذلك إلى هذا الزمن الغريب الذى صارفيه أهل الرأى فينا يحملون اهتمامات عدونا فى شأننا فأصبحوا علينا وليسوا لنا. وقد زَرَعُوا بأيديهم مدارس لأبنائنا لاتتكلم بلساننا بل تحاربه، وبَقِيَت المدارس التى تتكلم العربية خرائب يدخلها أبناء المعدمين ليتعلموا القراءة والكتابة، ونسأل الله أن يخلص البلاد والعباد من الذى نحن فيه لأنه أسوا من أسوأ زمن الاحتلال، لأننا احتشدنا لمواجهة الاحتلال، والآن يحتشد المنافقون وأصحاب المصالح لتأييد ما يفعله الجهلة الذين صاروا حكاما.

وقوله سبحانه ﴿لِّيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾، لام التعليل هذه توجب علينا أن نراجع ماوصف به الكتاب قبلها لأن هذه الأوصاف تؤهله للإنذار ولا بد أن تكون أوصافا ترجع إلى الأمر الإلهى، لأنه لا يُنْذِرُ من عذاب الله إلا ما كان قاطعا فى أنه من عند الله، يعنى لا ينذر من عذاب الله إلا ما كان مؤيَّدًا من الله وهذا يعنى أنه كونه مصدقا أمر فيه إعجاز. وعروبة لسانه فيها إعجاز أما إعجاز اللسان فهذا معروف وهم أعرف به وإلا لما صح أن ينذرهم، وأما أن كونه مصدقا أمر معجز فإن القرآن ليس فيه كلمة واحدة تصطدم بأخرى من كتب الله كلها مما لم يدخله تحريف وهذا إعجاز، ثم هو مصدق لكل صدق فليست فيه كلمة واحدة تصادم الفطرة الإنسانية، ويستطيع عقل منصف أن يجد فيها مغمزا وهذا أمر معجز، وهكذا الإعجاز فى كونه مصدقا كالإعجاز فى بيانه وإذا كان الإعجاز فى بيانه يدركة أصحاب اللسان العربى فإن الإعجاز فى صدقه يدركة أصحاب العقول من كل الأجناس والأجيال، وأذكر بأن كلمة﴿مُّصَدِّقٌ﴾ لم يتسع معناها فى الكتاب كما اتسع فى هذه الآية لأنها

لم تأت مطلقة من كل قيد إلا فيها، فأشارت إلى أنه كتاب شأنه الصدق فى كل شأن وهذا إعجاز لا شك فيه لأن الأرض لم تعرف كتابا شأنه الصدق فى كل ما جاء فيه، إلا كتابا أنزله الله، كما لم تعرف كتابا لا ريب فيه إلا كتابا أنزله الله، ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٣]، وجاء الإنذار بصيغة المضارع لأن الإنذار يتجدَّدُ ويَحدُث شيئًا فشيئًا، وجاءت البشرى بصيغة الاسم لأنها ثابته دائمة، والذين ظلموا هم المذكورون فى آية شاهد بنى إسرائيل، وهم الذين كفروا وأعرضوا عما أنذروا وهم الذين أخبرت السورة عن شناعاتهم فى دعائهم من لا يستجيب لهم إلى يوم القيامة، وعن شناعتهم ومقالة السوء التى قالوها فى الكتاب، وأنه سحر وأنه افتراه، وأنه إفك قديم، ويلاحظ فرق فى الصياغة بين الذين ظلموا والمحسنين، عبَّر عن الأولين بالاسم الموصول الذى يفيد أنهم عرفوا بالصِّلة وشهروا بها، وكأن هذا إشارة إلى الذين ذكرتهم الآيات من قوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ﴾، لأنهم بعدما حدّثت عنهم الآيات بما حدّثت صاروا معروفين بهذه الضلالات الظالمة، ومشهورين بها، والعبارة عن الكفر بالظلم وإن كانت من جهة تفيد تبشيع الظلم والتنفير منه فى كل صوره كفرا كانت أو معصية، فإن هذا التعبير من جانب آخر يُفيد معنى أنهم ظلموا أنفسهم وفيه تلويحٌ بالعذاب، ولو قلت إن التعبير بالظلم عن الكفر فيه مزيد غضب لم تكن متجاوزا وقد تستشهد بهذه الآية التى عبَّرت بالكفر عن مفردات ضلالهم ابتداء من قوله ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ﴾ وقال الذين كفروا ﴿هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ وقال الذين كفروا ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾، ثم قال ﴿لِّيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ والغرض القصد إلى جمع ذلك كله لأنه قابل المحسنين، والمحسنون أدخل فى مرضاة الله من المؤمنين، لأن الإحسان مرتبة أعلى من الإيمان، وهذه المقابلة تشير إلى أن الظلم أعلى من الكفر، لأنه كفر وزيادة وأن هذه الجملة تضم طرفى الذين أنزل الله عليهم الكتاب أعنى الذين

بالغـوا فى الإعراض والمحادة والـذين بالغوا فى الإقـبال والإذعان والـطاعة، وراجع هذه الجملة ﴿وَهَذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾ وضعها بإزاء آية المطلع: ﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ إلى قوله ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ﴾ تجد الآيتين متفـقتين فى ذكر الكتاب وبيان أحوال الذين أنزل عليهم وقد اكتفت الأولى ببيان الذين أعرضوا وجمعت الثانية بين الذين ظلموا والمحـسنين وكان هذا بمثابة الإشارة إلى نهاية مقطع من الحديث عن الذين كفروا وبداية مقطع من الحديث عن الذين آمنوا، وكانت كلمة ﴿وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾ فاتحة للكلام بعدها، ولا يتم الكلام عن الذين أعرضوا عن ما أنـذروا به إلا بالكلام عن الذين أقبلوا، وأطاعوا وآمنوا وأحسنوا، ومن هنا كـان الحديث فى الآيات الآتية ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾، هو الوجه المقابل للآية التى قلت إنها المعنى الأم للسورة، ومن لطيف المناسبة أن الآية ذكرت بشرى المحسنين، وأن الحديث بعدها عن طبقة عالية من أهل الإيمان.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٣) أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

قطع الكلام واستـئنافه وبناؤه على التوكيـد كل ذلك له إشارات ودلالات تدعو إلى مـراجعة معنى الكلام الذى بـنى على الاستئناف ومراجـعة الكلام بعده الذى أفضى إلى القطع، وبيان ذلك فى هذه الآية أن الجملة السابقة لهذه الآية جملة مثيرة جداً لأنها تشير إلى أمـرين متقابلين أشد المقابلة وهما أمران شامـلان للخلق جمـيعا، لا يشـذ فرد واحـد من أن يكون من الداخلين فى المنذرين أو الداخلين فى المبشرين، والأول الذى هو إنذار الظالمين مفزع جداً، والثانى الذى هو بشارة المحـسنين مثير للرغبة والشـوق أشد ما تكون الإثارة، وذكر المحسنين آخـر الجملة ولم يسبق حديث عنهم ولا عن أحـوالهم مشوق

إلى معرفة الأحوال التى عليها يكون هؤلاء الذين يسترهم الله سبحانه، وهذا بخلاف الظالمين المنذرين فكل الذى مضى حديث عنهم، وعن أحوالهم، وأوصافهم التى رمت بهم فى هذا الإنذار؛ وقد سبق أن ذِكْرَ الذين كفروا بوصف الظالمين فيه قدر من الغضب، وقدر من التلويح بالعذاب، وهؤلاء المحسنون المبشرون لهم فى معجم القرآن الكريم ذكر محفوف بالإكرام، وبالحب لهم، والإقبال عليهم، وحسبك أن الله معهم، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩]، والجملة مؤكدة بما ترى والمراد بالتأكيد تأكيد أنهم فى معيَّة الله، وتأكيد الحق لمعنى أنهم فى معيته له فى قلوب المؤمنين به ما له، والمعيَّة معية لُطْفٍ وإكرام وعطاء؛ ومعية نصرة ومعية كرامة، فلما ذكرت الآية بشارة هذه الجماعة التى أكد الحق أنها فى معيته تاقت نفوس العارفين به سبحانه إلى معرفة أحوال هؤلاء الذين هم فى معيّته؛ والذين زاد الله في إكرامهم وذكر أنه جلّ وتقدس معهم ومعنى هو معهم أنه سبحانه فى معيتهم وإذا قلت لك الله معك، فليس المعنى أنك معه وإنما المعنى أنه معك والثانية أكرم. وهذا هو الذى له قُطِعَ الكلام الأول، واستؤنف الكلام الثانى ليحدد ملامح هؤلاء، وهذا مسلك من مسالك البيان فى هذه العربية الشريفة وقد ذكر الشيخ عبد القاهر أن من عادة الشعراء إذا ذكروا الديار والصاحبة والرجال أنهم يبنون الكلام على القطع، والاستئناف، ولم يبيِّن وجه ذلك؛ وتحليل شواهده تبين الوجه الذى ذكرناه، وأن الشاعر إذا ذكر الديار بما يثير ويشوق يقطع ويستأنف كلاما فى أحوال الديار، وكذلك إذا ذكر الصاحبة، وهذا هو وجه الاستئناف في الآية، لأنه لا يثير ولا يشوق إلى معرفة المزيد من الأحوال كما تثير بشارة الله للمحسنين، وناهيك بالبشارة إذا كانت من رب السموات والأرض وهذا كالمعية التي هى معية رب العالمين، وراجع هذا، وتأمله لأن في الكلام أشياء لا يستطيع قلم أن يقذف بها فى قلب قارئ؛

وإنما يهدى إليها التدبر والتدبر لا غير، وقد أشار الحق إلى أن كنوز أسرار بيانه سبحانه لها مفتاح واحد هو التدبر لا غير.

وأعود إلى الآيتين وأنبه إلى أن كل آية جملة واحدة، وأن المبتدأ فى الجملة الثانية اسم إشارة راجع إلى ما فى الجملة الأولى ﴿أُوْلَئِكَ﴾، وهي كلمة ممسكة بالجملة الأولى ومُدْمجَةٌ لها فى الجملة الثانية، وهذه عروة وثْقَى بين الآيتين.

ثم إن الآية الأولى تعريف بالمحسنين أهل البشارة وأهل المعيّة. نصفها تعريف بهم فى الدنيا، والنصف الآخر تعريف بهم فى الآخرة، والآية الثانية تعريف بمقامهم فى الجنة. وقد قامت الجملة الأولى على أربعة معانٍ معنى هو إيمانهم ومعنى هو عملهم، ومعنى هو نفي الخوف عنهم، ومعنى هو نفى الحزن عنهم، ولا يهولنك أننا نقف عند تحليل وتفصيص الجمل والمعانى، والوعى بهذه الفصوص فصا فصّاً، لأن هذا هو السبيل الذى يوصلنا إلى معرفة الأسرار.

قول سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ قلت إنها مكونة من معنيين الأول قولهم ﴿رَبُّنَا اللَّهُ﴾، يعني شهدوا أنه لا إله إلا هو، وهذه الشهادة مقترنة بدليلها؛ هذا الدليل هو وقوع ﴿رَبُّنَا﴾ مبتدأ، ولفظ الجلالة خبر، ووجه كون هذا دليلا أن لفظ الرب، يدل على العطاء والنعم الغامرة، التى لا تحصى، وأولها الوجود من كتم العدم وراجع ما يدل عليه الوجود من جعل السمع والأبصار والأفئدة، وما يلزم ذلك من جعل الأرض مهادا، والجبال أوتادا، وإنزال الرزق، وتصريف الرياح، وكل ما يلزم لحياة الإنسان، ولا يُعْطى هذا العطاء إلا الموصوف بكل كمال والمنزة من كل نقص، وإذا قلت صاحب النعم هو الله فأنت تقيم الدليل على الألوهية، وهذا هو المراد بأنهم شهدوا شهادة الحق مقترنة بدليلها، وهذا ظاهرًا ولَوْ راجعته مرة ثانية لوجدت جملة المبتدأ والخبر هذه راجعة إلى ما يقابلها فى حوار الذين دعوا من دون

الله من ليس له خلق فى الأرض، ولا شرك فى السماء، ولايستجيب لمن يدعوه إلى يوم القيامة، فالمقابل الضاحض لهذه الجملة هو قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الأَرْضِ﴾ إلى قوله سبحانه ﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ وهذا ظاهر وهو ضرب من روابط البيان الخفى وإمساك بعضه ببعض، ورجوع بعضه إلى بعض، ويدلك على أن الذى قلته هو كما قلته.

وقوله سبحانه: ﴿ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ هو الشهادة الثانية أعنى الشهادة بأن محمدا عبد الله ورسوله، وذلك لأن الاستقامة لا توجد إلا إذا كان هناك أمر ونهي، وكانت هناك شريعة، وكان هناك كتاب، ولا كتاب إلا بنبوة، وإقرارهم بهذا كله يعنى أنهم على خلاف ما كان عليه الذين قالوا: ﴿هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ والذين قالوا ﴿افْتَرَاهُ﴾ والذين قالوا ﴿إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ إلى آخر هذا الذى دحضت فيه الآيات رفضهم للنبوة، وهذا أيضا ظاهر، ويؤكد أن الكلام من أول قوله سبحانه وتعالى ﴿وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾ صورة مقابلة للكلام من أول قوله ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ﴾ ومن تمام معناه، وهذا أيضًا من إمساك الكلام بعضه ببعض أو أخذ بعضه بحجز بعض، وقد فتح علماؤنا الكلام فى هذا وذكروا بعض صوره وهذا الذى أذكره من الصور التى لم يُشْتَهر كلامهم فيها، وكلمة ﴿ثُمَّ﴾ فى قوله جل شأنه ﴿ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ ليس معناها تراخي الزمن لشدة ارتباط الاستقامة بالإيمان، وليس معناها التراخى فى الرتبة، لأن جملة ﴿رَبُّنَا اللَّهُ﴾ رتبة لا تعلوها رتبة، وهى أفضل ما يقوله أهل الإيمان، وأفضل ما قاله ﷺ والنبيون من قبله، وإنما لها دلالة أخرى وهى أن استقامة الإنسان فى تَقَلّبه فى حياته على وفق ما أمر الله وما نهى شأو بعيد، ومرتبة لا تنال إلا بالمكابدة، ثم هو شأو لا يسعى أهل الله إلى شأو أفضل منه، ومكابدة لا يستعذب أهل الله مكابدة أعذب منها.

ومن عجيب أسرار بيان القرآن أنك تجد الطريق إلى الله وإلى رضوانه وإلى أن تكون فى صفوة خلقه المقربين إليه والمحسنين الذين هم فى معية الحق جل وتقدس تجد كل ذلك مختصرا فى كلمتين سَهْلَتَيْن عَذْبَتَيْن كما فى الآية الكريمة ﴿قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ وعجيب أن تجمع كلمتان كل خير فى الدنيا والآخره، ولا تدع شيئًا تطمح نحوه نفس مستقيمة إلا شملته هاتان الكلمتان ومنه أخذ المصطفى صلوات الله وسلامه عليه جوامع كلمه من مثل «قل آمنت بالله ثم استقم» وفى سورة فصلت ﴿يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ﴾ [فصلت: ٦]، وكانت هذه الآية فى مطلع فصلت مهيئة لآية ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠]، ولم تتكرر هذه الآية فى الكتاب العزيز إلا فى هذين الموضعين: فصلت آية ٣٠ والأحقاف آية ١٣ وقد لاحظت شيئًا جامعا بين موقع الآية فى السورتين هو أن الآية جاءت بعد شناعات ظاهرة وفاجرة من أهل الباطل، ثم كان الانتقال من هذه الآية فى السورتين إلى صور من أفضل صور الصالحين، بيان ذلك أن الآية فى الأحقاف جاءت بعد الشناعات التى ذكرناها والتى تتلخص فى رفض الوحدانية ورفض النبوة، وجاءت فى فصلت بعد نهاية قصة الذين قالوا ﴿قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ [فصلت: ٥]، وهذا من أشنع ما قاله الذين كفروا فى محادَّة الدعوة، وليس أبلغ فى الفظاظة والجهالة والجلافة من الذين يواجهونه عليه السلام بقولهم ﴿قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ﴾ ﴿وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ﴾ إلى آخره، ثم انجر الكلام بهم وعنهم إلى أن حشروا على أبواب الجحيم: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ [فصلت: ١٩]، ثم كانت المفاجأة المزلزلة لهم وهم على أبواب الجحيم أن شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون. ثم

انتهى بهم الكلام إلى جهنم دار الخلد، وهم يصرخون من العذاب ويقولون ﴿ربَّنَا أَرِنَا اللَّذَيْنِ أَضَلاَّنَا مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا﴾ [فصلت: ٢٩]، وعند هذه الذروة التى انتهى إليها عذاب الله لهم وغضبه عليهم جاءت آية ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ [فصلت: ٣٠]، نعم هناك فرق بين السياق السابق للآية فى السورتين هو أنها جاءت فى فصّلتْ والذين قالوا قلوبنا فى أكنة فى سواء الجحيم يقولون ﴿رَبَّنَا أَرِنَا اللَّذَيْنِ أَضَلاَّنَا مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا﴾ وجاءت فى الأحقاف والذين أعرضوا عما أنذروا أحياء فى الدنيا يقولون ﴿هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ أما السياق اللاحق فى الآيتين فهو فى فصلت انتقال من خبرهم إلى طبقة أعلى فى الطاعة وهم الذين قال الله فيهم ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ وكان هؤلاء فى طبقة أعلى لأن الأولين كانوا صالحين فى أنفسهم قالوا ﴿رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ وهؤلاء صالحون فى أنفسهم مصلحون لغيرهم لا يشغلهم شأنهم عن شأن غيرهم، خَلَّصُوا أنفسهم مما يغضب الله وجَدُّوا فى تخليص غيرهم مما يغضب الله فتقربوا إلى الله بالطاعة وبالدعوة إلى الطاعة، ذاقوا حلاوة الطاعة، وجَدُّوا فى أن يذيقوا غيرهم حلاوة ماذاقوه، ثم ترقَّت آيات فصلت من هذه الطبقة الأعلى إلى طبقة أعلى من الأعلى وهم الذين وصف ربنا سلوكهم مع الناس وطيب معاشرتهم بقوله ﴿وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤]، وقد قال علماؤنا فى تفسير ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ يعنى لا يكفى أن تسامح من أساء، وإنما تكافئ إساءته بإحسانك فإذا ضيّع مالك فاحفظ له ماله، وإذا أهان ولدك فأكرم ولده، وهذا السلوك صعب لا يرْقَى إليه إلا ذو حظ عظيم كما قال جل وتقدس ﴿وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٥]، ومن العجيب الذى

يجب أن نلتفت إليـه وأن نلفت أهل الإسلام إليه هو أن درجـات الترقى فى آيات فصلت راجـعه كلها إلى حسن المعـاشرة وكريم العطاء للمجـتمع الذى يعيش فيه المسلم، وأنه يقترب من ربه بمقدار إكرامه لخلقه سبحانه، وأن أحبَّ عبـادتنا لربنا تكمن فى مزيد العطاء والحب لمن حـولنا من الناس، وليس فى النظام الاجـتماعـى سلوك أكرم من هذا السلوك، والدعـوة إلى هذا السلوك الأرقى والأعلى هى التى يسـميهـا الفـجرة من حـولنا دعـوة إلى الظلام، ويسمون دعاتها ظلاميين، ولا غـرابة فى زمن نُكِّسَتْ فيه الحقائق وصار أمرنا بيد أشـرارنا، وجهالنا، ولا بد لهـذا الكرب أن يزول ولهذا الليل البـهيم أن ينقشع، هذا هو السياق اللاحق فى سورة فصلت.

أما السـياق اللاحق فى سورة الأحقـاف فقد اسـتخلصت من البرِّ مَحْـضَه وجـعلته وصـيـة ربنا لنا، واتجهـت به إلى منبعـه فى هذا الوجـود، وهو بر الوالدين، وقال سبحانه بعد آية ﴿الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا﴾ وسورة فـصلت نزلت أولا، فـأشارت إلى السـاحة الأوسع للبـرِّ وهى المجـتمع الذى يعـيش فـيه المسلـم، ثم نزلت الأحقـاف وفَصَّلَـتْ ما جاء مـجمـلا فى فصلت لأن الإحـسان للوالدين جـاء فى طىّ الإحسان للناس، وهذا السياق اللاحق فى السورتين يشير إلى أن جوهر الدين هو ربنا الله ثم الاستقامة، ثم الإحسان للناس، ومن هنا قال عليه السلام «إنما بعـثت لأتمِّمَ مكارم الأخـلاق»، قـوله سبـحـانه ﴿فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ هاتان الجملتان واقعتان خـبرا لإنَّ والكلام الجامع لأحوال المحسنين الذين لهم البشـرى والذى وَصَفْتُه بأنه مـختصر جدا وسـهل جدا هو اسم إن يعنى أن اسم إن الذى هو نصف جملة هو الذى اتسع لبيان أحوال المحسنين، وقد ذكـرت أن هذا من الاختصـار العجيب، وهو أصل جـوامع كلمه ﷺ، والفاء التى فى قوله ﴿فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ هى الفاء التى تقع فى خـبر الاسم

الموصول تشبيها له بالشرط، وكأن الكلام إنْ قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم، وفائدتها تأكيد إسناد الخبر إلى المبتدأ، ولو قلنا إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا لا خوف عليهم ولا هم يحزنون لكان كلاما صحيحا ولكن تذهب منه هذه الفائدة وهى تأكيد نفى الخوف والحزن عنهم، وهذا التأكيد من مالك السموات والأرض ومالك يوم الدين له قيمة جليلة، لأنه سبحانه يؤكد لأهل المخافة منه فى الدنيا نفى المخافة والحزن عنهم فى الآخرة لأن الله سبحانه لا يجمع على عبده مخافتين.

ونفى الخوف عليهم ليس كنفى الخوف عنهم، لأن حرف الاستعلاء يفيد أن الخوف المنفى خوف مُسْتَعْلٍ قاهر غالب، هو خوف ليس فوقه خوف، هو خوف أهوال القيامة، وأهوال الموت وأهوال القبر، وأهوال النشر، وأهوال الصراط، وأهوال الحساب، وأهوال الجحيم، وكل ذلك لا طاقة لأحد باحتماله، ولا طاقة لأحد بدفعه، وهى أهوال لم نُدَرَّب عليها ونحن أحياء، قلت إن كلمة (على) تشير إلى سطوة هذا الخوف وشدته وأهواله وهناك خوف لا يرفع عنهم، وهو خوف الجلال والمهابة، وهو خوف يحرص عليه أهل الله ويبحثون عنه، ويسعون إليه حتى إنهم يخافون ألا يخافوا، والملائكة المسبحون بقدسه والذين لا يعصون الله ما أمرهم يخافون ربهم من فوقهم، وقد أشرت إلى أن فى القرآن الكريم معانى كثيرة تُطوى مرة وتُنشر مرة، وهذه منها لأن الذى جاء فى الأحقاف طى للذى جاء فى فصلت فقد اقتصرت الأحقاف على رأس المعنى وهو نفى الخوف والحزن عنهم والذى فى فصلت تفصيل آخر فقد جاء فى فصلت أن الملائكة تتنزل عليهم، وأول ما يقولونه لهم لا تخافوا ولا تحزنوا، وهذا هو رأس المعنى الذى اقتصرت عليه الأحقاف التى نزلت بعد فصلت، ثم قالت الملائكة ﴿وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ وهذا قد عبرت عنه الأحقاف بالبشرى، وفصلته فى الآية

الثانية ﴿ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ ثم زادت فصلت ﴿ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ (٣١) نُزُلاً مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴾.

وراجع قراءة هذه الآيات واسأل نفسك هل يجد من يؤمن بالله واليوم الآخر غاية أعلى من هذه حتى يترك هذه ويسعى إلى غيرها؟ هل هناك أفضل من أن تتنزل عليك الملائكة ببشرى نفى الخوف ونفى الحزن والبشارة بالجنة والبشارة بولاية الله لك فى الدنيا والآخرة؟ لا شك أن السعى إلى هذه الغاية لا يعنى ترك الدنيا لأن من ترك الدنيا فقد ترك مزرعة الآخرة ولن يجد مزرعة أخرى للآخرة، وإنما السعى إليها بمواجهة الدنيا بكل ما فيها من صلاح وفساد تَقِفُ مع الخير وتعين أهله، وتشد أزرهم، وتكون واحدا منهم، وتقف فى وجه الفساد، والشر والظلم، والقهر، والقمع، والبطش، لأن هذه هى الظلمات التى يجب أن تنقشع وأن تزول من حياة البشر، لقد سعى رسول الله ﷺ إلى هذه الغاية وهو يحمل سيفه فى وجه الضلال والفساد، وسعى أبو بكر وسعى عمر ولم يعرف التاريخ واحدا من هولاء الكرام سعى إلى هذه الغاية بترك ما لقيصر لقيصر وما لله لله، وإنما وقف الكل فى وجه قيصر، وقيصر لم يمت وإنما فى كل زمان قيصر، وفرعون لم يذهب وإنما لا يزال على أرض الكنانة وعلى أرض العرب والمسلمين، ولا يزال يصارع موسى وهرون، ولا يزال الكليم يشكو إلى الله ظلم اللعين، وإن كان اللعين الأول ترك موسى حراً واللعين الثانى بطش وقمع والويل له ولمن حوله من المنافقين. وقد فسر علماؤنا نفى الخوف والحزن تفسيرا مختصرا جداً ومعناه متسع جداً قالوا لا خوف عليهم فيما هو آت ولا هم يحزنون على شىء فات وهذا من الكلام الملْهَم لأن الخوف يكون من توقع مكروه كما قال يعقوب عليه السلام ﴿ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ ﴾، والحزن غالبًا ما يكون على شىء قد مضى ولم يعد يستدرك؛ وفى الجملتين مخالفة فى طريق الصياغة، فقد

اختلفت الجملة الثانية فى بنائها عن الجملة الأولى، وتقدم فيها النفى على المسند إليه الذى خبره فعل مضارع وهذا البناء يفيد الاختصاص، ومعناه أن نفى الحزن عنهم خاصة بخلاف غيرهم لأنهم هم الصفوة المحسنة والحزن على مامضى كثير ومتنوع فأهل الباطل يقولون ﴿ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴾ [المؤمنون: ١٠٧]، والمفرطون من أهل المراتب التى هى دون الإحسان يذكرون ما أصابوه من معصية فيخافون وما فاتهم من إحسان كان يمكنهم أن يصيبوه فيحزنون، وهؤلاء الذين قالوا ﴿ رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا ﴾ والذين هم المحسنون قد نفى الله عنهم هذا الحزن، وصيغة المضارع فيها إشارة إلى أن هذا الحزن كان الأصل أن يتجدد بتجدد ما يذكرون والخلاصة أن صياغة الجملة الثانية تفيد أن الحزن واقع فى هذا اليوم ولا ريب فيه، ولكنهم بمنجًى منه، وهذا يعود بنا مرة ثانية إلى مراجعة ثانية لكلمة ﴿ ثُمَّ اسْتَقَامُوا ﴾ وأن هذه الاستقامة بلغت بهم الحد الأقصى الذى يستطيع الإنسان أن يصل إليه فى ضبطه لسلوكه على وفق أمر الله ونَهْيه وأن ما فاتهم من أمره ونهيه قد تولى ربنا نفى الحزن عنهم إذا ذكروه لأنه مامِنَّا مِن أحد إلا فاته ما كان يَحْسُن منه ألاَّ يفوته وما مِنا من أحد إلا وقع منه ما كان يِحُبُّ ألا يقع منه، ولسنا مطالبين بألا نخطئ أبداً لأن كل ابن آدم خطاء وإنما نحن مطالبون بما فى الوسع والطاقة.

قوله سبحانه ﴿ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ قلت إن قوله جل شأنه ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ﴾ هو المقابل للذين لم يقولوا ربنا الله وإنما أشركوا بالله من لم يخلق فى الأرض وليس له شرك فى السماء وأن هذه الجملة المختصرة مقابل الآيات من قوله: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ إلى قوله ﴿ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً ﴾ وأن قوله ﴿ ثُمَّ اسْتَقَامُوا ﴾ مقابل للآيات من قوله ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ إلى قوله ﴿ هَٰذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴾ وأقول الآن إن هذه الآيات أوجزت

المقابل فى العقيدة والسلوك اعتمادا على تفصيلها فى معارضة الذين كفروا ثم فصلت آية النعيم لتشير بذلك إلى معنى مسكوت عنه هناك وهو عذاب الذين كفروا فذكر الذين قالوا ربنا الله يستصحب لا محالة ذكر الذين أشركوا وذكر الذين قبلوا شرع الله واستقاموا عليه يستصحب لا محالة ذكر الذين رفضوه وعاندوه، وذكر نعيم الصالحين يستصحب لا محالة شقاوة المبطلين، ولو قلت إن عذاب الذين كفروا بالله وبرسوله حذف من الأول لدلالة نعيم المحسنين عليه لم تكن متجاوزا أعراف البيان لأن الكلام له ظاهر يدل عليه لفظه وله باطن هو عكس ما دل عاليه لفظة فإذا مَدَحْت الكريم دل باطن هذا الكلام على ذم البخيل وإذا أثْنَيْتَ على الصادقين، دل باطن هذا على انحطاط مرتبة الكاذبين ولم يقتصر كلام علمائنا على دلالة المنطوق بل فتحوا باب دلالة المفهوم ودلالة المفهوم أوسع وأرحب.

واسم الإشارة فى قوله سبحانه ﴿أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ لتمييز المشار إليه أكمل تمييز وهذه كلمة قالها علماؤنا وهى كلمة نفيسة ولكنها ذات دلالة عامة مثل قول سيبويه يقدمون الذى بيانه أهم وهم بشأنه أعنى، وكما أنه يجب فى كل لفظ قدم أن نتعرف على وجه العناية به كذلك يجب فى كل موقع من مواقع اسم الإشارة أن نعرف وجه تمييزه أكمل تمييز وهذا فى التقديم وفى اسم الإشارة بحث فى سر الدلالة وسر البيان. ومعنى التمييز هنا أن هؤلاء الذين قالوا ﴿رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ والذين نفى الله الخوف عنهم فى كل ما يستقبلون من أهوال فى يوم يجعل الولدان شيبا هؤلاء يجب أن يميزوا تمييزًا يشار إليه بالبنان ليَتَهيَّأ السامع لتلقى خبرهم، وفوزهم العظيم وإكرام الله لهم، وأنه سبحانه جعلهم أصحاب الجنة يعنى ملَّكها لهم. ثم إن الإشارة للبعيد تشير إلى بعد منزلتهم عند الله وعند الناس وأن هذه المنازل البعيدة لم تكن لتُنَالَ إلا بالمشقة والمكابدة والمزاولة. ثم إن اسم الإشارة فى هذا الموقع يشير إشارة أخرى هى أن المقصودين به جديرون بما يأتى بعده من أحوال لاكتسابهم لما جاء قبله من أعمال إن خيرا فخير وإن شرا فشر، فإذا كانت الأحوال السابقة أحوالا حميدة رشحتهم إلى ما يأتى بعد اسم الإشارة

من مآل حسن كهذه الآية وكقوله تعالى فى أول سورة البقرة ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ٥]، بعد ذكر إيمانهم بالغيب وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة واليقين فى الآخرة ويأتى اسم الإشارة كأنه نقطة وصل بين من زاول ما قبله ومن سينال ما بعده، وهذا طريق جيد، وإذا كانت الأحوال السابقة لاسم الإشارة أحوالا غير سارة قادت لا محالة إلى مصير غير سار كما فى قوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلاً أُوْلَئِكَ لا خَلاقَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ﴾ وهذا كثير جداً فى كلام الله وفى كلام الناس، وكلمة ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ خبر هذا المبتدأ وهذه هى البشرى التى فى قوله ﴿وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾ وتقابل إنذار الذين فى الآية الأم وفى آية ﴿لِّيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ لأن البشرى تستحضر الإنذار حتى يكاد الإنذار أن يكون جزءا من دلالتها كما أن أصحاب الجنة يستحضرون أصحاب النار حتى ليكاد أصحاب النار أن يكونوا جزءا من دلالة أصحاب الجنة وقد أشرت إلى أن اسم الإشارة جمع كل ما فى الآية السابقة من قولهم ربنا الله واستقامتهم ونفى الخوف عنهم ونفى الحزن عنهم وقلت أيضًا إن اسم الإشارة بهذا الجمع دمج الآيتين فى آية واحدة ثم إن كلمة ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ فيها تكريم آخر ليس فقط لأنهم دخلوا الجنة وفازوا بذلك ونعم الفوز وإنما لأن الله ملَّكهم هذه الجنة فهو سبحانه لم يدخلهم جنته وإنما أدخلهم جنتهم ولو رجعت إلى قصة العمل المفضى إلى الجنة لوجدت قدر العطاء فيه والمن أضعافا مضاعفة لأن الحسنة فيه بعشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف ثم يمنُّ الله على من يشاء وأن الله سبحانه يُربى الحسنة حتى تكون مثل أحد.

هذا هو أصل الذى لنا من جزاء أعمالنا والذى صرنا به أصحاب الجنة ولو اختصرت الكلام وقلت إن الذى هو لنا من جزاء أعمالنا على الأكثر واحد من سبع مائة ضعف بناء على الذى جاء فى سورة البقرة ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٦١]، ولهذا

قلت إن الذى لنا هو على الأكثر واحد من سبع مائة لأنه يمكن أن يكون أقل إذا دخل أحدنا فى قوله سبحانه ﴿وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ﴾ وأصحاب الجنة هم الذين ورثوها ﴿تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا﴾ [الأعراف: ٤٣] لأن الإرث ملك للوارث كما أن صاحب الشىء هو مالكه؛ وكلمة ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ تؤكد هذه الحسبة وذلك لأن الخلود فى الجنة هو النعيم الذى لا نهاية لزمانه ومهما كنا مجتهدين فى العبادة فإن عبادتنا انتهت بموتنا ولا يصح أن يكون ثواب عمل الزمن المحدود أجرا غير محدود فكلمة ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ مع دلالتها على الخلود تفيد أيضًا أن هذا النعْيم عطاء غير مجذوذ وليس ثواب عمل محدود.

وقوله سبحانه ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ هذا عطاء آخر لأن الحق سبحانه جعل ما أعطاه لنا من أضعاف مضاعفة فى مقابل الحسنة أو الجنَّة ملكا لنا ثم كافأنا به مرة ثانية لما أدخلنا به الجنة، وجعلنا فيها خالدين، والجزاء من عطائه والخلود من عطائة وليس لنا إلا الواحد من سبعمائة وهذا سهمنا، والخلاصة أن الله سبحانه أعطانا ثم كافأنا بما أعطانا أولا بدخول الجنة وثانيا أنه جعلنا أصحابها وثالثا أنه جعلنا خالدين فيها، وليس عملنا بصالح لواحد من هذه الثلاثة ولابد أن نلاحظ أن التوفيق للطاعة نعمة، وعطاء، وأن قبول الطاعة نعمة وعطاء، وهذا التوفيق يوجب علينا نعمة الشكر، وهذا القبول يوجب علينا أيضًا نعمة الشكر، وكل هذا يخصم من رصيدنا الذى هو على الأكثر واحد من سبعمائة فإذا كانت الحبَّةَ تأتى بسبعمائة ضعف فالواجب أن نذكر أن توجُّهنَا إلى النفقة بهذه الحبَّة هو أصلة عطاء ومَنٌّ ولو خَلَّيْنَا لأَنْفُسنَا لأمسكنا عن الحبة. ولا شك أننا سكتنا عن نعم الله الأخرى وتكلمنا فقط فى نعمة الطاعة، ولم نتكلم فى أنه أوجدنا من كتم العدم، وجعل لنا لسانا وشفتين، وهدانا النجدين، وجعل لنا الأرض ذلولا وجعل فى السماء رزقنا، وأخرج لنا من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين، وجعل لنا بنين وحفدة، وأَصْغَرُ نعمة من هذه النعم لا تستطيع توفيتها حقها بعبادة العمر كله.

ولك أن تراجع كل هذا ثم تقول صدق رسول الله ﷺ لما قال لنا «لا يدخل أحدكم الجنة بعمله قالوا ولا أنت يارسول الله قال ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله برحمته» ولا يدهشك قول المعتزلة إننا ندخل الجنة بعملنا لأن المعتزلة لا يجهلون هذا الذى أقوله وإنما يعلمونه علمًا هو أحكم وأدق وإنما قالوا إننا ندخل الجنة بعملنا بناء على وعد الله لنا بذلك، وأن لنا على الله حقّاً، لأنه سبحانه جعل لنا حقّاً عليه، ولم يكن القوم غلاظ الأكباد، وإنما هم أهل طاعة، وهم بكّاؤون، ولا يذهبون مذهبًا إلا وكلام الله وكلام رسول الله ﷺ يهديهم إليه، وليس لعالم من علماء أهل القِبْلة نجم يهتدى به إلا كلام الله وكلام رسوله، ومن اهتدى بغيرهما فليس منا، وهذا قاطع ولا يجوز لمن يعلم هذا ويعقله أن يؤثِّم واحدًا منهم، هذا والله أعلم،

قوله سبحانه: ﴿ وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴾ [الأحقاف: ١٥، ١٦].

لم تبدأ آية فى القرآن الكريم بقوله تعالى ﴿ وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ ﴾ إلا هذه الآية وآية لقمان ﴿ وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [لقمان: ١٤، ١٥] وآية فى العنكبوت هى قوله تعالى: ﴿ وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [العنكبوت: ٨]

وآية لقمان هى الأسبق نزولا ثم الأحقاف ثم العنكبوت، لأن العنكبوت من آخر ما نزل فى مكة وذكر بعضهم أنها آخر ما نزل فى مكة.

وأوسع هذه الآيات وأكثرها تفصيلا آية الأحقاف.

ومراجعة الآيات الثلاث تدلك على فروق بينها وأظهر هذه الفروق أن آية الأحقاف نتج فيها ولدٌ برٌّ صالح هو نموذج من سَمِع وصيَّة الله وأنفذها. وقد انتقلت الآية من حمله كرهًا ووضعة كرهًا إلى بلوغ الأشد ولم تذكر خروجه طفلا كما هو الحال فى الآيات التى تروى قصة خلقه من نطفة فعلقة فمضغة، وهذا مقام آخر لأن المقام هنا ليس فى متابعة تكوينه وإنما فى المشقة التى تجدها أم دعت هذه المشقة ولدها على إنفاذ وصية ربه، وقوله فى دعائه ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ﴾ يَعْنى أنه من أبوين مؤمنين و﴿أَوْزِعْنِي﴾ أصلها من الوزع وهو الانكفاف يقال وزعه يَزَعُه كَوَضَعَه يَضَعُه إذا كفه، والهمزة فيها للإزالة، أى انف عنى ما يكُفُّنى أن أشكر نعمتك أى أزل عنى الغفلة، يقال أوزعه بالشيء أغراه به، وحَثَّه عليه، والولد الصالح الذى نتج فى آية وصية الأحقاف، يدعو الله أن يُوَجِّهه لشكره، وأن يقذف فى قلبه الرغبة المُلِحَّة الدائمة المشغولة بذكر الله وشكره، وألا تخامره الغفلة وفرق بين أوزعنى أن أشكر نعمتك وبين أعنى على شكر نعمتك أو حثنى أو حضنى لأن أوزعنى فيها ما فى كل هذا وتزيد كشف الغفلة عن القلب فلا يفتر عن ذكر الله وشكره، والنعم التى أنعمها الله عليه وعلى والديه نعم لا تُحصى وأعلاها نعمة الإيمان، ومن أنعم الله بها عليه فقد أتمَّ له بها النعم، ومن لم ينعم الله بها عليه فإنه يعيش فى نَقْص النعم، وهذا الدعاء بشكر النعم يستدعى أعظم نعمة سَبَقَتْ فى الآيات وهى قولهم ﴿رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ وهذا يعنى أن الولد الصالح الذى بلغ أشُدَّه صورة ومثال للمحسن الذى قال ربنا الله ثم استقام وهو من تمام الصورة الواسعة

والمقابلة لآية ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ﴾ وليست هذه الصورة فى لقمان ولا فى العنكبوت لأن الذى اقتضاها فى الأحقاف ليس فى السورتين الكريمتين ولكل سورة مقام اقتضى ما جاء فيها ونرجو الله أن يُعين فى بيان ذلك، ونحن فى الأحقاف من أولها بَيْنَ نموذجين، نموذج كريه جداً أكره ما يكون فكْرًا وسلوكًا ومراوغة، وهو الذى يدعو من دون الله من لايستجيب له إلى يوم القيامة، ويواجه آيات الله البينات فى الكتاب العزيز بقوله هذا سحر، ثم يتراجع ويكذب كذبًا عريانًا ويقول أم افتراه ثم يسيئ الأدب وينال من كلام رب السموات والأرض ويقول ﴿هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾.

والنموذج الثانى هم المحسنون وهم أهل البشرى وهم الذين قالوا ربنا الله ومنهم هذا الولد الصالح الذى ساقته آيه الوصية نموذجًا للذى حملته أمه كرهًا ووضعته كرهًا وكان من أشد الناس حرصًا على أداء هذا الحق وهذا البرّ، وبهذا البيان المجمل يتضح لنا أن آية الأحقاف ساكنة فى موقعها وأن التفاصيل التى فى وصية الله لنا بالوالدين واقعه أيضًا فى موقعها الذى اقتضاه سياق المعنى فى السورة، ولن أستطيع أن أبين وجه تمكن آيتى لقمان والعنكبوت لأن هذا لا يكون إلا بعد معرفة بناء السورة ووجه بناء معانيها وهيأتها التى بنيت عليها أو عمودها كما قالوا فى الشعر أو شخصيتها كما قال الشيخ عبد الله دراز، وإذا رمت ذلك فى سورتى لقمان والعنكبوت اقتضانى أن أنقل الكلام إلى هذا، وأن أدع ما أنا فيه ولا يجوز أن أتكلم فى القرآن إلا بعد أن أفرغ طاقتى فى المسألة التى أتكلم فيها ثم أقول ما أراه لأنى إن أخطأت والحال كذلك غفر الله لى وأثابنى على اجتهادى وكل الذى يظهر لى هو مناسبة مكونات آية كل سورة من السورتين لمكونات ما حولها يعنى معرفة أسرار مكوناتها فى حدود حَقْلِها الضيّق.

وأول ما يلاحظ فى الآية فى السورتين هو أن الأبوين مشركين والولد صالح بخلاف آية الأحقاف فالولد والوالدان من الصالحين، ومن الذى يجب أن

نلتفت وأن نلفت إليه أن الحق جل وتقدس يوصى الولد الصالح بأبويه الكافرين الذين راوغا مع المراوغين، وضـلاً مع الضالين وأنكرا مع المنكرين وراجع كلمة ﴿جَاهَدَاكَ﴾ التى تكررت فى السورتين مـع أن الصياغة فى كل سـورة داخلها تغيير وإنما بقيت هذه الكلمة من غير تغيير للإشارة إلى أن الأبوين المشركين لم يكفرا كفرًا صامتًا، كعامة الكافـرين وإنما كانا يتحركان مع الجبهة المضادة لدين الله، والمحاربة لله، ولم يكتفيا بدعـوة ولدهما إلى الشرك وإنما جاهداه وأعْنَتَاه ولم يصاحباه فى الدنيا معروفًا، ولم يتركا له حرية الاعتقاد، ولم يكتفيا بالأمر بالمنكر، والنهى عن المعروف، وإنما دخـلا فى منازعة مع ولدهما فَشَـقَّا عليه، وجاهداه، وأعنتـاه، يعنى هما والدان مـشاغبـان، ويدهشك ويروعك أن الله جلت قدرته يوصى الولد بهذين الأبوين المشـاغبين ويقول له ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ وأشهد أن هذا كلام الله الغنى عن العالمين ﴿إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٨].

والقرآن العظيم يـعلمنا أن هناك واجبات أخـلاقية لا شـأن لها بالاعتـقاد، ويجب أن تكون قائمة ودائمة ومَـصُونه بين الناس، ومنها أن من مدَّ إليك يدا بإحسان فـلا يجوز أن تمد إليه يدا بإساءة، وافـقك فى الدين أو خالفك، وأن العرف بين الناس حق لا يجوز أن يَغيب، وأن المشَاحنات التى تراها الآن بين أهل الأديان ليست من الأديان، لأن التـعامل الكريم بين الناس حق للناس، وبعـيد عن المخالفة فى الدين ومجىء هذا فى آيات الوصية إشارة إلى عظيم العناية به، وكلما قرأت يوصيكم ربكم أو وَصَّيْنا الإنسان وجدت فى نفسى شيئًا أقوى فى الإثارة والإيقاظ لأنى لا يجوز أن أسمع وصية ربى وفى قلبى غفلة، وإنما أسمعها وفى قلبى مهابة، لأنها وصية فيها جلال الموصى، وهيبته وسلطانه. وإن أردت أن تتبين تداخل آية لقمان فى القسم الذى جـاءت فيه من السورة فاقرأ من قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (١٢) وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ

لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (١٣) وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ (١٤) وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [لقمان: ١٢-١٥].

ضع قول الحق للقمان ﴿ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ ﴾ بإزاء قول لقمان لابنه ﴿ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ ﴾ وبإزاء قول الحق للإنسان فى الوصية التى فى لقمان ﴿ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ ﴾ وهذه الثلاثة كما ترى بعضها من بعض ثم ضع قول الحق للقمان ﴿ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ وهذا تهديد بإزاء قول لقمان لابنه ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ وبإزاء قول الحق فى الوصية فى السورة ﴿ وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا ﴾ تجد كل ذلك بعضه من بعض لأن النهى عن طاعة الوالدين إن جاهداه على الشرك راجع إلى أن الشرك ظلم عظيم، والله غنى عن العالمين يعنى عن غاية ما يرتكبون من المخالفة وليس بعد الشرك الذى هو ظلم عظيم مخالفة ومحادَّة، وجملة ﴿ وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا ﴾ تكررت فى العنكبوت ولم تذكر فى الأحقاف، وإن اختلفت صياغتها اختلافًا يسيرًا فقد جاءت فى العنكبوت ﴿ وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي ﴾ وفى لقمان ﴿ وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي ﴾ وحرف الاستعلاء فى لقمان يشرب فعل جاهداك شوبا من معنى حَمَلاك، وهذا يعنى أن المجاهدة فى لقمان أشد، وهو المناسب لقوله فى لقمان ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ وانتهت آية العنكبوت عند قوله ﴿ فَلا تُطِعْهُمَا ﴾ وأعقبتها بالفاصلة ﴿ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ وهى بلفظها فاصلة لقمان مما يؤكد المشابهة القوية بين العنكبوت التى هى آخر ما نزل وبين لقمان التى هى أول ما نزل، وكأن الوصية يرد عجزها الذى هو آخر ما نزل إلى صدرها الذى هو أول ما نزل.

وليس فى العنكبوت ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ﴾ وجاء هذا فى لقمان خاصة، وذلك ليتلاءم مع قول لقمان لابنه ﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ وقوله سبحانه ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ من الأمر بالمعروف، ومثله ﴿وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ ومجاهدة الصالح لوالديه الذين يجاهدانه على أن يشرك بالله وهو يأبى طاعتهما؛ كل ذلك من عزم الأمور، وبيان التشارب والتواصل والتراحم بين المعانى المكونة للسورة من أخفى وأكرم أسرار البيان.

وقد ابتدأت العنكبوت بأشد ما تبتدئ به سورة، وهو قوله تعالى ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ والاستفهام للإنكار والتوبيخ وفيه إشارة إلى التجهيل وإلى أنهم يَسْتَخِفُّون بأمر الإيمان، وأنهم يظنون أن قولهم آمنا هو تحصيل الإيمان، وجهلوا أن وراء ذلك الابتلاء والافتتان حتى يعلم الله الذين صدقوا ويعلم الكاذبين، حتى يعلم ما علمه فى الغيب، وهو قائم فى الشهادة، لأن الله سبحانه يعلم ما كان وما يكون قبل ما كان وما يكون، وهو سبحانه يعلم الصادقين والكاذبين من غير حاجة إلى ابتلاء وإنما يخاطب الناس بما ألفوا من أساليب الخطاب، وفى نَفَس هذا المطلع المنذر بالابتلاء المميز للصادقين والكاذبين، تأتى هذه الوصية التى ابتلى فيها من آمن بابتلاء شديد هو مجاهدة والديه له ليشرك بالله ما ليس له به علم، وهو فى معمعة هذه المجاهدة يسمع صوتًا يناديه ﴿لَا تُطِعْهُمَا﴾ وفى الآية الأسبق لهذه الآية فى العنكبوت ﴿وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ﴾ وكأنها تُهَيِّئ إنسان الوصية، وتقول له إن مجاهدتك لوالديك إنما هى مجاهدة لنفسك، وبعد هذه الآية فى السورة قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾ وهذا هو النموذج المقابل للكريم الذى فى الوصية والذى أوذى فى الله ولم يجعل فتنة الناس كعذاب

الله، وثبت على إيمانه، وكان إيذاؤه من أقرب النـاس وهما والداه، وهذان فى الدنيا همـا الرحماء كمـا قال شوقى، وقد أُمِرَ بـأن يصاحبهمـا فى الدنيا معروفًا وظلم ذوى القربى أشد مضاضة، وهو مكفوف من أن يرمى وإذا رَمَى أصابه سهمه، وأصابه غضب ربه وإن جـاهداه ليشرك به سبحانه وتأمل قوله تعالى: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ﴾ كأنها نزلت الآن لأنها بَلْسم لواقع يعيشه من ينصرون الله ورسوله، وهم يواجهون القَمْع والظلم والحبس وما لا يوصف من الجهلة الفجـرة الأغبياء الذين يحادُّون الله ورسوله، ويختزلون الإسلام العظيم فى عبادة الرجل فى بيته أو فى مسجده، ولا يَقْبل الله ناصرًا يَنْصر دينه إلا ناصرًا واحـدًا وهو الذى تَجرَّد تجرُّدًا كاملا لابتغاء وجه ربه ﴿وَمَا لأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ (١٩) إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَىٰ (٢٠) وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ ذكرت مناسبة ذكر آية الأحقاف ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا﴾ لسياقها وأنها مثال وصورة حيَّة للذين قالوا ﴿رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾، وأن الذين قالوا ﴿رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾، من تمام معنى الآيـات التى ابتدأت بقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الأَرْضِ﴾ لأنها الوجه المقابل لهؤلاء الكذَّابين المراوغين، وأن الآية جاءت أيضًا فى عقب ذكر أصـحاب الجنة لأن أقـرب الخلق إلى أبواب الجنة هم أهل البـر بالوالدين لأن البر بالوالدين ذكر فى الكتاب العزيز مقترنا بالتوحيد وهو أفضل الأعمال ولا تَسْبِقُه إلا الصلاة لوقتـها، لأن الصلاة عمود الدين، وأقرب أهل النار إلى النار هم العـاقـون للوالـدين وأسـوأ الأعـمـال بَعْـدَ الشـرك بالله هو عـقـوق الوالدين، وهذا موقع هذه الآية فى سياقـها كما رأيته، ومن المفيد أن تذكـر شيئًا مما قاله كبارنا فى هذا الباب من الذين نأخذ عنهم العلم ومن الذين هدى الله بهم وفَتَـحوا الأبواب المغلقـة لمن يأتى بعـدهم ومن الذين فتح الله لى البـاب بأيديهم الإمام الرازى، قـال رحمه الله: «واعلم أنه تعـالى لما قرر دلائل التوحيـد، والنبوة وذكر شُبُهـات المنكرين، وأجاب عنها، ذكر بعد ذلك طريقة المحقِّـين والمحققين،

فقال ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾»، انتهى كلام الرازى وفيه فتح ظاهر للباب الذى دخلته وقد سألت سؤالا بعد كلام الرازى وهو لماذا جاءت صورة هذه الوصية بعد قوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ وكان من الممكن أن تسلك آية ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ التى فى الأحقاف طريق أختها التى فى فصِّلت، أو أى طريق آخر فلماذا تعين هنا ذكر الوصية؟ وكان الجواب هو ما بيَّنْته. وذكر الطاهر وجهين لمناسبة آية ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ﴾ لما قبلها، وعقب عليهما بأنهما ليس فيهما مقنع، ثم ذكر الوجه الذى يراه.

الوجه الأول ما رواه القرطبى عن القشيرى وهو كما صاغه الطاهر أن وجه اتصال الكلام بعضه ببعض أن المقصود بيان أنه لا يَبْعُد أن يستجيب بعض الناس للنبى ﷺ ويكفر به بعضهم، كما اختلف حال الناس مع الوالدين، انتهى كلام الطاهر.

والوجه الثانى ما رواه الطاهر عن ابن عساكر وهو أن الآيات السابقة ذكرت التوحيد والاستقامة، ثم عطف عليها الوصية بالوالدين لتقترن الوصية بالوالدين مع التوحيد، والاستقامة، لأن هذا من شأن القرآن يعنى اقتران البر بالوالدين بتوحيد الله سبحانه كما فى قوله جل شأنه ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ ومثله كثير فى الكتاب وهذا والذى قبله قريب ويحتمله لفظ القرآن وقد رأى الطاهر وجهًا آخر ملخصه أن المقصود ليس آية التوحيد وإنما الآية بعدها ﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا﴾ حوار الولد الكافر لأبوين مسلمين، وقد مهدت آية الوصية التى هى بر ولد صالح بأبويه ودعائه لهما وشكره الله على ما أنعم به عليه وعليهما وإنما المقصود حوار الولد الكافر لأبوين مسلمين لأن هذا الحوار هو الذى عرض فيه ضلالهم وقولهم فى البعث أساطير الأولين وهو من تمام قولهم فى القرآن ﴿إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ ولذلك رأى الطاهر وصل هذا بكلام أهل الضلالة، وما داخل هذا إما أن

يكون من باب التهيئة والتقديم أو من باب الاعـتراض وكتاب الطاهر مشحون بمثل هذا وأقول أيضًا إن الآيات تحتمل هذا التوجـيه والقرآن حمال أوجه وكل ما يحتمله لفظ القرآن لا يجوز دفعه لأنه معنى من معانيه.

والذى يحسن أن أنبه إليه هو أنه جـرى فى كلام الطاهر قوله «وصيغ هذا فى أسلوب قصة جدال بين والدين مؤمنين وولد كافر، وقصة جدال بين ولد مؤمن ووالدين كافـرين لأن لذلك الأسلوب وقعا فى أنفس السامـعين» انتهى كلام الطاهر، ولم أعرف الموطن الذى استـخرج منه الطاهر أن الحوار فى آية الوصية كان بين ولد مؤمن ووالدين كافـرين؟ هل هى المقابلة التى كان طرفها الثانى حـوارا بين ولد كافـر وأبوين مسلمين فـاقتضى هـذا أن يكون السابق حوارا بين ولد مؤمن وأبوين كافرين؟.

ثم أين الجدال فى آية الوصية؟ ليس فـيها إلا الدعاء لوالديه وليس للوالدين صورة فى آية الوصـية وليس لهـما كلام فـيها وإنما ولد صـالح يقول ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ﴾ والنعمة التى أنعمها الله عليه وعلى والديه أعلاها وأسـماها هى نعمة الإيمان ولو كـان الوالدان حرما منها فأى نعـمة أنعمهـا الله عليهما يدعـو الله أن يوزعه على شكرها؟ ونحن منهيُّون عن الدعاء لمشرك ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [التوبة: ١٣].

وآية لقمان فَصَّلَتْ بين الأبوين المؤمنين والأبوين المشركين فقوله تعالى﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ يعنى الأبوين المؤمنين لأن شكر الله لهـما يعنى أنهـما من أهل الشكر الذى جـاء مقابلا لـلكفر فى قولـه تعالى ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧].

وقوله سبحانه فى لقمان ﴿وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ وهذا واضح فى وصف أبوين مشـركين لأنه سبـحانه نهى عن

طاعتهما وأمر بمصاحبتهما فى الدنيا معروفًا، ولم يأمر بالشكر لهما، وهذا واضح إن شاء الله.

قوله سبحانه ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا﴾ هذه الواو واو استئناف لأن الذى بعدها معنى مستأنف يبين لنا وجهًا من وجوه الاستقامة، التى صار إليه من قالوا ﴿رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ والتى انتهت بهم إلى أن يكونوا من أصحاب الجنة وهذه الوصية تمثل هذا الوجه لأنها تعنى أمرًا أمره الله فأنفذه العابد المنْقاد لأمر ربه فالاستقامة المفْضِيَة إلى الجنة هى الانقياد لأمر الله ونهيه، وإنفاذ وصية الله والاستجابة الـمُحِبَة والودودة لما أمر به ربنا جل وتقدس، وهذا هو الأصل المشترك بين آية الوصية هذه وما شابهها من فعل الأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى والأمر بالصلاة وبالصيام وبالحج وبالجهاد وغير ذلك مما أمر الله به، ثم يقاس عليه النهى، والأصل فى كل هذا سمعنا وأطعنا، ثم تَزْدَاد آية الوصية هنا أنها أوصت بأقرب القربات، وأحبها إلى الله سبحانه وتعالى؛ لأنه هو الذى جعل بر الوالدين قرينًا لوحدانيته وجعل صلة الأرحام عامة قرينا بتقواه فى قوله تعالى ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِى تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ﴾ [النساء: ١].

ويلحق بهذا الاستئناف ويدخل فيه الوجه المقابل لآية الوصية وهو ﴿الَّذِى قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِنِى أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِى﴾ لأن هذا النموذج داخل فى الذين أوصاهم الله بالوالدين ولكنه لم يستجب فهو والذى قبله يمثلان ظاهر الذين ﴿قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ وما يقابله وهم الذين لم يقولوا ربنا الله ولم يستقيموا، وهذا وذاك يمثلان الذين كفروا وأعرضوا عنا أنذروا وما يقابله وهم الذين أقبلوا على ما أنذروا وأنفذوا أمر الله والوصية كما قالوا: التقدم إلى الغير بما يعمل به مقترنًا بوعظ والعمل الذى يقدمه الله لنا هو البر بالوالدين والوعظ المقترن به هو ما يحملنا إلى هذا العمل ويُغْرينا به وهو فى الآية حَمَلَتْه أمه كرهًا ووضعته كرهًا. وإسناد الفعل

﴿وَصَّىٰ﴾ إلى ضمير العظمة يكسب هذه الوصية من الجلال والتقدير والتقديس الكثير مما يدل عليه ضمير العظمة الذى فى أول السورة: ﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ فهى وصية العزيز الحكيم الخالق الرازق المحيى المميت، جل وتقدس ومن أنفذها فقد وجد الطريق لائحًا لاحبا له منار يهتدى به يصله إلى صراط الله المستقيم ومن راغ وعاند فقد صار من الذين طمس الله على أعينهم فاستبقوا الصراط فأنى يبصرون.

والمراد بالإنسان الذى وصاه الله كل إنسان مؤمنًا كان أو كافرًا وهذا يشعر بأن هذه الوصية وردت فى كل كتب الله وأنها من شرعنا ومن شرع من قبلنا كحرمة الدماء والأموال والأعراض والنهى عن الظلم والكذب إلى آخر ما اشتركت فيه كل كتب الله واتفق فى البلاغ به كل الرسل عليهم السلام. وقد زاد هذا فى الكتاب العزيز وفى سنة رسول الله ﷺ وزاد بذلك بر الوالدين فى هذه الأمة وقد تَفَرَّدَت بهذه الزيادة وهذا من بركاتها كما قال الطاهر رحمه الله.

والإنسان فى قوله تعالى ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ﴾ خصَّ هذا اللفظ هنا لمعنى جليل وهو أن البر بالوالدين هو جوهر إنسانية الإنسان، وأنك أيها الإنسان حين تعيش فى الناس لا تنسى إنسانيَّتك أى لا تنسى الجانب الإنسانى الذى هو رباط بينك وبين الجنس كله، وغير الجنس أيضًا، لأنك تتعامل مع الناس بإنسانيتك وتتعامل مع الحيوان بإنسانيتك، وجوهرها البر والرحمة وربط ذلك بالوالدين لأنهما الأقرب إليك من جهة ولأن ذلك يعود بك إلى جذرك، الأول الذى هو الإنسان والذى تميز عن المخلوقات كلها، بهذه الإنسانية، وهذا معنى جيد جداً، لأن البر بالوالدين يسقى الروُح الإنسانية فى كل إنسان فيتراحم مع الخلق جميعًا، بل ويتراحم مع الحيوان والطير وكل ذى كبد رطبة وغير رطبة، فإذا انحرف الإنسان عن هذا لم يكن مخلوقًا عاصيًا فحسب وإنما يكون مخلوقًا مخلوعًا من إنسانيته، وحين يَتَبَيَّن لك هذا المعنى من لفظ الإنسان فى مواقعه فى الكتاب العزيز تجد له مذاقًا حسنًا جداً ومن ذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلاقِيهِ﴾ [الانشقاق: ٩]

هذه الجملة تشمل حياة الفرد من يوم أن يولد إلى يوم أن يموت، وتقول له لا تنس إنسانيتك فى غمرة هذه الرحلة وكن إنسانًا فى كل لحظة حتى تَلْقَى الله وأنت ممسك بهذه الروح الإنسانية التى هى فطرتك التى فطرك الله عليها، وهذا معنى جيد والجملة التى معنا تقول من وجه آخر وصيَّنا الإنسان بما أودعناه فى فطرته لأن الله سبحانه وتعالى يوصينا بما فَطَرَنَا عليه أوصانا بالبر؛ لأنه فطرنا على البر بالوالدين، وأوصانا بالعدل لأنه فطرنا على حب العدل، ونهانا عن الظلم لأنه فطرنا على كراهية الظلم، وأوصانا بالحق لأنه فطرنا على حب الحق، ونهانا عن الزور لأنه فطرنا على كراهية الزور، وكأن كل أمر الله ونهيه يستهدف اعتدال الفطرة واتّساق السلوك معها، ومعرفة الله هى الفطرة واتساق السلوك معها هو الاستقامة وهذا من معنى قوله تعالى ﴿**قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا**﴾ أى رجعوا إلى الفطرة وأقاموا سلوكهم عليها، والدين هو فطرة الله التى فطر النفوس عليها وقد قُرئت الآية ﴿**وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا**﴾ كما قرئت حسنًا والإحسان ضد الإساءة، والحسن ضد القبح والوصية بالإحسان نهى عن الإساءة، كما أن الوصية بالحسن نهى عن القبح، وقد أوصى الله بذلك كلِّه، والإساءة المنهى عنها ليست فقط الإساءة المباشرة لهما، وهذا شنيع جداً وقد تكون الإساءة لهما بأن تسيئ إلى من يسوؤهما أن تسيئ إليه. كإساءتك لأخيك أو أختك أو عمك أو عمتك أو خالك أو خالتك كما أن منها أن تكون سيرتك فى الناس سيرة تسوؤهما، وهذا يَعْنى أن الإحسان إليهما أن تحسن فى أشياء كثيرة، وألا تسيئ فى مجالات كثيرة، وكأن الوصية بهما وصية لك فى أمرك كله، حتى إنها تشمل نجاحك فى عملك وفى حياتك؛ لأن هذا من الإحسان إليهما، ونقيضه أن تفشل فى حياتك أو عملك لأن هذا من الإساءة إليهما، ومعانى القرآن تبدو أحيانًا مَعْنًى محدودًا فإذا تدبرته وجدته متسعًا جداً، فالكذاب مسيئ إلى أبويه، والمنافق مسيئ إلى أبويه، وشاهد الزور مسيئ إلى أبويه، وهكذا، ومثل هذا قراءة ﴿**حُسْنًا**﴾ بضم الحاء وفتحها والحسن الجميل المحسَّن المزين الموشَّى

والمجمَّل، وهذا وإن كان قريبًا جداً من الإحسان إلا أن فيه شيئًا زائدًا وهو أن يتخير من القول ما هو أجمل، وأحسن وأرفع وأن يبتعد عن الكلمة النابية، والسلوك الخشن، وأن يجانب القبح فى كل ما يأخذ ويدع، وأن يتخيَّر الأجمل والأحسن والأزين ولا يتصور أن يكون حسنًا مع الوالدين وقبحًا مع الناس لأن قبحه مع الناس سيسوء الوالدين، وكأن الوصيَّة تنتهى إلى أن يدخل فى قول رسول الله ﷺ «**إن أحبكم إلىّ وأقربكم منى مجلسًا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقًا، الموطؤون أكنافًا الذين يألفون ويؤلفون**» وهؤلاء هم أهل الحسن والإحسان، وانتصاب إحسانًا أو حسنًا يجوز أن يكون مصدرًا ملاحظا معنى الفعل ﴿**وَصَّيْنَا**﴾ لأن الوصية فيها معنى الحسن والإحسان ولو قلت ﴿**وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ**﴾ وسكت لفهم أن الوصية وصية خير وحسن وإحسان، وقالوا يجوز أن يكون منصوبًا على أنه مفعول لوصينا لإشرابها معنى ألزمناه، والوجهان صحيحان ولكل ظل من المعنى يتميز به، فالقول بإشراب الوصية معنى الإلزام وراءه إشارة إلى أن مخالفتها تَسْتَوْجب الغضب الأشد لأن الله ألزمنا بهذا الإحسان ومن تخلَّى عن ما ألزمه الله به فقد خالف ونازع، ولوقلنا إن الوصية متضمنة معنى الحسن أفاد ذلك أن الوصية يسكنها الحسن وفرق بين وصية يسكنها الإلزام ووصية يسكنها الحسْن والإحسان، الوصية التى يسكنها الإحسان تعوِّل فى إنفاذها على معنى المودة والتراحم بدل الإلزام.

وإذا تأملت غضب الله على من يخالف هذه الوصية وجدته فى حقيقته غضبًا يقترب به الحق من خلقه لأن الغضب من الولد لتقصير الولد فى حق والديه هو غضب من هو أرحم بوالديه منه، والعاقل الكريم هو الذى يقترب ممن يغضب لوالديه، لأنهما لحمك ودمك، والحق سبحانه يحذرك من أن تسيئ إلى لحمك ودمك، ونعم هذا التحذير ونعم هذا الغضب، والخلاصة أن الله سبحانه يقف مع والديك الضعيفين، ويناديك ألا تتخلى عنهما ولو كانا كافرين، وقوله سبحانه: ﴿**حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ**

شَهْرًا﴾ جملة ﴿وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ معطوفة على جملة ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا﴾، وجملة ﴿حَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرًا﴾ ليست معطوفة على التى قبلها ﴿وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ وإنما هى معطوفة على جمله حملته كرهًا وما عطف عليها، لأن الجملة الثالثة تبين معنى مترتبًا على الجملة الأولى وما عطف عليها، وليس مترتبًا على الجملة قبلها، وهذا باب من فقه البيان، فيه من الدقة والخفاء، واللطف ما يوجب العنايه به.

وهذه الجمل الثلاث تشكل معنى واحدًا هو علة لهذه الوصية وحث على الوفاء بها، وبيان لحق الوالدة على الولد، وفيها إشارة إلى أن صاحب المروءة لا يضيع عنده معروف وأن صنائع المعروف لا يضيع إلا عند اللئام، لأن الكريم لا يأكل المعروف سحتًا ولا تشحب عنده بيض الأيادى، والآية الكريمة وإن كانت تتكلم فى وجوب الوفاء بحق معروف الأم فإنها تُعَدّ نواة لمعانٍ أوسع، وأن حسن المكافأة طبع من طباع الكرام.

والكره: بفتح الكاف وضمها وبكل قرئ معناه أنها وجدت فى حملها له ووضعها ما تكره، من المشقة والألم، وقد تكررت كلمة ﴿كُرْهًا﴾ لتحقيق معناها لأنه المقصود، وكان يمكن أن يقال حملته ووضعته كرهًا، وإنما أرادت الآية أن هذه الأم التى توصى الآية بها عانت كرهين لا كرهًا واحدًا، وفى سورة لقمان جاء الوَهْن بدل الكره فقال سبحانه ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾ ولم يذكر الحمل ولا الوضع فى العنكبوت، والقول فى بيان أسرار ذلك صعب والقولِ فيه من غير علم أصعب وتركه أسلم وليس أحكم وليس علىَّ ولا عليك من حرج إذا ذكرتُ ما يبدو لى ولو كان خيطًا كالخيط الأبيض والأسود الذى يتبين من الفجر لأنه حين نفتح بابه ويلتفت إليه غيرنا من أصحاب المواهب لا يلبث أن يفيض وتذهب غشاواته كما فاض الضياء بعد الخيط الأبيض.

والذى عندى هو أن الحمل لا يكون وهنا مرة وكرهًا مرة وإنما هو وهنٌ وكره فى كل حال مع ملاحظة أن المراد بالكره ليس ضد الحب لأن المرأة تحب أن تحمل

وأن تكون ولودًا وتسر بذلك وتكره أن تكون عقيمًا وإنما المراد أنها تجد من الألم والمشقة ما تكره، فإذا قالت لقمان ﴿وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾ فقد ذكرت وجهًا هو أدوم لأن الوهن لازم للحمل لا ينفك عنه، وهى أول آية نزلت وهى جديرة بأن تذكر الأصل، وإذا ذكرت الأحقاف الكره فقد ذكرت وجهًا ويلاحظ أن الكره يعنى المشقة قد يكون فى الوقت بعد الوقت بمعنى أنها قد تستريح لبعض الوقت من المشقة لأنها أحيانًا تكون كأنها نوبات تنتابها، ومجىء الكره فى الأحقاف ربما كان لأن آية الأحقاف ليس لها إلا مقصود واحد وهو أنها تعطف قلب الولد على والدته، لأن الولد بر صالح والأم مؤمنة من الذين أنعم الله عليهم غير المغضوب عليهم وذكر مشقتها وألمها فى حمله أقرب إلى انعطافه نحوها، هذا هو الخيط الذى بدا لى فى الأحقاف والخيط الآخر بدا لى فى العنكبوت وهو أن آية العنكبوت ذكرت فى سياق الافتتان ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ﴾ والمقصود الأظهر فيها أنه سيُؤذَى فى الله وكان إيذاؤه من أحب الناس إليه وهو مجاهدة والديه له لِيُشْرِكَ بالله ما ليس له به علم وليست الآية فى حاجة إلى أن تُذكِّرَ الولد بحمل أمه له ورضاعها له لأن القضية ليست هى عطف الولد وإنما القضية هى صَبْرُه على إيذاء ذوى القربى. والذى فى حاجة إلى ترقيق القلب فى هذا المقام هما الوالدان لأن الاعتداء جاء منهما، ولهذا انتقلت الآية بعد الوصية إلى ﴿وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي﴾ [العنكبوت: ٨] لأن الله سبحانه يُوصِى بالوالدين، من حيث هما والدان وليس من حيث هما مؤمنين، وهذه قيمة هذه الوصية المتجهة إلى الإنسان من حيث هو إنسان، ثم إن آية العنبكوت كانت آخر الآيات الثلاث نزولا ولك أن تقول إنها اكتفت بذكر الحمل والرضاع فى الآيتين السابقتين، ولك أن تجمع بين هذا والذى قلناه ولك أن تضيف ما ترى ولو كان خيطا كالخيط الأبيض الذى يتبين من الخيط الأسود، نعم أقول لك عليك أن تضيف هذا الخيط بشرط أن تراه.

قلت إن لقمان أول ما نزل وأنها ذكرت الوهن الذى هو الأصل وأشارت إلى الأبوين المؤمنين فى قوله سبحانه ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ﴾ [لقمان: ١٤]، والكافرين فى قوله: ﴿وَإِن جَاهَدَاكَ﴾ ولم تشر العنكبوت إلى المؤمنين لأنها ليس فيها ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ﴾ وإنما انتقل الكلام من الوصية إلى قوله ﴿وَإِن جَاهَدَاكَ﴾ وفى لقمان انتقل من الوصية إلى ذكر حال الأم فى الحمل والفصال، ثم قالت الآية ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ﴾ وهذا هو تفسير وبيان الوصية، والمؤمن لا يشكر للكافر، لأنه ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ﴾ [التوبة: ١١٣] هذا ما عندى والله أعلم.

قوله سبحانه ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾ الفصال كالفطام معنى ووزنا، والثلاثون شهرًا ليست مدة الحمل والفصال، وإنما هى مدة الحمل والرضاع، وعبر عن الرضاع بالفصال الذى هو الفطام لأن الفصال نهاية مدة الرضاع وبينهما مجاورة شديدة فجاز التعبير عن أحدهما بالآخر لأجل هذه المجاورة، والقيمة المعنوية المرادة هى الإشارة إلى أن هذا هو الأصل فى الحمل والرضاع وأنه إذا انتهت الثلاثون فالأصل الفصال ويشبه هذا ويخالفه قوله تعالى: ﴿وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ﴾ [النساء: ٢] والقاعدة الشرعية أن اليتيم لا يُؤتى ماله إلا إذا بلغ رشده، والبالغ الرشد لا يقال له يتيم، وإنما قيل له يتيم باعتبار ما كان كما قيل للرضاع فصال باعتبار ما سيكون. هذا ما تشابها فيه، ثم اختلفا فى أنه أطلق لفظ ما كان مع ما سيكون فى آية اليتيم للتنبيه على أنه إذا بلغ رشده فلا تؤخروا ولايتهُ على ماله، وأطلق لفظ ما سيكون على ما كان فى آية الوصية للإشارة إلى أنه إذا بلغ نهاية المدة فقد انتهت ودخل فى طور آخر وهو الفصال، وهذا جيد.

وإذا وضعنا آية البقرة ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾ [البقرة: ٢٣٣] بإزاء هذه الآية دلنا ذلك على أن أقل مدة

الحمل ستة أشهر، وإذا راجعنا استعمال كلمة فصال موضع الرضاع أكَّد لنا ذلك أن الستة أشهر لا تدخلها ريبة لأن الآية أكدت الثلاثين شهرا بذكر الكلمة الدالة على ما بعدها، التى هى الفصال وقد كان العرب إذا ولدت المرأة بعد ستة أشهر أرضعوا المولود حولين كاملين فإذا ولدت بعد سبعة أشهر أرضعوه حولين إلا شهرًا وإذا ولدت بعد ثمانية أشهر أرضعوه حولين إلا شهرين وهكذا.

وقد جاء رجل إلى عثمان بن عفان رضى الله عنه وأخبره أن امرأته ولدت بعد ستة أشهر فدعا عثمان المرأة وأمر برجمها فلما علم علىٌّ كرّم الله وجهه جاء إلى عثمان وقال له: أما تقرأ القرآن؟ قال بلى. قال أما سمعت قوله: ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرًا﴾ وقال ﴿حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾ فلم تجده يعنى إلا ستة أشهر فرجع عثمان إلى ذلك.

وآية لقمان لم تجمع زمن الحمل على زمن الرضاع كما جمعت آية الأحقاف وإنما ذكرت أن حمله وهنا على وهن وأن فصاله فى عامين فلم تذكر مشقة الحمل ولا مشقة الوضع ولم تجمع وإنما ذكرت حالة الحمل وأنها كلما تقدم حملها زادها وهنا على وهن وذلك لاختلاف السياق؛ لأن الأحقاف تعطف قلب ولد صالح على والدين صالحين فذكرت تمام المشقة التى تواجهها الأم وجمعت وأن الألم والمشقة سميا كرها مع أن الحمل أحب إليها من كل شيء للإشارة إلى أنه ألم شديد فيه ما يكره، أما آية لقمان فإن الوالدين فى نصف الآية الأول مؤمنان لأن الله قال: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ﴾ وفى النصف الثانى كافران لقوله تعالى: ﴿وَإِن جَاهَدَاكَ﴾ فلم تتمخض الآية لدفع الولد نحو البر وإنما هو بَرٌّ وهو أيضًا يجاهدهما فى دفع ما يدفعانه إليه، وهو الشرك، الذى ذكرت الآيات قبلها أنه ظلم عظيم ومن رحمة الرحيم الرحمن أنه يدخل بينك وبين أبيك وأمك ويوصيك بهما ويَعِدُك بأن تكون من أصحاب الجنة إذا أكرمتهما مع أن إكرامهما واجب عليك توجبه المروءة،

وقرابة الدم، والوفاء، والجزاء بالمعروف، وكل ذلك من الفطرة وأنت فى برك وإكرامك تفعل الواجب عليك ولا ينتظر الكريم شكراً على واجب ولكنك تفاجأ بأن الله سبحانه يقول لك إن برك بهما هو أفضل العبادة بعد الإيمان بى، وأن البر درجته عندى فى أعلى الدرجات لأن البر من أفضل الأعمال، يعنى أن الله يكافئك عن أمك وأبيك ويعطيك أجر خدمتهما من خزائنه هو وكأنه ناب سبحانه عنهما لا ليكافئ الغرباء وإنما ليكافئ أقرب الناس إليهما.

أرأيت الرحمة كيف تتغلغل؟ ذكرت هذا وكررته لأنه معنى لا يشبع منه ذو مروءة.

وعكس هذا يحدث لأن الله سبحانه يغضب لهما، والأصل أن تغضب أنت لهما ولكنك حين تكون خسيسًا نَدْلاً وجدت الله يقف فى وجهك ويقف معهما ويجعل عقوق الولد فى منزلة تلى منزلة الكفر بالله، فليس بعد الكفر بالله ذنب أقرب إلى شدة الغضب والمقت من العقوق، وهكذا نجد الحق يدافعك ويدفع عن أبويك وهو فى الحقيقة يدافع مكانك لأن الأصل أن تدافع أنت عن أبويك فلما تخلّيْت دافع هو سبحانه، وتأمل وراجع لأن هذه معانٍ لها أغوار وقد اكتفينا بعرض ظواهرها، وهى من أرفع التجليات الإنسانية فى هذا الدين العظيم.

وإذا راجعت قليلا وجدت وجود ربك بينك وبين والديك صورة وإن كانت عالية فهى واحدة من منظومة متُسعة لأنك تجد الله مع المظلوم فى مواجهة الظالم ومع المكذوب عليه فى مواجهة الكاذب، ومع المضرور بشهادة الزور فى مواجهة شاهد الزور، ومع الشعب المغلوب على أمره فى مواجهة الظالم الباغى، ومع المقموعين في معتقلات التعذيب لأنهم عارضوا الظلم والظالمين، وهكذا تجد أن الله دائمًا بين خلقه، لأنه خلقهم وهو يرعاهم وأنزل فيهم أمره ونهيه، وهو محاسبهم على ذلك كله، ولكن البر هو قمة هذه المنظومة كما قلت. وقد ذكرت الآيات ما عانته الأم ولم تذكر شيئًا

مما عاناه الأب وقد عانى التربية والمعيشة وربما كان والدا فقيرًا يكدح ويشق على نفسه ليوفر لولده ما يعيش به، قلت ذكرت الآية ما تعانيه الأم لأنها أولى بالحظ الأوفر من البر، ويأتى الوالد بعدها، ثم إنها هى الأضعف والأقل حيلة إذا علت بها السِّنُّ ثم إن الولد ينشأ فى كنف أبيه ورعاية الأب له ظاهرة يراها طفلا ويافعًا وشابًا وذلك بخلاف معاناة الأم التى ذكرتها الآية وهى الحمل والرضاع فإن ذلك مما لا يدركه الأولاد وهو مما يتوه منهم، ولم تتكلم الآيات عن معاناة الأم بعد ذلك فى رعايته وإعداد طعامه وثيابه ومرقده وغير ذلك، لأنه من باب ما يعانيه الأب يعنى هو معلوم يدركه الأولاد وينشأون فى كنفه.

ولو ضَمَمْتَ هذا الكلام عن الأم إلى ما أوصى به القرآن من المودة والرحمة فى معاملة الزوجة، وإلى ما أوصى به رسول الله ﷺ بالنساء خيرًا لوجدت أنه من السخف أن يطالبَ أحد بحقوق المرأة على النسق الأوربى المسيحى لأن هذه الحقوق فى الإسلام وراءها ربُّ العالمين برحمته التى وسعت كل شىء، وبغضبه الذى لا يقوم له شىء فى الأرض ولا فى السماء، والمشكلة أننا نقرأ ما فى الثقافة الأوربية ولا نقرأ ما فى الثقافة الإسلامية، واجمع كل النساء اللائى فى مجلس حقوق المرأة واسألهن ماذا قرأن فى دين الله؟ وابدأ بالرأس ولن تجد شيئًا. ألْسنَةٌ ببغاوات تحكى ما تسمع من هناك، ولا تعقل الذى على أرضها، وقوله سبحانه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾.

الآية ذكرت الأشدَّ، وذكرت الأربعين، وقد فُهِمَ من هذا أن الأربعين نهاية الأشد وأن الأشد ما كان بعد الثلاثين إلى الأربعين.

وكلمة ﴿بَلَغَ أَشُدَّهُۥ﴾ معناها الذى تدل عليه اللغة أنه بلغ أعلى مراتب شدته وقوته وقد قدَّر الناس أن ذلك يكون من الثلاثين إلى الأربعين فليس دلالة هذه الجملة على الزمن دلالة حقيقية، وإنما هى دلالة لزوم لأن الأشد لازم لهذا الزمن؛

هذا شيء والشيء الآخر وهو الأهم أن كلمة الأشد كلمة مطلقة يعنى لم يقيد الأشد بالشدة فى جسمه، أو فى عقله، أو فى تجربته، وحكمته، وإنما أطلقت لتشمل كل ما تصل إليه طاقاته حتى فى سمعه، وبصره، ووعيه، ومنطقه، وكل ما من شأن الإنسان أن يكون به أكثر اكتمالاً وأكثر نُضْجًا، وأكثر حكمة.

وكلمة حتى التي ابتدأت بها الجملة تدل على الغاية التى تنتهى عند بلوغ الأشد وأنه إذا بلغ أشده قال كذا وكذا، ووراء هذه الغاية أزمنة ومراحل مطوية من العمر لم تتحدَّث عنها الآيات من الطفولة والصبا وشرخ الشباب والمراهقة وغيرها، وقد لاحظت أن القرآن الكريم يطوى هذه المراحل فى آيات كثيرة، كما فى آية الحج ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ﴾ [الحج: ٥] فقد ذكرت الآيات خلقنا من تراب، ثم من نطفة، ثم من علقة، ثم من مضغة، إلى أن قال تعالى: ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ﴾ [الحج: ٥]، فانتقلت الآية من الولادة إلى بلوغ الأشد، ومقام آية الحج مختلف عن مقام الأحقاف، والمقصود فى الحج إزالة الريب عن البعث، فذكرت الآية مراحل الخلق مبتدئة بالتراب، ثم من نطفة، وأن الذى أوجد هذا فى مراحل مختلفة على وجه من النظام، والإتقان، قادر على أن يُعيده، ولا مَجَالَ هنا لحمل ولا كره والآيتان اتفقتا فى بلوغ الأشد، آية الأحقاف تحدثت عن ألم الأم الحامل؛ لأن القصد عطف قلب ولدها عليها، وآية الحج تحدّثت عن الذى هو داخل هذه الأم الحامل، وسكتت عنها لأن المقصود هو أطوار الخلق التي تتواتر داخل هذه الأم، وأن من أنشأها قادر على أن يُعيدها وهو أهون عليه.

وقد ذكر العلماء وجوها فى سرِّ انتقال الكلام من الفصال إلى الأشد منها أن الولد الصالح فى زمن الأشد قد يكون مشغولاً بالصاحبة والولد. ومنها أن زمن الأشد هو زمانه الذى يرجع فيه إلى ربه بعد ما ذهبت جِدَّةُ الشباب الذى هو مطية الجهل.

ويمكن أن يقال إن زمن الأشد يعنى أنه قد تطاول زمن برِّه ورعايته ففترت نفسه وحسب أنه قد وفّى.

وأرى فى الآية وجها آخر لم أقرأه فيما بين يدى من كتب وهو أنه ليس فى الآية ما يفيد أنها حاثة على البر فى زمن الأشد خصوصًا حتى يقال إنه مظنة أن تشغله صاحبة وولد وإنما الذى فى الآية هو الوصية بالوالدين ثم الانتقال إلى زمن الأشد الذى قال فيه ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ﴾، وأفهم من هذا أنه قد وفَّى وصية ربه وهو الآن يشكر الله أن أنعم عليه بأداء ما أوجبه الله عليه فى هذه الوصية وإنما عَمَّم وذكر النعم كلها لأن هذا هو الأصل فى الشكر ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧] ولم يبيِّن لنا ربنا النعمة التى نشكره عليها وإنما نشكره على نعمه كلها فإذا أنعم الله علينا بالعافية بعد المرض، شكرنا الله على نعمه ومنها نعمة العافية بعد المرض وإنما قال هذا بعد الأشد وبعدما تجاوز أيام المراهقة والشباب والنزق والجموح وهو فى كل ذلك يؤدى وصية ربه ويبر بوالديه فإذا سلم من التقصير فى خطوات العمر التى هى مظنة العثرات فقد أمن التقصير بعد بلوغ الأشد وهو الآن يتجه إلى الذى منه الخير كله والذى أوصاه بوالديه حسنا والذى أعانه على الحسن والإحسان لوالديه والمعنى فيما أفهم ووصينا الإنسان بوالديه إحسانا فأحسن حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة قال...، ومن الملاحظ أن الآية الكريمة لم تُشر إلى أى مظهر من مظاهر البرِّ كأن تذكر أن أحدهما أو كلاهما علَتْ سِنُّه ووهنت عظامه فأعانه ولده أو أنه أصابه العوز والحاجة فوجد ولده بجانبه يكفيه حاجته أو مرض فقام على رعايته، كل هذا مسكوت عنه فى الآية ومطوى تحت قوله: ﴿أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾ لأنه لو كان واجه مع أبويه موقفًا من هذه المواقف وقصَّر لاستحى من الله أن يقول له ﴿نِعْمَتَكَ الَّتِي

أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾ وإنما كان يقول رب اغفر لى ما قَصَّرْتُ فيه، ومن شأن العبد الصالح أن يذكر ما قصّر فيه قبل أن يذكر ما أنعم الله به عليه فيما وفّى فيه.

وكلمة ﴿إِذَا﴾ للشرط فى المستقبل والماضى بعدها بمعنى المضارع وإنما جيء بالمضارع فى صورة الماضي للإشارة إلى أن ذلك كائن لا محالة وأنه إذا يبْلغ الأشد يقول رب أوزعنى، وهذا الكلام وإن كان وصفا وإخبارًا لما سيكون منه هو في الحقيقة توجيه له بفعله وأن الله سبحانه يدعوه إلى أن يقول رب أوزعنى أن أشكر نعمتك إذا بلغ الأشد وبلغ الأربعين وأن الشأن فى مثله أن يسارع فى الاستجابة لتوجيه ربه حتى يكون الذى للوقوع كأنه وقع. وقوله: ﴿أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ﴾ يقال أوْزع الله فلانا، إذا ألهمه الشكر؛ وأوزعنى أن أشكر نعمتك ألهمنى شكرك حتى أكون مولعا به، وفرق كبير بين أن يلهمنا الله شكره وطاعته وأن يجعلنا مُولعين بشكره وطاعته، والمناسب للعبد الصالح الذى أوصاه الله بوالديه فأنفذ وصية الله والذى بلغ الأربعين أن يتجاوز طلب التوفيق للطاعة إلى طلب أن تكون الطاعة قُرّةَ عين له فرق بين أن تجد مشقة فى العبادة وتصبر عليها، وأن تجد لذّةً ومُتْعةً وغبطة فى تلك المشقة، والولع الذى فى كلمة أوزعنى يفتح باب مقام آخر لهذا الولد الصالح أو قل إن الله سبحانه لما حثّه على ذلك فتح له باب مقام آخر بتلك الكلمة.

والنعمة التي يدعو الله أن يرزقه الولع بشكرها قالوا هى نعمة الإيمان ومعرفة الله وتوحيده وطاعته، وقالوا هى كل ما أنعم الله به عليه وعلى والديه من نعم الدنيا والدين، وهذا هو الظاهر من إطلاق كلمة (النعمة) وشمولها.

وقد فهمتُ من كلام الذين قَصَرُوا النعمة على نعمة الإيمان أن الإيمان بعيد المنال، لأن الإيمان المعتبر هو الذى يتفرد فيه الحق بالكبرياء والعطاء وأنه

لا يملك أحد من أمر الناس شيئًا إلا الذى خلق الناس، وله الملك وحده، وله الحمد وحده، وله الكبرياء وحده، وأن صلاة العبد ونسكه ومحياه ومماته لله رب العالمين، وحين يتحقق هذا ستجد كل شؤون الدنيا قد تحولت وصارت شؤون دين لأن كل تقلبى فى حياتى هو لله رب العالمين، نعمة الإيمان المعتبرة هى التى تكون معك فى مَصْنعك ومَعْملك وتدخل معك درسك وتدخل معك مكتبك وعيادتك وحيثما كُنْتَ كانت النور الذى يهديك، وهذا الفهم للإيمان الذى لا يصح سواه يصير كل شىء يزاوله المؤمن دينا لأنه يراعى فيه الله، ويصير كل شىء عملا صالحا، وتصير الأرض كلها مسجداً وتصير طهور.

وكلمة ﴿ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ ﴾ ترى فيها غِبْطة بالنعمة ونَشْوة بتطويل الكلام ومَطْله، كالذى تراه فى قول موسى عليه السلام ﴿ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ﴾ [طه: ١٨] وكان يكفى أن يقول عصاى، ولكنها متعة الكليم فى خطاب رب العالمين، وهكذا الآية كان يمكن أن يقول أوزعنى أن أشكر نعمتك، وكفى، لأن نعمته تعنى التى أنعمت بها علىّ ولكن العبد الصالح يجد لذة فى خطابه لربه، ويجد نَشْوة فى قوله التى أنعمت بها علىّ لأن هذا مقام ليس بعده مقام، ومثل هذا وعلى طريقته قوله سبحانه: ﴿ رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا ﴾ [آل عمران: ١٩٣] لو قال سمعنا مناديا للإيمان لكان كافيا، ولكنه قال ﴿ يُنَادِي لِلْإِيمَانِ ﴾، ثم فسره بقوله: ﴿ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ ﴾ ثم قال: ﴿ فَآمَنَّا ﴾ وكل هذا فيه من النشوة وتطريب الكلام وَمَطله ما يُشْبِعُ وَلَعَ النَّفْس بهذا المعنى، وكان الوَلَع الذى فى قوله: ﴿ أَوْزِعْنِي ﴾ ما لبث أن دل عليه فى قوله: ﴿ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ ﴾ ولا تجد نفس المؤمن نشوة أو غبطة ورضى ومسرة أعلى مما تجده عند الإحساس بأن الله سبحان وتعالى خصّها بنعمة لا ينعم بها

إلا على من تقربوا إليه فقربهم، ومن دعاهم فأجابوه، وهى هنا نعمة البر أو نعمة الإيمان المفضى إلى البر.

وكلمة ﴿وَعَلَىٰ وَالِدَىَّ﴾ فيها غبطتان؛ واحدة أن الله سبحانه وتعالى خصهما بالنعم التى ينعم بها على الصالحين من عباده الذين رضيهم وأرضاهم، وهذه هى النعمة الأم التى هى أم نعم الله كلها، والتى إذا غابت كانت النعم من غير أم أو من غير رأس، فكانت قميئة بأن تتنافر أو تكون غبية عمياء كالنعم التى ينعم الله بها على من كفر وفجر وفسق.

والغبطة الثانية هى أن سبحانه وتعالى قبل منِّى ومنك ومن كل من قال لا إله إلا الله محمد رسول الله أن يَنُوب عن والديه فى مواصلة العبادة والطاعة، فالشكر الذى هو أرقى درجات العبادة والقرب من الله سبحانه مَدَّ الله فيه العطاء فأجاز للولد أن ينوب عن الوالد فيه، كما أجاز للولد أن ينوب عن الوالد فى قضاء دينْ الله الذى على أبيه وهذه نعمة يَغْفَل عنها كثير من الناس، وفى الحديث «**أن امرأة صالحة من خثعم جاءت إلى رسول الله ﷺ وقالت يا رسول الله إن الله فرض الحج وأبى شيخ كبيرٌ لا يَثْبُتْ على راحلة أفأحجُّ عنه؟ فقال عليه السلام أرأيت لو كان على أبيك دينٌ أكنت قاضية عنْه؟ قالت نعم فقال الله أولى بالقضاء، اللهم ارحم هذه الخثعمية البارة فقد فتحت بسؤالها بابا من أبواب الخير**».

وقوله: ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ﴾ معطوف على ﴿أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ﴾ وكما أن كلمة﴿أَوْزِعْنِى أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ﴾ معناها ألهمنى شكرك واجعلنى مولعا به محبا له مُقْبلاً عليه، كذلك صار الحال مع العمل الصالح الذى يَرْضاه ربه فهو لم يطلب أن يعمل عملا صالحًا فقط، وإنما أن يكون مُحباً للعمل الصالح مولعا به منفذًا أمر الله فيه ليس على وجه التكليف الذى يتطلّبُ منّا الصبر كما قال تعالى ﴿وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ [طه: ١٣٢] وإنما نُنْفذ أمْرَ الله فيها بموفور رَغْبَةٍ

وموفور حُبّ وإقبال ونشاط، وهذه مرتبة نرجو من الله أن نذوق طَعْمهَا ونحن على الأرض قبل الدخـول فى باطن الأرض أعنى نعالج الطاعة مَحَـبَّة وأن نجد قُرّة العين فى كل الذى يرضاه وألاّ نشعر بمشقَّة فى شىء ينير طريقنا إليه.

هذا هو دعـاء الأشـد الذى قطع الرحلة بـنجـاج ولما بلغ الأربعـين وقف والتـفت إلى الوراء فقـال ﴿أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ﴾. ثم التفت إلى الأمـام وقال: ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ﴾ ثم نفذ أكثـر وقال: ﴿وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي﴾ وقد اخـتلفت الدعوة للذريـة ولم تعد شكرًا ولا عملاً وإنما هى معنى عام وهو إصلاحـها المؤدى إلى صلاحها وقال ﴿وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي﴾، ولم يقل أصلح لى ذريتى وإنما جعل الذرية مَوْضِعًا وظرفا ومستقرا للإصلاح، وهذا أبلغ وآكد لأنه إذا كان الإصلاح مُسْتَقِراً فيها كان ذلك أدعى إلى دوام صلاحها وإصلاحها.

ولو نظرت إلى هذا الدعاء من جهة تواصـل الأجيال لرأيت هذا البرَّ الكريم يدعو الله لسلفه وله ولمن يأتى بعده من زرعه يعنى يحرص على استمرار العرق الصالح، وبقاء توارث الصلاح والبر والعمل الصالح فيه؛ ورأس الإصلاح الذى يدعو به لذريته هو الإيمـان بالله لأن هذا هو دعاء الصالحين كـما قال إبراهيم عليه السلام لبنيه فى وصيته ﴿يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [البقـرة: ١٣٢] وكذلك يعقوب عليـه السلام ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٣].

والإيمان فى صـورته التى يعقلها الأخـيار من المؤمنين مُتَّسِعٌ جـداً يلازمه صاحبه فى كل متقلَّبه كما مضى، وكأن الوصيَّة بالإيمان وصية بالدنيا والدين معًا، لأن الدين لا وجود له إلا فى هذه الدنيا، ومن فارق هدى الدنيا بالموت انقطع عمله، وفارقه الدين، ولم ينزل الله كتبه ولم يبعث ملائكته ورسله إلا

لصلاح هذه الدنيا لأنه لا صلاح للآخرة إلا بصلاح الأولى، والعمل الصالح لا مكان له إلا هذه الأرض، وهى مزرعة الآخرة، وإنما كانت الجنة للصالحين على هذه الأرض، وكانت النار للفاجرين على هذه الأرض، ولا منطق لمن يعزل الدنيا عن الدين، والآخرة عن الأولى، ومن لم يؤجر على هذه الأرض فلن يؤجر فى الآخرة، ولا أفهم الدين والإيمان إلا على هذا الوجه، وقد عاش أبو بكر وعمر والصالحون من هذه الأمة فى معمعان هذه الأرض، وتبوؤوا عند الله مكانا أقاموا صرحه بهداية الله وصراعهم للباطل على هذه الأرض ﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥] تأمل كيف جاء النشور الذى هو البعث فى أعقاب المعمان فى مناكبها واستثمار خيراتها وراجع كلام الكذبة الذين يفصلون الدنيا عن الدين.

قلت إن دعاء هذا الصالح دعاء بالغ العمق، وبالغ الأثر والاستشراف إلى المجتمع الصالح، لأنه حريص على استمرار عرق الصلاح والإصلاح، والأصل أن نكون جميعًا مثله، لأنه لم يخصه ربه بالوصيَّة وإنما خص بها الإنسان وقرنها بإنسانية الإنسان، وكان هذا الرجل الصالح هو صوت إنسانية الإنسان فى هذه الآية التى بها وحدها تعمر الأرض، ويصير الوجود وجوداً باراً عامرا بالروح الإنسانية، وليس وجود تَنَازُعٍ وصِرَاع تتصارع فيه الوحوش: كالذى نراه من إفراز الحضارة البعيدة عن الروح الإنسانية والتى يشدنا إليها من يشدنا من الذين جهلوا ما عندنا.

وشيء آخر فى هذا الدعاء وهو ترتيبه، بدأ بالشكر وهو عمل القلب وبه صفاء القلب، وطهره، ونقاؤه وهذا كله يَعُدُّه لمباشرة العمل الصالح، ثم ثَنَّى بالعمل الصالح لأن العمل لا يوصف بأنه صالح إلا إذا صدر عن قلب عامر بالله وبهيبة الحق وجلاله وسلطانه ويستوى أن يكون هذا العمل صلاة أو صَنْعة أو حِرْفةً أو ما شئت من الأعمال التى هى برٌّ كلها، مادام كان الله

حاضرًا فى قلب عاملها فأتقنها، وجـودَّها، وبعد الفراغ من العمل الذى تهيأ له بالشكر والذكـر فأتقنه وحسّنه وجوَّده وصار به من المحسنين استـشرف إلى الجيل القادم فدعا له بالصلاح، والإصلاح، وأن يَثْبتَ ذلك الصلاح ويَسْتَقِرُّ فى تربتهـا، فلا تُنْبِتُ إلا خـيرًا، وقـد ذكر الجيل القـادم وهو يزرع له فى الأرض الذى سيقدم عليها خيـرًا، وعملاً صالحًا، وهذا عمل جليل جداً أعنى أن تزرع الخيـر فى طريق الجيل القـادم، وليست الأنانيـة التى غلبت على قلوب الناس، والتى أنْستهم الغد، وما سيكون فيه، الوصية فى الآية توقظ الروح الإنسانية فى الإنسان، وهى روح شيمتها العطاء لا الأخذ؛ والإيثار وليس الأثرة، ولا يجوز لنا أن نهْمِلَ كلمة ﴿تَرْضَاهُ﴾ التى جاءت فى وصفه للعمل الصالح، وأن الغاية من العمل الصالح هى أن يرضى الله العمل الصالح، فليس المهم فقط أن أعمل عملا صالحا، وإنما المهم أن يرضـاه ربنا ويتقـبله، وتجـد تحت هذه الجملة لوعـة قلب الرجل الصالح لأن أخوف ما يخافه أهل الله رد العـمل، وهم يعلمون أن عوامل كثيرة تحبط عمل العامل. منها ما هو ظاهر ومنها ما هو خفى لأن شرط القبول صعب جدا الأول أن يقع العمل على الوجه الصحـيح المطلوب شرعا، فإذا كان صلاة أو زكاة، كـانت على الوجـه الشرعى وإذا كانت صناعة أو زراعـة أو ما شئت من أعمال الخيـر كانت خالية من الغش والخداع والفسـاد والظلم والإفساد، فلا غش ولا احتكار ولا ظلم لعامل ولا استغلال لأموال الشعب إلى آخره، ثم إن ثَمَّةَ شـرطا آخـر لا يرجع إلى العـمل كـالشـرط الأول، وإنما يرجع إلى صـاحـب العمل، وهو خلوصه الكامل المطلق لله رب العالمين، لا تَحَوُمُ حوله حائمة من رياء، وهذا وحـده صـعب جـداً، وهو الداء الدوىّ الذى يُحْـبط كـثيـرًا من الأعمال، ويصـيب فيما يصيب أعـمال العلماء لأن حَائمـةً واحدة من العُجْب كفيلة بتـدمير عمل العالم أو الفـقيه أو المفسر إلى آخـره، ولهذا قُلْتَ إن جملة ترضاه، تحتها لوعة أو تحتها حـزَّازٌ من الوجد حامزُ كما قال الشماخ وبقى شىء فى هذا الدعاء. وهو أن هذا الصالح يقـوم دعاؤه كله على نفى الحول والطول،

فالنعمة تأتى من الله من غير مقابل، فإذا أردنا شكرها مَدَدْنا أيدينا إلى الله ليوزعنا هذا الشكر، فيكون الإيزاع نعمة أخرى، تحتاج إلى شكر، ثم إننا إذا استشرفنا عملا صالحا يرضاه ربنا فليس لنا إلا أن نَمُدَّ اليد إلى الله ليرزقنا هذا العمل الصالح الذى يرضاه، ولا تظنَّنَّ أن هذا تواكل كما يقول الغرباء لأننا نعقد العزم على شكر ربنا ونستعينُه ونَعْقِدُ العزم على العمل الصالح ونستعينه، لأنه لو خلانا لأنفسنا قربتنا نُفُوسنا من النار، وأبعدتنا عن الجنة، والإيمان نعمة والطاعة نعمة والعمل الصالح نعمة، والشكر نعمة، والنجاح نعمة، ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣] وليست هذه قيودًا على حرية الإنسان وتحجيما لدوره فى حركة الحياة، وأنه مادام يعتقد أن كل شىء من الله فليس له فى الوجود شىء، هذا كلام غريب وتسطيح مقصود لهذا الاعتقاد العظيم، لأن الحقيقة أننى أغامر فى هذا الوجود وأدخل فى معمعانه والله معى وبجانبى، يشد أزْرى ويكافئنى على نجاحى مكافأتين، وعلى خطئى مكافأة، لأننى مجتهد بعقلى وفاعل بنفسى، ومستعين به سبحانه.

وقد استشهد أهل السنة بهذه الآيات على أن أفعال العباد مخلوقة لله، قال الرازى: «قال أصحابنا إن العبد طلب من الله أن يلهمه الشكر على نعم الله، وهذا يدل على أنه لا يتم شىء من الطاعات والأعمال إلا بإعانة الله تعالى، ولو كان العَبْدُ مُسْتَقِلًّا بأفعاله لكان هذا الطلب عبثًا» انتهى كلامه.

لا ريب فى أن أفعال العباد مخلوقة لله لأن الله سبحانه وتعالى قال ﴿خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦] وأن هذا من مقتضيات الألوهية ولا يُعَبدُ بحق إلا خالق كل شىء، ومالك كل شىء، ولا يمكن أن يكون هذا الاعتقاد حاجزًا للمؤمن عن الفِعْل والتأثير فى هذا الوجود، لأنه كما قلت يعمل والله معه ولأن الله سبحانه وتعالى قال لنا: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ١٠٥] وهذا

أمر واضح بالعمل وناهيك من عمل يعمله المؤمن وهو يعتقد أن الله يراه، وأن رسوله ﷺ يراه، لابد أن يكون عملاً قد بذل فيه المؤمن طاقته ليكون أجود، وأحسن، وأتْقَنَ، وليكون أطهر، وأصفى، وأنقى، ثم إن المؤمن سيُردُّ إلى الله بعمله هذا. وسيحاسب على كبيره، وصغيره، وهذا دافع يدفع إلى خوض غمار هذه الحياة كما خاضها الغُرُّ الميامين من أصحاب رسول الله ﷺ وأقاموا العدل مقام الظلم والخير مقام الشر، والعمل الصالح عمل ممتد يصل إلى آبائه وطرفه الآخر إلى ذريته﴿ **أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ**﴾ [الطور: ٢١] وقد جاء الدعاء بالعمل الصالح فى الوصية الكريمة بعد الشكر للوالدين وقبل الدعاء للذرية لأنه راجع إلى الوالدين وممتد للذرية، هذا والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ **إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ** ﴾.

بُنِيَت الجملة الأولى على القطع والاستئناف ووراءه ما وراءه من الدلالة على العناية بهذا المعنى والاهتمام به، وأن هذا المعْنى هو وسيلته التى يتوسل بها إلى ربه فيما سلف من دعائه، الذى كان كله طلبًا للقرب الأكثر من مولاه، وأن يرزقه الولع بذكره وشكره كما رزقه التوبة إليه ورزقه الكون فى جماعة المسلمين، الذين أسلموا وجوههم لله واستمسكوا بالعروة الوثقى، الرجل الصالح يتوسل إلى نعَم الله بنعم الله ويجعل النعمة التى أنعم الله بها عليه بابًا يدخل منه إلى نعمة أخرى، وكأنه يقول لربه بحق نعمك أنعم، وبحق عطائك لى فى أمسى أمُد يدى إليك لعطاء يومى، وأستشفع بعطاء يومى إلى عطاء غدى وأستشفع بمغفرتك لمغفرتك وبرضوانك لرضوانك، وببرك لمزيد من بِرِّك، وبرحمتك بى لمزيد من الرحمة بى، وهذا من خير الضراعة لأن نعمة المنعم هى نفسها تُنْعِمُ وهَدْى الله يَهْدِى وعطاء الله يُعْطِى ولا يهلك على الله إلا هالك.

راجع دعاء الصالح من أوله إلى آخره ليس له إلا جهة واحدة وهى المزيد من القرب من ربه، فهو يضرع إليه أولاً ليَرْزُقه الولع بشكره ثم يضرع إليه ليرزقه الولع بالعمل الصالح الذى يرضاه سبحانه ثم يدعو لصلاح ذرعه ثم يتوسل بالتوبة والإنابة والدخول فى صفوف الذين أسلموا وجوههم لله. لم أجد فى سؤاله سؤالاً أن يرزقه الله رزقًا فى الدنيا، ولا أن يرزقه العافية والسلامة، ولا أن يدفع عنه ظلم الظالمين، وإنما وجدتُ وَجْهًا مُتَّجهًا إلى الله لا يريد إلا خُطْوةً من بعد خُطْوةٍ تقربه من جناب مولاه، ولم أجد له وسيلة يستشفع بها لربه إلا عطايا ربه، وهذا شىء يروق، ويروع، وهؤلاء هم عباد الرحمن، وهذه هى إنسانية الإنسان التى فى قوله: ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ﴾ والتوكيد الذى فى جملة: ﴿إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ توكيد لإحساسه بمعنى الجملة وأن نفسه مُفْعَمَةٌ بمعنى الإنابة إلى الله، والإقبال على الله، وطلب رضوانه، والتعلق بأستار باب الرحمة، وقد ذكر العلماء أن هذه الجملة كالتعليل للذى مضى، وأن المراد بالتوبة التوبة من الشرك، والدخول فى أصحاب الشهادتين، وأن صلة قوية بين جملة ﴿إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ وجملة ﴿أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِى أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَالِدَىَّ﴾ لأن النِّعْمة هى نِعْمة الإيمان وإن كان اللفظ عاماً، كما أن التوبة توبة عن الشرك، وإن كان اللفظ عاماً ومعنى هذا أن هذا الإنسان بدأ رحلته إلى الله من نقطة الصفر يعنى من لحظة أن خلع الشرك، ودخل الإيمان، وليس له سابقة فى دين الله ومع هذه البداية الخالية من كل جهاد سبق، سلك الطريق الذى وجده مُعَبَّدًا لأن العبد إذا سعى إلى الله سَعَى الله إليه، وإذا تقرّب إلى الله ذراعًا تقرب الله إليه باعًا، ولا يهلك على الله إلا هالك.

وإذا كانت التوبة توبة من ذنب كان لذلك دلالة أخرى عظيمة وهى أنك وأنت ولا تزال قريب عهد بقبيح ومعصية تحتاج إلى توبة يعنى من الكبائر لأن الصغائر يكفِّرها اجتناب الكبائر، أقول لأنك وأنت حديث عهد باعتدائك

على حدود الله، تجد طريق الله مُعَـبَّدًا وعليه الأنوار وما عليك إلا أن تصدق فى تَوْبتك إلـى الله ثم تمضى فى الطريـق حـتى يلتـقى بك طريـقك بأكـابر الصالحين، وأكابر الأنبياء كـما سنبين لأن هذا الدعاء بلفظه هو دعاء سليمان الذى سخَّر الله له الريح تجرى بأمره رخاء حيث أصاب، وأنت لا تزال عليك ريح ذَنْبِك يفـتح الله لك باب رحـمتـه حـتى تصل إلى مـراتب الصديقـين والشهداء والصالحين. وهذا كله عجيب جداً، وأرى أن رسول الله ﷺ قال: «**كلكم يدخل الجنة إلا من أبى**» كـان يقول هذا من فـقـه أمثـال هذه الآيات، وأَرْجِعُ بهذا كله إلى قوله تعالى: ﴿**قُلْ يَا عِبَادِىَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا**﴾ [الزمر: ٥٣].

ولو تأملت صحة كلمة ﴿**تُبْتُ إِلَيْكَ**﴾ لوجدت فيهـا فضلا من الله؛ لأنه سبحانه أباح لنـا أن نقولها بل وجعلها من العبادة ومـن أقرب القربات؛ لأنها مَتْلُوّةٌ فى الكتاب، وهى وصف لحالى وأننى تبت إلى الله وهذا من جهتى أنا المذنب، ولا يصح أن أكون موصوفًـا بالتوبة إلا إذا قَبِل الله توبتى، فلو رُدَّت التوبة لم أكن من التائبين، وقبول التـوبة شأو بعيد ولذلك قالوا: كف النفس عن الذنب أيْسر وأهون من التوبة منه، ومع هـذا حثّنا ربنا على أن نقول تبنا إلى الله، وزاد فى الإكرام وأتاح لنا أن نتوسل بالتوبة التـى لا نعْرف مصيرها لطلب المزيد من رحمـته ورضوانه، وهذا مما يُفَـرّجُ الله به الكربة على النفس التى اجترحت السيئات واعتدت على حـدود الله وقاربتها واخترقتها، ورَعَتْ فى الحمى وليس بعد هذا سعة فى الرحمة.

وتقع التوبة أمرًا من الله لعباده كما فى قوله تعالى: ﴿**وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ**﴾ [هود: ٣] وتقع التوبة مطلوبًا لنا كما فى قوله تعالى: ﴿**وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ**﴾ [البقرة: ١٢٨] وأعظم مـواقعها

فى الكتاب وأبردها على قلوب أهل الإيمان ما كان فى مثل قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء: ٢٧].

وقوله سبحانه: ﴿وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ معطوف على ﴿إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ وداخل فى حيز القطع والاستئناف الدال على أن الكلام الذى بُنِيَ على القطع والاستئناف له شأن أى شأن فى الغرض المسوق له الكلام يَعْنى أن جملة ﴿إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ وما عطف عليها لها شأن أى شأن فى قصة ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ﴾ لأن هذه الوصية هى الغرض المسوق له الكلام، والتوبة إلى الله والإنابة إليه والدخول فى جماعة المسلمين كل ذلك هو القاعدة التى دار عليها كلام الصالح البَرّ من يوم أن بلغ أشده وبلغ أربعين سنة لأن كل ضراعاته مؤسسة على ذلك ومستشفعة به.

وحين يقول العبد لربه إنى تبت إليك وإنى من المسلمين أو إنى أستغفرك وأتوب إليك وإنى أحمدك أو أشكرك لا يكون هذا إخبارا من العبد لخالقه؛ لأنه أعلم بحاله منه، وإنما هو تضرُّع ورجاء، أن يجعلنى ممن تابوا وأن يجعلنى من المسلمين، ومن الشاكرين والمسبِّحين والحامدين إلى آخره، وليس هذا إخبارًا مشوبًا بدعاء وإنما هو دعاء فى صورة إخبار، ولهذا كانت جملة الحمد لله جملة إنشائية.

وجملة ﴿وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ بُنيت على حذو آخر غير التى قبلها فلم يقل إنى أسلمت كما قال إنى تبت، وكما قال تعالى: ﴿فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُوْلَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا﴾ [الجن: ١٤] وكما قال: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ١٣١] بُنيت الجملة على ما بُنِيَتْ عليه لأن هذا البناء الذى جاءت عليه فيه إشارة إلى أن هناك جماعة المسلمين، معروفين فى الناس وأنا واحد منهم، وهذا قريب من قوله تعالى: ﴿لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩] يعنى أن لفرعون سجونًا يعرفها الناس وستكون واحدًا من

المسجونين فيها، فالألف واللام تشير إلى أنهم عرفوا بذلك وشهروا به وكذلك الحال فى قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ أى من الجماعة التى أسلمت وجهها لله وعُرِفت بذلك وشهرت به، وأيضًا من الجماعة التى سماها أبوها إبراهيم المسلمين ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ [الحج: ٧٨] وأيضًا من الجماعة التى اختار الله لها دينها ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

وهذا يُشبه قوله تعالى فى فصلت: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣].

وكل هذا يؤكد أن الكون من المسلمين مرتبة من أعلى المراتب وأن الكون منهم ترتفع بها الرؤوس، وحسبك أن الله تعبَّدك وتعبدنى بأن أقول وتقول: إنى من المسلمين، هذه جملة تقربنا إلى الله وتقربنا من رحمته، ولهذا قلت: إنها يرفع بها المسلم رأسه، ولا يستطيع أحد أن يخفض ما رفعه الله، وأشبه الدعاء بهذا فى الكتاب العزيز دعاء سليمان صلوات الله وسلامه عليه لما رأى فضل الله عليه، وإكرامه له، ورأى الجن والإنس والطير وهم يوزعون يعنى يُضم بعضهم إلى بعض، ويأنس بعضهم إلى بعض، ولا ينفر إنسىٌّ من جنِّى ولا طير من طير، ثم سمع نملة تقول بأدب واحترام عن سليمان وجنوده لأخواتها، ﴿ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل: ١٨] واحتاطت النملة الأريبة وقالت: ﴿وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ لأن سلمان وجنوده لا يحطمون الضعيف، ولا يميلون عليه، لأنه هو وجنوده أهل عدل، وبر، فى الأرض، فاهتز سليمان لهذا المشهد الحاشد من الإنس والجن والطير وبما سمعه من سيدة النمل فقال صلوات الله وسلامه عليه: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ [النمل: ١٩] والدعاء هو

الدعاء ولكن سليمان لم يقل ﴿وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي﴾ وقال الرجل الصالح: ﴿إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ ومكانها هنا ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾.

وأول ما يَلْفتُ فى دعاء سُليمان عليه السلام أنه لما رأى ما أنعم الله به عليه خضعت نفسه لله، وذكر الله، ووجل قلبه، وهذا شأن الكرام الأحرار أما اللئام فإن النعمة تطغيهم، ونفسُ الحر كلما ارتفعت خضعت ونفس النذل إذا توهمت أنها ارتفعت شمخت وتمردت وتكبرت.

ومن أجل أن أفهم كنه وحقيقة هذا الدعاء، أنَبِّه وأذكر بعطاء الله لسليمان لأننى محبّ لتلك النفوس التى تجعل نعم الله عليها معارج تعرج بها إلى الله كما تعرج الملائكة والروح، وسليمان هو الذى قال: ﴿عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ١٦] وهو الذى سخر الله له الريح تجرى بأمره رخاء حيث أصاب والشياطين كل بناء وغواص، يعملون له ما يشاء من محاريب، وتماثيل، وهو الذى قال لمن حوله: ﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا﴾ [النمل: ٣٨] يعنى عرش بلقيس، فقال الذى عنده علم من الغيب: ﴿أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي﴾ [النمل: ٤٠] ولو أن ملكًا أو رئيسًا أوتى فى زماننا واحدة من هذا لعبده الناس، وقد أوتوا الغباء والصلف والسلب والنهب والقمع ووصفهم المنافقون بالحكمة والإلهام فكيف لو رأوا الجن يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل، ومثل هذا يجعلنى أقول: إننا تخلفنا كثيرًا عن أجيال رائعة وعن أمم قبلنا عَمرُوا الأرض أكثر مما عمرناها وأعتقد أن فى التاريخ مناطق مجهولة وفى القرآن إشارات إليها، والمشكلة أن الذين يكتبون التاريخ لا يقرؤون فى القرآن، والمهم أن داود عليه السلام كان له عند الله مكان وقد قال ربنا للجبال والطير: ﴿يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ﴾ [سبأ: ١٠]

فأوبت الجبال والطير. وسبحت مع تسبيح داود عليه وعلى نبينا أزكى التحية والسلام. هذا هو الوالد الذى قال سليمان فى ضراعته لربه: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ﴾، واشتراك الرجل الذى بلغ أشده فى آية الوصية مع سليمان بن داود الذى آتاه الله الحكمة وفصل الخطاب، وشَدَّ الله ملكه وآتاه ما لم يؤت أحدا من العالمين أقول: إن الاشتراك فى هذا الدعاء ومطالبتنا به وأنه قرآن يتلى وأن ندعو به كما دعا الأخيار كل هذا يجعل لهذا الدعاء شأنًا ولهذا الصالح البر شأنًا ولنا نحن الذين نقرأ القرآن ونمد أيدينا إلى الله شأنا لأن الله وضع فى فمى وفى فمك ما وضعه فى فهم سليمان بن داود عليهما وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام، وهل تشك فى أن الله سبحانه أكرمك لما وضع بين يديك ما تقرّب به رجال من خير من خلق سبحانه وما برأ ومن خير من أغدق عليهم من عطاياه مما لم ينله أحد من العالمين، هل تشك فى كرامة الله لك لما وضع تحت قدميك الطريق الذى وصل به هؤلاء إليه، ووضع تحت لسانك الذكر الذى ذكر هؤلاء ربهم به؟

وقد أشرت فى تحليلى لكلمة ﴿أَوْزِعْنِي﴾ أن هذا الضرب من العبادة هو الضرب الأعلى لأنه لم يطلب أن يلهمه الله الشكر والعمل الصالح، وإنما طلب أن يجعله الله مولعا بالشكر والذكر والعمل الصالح وناهيك عن المولع بالعبادة وأن العبادة لم تعد تكليفًا وإنما صارت حُبّاً وعِشْقًا وقُرّة عين.

قلتُ: إن النعمة التى شكرها الرجل الصالح هى نعمة الإيمان وأن الله سبحانه تاب عليه من الشرك وجعله من المسلمين المعروفين بهذه الصفة وأن الرجل بدأ من هذه الحالة وأن سليمان عليه السلام رأى وَفْرة عطاء الله له لما حشر له جنوده من الجن والإنس والطير وعُلّم منطق الطير وسمع كلام النملة وأن هذا هو الذى أجاشه فدعا وقال ﴿أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ﴾ وأن نعم الله على داود كنعم الله على سليمان ويابعد ما بين حالتى الرجل

وسليمان عليه السلام وفائدة هذا الاشتراك مع هذا التفاوت فائدة لنا وأننا مع التقصير الشديد ندعو الله بما دعا به المقربون من صَفْوة خلقه وأنبيائه وهذا فضل الله يؤتيه لعباده ويضعه بين أيديهم ولا يُدير ظهره لهذا الفضل إلا مخذول هالك. وخاتمة دعاء سليمان مختلفة عن خاتمة دعاء الرجل الصالح البرّ لأن الرجل الصالح قال: ﴿وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي﴾ ولم يقل سليمان هذا؛ وذلك لأن سياق دعاء صاحب الأحقاف هو الوصية بالوالدين حسنًا، وقد أنفذ وصية ربه وبر والديه ودعا ربه أن يصلح ذريته ليكونوا أبرارًا به وبذلك يصير باراً مبروراً، وقال: ﴿وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ لأن غاية ما يطمَحُ إليه أن يكون من هؤلاء المعروفين بإسلام وجوههم لله، وكان بالأمس القريب بعيدًا عنهم.

وسليمان عليه السلام لم يقل ﴿وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي﴾ لأن المقام مقام شكر عطاء لا يقادر قدره وليس وصية بوالدين.

وقال: ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ وهذه جملة تحتاج إلى تدبُّر؛ أول ما نتدبره فيها، أن سليمان عليه السلام نبى من أنبياء الله علمه الله منطق الطير وسخَّر له الريح وآتاه ما لم يؤته أحدًا من العالمين ثم هو ابن نبى قال الله فيه: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلاً يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ﴾ وهذا أيضًا لم يؤته الله أحدًا من العالمين، ومرتبة النبوة فوق مرتبة الصالحين، والأنبياء عليهم السلام من الصالحين ومرتبة النبوة لا يطمح إليها أحد، لأنها محض اختيار من الله سبحانه وهو أعلم حيث يجعل رسالته، أما منزلة الصالحين فهى منزلة يطمح إليها كل عبد صالح، وبابها مفتوح، ويمكن لمن اجتهد فى طاعة الله أن يكون من الصالحين، وليس من الممكن لأحد أن يكون نبياً.

ثم إن سليمان عليه السلام قال هذه الجملة لما رأى فيض نعم الله عليه من جنوده من الإنس والجن والطير وهم يوزعون وحديث النملة إلى آخره فخشعت نفسه لله وذلت وخضعت وتطامَنَتْ وخلعها من كل هذا الذى حوله وأدار ظهره إليه وولّى وجهه نحو ربه واستشرفت نفسه إلى أن يكون واحدًا من عباد الله الصالحين، ويقول فى رجائه ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ﴾ وتأمل الكلمات هو لم يقل واجعلنى من الصالحين، وإنما فقط أدخلنى فيهم حتى ولو كنت من أصاغرهم، ثم يقول برحمتك يعنى أننى لا أرتقى وحدى إلى أن أدخل فيهم، وإنما يكون ذلك برحمتك وإكرامك ومَنّك وفضلك، ثم قال فى عبادك يعنى أن مُنْتَهى رجائى أن أكون فى مَعِيَّة هؤلاء العباد الصالحين، وكل هذا مع دلالته على خضوع نفس نبى الله وتطامنها وتصاغرها بين يدى خالقها والمنعم عليها، فيه دلالة أخرى وهى أن مرتبة الصالحين عند الله بمكان، وأنها لا تنال بالهُوينا وأنها بعيدة المنال، وإن كان بابها مفتوحًا لكل من يسعى إليها، وأن سعى نبى الله إليها يُغرينا بالسعي إليها لنكون ساعين على مسعاة أنبيائه المكرمين، ومرتبة النبوة لا يُسعى إليها وإنما سعى الأنبياء إلى مرتبة الصالحين، وهى مفتوح بابها ليسعى معهم من يحبّ أن يكون فى صحبتهم، ثم إن فضل الله العظيم الذى جعل النبوة اختيارًا محضًا منه، ولم يسع إليها من خلقه ساع قط لأنها لا تنال بالسعى، هذه النبوة فى مرقاها الأعلى، سهل الله لنا طريق صحبة أصحابها رضوان الله عليهم يعنى لم يجعل باب النبوة مفتوحًا للسعى وإنما جعل باب معية الأنبياء مفتوحًا للسعى، وجعل بداية الطريق الذى نسعى فيه لصحبة المكرمين صلوات الله وسلامه عليهم سهلة جداً هى طاعة الله وطاعة رسوله هذه الطاعة هى الراحلة التى تَحُطُّ بنا وبرَحْلنا عند الأنبياء وفى مجمعهم فى الجنة وفى رحمة الله، قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا (٦٩) ذَٰلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ﴾ [النساء: ٦٩ : ٧٠] هؤلاء الذين أنعم الله عليهم أولهم الأنبياء

وآخرهم الصالحون، والوصف الذى يَصْدُق على كل الذين أنعم الله عليهم هو: الصالحـون، فالأنبيـاء صالحون والصـديقون صالحـون والشهداء صـالحون، لأنه وصف عام يُنال بالعبادة والطاعة، والنبوة لا تنال إلا بالاختيار، والصديقون فيهم صفة زائدة والشهداء فيهم صـفة زائدة فليس كل مسلم يتاح له أن يكون شهيدًا، والصديقـون جاؤوا بعـد الأنبيـاء وقبل الشـهداء، قال الراغب وهـم قوم دُوَين الأنبياء، وقالوا الصديق هو الذى لم يكذب قط أو هو الذى لا يتأتى منه الكذب لتعـوُّده الصدق، ومنازل هؤلاء الثلاثة «النبـيين والصديق والشهداء» بعـيدة المنال جداً وتوشك أن تكون ميؤوسًا منها عند عامـة المسلمين الذين يصيبون ويخطئون ويكْبونَ وينْهضُون، ويذنبون ويستغـفرون، ثم تأتى المنزلة الرابعة مفتوحة الأبواب ومتـعددة الطرق ومن حيث سلكت وصلت، والمهم أن تسلك وعلى الله قـصد السبيل، وقد أجرى الله طلب الدخول فى معيـتها على لسان نبى من أكرم أنبيائه وهو سليمان عليه السلام ليُغرينا بالسعى نحوها، هذا والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِى كَانُوا يُوعَدُونَ ﴾ [الأحقاف: ١٦].

أول ما يلاحظ فى الآية الكريمـة أنها انتقلت من الحديث عن المفـرد وما كان من الذى بَلَغَ ٱلأشـدّ إلى الحـديث عن الجمـاعـة، وقد ذكـر علمـاؤنا أن المراد بالإنسان فى قوله تعالى﴿ وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ ﴾ غير معين فهو شامل للجنس، وهذا تصحيح لـعود الإشارة بالجمع على المفرد ولـيس تفسيراً لِسرٍّ مـجىء المفرد هناك والجمع هنا، ومثل هذا كثـير فى الكتاب العزيز، وكلام العلماء فيـه لبيان جوازه وليس لبيان اختـياره وربما كان طبيعة العمل الذى تـتحدث عنه الآية من شأنه أن يكون عمل فرد مثل البر بالوالدين هنا والدعاء لهما، وآية فصلت التى هى أخت هذه الآية انتقل فيها الحديث عـن الجماعة فى قوله تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا ﴾ إلى المفرد فى قوله تعالى ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ

﴿صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ وهذه الآية التى انتقل فيها الكلام إلى المفرد فى فصلت موقعها من الكلام قبلها كموقع آية ﴿ووَصَّيْنَا الإنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا ووَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ وربما كان فى هذا الإفراد إشارة إلى أن العمل المذكور فى صيغة المفرد شأو بعيد، لا يصيبه على وجهه إلا الواحد من الجماعة، ولو جمعنا هذا فى الكتاب وتوفر الدرس عليه لتكشفت لنا أسرار أخرى.

وهذه الآية الكريمة جملة واحدة مكونة من مبتدأ وخبره الاسم الموصول، والصلة مكونة من جملتين عطفت الثانية على الأولى ثم تعلق بها حالان، ﴿فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ﴾ ﴿وَعْدَ الصِّدْقِ﴾ وقد ذكر الطاهر أنها مستأنفة استئنافًا بيانياً لأن الكلام قبلها يثير فى النفس سؤالا عن جزاء هؤلاء الذين هذه أوصافهم، وهذا جيد وهذه الجملة فاصلة للكلام الذى بدأ بقوله تعالى ﴿وبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾ وعودة اسم الإشارة إلى المحسنين أمكن من عودته إلى الإنسان الذى فى آية الوصية وذلك لأن كلمة ﴿وبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾ هى أصل هذا القسم، لأن المحسنين هم الذين قالوا ﴿رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ وهذا كله إجمال ثم إن آية ﴿ووَصَّيْنَا الإنسَانَ بِوَالِدَيْهِ﴾ مثال من القاعدة، وهذا الترتيب واضح جداً فى الآيات فإذا رَجَعت باسم الإشارة إلى الرأس الذى هو المحسنون لم يكن فى هذا بعد، وربما قلت إن آية الفاصلة فيها إشارة إلى الرأس وذلك قوله تعالى ﴿أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا﴾ لأن الذى عمل عملا أحسن هو المحسن وكأن الآية تنبهنا إلى أنها خاتمة الكلام فى المحسنين، كما أنك تجد فى قوله سبحانه ﴿فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ﴾ رجوعًا واضحًا إلى قوله سبحانه ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ وتجد فى قوله تعالى ﴿وَعْدَ الصِّدْقِ﴾ رجوعًا ثانيًا إلى قوله ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ لأن هذه الآية وعد ظاهر ووعد الله صدق، وكل هذا يرجح أنها فاصلة هذا القسم وأن فيها إشارات لرد العجز على الصدر وهذا التواصل الخفى لا تراه إلا فى الكلام العالى.

واسم الإشارة الذى للبعيد فى قوله ﴿أُوْلَئِكَ﴾ يشير إلى علو مقامهم عند الله وبعد منزلتهم كما يشير إلى تميـيزهم أكمل تمييز، لأن الكلام المسند إليهم كلام له شأن، ثم يشير أيضًا إلى أنهم لاتصـافهم بما اتصفوا به من الإحسان، وأنهم قالوا ﴿رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ وأنهم أنفذوا أمر الله الذى هو وصـيته سبحانـه وهى وصية من أكرم وصايا ربنا لأنها تقطر براً ورحـمة أقول هؤلاء لاتصافهم بما اتصفوا به أصبـحوا جديرين بما يأتى بعد هذه الإشارة، ولاحظ أن الذى يحدِّث عنهم هم المنعم عليهم بما كـان منهم؛ وتعريف طرفى الجملة يشير إلى أن الله سـبحانه اختصهم بذلك ومـيزهم به ثم إنك لو رجعت إلى اسم الإشارة مرة ثانية لتعرف ما يدل عليه لوجدته شاملا للمحسنين على هذه الأرض من يوم أن بعث الله فيهـا أول نبى وأنزل فيها أول كتاب ودعـا عباده إليه وأمرهم ونهـاهم، كل من قال ربنا الله ثم استقـام على شرع الله من آدم إلى يوم أن ينفخ فى الصور داخل تحت هذه الكلمة ﴿أُوْلَئِكَ﴾ التى هى رأس هذه الآية وكلمة ﴿نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ﴾ غيـر قولنا نقبل منهـم أو نقبل عنهم، لأن التقبل يزيد عن القـبول لأن فيه حفاوة من الحق بقبـول عمل هؤلاء المحسنين وناهيك عن عمل يحـتفل ربنا بقبـوله، ويتقبله وهو سـبحانه إنما يتـقبل من المتقين، ولا يـقبل إلا ما كان خالصًا لـوجهه، لأنه سبحانه غنى عن الشركاء وكل من يرغب فى أن يحتفل ربنا بقبول عمله فعليه أمران الإخلاص الذى لا يشوبه طائف من الرياء ثم الإتقـان الذى هو الإحسان لأن الله سبـحانه لا يتقبل من المحسنين فقط وإنما يكون معـهم يعنى سبحانه بجلاله وقدسه فى معية المحسنين ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ الله سبحانه وتعالى يكرم المتقين ويُخْبرنا أنه معهم، ولم يقل إنهم معه وإنما قـال سبحانه هو معهم، ولا يعرض عن هذا إلا مخذول هالك.

قلت إن اسم الإشارة لتميـيز المشار إليه أكمل تمييـز لأن الذى سيُسْنَدُ إليه كلام له خطر، وله بال وأوله كلمة ﴿نَتَقَبَّلُ﴾ وليس فقط من جـهة أن الحق

يجلاله هو الذى يتقبل ولم يأمر ملكًا من ملائكته بقبول العمل كما أمرهم بكتابته وإنما أيضًا لأنه يتقبله سبحانه بحفاوة.

ثم إنه قال جل شأنه ﴿نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ﴾ والأصل أن يقال نتقبل منهم كما قال تعالى ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ ومجىء حرف الجر «عن» بدل «من» للإشارة إلى أنه يتقبل العمل من عامله بالأصالة ويتقبله أيضًا ممن يعمله بالإنابة كما كان من الولد الصالح الذى شكر لوالديه؛ فالحق جل شأنه يتقبل منه فيما كان منه لنفسه ويتقبل ما ناب فيه عن والديه، وكلمة «عن» تشرب التقبل شوبًا من الإنابة أو الوكالة، والذى يتقبَّل عنك جدير بأن يتقبل منك وهذا أولى، فهذا الحرف أتاح للمحسنين أن يعملوا لأنفسهم فيتقبل الله منهم وأن يعملوا لغيرهم فيتقبل الله منهم عن هؤلاء الأغيار.

وكلمة ﴿أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا﴾ يعنى لهم ولغيرهم ممن تصح الإنابة فيه، وأفعل التفضيل هنا له سر، لأن الله سبحانه يقبل الأحسن وما دون الأحسن كما قال سبحانه ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ والأعمال تتفاوت منه ما يشق ومنها ما لا يشق فإماطة الأذى عن الطريق غير الوقوف فى وجه حاكم ظالم أو جاهل مستبد كأن الوطن والناس ملك أمه وأبيه، وأفضل الجهاد كلمة حق فى وجه الطاغية الجاهل الغبى، والذى فى الكتب التى بين يدى هو أن أفعل التفضيل هنا على غير بابه وأن المعنى نتقبل منهم الحسن والأحسن وذكروا نظير ذلك قوله تعالى: ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم﴾ [الزمر: ٥٥] والاتباع واجب لكل ما أنزل إلينا من ربنا.

والله سبحانه وتعالى يتقبل إماطة الأذى عن الطريق كما يتقبل كلمة الحق للسلطان الجائر، وقال عليه السلام: «رأيت رجلاً يتقلب فى الجنة بسبب غصن شوك أزاله عن الطريق خشية أن يؤذى المسلمين».

والآية دالة على أنه سبحانه يتقبل الأحسن، وليس فيها ما يدل على أنه سبحانه لا يتقبل ما دون الأحسن لأن ما دون الأحسن فى الآية مسكوت عنه، ودلت الآيات الأخرى على قبول مثقال ذرة من خير، وإنما ذكرت هنا الأحسن للإشارة إلى عظيم الثواب؛ والمقام مقام رضًى وفضل عطاء ممن لا ينفد عطاؤه، وقد فسّر علماؤنا الأحسن فى مواقع شبيهة بهذا الموقع بأن كل ما عملوه هو أحسن لفضل إخلاصهم. والتقبل متضمِّنٌ معنى الجزاء والمعنى يجازيهم أحسن ما عملوا، وأفعل التفضيل هذا شائع فى الكتاب العزيز ومواقعه كلها مواقع رضًى ومَنٌّ وعطاء كما فى قوله تعالى فى ذكر الرجال الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله قال سبحانه فيهم: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ﴾ [النور: ٣٨].

وكما فى قوله سبحانه فى المجاهدين: ﴿وَلا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً وَلا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ١٢١]. والنص على الأحسن فى هذه المقامات ليس بمعزل عن بلوغ جزاء الحسنة سبعمائة ضعف والله يضاعف فوق ذلك لمن يشاء وليس بمعزل عن الصدقة التى يتقبلها ربنا بيمينه ثم يُرْبيها لصاحبها حتى تكون مثل أُحد ولا حرج على فضله سبحانه.

وقوله سبحانه: ﴿وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ﴾. هذه السيئات التى وعد ربنا بتجاوزها ليست صغائر، لأن الصغائر يكفرها اجتناب الكبائر، ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ [النساء: ٣١]، والمقام مقام مَن وفضل وعطاء وهذا يعنى أن السيئات التى وعد ربنا بتجاوزها فى مقام إكرامه ورضاه ليست الصغائر، ثم إنها سيئات لم يتب أصحابها منها، لأن التوبة كفارة للذنب بوعد الله وهذا معناه أنها سيئات فوق الصغائر وغفل أصحابها عنها فلم يتوبوا منها، وهذا هو موقع فضل الله، لمن يتقبل منهم أحسن

ما عملوا، هناك خطايا كتبها الله على بنى آدم لا ينجو منها إلا المعْصومُون صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ويقع فيها المحسنون الذين قالوا ﴿ رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا ﴾ ثم تدركهم رحمة ربهم فيتجاوز الحق عنها، ولم يقل سبحانه ونتجاوز عن أسوأ ما عملوا كما قال ﴿ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا ﴾، للإشارة إلى أن ذنوب هذه الطبقة المكرمة والمبشَّرة والذين هم أصحاب الجنة الشأن فيهم أنهم لا يقترفون الأسوأ وإن وقعوا فى السيئ.

وأقرب آيات القرآن إلى هذه الآية قوله تعالى فى سورة الزمر ﴿ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (٣٣) لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ (٣٤) لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الزمر: ٣٣] وأول ما تجتمع فيه الآيتان أنهما جزاء المحسنين، ثم جزاء أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون، ثم تكفير السيئات.

ووجوه الاختلاف أن الزمر قالت ﴿ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا ﴾ ويقول علماؤنا إنها وصفت بالأسوأ بالنظر إلى إحساس من وقعوا فيها، لأنهم أهل ورع والسيئ عندهم أسوأ لشدة تحرجهم، وشدة احتياطهم، وأنهم مُبتعدون عن السيئات، فإذا وقعوا فيها عظم ذلك عليهم واستهولوه، وصار الذى عند الناس سيئا عندهم أسوأ، وهذا كلام جيد، ولم ترد كلمة الأسوأ فى مقام الرضى إلا فى هذه الآية، وجاءت فى آية واحدة فى مقام الغضب فى قوله تعالى فى سورة فصلت بعد حكاية قولهم ﴿ لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ ﴾ [فصلت: ٢٣] ﴿ فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [فصلت: ٢٧] وذكر الأسوأ فى هذه الآية واضح لأن المقام مقام غضب شديد وقد ارتكبوا أشنع ما يرتكبه الضال الفاجر المعاند وهو إنكار الحق الظاهر، وتحريض من أنزل الله إليهم الكتاب على ألا يسمعوه، لأنهم يعلمون أنه حق غالب، ثم إن المجازاة بالأسوأ هنا ليس فيها ظلم لأنهم اقترفوا الأسوأ.

أما ذكر الأسوأ فى آية الزمر وهو مقام غاية الرضى عن الذى جاء بالصدق وصدق به من كل أنبياء الله ومن تبعهم من الصالحين، فلم أجد وجها يختلف به عن آية الأحقاف إلا مزيد الرضى والقبول. وذلك لأن المحسنين المذكورين فى الزمر قالوا هم الأنبياء الذين جاؤوا بالصدق ومن تبعوهم أو هو محمد عليه السلام لأنه جاء بالصدق وصدّق به أو هو محمد عليه السلام ومن معه ممن صدقوه من أهل السابقة وذكروا وجوهًا أخرى وكلها تعنى زمن النبوة أو زمن النبوات، وهو الوقت الذى فوجئ فيه الأقوام برجل يدعوهم إلى الله ويقول إنه عبده ورسوله، سواء كان المراد كل الأنبياء أو خاتمهم صلوات الله وسلامه عليه، وهذا وقت صَعْبٌ جداً لأن المطلوب هو خلع كل ما عليه الناس من دين، والاستسلام لما جاءهم به نبيهم، وهؤلاء الذين صدقوا بالصدق لما جاءهم، وهم السابقون وهم هوادى الأمة وناصيتها وجَزْلَتُها الأولى وهم الحواريون لهم عند الله ما ليس لغيرهم فوعدهم بأن يكفر عنهم أسوأ ما كانوا يعملون وخصوصًا أنهم حديثو عهد بجاهلية، وما اقترفوا فيها من مظالم، وقلت إن كلمة أسوأ لم تذكر فى مقام الرضى وتكفير الأسوأ إلا معهم، وليس عندى إلا هذا، والله أعلم.

ولابد أن نلاحظ تقديم ﴿لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِى عَمِلُوا﴾ فى الزمر للمبادرة بالدلالة على الإكرام ومحو ما كان منهم فى الجاهلية، مما كان يؤرقهم وكانوا يسألون رسول الله عنه، وكان يطمئنهم بأن الإسلام يَجُبُّ ما قبله.

وقوله سبحانه: ﴿فِى أَصْحَابِ الْجَنَّةِ﴾ مكرمة ثالثة. الأولى يتقبل عنهم أحسن ما عملوا، والثانية يتجاوز عن سيئاتهم، والثالثة أنهم فى أصحاب الجنة يعنى فى الجماعة المشرَّفة المكرمة الذين لهم ما يشاؤون والذين هم فى الغرفات آمنون، قال الزمخشرى: فإن قلت ما معنى قوله: ﴿فِى أَصْحَابِ الْجَنَّةِ﴾ قلت هو نحو قولك أكرمنى الأمير فى ناس من أصحابه يريد أكرمنى فى جملة من أكرم منهم، ونظمنى فى عدادهم، وجملة النصب على الحال، انتهى كلامه،

والمنظوم فى عدادهم هم النبيون والصديقون والشهداء والصالحون، ولو راجعت هذه المكرمات الثلاثة وبحثت عن وجه ترتيبها لن تجد فيها أعلى وأدنى، لأن تقبل الأعمال ليس أعلى من التجاوز عن السيئات ولا التجاوز عن السيئات أعلى من تقبل الأعمال، ولا أرى واحدًا منها يعلو على الآخر، وإن كان لابد فأعلاها هو تكفير الذنوب، لأن مخافة العبد ما بقى على الأرض هو منها ووجله منها، وإنما هى مكرمات يفضى بعضها إلى بعض فالتوفيق إلى أحسن الأعمال ثم تقبل الله له باليدين يفتح باب عفو الله ومغفرته، وهذان يفتحان باب معية الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وإن كانت هذه هى مسك الختام.

ومن لا يعمل لها فهو مخذول، وشتان بين من يعمل ليكون فى معيّة النبيين ومن يعمل ليكون فى معية أبى جهل فى الجحيم، وقوله تعالى: ﴿وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِى كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ جملة راجعة إلى كل الذى مضى من قوله تعالى: ﴿لِّيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾ لأن إنذار الذين ظلموا ﴿وَعْدَ الصِّدْقِ﴾ ﴿وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿وَعْدَ الصِّدْقِ﴾، ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ ﴿وَعْدَ الصِّدْقِ﴾ ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ ﴿وَعْدَ الصِّدْقِ﴾ وقد ذكر علماؤنا أن كلمة ﴿وَعْدَ﴾ مصدر مؤكد لأن قوله تعالى: ﴿نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا﴾ وعد والتجاوز عن سيئاتهم وعد، ولم يرجعوا به إلى البعيد الذى ذكرته لأنهم يريدون بيان أنه مصدر من معنى الفعل لا من لفظه وأقرب الأفعال إليه فيه معناه، وإنما أردت أن أُبيّن أنها جملة مؤكدة لكل الذى مضى، وأنها ليست فاصلة الآية التى جاءت فيها فحسب، وإنما هى فاصلة هذا الباب من أبواب معانى السورة، وهذا من أحكام مبانى الكلام، وله نظائر فى الشعر مع الفرق الشديد، وكان حازم يلاحظ أن البيت الأخير فى كل فصل من فصول القصيدة يكون مستوعبًا لمعنى الفصل، وقد استعرتُ منه كلمة (إحكام مبانى الكلام) وكان يقول هو إحكام مبانى الفصول، وإضافة وعد إلى الصدق إضافة على معنى «من» أى وعدًا من الصدق،

وفيها مبالغة لأن الوعد لم يعد صادقًا فحسب وإنما هو وعد من الصدق، وكأن الصدق صار من ماهية الوعد كما تقول كلمة الحق، ورجل العدل.

وقوله: ﴿الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ صفة للوعد، وهى صفة مؤكدة لأن كلمة ﴿وَعْدَ﴾ تفيد معنى ﴿الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾، كما تقول كلامكم الذى كنتم تتكلمون، وعلمكم الذى كنتم تتعلمون، وعملكم الذى كنتم تعملون.

ووجه ذكر هذا الموصول والله أعلم بأسرار كلامه هو أولا الإشارة إلى أن وعدهم هذا كان معلوما ومتعارفا لأن الصلة لابد أن يكون معناها معروفا ومتداولاً، ثم إن ذكر هذه الصلة يقرر معنى الوعد ويحققه ويؤكده لأن الكلام إذا مُدَّ ومُطِل جزء منه دل هذا المد وهذا المَطْلُ على أن من مقاصد الكلام تحقيق هذا الجزء وترسيخه لأن هذا الوعد هو البشارة وهو الإنذار أيضًا والبشارة والإنذار لهما شأن فى سياق هذا الكلام، ثم إن المضارع فى قوله: ﴿يُوعَدُونَ﴾ يفيد أن هذا الوعد الصادق أو الذى هو من الصدق، كان يتكرر ويتجدد، ويطرق أسماعهم الوقت بعد الوقت بشقيه الذى هو الإنذار، والبشارة وقد آذن له وأصغى إليه المحسنون وأعرض عنه المعرضون، ثم إن الماضى فى قوله: ﴿كَانُوا﴾ يفيد أن هذا الوعد كان يطرق أسماعهم منذ الزمن البعيد وأنه شأن من شؤون الله مع خلقه من أول النبوات لأن بشارة المحسنين كانت ولا تزال قائمة وهى فى الصحف الأولى منذ أول النبوات.

وإذا كان الحق قد وعد عباده المؤمنين بأنه يتقبل عنهم أحسن ما عملوا ويتجاوز عن سيئاتهم فالذى وراء هذا وعيد الظالمين، ولهذه الدلالة غير المنطوقة كانت جملة الصلة هذه مؤذنة ومهيئة للآية بعدها التى انتقل فيها الكلام من المحسنين الذين قالوا ﴿رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ إلى المسيئين الذين لم يقولوا ربنا الله ولم يستقيموا، وانتقل الكلام من البر الصالح الذى كان همه البر بوالديه والدعاء لهما إلى الظالم الفاجر الكافر، ومن أجل أن تضعك

الآيات مع خشونة هذا النموذج وفظافظته بَدَأَتْ بتأفيفه لوالديه أى لقوله لهما أُفٍّ لكما، وكلمة أُف كلمة فيها تضجر وبغض وسوء أدب، وقد اختصرت الآية بيان هذا النمط الجاهل الكريه وأبرزت سوء أدبه مع والديه واختلال منطقه واجترائه على الحق وفزع والديه عليه كل ذلك فى سطر واحد.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِى قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِنِى أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِى وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾ [الأحقاف: ١٧]، هذه صورة مقابلة للذى قال: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ﴾ وصورة أيضًا أنتجتها الوصية ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ﴾ لأن هذه الوصية يتلقاها بالقبول من يتلقاها، وبالرفض والإنكار فريق آخر، والوصيَّة كما قلت قائمة على إنسانية الإنسان وأن الشأن أن يلتقاها المؤمن والكافر لأنها تعطفك على أمِّك وأبيك، والأصل أنك لا تحتاج إلى من يعطفك على أمك وأبيك ولو كنت بوذيا لا يؤمن بالله.

ثم إن هذه الصورة يمكن أن تكون امتدادًا لقوله تعالى: ﴿لِّيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ وكما أن بشارة المحسنين استدعت الذين قالوا ﴿رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ وتولّد منهم البر الصالح فكذلك ﴿لِّيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ تستدعى العاق المشرك المنكر للبعث، ثم إن هذا النموذج يرجع على وجه المقابلة للبرِّ الصالح من حيث عقوقه ويرجع للفريق الذى قال: ﴿هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ من حيث إنكاره للنبوة وإنكاره للبعث وقوله: ﴿مَا هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾ هو من قولهم ﴿هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ وهكذا تجد الصورة من الصور تذوب وتلْتَئِمُ وتَدْخُل فى الذى سبقها من الصور إما على أنها من تمامها كمداخلة صورة الذى قال أف لكما للذين كفروا، وقالوا لو كان خيرًا ما سبقونا إليه، أو على أنها مقابلة لها، وكاشفة بهذه المقابلة عن الوجه الآخر، كمداخلتها للبر والتحامها بها من حيث هى الوجه الآخر، وهكذا.

وكان علماؤنا ينظرون إلى الكلام نظرًا عـجيبًا لم نَسْتَوْعـبه وكان الواجب أن نزيده جـلاء وأن نُمدَّه ونُنَمِّـيه، من ذلـك ما قـالوه فى هذه الآية وهى آية رقم ١٧، فقـد رجعوا بها إلى آية رقم ٧ وهى قـوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ وهذه الآية بداية حديث السورة عن إنكارهم للنبوة، وقـد سبقتها آيات إنكارهم للوحـدانية وإنكار النبوة والوحدانية مجموع فى قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ﴾ وهى أم السورة كمـا قلت، والجيد فى رجوع العلمـاء بهذه الآية إلى آية ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾ هو أن الآية قد تراها ينمو منها معنى، ويتولد منه ما يتولد، ويتفرع منه مـا يتفرع، حتى يبتـعد الكلام بهذه التفريعـات عن هذا الأصل كما ابتعدت آية ﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا﴾ عن آية ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا﴾ ثم يأتى الكلام بعد هذا الامتداد وهذا التفريع بآية ترجع إلى هذا الجذر الذى تولد منه ما تولد، وهذه مـتابعة دقيقـة لحركة المعنى، وكيف ومتى يـنتهى الفرع من فروع المـعنى، وكيف يُتَـرَكُ هذا ويعود إلى الأصل ويُسْـتَخـرج منه فـرع آخر، ونحن الآن نعود إلى آية ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ لنرى كيف خرج منها ﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا﴾ بعـد ما تولد منـها مـا تولد لأنك لو تَتَـبَّعْتَ قـولهم ﴿هَٰذَا سِحْرٌ﴾ وقولهم ﴿افْتَرَاهُ﴾ إلى قوله: ﴿هَٰذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ لوجدت ذكر كتاب موسى جاء رداً على قولهم ﴿هَٰذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ ثم جاء ذكـر الكتاب المصـدق الذى هو إنذار وبشارة قياسا على كتاب موسى ثم كانت البشارة منتجة ماهية المحسنين وهم الذين قالوا إلى آخره، وهذا منزع فى التحليل جـيد جداً ويحتاج إلى مزيد مـن الاستخراج والإحكام والتحليل والدراسة التى تضعه فى صورة باب من أبواب العلم.

وهذه الواو التـى فى أول هذا القـسم هى الـواو التى تعطف مـعـنى على معنى، ولك أن تعطف ما بعدها على ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ﴾ أو على ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ

عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾ أو على ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا﴾ وكل ذلك عندى سواء لأن كل ذلك متولد بعضه من بعض.

ومن عجيب نظم هذه الآية أنها كلها مبتدأ والخبر فى الآية الثانية ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ وراجع الكلام لترى الآية الأولى وكلها صلة الموصول لأن قوله ﴿قَالَ﴾ إلى قوله ﴿قَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي﴾ مقول القول، وقوله: ﴿وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ جملة حالية وقوله: ﴿فَيَقُولُ﴾ إلى آخر الآية معطوف على قولهم له ﴿آمِنْ﴾ ومرتب عليه، والخبر الذى به تتم الفائدة هو اسم الإشارة الذى هو مبتدأ وخبره اسم الموصول والصلة إلى قوله ﴿مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ﴾ وجملة ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾ بيان لقوله: ﴿حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ وتأكيد له.

والذى أريده أن كل شناعات هذا النموذج تتابعت وتلاحقت فى جزء جملة، وكل هذه الشناعات جاءت فى سياق التعريف به، وليس المقصود به واحدًا بعينه وإنما كل ما ينطبق عليه هذا الوصف والقول بأنه عبد الرحمن ابن أبى بكر قبل إسلامه قول فاسد ترفضه الآية لأنها أخبرت أن الذى قال هذا حق عليه القول وأنه من الخاسرين وعبد الرحمن حسن إسلامه وكان من الصالحين وجاهد الجهاد الأكبر وعارض معاوية لما طلب البيعة ليزيد وقال لمروان بن الحكم الذى طلب البيعة ليزيد لقد جئتم بهاهرقلية تبايعون لأبنائكم، فقال مروان يا أيها الناس هو الذى قال الله فيه ﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا﴾ فسمعت عائشة فغضبت وقالت «والله ما هو به ولو شئت أن أسميه لسميّته ولكن الله لعن أباك وأنت فى صلبه فأنت فضض من لعنة الله» انتهى كلامها رضوان الله عليها. والفضض كل شىء تفرق وأرادت ما انفض من نطفة الرجل وتردد فى صلبه، وهذا من من الكشاف وحواشيه.

وغفر الله لنا ولمروان بن الحكم فقد كان مواليا لمعاوية لأنه من ولد عبد شمس، وموقفه هذا يشبه مواقف كتاب السلطان فى زماننا مع الفارق الشديد بين المنافقين الجاهلين فى زماننا وبين فرسان جاهدوا وقادوا وفتحوا، وقاموا على حراسة الدين والدولة، كانوا شركاء فى إدارة الدولة بخلاف الذين حولنا فليسوا إلا خدما لمجموعة الأغاوات، والفرق لا يقارن، قال الزمخشرى ويشهد لبطلان القول أنها نزلت فى عبد الرحمن بن أبى بكر أن المراد بالذى قال جنس القائلين ذلك وأن قوله ﴿الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ هم أصحاب النار وعبد الرحمن كان من أفاضل المسلمين وسرواتهم، انتهى كلامه.

قلتُ إن الآية جزء من آية الوصية وهى الوجه الآخر المقابل للذى قال ﴿أَوْزِعْنِي﴾ والمبادرة بالتأفيف مبادرة بالعقوق الذى هو من تمام الكلام فى الوصية ثم هو أيضًا للإثارة. وكلمة ﴿لِوَالِدَيْهِ﴾ تستدعى لا محالة ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرًا﴾ واستدعاء هذا المعنى يزيد من بيان جفاء هذا الولد الذى عانت أمه ما عانت فى حمله وفصاله وعانى أبوه ما عانى فى رعايته وتربيته والقيام بشأنه، وتلاحظ أن القرآن الكريم يذكر الوالدين فى مقام الوصية بهما ورعايتهما وحفظ حقوقهما من مثل ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [البقرة: ٨٣]، ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ﴾ [البقرة: ١٨٠].. ﴿مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ﴾ [البقرة: ٢١٥] ويذكر الأبوين فى مقام آخر كالإرث فى قوله تعالى: ﴿وَلأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ﴾ [النساء: ١١] وكما فى قصة يوسف عليه السلام ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا﴾ [يوسف: ١٠٠] وهكذا حين تجد للأبوة شأنا فى الكلام يذكر الأبوين وحيث تكون للولادة شأن يذكر الوالدين.

وكلمة ﴿أُفٍّ لَّكُمَا﴾ قال الزمخشرى هو صوت إذا صوّت به الإنسان علم

أنه متضجِّر كما إذا قال: حس علم أنه متوجع واللام للبيان. معناه هذا التأفيف لكما خاصة. ولأجلكما دون غيركما، انتهى كلامه.

وهذه الكلمة المليئة بالضجر والضيق والجفوة والغلظة هى أول كلمة يرويها القرآن الكريم عنه، مع أنه قال ما هو شر منها، وهو قوله ﴿مَا هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾، وإنما قدمت الآية هذه الكلمة للإشارة إلى أن العقوق والإساءة إلى الوالدين وقصدهما بالإساءة والرمى بها فى وجهيهما كل ذلك عند الله من أفظع الآثام، وقد قرن الذكر الحكيم البر بعبادة الله وحده فى آيات كثيرة. والعقوق وسوء الأدب مع الوالدين فى بداية هذه الآية ثم جاء فى آخرها إنكار البعث ثم إن اختيار هذا العاق الفاجر لكلمة ﴿أُفٍّ لَّكُمَا﴾ التى نهت آية الإسراء عنها فى قوله تعالى: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا﴾ [الإسراء: ٢٣] فيه إشارة إلى إمعانه فى المخالفة وقصده إلى فعل ما نهى الله عنه وكأنه يقدم بذلك لكفره بما أنزل الله، لأن إنكار البعث يعنى إنكار النبوة وإنكار الكتاب وإنكار التوحيد، وقد قرئت كلمة ﴿أُفٍّ﴾ بالكسر بدون تنوين وبالتنوين وبالفتح بدون تنوين وبالتنوين، ومن لطائف التفسير ما أشار إليه البقاعى من دلالات هذه الحركات، وأن قراءة الكسر من غير تنوين فيها إشارة إلى سفول هذا التأفيف يعنى أن الكسرة فيه دالة على السفول، وأن المتأفف يَحُط من قدر الوالدين وأن الكسر مع التنوين يفيد زيادة فى هذا السفول، وهذا الحط من قدر الوالدين وأن زيادة التنوين كما تزيد السفول تفيد أيضًا أنه سائر مع الدهر.

وقراءة الفتح بدون تنوين فيها معنى التشهير بهذا التأفف وانتشاره والتنوين مع الفتح فيه زيادة لمعنى التشهير والإشاعة وأنه باق على الدهر. وسواء قبلت هذا من البقاعى أو توقفت فى قبوله، فإنك لا تستطيع أن تنكر على الرجل اجتهاده فى أن ينطق حركات الكلمات التى هى حركات الإعراب، وأنه إغراء

لي ولك ولكل من يتدبر كلام الله بأن يجتهد فى التقاط الدلالات ما ظهر منها وما بطن.

ووقوع هذا والذي بعده فى صلة الموصول فيه إشارة إلى أن هذا نموذج معلوم ومتعارف وهو من تمام الصور المعروضة فى هذا السياق فإذا كان هناك الولد البر الذى بلغ أشده ودعا لأبوين مسلمين فهناك الولد البر الذى له والدان مشركان ويجاهدانه على أن يشرك بالله ما ليس له به علم، كما جاء في لقمان التي سبقت الأحقاف فى النزول وهذه هى الصور المقابلة، والدان مسلمان وولد كافر، وكل هذه الصور لها وجود فى كل المجتمعات وفى كل الأجيال.

وقوله سبحانه: ﴿أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي﴾ هذه الجملة تعليل للتأفف وبيان لسببه والهمزة فيها للإنكار التوبيخى لأنها إنكار لفعل يكون ولا ينبغى أن يكون وهى أخت الهمزة التى فى قوله تعالى: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ يعنى لا ينبغى أن يكون ذلك، وهذا الإنكار التوبيخي أكثر إيلامًا لأنه لم يرفض دعوتهما إلى الإيمان فقط وإنما وبّخهما علي هذه الدعوة، وهذا إيغال فى العقوق وصيغة المضارع في قوله: ﴿أَتَعِدَانِنِي﴾ يدل علي أنهما حدثاه فى البعث ويحدثانه وسوف يحدثانه ولم يكن حديثهما معه على الإيمان بالبعث فحسب، وإنما على الإيمان بالله، وبرسوله ﷺ، والكتاب الذى أنزل لأن هذا كله ممسك بعضه ببعض وإنما نَصَّ هو على البعث لأنه يتوهم أنه يملك دليل إحالته ونفيه كما فى قوله: ﴿وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي﴾ وأيضًا لأن الوالدين كانا يدعوانه إلى الإيمان شفقة عليه، من يوم البعث، وكانا يخافان عليه من عقاب هذا اليوم، ثم إنه قال: ﴿أَنْ أُخْرَجَ﴾ ولم يقل أن أبعث أو أنشر، وذلك لما مضى من أنه يتوهم أن لديه دليل نقض هذا الإخراج وأن من ارتحل من ظهر الأرض إلى باطنها لم يخرج وهو فى هذا كغيره من المنكرين للبعث الذين كانوا يقولون ﴿فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الدخان: ٣٦] وهذا فيه مغالطة شديدة لأنه لم يقل أحد إن البعث عودة الحياة فى هذه

الدنيا وإنما البعث بعد النفخة الأولى التى يصعق فيها من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء، ثم ينفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون وهذا الغائب لا يقاس على الشاهد ونفى الخروج من باطن الأرض إلى ظهرها فى الدنيا لا يقوم دليلا على إنكار البعث، وهذا ظاهر ولكن احتجاج أهل الضلالة كان ولا يزال احتجاجا مغلوطا ومخلوطا بالتدليس والمراوغة.

وقوله سبحانه: ﴿وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي﴾ هذه الجملة الحالية هى قلب الدليل عنده على إنكار البعث ومعنى خلت مضت وهلكت والقرون المراد بها الأجيال كما فى قوله تعالى فى سورة الإسراء: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ﴾ [الإسراء: ١٧] وكما فى قوله جل شأنه: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ [المؤمنون: ٣١] وهذا الاستدلال بما لا يستدل به هروب من أدلة البعث التى لا يستطيع أن يردها ولو كان طالبا لبيان الحقيقة لسأل سؤالا آخر وهو كيف يبعث بعدما ما يصير ترابا وعظاما لأنه لو سأل هذا وهو منصف لقيل له يحييك الذى فطرك أول مرة أو الذى خلق السموات والأرض وهى أكبر من خلق الناس، وإنما راغ وزاغ ولبَّس ودلّس وطالب بما يخالف السنن الكونية ولو صدقوا فى طلب الحق لأراهم الله سبحانه العظام كيف يُنْشِزُها ثم يكسوها لحما، وهذه الجملة الحالية التى هى معقد دليله الباطل فيها خصوصيتان الأولى كلمة ﴿قَدْ﴾ وهى تحقق المعنى على ما زعم، وكأنه يؤكد استحالة البعث عنده بدليل أن الأجيال قد خَلَتْ وهلكت ولم يعد منها فرد واحد، والخصوصية الثانية هى واو الحال لأن الجملة الحالية إذا جاءت من غير واو كانت جزءاً ملحقًا بالخبر الأول وكانت بمنزلة الحال المفرد وإذا جاءت بالواو أفادت هذه الواو أن معنى هذه الجملة أوشك أن يكون خبراً مستقلا لأن الواو وإن كانت واو حال فإن معنى العطف لا يبرحها، وإنما يظل ساكنا فيها، وهو ساكن غير ساكت، وإنما يوسوس بمعناه المحبوس فيه وهذه الوسوسة، تعطى للجملة الحالية مذاقا لا يكون لها حين تأتى من غير هذه

الواو، والخلاصة أن معنى الجملة محقَّق عنده بكلمتى (قد والواو) وهذا الإصرار والتوكيد أثار والديه وأهاجهما ولم يلتفتا إلى فظاظته وسوء أدبه وضجره ونَهْره لهما، وإنما تشبثًا بدعوته إشفاقا عليه، وهذا الموقف المتشبث بالحق والحريص عليه يواجه موقف الرَّوغان والتلبيس وهكذا دائمًا الحوار بين أهل الحق وأهل الباطل.

وكان ردهما على ما سمعاه منه ﴿وَيْلَكَ آمِنْ﴾ وقد جاء هذا فى جملة حالية ﴿وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ﴾ وهى حال من الوالدين والمعنى والذى قال لوالديه كذا. والحال أنهما يستغيثان الله وهذا معناه أنهما كانا يستغيثان الله حال قوله ولم يُصغيا إليه لأنهما يعلمان أنه يقول قولا زورا، وتقديم المسند إليه على الخبر الفعلى يفيد التوكيد، والمضارع يفيد تجدد الاستغاثة فى الوقت بعد الوقت ويكرران طلب الغوث من الله أن يهديه إلى الخير والمستغيث هو الذى يطلب الغوث من كرب يحيط به، مثل الصريخ، وهذا يعنى أن ما هو فيه أوقع والديه فى كرب شديد ووراء ذلك ما وراءه من شفقة ورحمة لم يلتفتا معها إلى ما كان منه من سوء أدب، وغلظة، وجفوة، فى خطابهما، ولم يقلل ما يجدان عليه من خوف وفزع بسبب رفضه للحق المبين، وكلمة الويل كلمة تقال لمن تحب ولمن تكره، أما من تكره فهى دعاء عليه بالويل الذى هو الهلاك، وتقال لمن تحب لتخويفه وزجره عن أمر تكره أن يقع فيه والأصل ويل لك أى شر وهلاك لك ثم حذف الجار والمجرور لكثرة الاستعمال وكلمة ﴿آمِنْ﴾ هى الأصل الذى يدعوانه إليه، أى آمن بما يتلى عليك وعلينا من الآيات البينات ولم يلتفتا إلى قوله: ﴿أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي﴾ لأنهما يعلمان أنه يغالط ولوا اعتبرا كلامه هذا لردا عليه رداً مُفحمًا وقالا له يخرجك الذى فطرك أول مرة، أو يعيدك الذى بدأك وهو عليه هيّن وإنما رجعا إلى القضية الأم، وهى الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله والجنة والنار، وكلمة ﴿وَيْلَكَ آمِنْ﴾ كلمة زاجرة، فيها تعنيف شديد وحرص وحب وخوف عليه من سوء العذاب، وإذا

نظرت حولك وقرأت وسمعت ما يدور أحسست أنها نزلت اليوم لتقول للذى حولك ﴿وَيْلَكَ آمِنْ﴾ تقولها للذى يزوّر فى تفسير كلام الله وتأويله ويقرؤه قراءة جديدة تقدمية، ويفهم منه ما لم يفهم الجيل الأول لأنه أتيحت له مناهج لم تتح لأبى بكر وعمر، وتقولها للذى يحاصر دين الله ويحبسه فى المحاريب ويقمع أهل الحق إذا تكلموا به فى السياسة، وتقولها للذى يقول لا دين فى السياسة، وتقولها لمن يعذب الناس حتى الموت لأنهم يعارضون ظلمه وفساده وطغيانه وتقولها للذى يصفه اليهود بأنه حبيب حميم لهم وهو يقمع المجاهدين الذين يحررون أرضهم وديارهم بدمائهم تقول له ﴿وَيْلَكَ آمِنْ﴾ وهكذا تحمل هذه الكلمة النبيلة التى لا ينتهى عطاؤها وتذهب بها فى كل شق من أرض الكنانة التى وصفها الإمام العينى يومًا بأنها كرسىُّ الإسلام وسوف تجد فى هذا الشق الرجل الذى يجب أن تقول له وأنت مخلص ﴿وَيْلَكَ آمِنْ﴾ وقوله تعالى: ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ جملة مسأنفة استئنافًا بيانيا مبنيا على التوكيد، وقد وَقَعَتْ بعد الأمر، وهى حاثَّةٌ على الامتثال لفعل الأمر، وهى هنا دالة على شدَّةِ اقتناع الأبوين بدعوة الولد إلى الإيمان، وأن هذا الإيمان هو سبيل النجاة الوحيد، لأن الله وعد الظالمين بعذاب الجحيم، ووعد المؤمنين بالفوز بالجنة، ووعد الكافرين بالخسران المبين، ووعد لَيَغْلبن هو ورسله، ووعد بنصر المؤمنين، وجعل ذلك حقاً عليه، وكل ما جاء فى الكتاب من بعث وحساب، وجنة ونار، وكل ما جاء فى وصف النار، وأنهم يصطرخون فيها، وكل ما جاء فى وصف الجنة وأنهم فى الغرفات آمنون كل ذلك وعد الله الحق، وكل ذلك وراء قولهم ﴿وَيْلَكَ آمِنْ﴾ ثم إن جملة ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ هى ذاتها ﴿وَعْدَ الصِّدْقِ﴾ وكلاهما من معجم واحد هو معجم الوصية ثم إن جريانها على لسان الوالدين يفيد أن هذين الوالدين المكلومين من الذين يتقبل الله عنهم أحسن ما عملوا، ويتجاوز عن سيئاتهم فى أصحاب الجنة وعد الصدق.

وموقف هذين الوالـدين المكلومين من الولد العـاق وما تجده نحـوهما من تعاطف شـديد وإشفاق بالغ عليـهما يذكـرك بموقف شيخ الأنبيـاء نوح عليه السلام وهو ينـادى ولده ويقول: ﴿يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ﴾ ويقول الولد بجهالة وغرارة ﴿سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾ [هود: ٤٢] فـيـرد الشـيخ الكريم ويقـول: ﴿لا عَـاصِمَ الْيَـوْمَ مِنْ أَمْـرِ اللَّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ﴾ [هود: ٤٣] ثم يرى الموج وهو يبتلع ولـده فيتجـه إلى الله ويقول: ﴿رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ [هود: ٤٥] ويذكر الجـملة التى ذكرها الوالدان الـلذان ابتليا بما ابتلـى به أبونا نوح عليه السـلام ﴿وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ﴾ فيقول له ربه ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ فينخلع قلب نوح عليـه السـلام وينسى ولده لأن الله أحب إليـه من ولده ويقـول فى ضراعـة مكلومة ﴿رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾ فينفتح له باب الرضوان ويقول: ﴿اهْبِطْ بِسَلامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وهذان الموقفان موقف نوح الذى حمل فى سفـينته الوحش والطير عدا ولده، وموقف هذين الوالدين الكريمين من أشد المواقف تأثيراً لأن نوحا عليه السلام لا يملك إلا أن يقـول ﴿يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا﴾ وهذان الوالدان لم يـملكا إلا أن يقـولا ﴿وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ وليس فى الموقف كـلام لهـما إلا هذه الجـملة وأفهم من هذا أنه ليس لداع على الناس سلطان، وعليه فقط أن يبلغ ثم يَنْفُض يده ويَنْسَحب ومن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ﴿كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا﴾ كما ستقـول هذه الآيات وإذا كان على المبلغ أكثر من البـلاغ كأن يأخـذ الناس بيـده إلى طريق الهـداية لكان نوح أولى بذلك ولكنه عليه السلام وهو يرسم لنا خط الدعوة إلى الله من فجر التاريخ ما زاد

على أن قال ﴿يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ﴾ ولما وجد ولده قد جهل حقيقة الموقف وقال ﴿سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾ قال له الحقيقة وهو أننا فى يوم يختلف فيه القياس، فلا عاصم فيه من جبل ولا غيره ثم طوى نفسه على ألمه واتجه إلى ربه كما اتجه الوالدان وهما يستعينان بالله.

قوله سبحانه: ﴿فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾.

هذه الفاء تدل على أن المعطوف بها موصوله رأسه بآخر المعطوف عليه فإذا قلت قمت فتوضأت فصليت دلت الفاء على أن أول الوضوء موصول بآخر القيام من غير فاصل وأن أول الصلاة موصول بآخر الوضوء من غير فاصل وهذا يعنى أنه بادر قولهما ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ بقوله ﴿مَا هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾ من غير فاصل فلم يراجع ولم يتدبر ولم يتريث وهذا يعنى الإصرار على الرفض مع صرف النظر عن الدليل، وأن المسألة لم تكن مسألة نظر واستدلال كما هو الواجب فى مثل هذا الموقف وإنما عناد وإصرار، ثم إن الفعل المضارع (يقول) يَعْنِي أن هذا القول المؤسس على العناد، والذى لم يدع شيئًا للنظر كان يتكرر منه ويتجدد بتكرار قولهم ﴿وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ وأن هذا القول منهم تكرر وأنهم ألحوا عليه لينظر ويستدل وهو يلح فى الرفض والإنكار، ثم إن قوله: ﴿مَا هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾ كلام يستطيع كل مغالط أن يقوله فى أى كلام مهما كانت قيمته وذلك لأنه كلام غير مؤسس على نظر، فلو أعطيت كتابًا أى كتاب وسئلت عن رأيك فيه وقلت هذا كتاب فارغ لم يكلفك الحكم شيئًا لأنك لم تتناول شيئًا من مادة الكتاب، ولم تناقش قضاياه، ولم تبين مواطن الخلل، نعم من حقك أن تقول إنه كتاب فارغ، ولكن من حق من تقول له هذا أن تبين مواطن الخلل وكيف كان فارغًا، وهكذا فعل هذا المخذول، ثم إنه دلّس فى أمرين. الأمر الأول: أسلوب القصر الذى جاء فيه بالنفى والاستثناء وهو رأس الباب فأوهم أن هذا ما هو إلا كما قال، ووراء ذلك الإيهام بأنه نظر ودرس وناقش ودقق، وكل

هذا كذب يتنافى مع دلالة الفـاء، والأمر الثانى: الذى دلَّس فيـه هو تستره وراء الأساطير وكـأنه من العالمين بعلوم الأوائل، وأنه قارئ للتاريخ ودارس لثـقافات الأمم القديمـة ويعرف أَوْهَامَـها وأسَاطيـرها، والأساطير جـمع أسطور وأسطار والمراد بها ما سطـره الأوائل من أوهامهم وعقائدهم وخرافـاتهم، ويبدو أن هذا الهالك مُتَنـوِّرٌ قديم وأنه طليعة تنويرية قـديمة، لأن مسألة الإيهام بـعِلم ثقافات الأمم لا تزال دريئـة يتسـتـر وراءها كل جـاهل صـعلوك، والأسلوب هو هو، والطريقة لا تزال قائمة، ولايزال أحفاد هذا التنويرى القديم يواجهون دعوة الحق بأنها دعوة إلى الظلام والرجوع إلى العصـور الوسطى، والحكومة الدينية وتفتيش الضمائر، وأن الدعاة إلى الحق ظلاميون، كل هذا كلام مرسل من غير أن يحدد أَيْن الظلامية فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ومن غير أن يناقش الفكر الذى يطْرَحُه أهل الحق، وأكـرر شيئًـا وهو أننى أحب أن أقرأ القـرآن فى ضوء الواقع الذى أنا فيه لأنه نزل إلى هذا الواقع كما نزل إلى واقع الزمن الذى مضى وواقع الزمن الآتى، وهذا إعـجـازه الذى لا ينكره أحـد وقـوله ﴿**مَـا هَذَا إِلاَّ أَسَـاطِيـرُ الأَوَّلِينَ**﴾ هو من معدن ثقافة أهل الضلالة الذين قالوا قبل ذلك بآيات ﴿**هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ**﴾ والإفك القديم هو أساطير الأولين، وفى الكلامـين ادعاء العلم بالثقافات والعقائد والأوهام القديـمة وكأنهم صاروا يتحدثون بلسان علـماء التاريخ القديم وعلمـاء العارفـين بالذى لا يعرفـه الناس من أساطيـر الأجيـال الأولى من بنى الإنسـان، وقلتُ إن هذا التهـويش لا يزال قائمًـا والفرق أنه لم يكن مـؤثرا فى الزمن الأول لأن الناس كانوا أعلم وأحكم فلم يحل بينهم هذا التلبيس والدخول فى دين الله أفواجًـا، والناس فى زماننا هيأهم النظام الغبى الذى دمَّـر التعليم ودمَّر الإنسان لقبول مثل هذا التهويش، ويضاف إلى ذلك أن هذا التهويش رَفَع النظام الغبىّ أهله ومنحهم جوائز من مال الشعب المسكين الضائع.

قوله سبحانه: ﴿**أُوْلَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِى أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ**﴾ [الأحقاف: ١٨].

أول ما يلاحظ فى هذه الآية أنهـا حُذِيَتْ حذو الآيات قبلهـا والتى ذكرت الذى قال: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ﴾ وجاء الحديث عن عمله مفردًا ثم جاء الحديث عن جـزائه جمعًا، وبُنِيت آيـات الجزاء بناء واحدًا ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ﴾ و﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ أما الحديث عن العمل بالمفرد فقد سَبَقَتِ الإشارةُ إليه، وأنه يهيئ للقارئ أن يتوفَّر إدراكه ووعيه على سلوك فرد واحد، إن كان صـالحًا تجلت له روحه الصافية المؤمنة والمتـوفرة على الخير وإن كـان فـاجـرًا عـاقـا تجلت روحـه الكدرة ذات الغلـظة والفظاظة وسـوء الأخلاق، ثم تأتى صـورة جماعـية للذين يتقـبل الله منهم أحسن مـا عملوا وكأنها احتفال بهذا النموذج الجيد وإكرام لهم فى المكرمين وتشريف لهم فيمن شرفهم الله، وتأتى الصورة الجـماعية والعامة للذين حق عليـهم القول وكأنها اجتماع تعذيب وتنكيل لهذا النموذج الردىء المستبشع. وكلمة ﴿أُولَئِكَ﴾ وإن كانت راجعة إلى ﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا﴾ فهى صالحة لأن ترجع إلى الذين قالوا ﴿هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ لأن اللغة واحدة وصـالحة لأن ترجع إلى الذين قالوا: ﴿هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾، وصالحـة لأن ترجع إلى الذين يدعون من دون الله من لا يستجيب لهم، ولو اختـصرت الكلام وقلت إنها راجعة للآية الأم وهى قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ﴾ لكان ذلك سديدًا جداً لأنها جامعة لكل من حقت عليهم كلمة العذاب، من ضلال أهل الأرض، من يوم أن كان من الله سبحانه تكليف لعـباده يعنى من يوم أن أنزل الله كتبه وأرسل رسله إلى يوم أن يبطل الـتكليف، وينفخ فى الصـور، وله نظائر كـثيـرة فى الكتاب العزيز من ذلك قـوله تعالى فى سورة النمل: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ﴾ [النمل: ٥]. وهى شبيهة بهذه الآية، لأن الذين لهم سـوء العـذاب هم الذين حـقت عليـهم كلمـة العـذاب وهم الأخسـرون ومثلها قـوله جل شأنه: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ﴾ [محمد: ٢٣]. والاستئناف فى هذه الجمل وراءه مزيد من الغضب

والقطع فى هذا الاستئناف فيه معاجلة بالوعيد، والتهديد و﴿الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ هم الذين حَقَّت عليهم كلمة العذاب، وهم الذين حق عليهم قول ربنا ﴿لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٩]، وقول ربنا: ﴿لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ﴾ [ص: ٨٥]، وهذه الجملة ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم﴾، ونظائرها من الجمل التى لا تصدر إلا عن عز الألوهية، لأنه ليس فى وسع نفس إنسانية أن تحق القول على أمم من الجن والإنس، وليس لهذا شبيه فى كلام الناس، ولا يقول هذا إلا من كانت هذه الأمم من الجن والإنس فى قبضته، وفى الجملة إشارة إلى علياء الألوهية وهيمنتها وذلك فى تقديم كلمة الجن على الإنس، والأصل أن تقدم الإنس على الجن لشرف الإنس، وإنما قدم هنا للإيماء إلى أن المقام مقام تمرد وعُتُوّ لأن الكفر تمرد ومحاولة يائسة للخروج عن سلطان الألوهية، ولا يحكم القبضة على هذه الأمم المتمردة إلا الذى خلقها، والأرض جميعًا قبضته والسموات مطويات بيمينه، ومعنى ﴿حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ ثبت وتأثَّل، ولا يجوز أن نهمل الشبه الخفى بين المعنين المتقابلين، وليس فقط فى رأس الجملتين وإنما نجده أيضًا فى هذه الجملة الحالية ﴿فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ﴾ وهى نظير جملة ﴿فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ﴾ فإذا كان الأولون مكرمون فى أصحاب الجنة فهؤلاء مهانون فى أمم قد خلت، وليس هذا التشابه مما يكتفى فيه بالإشارة إليه، وإنما هو جدير بأن نبحث له عن سر، والذى أراه وهو غير كاف - هو أن الفريقين الذين تقبل الله عنهم والذين حق عليهم القول هم فريق واحد دعاهم ربهم إليه ونصب لهم الأدلة التى لا تخفى على كل مكلف، والتكليف ليس متوقفا على علم ودراسة، ومستوى علمى معين وإنما متوقف فقط على العقل، لأن العقل مناط التكليف، فالأدلة ظاهرة ظهور الشمس الساطعة، لكل ذى عقل، فأقبل على الله من بَرِئَت نفسُه، وقبل من الله فتقبل الله منه، وراغ وعاند من لم تَنقُصْه الأدلَّة وإنما الذى فى صدره كبر ما هو ببالغه وهؤلاء

هم الذين حق عليهم القول، ومع اختلاف الجـزاء والثواب والعقاب نجد هذه الإشارات فى بنـاء الكلام تشير إلـى أن الذين صاروا ﴿فِى أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم﴾ كان يمكن أن يكونوا ﴿فِى أَصْحَابِ الْجَنَّةِ﴾.

ومعنى ﴿فِى أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ﴾ أن هذا الحشد جامع لأهل الضـلالة مـن الثـقلين من أول التـاريخ وهـذا ظاهر والذى وراء هذا الظاهر هو أن أهل هذه القرون على مدى تاريخ البشر ومن الجن أيضًا كلهم لهم طريق واحـد ليس لكفرهم طريق سـواه، وهو إنكار الحق بعد مـا تبين لأن معجـزات الأنبياء لم تكن تخفـى على أحد فقد رأى قوم صـالح الناقة تخرج من الصخـرة، ورأى قوم موسى العصا وهى حيـة تسعى ،ورأى قوم عيسى الطين على هـيئة الطير وعيـسى ينفخ فيه فيصـير طيرًا وهكذا، وهذا وغيـره يعنى أن رفض قبول النـبوة لم يكن له وجه إلا وجـه واحد وهو العناد ورفض الحق البـين، وليس أبغض من البـغض إلا أن ترفض الحق بعـد ما تبـين، وليس أخطر على حـيـاة الناس فى هذا الكوكب إلا رفض الحق، والجريمـة الأم والتى ذرأ الله لجهنم كـثيرًا من الجن والإنـس بسببـها ليست إلا رفض الحق بعد ما تبـيَن، وهذا ما أراه وراء حشد الأمم من الجن والإنس كلمـا دخلت أمة لعنت أخـتهـا، وهذا المنهج البـاطل هو الجنسيـة الجامـعة لهذه الأمم التى خَلَتَ من الجن والإنس، أول الإنس كـآخرهم فى هذا الرفض وأول الجن كـآخرهم ، ليس أحـد منهم فى حاجـة إلى علم ولا إلى تفكير لأن الكفر تعطيل للعـقل، وتعطيل للفكر، وطريقه واحد هو العمى والعماية، إنسـان العصر الحجرى كإنسـان العصر النووى لا فرق فى الكفـر بينهما لأن كـفر الآخـر قائم على مـا قام عليـه كفـر الأول أحدث مكتشف وأبرع عالم وآخر المكتشفين على هذه الأرض حاله لا يختلف شيئًا عن الإنسان الأول الذى كان يأكل خشاش الأرض وكـفرهما كفر واحد من التـوأم الشبـيه الذى يصـعب أن تميز بينهـما لأن الكفـر لا صلة له بالتـقدم

العلمى والتقدم الحضارى وسعة الثقافة والعقلانية إلى آخر هذا الزبور الكَذوب، وكثير من القصص الرائج يقوم على بيان أن اتساع مساحة العلم دائمًا تكون على حساب مساحة التدين فبمقدار انتشار العلم يكون انقباض التدين وهذا خطأ منشؤه هو الخلط بين الدين والخرافة لأن الذى تضيق مساحته أمام اتساع مساحة العلم هو الخرافة والدين شىء آخر.

وفى سورة يونس إشارة عجيبة إلى الذروة التى ينتهى عندها العلم ويبدأ بعدها الفناء، وهى حين يظن العلماء أنهم قادرون على هذه الأرض ﴿ **إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا** ﴾ [يونس: ٢٤]. وشأن العلم إلى الآن أنه يزداد إحساسًا بالعجز بمقدار زيادة كشفه لما فى الوجود من أسرار، قلت هذا لأبين أنه لا صلة للعلم بتيّار الكفر وأن دعوة العلم إلى الإيمان أقرب من دعوته إلى الإلحاد وأن ضلال الزمن الأول كضلال الزمن الآخر وأن كفر آخر علمائها ككفر أول ضلالها، وهذا ما يفهم من عرض الآية الكريمة.

قوله تعالى: ﴿ **إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ** ﴾ جملة مستأنفة استئنافًا بيانيّاً لأن الكلام قبلها مطوى على ما يثير تساؤلاً لأن قول الله سبحانه إن هناك أُممًا من الجن والإنس حقت عليهم كلمة العذاب من غير أن تبين الآية لماذا وجَبَتْ عليهم كلمة العذاب؟ وما ذنبهم الذى أفضى بهم إلى هذا الهول الذى لا يرفع؟ جاءت جملة ﴿ **إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ** ﴾ لتكشف لماذا حقت عليهم كلمة العذاب؟ وتأمُّلُ الجملة يُفيد معنى يشفى الصدور، وذلك لأن كلمة ﴿ **خَاسِرِينَ** ﴾ وإن كانت تفيد أنهم خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة فإنها تقتضى منا فهم هذه الكلمة فى سياق الكتاب العزيز، وهى ممسكة بالجذر الذى جاء فى أول البقرة، ﴿ **أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ** ﴾ [البقرة: ١٦]، ومثله قوله تعالى ﴿ **أُولَئِكَ الَّذِينَ**

اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدَىٰ وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ﴾ [البقرة: ١٧٥] والاشتراء مجاز عن الاختيار والباء داخلة على المتروك، يعنى أنهم تركوا الهدى واختاروا الضلالة وأنهم اختاروا العذاب وتركوا المغفرة، والمشترى المختار يعلم الذى اشتراه ويعلم الذى تركه وهذا قاطع فى أنهم اختاروا الضلالة وهم يعلمون أنها ضلالة واختاروا العذاب وهم يعلمون أنه عذاب وأنهم رأوا سبيل الرشد ولم يتخذوه سبيلاً، ورأوا سبيل الغىّ واتخذوه سبيلاً وهذا أصل فى الثواب والعقاب وأن الإنسان لا يؤاخذ إلا على ما عقد عليه نفسه، والخسران نفى الربح الذى جاء فى قوله تعالى: ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ﴾ وهذا المسلك فى البيان كثير فى الكتاب العزيز، ومن أكرمه قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٠٧]، ويشرى يعنى يبيع، وقوله تعالى: ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ﴾ [النساء: ٧٤] كل هذا قاطع فى أن من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله يعلم أنه يختار مرضاة الله ويعلم أنه يختار الآخرة. وأن الخاسر يعلم أنه خاسر ولذلك جاءت الجملة بدلالتها اللغوية مشيرة إلى هذا المعنى، وذلك لأن كلمة ﴿كَانُوا﴾ دالة دلالة ظاهرة وقاطعة على أن الخسران جزء من ماهيتهم لأنها تفيد أن خبرها جزء من ماهية اسمها وكلمة ﴿خَاسِرِينَ﴾ جاءت على صيغة الاسم ولم تأت على صيغة الفعل للدلالة على أن صفة الخسران ثابتة دائمة وهذا شأنهم، وما جبلوا عليه، وهذا بيان لعلة قوله تعالى: ﴿حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ﴾ والمعنى أن هذا الخسران شأنهم وشأن هذه الأمم التى قد خلت قبلهم من الجن والإنس، وهذه الجملة وإن كانت فاصلة آية ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ فهى صالحة لأن تكون فاصلة الآية الأم ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ﴾ وتفاصيلها التى مضت فيما سبق من السورة، ويرجح هذا العموم فى هذه الفاصلة الآية بعدها وهى قوله تعالى

﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ ﴾ وذلك لأن هذه الآية شاملة للفريقين الذين آمنوا والذين كفروا، ونموذج الذين آمنوا هم المحسنون والذى قال: ﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ ﴾.

وموقع هذه الآية موقع متمكن أظهر ما يكون التمكن، لأنها نقلت الكلام إلى درجاتهم فى الآخرة وكأنها تُنْهِى هذا الفصل من السورة. هى والآية التى بعدها ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ ﴾ وتبدأ السورة فى فصل آخر هو ضرب الأمثال، ولو بدأت وَحْدَكَ تراجع معانى السورة وخروج بعضها من بعض فستجد أنك أمام ترتيب بالغ الدقة وبالغ الإحكام وقد قلتُ فيه ما قلت ولم أصل إلى عمقه لأن الوصول إلى غور الأسْرار فى هذا البيان مستحيل، وغاية ما نرجوه هو فتح الأبواب، ليسلكها من بعدنا، وحسبى وحسبك أن أَبْلُغَ طاقتى وأن تبلغ طاقتك، «وما كل ماشية بالرحل شملال» وليعذر بعضنا بعضًا.

وهذه الآية مكوَّنة من جمل ثلاث كل جملة عالم من المعنى، ولو وقفت عند مقطع كل جملة لرأيت كلامًا تامّاً جداً ليس فى حاجة إلى ما قبله ولا إلى ما بعده: اقرأ ﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا ﴾ واسكت وراجع نفسك تجد أنك سكت على معنى يَحْسُن السكوت عليه، ثم اقرأ ﴿ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ ﴾ واسكت تجد أنك سكت على معنى يحسن السكوت عليه وكذلك قوله: ﴿ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ ﴾ وقد أصاب الباقلانى، لما ذكر أن هذا وجه من وجوه الإعجاز، والباقلانى عالم مَسْهُو عنه وهو من أنفذ من تكلموا فى أسْرار البيان، وأقول راجع ترتيب الجمل، تجد ترتيبًا بالغ الدقة الأولى تبيِّن أن لكل درجاته، والثانية تبين التوفية التى لا ينقص فيها عملُ عامل، والثالثة تنفى أن يُظلم واحد من هؤلاء الخاسرين، وهذا عجيب جداً ورفض ظلم

الظالم من أرقى المبادئ الإنسانية. والواو التى فى أول الآية تعطف معنى على معنى والمعنى المعطوف عليه هو الذين يتقبل الله منهم أحسن ما عملوا، والذين حق عليهم القول، لأن هؤلاء هم الفريقان، وقد فسَّر المفسرون التنوين الذى فى كل بتنوين العوض أى ولكل فريق درجات، وجملة ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ﴾ مبتدأ وخبر قُدِّم فيه الخبر لأنه المقصود والأهم لأن الحديث عن أصحاب الدرجات وليس عن الدرجات، وكلمة ﴿دَرَجَاتٌ﴾ معناها بالنسبة لأصحاب الجنة ظاهر وبالنسبة للذين حق عليهم القول غير ظاهر، لأن لهم دركات كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥] يعنى والكافرين فى الدرك غير الأسفل لأن النفاق فسق وكفر وخساسة والمنافقون بلاء فى الأرض، ولو تصورت مجتمعًا خاليًا من النفاق لتصورت شيئًا عظيمًا مهما كانت خطاياه، وقالوا إن الدركات والدرجات عُبِّر عنهما بالدرجات على طريق التغليب لأن الأعلى يغلب على الأسفل وفى هذا التغليب لفتة خفية إلى أن الأصل أن تكون العناية بأصحاب الدرجات وهم أهل الصدق وأهل البرِّ وأهل العدلِ وأهل المرحمة، ومن نَقْض الفطرة أن يكون أهل الخساسة من اللصوص وأهل النهب والقمع والغطرسة هم موضع العناية، نعم يجب أن يُرْدَعُوا ولا يجوز أن يذكروا لأن الذكر والشرف لأهل الدرجات.

وكلمة ﴿مِمَّا عَمِلُوا﴾ المراد جزاء ما عملوا لأن الدرجات من جزاء الأعمال ومثلها قوله: ﴿وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ﴾ لأن المراد جزاء أعمالهم، وإنما عُبر بالأعمال عن جزاء الأعمال لأنها سببها، وللإشارة إلى أن الجزاء على وفق الأعمال لا يزيد عليها شيئًا ولا ينقص منها شيئًا، وكأن الجزاء هو العمل نفسه، وكأن الدرجات بُنيت من الأعمال ذاتها، وكذلك الدركات وهذا تأكيد للعدل ونفى لأن يظن أن غضب الله على الذين صار الخسران جزءًا من طباعهم قد يؤدى إلى زيادة فى العقوبة لأن الله سبحانه وهو لا يسأل عما يفعل حرّم عِلى نفسه مثقال ذرة من الظلم، وأنه سبحانه وهو يحاسب أعداءه

الذين حاربوه وحاربوا رسله وكتبه وشرعه لا يظلم أحدًا حبّةَ خردل، وهذه قيمة من أعظم القيم التى لا يشتاق هذا الوجود إلى شىء كما يشتاق إليها لأن العدل هو نور الله فى الأرض، وحيثما كان العدل فَثَمَّ شرع الله، وتجد إشارات أسلوبية غامضة فإذا فُتِّحت مغاليقها تفتحت لك عن حَقَائق عليا.

قلت إن تنوين ﴿وَلِكُلٍّ﴾ عوض عن الفريقين، ويمكن أن يكون عوضًا عن كل فرد لأن أهل الدرجات ليسوا سواء ففيهم الصالح والأصلح، وفيهم الصادق والأصدق ومنهم الكريم والأكرم، والتنوع فى هذا لا حدود له، ولا تجد مؤمنَيْن من أول الدهر إلى آخره على درجة واحدة، وإنما يتفاوتون فى الأعمال ويَتفاوتون فى درجات الإخلاص، وكذلك أصحاب الدركات ليسوا سواء. فرق بين ملحد كذَّاب وملحد فيه بقية من رجولة تعصمه من الكذب، وفرق بين من ينافق كريمًا، ومن ينافق خسيسًا، وبين من ينافق منافقًا، وهكذا تجد عالمًا متنوعًا ودناياهُ متُنوعة، وكل هذا له حسابه فى الدرجات والدركات.

وقد فطن علماؤنا إلى أن مجىء هذه الآية عقب ذكر الجن والإنس يفيد أن الجن يُثابون كما يعاقبون وأن لهم درجات فى الجنة حسب أعمالهم ولهم دركات فى الجحيم حسب أعمالهم أيضًا، وفى المسألة خلاف والذى فى الآية يرجح أنهم يثابون كما يعاقبون.

قوله تعالى: ﴿وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ هذه الجملة معطوفة على قوله ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ﴾ ومضمومة إليها مع أنها فى المعنى علة لها أو لمعلول محذوف هو منها، لأن درجات الأعمال هى الأمر المساعد والمعين على التوفية كما أقول قسَّمتُ درجات المادة على نقاط الأسئلة لأوفى كل طالب حقه، فكل نقطة فى الإجابة لها درجة، وكذلك الحال كل عمل عمله الإنسان له درجة إما إلى أعلى وذلك عمل الصالحين، وإما إلى أسفل وذلك

عمل المبطلين وسُلّم الدرجات هذا هو الذى يضمن الوفاء لكل ذى عمل وكان يمكن أن يقال ولكل درجات مما عملوا ليوفيهم أعمالهم بدون الواو، وحينئذ ستكون التوفية علة للدرجات فحسب ولكن الواو جعلتها تفيد مع هذا فائدة جليلة أخرى وهى أنها من مقاصد الكلام وليست مما يذكر تابعًا لغيره، لو حذفت الواو سيكون القصد من الجملتين هو لكل درجات وما بعده تابع له، والواو جعلت الجملة الثانية التى هى التوفية شأنًا آخر يضاف إلى الشأن الأول وهو فى منزلته وإن تضمَّن معنى العلة، وهذا من خفى النظم وجليله.

والتوفية ليس معناها الزيادة وإنما معناها التمام، والدرهم الوافى هو غير الناقص، والكيل الوافى والوزن الوافى المراد بكل ذلك التمام والخلو من النقص، وقال سبحانه ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِى وَفَّىٰ﴾ [النجم: ٣٧] والمراد الإشارة إلى قوله تعالى ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ [البقرة: ١٢٤]. وقد جاءت التوفية فى الكتاب العزيز لثواب الصالحين كما فى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠]. وكقوله سبحانه: ﴿وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ٢٧٢]. وكقوله جل شأنه: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾ [آل عمران: ٥٧]. كما جاءت التوفية فى عقاب الظالمين كما فى قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ﴾ [النور: ٣٩]. وكما فى قوله جل شأنه: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤) يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ﴾ [النور: ٢٤، ٢٥]. وفاعل التوفية هو الله سبحانه لأن التوفية لا تكون إلا منه، ولأنه لا يخطر فى البال فى هذا المقام غيره جلَّ وتقدَّس، والجملة مؤسَّسَةٌ على أمر إلهى كما سنبين، وقرئ بالنون، وقد عقب البقاعى على هذه القراءة تعقيبًا حسنًا جداً، قال رحمه الله (وقراءة الباقين بالنون

أنسب لمطلع السورة ولما يشير إليه من كشف حجب الكبرياء فى يوم الفصل)
انتهى كلامه. أما أن هذه القراءة أنسب لمطلع السورة فليس المراد أن قوله تعالى
فى مطلع السورة ﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ
مُّسَمًّى﴾ أن خلق السموات والأرض مسند إلى ضمير العظمة كما فى هذه
القراءة لأن هذا الشبه اللفظى قريب، وغور البقاعي أدق من أن يكون هذا
مراده، وإنما أراد أن خلق السموات والأرض بالحق إلى أجل مسمى يعنى
الثواب والعقاب وأن جملة ﴿وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ﴾، أفادت الأمرين الأجل
المسمى والثواب والعقاب، وكأنها تفسير وبيان وتأكيد هذا المطلع، وهذا ظاهر،
وأما أن هذه القراءة تشير إلى كشف حجب الكبرياء فى يوم الفصل، فذلك
لأنه لا يُحيط بهذا الخلق من المؤمنين والكافرين من الإنس والجن إلا الواحد
الأحد، لأن هذا الجمع جامع لكل ولد آدم من يوم أن برأ الله أبانا إلى يوم أن
ينفخ فى الصور، فى كل هذه الأجيال، وكل البقاع، وكل الأزمان، لا يَفْلِتُ
منه واحد، وقل مثل ذلك فى أمم الجن، والمسألة ليست مسألة إحاطة فقط وإنما
هى مسألة توفية كل عامل من الثقلين بعمله لا يغيب من ذلك شيء وكل واحد
يجد ما عمل حاضراً، ويجد كتاباً لا يغادر صغيرة ولا كبيرة، إلا أحصاها، لا
يضيع من كل ذلك شيء أى شيء، ﴿إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ
أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ﴾ [لقمان: ١٦] وتأمل أنت ذلك
لأنى لا أستطيع أن أكشف غوره وهذا كله بعض كشف حجب الكبرياء فى يوم
الفصل، ومثل هذه المعانى لا عهد لبيان القوم بها، ولهذا كانوا يقولون وهم
على الشرك لو كان هذا من كلامنا لعرفناه. والتوفية التى هى التمام وأنه
لا يُنْقَصُ من عمل عامل شيء ولا يزاد عليه شيء أمر إلهىّ محض والجملة
ناطقة بعز الألوهية، وكاشفة لحجب الجلال، ورحم الله البقاعى فقد كان يقترب
من الآيات ويُفَسِّرها وكأنه ساكن فيها وكأنها ساكنة فيه.

ولابد أن نلاحظ أن التوفية مؤسَّسَةْ على فضل مَنَّ به الرحمن على المؤمنين والملحدين، هذا الفضل هو أن الحسنة بعشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف ثم بعد ذلك يضاعف الله لمن يشاء، وأن السيئة بمثلها لا تزيد عن هذا المثل حَبَّة خردل، ولو زادت حبَّة خردل صار الظالم مظلومًا، والأول فضل الله يعطيه أولياءه، والثانى عدل الله يعصم به أعداءه من أن تقع عليهم حَبَّةٌ خردل زيادة عن ما فعلوه، والتوفية شاملة لعطاء السبعمائة ضعف لأنها صارت بكرم الله من أعمال الصالحين فالكلمة الحسنة توزن فى الأعمال بسبعمائة ضعف ويزيد الله فيها ما يشاء، وهى جزء من عمل العامل وداخل في الوفاء، الذى أوجبه الله على نفسه يعنى أنه سبحانه أعطى وملّك عبده العطيَّة وأدْخلها فى حساب عَبْده وصارت حقاً للعبد على الله، كل ذلك بمنّه ورحمته ولا يهلك على الله إلا هالك، أما صاحب المعصية فحسبه أن الله سبحانه كفّ غضبه عنه، وكفّ عداوته لربه عنه وقت حسابه ولم يحاسبه إلا على ما اجترح وأوجب على نفسه وهو يحاسب الفاجر المعاند ألا يزيد في عقابه حبَّة خردلٍ، وأشهد أن هذا هو الله المعبود بالحق.

ولو سألنا لماذا كانت الحسنة بعشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف ثم الله يضاعف لمن يشاء لكان الجواب أن هذا من فضل الله ثم هو إغراء لأهل الحق بعمل الصالحات التى تَعْمرُ بها الأرض ويأمن فيها الناس فلا يُفْزعهم ظلم ظالم ولا بطش متجبر يعنى أن إغراء الحق لعباده لعمل الصالحات ومضاعفة الأجر هو لصالح هذا الإنسان، وهذا ظاهر، وظاهر أيضًا أن من أهم أسباب هذه المضاعفات التى تتجاوز الحدود هو مقدار إخلاص العبد ومقدار قربه من ربه، ومقدار إحياء قلبه بالذكر واقترابه من الخير فقد يعمل العملَ الصالحَ رجلان ثم يتفاوت أجرهما فى العمل الواحد بالنظر إلى هذه الحالة التى هى فى ضمير العبد، الفاعل للخير والتى لا يعلم كنهها إلا علام الغيوب، وكل هذا إغراء آخر بطهارة القلوب، وصفائها، وامتلائها بالبر والرحمة وحب الخير، والولع بصالح الأعمال، وهذا يعنى أن هذه المضاعفات سبيل إلى إيجاد الإنسان الأرْقى والأسمى والأفضل، وهؤلاء هم ينابيع الخير فى هذا الوجود،

لم تُلَوّنهُم أنانيـةٌ ولا كذب ولا تدلـيس ولا تزوير وكل ذلك مما أفسـد حيـاة الناس ونرجو الله ألا يحرم هذه الأمة من هذه الينابيع.

وقوله سبحانه ﴿وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ جملة حالية من الجملة قبلها وهى جزء من معناها ومجيئها بالواو إيذان بأنهـا قريبة من أن تكون خبرًا آخر ليس جزءًا من الخبر الأول وهذا تأكيد لمعناها الذى هو نفى الظلم عنهم، ثم تقديم المسند إليه على الخبر الفعلى المنفى تأكيد آخر ثم مجىء الفعل المضارع يعنى أنهم لن يظلموا البتة ولن يسـتقبلوا ظلمًا البتة وقد اقـترنت هذه الجملة بهذا النظم مع التوفية فى آيات كثيرة من مثل قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لاَّ رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٢٥].

والمراد الذين قالواْ ﴿لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [آل عمران: ٢٤].

وقوله تـعالى: ﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ [البـقرة: ٢٨١] وقد تكررت بلفظها فى آل عمران ﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ [آل عـمران: ١٦١] والمراد فى آيـة البقـرة الذين قـال لهم الله ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨١] والمراد فى آية آل عمران من يَغْلُل: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٦١]، وهذا يعنى أن المراد بالضـمير فى قوله ﴿وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ الفـريقان من المؤمنين والـكافرين وليس الفـريق المستحق للعقاب كما فى بعض الكتب ونفى الظلم عن الفريق المستحق للعقوبة وأنه لا يزاد فى عذابه أمره ظاهر، ونفيه عن الفريق المؤمن أمره ظاهر أيضًا لأن المعنى أنه لا ينقص من حسناته شىء كمـا أنه يحاسب على ذنوبه التى لم يخل منهـا إلا من عصم الله، وحـاله فى حـال حسـابه على ذنوبه كـحال الفـريق المستحق للعقوبة لأن الذنوب من موجبات العذاب، وإن كانت دون الشرك.

قال البقاعى فى تفسير الجملة: «والحال أنهمْ لا يظلمون أى لا يتجدد لهم شىء من ظلم فى جزاء أعمالهم بزيادة فى عقاب أو نقص من ثواب. بل الرحمانية كما كانت لهم فى الدنيا هى لهم فى الآخرة فلا يظلم ربك أحدًا بأن يعذبه فوق ما يستحقه من العقاب أو ينقصه عما يستأهل من الثواب»، انتهى كلامه.

وهذه الجملة تلخيص شديد لآيات كثيرة حدّثت عن هذا اليوم كما مضى فى الجاثية ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية: ٢٨] وأبرز ما فى هذه الآيات الكثيرة هو تحقيق العَدْل المطلق ونَفْى الظلم أى ظلم ولذلك صور كثيرة منها أن ينطق الكتاب عليهم بالحق، ومنها أن تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم، ومنها أن يختم الله على أفواههم وتكلمنا أيديهم.

وكل هذا ليس فقط تأكيدًا لنفى الظلم عن مالك يوم الدين لأن المؤمنين يوم البعث ليسوا فى حاجة إلى ذلك والمنكرون للبعث لا يَغيبُ عنهم شىء من ذلك وإنما هو تأكيد لقيمة العدل والحق فى نفوسنا نحن الأحياء وأن الله جلَّت حكمته أقام هذا الوجود على الحق، والعدل، وأن الباطل والظلم ضد فطرة هذا الوجود؛ لأن الظلم يعنى القمع والقهر والسلب والنهب وليس فى تدمير الإنسان والأوطان أفعل من هذا.

قوله سبحانه: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ [الحاقة: ٢٠].

من المفيد أن نتأمل مجىء آية ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ﴾ بعد جملة ﴿وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ لأنها تُشْبِهُ أن تكون الفعل الذى يلى هذه

التوفيـة؛ لأن الذى بعد التوفيـة هو الجنة، والنار، وطوى ذكر الجنة لأن المعنى الأم للسورة هو ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ﴾ وتفاصيل أحوال الذين كفروا وبيان بطلان ما هم عليه من رفض الوحدانية ورفض النبوة هو الذى شغل أكثر مـا مضى من السورة وغلب عليهـا، ولاحظ أن ذكر الذين قالوا ﴿رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ وما تبـعه من ذكر الوصـيَّة كان قـد ساق إليه ذكـر الكتاب العزيز، ﴿وَهَذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾، ولاحظ أيضا تقديم إنذار الذين ظلموا عـلى بشارة المحسنين، كل ذلك يؤكد أن المعنى الأم والذى دارت حوله السورة هو الذى اقتضى ذكر الذين يعرضون على النار، والسكوت فى هذه الآية عن أصحاب الجنة وهم الفريق الذى له الدرجات الأعلى. هذا وجه مجىء هذه الآية بعـد الذى مضى ووجه تمكنها من مقـامها، ثم إنها موصولة وصلا ظاهرًا بالآية الأم ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ﴾ وراجع الكلمات تجد كلمة ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وكلمة ﴿يُعْرَضُ﴾ وتأمل المعنى تجد أنهم هناك أنذروا بعـذاب الله فأعرضـوا وهم هنا يعرضـون على العذاب الذى أنذروا به، وعلاقة هذه الآية بالآية الأم كعلاقة ﴿وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ﴾ بآية المطلع هناك خلق بالحق وأجل، وهنا تحقـيق الحق بالحساب والثواب والـعقاب، وهذه العلاقات الخـفية ذات شأن فى أسرار البـيان وكأنها خيـوط ذهبية مستـترة تشد الكلام بعـضه إلى بعض، والعـامل فى الظرف ﴿وَيَوْمَ﴾ إمَّا فـعل مـحذوف والتقدير اذكـر يوم يعرض وحَذْفُ الفعل فى مثل هـذا ليس عزيزًا فى الكتاب. وإما أن يكون القول المحـذوف؛ العامل فى قوله ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ﴾ أى يقال لهم والأول أولى لأن الفعل جاء مصرحا به فى الآية التى بعد هذه ﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ﴾ وكأن تقديره هنا إيماءة إلى ذكره بعد ذلك.

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ﴾ هو يوم القيـامة ويعبَّر عنه بعـبارات مختلفة مثل يوم التلاق ويوم التغابن ويوم يقوم الناس لرب العالمين إلى آخره،

وخفيٌّ جداً أن تبحث عن الملاءمة بين ما ذكر به هذا اليوم والسياق الذى اقتضى يوم يعرض الذين كفروا بدل يوم ترى كل أمة جاثية أو يوم التغابن إلى آخره، وهو هنا ليس خفيا لأن كلمة ﴿يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ كلمة تجذب لك الجملة الأم وتضعها بين يديك كما بينت ويوم القيامة هنا ذكر بيوم العرض لأن المعنى الأم للسورة هو إعراض الذين كفروا عما أنذروا، والواو التى افتتحت بها الآية قالوا هى عاطفة على قوله ﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ﴾، وهذا مَهْيَعَ من مهايع علمائنا فى العطف وهو جيد جيداً لأنهم يعودون بالكلام إلى ما هو أشبه به فى الكلام الذى سبق وبذلك ترتبط المعانى المتجانسة. بعضها ببعض، ويتحيز بعضها إلى بعض، حتى ترى خريطة الكلام. وقد تضام فيها الشبيه إلى الشبيه وتكوّنت فى مجاميع محدودة يسهل عليك الإمساك بها، ولك أن تعتبر هذه الواو واو استئناف تضم معنى إلى معنى، وأن المعنى الذى بَعْدها مضَموم إلى المعنى الذى قبلها سواء كان من جنسه أو لم يكن من جنسه، وهذا يُفْضى فى النهاية إلى أن تكون السورة قد ضُمَّ معانيها بعضها إلى بعض وتحيَّز بَعضُها إلى بعض ولا تجد تماسكا لمكونات البيان كهذا التماسك الذى تحدثه الواوات والفاءات، لأنها هى الروابط البينة وحسنُ إدراكها يُعين على ما تسمِّية وحدة السورة أو وحدة القصيدة أو الرسالة أو ما شئت من فنون البيان قال الزمخشرى فى بيان ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ﴾ عرضهم على النار تعذيبهم بها من قولهم عُرض بنوفلان على السيف إذا قتلوا به، ومنه قوله تعالى ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾ ويجوز أن يراد عرض النار عليهم، من قولهم عرضتُ الناقة على الحوض، يريدون عرض الحوض عليها، فقلبوا، ويَدُلُّ عليه تفسير ابن عباس رضى الله عنه يجاء بهم إليها فيكشف لهم عنها، انتهى كلامه، وكلام ابن عباس رضى الله عنه ليس قاطعا فى أن الآية من باب عرضت الناقة على الحوض كما قال الزمخشرى، وقد استدرك عليه ابن المنير وهو على حق وذلك لأن المعروض عليه لا بد أن يكون له إدراك يقبل به

أو يرفض والحوض لا إدراك له وإنما المدرك هى الناقة وهى التى تقبل الماء أو ترفضه ولهذا كان الأصل أن يقال عرضت الحوض على الناقة، وهذا بخلاف النار فقد وردت النصوص الكثيرة التى تفيد أن جهنم تدرك إدراك الحيوان، بل إدراك أولى العلم وعرض الذين كفروا على النار من باب عرض الأسْرَى على الأمير، هذا ما ذهب إليه ابن المنير، وهو كلام مؤسس على أنه لا يقاس الغائب على الشاهد ولايقاس خطاب الله لمخلوقاته على خطابنا لهذه المخلوقات ولهذا أرجح أن قوله تعالى ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ [ق: ٣٠]، جاء على الحقيقة وأن جهنم سُئلت وأجابت وليس هذا بعيدًا عن قوله سبحانه للسموات والأرض ﴿ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت: ١١]، وإذا صرفنا هذا إلى المجاز فماذا نقول فى قوله تعالى فى شأن داود الذى آتاه الله فضلاً وأخبر سبحانه أنه أمر الجبال والطير أن تُؤَوِّبَ معه ﴿يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ﴾ [سبأ: ١٠]، وسخر الريح لسليمان وعلّمه منطق الطير وسمع النملة تقول ما قالت والهدهد قال له ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ﴾ [النمل: ٢٢]، ومثل هذا لا يجوز حمله على المجاز فلماذا نقول إن عرض الذين كفروا على النار كعرض الناقة على الحوض؟

ولسنا فى حاجة إلى أن نذهب بعيدا ونقول إن الغائب لا يقاس على الشاهد وأن نار الآخرة لا تقاس على نار الدنيا أقول لسنا فى حاجة إلى هذا لأن الله سبحانه خاطب نار الدنيا وأمرها فأدركت خطابه وأمره وأنفذت ما طلبه منها وذلك قوله تعالى فى شأن إبراهيم عليه السلام ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩]، وهكذا يصرف الريح فتنصرف الريح ويسوق السحاب فينساق السحاب ويأمر ريح عاد فتدمر كل شىء.

وقد ذكر صاحب روح المعانى كثيرا مما قاله العلماء فى الآية ومال إلى ما قاله ابن المنير ومع ذلك ذكر وجها آخر بدأه بما يدل على أنه يجيزه وإن كان

لا يختاره، قال رحمه الله: (وربما يقال لا مانع من تنزيلها -يعنى النار- منزلة المدركة إن لم تكن حينئذ مدركة وكذلك تنزيل الحوض منزلة حتى كأنه يستعرض الناقة كما قال أبو العلاء المعرى:

إذا اشتاقت الخيل المناهل أعْرَضَتْ عن الماء فاشتاقت إليها المناهلُ

وبعد ذلك قد لايحتاج إلى اعتبار القلب) انتهى كلامه، وقد ذكرت أن علماءنا يذكرون كل ما يمكن أن يدل عليه اللفظ وأن هذا حق البيان عليهم، ولا حرج علينا إذا أخذنا وجها من الوجوه التى يحتملها اللفظ، وإنما نثير ما يجب أن يثار وفى المسألة بعد ذلك كلام كثير وهذا حسبنا بل إن فى منشأ أساليب القلب فى اللسان أيضًا، كلام كثير.

قوله جل شأنه: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾.

أول ما يلاحظ أن الكلام تحول من طريق الغيبة ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ﴾ إلى طريق الخطاب ليواجهوا ويخاطبوا بالذى أفضى بهم إلى هذا الهول المرعب الذى هو عرضهم على النار، وعذابهم بها أو رؤيتهم لها وهذا من تمام عدل الله، ومن تمام حكمته التى يلهمنا بها، وهو أن المعاقب يجب أن يعرف الذنب الذى يعاقب من أجله، وأن يواجه بذلك، ويكافح به وليس فى شرع الله ولا فى شرع أهل الأرض أن يعاقب أحد بغير ذنب، نعم يوجد هذا فى نظام الظالم المستبد الذى يدمر شعبه لحساب عدوه، والعدول من الغيبة إلى الخطاب زيادة لَفْتٍ إلى هذه القيمة، التى إذا غابت فقد غاب معها الضياء، وصار الناس فى ظلمات بعضها فوق بعض، وهذه الجملة مقولة قول محذوف أى يقال لهم: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ﴾ وقرئ بهمزة واحدة وبهمزتين الأولى استفهامية ويراد بها التقرير بذنبهم الذى أفضى بهم إلى هذا الهول، والقراءة بدون الاستفهام المراد الإخبار من الحق الذى يؤاخذهم بذنبهم، وأنه يعرضهم على النار، لأنهم أذهبوا طيباتهم فى الحياة الدنيا، والهمزة فى ﴿أَذْهَبْتُم﴾ للتعدية،

ودلالتها هنا أنكم تتحملون مسـؤولية ذهاب الطيبات، لأن الطيبات لم تذهب وإنما أذهبتموها، والطيبات نعمة من الله أنعـمها عليكم وجعلها لكم ولغيركم من عباده، المؤمن والكافر فى هذه الطيبات سواء، لأن الله سبحانه يقضى لكم فى الدنيا برحـمته، والكل مـغمور بهـذه الرحمة، ويقـضى بينكم فى الآخرة بعدله وقد أحَلَّ الله لكم الطيبات من الرزق، ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ [الأعراف: ٣٢] والفرق بين من أذهبوها وبين من ادخروها هو أن الجـميع انتفع بها، وأهل الله ذكـروا وشكروا فكان ذكر النعم وشكر المنعم أجل من النعم لأن النعم تذهب بالانتـفاع بها وشكرها لا يذهب لأنه عند الله ﴿وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [القصص: ٦٠] وهذا هـو معنى الهـمزة لأنهم هم الذين أذهـبوا الطيـبات وكـان يمكن أن تبـقى لو شكروها، والكل أذهب الطيبات من الرزق وأهل الإيمان أبقوا طيـبات هذه الطيبات وهى الشكر المذخور، وكلمة ﴿فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا﴾ تعنى أنكم لم تبقوا منهـا شيئًا إلى الآخرة، وكـانت هذه الطيبات للدارين: الانتـفاع بها فى الدنيا والانتـفاع بشكرها فى الآخرة، والثانى أدوم وأنفع وهو الذى حرمتم أنفسكم منه، وقوله سبحانه ﴿وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾ معطوفة على ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا﴾ قالوا وهو عطف تفسير، وذلك لأن جملة ﴿أَذْهَبْتُمْ﴾ المعنى الأظهر فيها أنكم استهلكتموها فى حياتكم الدنيا فجـاءت الجملة الثانية لتؤكد المعنى غير الأظهر فى الأولى وهو الاستمتاع، مع ملاحظة أن معنى استهلكتموها قائم فى الجملة الثانية أيضًـا ولكنه ليس الأظهر وهاتان الجملتان لا تقـفان عند معنى الإذهاب والاستمتاع. لأن هذا ليس ذنبا يفضى إلى العرض على النار، وإنما المقصود هو أنكم جعلتم هذه الدنيـا مبدءا ونهـاية وجعلتم وكدكم وكـدّكم لها مع تظاهر الأدلة على الحياة الثانية وأن الله ما خلق هذا الوجود بكل طيباته التى لم يُحْرم منها مؤمن ولا كـافر إلا بالحق وأجل مسمى، وأن هذه الطيـبات التى هى من

نعم الله، كان يمكن أن تكون لكم طيبة فى الدنيا وأطيب فى الآخرة لو آمنتم وذكرتم وشكرتم، القضية هى أنكم تتقلبون فى هذه الدنيا وتستمتعون بطيباتها وتنكرون أن الذى خلقها قادر على أن يحييكم مرة ثانية فى دار ثانية لا تفنى.

وهذه الخطيئة القديمة والموغلة فى القدم والتى تقوم على إنكار الحياة الثانية صارت فى زماننا مذهبا وسياسة وثقافة تدعو الناس إلى أن تكون حياتهم فى هذه الدار والعالم الذى يعيشون وأن ينكروا ما وراءه وأن يغلقوا باب الغيب وأن يُحكموا إغلاقه لأنهم إن فعلوا تقدموا وازدهروا وبنوا وصنعوا وعليهم أن يبذلوا كل جهدهم لطيبات هذه الدنيا والاستمتاع بها ومن فاته ذلك فقد خسر الخسران المبين وأن الاعتقاد فى نعيم آخر بعد الموت بثٌ فى الناس روح التخاذل فى تحصيل النعيم قبل الموت، وهذا باطل وتضليل لأن عمارة هذه الدنيا وزرع الصلاح والأصلح فيها هو الطريق الذى لا طريق سواه لنعيم الحياه الآخرة، والفرق هو أن من لم يؤمن بالبعث والحساب يعيش بغرائزه فى هذه الحياة فيستبيح الظلم والسرقة والنهب ويفقد إنسانيته كما هو الحال عند هذه الجماعات المؤمنة بهذه الدنيا وحدها والمتشبثة بها وحدها والضاربة صفحا عن البعث والثواب والعقاب، والإيمان بالغيب، فرق بين عمارة الأرض بالغرائز المتوحشة وعمارتها بالروح الإنسانية والمعايير الأخلاقية.

قوله سبحانه: ﴿فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾.

هذه الفاء تفيد ترتيب ما بعدها الذى هو المجازاة بعذاب الهون على ما قبلها الذى هو إذهاب طيباتكم والاستمتاع بها، وهى داخلة فى مقول القول المحذوف، ومرة ثانية تجد أن إذهاب الطيبات والاستمتاع بها فضلا عن أنه أفضى إلى عرضهم على النار هو هنا يجلب عليهم عذاب الهون مع أن الطيبات لم يحرمها الله على أحد ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ وإنما كانت خطيئة جالبة لهذا كله لأنها صدرت عن من

لم يؤمن بالله ولا بالبعث ولم يذكر المنعم ولم يشكره، والسؤال هو لماذا عبرّت الآيات عن هذا الإلحاد أو المذهب الدهرى أو الدنيـوى المحض بإذهاب الطيبات والاستمتـاع بها، وكان يمكن أن يقال لهم لما عُرِضُوا على النار كَـفَرْتُمْ بالبعث وباليوم الآخر، وبالثـواب والعقاب، وكان يكون هذا مـباشرا فى الدلالة على المقصود؟ والجواب -والله أعلم بمرادة- هو الإشارة إلى أن السبب الحقيقى وراء إعراض الذين كـفروا عمـا أنذروا ودعائهم من لا يسـتجيب لـهم وقولهم فى القرآن هذا سحر، وأنه مُـفْـترى، وأنه إفك قـديـم وأسـاطير الأولين إلى آخـر ما ذُكر فى السورة ليس هو نقص الأدلة، وليس لَبْسًا فيها وإنما هو الولع الشديد بطيبات هذه الدنيا، والاستمتاع بها، والاغترار بها، كما ستبين الآية وأنهم لهذا كانوا يستكبرون، ولهذا أيضًا كانوا يفسقون، ولست فى حاجة إلى أن أشير إلى أن الولع بطيبات الدنيا والاستمتاع بها لم يكن سبب ضلال من نزل فيهم القرآن فى الزمن الأول، وإنما هو السبب وراء المعارضة لدين الله فى الزمان كله والأجيال كلها، والذى حـولى وحولك هو هو كما وصف الـقرآن فليس السلب والنهب والظلم والقمع وتخريب البلاد وتدمير العباد وإبادة الشعوب وتدمير الدول ليس وراء ذلك إلا هذا السـبب، وليس وراء الحـروب إلا الرغبـة فى سلب ثروات الشعوب؛ وليس وراء استبداد المستـبد إلا الطمع فى الدنيا والرغبة فى التسلط، وليس وراء القمع إلا أن تسكت الأصوات المطالبة بحقوق الشعوب فى ثرواتها وأن تعيش حرة كـريمة على أرضها، وعليك أنت أن تتابع أثر كلمتى طيـبات الحياة الدنيـا والاستمـتاع بهـا فيـما يجرى علـى الأرض، «واليوم» فى قوله تـعالى ﴿ **فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ** ﴾ المراد به ﴿ **وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ** ﴾، لأن الكلمة إذا جاءت نكرة ثم تكررت مُعرّفـة كانت هى كما فى قوله ﴿ **أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولاً (١٥) فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ** ﴾ [المزمل: ١٥، ١٦]، فالرسول الثـانى هو الرسول الأول، وكـذلك هنا اليوم الثـانى هو اليوم الأول، وكلـمة

﴿تُجْزَوْنَ﴾ كلمة واقعة موقعا حسنا جداً لأنها جاءت فى سياق الغضب الشديد على هؤلاء الذى فتنتهم طيبات الحياة الدنيا وصاروا أعداء لرسول الله ﷺ وأعداء لله ولدينه فأقامت كلمة الجزاء الحق والعدل وأن الغضب بالغًا ما بلغ ومهما كانت أسبابه لا يجيز لأحد أن يعاقب المذنب الظالم المعاند لله بأكثر مما يستحق لأن مفهوم الجزاء فى الكتاب العزيز قاطع فى أنه جزاء السيئة بمثلها لا يزيد عنها شيئًا فلم يقل سبحانه فاليوم تعاقبون ولا فاليوم تعذبون وإنما قال ﴿تُجْزَوْنَ﴾ ليذكرنا بهذه القيمة العظيمة وهى أن المذنب معصوم إلا بقدر ما أذنب، وبمثل ما أذنب ويحذرنا ربنا من الإفراط فى العقوبة لأن دم الإنسان حرام إلا بحقه، وما له حرام إلا بحقه، وظهره حرام إلا بحقه، وكلمة ﴿تُجْزَوْنَ﴾ بمدلولها القرآنى العظيم ترجع إلى قوله سبحانه قبلها ﴿وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ وليس فى العدل أعدل من أن يُحرِّمَ ربنا علينا ظلم الظالمين إلا بمقدار ما ظلموا، وأن تكون كلمات القرآن العظيم فى مواقف الغضب ضابِطةً لهذه الحقيقة، ومُعْلِيَةً هذه القيمة ومحذِّرة من تجاوزَها، قلت إن يوم يعرض الذين كفروا هو يوم تجزون وهذا لا يعنى أن يكون العرض على النار التعذيب بها كما قال بعضهم لأن المضارع فى قوله ﴿تُجْزَوْنَ﴾ صالح لأن يكون فى المستقبل فيصح معه العرض بمعنى الكشف عنها ورؤيتها، وكلمة ﴿عَذَابَ الْهُونِ﴾ تعنى عذاب الهوان والإهانة والإذلال وهو غير العذاب الأليم والعذاب الشديد وكل وصف للعذاب يُحَدِّدُ ويُبيِّن المراد منه وعذاب الهون فى الآية الكريمة هو المناسب للاستكبار وهو مسبب عن الاستكبار، وقد جاءت كلمة ﴿عَذَابَ الْهُونِ﴾ فى الكتاب العزيز فى ثلاث آيات وكلها مقترنة بالاستكبار. هذه الآية واحدة منها والثانية فى الأنعام فى قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ

تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام: ٩٣]، راجع كلمة ﴿وَالْمَلائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ﴾ وضع بإزائها ﴿الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ﴾ واسمع قول الملائكة ﴿أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ﴾ هذه آية من أعظم الآيات وأبلغها وأنفذها، والآية الثالثة قوله تعالى فى سورة فصلت: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [فصلت: ١٧].

وعذاب الهون هنا ليس هو عذاب المجازاة كما فى الآيتين السابقتين.

وإنما كانت المجازاة بالصاعقة وجاء عذاب الهون وصفا لها، وهذا أيضا مقترن بالاستكبار، لأن الذين استحبوا العمى على الهدى هم الذين استكبروا، وجاء خبرهم فى سورة الأعراف فى قوله تعالى: ﴿قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ (٧٥) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنتُم بِهِ كَافِرُونَ (٧٦) فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ [الأعراف: ٧٥-٧٧].

ويلاحظ أن المجازاة فى الكتاب العزيز تكون عادة على ما كانوا يعملون أو ما كانوا يكسبون يعنى مجازاة أعمال ويذكر معها العذاب الشديد أو الأليم أو عذاب من رجس إلى آخره، ولما ذكر عذاب الهون كانت المجازاة ليست على أعمال، وإنما هى مجازاة على نزوع نفس وشعور بالاستعلاء، والتكبر والتجبر وكأنه تميّز عن جنسه، وفاق هذا الجنس.

وفرق بين عذاب الهون والعذاب الهون لأن الإضافة جعلت العذاب من معدن الهون، وهذا الفرق كالفرق بين قولنا الرجل المحسن ورجل الإحسان، الإضافة فيها معنى أنه عُرِف بذلك وشُهِر به، وصار من طباعه وسجاياه.

وفى الآية شىء يجب أن يراجع وهو أن الفاء التى فى قوله سبحانه ﴿فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ﴾ رتبت المجازاة بعذاب الهون على إذهاب الطيبات

والاستمتاع بها ثم إن الجار والمجرور فى قوله ﴿بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ علل عذاب الهون بالاستكبار والفسق، وهذا يعنى أن هذه الأربعة التى هى إذهاب الطيبات والاستمتاع بها والاستكبار والفسوق بينها رابط سلكها فى سلك واحد فما هو هذا الرابط؟

وكيف صارت فى طبقات الذنوب طبقة واحدة؟

وجواب ذلك -والله أعلم بمراده- هو أن الولع بالدنيا أفضى إلى عذاب الهون لأنه مقترن بإنكار الحياة الآخرة، وأن الاستكبار هو سبب رفض الإيمان والمراد بالفسوق فى الآية الكفر، فالآية الكريمة ذكرت الفسوق الذى هو الكفر، وسببه الذى هو الاستكبار. ومظهره الذى هو الولع بالحياة الدنيا.

وفى القرآن الكريم آيات حدَّثت عن الكفر ليس بلفظه وإنما بإرادة الحياة الدنيا كما جاء فى سورة هود فى قوله تعالى ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ (١٥) أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ﴾ [هود: ١٥، ١٦]، وإرادة الحياة الدنيا وزينتها كناية عن إنكار الآخرة، ولو لم تكن إرادة الحياة الدنيا مقترنة بإنكار الآخرة ما كانت حراما لأن حب الحياة الدنيا وحب المال وحب البنين كل ذلك مما فطر الله الناس عليه ولكن أصحاب الفطرة السليمة انقادوا لآيات الله البيِّنات، وكَدُّوا وجَدُّوا فى هذه الحياة الدنيا وهم ملتزمون بشرع الله، وأمره، ونهيه، وجعلوا هذه الدنيا سبيلا إلى طاعة الله، وطلب رضاه، وأحلّ الله لهم طيباتها وأحل لهم حَلاَلَها وحرم عليهم حَرَامَها وكانت هى زُخْرهم المذخور لهم عند الله، وجعل الله جهاد أهل الإيمان فى طلب الرزق والخير وعمارة الأرض من القربات وأخبرنا أن اليد العليا خير من اليد السفلى وأمرنا بالجهاد الذى نحمى به أرْضَنَا وديارَنا وأعْرَاضَنا، وأمرنا أن نمشى فى مناكبها وأن نأكل من رزقه، وكانت إرادة الآخرة من أهم

الدوافع للجدّ والكدّ فى هذه الدنيا وعمارتها بالبر والعدل والخير، وإعداد القوة لحماية العدل والبرّ ومدافعه الظلم فى الأرض، وهذا ظاهر، والذين أرادوا الحياة الدنيا وليس لهم فى الآخرة إلا النار هم الذين جعلوها بداية ونهاية، وتوشك أن تكون إرادة الدنيا التى ليس لها فى الآخرة إلا النار والتى هى مذهب موغل فى القدم هى العلمانية التى يتمذهب بها من يعقل ومن لا يعقل.

وبقى شىء هو أن تعبير القرآن عن الكفر بالفسوق وبالظلم وبالولع بالحياة الدنيا فيه تنبيه وتحذير لأهل الإيمان من خطر الظلم، وخطر الفسوق، وخطر الولع بالدنيا، لأن هذا مع الغفلة قد يفْضِى بالذى آمن إلى باب الهلاك، لأن الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، فالطاعة والذكر هى الحصون التى تَحْفظ الإيمان.

والمعصية والغفلة عن ذكر الله هى الرَّسَنُ الذى يقتاد به الشيطان أهل الحق إلى أودية الضلال والله غالب على أمره.

وقوله سبحانه ﴿بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ قَيَّد الاستكبار بقيدين الأول قوله ﴿فِي الأَرْضِ﴾ والثانى قوله ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ وأسرار هذه القيود خفية. ودقيقة، أما القيد الأول فيُمْكن أن يُفسَّر بمعانٍ. أول هذه المعانى أن يكون قوله ﴿فِي الأَرْضِ﴾ تأكيدا للاستكبار وأن يكون من باب قوله تعالى ﴿الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]، والقلب لا يكون إلا فى الصدر، كما أن الاستكبار لا يكون إلا فى الأرض، ومثله ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: ٢٦]، والسقف لا يخر إلا من فوق، ﴿وَتَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾ وكل ذلك توكيد وتصوير للفعل، ومثله قولنا رأته عينى وسمعته أذنى، وهذا التوكيد فى الآية مشوب بغضب كالتوكيد الذى فى آية الإفك ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٥]، ووجه آخر وهو أن يكون فى الأرض إشارة إلى أنه استكبار فى الأرض التى هى عندكم المبدأ

والمنتهى، وأنه لا حياة بعدها فأنتم تذهبون طيباتكم فيها وتستكبرون فيها، لأنها وحدها عالمكم الذى تزاولون فيه كل شىء مع أن الأدلة تظاهرت وتساندت على أنها عالم أرضى دنيوى سفلى هالك بكل ما فيه، وقيمته فى الذى يبقى منه مذخورا عند الله من فعل الخيرات، وإقامة الصلوات ﴿وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ﴾ [آل عمران: ١١٥]، ووجه آخر وهو أن يكون المراد بالأرض كل الأرض كما فى قوله تعالى: ﴿يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الأَرْضِ﴾ [غافر: ٢٩]، أى ظاهرين وغالبين فى الأرض وفى هذا الوجه تضخيم وتهويل لاستكبارهم، وعتوهم وهذا يقترب من قوله تعالى ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥] والقيدان فى استكبار عاد هما القيدان فى الآية، وقولهم ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ يعنون بذلك أهل زمانهم فى الأرض كل الأرض، ووجه آخر هو أن يكون القيد إشارة إلى أنهم ينازعون الله رداءه لأن الله وحده هو الذى له الكبرياء فى السموات والأرض، وهو العزيز الحكيم.

هذه هى الوجوه التى يحتملها القيد الأول، وأملى أن تثير فى نفس القارئ وجوهًا أقرب.

أما القيد الثانى وهو قوله سبحانه: ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ فقد ذكر علماؤنا أن هذا القيد يشير إلى أن هناك استكبارًا بالحق، وهو الاستكبار على المستكبرين، بمعنى الاستعلاء عليهم، وكسر أنوفهم، لأن الله سبحانه يطالبنا بالاكتفاء الذاتى، وبالقوة حتى لا تكون لهم يَدٌ علَيْنا، ويعكر على هذا القول أنهم وصفوا بالكفر ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ﴾ ولا يتصور أن يكون استكبار أهل الباطل بحق حتى يحترز بهذا القيد، ولهذا القيد نظائر كثيرة فى الكتاب العزيز منها قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ﴾ [غافر: ٣٥].

ولا يجوز أن يكون هناك جدال فى آيات الله بسلطان، يعني ببرهان وحُجَّة، ولا أجد لمثل هذا القيد إلا وجهًا واحدًا وهو الإعلاء من قيمة الحقِّ وغَرْس هذا الإعلاء فى نفوس أهل الإيمان وأن الحق هو السَّنَد لكل ما يكون من الإنسان، وأن الحق يتغلغل فى كل شىء، ولو كان للاستكبار سَنَدٌ من الحق لكان مقبولاً، وكذلك يقال فى الجِدَال فى آيات الله بغير سلطان فيه إشارة إلى إعلاء السلطان الذى هو البرهان، ولو كان للجدال فى آيات الله سلطان لكان الجدال مرضياً وكل هذا على حد قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ [الزخرف: ٨١].

الآيات تعلمنا أنه لا يقف أمام الحق حاجز ولا يقف أمام السلطان الذى هو البرهان حاجز، وأن كل شىء له سَنَدٌ من الحق، والبرهان يجب التسليم به، وهذه قيمة عالية جداً فى كل شأن من شؤوننا لأن أكثر ما نحن فيه لا برهان له، ولو جعلنا للحق والبرهان سلطانًا لذهبت الأباطيل كلها وذهب التدليس كله والتلبيس كله والزيف كله والكذب كله ولتغير حالنا ولصار أمرنا فى يد الشرفاء منَّا، وأهل العلم وأهل البصيرة بسياسة الأمم وقوله سبحانه ﴿وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ معطوف على قوله: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ وهو قسيمه فى سببية المجازاة بعذاب الهون، وهذه دلالة اللغة ومن أجل تأكيد هذه السببية أعيد الجارُ والمجرور وتدل كلمة ﴿كُنتُمْ﴾ فى الجملتين علي أنهم زاولوا الاستكبار والفسوق حتى كان ذلك جزءاً من ماهيَّاتهم وطباعهم وفى هذا مزيد تعنيف وتوبيخ وغضب.

والفسوق: أصله الخروج من قولهم فسقت الرُّطَبَةُ إذا خرجت من قشرها، قال ابن الأعرابى «لم يسمع الفاسق فى وصف الإنسان في كلام العرب وإنما قالوا فسقت الرطبة عن قشرها» والفاسق هو الخارج عن حَجْر الشرع أى

منعه والحجر بفتح الحاء معناه القيد والتضييق وحَجْر الشرع الأوامر والنواهى والخروج عليها من التعدى على حدود الله، والفاسق أعم من الكافر، وقد جاء بمعنى الكفر كما فى قوله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا﴾ [السجدة: ١٨] فقابل المؤمن بالفاسق أى الكافر وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [الأنعام: ٤٩] فَسمَّى التكذيب بآيات الله فسقًا، وهذا كثير، ومنه الآية التى معنا لأن المخاطبين هم الذين كفروا ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ﴾ ويقال لمن خرج عن حدود الشرع ولو بأمْرٍ يسير فاسق وهذا هو الأصل، ولكنها تقال لمن كثر منه الخروج قال الراغب: «وأكثر ما يقال لمن التزم حكم الشرع وأقرَّ به ثم أخلَّ بجميع أحكامه أو ببعضه».

وقد ذكر العلماء أن الاستكبار تقدم على الفسوق لأنه من أعمال القلوب والمراد به الاستكبار على الإيمان والفسوق من أعمال الجوارح وإن كان فسوق مَنْ كفر.

والآية الكريمة ذكرت السبب الحقيقى لعرضهم على النار وهو الكفر ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ﴾ ثم خوطبوا خطاب لوم وتأنيب وتعنيف وبيان الأعمال التى أفْضت بهم إلى هذا العرض بما يمكن أن يكون من أهل الإيمان وهو إذهاب الطيبات بمعنى هلاك أعيانها والاستمتاع بالطيبات والاستكبار الذى قد يداخل قلب المؤمن فى صورة الإعجاب بالنفس أو الخيلاء الذى يداخل الواحد منا بسبب جاه أو مال والفسوق الذى هو خروج عن ضوابط أمر الله ونهيه، وقد ذكرت أن هذا الخطاب بالذى يكون من أهل الإيمان فيه تحذير شديد من هذه الخلال، وإن كانت مباحة؛ لأن الإفراط فى الولع بالدنيا ومُتعها قد يغلب على القلب فيُنْسيه الذكر فتصْبح حاله كحال هؤلاء الذين عُرضوا على النار، وكذلك الاستعلاء الذى قد يبدأ بالعجب بالنفس ثم

يتحــوَّل إلى الطغيان، والاستكبـار، وهكذا، ولذلك كان كثيـر من الصالحين يبتعد عن المباح من هذا، فقد روى عن كـثير منهم أنهم كانوا يؤثرون خشونة العيش على التنعم مع قـدرتهم على هذا التنعم، ويهضمون نفـوسهم بالتذلل والخضوع حتى يَسُدُّوا حولها منافـذ الخيلاء، ويَرْعَوْن بعيدًا عن الحـمى حتى لا يقاربوا حدود الله، وقد لاحظت أن الكتاب العزيز يُعبِّر عن أبْشَع صور الكفر بالظلم كما فى قوله تعالى: ﴿ **فَمَنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ** ﴾ [آل عمران: ٩٤] فـالكفر برد دلائل النبوة كفر قـبيح، والكفر بافتـراء الكذب على الله كفـر أقبح، واسم الإشـارة فى قوله: ﴿ **فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ** ﴾ [الحجرات: ١١] يعنى أنهم استحـقوا وصف الظلم بسبب وَصْفهم بالذى تقدَّم لأن اسم الإشارة فى مثل هذا الموقع يشير إلى استحقاقهم ما يأتى بعـده بسـبب وصـفـهم بالذى قـبله، وهذا يعـنى أن الظلم درك أسـفل من الأسفل، وناهيك عن مثل هذا التعبير فى تبشيع الظلم فى كل صوره.

هذه الطرائق من التعبير القرآنى وإن كانت تحدثنا عن الذين كفروا هىَ أيضًا تحدثنا عن أنفسنا وتقول لنا: احذروا من أن تتصفوا بما اتصف به هؤلاء، هذا والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ **وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ** ﴾ [الأحقاف: ٢١].

كانت الآية السـابقة نهاية الحديث عن الذين كـفروا وأعرضوا عـما أنذروا وانتهى الحـديث عنهم إلى مجازاتهم بعـذاب الهون، ولك أن تراجع تسلسل المعانى من الآية الأم ﴿ **وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ** ﴾ إلى عرضهم على النار، وقد بَيّنْتُ تسلسل ذلك وكررته وبيَّنْت شدة ترابطه وتماسكه.

والآن انتقل الكلام إلى طريق آخر هو ضرب الأمثال وكيف يصرفها القرآن لنا، وأن هذه الأمثال كـانت تكون تسلية لرسول الله ﷺ وتخفـيف ما يجده

من عَنَتٍ وصَلَفٍ من قومـه، والمقصود منهـا لا ينتهى عند هذا لأن الذى لنا نحن من ذكر قوم هود فى هذه السورة كالذى كان لمن نزلت فيهم، لا يَنْقُص منه شىء، وليس فى القـرآن كلمة واحـدة انتهى مـعناها بانتهـاء الأمر الذى نزلت فيه، وسأحاول بيان ذلك.

وأول ما يُنظر إليه فى الآية هو صلتها بالكلام قبلها ثم صلتها بالمعنى الأم الذى دارت حوله السورة، وكيف كانت الآيات إضافة فى بناء المعنى الأم للسورة.

أما صلتهـا بالآية التى قبلها وما سبق الآية التى قبلـها فهو أن آية: ﴿**وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ**﴾ بيـان نهاية مـا دلت عليـه الآية الأم، وهى ﴿**وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ**﴾ فقد أعرضوا من بداية الحديث عن الإنذار وهم الآن يعرضون على النار، وهذا بيـان لحالهم فى الآخرة، وآية ﴿**وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ**﴾ تشير إلى تَهْديد ليس بعذاب الجحيم يوم يعرضون على النار، وإنما تشيـر إلى عذاب الاسـتئصـال فى الدنيا لأن الذى ذكـر من قصـة عادٍ ليس عذابهم فى النار وإنما الريح التى تدمر كل شىء بأمر ربها.

الآية السابقة زجر لهم بعذاب الآخرة، وهذه الآية زجر لهم بعذاب الدنيا، وهذا وجه من الـتماسك الذى لا يحـتاج إلى بيـان، وقد ترى أن التـخويف بعذاب الاستئصال فى الدنيا أكثر زجراً للقوم لأنهم ينكرون البعث أو يزعمون أنهم ينكرونه والذى ينكر البعث حقيقـة أو زعمًا لا يخوّف بعذاب النار، لأنه غـير مـؤمن بالغيب، ولأن الله سـبحـانه وتعالى قـال: ﴿**إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا**﴾ [النازعات: ٤٥]، وإذا كان الإنذار بالساعة لمن يخـشاها فما وجه إنذارهم بعذاب الآخرة؟

والجواب الذى لاشك فيه أن الله سـبحانه وتعالى علم منهم أنهم أدركوا الحق ولكنهم كفروا عنادًا واسـتكباراً لأن الله سبحانه أيد أنبيـاءه بالمعجزات الظاهرات والآيات البـينات والحـجج القاطعـات وكلهم رأى الحق وتبـينه،

فالذين استضعفوا يقولون للذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين، يعنى أنهم أدركوا الحق ولكن الذين استكبروا كفروا استكبارًا وهؤلاء كفروا اتباعًا وقال سبحانه: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٣) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ﴾ [البقرة: ٢٣، ٢٤] وهذا انذار وأنهم لن يفعلوا لأن هذا القرآن لا يفترى من دون الله، لأنه كلامه ولا طاقة للإنس ولا للجن أن يأتوا بسورة من مثله، وفى سورة الأحقاف إشارة إلى هذا وذلك فى قوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾ فذكر اللسان العربى الذى يعلمونه، ثم ذكر أنه ينذر الذين ظلموا، وكلمة ظلموا لها هنا دلالة يعنى لم يقل سبحانه لينذر الذين كفروا لأن هؤلاء ظلموا أنفسهم لما أدركوا الحق ولم ينقادوا له كما قال تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ﴾ [الزخرف: ٧٦] والعبارة عن الكفر بالظلم صريحة فى أن من كفر فقد ظلم نفسه لأنه عرف الحق وعاند، وقال تعالى: ﴿إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ﴾ [غافر: ٥٦] يعنى ليس كفرًا وإنما هو الكبر الذى حال بينهم وبين الإيمان، وأرسل الله سبحانه محمدًا بشيرًا ونذيرًا، وهو عليه السلام إنما ينذر من يخشاها فالأدلة التى أيده الله بها أدلة لا يتطرّق إليها احتمال ولا يَسَعُ أحد أن ينكرها، ولهذا كان إنكارهم كلا إنكار لأن الأدلة تظاهرت على نفيه، وإنما قالوا ما قالوا فى الحق بعد ما تبين ولو كانوا صادقين فى قولهم هذا سحر، لجاؤوا بسحر مثله، ولو كانوا صادقين فى قولهم: ﴿افْتَرَاهُ﴾ [هود: ١٣]، لجاؤوا بمثله. القوم كذبوا على أنفسهم وظلموا أنفسهم وأنكروا الحق بعد ما تبين والمراد بقوله جل شأنه: ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا﴾ أى لم تبعث لتعلمهم وقت الساعة الذى لا فائدة لهم فى علمه، وإنما بعثت لتنذر من أهوالها من يكون فى إنذارك لطفًا له

فى الخشية منها، هكذا قال الزمخشرى وهو من أعلم علمائنا بأسرار البيان وكلامه فيه أن الجواب ردٌّ لطلبهم معرفة موعدها لأن ذلك لا يفيدهم بشىء ولأن هذا ليس شأن محمد وإنما بعث محمد صلوات الله عليه لينذر من أهوالها من انتفع بهذا الإنذار ومن حَظِى بلطف الله وخاف من عذابه وهذا هو معنى قول الزمخشرى لتنذر من أهوالها من يكون فى إنذارك لطفًا له فى الخشية منها»، ورسول الله ﷺ لا يعلم ولا يستطيع أن يعلم أن فلانًا سيكون فى إنذاره له عليه السلام لطف له وأن فلانًا لن يكون فى الإنذار لطف له، وإنما كان يتجه بإنذاره إلى الكافة ثم يتدارك الله بلطفه من هداه، ويخذل من أضله، ولو راجعت هذا مرة ثانية ستجد أن الكل أدرك أن الساعة حق والبعث حق ثم دخل فى دين الله من تداركه الله بلطفه وعاند من حقت عليه الكلمة، وليس فى القرآن آية واحدة تدلنى على أن كافرًا واحدًا كفر لغموض الدليل وضعف البرهان وإنما انصرف عن الحق وهو يعلمه.

قلت إن آية ﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ﴾ انتقال من التخويف بعذاب الهون إلى التخويف بعذاب الاستئصال وهذان أخوان، وهذا وجه ارتباط الآية بما قبلها.

أما ارتباط هذه الآية وما بعدها بالآية الأم فهو ارتباط أظهر من ارتباطها بالآية قبلها لأن ارتباطها بالآية قبلها من تصريف القول وتوصيله وقد أخبرنا ربنا سبحانه أنه يصرف القول لنا: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ﴾ [الإسراء: ٤١] وأنه سبحانه يوصّل القول لنا: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ﴾ [القصص: ٥١] وهذه إشارات إلى نهج بيانى فى الكتاب العزيز وقد فطن له الباقلانى حين تحدث عن الانتقال من معنى إلى معنى فى الكتاب العزيز وعدَّه الباقلانى بابًا من الإعجاز، وهو باب جليل لم يدرس لا فى الكتاب ولا فى الحديث ولا فى الشعر، لأن المقصود ليس المناسبة فقط وإنما تجد الكتاب ينتقل من معنى إلى معنى فى سورة ثم ينتقل من هذا المعنى نفسه إلى معنى آخر فى

سورة أخرى، وتسأل لماذا انتقل هنا إلى معنى كذا وانتقل هناك إلى معنى آخر وهو من أهم وأدق أسرار البيان فى الكتاب العزيز.

أما علاقة ﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ﴾ بالجملة الأم ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ﴾، فقد دلّت عليه الآية بلفظ ظاهر كأنه علامة منصوبة فى طريق القارئ ليرجع بوعيه ويقظته إلى الجهة التى تشير إليها هذه العلامة وهذا اللفظ هو قوله تعالى: ﴿إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالأَحْقَافِ﴾ ولو تأملت هذا الفعل وزمانه المدلول عليه بكلمة ﴿إِذْ﴾ لوجدت كل ما ذكر عن هود عليه السلام وقومه فى السورة لا يخرج عن هذا الحدث وزمانه فكل الذى فى القصة هو إنذار هود لقومه ورفضهم الإنذار أو إعراضهم عنه ثم وقوع عذاب الاستئصال. وهذه هى الأحداث الثلاثة التى فى خبر عاد فى السورة، والجملة الأم فى السورة عمودها كلمة ﴿أُنذِرُوا﴾ ولهذا قدمت عن موضعها وأصل الكلام والذين كفروا معرضون عما أنذروا، وإذا رأيت القرآن يزحزح كلمة عن موضعها فلابد أن تقف عندها لأنه ينبئك عن سر وراء هذه الزحزحة، والسر هنا هو أن أصل المعنى هو الإنذار وقدم ليكون فى أنف الخبر الذى هو ﴿مُعْرِضُونَ﴾، والإنذار والإعراض أصلان من أصول ثلاثة دارت عليها قصة أخى عاد فى السورة، والأصل الثالث وقوع العذاب وبوقوع العذاب يتم المقصود، وهو زجر الذين أعرضوا عن الإنذار؛ وهذا ظاهر إن شاء الله، وظاهر أيضًا لماذا اقتصر القرآن على ما اقتصر عليه من قصة هود عليه السلام ولم يذكر شيئًا من مثل قوله: ﴿لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي﴾ [هود: ٥١] أو قولهم له: ﴿إِن نَّقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾ [هود: ٥٤] إلى آخر ما جاء فى السور التى ذكرت هودًا وقومه عليه السلام.

ولو قلت إن الجملة الأم هى التى انتقت من قصة هود عليه السلام ما ذكر فى السورة لم تكن مخطئًا.

والسؤال الذى يأتى بعد ذلك هو لماذا أوثرت قصة هود وقومه وكان يمكن أن نجد هذا المعنى أو هذه القصة أو هذا التنبيه فى قصة أى أمة من الأمم التى هلكت بعذاب الاستئصال، مثل ثمود وأهل مدين وفرعون، لأنهم جميعًا أنذروا فأعرضوا فهلكوا؟ ولما ورد هذا السؤال على نفسى وجدت السورة هى التى تجيب، وذلك فى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَىٰ﴾ وأقرب القرى إليهم قرى عاد، لأنها جزء من الجزيرة ولا ينافسها فى ذلك إلا قرى ثمود، وإنما أوثرت عاد لأنهم كانوا أقوى الأمم الهالكة، وهم الذين قالوا: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥] وقال لهم هود عليه السلام: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ٦٩] وقال لهم أيضًا: ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٠].

وهذا التفوق فى القوة والبطش والبسطة فى الخلق والإمداد بالأنعام والبنين كل ذلك يرشّح عادًا لأن المقصود الأصلى هو أنْ الإعراض عن الإنذار يدمِّر الأمة ولا يُغْنى تفوُّقها شيئًا عنها، وقد دلتنا الآيات على ذلك وكأنها تبين لنا سر اختيار عاد فى هذا المقام، وذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ﴾ يعنى أهلكناهم وهم أشد منكم قوة وتمكنًا، وقول عاد: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ قوة قريب من قول مؤمن آل فرعون لقومه ﴿لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الأَرْضِ﴾ [غافر: ٢٩] وهذه إشارات تدل على أنها أقوى الأمم التى بادت بعذاب الاستئصال، وهذا يفسر اقتران عاد بآل فرعون فى آيات كثيرة وتذكر معهم ثمود، نجد هذا فى الحاقة: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ ۝٤ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ۝٥ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٤- ٦] ثم يأتى قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ﴾ [الحاقة: ٩]، وفى سورة الفجر: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦

إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ﴾ [الفجر: ٥- ٨]، ثم يأتى قوله: ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلادِ﴾ [الفجر: ١٠. ١١]، وهكذا.

وفى القرآن إشارات إلى حضارات بادت فى التاريخ القديم وليس فى دراسات التاريخ القديم ما يكشف ويضىء هذه الحضارات، لأن بعضها بلغ مبلغًا عاليًا فى التقدم المادى والعلمى، وإنما هلكت لما اختارت جانب الباطل والكذب والظلم وعارضت الصدق والحق والعدل.

وكلمة ﴿اذْكُرْ﴾ التى ابتدأت بها هذه الآيات يجب أن نعطيها حقها من المراجعة لأن الله سبحانه وتعالى حين يقول لنبيه: ﴿اذْكُرْ﴾ إنما يلفت إلى أمر له شأن، والخطاب وإن كان موجهًا إلى رسول الله ﷺ فإن المقصود به أنا وأنت، وكل قارئ لكلام الله لأن رسول الله ﷺ تلقّى الخطاب ليُبَلِّغَهُ لكل واحد من أمته، ولابد أن يكون الخبر الذى أمرنا ربنا بأن نذكره متضمنًا حقيقة أبدية تخاطب كل أجيال الأمة إلى أن يبطل التكليف ولا يجوز أن نقف بها عند تهديد قريش بعذاب الاستئصال، لأن قريشًا ذهبت وبقيت الكلمة فما هى الحقيقة الباقية لنا من خبر أخى عاد عليه السلام؟

لا أشك فى أنها تحذير شديد وتهديد أيضًا بعذاب الاستئصال إذا غلبت فينا كارثة الإعراض عن الحق بعدما يتبين وأن جزاء هذا فى زماننا كجزائه الذى كان فى الزمن الأول، ريح تدمر كل شىء، والإعراض عن الحق لا بديل له إلا الانقياد للباطل، وكما أن الحق كلمة جامعة لكل خير، فالباطل كلمة جامعة لكل شر، فالكذب من الباطل والظلم من الباطل، والنفاق من الباطل والسلب والنهب والقمع إلى آخر هذه المساوئ التى تدمر الأمم. سفينة النجاة هى البحث عن الحق والصواب، والحرص التام على كل ما يتفرع منهما، من العدل والبر والرحمة، والوقوف الحاسم عند كل صواب، وعند كل حق والوقوف الحاسم فى وجه كل باطل وكل فساد.

خلاصة قصة عاد أنهم نودوا إلى الحق وظهرت لهم دلائله فعاندوا ورفضوا فهلكوا، وهذه الخلاصة حقيقة من حقائق الوجود.

وما غلب الكذب والزيف والتدليس فى حياة جماعة إلا هلكوا وهذا هو أخطر ما يواجهنا، لأن الكذب والتدليس حين يكون من أفراد غير مسؤولين يكون ضرر ذلك واقعًا بهم وحدهم وحين يكون من أخلاق من بأيديهم أمر البلاد هلكوا وهلكت معهم البلاد، وهلك معهم الصامتون عن باطلهم، وهذا يعنى أن حياتنا تطالبنا بأن ندافع عنها وأن نقف فى وجه الكذابين واللصوص وأهل السلب وأهل القمع وإلا هلكنا معهم، وهذا المعنى ذكره المصطفى ﷺ فى قصة أصحاب السفينة التى كانت فيها جماعة غبيَّة أرادت أن تتصرف بغباء وأنانية فأوجب المصطفى على العقلاء فى السفينة أن يضربوا على أيديهم، وإلا هلك الكل، والبلاد هى السفينة، وكل ما له صلة بالشأن العام الذى يؤثر على السفينة لابد من حراسته، وقطع يد من تَمْتَدُّ يده بسوء إلى السفينة، وهذا هو الباقى لنا من قصة عاد، وهذا ليس أمرًا هينًا، وما أَيْسَرَ أن تتكلم وأنت متكئ على أريكتك وما أصعب أن تواجهْ الفساد وأن تدافع عن الحياة وعن الأرض وعن السفينة وأفضل العبادة أحمزها أى أشقها على النفس.

وقوله سبحانه: ﴿أَخَا عَادٍ﴾ والمراد هود عليه السلام وفى ذكر أخوته لهم إشارة إلى أن هذه الأخوة كانت داعية للقوم أن يستجيبوا لأنه أخوهم لا يدعوهم إلا إلى الخير، لأنهم لحمه ودمه ولو كذب الناسَ ما كذبهم وكان عليه السلام تذهب نفسه حسرات من إعراض قومه فذكر هود بهذه الصفة لتسلية رسول الله ﷺ ولدعوته للصبر كما صبر هود عليه السلام وللإشارة إلى أن أهل الباطل لا يراعون هذه الرحم، وهذا ما قاله علماؤنا وهو صحيح وجيد، ويبقى فى الكلمة معنى لدعاة الخير فى الزمان كله، وهو أن يكونوا صادقين فى دعوتهم صدق من يدعو رَحِمَه، وأن يكونوا حريصين عليهم

حـرص الرجل على أخيـه، وسواء فى ذلك مـن يدعو فـردًا، ومن يدعـو جـماعـة، ومن يدعو مـسؤولاً وغـيـر مسـؤول، المطلوب الصدق المشـوب بالرحـمة، والحـرص المشـبـوب بالحب، عارض من شـئت بشـرط أن تكون المعارضـة من أجل مصلحـة الجمـاعة التى أنت منهـا بمنزلة الأخ، ووَالى من شـئت بشرط أن تكون الموالاة من أجل سـلامـة الناس الذين هم أهل وطنك وهم عشيـرتك ويبقى هذا المعنى فى كلمة ﴿أَخَا عَادٍ﴾ إلى أن تقوم الساعة، وهو معنى من أنبل المعـانى وهو قيمة من أرفع القيـم، اجعل كلمة الأخ بين عينيك وأنت تعالج ما تعالج وتقبل مـا تقبل وترفض ما ترفض وستجد لكل شىء طعمًا آخر تمتلئ به نفسك رضًى ويقينًا.

وقوله تـعالى: ﴿إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالأَحْقَافِ﴾ بدل من قوله: ﴿أَخَا عَادٍ﴾ والمبدل منه كما يقولون فى نية الطرح، والمقصود هو البدل، وهذا جيد ولكنه فى الإعـراب. أمـا فى المعنى فله قـيـمة ذكـرتُ مـا رأيتـه فـيهـا، وكلمـة ﴿الأَحْقَافِ﴾ لم تذكـر فى الكتاب إلا فى هذا الموضع، والأحـقاف جـمع حقـف بالكـسـر وهـو رَمْلٌ مسـتطيل مـرتفع فـيـه انحـناء، وقال ابن زيد هو ما استطال من الرمل كهيئـة الجبل، ولم يبلغ أن يكون جبلاً واحقوقف الرمل والظهر والهلال طال واعوجَّ.

والسورة سميت بهذا اللفظ لأنه لم يرد إلا فيها ولم أجد فيما بين يدى من مصادر إشارة تشير إلى سرٍّ مجىء هذه الكلمة، أو تعين إلا كلمة ذكرها البقاعى قال رحمه الله بعد ما ذكـر معناها اللغوى، الذى ذكرناه «ومن الأمر الجلى أن هذه الهيئـة لا تكون فى بلادِ الريحُ بها غالبة شديدة» وهذه كلمـة قريبة جداً، لأنه لا يعقل أن توجد أكوام الرمال التى تكون حِقْفًا سواء كان مستطيلاً أو فى هيئة جبل أو كانت هذه الأكـوام منحنية لا يعقل أن يوجد هذا فى بلاد الريح فيها شديدة لأن الريح الشديدة ستنزع هذه الرمال وتذهب بها فى مهابها ولن تبقـيه حتى يكون على هذه الهـيئات التى ذكـرها اللغويون فى مـعنى الحقف

فضلاً عن أن تكون جمعت وصارت أحقافًا وعرفت بها البلاد، وهذا معناه أن قوم هود عليه السلام لم يألفوا الريح الشديدة ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ لأنهم لم يألفوا إلا هذا العارض الممطر فلما فوجئوا بأنه ريح فيها عذاب شديد تدمر كل شيء كانت هذه هى المفاجأة لهم وكان هذا هو الغريب وكان هذا هو العذاب، ولهذا كانت كلمة الأحقاف فى أول القصة مشيرة إلى نهايتها، وذكر أرضهم بهذه الكلمة التى لم ترد فى قصتهم إلا فى هذه الآية كانت مؤذنة بأنهم ستستأصلهم ريح شديدة وأن النفس اليقظى والفهم المتسارع كما يقول كرامنا رحمهم الله تستسرف إلى ذلك وتكاد تدركه، ثم إن الريح ذكرت كثيرًا فى هلاك عاد ولكنها لم توصف بأنها تدمر كل شيء بأمر ربها إلا فى هذه القصة، بل إن كلمة ﴿تُدَمِّرُ﴾ لم تأت فى القرآن إلا فى هذه القصة وعليك أنت أن تستكمل البحث عن السر فى إفراد هاتين الكلمتين واختصاصهما بهذه السورة، ومن أمر الله سبحانه فى خلقه أن الريح التى أمرها بأن تدمر كل شيء فدمرت هى ذاتها الريح التى نزع الله منها العتو والغضب والتدمير فصارت لينة سهلة رخوة وسخرها لسليمان تجرى بأمره رخاء حيث أصاب، وذكرت ذلك لأن وصف الريح بأنها رخاء جاء مرة واحدة فى الكتاب فى سورة ص آية ٣٦ وتسخير الريح لسليمان فيه إشارة إلى أن الله سبحانه نزع منها الغضب والعتو والتمرد وجعلها مسخرة وقوّى هذا المعنى بقوله سبحانه بعد هذه الآية ﴿وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ﴾ [ص: ٣٧] والشياطين منصوبة لأنها معطوفة على الريح ومفعول به لسخرنا والشياطين من خلق الله المتمرد، وجمعها مع الريح فى نسق واحد وتقديم الريح عليها فى سياق التسخير يشير إلى أن الذى نزع تمرد الشياطين وذللها لنبيه الكريم هو الذى نزع التمرد من الريح وذللها له صلوات الله وسلامه عليه، ومن أجل الفقه الدقيق لكلمة ﴿تُدَمِّرُ﴾ حَسُنَ أن أذكر معها كلمة ﴿رُخَاءً﴾ ولو فتحتُ ذكر الريح فى الكتاب العزيز لفتحتُ به بابًا جليلاً من أبواب أسرار البيان.

وقد ذكرت كتب التفسير صورًا لوصف هلاك القوم وأن الريح كانت تحمل رحالهم ومواشيهم وكانوا يرونها تطير بين السماء والأرض والذى يعنينى مما ذكروه هو ما يتصل بكلمة الأحقاف التى هى الرمال المجتمعة، فقد ذكروا أن الريح أهاجت هذه الرمال وأنها دفنتهم تحت هذه الرمال سبع ليال وثمانية أيام ثم أمر الله الريح فكشفتهم وطرحتهم فى البحر، وكل هذا يضىء معنى قوله تعالى: ﴿إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالأَحْقَافِ﴾ وأن كلمة الأحقاف اقْتَرَنَتْ بالإنذار لأنه كان لها شأن أى شأن فى عذاب الاستئصال الذى كان بسبب الإعراض عما أنذروا.

ولن تجد الآن لبسًا فى سر تسمية السورة بالأحقاف وفى الربط بين الأحقاف والجملة الأم التى دارت عليها السورة لأن الأحقاف إشارة إلى أهم عنصر من عناصر تدمير عاد لما أنذروا فأعرضوا، وقطب معانى السورة التى دارت حوله هو ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ﴾.

وكنت ولازلت مشغولاً بالكشف عن السر الذى وراء هلاك كل قوم بما أهلكهم الله به، أعنى لماذا أهلك الله قوم نوح بالطوفان، وأهلك فرعون بالغرق فى اليم، وأهلك ثمود بالطاغية، وأهلك قوم شعيب بالصيحة، ولماذا جعل قرى قوم لوط عاليها سافلها، وأرسَلَ عليها حجارة من سجيل مسوّمة عند ربك، وهكذا، وظنى أن كلمة الأحقاف تكشف لنا السر فى هلاك عاد بالريح، وأن الله سبحانه منَّ عليهم بأرض معتدلة المناخ، وأقاموا عليها فى نعمة وبسطة، وأمدهم بأنعام وبنين، واتخذوا مصانع وهم من إرم ذات العماد، ووصفها ربنا بقوله: ﴿الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ﴾ [الفجر: ٨] يعنى أصحاب حضارة مدفونة فى الأرض ونحن مغيبون عنها وكان لسبأ وهم منهم آية جنتان عن يمين وشمال، وبلقيس التى وصف ربنا ملكها بقوله: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ [النمل: ٢٣]، وعاد تسبق سبأ بزمن بعيد وكل هذه الحضارات قامت فى الأرض التى تسمى الأحقاف فلما

أعرض هذا الجيل القديم عن إنذار هود عليه السلام كان عذاب استئصاله من هذه الأرض نفسها وهاجت الريح فقلبت الأحقاف على رؤوسهم.

وقوله سبحانه: ﴿وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ خلت النذر معناه مضت كما فى قوله تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ﴾ [البقرة: ١٣٤] و ﴿مِن بَيْنِ يَدَيْهِ﴾ يعنى الأنبياء الذين سبقوه عليه السلام مثل نوح وشيث وآدم، ومن خلفه الأنبياء الذين يأتون بعده أو الذين كانوا فى زمانه، وقوله: ﴿وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ معطوف على ﴿مِن بَيْنِ يَدَيْهِ﴾ وهو ليس متعلقًا بخلت بمعنى مضت لأن الذين من بعده لم يمضِ، وقد وجه بعضهم هذا العطف على تقدير محذوف أى خلت من بين يديه ويأتون من بعده كما قال علفتها تبنا وماء باردا والماء معطوف على «تبنًا» وليس داخلا فى حكم «علفتها» والتقدير عَلَفْتُها تبنًا وسقيتها ماءً باردًا، وفى هذا العطف فى الآية إشارة إلى أن الكل يخلو ويمضى ويفوت، أو أنها فى علم الله قد خلت، وقد قرئت الآية، من بين يديه ومن بعده وهذه القراءة أكدت أن المراد بقوله ﴿وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ الذين يأتون بعده عليه السلام، وهذه جملة حالية، دخلت بين المفسِّر بكسر السين والمفسَّر بفتحها لأن قوله تعالى ﴿أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ﴾ بيان وتفسير للإنذار، والمراد بالنذر الرسل عليهم السلام ويدخل فيهم الذين يُبَلِّغون عنهم فى زمانهم، وبعد زمانهم، وفائدة هذه الجملة التى أُقْحِمَت بين البيان والمبيِّن الإشارة إلى أنه عليه السلام أنذرهم بقوله ﴿أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ﴾ كما أنذر الأنبياء قبله وكما سينذر الأنبياء بعده وأنهم لم يكونوا يجهلون النبوات وأن الأنبياء قبل هود دَعوا إلى التوحيد، وقد قال لهم هود عليه السلام ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ [الأعراف: ٦٩] فذكَّرهم بما يعلمون من نبوة نوح عليه السلام وأنهم خلفاء قومه الذين نجوا معه فى الفلك وأنهم أحفاد الذين آمنوا ولنا أن نقول إن الأحقاف هى مهد الإنسان الأول وأن قوم عاد خلفاء لقوم نوح.

وهذا يعنى أنه عليه السلام يدعوهم بالذى دعا إليه أبوهم نوح قبله فلا غرابة فى هذه الدعوة، ثم إن جملة ﴿وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ تعود بنا لا محالة لقوله عليه السلام لقومه ﴿مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ﴾ وتتشارب معها، وأن كل الأنبياء يدعون دعوة واحدة وبلسان واحد هو ﴿أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ﴾ والقرآن يؤكد هذه الحقيقة وهى أن رأس كل النبوات هو التوحيد ولذلك تجد سورة مثل الأعراف تجرى على ألسنة الأنبياء جميعًا جملة واحدة لم يتغير فيها شىء هى ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٦٥] قالها نوح وقالها هود وقالها صالح وقالها شعيب وفى الشعراء يقول نوح عليه السلام ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وهود عليه السلام يقول ﴿أَلا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وصالح عليه السلام يقول ﴿أَلا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ لسان الأنبياء جميعًا لسان واحد، ويبلغون عن الله بلاغًا واحدًا وجوهر النبوات كلها هو التوحيد، وكأن كل المرسلين جمعوا فى رسول واحد فمن كذب واحدًا فقد كذب المرسلين والقرآن يدلنا على هذا دلالة صريحة ويقول من بدء النبوات ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٥] و﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٢٣] و﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ﴾، مع أن كل قوم أرسل لهم رسول واحد، ولكن من كذبه فقد كذب كل المرسلين الذين جاؤوا قبله والذين جاؤوا بعده، وقد اتفق كل المرسلين عليهم السلام على تحريم الدماء والأموال والأعراض وتحريم الظلم والكذب والجور والسلب والنهب والبطش والغطرسة والقمع، اتفقت على العدل والإحسان وإيتاء ذى القربى، واتفقت على النهى عن الفحشاء والمنكر والبغى، كل ما هو من الفطرة هو من الأديان كلها، الأمر بالمعروف فى كل الديانات والنهى عن المنكر فى كل

الديانات، وتستطيع من الكتاب والسنة أن تستخرج ما اتفق عليه النبيون صلوات الله وسلامه عليهم، وكان التوكيد على التوحيد هو الأبين لأن التوحيد إذا ثبت فى النفس وتقرر وتأثَّل استجابت لكل أمر من أمور الله بمسرة وغبطة وكفّت عن كل ما نهى الله عنه بمسرة وغبطة، وبمقدار عمق لا إله إلا الله فى النفس يكون حبها وإقبالها على أمر ربها وتكون استجابتها وإسلامها وانقيادها.

وقوله سبحانه ﴿أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ﴾ بيان لقوله ﴿إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالأَحْقَافِ﴾ وراجع هذا التدرج وكيف بدأ بقوله ﴿أَخَا عَادٍ﴾ ثم أبدل منه ﴿إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالأَحْقَافِ﴾ ثم بين بقوله ﴿أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ﴾ وهى الدرج الأعلى الذى سعت الكلمات السابقة إليه، وهى الغاية النهائية التى سعت كل النبوات وكل الكتب التى أنزلها ربنا لتثبيتها وتأصيلها فى نفوس الناس لأنها هى البر وهى الرحمة وهى العدل وهى العاصم من الجور والظلم والقهر والسلب والتدليس الذى أفسد ويفسد على الناس حياتهم، وراجع الجملة ولا يوهمك أن كثرة استعمالها يعنى أننا أدركنا خفايا؛ وذكر لفظ الجلالة الموصوف بكل كمال والمنزه عن كل نقص هو برهان التوحيد وهو الموجب لعبادة الواحد الأحد والموجب لإبطال عبادة غيره وذلك لأن الوصف بكل كمال يعنى أن هذا الوجود لا يجوز فى العقل أن يكون فيه من يزاحم ألوهيته لأنه الغالب الذى لا يغلب والعزيز الذى لا ينال ولا يتكرر ولو كان فى الوجود شريك له لتصادمت الإرادتان ولفسدت السموات والأرض، ولابتغوا إلى ذى العرش سبيلا، وهذا إلغاء للهزل الدائر الذى يقارن بين إله المسلمين وإله النصارى وإله اليهود لأن الكون لا يجوز أن يوجد فيه إلا إله واحد، هذا شىء والشىء الآخر أن لفظ الجلالة بجلاله وكماله مغروس فى الفطرة حتى إن الأمم الغارقة فى الوثنية حين يسألون عن الذى خلقهم ليقولن الله، وإن سئلوا عن الذى خلق السموات والأرض ليقولن الله، وإن سئلوا عن الذى سخر الشمس والقمر ليقولن الله ولهذه الحقيقة التى لا شك فيها قال العلماء إن معرفة الله

لا تتوقف على الشرع لأن الهادى إليهـا هو العقل، ومن كلمات العامة الجليلة «ربنا عرفـوه بالعقل» ومـادام العقل والفطرة يُقِرَّان بـالواحد الأحد فـلا يجوز عبادة غيره لأن من ترك الخالق المدبِّر وعبد غيره فهو ضال وظالم وليس مخالفًا للشرائع فحسب وإنما هو مخـالف للعقل المغروس فى الفطرة، ومعنى هذا أن هودًا عليه السلام بهـذه العبارة يعود بهم إلى ما هو مـعلوم من العقل والفطرة بالضروة، وقوله سـبحانه ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ هذه الجملة تعليل للجملة التى قبلها ومستأنفة استئنافًـا بيانيّاً ومبتدئة التوكيد واستئناف هذا المعنى فيـه أنه لم يقف مع الجملة الأولـى ولم يُعرِّفهم باللـه الذى دعاهم إلى عبادته وحده، وهذا يُعزِّز مـا قلت من أن الوثنيين لم يكونوا فى حاجة إلى أن يعرفوا الله ولا في حـاجة إلى من يحدثهم عنه وأنه خلقـهم وخلق السموات والأرض، وأنه حى قيوم وأنه قادر، وأنه يحـيى ويميت، يعني لم يكن علمهم بالله ومعرفتـهم له علمًا ناقصًا تحيط به غيوم، ولو كـان كذلك لما اكتفى هود عليه السـلام وغيره من أنبـياء الله المكرمـين بالدعوة إلى عبـادته وحده، وإنما كانوا يحدثـونهم عن الله والكمالات الموصوف بها. وأنه ليس كـمثله شيء، ترك هود عليه السلام ذلك كما تركـه غيره وحدثهم عن علة هذه الدعوة وأنه يخاف عليـهم عذاب يوم عظيم، وهذه الجملة راجعـة إلى كلمة ﴿أَخَا عَادٍ﴾ لأن رحم الأخوة هو باعث الخوف، وهى مـهمة جداً بالنسـبة لمن نزلت عليه صلوات الله وسلامه عليـه، لأنه كانت نفسه تذهب حسـرات على قومه، ثم هى من العلم الجليل الذى نتعلمه من نبى الله هود وأنك حين تدعو من تدعو إلى مـا تراه خيـرًا فلابد أن تكون هذه الدعـوة صادرة من قلب مـعبـأ بالحب والحرص والخوف على من تـدعوه لأن النفوس المعْفَاة من الصـوارف تنقاد إلى أهل ودِّها ومن تجد المرحمـة والحميميـة التى هى حميميـة الرحم فى خطابها وهذا شامل لـكل كلمة تُنطق أو تُكتب فى كل مـيدان من مـيادين الحـياة ولم ينجح داع يدعو إلى الله إلا إذا كـانت كلمته قـد ندَّاها هذا المعنى، ولم ينجح سيـاسى يدعو قومـه إلى اليقظة والنهوض والوقـوف فى وجه الجهل والغـباء

والظلم والقمع والسلب والنهب إلا إذا كانت كلماته صادرة من باعث الخوف على قومه والحب لقومه والحرص على قومه هذا جوهر هذه الجملة العظيمة وفيها مع هذا إنذار بالبعث والحساب والجنة والنار مع أنه لم يشرح لهم شيئًا من ذلك.

وقوله سبحانه: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٢].

قلت إن ما عرضه هود عليه السلام طلب مقترن ببرهانه وتعليل مشبوب بحبه وخوفه والجواب الذى قالوه ابتعد عن هذين الأمرين الجليلين ولاشك أنهم أدركوا صدقه فيما طلبه منهم وفيما علل به مطلبه، وانحرفوا فى جوابهم انحرافًا ظاهرًا عن الموضوع فلم تكن لهم تساؤلات واستفسارات وطلب المزيد من المعلومات عن طلبه فى عبادة الله وحده، ولا عن خوفه وتخويفه بعذاب اليوم العظيم وعن شأن هذا اليوم وعذابه هل هو فى الدنيا أم فى الآخرة، وكيف يكون فى الآخرة وهم لا يؤمنون ببعثه، كانت هناك مواطن كثيرة صالحة لأن تناقش ولكنهم أداروا ظهورهم لكل ذلك، ثم إن سُمُوَّ لغته عليه السلام فى الدعوة واقترابه الشديد منهم وأنه يخاف عليهم لم يأت بشيء؛ وهذا يعنى أن هذه العقلية التى سمعت هذه الدعوة المدعومة بدليلها وهذه اللغة الراقية فى الخطاب بالغة الخشونة والجبروت والصلافة والاستكبار وردت بخطاب غليظ على خطاب رقيق بالغ اللطف.

وتظهر هذه الخشونة أو قل هذه الجلافة أول ما تظهر فى الاستفهام التقريرى المشوب بالإنكار والتوبيخ، وأن يكون هذا الإنكار وهذا التوبيخ أول صوت يطرق أذن هذا النبى الجليل صلوات الله وسلامه عليه، ثم تظهر هذه الخشونة أيضًا فى استعمال كلمة ﴿جِئْتَنَا﴾ وأن الأصل أن تقال لمن كان غائبًا ثم جاء؛ وكأنهم أنكروه وأنه لم يقصد إليهم لدعوتهم إلى عبادة الله وحده كما قال وإنما قصد إليهم ليأفكهم عن آلهتهم، قال الطاهر فى بيان استعمال كلمة

﴿جِئْتَنَا﴾ والمجيء مستعار للقصد بطلب أمر عظيم شبه طرو الدعوة بعد أن لم يكن يدعو بها بمجيء مَنْ لم يكن في ذلك المكان، وهذا يعنى أن هودًا عليه السلام لم يحتشد لدعوتهم إلى الله وإنما احتشد ليأفكهم عن آلهتهم، وكلمة ﴿لِتَأْفِكَنَا﴾ أشد من كلمة ﴿أَجِئْتَنَا﴾ لأن الإفك العدول بالشيء عن حقه إلى غير حقه، والعدول عن الصواب إلى الخطأ، وعن الحق إلى الباطل، وعن الحسن إلى القبيح، وهم يخاطبون نبى الله صلوات الله وسلامه عليه بكل هذه المعانى، وأن صرفهم عن الشرك إلى التوحيد صرف عن الحسن إلى القبيح وصرف عن الصواب إلى الخطأ وعن الحق إلى الباطل، وهذا كلام شديد التناقض لأنه لا يعبد بحق إلا واحد هو وحده الحقيق بأن يعبد أما الآلهة المتعددة فلا شك أنها متفاوتة، هذا إذا كانت تضر أو تنفع، فكيف وهى أخشاب منجورة أو حجارة منحوتة، وكما أن كلمة ﴿أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ﴾ فيها برهان صدقها فإن كلمة ﴿آلِهَتِنَا﴾ فيها برهان باطلها، وقد حَدَّثهم هود عليه السلام بأن الله جعلهم خلفاء من بعد قوم نوح فلم يعترضوا وحدثهم أنه زادهم فى الخلق بسطة فلم يعترضوا وحدثهم بأنه أمدهم بأنعام وبنين فلم يعترضوا، وهذا يعنى ما قلت وهو أن الله سبحانه ساكن فى فطرتهم وأن مسألة الآلهة كذب عندهم وأنهم تشبثوا بها استكبارًا، وقوله سبحانه ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ جاءت هذه الجملة بتمامها فى سورة الأعراف آية ٧٠ بعد حوار أطول وقد أساؤوا فيه أكثر، وقالوا لهود عليه السلام ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ﴾ فرد عليهم بأدب النبوة وقال ﴿يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ قارن بين الخطابين!! وقد اختصرت الأحقاف مواطن كثيرة لأن الغاية منها هنا بيان أن الذين كفروا وأعرضوا عن الإنذار واجهوا فى الأمم القديمة عذاب الاستئصال، والكلام هنا مختصر جداً فلم يذكروا فى ردهم على دعوته عليه السلام أن يعبدوا الله وحده إلا قولهم ﴿أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا﴾ وهذا هو الإعراض ثم انتقل الكلام إلى آخر ما كانوا يقولونه فى السور

الأخرى وهو قولهم ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾ وكما أن كلمة ﴿آلِهَتِنَا﴾ تحمل فى طيها بطلانها كذلك قولهم ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾ لأن هودا عليه السلام قال لهم ﴿أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ وليس فى كلامه ما يفيد أنه يملك لهم أن يأتيهم بالعذاب بل فى كلامه ما يفيد أنه لو استطاع أن يدفع العذاب عنهم لدفعه لأنه يخاف عليهم للرحم التى بينهم وبينه ولكن عُتُوًّ القوم واستكبارهم أغراهم بالكذب الصريح عليه لأن هذه الجملة تقال لمن تهددهم بعذاب يستطيع هو أن يوقعه بهم، ومن إمعانهم فى الكذب والتلبيس والتدليس قالوا ﴿إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ يعنى فيما توعدتنا به، ومن استخفافهم بما سمعوا جَعْلُهُمْ الوعيد بعذاب اليوم العظيم وعداً وذلك فى قولهم ﴿بِمَا تَعِدُنَا﴾ وتعدنا من الوعد وليست من الوعيد، والأمم الهالكة اتفقت كلها على الاستعجال بالعذاب وهذا من الإفراط فى الباطل لأن الحكمة تقتضى المراجعة والنظر والفحص وأن يكون الاستعجال بالعذاب بعد اليقين القاطع بأنهم لم يجدوا فيما يسمعون شيئًا من الصواب وقد ذكر قوم هود فى الأعراف جملة أفادت معنى ﴿أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا﴾ وفيها زيادة تحتمل مع هذا معنى آخر وهى قوله ﴿أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الأعراف: ٧٠]. والمعنى الزائد الذى أردته هو قوله ﴿لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ﴾ لأنها صريحة فى رفض عبادة الله وحده، وليست صريحة فى عبادة الله مع آلهتهم فالذى أنكرته همزة الاستفهام فى قولهم ﴿أَجِئْتَنَا﴾ هو الوحدانية وتفرد الله بالعبادة وهذا يجيز الشرك مع الله، وأن وثنية عاد كانت تخلط عبادة الله بعبادة الآلهة وأنها أخت وثنية جاهلية زمن المبعث وأن الآلهة تقرب إلى الله، وليست نفيًا لعبادة الله.

وقد عادت الوثنية إلى الأرض بسرعة بعد قوم نوح الذين قالوا ﴿لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح: ٢٣] بعد ما دعاهم نوح ألف سنة إلا خمسين عامًا، وضاق بهم وقال ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ

﴿الْكَافِرِينَ دَيَّاراً﴾ وقد استجاب الله دعاءه وكان الطوفان تطهيراً للأرض من هذه الوثنية وربما كانت دعوة نوح هذه التى استجاب الله لها هى سبب هلاكهم بالطوفان والمهم أن عاداً رجعت إليها الوثنية بشدة وكانوا من أشرس الأمم ومن أقواها وأعتاها وهم الذين قالوا ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾، وهم أشبه بقوم نوح لأنهم أحفادهم كما قال هود ﴿جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ [الأعراف: ٦٩] والعجيب أنهم عرفوا بالأحلام، وضرب شعراء العرب المثل بأحلام عاد وخصوصًا شعراء طيّ، وظهر فيهم لقمان وهو ابن عاد وهو شيخ حكماء العرب قبل أن تعرف الدنيا حكماء واختلف فى نبوته وعلى القول بأنه ليس نبياً لا يكون فى القرآن الكريم سورة سميت باسم غير نبى إلا سورة لقمان وسورة مريم، قلت هذا لأقول إن هؤلاء تَشبثت بهم الوثنية تشبثًا عجيبًا، ومرجع ذلك فيما أظن إلى قوتهم وعتوهم واستكبارهم وأن التشبث بالوثنية لم يكن اعتقادا وإنما كان استكباراً ونفوراً من الخضوع للأنبياء، وقولهم ﴿إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ إمعان فى الباطل وكذب صريح على نبى الله وادعاء بأنه عليه السلام توعدهم بعذاب يملك هو أمره، ولذلك جاء رده لدحض هذا الكذب وقال ﴿إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ﴾ ولغة هود مع سفه قومه لغة فى غاية الصفاء والصدق واللطف والأدب ولا شك أننا جميعًا نحب تكرار كلام هؤلاء المكرمين فى الكتاب العزيز من مثل قوله شعيب ﴿بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ وقوله ﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ [هود: ٩٠] وقول هود ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [هود:٥٦] وقول صالح ﴿إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ [هود:٦١] هذا، وجملة ﴿إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ﴾ نفى ظاهر ليس لزعمهم أنه توعدهم بعذاب يملكه وإنما نفى للعلم بزمان هذا العذاب وأنه لا يملك شيئًا منه، ثم إنه بهذا الجواب يرجع بهم إلى الحقيقة التى يبلغها والتى يزيفونها وأنه لم يجئ ليصرفهم عن آلهتهم ولا ليتوعدهم وإنما جاء فقط

ليبلغهم ما أرسل به، وحوار الأنبياء كله قائم على الرجوع بالمبطلين إلى النبوة والرسالة وأنها هى التى يجب أن تكون موضع المناقشة، وليس التطاول والسفه بالقول يقولون مرَّة ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الأعرف: ٦٠] ومرة ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ﴾ [الأعراف:٦٦] وما يشبه هذا مما يخرج به القوم عن الطريق الصحيح الذى يجب أن يقوم عليه الحوار، وهذا من أهم ما نتعلمه من الكتاب العزيز لأننا يجب أن نتعلم منه كيف نعيش وكيف ندافع عن الحق وكيف ندفع الباطل وأهله وكيف نواجه الفساد والمفسدين.

ولا يزال المبطلون من حولنا كالمبطلين فى الزمان الأول يحرِّفون الكلم عن مواضعه ويصرفونه عن دلالاته والواجب على أهل الحق أن يقفوا عند الحقائق التى يريدون تثبيتها ولا يماشون هؤلاء المدلِّسين، والقرآن العظيم يعرض لنا نماذج من الناس هم باقون فى الناس ما بقى الناس؛ من مثل قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة:٨] وهؤلاء حولك وحولى، ومن مثل قوله سبحانه ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وهؤلاء حولى وحولك ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾ [الحج:١١] وهؤلاء حولك وحولى ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الحج:٣] وهكذا نجد الكتاب يجعلك تعيش فى الزمن الذى أتت فيه ثم يعرض لك سبيل الصالحين المصلحين وهم القدوة وسبيلهم هو سبيل الله، وجملة ﴿إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ﴾ فيها فوق ما ذكرنا تأكيد لجملة ﴿أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ﴾ وهى قضية هود عليه السلام التى لم يصرفه عنها باطل أهل الباطل، وإنما كانت توكيدًا لها لأنها تفيد قصر علم ذلك العذاب العظيم على الله، وهذا القصر من جهتين الجهة الأولى هى ﴿إِنَّمَا﴾ وهى أداة من أدوات القصر، والجهة الثانية هى كلمة ﴿عِندَ اللَّهِ﴾ لأنه ما دام عند الله فليس عند غير الله، كما تقول الكتاب عند زيد تعنى أنه ليس عند غيره، وهذا مما

يستفاد منه القصر بغير طرق القصر والذى يعلم علمًا لا يعلمه غيره هو الله وهو المعبود بحق وذكر لفظ الجلالة فى الجملة يوقظ فى فطرتهم ما فطرت عليه لأن لفظ الجلالة له مهابة فى كل قلب مهما كان استكباره ومهما كان جبروته، وإنما كفر الكافر هذه المهابة وسترها وغطّاه، وإطلاق لفظ الكافر على هذا الصِّنف المارق من الحق إطلاق بالغ السداد والإصابة لأنه يدفن الحق الذى لا يلتبس عليه إدراكه ويروغ منه ويستره ويغطيه، لأنه أخذ دينه لهوا ولعبا ولاحظ كلمة ﴿إِنَّمَا﴾ التى يؤتى بها فى المعنى الذى لا يجهله المخاطب ولا ينكره وكأنها حقيقة مسلَّمة عندهم. وجملة ﴿وَأُبَلِّغُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ﴾ تبرئة منه عليه السلام مما نسبوه إليه، وهو القدرة على أن يأتيهم بالعذاب وهى معطوفة على ﴿الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ﴾ وداخلة فى حيز ﴿إِنَّمَا﴾ والمعنى وإنما أبلغكم ما أرسلت به، وليس عندى إلا هذا ولا أملك من أمر الله شيئًا وليس فى كلامى ما يوهم ذلك، وإنما صرفتم كلامى عن وجهه ولذلك جاء بعد هاتين الجملتين الكريمتين، بجملة فيها قدر من المخاشنة وهى قوله ﴿وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ وهذا الاستدراك الذى ابتدأت به الجملة يعود بها إلى ما كان منهم من صرف كلامه عن معناه وأنهم زعموا أنه يهددهم بعذاب من عنده، وكانت المخاشنة فى الجملة ضرورة لأنه ينبههم إلى خطأ فى فهم بلاغ الله لهم، ولم تكن المخاشنة انتصارًا منه لنفسه بدليل أنهم لما سفهوا عليه وقالوا له إنا لنراك فى سفاهة ردَّ عليهم بأدب جم وقال ﴿يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾، وتأمل موقع كلمة ﴿يَا قَوْمِ﴾ التى بدأ بها هذا الرَّدَّ، قلت إن المخاشنة فى الجملة تنبيه منه لهم على خطئهم فى تحريف بلاغ الله لهم ثم إن هذه المخاشنة أدخل فيها ما يخففها وقال ﴿أَرَاكُمْ﴾ ولو قال ولكنكم قوم تجهلون لكان كلاما آخر لأن كلمة ﴿أَرَاكُمْ﴾ تعنى أن هذا ما رأيته فى موقفكم هذا وتحريفكم لكلامى وهذا قيد لما وصفهم به فلبستم

قومًا تجهلون على الإطلاق وإنما حصر هذا فى موقفهم الذى حرّفوا فيه وجعل ذلك رأيًا له، وربما رآكم غيرى على غير هذا الوجه وكلمة ﴿تَجْهَلُونَ﴾ من معانيها أنكم جهلتم قولى ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ وفهمتموه على غير وجهه، وكلمة ﴿قَوْمًا﴾ تفيد أنكم اجتمعتم على هذا وقمتم به، وقمتم عليه ولم أجد منكم من خالف تحريفكم لكلامى، ومن الذى يعين على إدراك أسرار البيان أن تَلْتَفت وأنت فى معمعة حوار هود عليه السلام مع قومه، وأنه يعرض الحق الصريح الصادق وهم يجادلون بالباطل والكذب إلى ما كان من الذين عما أنذروا معرضون وحوار سيدنا المصطفى معهم وهم يقولون هذا سحر افتراه أو إفك قديم أو أساطير وهذا من معدن أكاذيب قوم هود وهو عليه السلام يتكلم باللغة العالية ويقول ﴿إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ ويقول ﴿مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ﴾ ويقول ﴿أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِ﴾ ونضع كلام هود، مع كلام المختار وكلام ضُلَّال عاد مع كلام ضُلَّال قريش، وترى استقامة منهج أهل الحق فى مقابلة ضلال وتضليل منهج أهل الباطل، أقول هذا مما يعين علىّ إدراك أسرار البيان لأننى أرى فى هذه الاقترانات كيف تتآخى الأجزاء المكونة للسورة وكيف تتواصل ويمسك بعضها ببعض، وهذا هو الفقه الدقيق لمعنى الوحدة فى القرآن وفى الشعر، وكنت أتمنى أن يتاح لى جمع كلام الأنبياء من القرآن الكريم وتحليله وتقريبه للأمة لأن هؤلاء النبيين هم النُّخبة الحقيقية، وقولهم هو التنوير الصادق، وليست أكاذيب عبيد الطغيان وعبيد المغتصبين للبلاد الموالين لأعدائها.

قوله سبحانه ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأحقاف: ٢٤].

انتهى كلام هود عليه السلام مع قومه فى الجمل القليلة التى مضت وانتقلت هذه الآيات لوصف حدث الاستئصال والانتقام، وهوالمقصود من

ذكر القصة لردع الذين أعرضوا، وكذبوا وضلوا من قومه عليه السلام، وهذه سنة الله فى خلقه لم تنقطع؛ إذا ظهر الفساد فى البلاد، وسكت الصالحون واستشرى الفساد أذاق الله الكل بعض ما عملوا، والفاء التى فى قوله سبحانه ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ﴾ أفادت ترتيب مجيء عذاب الاستئصال على قولهم ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾ من غير مهلة، لأن قولهم ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾ إصرار منهم على المكابرة، والرفض، وأنهم لن يستجيبوا لما دعاهم إليه، ولـمَّا التى دخلت عليها الفاء هى لما الحينية والتى تفيد ترتب جوابها على شرطها بلا مهلة والحين فيها الذى هو الوقت معناه أنه حين يكون الشرط يكون الجواب، وهذا مهم فى فهم موقف عاد لأنهم ما إن رَأَوْهُ عارضًا مستقبل أوديتهم حتى قالوا ﴿هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ وكأن نفوسهم قد غُسلَت من كلام هود عليه السلام ومن قوله لهم ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ ولو كان قد بقى لكلامه بقية فى نفوسهم لما سارعوا هذه المسارعة، وقالوا ﴿عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ وإنما كانوا يتوقفون بعض الوقت لاحتمال أن يكون هذا ما استعجلوه لما قالوا ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾ وكأنهم لما قالوا ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾ كان هذا قاطعًا عندهم أنه لن يأتيهم بشىء، وهذا يعنى أن كلمة ﴿إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ صادرة عن تمام الاستهزاء والاستخفاف والضمير فى قوله سبحانه ﴿رَأَوْهُ﴾ عائد على العذاب المفهوم من قوله ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ والذى أرادوه بقولهم ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾ وقالوا إن هذا الضمير مفسر بقوله تعالى ﴿عَارِضٌ﴾ وإبهام هذا الضمير الذى وقعت عليه الرؤية إبهام واقع موقعًا حسنًا جداً لأن تغشيته وإبهامه وعدم وضوحه كان داعيًا فى هذا الموقف إلى أن يتشككوا أو يتوقفوا قليلا ليتثبتوه ولكنهم على طريقتهم فى المعالجة وعدم التدبر سارعوا وقالوا ﴿عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾، وكذلك كلمة ﴿مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ﴾ يعنى قاصدًا إليها وكذلك كلمة ﴿عَارِضٌ﴾ لأن معناها ليس نصاً فى السحاب وإنما هو شىء مبهم عارض فى السماء مستقبل أوديتهم، وكل هذا لم ينبههم

إلى حقيقة الموقف ولم يدعوهم إلى التريث وإنما كانوا على طريقتهم فى رفض ما سمعوا من هود عليه السلام، وكما عاجلوا فى قولهم ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾ ومن قبله قولهم ﴿أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا﴾ عاجلوا أيضًا فى الحكم على شيء مبهم لم يتثبتوه وهو مستقبل أوديتهم، وتوهموا هذا العارض سحابًا مستقبل أوديتهم ليمطرهم وكلمة ﴿عَارِضٌ﴾ موقعها موقع جيد جداً لأنها لم تُبَيِّن هل هو سحاب أم ريح، وإنما أفادت أنه عارض ظاهر فى السماء لا غير، وقد تبين أنه ريح غريبة سوداء لأن الريح المألوفة لا تراها العيون وإنما تراها إذا تلونت بما تحمل، وفى هذه اللحظة المبهمة والتى ظهر فيها فى السماء شيء غريب مستقبل أوديتهم وهم فى غفلة غارقون فى الرفض والمعاندة لهود عليه السلام يَنطلق صوت يجلى حقيقة الموقف ومصدره أيضًا مبهم كإبهام الضمير وإبهام العارض، وإبهام استقبال أوديتهم، ويقول ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وانكشف به الإبهام وصاروا فى قلب الكارثة، وقالوا الذى قال ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ﴾ رَجلٌ منهم، رأى مخايل الشر فى الريح فقال، وقالوا الذى قال هود عليه السلام، وكان بين ظهرانيهم، وقال الزمخشرى والدليل عليه قراءة من قرأ قال هود، وقرئ قل بل هو ما استعجلتم به هى ريح، أى قال الله تعالى قل.

قلت: إن عادا كانوا من ذوى الأحلام، وأن الشعراء ضربوا المثل بأحلامهم وأن لقمان شيخ حكماء الأرض وأولهم كان من ولد عاد، وقلت أيضًا إن الله سبحانه ساكن فى فطرة كل نفس، وأقول قد كثر وشاع فى الروايات القديمة أنهم لما أجدبوا أرسلوا وفدًا منهم إلى مكة يطوف حول البيت ويسأل الله السقيا لهم، ثم هم مع كل هذا عاندوا وتمرَّدوا وعَتَوْا عتواً كبيرًا ولم يستجيبوا لهود عليه السلام، وقد بينت الآيات إصرارهم على الرفض وتحريفهم للقول وتحديهم لنبى الله هود، وقولهم ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾ واستخفوا بكل شيء وعميت بصائرهم

لما رأوا العارض مستقبل أوديتهم ولم يكن عندهم أدنى احتمال فى أن يكون هذا ما أخبرهم هود بأنه يخاف عليهم منه، ومن العجيب أنك ترى التناقض فى قصتهم فهم قوم يوفدون وفدًا من خيارهم إلى مكة للطواف وطلب السقيا من الله ويقفون هذا الموقف ممن يدعوهم إلى الله ويغيبون أحلامهم وليس وراء كل ذلك إلا الاستكبار، الذى دمر أحلامهم كما دمر بقايا من الخير فيهم، هذه البقايا التى ربطتهم بالبيت العتيق وكان هود عليه السلام قبل إبراهيم الذى أقام القواعد من البيت وكان البيت قائمًا قبل إبراهيم عليه السلام وكان العرب من أول تاريخهم يطوفون به ويطلبون السقيا فى جواره وكانوا ولايزالون.

وقوله تعالى ﴿رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٤) تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ [الأحقاف: ٢٤، ٢٥] جملة ﴿فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وصف للريح لأن الجمل بعد النكرات صفات ومثلها جملة ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ﴾ قال البقاعى «والجملتان يحتمل أن تكونا وصفًا للريح، ويحتمل وهو أعذب وأهز للنفس، وأعجب أن تكونا استئنافًا» انتهى كلامه.

وهذا من البقاعى حسن جداً وتذوق جيد لمعنى الاستئناف لأن الجملتين وإن كانتا فى المعنى وصفا للريح إلا أن لاستئناف المعنى شأنا ليس يخفى وفرق بين أن تكون الجملة جزءًا من الكلام قبلها، وأن تكون قد قطعت الكلام السابق ليُستَأْنَفَ معناها، ويصير كأنه شىء آخر يستحق أن يُمَيّز ويُقْطَع له الكلام، وكأنك على هذا الوجه تقول بل هو ما استعجلتم به ريح، ثم تسْكُتْ سكْتة خفيفة، ثم تقول فيها عذاب أليم وتسكت سكتة خفيفة ثم تقول تدمر كل شىء بأمر ربها، وتسكت أيضًا، هذا الاستئناف يَعْنى هذه السكتات: وهذه السكتات تميِّز كل جملة وتجعلها رأسا وحدها، وهذا فى بيان المعانى له شأن لا يخفى كما قلت، وكان الشيخ عبد القاهر وهو يعلمنا كيف نتذوق البيان، يقف عند موطن الاستئناف ويقول انظر إلى القطع والاستئناف، فيَدُلُّنَا بذلك على أن القطع والاستئناف مكْمَنٌ من مكامنِ أسْرارِ البيان ونَبْعٌ من ينابيعه التى تذاق.

وكلمة ﴿فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ حرف الظرف هذا فيه شيء ربما هو الذى أغرى البقاعى به، لأنه يعنى أن الريح ظرف يكمن فيه العذاب الأليم، فليست هى الريح التى يألَفُها الناسُ، وإنما هى ريح مَسْكُونَةٌ بالعذاب الأليم، وهذا الظرف يُشْبه الظرف الذى فى قوله تعالى: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ﴾ [البقرة: ١٩] يعنى أن الصيب ليس صيبًا فى الظلام، وإنما الظلام فى الصَّيِّب، وكأن السماء تمطر ظلاما وتمطر رَعْدًا وتمطر برقا، وهذا معنى آخر غير قولنا ظلمات فيها صَيِّبٌ ورعد وبرق، قلتُ لعل البقاعى لما ذاق دلالة هذا الظرف رجّح القول بالاستئناف، لتكون الجملة رأسا بنفسها، ومن أجل هذه الدلالة الرفيعة التى فى الظرف قدم وكان أنف الجملة.

وكلمة ﴿بَلْ﴾ فى قوله: ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ﴾ تفيد الإضراب الإبطالى وكأنها مُوجَّهةٌ إلى نزقهم وطَيْشِهم وجَذَلهم الذى هاجوا به: وقالوا: ﴿هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ كلمة ﴿بَلْ﴾ رجعت إلى الحالة التى هم فيها من اللهو والغفلة وصدمتهم بالحقيقة وعنّفتْهُم وبكّتتهم لأن الكلام كان يمكن أن يكون بل هو ما خافه هود عليكم ولكنه جاء على ما جاء عليه ليشير إلى تهوُّرهم لما قالوا لنبى الله هود وهم يعلمون أنه أصدقهم لهجة ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾ وكانت الحكمة تقتضى تأجيل هذا التحدِّى وأن يكون آخر ما يقولونه له بعد تأكدهم من أنه ليس مبلغا عن ربه وإن كان ذلك لن يكون، ولكنهم هكذا يعاجلون وهكذا يرفضون التدبر والمراجعة وأجمع وصف لهم يستوعب كل هذا هو أنهم يتخذون أمر الدين لهوا ولعبا وليس جدا ومراجعة.

ونلاحظ فجوة متسعة جداً بين الواقع وبين أحلامهم، الواقع ريح فيها عذاب أليم والأحلام عارض ممطرنا، وكأنهم لما قالوا هذا كانوا يُعَدُّون لهول المفارقة الذى هو نفسه هول الفاجعة، فقد يفاجأ الناس بشر يحيط بهم وهذا بلاء وأشد منه أن يكونوا رأوا هذا الشر بعيون حولاء فحسبوه خيرًا، مقبلاً

عليهم، ثم ما لبثوا أن رووه أشْنَع الشر وأبْشَعه، هذه الحالة الثانية أهول وقد صَنَعُوها هم بأنفسهم لما أسرعوا وقالوا ﴿عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾، ولم يتدبروا ولم يراجعوا والجملة الثانية ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ أفادت معنى مختلفًا عن الجملة السابقة لأن الجملة السابقة ذكرت العذاب الأليم الذى فى الريح، والعذاب الأليم لا يصيب إلا الحىّ الحساس، من إنسان وحيوان، ويبقى الزرع والجنات والعيون والمصانع التى بنوها لعلهم يخلدون، فتأتى الجملة الثانية لتشمل هذا الذى لم تشمله الأولى، فتدمر الزرع، والعيون، والمصانع، وكل ما ليس له كبد رطبة، والسؤال هو إذا كانت الريح فيها عذاب للذين استكبروا عن دعوة الحق، فما ذنب الأنعام والدواب وكل حىّ حساس يقع عليه عذاب هذه الريح؟ ولم أقرأ جوابا عن هذا وإنما أقول بما تعلمته من الكتاب وهو أن الله سبحانه أوصانا بكل ذات كبد رطبة، وما كان له سبحانه أن يوصينا بها ثم يوقع عليها عذابا ولم تذنب، ولا أشك فى أن هذه الأنعام وإن هلكت فلم تهلك بعذاب، وأن الريح كفّت عذابها عنها كما كفت النار أذاها عن إبراهيم ثم إن جملة ﴿فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ليس فيها دلالة صريحة على الهلاك وإنما دلالتها معقودة على العذاب، والجملة الثانية ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ﴾ دلالتها معقودة على الهلاك والفعل المضارع فيها يستحضر الصورة وكأنك ترى الريح وهى تدمر كل شىء على أرض عاد، وقلت إن كلمة ﴿تُدَمِّرُ﴾ لم تأت فى القرآن إلا فى هذه الآية وأقول إن فعل دَمّر لم يأت فى الكتاب العزيز إلا فى سياق هلاك الأمم التى عاندت النبوات وكذّبت أنبياء الله وهى تعلم أنها كاذبة ﴿بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [المؤمنون: ٩٠] كما قال تعالى: ﴿وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ﴾ [الأعراف: ١٣٧] وقوله جل شأنه ﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا الآخَرِينَ﴾ [الصافات: ١٣٦]، وقوله جل شأنه: ﴿دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا﴾ [محمد: ١٠] وكلمة ﴿كُلَّ شَيْءٍ﴾ ليس معناها الجميع بدليل قوله

سبحانه: ﴿فَأَصْبَحُوا لا يُرَىٰ إِلاَّ مَسَاكِنُهُمْ﴾ وكلمة ﴿بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ تعنى أن الله سبحانه أمر الريح وأن الريح وعت وأدركت أمره سبحانه، وأنفذت هذا الأمر وبَعيدٌ أن يكون هذا مجازا لأن كل ما أوجده الله فى هذا الوجود كان بالكلمة ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٤٢] وهذا يعنى أن كل ما خلقه الله يعقل عن الله وأن كلمة الله نفذت إليه، وأنه أنفذها، ولا أجد داعيا يدعو إلى حمل هذا على المجاز ولماذا لا يكون هذا من التسبيح ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: ٤٤] لأنه ما من شىء إلا قال له ربنا كن فكان، ولو كان التسبيح على المجاز لفهمناه وقد أخبرنا ربنا أننا لا نفقه تسبيح الأشياء، ثم إنه سبحانه قال ﴿بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ ولم يقل بأمرنا وإنما ذكر الرب الذى تتعلق به النعم وأولها نعمة الخلق فالذى خلقها هو الذى أمرها والخالق لا يُعصى أمره وللخالق سر فى خلقه ومن سر الخالق فى خلقه أن المخلوق يوجد بكلمته وأعجب من كل هذا أن الكلمة توجد الشىء من العدم يعنى يقول الله سبحان للمعدوم والذى هو فى كتم العدم كما كان يقول العلماء كن فتنفذ إليه الكلمة فيكون ولا تسأل كيف تتصور هذا لأن خلق الله للأشياء فوق التصور.

وقوله سبحانه: ﴿فَأَصْبَحُوا لا يُرَىٰ إِلاَّ مَسَاكِنُهُمْ﴾ قرئ لا ترى بالتاء والبناء للمعلوم، والمراد كل من يكون منه الرؤية وهذه القراءة تلائم دلالة المضارع فى قوله ﴿تُدَمِّرُ﴾ التى تفيد استحضار الصورة وكأنك ترى الريح وهى تدمر مع تباعد الزمان والمكان وكأنك أيضًا لا ترى إلا مساكنهم، وقرئ لا ترى بالتاء والبناء للمجهول، أى لا ترى لهم بقايا إلا مساكنهم، وقرئ بالياء والبناء للمجهول أى لا يرى شىء إلا مساكنهم.

وراجع الاختصار الشديد وكيف لاح عذاب الاستئصال وانتهى فى هذه الجمل الثلاث ريح فيها عذاب عظيم، تدمر كل شىء بأمر ربها، فأصبحوا

لا ترى إلا مساكنهم، وقارن هذا بما جاء فى كلام أطول كما فى سورة الحاقة ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝٧ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٦، ٨] واجمع نظائر ذلك فى الكتاب وحاول أن تتبين السياق الذى دعا إلى ذكر ما جاء فى الأحقاف والسياق الذى دعا إلى ذكر ما جاء فى الحاقة، وهكذا فى كل مواضع القصة، أما سياق الأحقاف فقد بينته وقلت إنه لا يتسع إلا إلى الإنذار، وقد كان من هود عليه السلام، والإعراض عن الإنذار وقد كان من قومه عليه السلام، ثم عذاب الاستئصال، والمراد بذكر هذا ما دلت عليه الجملة التى بعد هذه وهى قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ لأنها رسالة مرسلة إلى الذين كفروا وأعرضوا عما أنذروا وبعدما بيّنت لهم السورة الأدلة الناصعة والناصحة ولم يبق لهم إلا أن يلوّح لهم بعذاب الدنيا وأنا لا أستطيع أن أتكلم فيما جاء من القصة فى غير الأحقاف لأن السياق لا يظهر إلا بعد الدراسة التحليلية لكل ما فى السورة، والذى أريد أن أنبه إليه قبل طىّ هذه الصفحة هو مراجعة ما دمرته الريح بهذه السرعة وقد وصفت الشعراء طرفا منه على لسان هود عليه السلام وذلك فى قوله: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ۝١٢٨ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ۝١٢٩ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ۝١٣٠ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝١٣١ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ۝١٣٢ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ۝١٣٣ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ الشعراء: ١٢٨، ١٣٤] وعليك أنت أن تتابع ما كان عليه قوم هود من ثراء وما كانوا فيه من نعمة وقوّة، ثم تعود إلى جملة ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ﴾ وتتبين كيف اختصرت هذه الجملة كل هذا وطوته تحت كلمة ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ﴾ ولاحظ أيضًا كيف إختصرت الآيات الإعراض عما أنذروا وكشفته مع هذا الاختصار أتمّ كشف: هود عليه السلام قال: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ فأعرضوا عن هذا وقالوا: ﴿أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا﴾ وقال

هود: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ فأعرضوا عن هذا وقالوا: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾ وسياق الأحقاف لا يتسع إلا إلى هذا.

ومما يتسع له سياق الأحقاف وهو فى الصلب منه قوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحُوا لا يُرَىٰ إِلاَّ مَسَاكِنُهُمْ﴾ وكلمة ﴿يُرَىٰ﴾ على اختلاف القراءات تفيد أن الباقى منهم تراه العين هو مساكنهم وقال المفسرون المراد آثار مساكنهم لأن المساكن لابد أن تكون قد تغيَّرت بفعل الريح التى تدمر كل شىء وقالوا كانت عاد أهل عُمُد سيارة يرتحلون فى الربيع فإذا هاج العود رجعوا إلى منازلهم.

قلت وهذه الجملة فى صلب سياق الأحقاف لأنها تدل على آثار باقية تراها العيون وهذه الآثار هى آثار قوم أشد من قريش بأسًا وأن الله سبحانه مكَّن لهم ما لم يمكنه لغيرهم ومع ذلك لما أعرضوا عن الحق المبين سلط الله عليهم جندا من جنوده، وهى الريح التى تسوق السحاب والخير للعباد وقد ساقت لهم العذاب الأليم وتدمير كل شىء وما عليهم إلا أن يفتحوا عيونهم ليروا هذه الآثار ولعلهم يرجعون.

وكلمة ﴿فَأَصْبَحُوا﴾ أوثرت من بين أخواتها مع أن القوم أمسوا وأضحوا ودخلوا فى الغدايا والعشايا والليل والنهار، والحال أنهم لا ترى إلا مساكنهم، وقال علماؤنا رحمهم الله وإنما أوثر ذكر الصباح لأن الانتقام فيه أوجع ولأن الغارات والحروب والشرور كانت تكون مقترنة بالصباح كما قال تعالى: ﴿فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ﴾ [الصافات: ١٧٧] وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ﴾ [القمر: ٣٨].

وذكر الصبح بعد ظهور الآيات وتجلياتها وخصوصا إذا كانت آيات ملجئة لا يستطيع أحد أن ينكرها فيه إشارة إلى ظهور الحق كعمود الصبح، وكأن أرض عاد بعد هذه الآية العظيمة تجلَّى فيها الحق بعد ظلمات الضلال والباطل وهذا المعنى لم أجده فى الكتب وإن كان يظهر لى فى مثل قوله

تعالى: ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ (١) وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴾ [الليل: ١، ٢] ولا شك أن المراد الليل المعروف والنهار المعروف وهذا لا يمنع من أن نفهم أن الحق يتجلى بعد الضلال إذا يغشى، وأجد هذا المعنى أيضا فى قوله تعالى: ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ (١٧) وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴾ [التكوير: ١٧، ١٨] وعسعس الليل أقبل ظلامه وتنفس الصبح أضاء وأبلج، وكم عاشت الشعوب فى ليل عسعس ثم أقبل الصبح وتنفّس، والآية الكريمة أقسمت بالليل إذا عسعس على أن القرآن قول رسول كريم وقد سمى الله القرآن نورًا وذكر سبحانه أنه يخرج الناس من الظلمات إلى النور، فهل لنا أن نقول إن هذه الظلمات أشار إليها الليل إذا عسعس، وأن قول الرسول الكريم أشار إلى الصبح إذا تنفّس.

وقد رأيت كلمة أصبحوا تقع كثيرًا فى الكتاب بعد ظهور الحق ظهورًا لا ينكر كما فى قوله تعالى: ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴾ [الأعراف: ٧٨].

قوله تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ نَجْزِى الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴾ .

أول ما يتبادر من هذه الجملة هو عز الألوهية وجاءت مستأنفة لأن معناها قائم برأسه، وكأن الحق جل وتقدس نبّهنا إلى ما فيها من عز الألوهية بإسناد فعل نجزى إلى ضمير العظمة، ثم مجيئها بعد آية من أعظم آياته التى أرسل فيها الريح بأمره على أهل الباطل، فدمرت كل شىء بعد ما أذاقتهم العذاب الأليم، وهى ذاتها الريح التى تسوق بأمره الماء إلى الأرض الجرز فتخرج به ﴿ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ﴾ [السجدة: ٢٧].

أشرت إلى أن هذه الفاصلة رسالة مرسلة إلى الذين حدثت عنهم الجملة الأم ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ ﴾ [الأحقاف: ٣]، لأنها رباط واضح

بين الذى هم عليه من إعراض عن الإنذار، وما كانت عليه عاد، وأن الذى نزل بعاد من عذاب الاستئصال من شأن الحق سبحانه أن ينزله بمن هم على شاكلتهم، ولم تكن آيات رفع عذاب الاستئصال عن أمته ﷺ قد نزلت.

هذا تهديد واضح لكل من أعرض عن الحق وكأن الآية تضع خطاً أحمر أمام المبطلين وتقول لهم: إن من يتجاوز ذلك ويصر على عناد الحق فهذا جزاؤه وقد جاءت فواصل كثيرة على حذو هذه الفاصلة من مثل قوله تعالى: ﴿ **كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ** ﴾ [الصافات: ٣٤]، ﴿ **وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ** ﴾ [الأعراف: ٤٠]، ﴿ **فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ** ﴾ [يونس: ٧٥] وكذلك معناها مثل ذلك الجزاء نجزى، وكلمة القوم فى الآية تشير إلى أن هذا العذاب الذى ينزل بالأمم لن يكون بسبب جنوح أفراد وضلال أفراد وإنما يكون إذا ابتلى القوم بهذا الجنوح وهذا الضلال، وقام أمرهم عليه كما ترى فى عاد فقد قالوا جميعًا ﴿ **أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا** ﴾ كما قالوا جميعًا ﴿ **فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا** ﴾فكان الموقف موقف جماعة عاندت واستكبرت وأصرّت وكان ذلك من ديدنها، وأنها إذا رأت الرشد لا تتخذه سبيلاً وإن رأت الغيَّ اتخذته سبيلاً كما جاء فى سورة الأعراف ﴿ **سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ** ﴾ [الأعراف: ١٤٦].

وراجع الآية لأنها وصفَتْ هذا الصَنف وصفًا واضحًا وأهم ما فيه أنه ﴿ **وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُوا** ﴾، وهذا يعنى أنه مدمَّر من داخله لأن الذى يرفض كل آية ليس من الناس الأسوياء ثم هو إذا رأى سبيل الرشاد حاد عنها وأعرض، وإذ رأى سبيل الغى أقبل عليها، وقد ذكرت آية الأعراف مقدمة لما أريد بيانه، فى آية الأحقاف، وذلك أن الله سبحانه قال ﴿ **وَكَذَلِكَ نَجْزِي** ﴾ فأسند الجزاء

إلى ذاته سبحانه وتعالى وقد أكد لنا القرآن أن الجزاء مضبوط بضابط حدّده ربنا تحديدًا صارمًا وهو جزاء سيئة بمثلهـا وأن الزيادة ولو مثْقال حبَّة من خردل على المجازاة بالمثل ظلم، وقد حرم الله ذلك علينا كمـا حرمه على نفسه وليس بعد عذاب الاستئصال فى الدنيا وعذاب الهون فى الآخرة عذاب فما هو الجرم الذى ارتكبه هؤلاء حتى صار عذاب الاستئـصال فى الدنيا وعذاب الهون في الآخرة كفاء هذا الجرم من غير أن تكون فيه زيادة حبة خردل؟

والجواب عن هذا باختصار شديد جداً أنه ليس فى سلوك الناس سلوك أبشع عند الله من سلوك الذى يرى الحق ظاهرًا كعمـود الصبح ثم يعرض عنه، هذا أبشع من كل الكبائر، أبشع مـن القتل ومن شرب الخمـر ومن كل الفواحش ما ظهر منها وما بطن، لم يبق فى الإنسان شيء من معنى الإنسان إذا كان يرى كل آية ولا يؤمن بها وإذا كان يرى بعينيـه سبيل الرشد وليس عنده شك فى أنه سبـيل الرشد ثم لا يتخـذه سبيلا، ويـرى بعينيه سبـيل الغى ولا يشك فى أنه سبيل الغيّ ثم يتـخذه، الإنذار بعذاب الاستئصال فى الدنـيا وعذاب الهون فى الآخرة كفـاء هذا السلوك من غير أن يكون فى هذا الاستئـصال ولا فى عذاب الهون مثقـال حبة من خردل تزيد عن عقاب هذا الذى يعـيش منصرفا عن كل رشد وعن كل آية ومقبلا على كل باطل وكل غى.

ومن لواحق هذا وتوابعه كل من يعارض صوابا وهو يعلم أنه صواب وكل من يعـارض حقـاً وهو يعلم أنه حق، نعم إن الحق الأعظم هو الإيمـان بالله والصواب الأعظم هو الإقـرار بالوحدانية، والإقـرار بما جاءت به رسل الله، ويبقى مـا وراء ذلك لأنِّى لا أرى فى حياة الناس أسـوأ من تلك الطائفة التى تدافع عن الظلم والبغى والقمع، وتدمـير الشعوب وهى تعلم أن الذى تدافع عنه ظلم، وقمع، وسلب، ونهب، وتدمـيـر للشعوب وقل مثل ذلك فى كل شيء حـتى فى مناقـشات الأفـكار العلمـية ليس فى الـناس أخسُّ ممن ينكر

البرهان ويروغ من الدليل، ويدير ظهره لسلطان الحجة ولو سلمت الدنيا من هذا البلاء لتغيرت أشياء كثيرة، ولساد الأمن، والخير والعدل والبر، ولخرجت الظعينة من صنعاء إلى المدينة لا تخشى إلا الله.

قوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٦].

هذه الآية من تمام معنى ما قبلها لأن الذى قبلها ذكر أحداث قصة عاد، وهذه ذكرت العبرة منها، وإذا قلنا إنها وما بعدها معطوفة على ﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ﴾ وما بعدها عطف معنى على معنى كان كلاما مستقيما، لأن وجه ضم هذا المعنى إلى ما قبله هو الصلة التى بين المعنيين وأن الأولى أحداث قصة والثانية عبرة من القصة، وقد ذكر بعض علمائنا أنها حال من واو الجماعة فى قوله: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا﴾ أى قالوا والحال أننا مكّنّاهم فيما لم نمكنكم فيه.

ذكرت أن الفاصلة السابقة ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ تلويح بعذاب الذين أعرضوا عما أنذروا، وأقول إنها وطاء لهذه الآية وأن الغضب والوعيد فى هذه الآية أقرب إلى من نزل فيهم الكتاب، والتهديد فى آية الفاصلة عام لكل المجرمين والذى هنا تهديد مباشر لهم والخطاب ظاهر فى ذلك، ثم إن الفواصل الموطئة لما بعدها والطاوية لصفحة ما قبلها كثيرة جداً، ولهذا مذاق مزدوج وقد نبّهنا إلى هذا فى قوله تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ وقلت إنها موطئة لذكر عاد لأن الاستكبار فى الأرض وإن كان عاما فى جميع الأمم التى رأت سبيل الرشد ولم تتخذه سبيلا ورأت سبيل الغيّ واتخذته سبيلاً إلا أن عادا كانت من أعتى الأمم ومن أقواها وقد وصفها نبي الله هود بقوله: ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٠] وهم الذين قالوا: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا

قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥] ولهذا كان الاستكبار فاتحا باب الكلام فيهم ولم يخاطب ربنا الأمة التى نزل فيها الكتاب فى السورة قبل هذه الآيات وإنما كان يقول لرسوله صلوات الله وسلامه عليه، ﴿قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾، و﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ﴾، و﴿قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾.

ثم إن هذا الخطاب المباشر من الحق لقومه ﷺ مبتدئ بالتوكيد باللام وقد والمراد توكيد أن الله سبحانه مكّن عادا فيما لم يمكن فيه قريشا، وهذا المعنى كثير فى الكتاب وأعنى ذكر الأمم القديمة وأنها أكثر قوة وأنهم أثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها وأنهم أكثر أثاثا ورئيا، كل ذلك فسّره علماؤنا بأنه تهديد بالغ لقومه عليه السلام وأن الله الذى أنزل بهذه الأمم القوية عذابه قادر على أن ينزل بكم عذابه، وكأن المقصود تأكيد قدرة الله على عقابهم، وهذا جيد واللفظ يحتمله، ولا شك أن قومه عليه السلام ليسوا فى حاجة إلى دليل يقنعهم بأن الله قادر على أن ينزل بهم عقابه لأنهم لو سئلوا من خلقهم قالوا الله ومن خلق السموات والأرض قالوا الله ومن بيده ملكوت كل شىء قالوا الله، وليس بعد هذا قدرة لأن نزول العذاب بهم أقل من خلقهم ومن خلق السموات والأرض، ولذلك يبدو أن هذه الآية التى تؤكد أن عادا مكنهم الله فيما لم يمكن فيه قريشا وبقية العرب ونظائرها مما ذكر الله فيه الأمم التى عمرت الأرض أكثر مما عمروها وراءها دلالة أخرى وهى أنهم كانوا يعتقدون أن الذى أعطاهم ما أعطاهم فى الدنيا لن ينزل بهم عذابه، بل إن بعضهم كان يعتقد أنه لو رُدّ إلى الله لوجد عند الله فى الآخرة ما يخصه به من النعم كما خصه فى الدنيا بنعم، كما قال فى سورة الكهف ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ [الكهف: ٣٦] وكما قال فى سورة فصلت ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ﴾ [فصلت: ٥٠] وآية ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ﴾ إبطال لهذا الاعتقاد الذى يؤكد أن

حظه فى نعيم الآخرة إن صح أنه يبعث كما يقال له سيكون كحظه فى نعيم الدنيا، ولذلك قالت الآية ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ﴾ -فدلت على أن نعمة عاد من الله سبحانه وأن نعمته عليهم لم تدفع عنهم عذاب الاستئصال، ولو كان المقصود فقط بيان أن القادر على استئصال الأقوى قادر على استئصال الأضعف كما فى بعض كتب التفسير لما كان إسناد نعمهم إلى الله ذا فائدة، وإنما كان يكون الكلام كانت عاد أقوى منكم وأشد منكم وقد أصابهم ما أصابهم أما أن يكون توكيد الجملة منصباً على أن الله مكنهم فيما لم يمكنكم فيه، فهذا يعنى أن إنعام الله عليهم لَمْ يَمْنع نزول العذاب بهم، وهذا أيضًا يعنى أنهم يعتقدون خلاف ما أكدته الآية وهو أن إنعام الله عليهم يمنع نزول عذاب الله بهم، قلت إن آيات كثيرة تدل على هذه العقيدة عند القوم ومن صريح ذلك قوله سبحانه فى سورة سبأ: ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [سبأ: ٣٥]، فربطوا بين كثرة الأموال والأولاد وهو من التمكن فى الأرض ونفى العذاب، وقد ردت الآية عليهم هذا فى قوله سبحانه: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلاَّ مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ [سبأ: ٣٥] وهذا نص فى الذى أردته والله أعلم.

ومعنى مكناهم جعلناهم متمكنين كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ﴾ [يوسف: ٥٦] أى جعلناه متمكنا فيها وله فيها سلطان، وقريب من هذه الآية قوله تعالى فى سورة الأنعام: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ﴾ [الأنعام: ٦] ومكّن وتمكن من المكان لأن المكان محيط بما هو فيه ومتمكن منه، والتمكين فى الأرض معناه الغلبة عليها.

وقوله تعالى: ﴿فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ﴾ إن نافية وما التى قبلها موصولة وجىء بإن النافية بدل ما تفاديًا من الثقَل الذى يكون بتكرار كلمة ﴿مَا﴾ هكذا قال المفسرون، واستعمال إن فى النفى أقل من استعمال ما والفروق

المعنوية بين هذه الأدوات غائمة، وقد حاول البقاعى أن يلتمس فرقًا فى المعنى فذكر أن النفى بما يفيد نفى التمام، يعنى لو أن الله سبحانه قال ولقد مكناهم فى الذى مكناكم فيه لأفاد النفى أنه مكّن قريشا ولكنه نفى أن تكون تمكنت فى كل ما تمكنت عاد فيه وأنها لم تبلغ فى التمكن درجة التمام التى كانت عليها عاد وليس هذا بمراد، والنفى بإن يعنى نفى التمكن من أصله وليس نفى تمام التمكن، ولم أعرف للذى ذكره البقاعى أصلا، وذهب بعضهم إلى القول بأن ﴿إن﴾ صلة وليست نافية والمعنى ولقد مكناهم فيما مكناكم فيه وأن الله مكّن قريشا فيما مكن عادا فيه وهذا وجه غريب ويبعده آية الأنعام: ﴿مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ﴾ .

وهذا تحذير من الغفلة عن شكر النعم لأن الآيات وإن ذكرت نعم الله على الأمم السابقة فلما بعث فيهم رسله استكبروا وعاندوا فإن فيها بجانب هذا تحذير الكافة من الغفلة عن شكر النعم، لأن هذه الغفلة وإن كانت من أهل الإيمان تتحول معها النعم إلى نقم وقد أوجب الله علينا شكر نعمته وغلّظ فى الغفلة عن الشكر، وسمى هذه الغفلة كفرا ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧].

قوله سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً﴾ معطوف على ما قبله وذكر هذه الثلاثة وهى أدوات الإدراك عقب الجملة قبلها فيه إشارة إلى أن الله سبحانه مكّن لهم فى الأرض ومنحهم آلات الإدراك التى يدركون بها هذه النعم وأنها من الله، وأن شكر المنعم، واجب وأن الإيمان برسله واجب، ثم إن الجملة الأولى فيها تفاوت بين الناس فقد مكّن قوما فى الذى لم يمكن فيه الآخرين، ولكنه سبحانه جعل السمع والأبصار والأفئدة نعمة مشتركة ليس فيها تفاوت، وهى منتهية عند الفؤاد وهو أساس التكليف والحد الأدنى من الإدراك هو مناط التكليف، وهذا الذى عليه المعول فى معرفة الله، وعليه

المعول فى الإيمان برسله عليهم السلام، وهذا هو سـر اقتران التمكن بالسمع والبصر والفؤاد، ثم إن هنا إشارة إلى الـنبوات وذلك فى إفراد السمع وجمع البصر والفـؤاد لأن المسموع الهادى إلى الله هو كلامه وكـلام أنبيائه صلوات الله وسلامه عليهم وهو واحد لم يتغير فالذى تسمعه الآذان كلها شيء واحد وكأن الآذان كلها أذن واحدة، ثم إنه سبـحانه قال السمع ولـم يقل الأذن لأن السمع هو المقصـود، والأذن آلته وقال سبحانه الأبصـار ولم يقل العيون لأن الأبصار فيـها معنى البصـيرة: وليس المقصود العـيون التى ترى يعنى لم يقل سبحانه وجعلت لهم العيون كما قال تعالى ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ﴾ [البلد: ٨] لأن المقصود هو النظر المتـعتَبِر والمستنبط وجُـمعَ لأن مسارح النظر كثيـرة فقد تقف عين عند زينة السماء الدنيا بالنحوم، وقد تقف أخرى عند الشمس وهى تجرى لمستقـر لها، وقد تقف ثالثة عند الطير صافات ويقـبضن ما يمسكهن إلا الرحمن وهكذا، والأفئدة تتفاوت فهذا قلب يسارع إلى الإيمان وهذا يروغ ثم يفتح الله قفله، وهذا فى أكنّة مما يدعوه ربه إليه وهكذا.

والخلاصة أن الجملة الأولى فـيها النعم، والجملة الثانيـة فيها الأدوات التى تدرك مصدرُ هذه النعم، وأن الواجبْ أن نتلقى النعم بأدوات حية تبحث عن المنعم، وأن من أنعم يجب أن يعرف ويذكر ويشكر، وأن هذه الأدوات الثلاثة هى أدوات معرفة الـمُـنْعم وذكره وشكره، ولو كـان مجرَّد القصد هو ذكر ما أنعم الله به علينا من الجوارح لكان المناسب لهذا المقام أن تذكر أيدينا التى نبطش بها وأرجلنا التى نسعى بها وأفواهنا التى نأكل ونشرب بها.

وظاهر جـداً أن الله سبـحانه وتعـالى أنعم بالتـمكن في الأرض ثم أنعم بأدوات الإدراك التى تهدى إليه، ثم نبّـه إلى أن من عرف الله وانقاد له دخل الجنة ومن عصاه دخل النار، ثم ترك الإنسان وما يختـار، ولم يُلْجئْه سبحانه إلى شيء، وهذا الاختيار هو الذى عليه المعوَّل فى الثواب والعقاب.

وهذه الثلاثة المذكورة هى باب العلم وليس للعلم باب سواها، وقد نبهت آية النحل إلى هذا فى قوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [النحل: ٧٨] وهذه مراحل ثلاثة المرحلة الأولى أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئًا، والمرحلة الثانية هى منحكم أدوات وآلات العلم التى بها تعلمون، والمرحلة الثالثة بلوغ أرقى ما يعلمه الإنسان وهو معرفة الله، والإيمان بالغيب المدلول عليه بقوله جل شأنه: ﴿ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾.

والعلم قسمان علم رواية (وهو ما كان وسيلته السمع) وعلم دراية وهو جولان البصر والبصيرة فى ملكوت الله، ومن وراء كل ذلك عقل يحرك كل هذا ويتحرك به.

وقوله سبحانه: ﴿ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلا أَبْصَارُهُمْ وَلا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ ﴾ هذه الجملة معطوفة بالفاء على الجملة التى قبلها ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُمْ ﴾ ومرتبة عليها، وفيها مبادرة بشيء نفيس جداً وهو أن هذه الأدوات وإن بلغت بصاحبها فى العلم مبالغ عالية وجعلته متمكنًا فى الأرض ثم خذلته فى معرفة الله فكأنها صارت فى حكم العدم لأن أول ما يجب على الإنسان أن يعرفه هو معرفة الله، فإذا خسر الإنسان هذه فليس لأى علم بعدها قيمة وإن اخترع وأبدع.

وهذه الثلاثة - السمع والبصر والفؤاد - من النعم التى يدور ذكرها كثيراً فى الكتاب العزيز وتتنوع مقاماتها، تراها تذكر فى مقام المنّ والفضل مثل قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ ﴾ [المؤمنون: ٧٨]، وتعجب لماذا خص المولى هذه الثلاثة مع أنه سبحانه أنشأنا وأنشأ لنا كل ما نعيش به وكأن هذه الثلاثة لها عند الله شأن ليس لغيرها؛ وأحيانًا تذكر بين تجليات الآيات العليا الدالة على المعبود بحق كما فى قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ

وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٣١]. وقد جعل الله سبحانه وتعالى الإنسان مسئولاً عنها مسؤولية خاصة. ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾ [الإسراء: ٣٦].

ولا شك أن عناية الكتاب بها أكثر من غيرها من الأعضاء التي ينتفع بها الإنسان راجع إلى صلتها بالتكليف لأنها هى مناطه وهى أصله، وإذا كان الله سبحانه وتعالى جعل السمع والأبصار والأفئدة لكل ذات كبد رطبة من العالم الذى لم يكلف فإن رسالتها فى هذا العالم الصامت غير رسالتها مع الإنسان هى فى هذا العالم تعينه على أن يتقلب فى الأرض وأن يسلك فيها مسالكه وأن يحوط بها رزقه وعيشه وأن يحفظ بها نفسه من الأخطار التى قد تحيط به وليس من شأنه أن يجتهد بها لإدراك معرفة جديدة لأن هذا العالم لا شأن له بالمعرفة الجديدة وإنما يسلك فى حياته على هدى الفطرة ذلك الهدى الذى لا يتبدل وكل أفراد كل نوع من هذا العالم الصامت لهم معرفة واحدة لا تتغير وإنما تهديهم إلى ما هدت إليه أسلافهم منذ نشأ هذا الجنس على وجه الأرض لا ترى لآخرهم شيئًا ليس لأولهم وقد أحسن الأستاذ المرحوم محمود شاكر وصف سلوك هذا العالم واكتفاءه بهديه الأول وبشيوع هذا الهدى فى كل أفراده بالفطرة وليس بعلم مكتسب وليس بتدريب ولا بتأديب وإنما هو نهج فُطِرُوا عليه ومَنْزَع خُلِقُوا عليه لا يفضل فيه بعضهم بعضًا قال رحمه الله: «كلّ حيّ بل كل شيء مخلوق يسير على نهج لاحب لا يختل، يؤيده هدى صادق لا يتبدّل، ومهما تباينت مسالكه فى حياته وتنوعت أعماله فى حياطة معيشته فالنهج فى كل دَربٍ من دروبها هو هو لا يتغيّر والهدى في كل شأن من شؤونها هو هو لا يتخلّف، تولد الذرَّة من النمال، وتنمو وتبدأ سيرتها فى الحياة وتعمل فيها عملها الجد وتفرغ من حق وجودها، ثم تقضى

نحبها وتموت هكذا هى منذ كانت الأرض وكانت النِمّال لا تتحوّل عن نهج ولا تمرق من هدى وتاريخ أحدثهـا ميلادًا فى معمـعة الحياة كـتاريخ أعرق أسلافها هلاكًا فى حومة الفناء لا هي تحـدث لنفسها نهجًا لم يكن ولا هي تبـتدع لوارثهـا هديًا لم يتقـدم فَسَلْ كل حيٍّ.. لِـمَ كـان عـمـلـك نَسَقًـا منـقـادًا لا يتـغـيّـر؟ وكيف كـانت مـهـارتـك تـراثًا مـؤبدًا لا يتـبـدّل؟ وحـذقَك طـبـعًـا راسخًا لا يتـحوّل؟ ولم صارت سُنَّةُ الأوائـل منكم لزامًا على الأواخر؟ ومنهـاجُ الغابرين شركًا للوارثين» ثم طرح الأسـتاذ على هذا العالم الصامت أسئلة كثيرة كلها تدور حول البـحث عن سر قُدْرتكمْ على الإتقـان وسر التـزامكم بنهج واحـد وأنه لم ينبُـغ فيكم نابغـة يضـيف إلى حياتكم شـيئًا، وكيف انضم هذا النهج الواحـد وتواردتم عليه، ولم يحاول واحد منكم أن يناقش أصلا من أصول هذا الـسلوك، أو يستدرك على سلَفِه مَسْلكًا لم يسلكوه إلى آخره وكان الجواب هو «وأنا على يقين أنك لن تسمع جوابًا إلا الصمت المستنكر والذهول المعرض والصَّمَم الـمُستِخفّ الذى لا يعبأ» (القوس العذراء صـ٢١، ٢٢).

قلت إن السمع والبصر والفؤاد هى أدوات اكتساب المعرفة وأنها إذا تعطلت فى الإنسان ولم تؤدّ هذه المهمة كان حالهـا فى الإنسان كحالها في هذا العالم الصامت، ويبقى لهذا العالم مزية يَفْـتقدُها الإنسان وهى أن هذا العالم يتقلب فى حياته بهدى لا يتَبَدَّل ونَهْج لا يتغـير ويحوط به حياته ويسلك بهذا الهدى مسـالكه فى الأرض، والإنسـان قد فـقد هذا الهـدى وضلَّه فهـو لن يسلك مسالك الإتقان والحذق التى يسلكهـا هذا العالم الأخرس، وإنما ستكون حاله أسـوأ، ولعـل هذا المراد بقـوله تـعـالى: ﴿أُولَئِكَ كَـالأَنْعَـامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الأعراف: ١٧٩] وإنما أردت قـوله بل هم أضل لأن الأنعام لا تَضِـلُّ هديها الأول وقد أضله الإنسان.

ثم إن الإنسان إذا استثمر السمع والبصر والفؤاد وأنتج معرفة وأبدع فى التقدم والازدهار ومتطلبات الحياة وتمكن بالعلم فى الأرض ولم يهتد إلى معرفة الله بها كانت حضارته وكان ازدهاره وتقدمه وبالاً عليه وعلى من حوله لأن معرفة الله هى التى تُدْخل روح الرحمة والعدل في هذه الحضارة فتكون نعمة، وعدم معرفة الله يصير بها التقدم مع أطماع أهله كأنه أظافر جوارح كاسرة، أو كأنه أنياب سباع لا تشبع من لحوم البشر ويكون كل ذلك من أسباب غضب الله وعذابه ولم تُغْنِ عنهم أسماعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من الله من شيء.

وكل ما هو سبيل إلى معرفة باب من أبواب العلم هو لا محالة سبيل إلى معرفة الله، وكل ما هو سبيل إلى معرفة حقيقة من حقائق الوجود هو لا محالة سبيل إلى معرفة الحقيقة العليا وهى معرفة الواحد الأحد، ووسيلة معرفة الله والوصول إلى حقائق الوجود واحدة هى السمع والبصر والفؤاد والطريق واحد، والقول بالتعارض بين الدين والعلم جهل بهما معًا. ولا يمكن لمن اكتشف حقيقة من حقائق العلم أن يكون ملحداً إلا فى حالة واحدة هى إصراره على أن يكون ملحداً.

وجملة ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ﴾ لم تأت فى القرآن الكريم إلا فى هذه الآية وجاءت جملة ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ﴾ فى مواضع كثيرة وكلها تفيد المعنى الذى تفيده هنا كما فى قوله تعالى: ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأعراف: ٤٨]، وقوله جل شأنه: ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الحجر: ٨٤]، تكررت فى الزمر آية ٥٠ وهى من قولهم أغنى عنه كذا إذا كفاه كما قال الراغب، والمراد أن ما كانوا يكسبون لم يغنهم عن عذاب الله أى لم يكن لهم به غناء أى كفاية عن عذاب الله، وأن السمع والأبصار والأفئدة لم تغن عنهم أى لم تكفهم وتدفع

عنهم عذاب الله وفى هذا إشارة إلى أن الله جلت نعمه قد أنشأ لنا السمع والأبصار والأفئدة ليكون لنا بها غناء عن عذابه سبحانه، يعنى رزقنا الأدوات التى بها نَنجْوا من عذابه ولكننا لم نفعل، وكأننا نحن الذين قصدنا إلى تدمير ما يكفينا عذابه وذلك حين نبطلها ولم نستعملها فيما خُلقت له وهى معرفة الله والانقياد لأمره ونهيه، الأسماع تسمع كلامه والأبصار تتجوَّل فى خلقه جولان المتدبر المتأمل الباحث عن الذى وراء هذا الوجود المادى المتقن.

قلت إن القرآن تكرر فيه نفى الغَنَاء عن ما كانوا يكسبون وما كانوا يمتعون، وفما أغنت عنهم آلهتهم التى يدعون من دون الله وليس فيه فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء إلا فى شأن قوم هود عليه السلام. وكل الأمم التى أخذها الله لما كذبوا أنبياءه قد جعل الله لهم سمعًا وأبصارًا وأفئدة. فلماذا لم تذكر هذه الأسماع والأبصار والأفئدة وأنها لم تغن عن أمة من الأمم إلا مع عاد؟

هل لهذا ارتباط بقول هود عليه السلام لقومه ﴿وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً﴾ [الأعراف: ٦٩]. وهل تدخل الأسماع والأبصار والأفئدة فى هذه الزيادة وأنه كان لهم بسطة فيها لم تكن لغيرهم من الأمم فذكر الحق سبحانه أنهم لم تغن عنهم هذه الأسماع والأبصار والأفئدة؟ وخصهم بذلك لهذه الزيادة وهذه البَسْطَة؟ لم أقرأ شيئًا من هذا فى كلام من يؤخذ عنهم علم وإنما هو خاطر رأيته.

ويلاحظ فى الجملة تكرار النفى بلا مع الأبصار والأفئدة، وكان يمكن أن يقال فما أغنى عنهم سمعهم وأبصارهم وأفئدتهم بل كان يمكن الاستغناء عن تكرارها ويقال فما أغنت عنهم من شيء ولا وجه لذلك فيما أرى إلا الإشارة إلى أنها كانت جديرة بأن تغنى عنهم، وأن كل واحد منها كان جديرا بأن يكون فيه وحده غناء عن عذاب الله، وكلمة ﴿مِّن شَيْءٍ﴾ لتحقيق وتأكيد أنها لم تغن عنهم شيئًا أى شيء. هذا والله أعلم.

قوله جل شأنه: ﴿إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ ابتدأت هذه الجملة بكلمة (إذ) الدالة على الظرف فى الزمن الماضى، ومعناها هنا التعليل، قال الزمخشرى: فإن قلت بم انتصب ﴿إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ﴾؟ قلت بقوله تعالى: ﴿فَمَا أَغْنَىٰ﴾ فإن قلت لم جرى مجرى التعليل؟ قلت الاستواء مؤدى التعليل والظرف فى قولك ضربته لإساءته وضربته إذ أساء، لأنك إذا ضربته فى وقت إساءته فإنما ضربته فيه لوجود إساءته فيه، إلا أن إذ وحَيْثُ غلبتا دون سائر الظروف فى ذلك، انتهى كلامه.

وهذا بيان لوجه دلالة الظرف على التعليل وليس فيه بيان لسر إيثار الظرف على لام التعليل، وقد ذكر الطاهر كلام الزمخشرى ملخصًا وزاد المسألة بيانًا فى قوله: (لأنه لما جعل الشىء من الإغناء معلقًا نفيه بزمان جحدهم بآيات الله لما يستفاد من إضافة «إذ» إلى الجملة بعدها عُلم أن لذلك الزمان تأثيرًا فى نفى الإغناء)، انتهى كلام الطاهر.

والذى أفهمه أن «إذ» فى الآية والمثال دالة على الزمن وفهم التعليل بدلالة اللزوم، وهذا آكد فى إثبات التعليل، لأن دلالة اللزوم دلالة مصحوبة بدليل، وأن تعلق نفى الإغناء بزمن الجحد دليل على أن الجحد علة هذا النفى، وشىء آخر وهو أهم وهو أن القوم انتفعوا بالسمع والأبصار والأفئدة وأوشكت أن تغنيهم عن عذاب الله فلما جاء زمن الجحد نفى هذا الإغناء ولو جاءت الآية لجحدهم بآيات الله وسكتت عن الزمن لما كان فيها هذا المعنى، والنص على زمن الجحد هو بيان لنفى الإغناء، وكأن الإغناء كان قائمًا قبل هذا الزمن لأن الجحد معناه إنكار الحق بعد ما تبين. قال الراغب: الجحود نفى ما فى القلب إثباته، وإثبات ما فى القلب نفيه قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ﴾ [النمل: ١٤]، وهذا قاطع فى أن جحد الآيات سبقها العلم بها وأداة هذا العلمْ وآلته هي السمع والبصر والفؤاد، ثم

إن فى ذكر الزمن شيئًا آخـر وهو أن ارتباط أو تعلق نفى الإغناء بزمن الجحد يعنى نفى هذا وإثبات الإغناء إذا انتهى زمن الجـحد وأنهم لو رجعوا عن هذا الجـحد أو رجع منهم من راجع نفـسه لأغـنت عنهم أسمـاعهم وأبصـارهم وأفئدتهم من عذاب الله كل شىء، وهـذا فتح من الله لباب الأَوْبة والرجوع إليه ويلاحظ أن التوكـيد فى كلمة ﴿مِّن شَيْءٍ﴾ وأنها لم تغن عنهم شـيئًا أى شىء يدل على أنه لولا هذا الجحد لأغنت عنهم كل شىء.

وكلمة ﴿كَانُوا﴾ دالة على أن الجحد بالآيات كـان شأنا من شؤونهم ودَيْدَنا من دَيْدنهم لأنَّهـا في هذا المقام تدل على أن خـبرها جـزء من ماهيـة اسمـها، وصيغة المضارع دالّةٌ على أن هذا الجحد حدث يتجدد منهم وأنهم مُصِرُّون عليه، ولم يرجعوا عنه، وحرف السببية فى قوله سبحانه: ﴿بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ فيه إشارة إلى أن الآيات هى سبب الجحـد وأنهم لما تبيّنُّوها واستيـقنتها أنفسـهم جحدوها، وفرق بـين جحـد الآيات والجحـد بالآيات، الأول يعنى إنكار الآيات الثابـتة عندهم من غير أن تكون هناك إشارة إلى سببـية الآيات للجحد والثانى فيه أن الآيات كانت سببًا فى الجحد وهذا يعنـى أن الجملة الشريفة أشارت إلى سببين الأول سببية الجحد لعدم الإغناء والثانى سببية الآيات للجحد وهذا الثانى يفتح الباب للبحث عن العلة التى صيرّت الآيات سببًا للجحد وليس إلا الاستكبار، وأن هذا الاستكبار هو الرذيلة الأم التى تولدت منها هذه الرذائل.

وكلمة ﴿بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ ترى فيـها لَفـتة من التكلم في قـوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً﴾ ثم جاء الكلام إلى الآيات وكان الظاهر أن يقال إذ كانوا يجـحدون بآياتنا، ولكن الكلام عدل لذكر لفظ الجلالة الدال فى نفس المؤمن والكافر على كل كمال وأن إضافة الآيات إلى لفظ الكمال والجلال تعنى أنها آيات لها من جلال مـا أضيفت إليه وكماله ما يوجب الإقرار بها، والإذعان لهـا، ولكنهم جحدوا وأساؤوا الأدب مع آيات

الله، وردوها وهم مستيقنون بها، ووراء هذا من الغضب ما وراءه، وكأن هذه الإضافة تفتح باب العذاب المروِّع الذى جاءت به الجملة بعدها ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ وقبل الكلام فى هذه الجملة الشريفة أذكر بلقمان وهو ابن عاد من صلبه وهو جدُّهم أو هو أبوهم على حد قول يوسف عليه السلام ﴿مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ [يوسف: ٣٨] فسمى الجد أبًا، وكان لقمان يعرف الله معرفة الأنبياء وقد أوْدَع علمه بربه صَدْرَ ولده، وقال له ﴿يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ١٦]. اقرأ الآية مرة ثانية وثالثة وتبين كيف كان الله فى جذر عاد، الذين هم هذا القوم الذين جحدوا بآيات الله، وراجع لفظ الجلالة فى قوله ﴿بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ فى ضوء هذا التاريخ وهذه المعرفة وراجع كلمة الجحد فى ضوء هذا التاريخ وهذه المعرفة لأنهم جحدوا ما هو متغلغل فى ضمائرهم من موروث آبائهم، ومهما تَغَلْغَلَ الضلال فإنه لا يستطيع أن يغسل النفوس من الله بعدما سكن فيها، وكانت الوثنية فى أعلى صور ضراوتها مستندة إلى الله الذى هو فى فطرة مخلوقاته، وكانوا يعبدون آلهتهم لتقربهم إلى الله زلفى، فلم تغلب هذه الآلهة وجود الله فى نفوس المبطلين.

وقوله سبحانه ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً﴾ وإن كان من النعم التى مكنت لهم فى الأرض وكان أيضًا من الوسائل المعينة على معرفة الحق كما بينا، ففيها آية لا تنكر، وأن الذين يجحدون بآيات الله إنما يجحدون أنفسهم لأنهم آية من آياته سبحانه: ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١].

قوله سبحانه ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ هذه الجملة معطوفة على قوله سبحانه ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلا أَبْصَارُهُمْ وَلا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ﴾ وهى بيان لعدم الإغناء أو لبعضه إذا قلنا إن هذه الجملة بيان لما نزل بهم من عذاب الاستئصال وأن الذى حاق بهم هو الريح التى تدمر كل شيء بأمر ربها لأن

البعض الباقى هو عذاب الآخرة، ويمكن أن تكون هذه الجملة شاملة للعذابين وأن عذاب الآخرة الذى لم يقع بعد كأنه وقع، وأن كلمة حاق مجاز فى الذى لم يقع وحقيقة فى الذى وقع، وهذا ظاهر.

وإذا كانت الجملة الأولى بيّنَتْ أنهم جحدوا بآيات الله بعدما استَيْقَنُوها وهذا شنيع ومنكر فإن هذه الجملة أضافت إلى الشناعة الأولى شناعة ثانية وهى الاستهزاء يعنى جحدوا واستهزؤوا، وبناء الجملة الثانية فيه من بناء الجملة الأولى كلمة ﴿كَانُوا﴾ الدالة على أن الاستهزاء بالآيات ديدن لهم وجزء من تكوينهم، ومن طباعهم كما هو الحال فى الجحد، ودل المضارع فى قوله ﴿يَسْتَهْزِئُونَ﴾ على أن هذا يتجدد منهم ولم يرعووا عنه ولم يراجعوا أنفسهم، وهذا أشنع لأن الآيات آيات الله وجحدها بلاء ومنكر فكيف بالاستهزاء بها، والغضب فى هذه الجملة أظهر لأنَّها تحدَّث عن العذاب وليس فقط عن الغضب الموجب للعذاب وتجد فى الكلام تدرُّجًا وتَرْتيبًا ونُمواً، فالجحد أولا والعذاب ثانيًا، وكلمة ﴿حَاقَ﴾ وقعت هنا فى مقامها وما كان لغيرها أن يَسُدّ مسدّها فلا تصح هنا كلمة «أحاط» التى نفسرها بها وذلك لأنك تجد فى الكتاب شيئًا إلهياً هو أن جمل الغضب والعذاب تنبهك بشىء فيها إلى أن هذا الغضب مكفوف عن التجاوز وأن غضب الله لا يعني أن يقع على العبد مثقال حبة من خردل من الظلم، ولو قال أحاط لم يكن فى الكلام إشارة إلى هذا المعنى لأن كلمة حاق، من الحق ومعناها حق بهم قلبت القاف الأولى ألفًا كما قالوا زال من زل قلبت اللام الأولى ألفًا قال تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ﴾ [البقرة: ٣٦]. وقرئ (فأزالهما الشيطان) ومن أجل تأكيد هذا المعنى المدلول عليه بكلمة ﴿حَاقَ﴾ كان فاعلها ﴿مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أى الذى كانوا به يستهزئون وهو الآيات والنبوة والرسالة، والذى حاق بهم جزاؤه وليس هو، وإنما وضع العمل موضع جزائه للإشارة إلى أنهم لا يزيد عذابهم مثقال حبة من خردل حتى كأن الجزاء هو العمل نفسه.

وهذه الجملة التى فيها هذا الغضب وهذا الاحتياط كثرت فى الكتاب العزيز، وكان فاعل ﴿حَاقَ﴾ فى موقع من مواقعها هو ﴿مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ الذى فيه ما قدمناه وقد خالفت واحدة وجاء سوء العذاب فاعلاً لحاق وذلك فى قوله تعالى فى سورة غافر: ﴿وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٥].

وهذه بعض الآيات: ﴿فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الأنعام: ١٠]. ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [هود: ٨] ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [النحل: ٣٤] ﴿فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الأنبياء: ٤١].

وهذا بخلاف أحاط فأكثر ما جاءت فى القرآن بمعنى الإحاطة بالشىء والعلم به كما فى قوله تعالى ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ﴾ [النمل: ٣٢] ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ﴾ [الإسراء: ٦٠] ﴿وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢] وجاءت فى العذاب قليلا مثل قوله تعالى ﴿أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ [الكهف: ٢٩]، وليس فى القرآن أحاط بهم ماكانوا به يستهزئون، وبهذا يظهر مقدار التجاوز والتساهل الذى نزاوله حين نفسر أحاق بأحاط.

ومن أكرم مواقع أحاط فى الكتاب العزيز قوله تعالى: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ﴾ [البقرة: ٨١] وليس هذا فى العذاب وإنما هو بيان لحال الإنسان إذا كسب سيئة واستمرأها ولم يرجع عنها، ولم يَتُب منها وصار فى قلب هذه الخطيئة وهى محيطة به، يحاول أن يخرج عنها فلا يستطيع إلا بقوة عزم وصدق يقين، هذا تصوير لضعف النفس الإنسانية فى مواجهة الخطايا، وأن من الخطايا ما يسيطر على هذه النفس، ويَستَحوذ عليها فلا تنتزع النفس منها إلا بلأو ولأواء، ولهذا قالوا إن كف النفس عن الذنب أيسر

كلفة من التوبة، قال الراغب: إن الإنسان إذا ارتكب ذنبًا واستمر عليه استجره إلى معاودة ما هو أعظم منه، فلا يزال يرتقى حتى يطبع على قلبه فلا يمكنه أن يخرج عن تعاطيه، انتهى كلامه.

وجملة: ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ تكرر فيها حرف الجر ومجروره فأحدث تناسقًا وتعادلا وعذوبة، راجع ﴿حَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ﴾، وتأمل ترديد هذه الباء وما دخلت عليه، وتأمل ما أحدثت فى مذاقه الجملة وهذا مما لا يجوز أن يهمل، وهذان المجروران عادلان عن موضعيهما فالأول فصل بين الفعل ﴿حَاقَ﴾ وفاعله ﴿مَّا كَانُوا بِهِ﴾ والثانى تقدم على متعلقه ﴿يَسْتَهْزِءُونَ﴾ ولو وقع كل فى موقعه لكان الكلام وحاق ما كانوا يستهزئون به بهم، وراجع الذى ذهب من الكلام وكيف صار الكلام غير ما أنزله الله وكيف ذهبت بلاغته فضلا عن إعجازه وكيف زال عنه وصف الألوهية التى كان بها لا يُنال. وتعجب لأن كل الذى حدث هو أنك رجعت بالكلمات إلى موضعها الأصلى، هذه الزحزحة لحرف الجر والذى رجع به إلى أصله هَوَتْ بالكلام من الإعجاز القاطع للأطماع والقاهر للقوى والقدر إلى أن يصير كلامًا قريبًا مبذولا متناولا، وهذا من معنى أن إعجازه فى نظمه.

ولن تجد فى الكلام شيئًا يعذب فى اللفظ إلا ووراءه سر من أسرار المعنى وسر المعنى هنا هو أن المجرور الأول ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾ يعود على قوم هود عليه السلام وهم القطب الذى يدور حوله الكلام فكان تقديمهم أهم وكان الكلام بهم أعنى ثم هم المعادلون لقريش والمقصود من ذكرهم وذكر عذابهم هو وضع صورة أمام قريش حتى ترتدع وترجع عن محادَّتها لدين الله وإلا حاق بهم ما حاق بعاد، فهى تهديد لهم بعذاب الاستئصال لأن الآيات الدالة على أن الله سبحانه رفع عن قومه ﷺ عذاب الاستئصال لم تكن نزلت لأنها نزلت متأخرة، مثل قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ أما الضمير الثانى ﴿بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ فهو راجع إلى الاسم الموصول ﴿مَّا كَانُوا﴾

الذى هو فاعله حاق، وهو استهزاؤهم فإذا كان الضمير الأول راجعًا إلى عاد فالضمير الثانى راجع إلى شناعات عاد وهذا هو سر التقديم فيهما.

قلت إن قوله تعالى ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ فاصلة القسم الأول من خبر قوم هود عليه السلام وهو القسم الذى فيه عرض هود لدين الله ورفض القوم لهذا الدين ونزول العذاب، وأقول إن قوله تعالى ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ فاصلة القصة بقسميها لأن القسم الثانى الذى بدأ بقوله تعالى ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ﴾ مَعْقود على أخد العبرة من القسم الأول، وهذه الجملة تطوى صفحة عاد، لتبدأ السورة بشىء آخر هو منه وليس هو، وقبل أن أنتقل إلى القسم الثانى أنبه إلى علاقات فى داخل القصة بقسميها أولها التشابه الذى بين قوله تعالى: ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾. وقوله ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ﴾ لأن العاقل لا يستعجل بعذاب إلا إذا كان أخَذَ التهديد بالعذاب مأخذ الهزء والسخرية.

وضع قوله تعالى ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ﴾ بإزاء ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾ لأنه لا يقول ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾ وهو يريد وعيد الشر إلا الذى لا يغنى عنه سمعه ولا بصره ولا فؤاده شيئا لأن من شأن العاقل أن يحتاط.

وضع قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً﴾ بإزاء قول هود عليه السلام: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ لأنه لا يعبد إلا من خلق وجَعَلَ السمع والبصر والفؤاد، الآية الثانية بُرْهان الآية الأولى ولوفتحت باب النظر فى العلاقات التى بين الجمل والآيات المكونة للسور لوجدت بابا متسعا جداً وقل مثل ذلك فى العلاقات بين مكونات القصيدة والرسالة وكل كلام يدور حول أصل واحد لا بد أن تكون بينه هذه العلاقات وهذه العلاقات تظهر وتخفى ولها صور تتعدد وتتنوع، ولم تشبع دارساتنا النظر فى هذا لا فى كلام الله ولا فى كلام الناس.

قوله سبحانه ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأحقاف: ٣٦] هذه الآية معطوفة على قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ﴾، وهى ارتقاء بالتنبيه والإيقاظ والإنذار للمخاطبين وهم قومه عليه السلام، وقد انتقل فيها الكلام من ذكر هود عليه السلام وقومه إلى ذكر كل الأنبياء والأمم التى حولهم وأن ما نزل بعاد لما كذبوا؛ نزل بالأمم التى حولكم، والقرى مجاز عن أصحابهم والمراد هلاك أهل القرى والتعبير بالقرى عن أصحابها يفيد استئصال الكافة لأن هلاك القرية يعنى هلاك كل من فيها، والذين حولهم هم قوم صالح وقراهم بينهم وبين الشام، ويدخل فى هذا قرى عاد بالأحقاف وقرى مدين فى طريقهم إلى غزة، وقرى قوم لوط، وقوم تُبع ومساكن سبأ، وهذه كلها أرض الحضارات القديمة وأرض الأنبياء الأوّلين، وأرض الإنسان الأول، والتهديد فى هذه الآية أشد لأنها تفيد أن الهلاك محيط بكم ويزحف نحوكم من كل ما حولكم.

وقصة هود عليه السلام المعطوف عليها هذا القسم بدأت بتسلسل مطابق الواقع، وكانت فاتحتها ذكرا للرحم التى بين هود وقومه وأنه أنذرهم وقال لهم اعبدوا الله وَرَدُّوا بما رَدُّوا به، ثم جاء العذاب، والذى فى هذه الآيات اتجه اتجاها آخر فبدأ بالهلاك ثم أَوْجَزَ ما كان يكون قبل الهلاك، وهو تصريف الآيات القاطعة بصدق الأنبياء ثم إشارة سريعه إلى الأمهال وهذه الإشارة إلى الإمهال مفهومة من قوله سبحانه: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ وهذا ترتيب مغاير للترتيب الأول لأنه قدَّم فيه المؤخر وأخر المقدم وذلك لأن التخويف والتهديد والترهيب.هو الأظهر فى هذا القسم ولهذا قلتُ إن هذه الآية ارتقاء فى باب الترهيب، ووجه ترتيب القسم الأول هو الاقتراب من القوم واستمالتهم، وأن هُودًا أخو قومه ومحمد عليه السلام أخوكم، وقد عرض عليهم ما تقبله العقول وتقره وكان منهم ما كان.

وجاءت هذه الآية ورأسها ذكر الهلاك، للإشارة إلى أنه لا يكون بعد الملاينة إلا الشدَّة، ولا يكون بعد الإصرار على الرفض والعناد إلا عذاب الاستئصال.

ولم تذكر هذه الآية أنبياء هذه القرى، ولا شيئًا مما كان بينهم وبين أقوامهم، اكتفاء بذكر هود عليه السلام، وملخص موقفه عليه السلام هو الإنذار؛ وملخص موقف قومه هو الإعراض، والذى انتهى إليه الإنذار والإعراض هو عذاب الاستئصال، وهذه قاعدة السورة: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ﴾.

وقد بدأت هذه الآية، بالتوكيد باللام، وقد، فشابهت آية ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ﴾ وهذا التشابه فى المبنى يوجب علينا أن ننظر فى المعنى لأنه إيماء لا شك فيه إلى رابطة بين الجملتين، وهذه الرابطة هى أن جملة ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ﴾ تتحدث عن النعمة، وجملة ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا﴾ تتحدَّث عن النقمة ومن شأن الحق جل وتقدَّس أن يبدأ عباده بنعمه، ولا يُعَاجِل بالعقاب إلا بعد أن يكون منهم ما يوجب العقاب، والموجب للعقاب الذى هو ﴿أَهْلَكْنَاهُمْ﴾ ما تراه بين الجملتين من أنه سبحانه جَعَل لهم سمعا وأبصارا إلى قوله: ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾.

ثم هناك بين الجملتين المتشابهتين فى المبنى شىء آخر، وهو أن قوله سبحانه ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ﴾ جاء بعده ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً﴾ وهذا الجعل فى أصل الخِلْقة وقبل التمكن، وهذا يعنى أن قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ﴾ مقدَّم بالنسبة إلى الجملة بعدها، وهى ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ﴾ كما أن جملة ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا﴾ مقدمة على ما بعدها كما بينا.

قلت إن آية ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا﴾ معطوفة على ﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ﴾ عطف معنى على معنى، وأن الكلام بعضُه من بعض، وأن المعطوف اتسع فشمل أُممًا، وأُنبّة إلى أن رجوع ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا﴾ إلى ﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ﴾ لا يُغْفِلُنَا عن هذا التشابك

الشديد بين الآية وفاصلة الآية السابقة وهى قوله تعالى ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ لأن هذه الفاصلة تصوير لهلاك عاد، والآية بعدها إخبار بهلاك الأمم التى كانت على مذهب عاد، وهذا تماسك ظاهر، ثم إن عادًا التى هى قاعدة المعنى والتى ذكر خبرها مُفَصَّلاً وموجزا أيضًا هى الأُمَّة الأم والأقدم لأن الأمم التى حولهم كلها كانت بعد عاد، لأن عادا خلفاء قوم نوح عليه السلام، يعنى هم أول الأمم المذكورة فى الكتاب العزيز بعد الطوفان، ثم جاءت ثمودُ وهم خلفاء من بعد عاد كما قال لهم صالح صلوات الله وسلامه عليه وهكذا.

وقوله سبحانه ﴿وَصَرَّفْنَا الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

تصريف الآيات يعنى تَنَوُّعَهَا وانتقالها من آية إلى آية كتصريف الأقوال والأمثال يعنى تنوعها فى بابها، وكلمة ﴿الآيَاتِ﴾ كلمة شاملة لما لا يحاط به هناك آيات دالة على المعبود بحق كآيات خلق السموات والأرض، وما بَثَّ فيهما من دابة، وآيات اختلاف الليل والنهار، وآيات سوق السحاب، وتصريف الرياح، ومن آياته الجوارى فى البحر كالأعلام، والشمس تجرى لمستقرلها، إلى ما لا يحاط به، وتعداد هذه الآيات يعنى تصريفها فى باب الوحدانية. ثم هناك آيات البعث ودلائله مثل ﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الإسراء: ٥١] ومثل ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ﴾ [فصلت: ٣٩]، وما بعث الله نبيا إلا ومعه من الله برهان، وهذه القرى التى هلكت وهى حولكم شاهدت من آيات الله ما لا يجوز أن يَبْقى معه شك فى نفس، مثل ثمود التى كذبت، وقد أراها الله أعظم آية هى ناقة صالح التى رأوها تخرج من الصخرة، وقال لهم ﴿هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ﴾ [الأعراف: ٧٣]، ثم ﴿فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا﴾ [الشمس: ١٤]، ولو جعلت تصريف آيات الله عنوانا لكتاب لزادت هذه الآيات عن الكتاب، وكان الكتاب من أعظم الكتب لأنه يضعُ

الحقائق أمام الناس فى زمن يَتَشَيَّعُ فيه الكبار إلى الإلحاد ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الزمر: ٤٥]، وأكتفى بهذا وأقول إنك لو راجعت مرة ثانية آيتى ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ﴾ وما عطف عليها من قوله سبحانه ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً﴾ ووضعت بإزائه ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا﴾ وما عطف عليها من قوله ﴿وَصَرَّفْنَا الآيَاتِ﴾ لوجدت حذو الكلام واحدا ولقد نَبَّهْتُ إلى أن فى الكلامين تقديما وأُنَبِّه إلى رحم بين تصريف الآيات والسمع والبصر والفؤاد، لأن مدرك الآيات هو السمع والبصر والفؤاد، لأنها وسائل المعرفة وليس هناك سبيل لأى معرفة تصل إلى العقل الإنسانى إلا من خلال السمع والبصر، ولو وَضَعْتَ الكلمتين تحت عينيك لوجدت السمع والبصر والفؤاد هو الحَجَرُ الذى تدور عليه رَحَى تصريف الآيات، ولو لم تكن هذه الثلاثة لما كان من الممكن تصريف الآيات.

ومن تصريف الآيات أن الله سبحانه يأخذ المُبْطلين بالسراء والضراء لعلهم يتضرعون، ويلاحظ أن آيات الله وَصَفَهَا ربنا بأنها بيِّنات يعنى لا يلتبس منها شىء كما وصفها بأنها مبصرة كما وصف آية النهار بأنها مُبْصِرة يعنى يرى الناس الأشياء فى النهار بأبصارهم كذلك الآيات يرى فيها الناس الحق ظاهرا لايلتبس، وكأنه عمود الصبح وكما قالوا حُجَّةٌ كالشمس، ويدخل فى هذا ما أيَّد الله به أنبياءه من معجزات ومادامت آيات الله حجة على خلقه فلا بد أن يكون إدراكها ممكنا لكل المطالبين بشرائع الأنبياء، من عامة الناس وخاصتهم، لأن المطالبة بشرائع الأنبياء تتحقق بشىء واحد هو التكليف، والتكليف مؤسس على شىء واحد هو العقل ولذلك قالوا العقل مناط التكليف فليس هناك أى لبس فى آيات الله، وليس لهذا معنى إلا معنى واحدا وهو أن كل من كفر وردَّ دين الله فى كل أمة من الأمم إنما كفر وردَّ الدين بعد ما علم أنه الحق، وبعد ما استيقن ذلك وقد أخبر الحق عن فرعون

وقومه أنه جحدوا آيات الله بعدما استيقنوها قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ (١٣) وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤]، وهذا عام فى كل الأمم ولا يزال وكل من يعارضون دين الله فى زماننا وغير زماننا يعارضونه ظُلْما وعُلُواً وقد استيقنته أنفسهم

شيء آخر فى هذه الآيات وهو أن الله سبحانه أخبرنا فيها أنه سبحانه دمّر الأمم القديمة بحضاراتها وهى حضارات بَلَغتْ شأوا عاليا فى التقدم وقد أشار القرآن إلى هذا الشأو إشارات ظاهرة ففرعون ذو الأوتاد وعاد من إرم وإرم ذات العماد التى لم يخلق مثلها فى البلاد، وثمود جابوا الصخر وسبأ أوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم وهذه إشارات لا يجوز أن تهمل وبقايا هذه الحضارات لا تزال قائمة فى آثارها كآثار الفراعنة التى لم يصل العلم إلى أسرار كثيرة منها، وقد قلت هذا لأقول إن سنن الله فى كونه لا تتبدل ولن تجد لسنة الله تبديلا وأننا حين نفسر قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ بأنه خطاب لمن بعث فيهم صلوات الله وسلا، عليه فإننا لا نغفل أن هذا أصل من أصول سُنن الله فى الكون وأن الأمم التى دُمِّرت لما انحازت للباطل وعارضت الحق، وانحازت للكفر وعارضت الإيمان وانحازت للظلم والجور والغطرسة والقمع وعارضت العدل والبر والرحمة، وحاربت الله فى الأرض هذه الأمم ليست مقصودة بأعيانها، وإنما كل حضارة قامت على الباطل وعارضت الحق وانحازت للكفر وصادَمتْ الإيمان وانحازت للظلم والبطش والقمع والنهب وحاربت العدل والحق والبر والإنصاف، لا بد أن تواجه بهذا القانون الإلهى الذى لن يَتَبدَّل ولن يتحوّل، ولو راجعت التاريخ بعد نزول الكتاب العزيز لوجدت هذه السنة قائمة، ولا يخدعنك بقاء الحضارات الظالمة التى تحارب الله فى الأرض لأن هذا البقاء موقوت بزمن ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج: ٤٧]، وأهل البغى فى

الأرض مهما تمكنوا ومهما مكَّن الله لهم فيما هم فيه فلا بد أن تدور عليهم الدائرة، ولا بد أن ينصر الله من ينصره، ولا بد أن يجيء الحق، ولا بد أن يزهق الباطل، والمهم أن يظل أهل الحق مستمسكين به، يجاهدون عنه، ولا يُخذِّلهم عن ذلك إلا مخذول لا يعرف سنة الله فى كونه، هذا، وليس فى القرآن جملة واحدة خاصة بزمن، والخطاب بهلاك أهل الباطل ليس خطابا لجيل معين، وإنما هو خطاب للأجيال كلها وهو باق ما بقى نموذج أهل القرى التى أهلكها الله وقد جاء هذا المعنى بصورة واضحة فى قوله تعالى فى سورة يونس ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (١٣) ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلائِفَ فِي الأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ١٣، ١٤]، وقوله سبحانه وتعالى ﴿لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ يعنى إن ظلمتم كما ظلموا أهلناكم كما أهلكناهم، هذا والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ جملة كأنها غين تفيض برحمة الله، وهى واقعة موقع المفعول لأجله من الجملة قبلها يعنى صرفنا الآيات ليرجعوا فلم يرجعوا فلم يكن إلا الهلاك، وترى كلمات الرحمة مزروعة بجانب آيات الهلاك والعذاب والاستئصال ويقول لنا ربنا ارجعوا، ارجعوا، حتى لا يقع عليكم العذاب الذى لا بد أن يقع على المُصرين على الباطل، وقالوا هى مستأنفة لإنشاء الرجاء، والرجاء من الله ليس كالرجاء من الناس لأنه سبحانه ليس كمثله شيء ومنزه عن مشابهة الحوادث وإنما يخاطب خلقه بما يتخاطبون به، وسواء قلنا إن الرجاء من الله معناه الطلب أو أن الجملة الكريمة واقعة موقع المفعول لأجله أى ليرجعوا فإن مجيء ذلك فى صورة الرجاء فيه اقتراب شديد من الرحمن الرحيم، بخلقه وصار سبحانه وتعالى وتقدس كأنه يرجوهم أن يرجعوا مع أن ما يدعوهم إلى الرجوع إليه هو الحق الذى استيقنوه وما يدعوهم إلى الرجوع عنه هو الباطل والعلو والاستكبار ومحادة

الله ومحاربته وإيذاء أهل الله وخاصته وصفوته من خلقه وهم أنبياؤه صلوات الله وسلامه عليهم والذين معهم وكل هذا يوجب الحدة والغضب فى الخطاب ونعم إذا كان الذى يتكلم هو الإنسان المنفعل الغضوب، أما حين يتكلم مالك هذا الوجود وهو غنى عن العالمين فهذه لغته وهذه دعوته وهذا وعيده الذى يخالطه وعدُه وهذه دَعْوَته التى يدعو بها الفجرة إلى دار السلام قبل أن ينزل بهم الهلاك، والمضارع فى قوله ﴿يَرْجِعُونَ﴾ فيه دلالة على الإمهال ومدّ الزمن الدال على الحاضر، والمستقبل وتجدده فى المستقبل.

ومن الذى يجب أن يعلم أن الله سبحانه الذى أخبرنا أنه صرّف الآيات لعلهم يرجعون وحدّثنا بما ألفناه من الأساليب وهو منزه عن كل ما فيه شبه لخلقه، أقول الله الذى أخبرنا بذلك يعلم أزلا من يرجع ومن لا يرجع، وحين يأمرنا بما أمرنا به وينهانا عن ما نهانا عنه، هو يعلم من منا سيفعل ما أمر ومن منا سينتهى عن ما نَهى ولكنه سبحانه صرّف الآيات وأمَرَ ونَهَى ليؤاخذنا بما نفعل نحن وليس بما يعلمه هو وهذا من فرط العدل وفرط الإحسان أيضًا.

قوله سبحانه ﴿**فَلَوْلا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ**﴾ [الأحقاف: ٢٨].

تأمُّل هذه الآية يدل على أنها فاصلة الجزء الذى مضى من السورة وهو الجزء الأكبر، وكأنها تطوى هذا الجزء الأكبر، ويأتى بعدها حديث له طابع مختلف وهو خبر الجن الذى صرفهم الله إليه صلوات الله وسلامه عليه، وبعد خبر الجن كلام مختصر فى تأكيد البعث، وتهديد من ينكرونه، وأمره عليه السلام بأن يصبر كما صبر أولو العزم من الرسل وبهذا تنتهى السورة وهذا يعنى أن هذه الفاصلة تُنْهى أكبر قدر من السورة وليس بعدها جديد لأن خبر الجن هو المقابل لخبر الذين أعرضوا عما أنذروا لأنه ليس فيه إلا الإنذار والقبول.

وهذه الآية التى هذا محلها ومكانها من السورة ترجع بمعناها إلى الآيات التى تحدثت عن آلهتهم فى أول السورة من أول قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّموات﴾ إلى قوله تعالى ﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ وحديث هذه الآية عن الآلهة المعبودة بالباطل مختلف عن حديث آيات أول السورة لأن أول السورة يُقيمُ البرهان على بطلان عبادتها لأنه لا يعبد إلا الخالق المالك ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ﴾ وهذه بديهة لا يجوز لعقل أن يتردَّد فى التسليم بها، وقد نبه القرآن إليها كثيرا جداً وآيات خلق السموات والأرض وما فيهما وآيات ملك السموات والأرض وما فيهما هى أكبر شاغل لكل سور القرآن، وقد سخرت آية الحج ممن يعبدون الذى لا يخلق وذلك قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾ راجع ﴿ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ﴾، ثم راجع ﴿لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا﴾، ثم راجع ﴿وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾ وضع هذه بإزاء ﴿فَاسْتَمِعُوا لَهُ﴾، لتدرك من هذا النّغم المتوافق نَغَمةَ السخرية اللاذعة بالذين يعبدون من لايخلقون ذبابا ولو اجتمعوا له.

المهم أن آيات الوحدانية فى أول السورة لها مهيع هو إقامة الدليل على بطلان أحقيتها بأن تعبد، وآية ﴿فَلَوْلا نَصَرَهُمُ﴾ لها مهيع آخر وهو مجيئها بعد الهلاك وإخبارها بأن هذه المعبودات الفاسدة التى أقمنا الدليل أولا على عدم أهليتها لأن تعبد لم تحقق شيئًا مما عبدها له الذين عبدوها، وأنها لم تنصرهم ولا كان يتصور أن تنصرهم ثم تأتى السخرية اللاذعة فى قوله سبحانه: ﴿بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ﴾ والأصل فى المعبود أنه لا يضل الطريق إلى عابده فى الوقت الذى تمسُّه فيه الضراء ثم تبين الجملة التالية ﴿وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ﴾ يعنى أكذوبة صنعوها ولا آلهة ولا يحزنون إلى آخره، وهذا كلام غير كلام ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ

الأَرْضِ﴾، نعم الكل حديث عن الآلهة ولكن ليس كل حديث عن الآلهة حديثًا واحدًا، وإنما لكل مقام مقال، مقام أول السورة اقتضى ذكر الأدلة القاطعة بفساد عبادتها، ومقام آخر السورة اقتضى ذكر عدم الفائدة من عبادتها، ولو بحثت فى غير هذين المقامين ستجد مقامات جديدة وموضوع الحديث واحد وهذا التنوع مع اتحاد الموضوع هو درس البيان الأول، والضمير المفعول به فى قوله سبحانه ﴿فَلَوْلا نَصَرَهُمُ﴾، يرجع إلى أقرب مذكور وهو ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾، الذى هو ضمير ﴿مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَىٰ﴾ وصالح لأن يراد به قوم هود عليه السلام ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ﴾ لأنهم دفعوا قول هود عليه السلام ﴿أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ﴾ بقولهم ﴿أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا﴾ وهذه الآلهة لم تنصرهم، وصالح لأن يراد به الذين يعرضون على النار ويجزون عذاب الهون، وصالح أيضًا لأن يراد به ﴿الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ﴾ وهكذا لو رجعت إلى الذين قالوا ﴿هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ إلى أن تنتهى إلى الجملة الأم ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ﴾ لَوَجَدْتَ تلاؤمًا شديدًا لأن كل هؤلاء الذين يصلح الضمير لأن يرادوا به متسلسلون من هذه الجملة وكل هذا القسم ممسِكٌ بعضه ببعض وهذا ظاهر، وذلك أن تعود إلى المفاصل الصغيرة كالتى بين آيات إبطال الشرك وآيات إبطال رفض النبوّة إلى أن تنتهى إلى قولهم فى حُجّة النبوة ﴿هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ ثم مَفْصِل آخر للرد على هذا بذكر كتاب موسى وهو الأقدم ثم ذكر القرآن الذى ينذر الذين ظلموا وبشرى للمحسنين إلى الآية التى نحن فيها ولذلك يجوز أن أقول إن الفاء التى فى رأس هذه الآية ﴿فَلَوْلا نَصَرَهُمُ﴾ صالحة لأن ترتب هذه الآية على كل ما مضى من السورة، هذا تسلسل عجيب وتماسك يجعل كل ما مضى كأنه جملة واحدة. وكلمة ﴿لَوْلا﴾ إذا دخلت على الجملة الفعلية وكان الفعل مضارعا أو ما فى تأويلة أفادت التحضيض والعرض كما فى قوله تعالى: ﴿لَوْلا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ﴾ وقوله ﴿لَوْلا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾

والفرق بين التحضيض والعرض أن التحضيض طلب بحثٍ وإزعاج والعرض طلب بلين وتأدب، هذا كلام ابن هشام والشاهد الأول للتحضيض والحث على الاستغفار والشاهد الثانى للعرض والطلب باللين والتأدب.

وإذا كان الفعل ماضيًا أفادت التوبيخ والتَّنْديم كما في قوله تعالى: ﴿لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾ وقوله: ﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً﴾، قال ابن هشام ومنه ﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَذَا﴾، إلا أن الفعل أخر» انتهى كلامه، يريد قوله تعالى: ﴿قُلْتُم﴾ والتوبيخ والتنديم على أنهم لم يقولوا وإنما قدم الظرف ﴿إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾ للدلالة على أن الأصل أن نقول فور سماعه ﴿مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٦]، وهناك فرق بين الآية التى معنا وآية النور هو أن التوبيخ فى آية النور لفاعل الفعل ﴿قُلْتُم﴾ وليس التوبيخ لفاعل الفعل فى قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا﴾؛ لأن الفاعل المعبودات بالباطل وهى حجارة منحوتة أو أخشاب منجورة ولا يوجه إليها توبيخ، وإنما التوبيخ موجه إلى المفعول المقدم على الفاعل فى قوله تعالى: ﴿نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا﴾ وفاعل نصر الذى لا يوجه إليه التوبيخ هو مفعول اتخذ المحذوف وأصل الكلام فلولا نصرهم الذين اتخذوهم، واسم الموصول المراد به المعبودات بالباطل، وقد ذكروا بما يذكر به العقلاء تَنْبيهًا على الغفلة، والضلالة التى أنزلت الأصنام والآلهة المعبودة بالباطل منزلة العقلاء، وللتشهير أيضًا بأنهم اتخذوهم آلهة متجاوزين الله الخالق المالك الرازق، وموقع لفظ الجلالة فى قوله: ﴿مِن دُونِ اللَّهِ﴾ موقع جليل جداً لأنهم يقرون بأنه الخالق والمالك ولو قيل لهم: ﴿مَن رَّبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ [المؤمنون: ٨٦، ٨٧]، وقد قال الزمخشرى فى معنى الآية: «فهلاَّ منعهم من الهلاك آلهتهم»؟.

وفعل (اتخـذ) يتعدى إلى مفعـولين والمفعول الأول محـذوف وهو العائد على الاسم الموصول، و﴿قُرْبَانًا﴾ مفعول لأجله وآلهة المفعول الثانى.

والكلام فلولا نصرهم الذين اتخـذوهم آلهة قربانًا، وذكر الزمـخـشرى أنه لا يصح أن يكون قربانًا مفعولاً ثانيًا وآلهة بدلاً منه لفساد المعنى.

ولم يبين وجه فساد المعنى، وذكر ابن المنيـر أن وجه الفساد هو أن المقصود من التوبيخ اتخاذهم آلهـة وليس اتخاذهم قربانًا، قال: قال أحـمد: لم يتبين وجه فساد المعنى على هذا الإعراب ونحن نبينه فنقـول: لو كان قربانًا مفعولاً ثانيًا ومعناه متقربا بهم لصار المعنى إلى أنهم وبّخوا على تركِ اتخاذ الله متقربًا به؛ لأن السيد إذا وبّخ عـبده وقال اتخذت فلانًا سيـدًا دونى فإنما معناه اللوم على نسبـة السيادة إلى غيره، وليس هذا المـقصد فإن الله تعالى يتـقرب إليـه ولا يتقرب به لغيره فإنما وقع التوبيخ على نسبة الإلهية إلى غير الله تعالى فكان حق الكلام أن يكون آلهة هو المفعول الثانى لا غير، انتهى كلام أحمد، وكلمة ﴿قُرْبَانًا﴾ مصدر كالطغيان والـغفران، ونفى ابن المنير أن يكون التوبيخ على اتخاذهم قربانًا لا يعنى أن هذا ليـس من الضلال لأنه من الضلال المقطوع به أن يتـخذوهم قـربانًا وإنما نظر ابن المـنير إلى المقـصـود من الآية الذى لحظه الزمخـشرى وهو أن التوبيخ على اتخاذهـم آلهة ونفى اتخاذهم آلهة يقـتضى نفى اتخاذهم قـربانًا وليس نفى اتخاذهم قربانًا مقـتضيًا نفى اتخـاذهم آلهة، وهذا تحديد للمعنى المقصود مع أن البيضاوى أعرب قربانًا مفعولاً ثانيًا وجعل آلهة بـدلاً أو بيانًا وعـقب الخفاجـى فى الحاشيـة بأن فى هذا الإعـراب كلام طويل، وقد نقلت الكتب كـلام ابن المنير بلفظه وهو تحديد مراد الزمـخشرى بهذا الاعراب وهو جيد.

وهذه الضلالة مـذكورة فى آيات كثـيرة ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ [الزمر: ٣] ﴿وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨].

وحذف العائد فى الصلة فى قوله سبحانه: ﴿فَلَوْلا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ﴾ كثير فى كلام الله وكلام الناس، ويعلل بالاختصار، والاختصار علة بلاغية جيدة، ويبقى بعد هذه العلة العامة سر موصول بالمعنى المقصود فى الجملة، والبحث عن الأسرار هو ضالة الباحث، والذى يبدو أن المحذوف عائد على المعبودات بالباطل أعنى الأصنام وأباطيل أهل الشرك، وهذا مما لا تهش النفس لذكره، ولا يغتبط اللسان بنطقه وخصوصًا إذا إستحضرنا أن هذه الأباطيل التى لا يُقرُّها العقل كانت من أكبر المفاسد التى ابتلى بها الإنسان من عهد نوح عليه السلام وكان الدفاع عنها هو القوة المحركة لمقاومة الحق، ومقاومة النبوات وما أنزل الله سبحانه من آيات بينات وإذا قلت إن حذفها هنا فيه إيماءة إلى استحقاقها فى أن تترك وتهمل، لأنها شنيعة من شنائع التاريخ وخصوصًا اقتران لفظ الجلالة بها ﴿مِن دُونِ اللَّهِ﴾ ولفظ الجلالة له مهابة فى قلوب الناس المؤمن والكافر. وكل هذا يرشح هذا الحذف. هذا والله أعلم.

قوله سبحانه: ﴿بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ﴾.

كلمة ﴿بَلْ﴾ تفيد الإضراب والإضرابُ هنا إضراب انتقالى، وهذه الجملة الثانية أوقع فى التوبيخ والتنديم، وفيها شوب من السخرية، يزيد على السخرية فى الجملة الأولى، لأن نصرة الأصنام لعبادها لا يتوهمه إلا من لا عقل له، وأنها لا تنصرها من شىء أى شىء، فكيف تنصرها من دون الله، والله وحده هو الناصر وإنما ينصر أولياءه، وهؤلاء ليست لهم ولاية نصرة عند الله، لأنهم طلبوا ولاية النصرة من هؤلاء الذين اتخذوهم من دون الله، وكلمة ﴿ضَلُّوا عَنْهُمْ﴾ معناها أن هذه الأصنام ضلّت عنهم وشوب السخرية يكمن فى أنها لا يقال فيها إنها ضلت عنهم إلا إذا كان يتصور منها أنها لا تضل عنهم، وهذا الوهم الفاسد لا وجود له إلا عند هؤلاء الضالين

ولو رجعت إليهم وبحثت فى نفوسهم وجدتهم غير مقتنعين بهذا بل وجدت اقتناعا بالآيات البينات التى جاء بها الرسل الكرام وإنما صدَّهُمْ عن الإيمان الاستكبارُ فى الأرض بغير الحق والعلُو فيها.

وقد تكرر ذكر ضلال الآلهة عن الذين عبدوها فى الكتاب العزيز، كما فى قوله تعالى: ﴿انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ٢٤]. وكما فى قوله جل شأنه: ﴿قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٣] وقوله: ﴿وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [يونس: ٣٠] ويقال ضل عنه إذا غاب عنه وضلَّه إذا افتقده ﴿مَن يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [البقرة: ١٠٨] أى افتقده وضاع منه، ويقال ضل فى الأرض إذا ذهب فيها ﴿وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [السجدة: ١٠].

قلت إن مثل قوله: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾ كثر فى الكتاب وقوله سبحانه: ﴿فَلَوْلا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا﴾ لم تأت إلا فى هذه الآية، والجمل التى لم تتكرر فى الكتاب العزيز فى حاجة إلى أن تجمع وتدرس.

والجمل التى تكررت منها ماله معنى يراد له أن يتأثَّل فى النفس وأن يتأكد حتى يكون جزءاً من الذات مثل الجمل التى تحدِّث عن أن لله الحمد فى السموات وفى الأرض وأنه الخالق وأنه له ملك السموات والأرض وأنه يهدى من يشاء ويضل من يشاء وأنه الواحد الأحد، ومثلها الجمل التى تؤكد أحكاماً وفرائض مثل إقام الصلاة وإيتاء الزكاة وهكذا.

ومعنى أن الآلهة ضلت عنهم لا يحتاج إلى بيان فضلا عن أن يحتاج إلى توكيد، وتقرير، وتحقيق، لأن المتقرر فى العقول أنها أخشاب منجورة وأحجار

منحوتة، وأنها لا تنفع، ولا تضر، وأن وصف عُبَّادها بالضلال ثم وصفها بالضلال فيه أن ضالين عبدو ضالِّين، يعنى أن من ضل عبد من ضَلَّ وتكرار هذا يعنى التشهير بهذه العقول التى قبلت هذه السخافات، ودَفَعت الحق وردّدته من أجل أن تبقى عابدة لما كان يعبد آباؤهم، هذا والله وأعلم.

قوله سبحانه: ﴿وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾.

هذه جملة مستأنفة تفيد معنى ليس من تمام معنى ما قبلها وإنما هو تعقيب على الذى قبلها؛ لأن المعنى الذى قبلها انتهى وانتهت أحداثه بقوله تعالى: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾ وهو معنى جزئى من معانى السورة ومن لبناتها التى قام بناؤها عليها. وأولهُ قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَىٰ﴾ وقد بيّنت الآية أن الله سبحانه صرف لهم الآيات ليرجعوا فلم يرجعوا وهو شطر المعنى الذى قبله وهو هلاك قوم هود عليه السلام، وهما معًا هلكًا بعذاب الاستئصال فى الدنيا ويقابله عذاب الهون يوم القيامة فى آية ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ﴾ وهكذا نجد التلاحم الشديد بين هذه الأجزاء.

والواو التى فى رأس الجملة ﴿وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ تعطف هذا المعنى على المعنى الذى قبله ويستوى أن يكون ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم﴾ وأن يكون هو وما قبله من هلاك قوم هود عليه السلام، واسم الإشارة راجع عند الزمخشرى إلى امتناع الآلهة عن نصرتهم، قال (وذلك إشارة إلى امتناع نصرة آلهتهم لهم وضلالهم عنهم أى وذلك أثر إفكهم الذى هو اتخاذهم إياها آلهة وثمرة شركهم وافترائهم على الله الكذب من كونه ذا شركاء) انتهى كلامه، وكلامه يعنى الرجوع باسم الإشارة إلى أقرب مذكور وهو ﴿بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ﴾ وقد فسّر الإفك باتخاذهم إياها آلهة، وفى كلام الزمخشرى إشارة إلى معنى السخرية منهم وذلك فى قوله: «امتناع نُصْرَة آلهتهم» لأن الآلهة لم تمتنع لأن الذى يمتنع هو القادر على ألاَّ يمتنع والآلهة ليست شيئًا لأنها لا تنفع

ولا تضر ولا تعقل، والآية تتكلم عن الآلهة ليس من جهة بيان حقيقتها وإنما من جهة اعتقاد المبطلين فيها أنها تُقَرِّبهم ثم ضَلَّت عنهم وامتنعت عن نصرتهم وهذا كله تشهير بسخافة عقولهم وقد أصاب هؤلاء المبطلون فى وصف أنفسهم لما قالوا ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠] فأفادوا أنهم غيّبوا عقولهم لما عبدوها، وأبطلوا سمعهم لما سمعوا الحق ولم ينقادوا إليه، والطاهر بن عاشور يرى أن اسم الإشارة راجع إلى ما تضمنه قوله: ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً﴾ من زعم الأصنام آلهة وأنها تقربهم إلى الله، فلم يرجع باسم الإشارة إلى لفظ الآية وإنما إلى ما تضمنه لفظ الآية من زعم الأصنام آلهة، والظاهر أن اسم الإشارة راجع إلى اتخاذهم قربانًا آلهة وهو ما رجحه البيضاوى، وهو أقرب ولا يحوج إلى تقدير، والإفك الصرف عن الحق إلى الباطل، وعن الهدى إلى الضلال، وعن الإيمان إلى الكفر، وعن الحسن إلى القبيح، ومعنى جملة ﴿وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ﴾ يعنى اتخاذ الآلهة قربانا فعلهم هم وصناعتهم هم وليس لديهم كتاب بهذا ولا أثارة من علم وهذا رجوع خفى إلى قوله تعالى فى أول السورة ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ وكلمة الإفك التى جاءت خبرًا عن فعلهم وقولهم هى التى طالما استعملوها فى رد ما أنزله الله عليهم فقالت عاد لهود عليه السلام ﴿أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا﴾ وقال قومه عليه السلام ﴿هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ وكلمة الإفك كثيرة فى ألسنة الأمم المكذوبة، وهى فى هذه الألسنة إفك والجملة التى معنا تضع كلمة الإفك فى موضعها ونصابها بعدما استعملوها فى السورة فى غير موضعها وغير نصابها.

وقوله سبحانه ﴿وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ معطوفة على الخبر الذى هو إفكهم وكلمة ﴿مَا﴾ الأقرب أن تكون مصدرية أى وذلك إفكهم وافتراؤهم

وإنما جاءت على ما جاءت عليه لتفيد معنى أن ذلك كان ديدنهم وشأنهم وأن الافتراء الذى هو الاختلاق والكذب قد طالت ممارستهم له حتى صار جزءًا من ماهيتهم، والفعل المضارع يفيد معنى أن ذلك يتجدد منهم فى الوقت بعد الوقت، وأن هذا المضارع ممتد فى الزمن بعد الزمن فلايزال أصحاب الإفك وصرف الناس عن الحق إلى الباطل واختلاق الأكاذيب قائمين فينا ولايزال كل هذا ديدن كثير من الناس حولنا ولا يزال الناس يتخذون أصنامًا آلهة وإن كانت فكرة الأصنام تطورت ولم تعد حجارة منحوتة وإنما تكلمت الأصنام وأصغى إليها السَّدنة ووَصفوا إفكها بأنه من الحكمة، وفصل الخطاب ولا يجوز لك أن تدفع دلالة المضارع على الحدوث والتجدد وأنها امتدت إلى الزمن الذى نحن فيه.

و﴿يَفْتَرُونَ﴾ من الفعل فرى يفرِى كرمى يرمى إذا خلق الحديث؛ وصيغة الافتعال دالة على الاحتشاد فى صناعة الافتراء، وخلق الأكاذيب وأن أصحاب هذه المهنة يزاولونها باحتشاد نفس ووفرة نشاط، والافتراء من الإفك، وإنما ميزته الآية وجعلته شيئًا مستقلا لكثرة الافتراء فى باب صرف الناس عن الحق إلى الباطل وقد كثر ذلك فى تاريخ النبوات التى جاءت بالحق وكثر الافتراء من المبطلين المعارضين وراجع مثل قولهم ﴿مَا هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لأَنزَلَ مَلائِكَةً﴾ [المؤمنون: ٢٤] أو قولهم ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ [المؤمنون: ٣٨] أو قولهم ﴿لَوْلا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا (٧) أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾ [الفرقان: ٧، ٨] وغير ذلك كثير وكله داخل فى قوله تعالى ﴿وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾.

وآيات كثيرة فى الكتاب جعلت الإفك والافتراء شيئًا واحدًا فوصفت الإفك بأنه مفترى كما قال تعالى فى سورة سبأ ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلاَّ رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلاَّ إِفْكٌ

مُّفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [سبأ: ٤٣] وتلاحظ أن الآية الكريمة تشير إلى معنى مهم وهو أن قولهم إفك هو ذاته الإفك وأن قولهم افترى هو ذاته الافتراء وذلك لأنها ذكرت قولهم بعد تلاوة الآيات البينات عليهم ووصف القرآن للآيات بأنها بينات يعنى أنها لا تخفى عليهم وأنهم لما قالوا إفك كانوا يأفكون أى ينصرفون عن الحق بعدما تبين، وأنهم لما قالوا «مفترى» كانوا يفترون أى يختلقون الأكاذيب ولا شك أن وصف آيات الله بالبينات من إقامة الحجة على الخلق لأنها لو كانت الآيات تخفى على أحد ما وصفها ربنا أنها آيات بينات، وهذا الوصف يلفت القارئ إلى ما يقوله المبطلون فيها بعد سماعها وبعد بيانها وأن هذا الذى يقال بعد سماع البينات هو من محض الإفك ومن محض الاختلاق والافتراء والجملة التى معنا ﴿وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ ترد عليهم مقالتهم فى الحق وأن باطلهم هو الجدير بهذه الأوصاف وأنهم يعلمون ذلك لأنهم قالوا ما قالوا فى الحق بعد ما تبين وقد جاءت الكلمات على لسانهم فى السورة فقالوا فى القرآن بعد ما تليت عليهم آيات الله البينات ﴿هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ وقالوا ﴿هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ۝٢٩ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٣٠ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٣١ وَمَن لاَّ يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُوْلَئِكَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾ [الأحقاف: ٢٩ - ٣٢] هذا القسم من معانى السورة مختلف عن الذى قبله ومختلف فى أحداثه ومعانيه عن كل ما فى الكتاب العزيز إذا استثنينا أول سورة الجن لأنه قريب منها وإن كان أيضًا مختلفا عنها، والمهم أن صرف نفر من الجن إلى رسول الله ﷺ يستمعون القرآن ثم إعلانهم الإيمان به فور السماع ثم إسراعهم إلى

قومهم لينذروهم لم يأت هذا إلا فى هذه السورة وفى هذا الموضع منها وقد شغلت نفسى كثيرًا فى البحث عن سر مجيئه فى السورة ثم فى هذا الموضع منها، ومن أجل أن أسهل على نفسى بيان ما انتهيت إليه أرى ضرورة الرجوع إلى القسم الذى مضى من السورة لأنبه إلى أن السورة اقتصرت على بيان بطلان عبادة الذين يدعونهم من دون الله فى الآيات الأولى ثم بطلان أقوالهم فى النبوة، ولم تذكر أنواعًا من شركهم فليس فيها مثلاً أنهم جعلوا له سبحانه من عباده جزءًا ولا أنهم جعلوا الملائكة إناثًا ولا أنهم جعلوا له شركاء الجن؛ ولا أنهم قالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١] ولا أنهم قالوا: ﴿قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ﴾، وإنما جردت السورة آياتها لبيان بطلان شركهم فى عبادة الشركاء، وبطلان رفضهم للنبوة، وأنهم عما أنذروا معرضون، ودوران الأحقاف حول جملة ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ﴾ دوران واضح جداً وكل ما فى السورة من أولها إلى قوله سبحانه: ﴿بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ يكشف حقيقة واحدة وهى أنهم طولبوا بنبذ الشرك وبالإيمان بما أنزله الله من آياته البينات التى تتلى عليهم فأعرضوا.

وتأتى آيات: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ﴾ لتدور حول حقيقة واحدة وهى أن هذا النفر سمع ما أنزله الله فآمنوا وولوا إلى قومهم منذرين، وهى صورة مقابلة لما قبلها مقابلة ظاهرة، وهذا هو سر موقعها فى السورة وسر مجيئها بعد ذكر عاد، والقرى التى حول أهل مكة.

ولست باحثًا عن المناسبة لأن المناسبة تتحقق بصور كثيرة وإنما أبحث عن الترابط والتماسك حتى ترى الآيات ممسكًا بعضها ببعض وكأنها جسد واحد لا تتمُّ صورة السورة إلا بتمام كل هذه الأجزاء.

ووضع هذه الآيات بإزاء ما جاء فى سورة الجن يبرز فى هذا الآيات معنى أنهم أنذروا واستجابوا، وصاروا منذرين لقومهم، والذى فى أول الجن أنهم سمعوا قرآنا عجبا، يهدى إلى الرشد فآمنوا به، وليس فيها أنهم ولوا إلى قومهم منذرين، وهذا التولى فى آية الأحقاف تأكيد لمعنى الإنذار لأنهم لما أنذروا واستجابوا صاروا منذرين، وسورة الجن نزلت قبل الأحقاف، والجن فيها بعد ما سمعوا قرآنا عجبًا يهدى إلى الرشد وآمنوا، نقلوا الكلام إلى ما كانوا عليه من عقائد وأنه كان يقول سفيههم على الله شططًا وأنهم ظنوا ألا يبعث الله أحدًا وأنهم كانوا يقعدون مقاعد للسمع إلى آخر ما جاء فى السورة وليس منه شيء فى الأحقاف لأن سياق الأحقاف اقتضى أن يذكر من خبر الجن ما جاء مخالفًا لما عليه الذين نزل فيهم والذين أعرضوا عما أنذروا. هذا والله أعلم

قوله سبحانه: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِّنَ الْجِنِّ﴾ هذه الواو التى فى أول الآيات تَسْتَحِثُّنَا على أن نبحث فى الآيات قبلها عن الذى يعود إليه ما بعدها، لأنها عُرْوَة يُمْسِكُ الكلام بها بعضه ببعض، وما بعدها معنى جديد فلابد أن تكون من عطف المعنى على المعنى، وكان يمكن أن يقال ولقد صرفنا إليك نفرًا من الجن كما قال ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم﴾ وقبلها، ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ﴾ [الأعراف: ١٠]، وإنما بدأت هذه بالزمن الذى يوجب علينا أن لا نعود بها إلى ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا﴾ ولا إلى ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ﴾ وإنما نَعَود بها إلى ﴿إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ﴾ وعامل «إذ» المحذوف هنا هو عامل ﴿إِذْ أَنذَرَ﴾ المذكور هناك والكلام هنا واذكر إذ صرفنا إليك، كما كان هناك ﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ﴾ وقد ذكر علماؤنا أن قوله جل شأنه: ﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ﴾ مثل مضروب لحال قومه لأنه يشبه حال عاد مع أنهم كانوا أشد منهم قوة وآثارًا فى الأرض وكان قومه يعلمون ذلك لأن الأرض أرضهم والناس ناسهم والتاريخ تاريخهم، وإذا كان ذكر هود وقومه يسلّيه عليه السلام ويشد أزره فإن ذكر صرف نفر من الجن إليه يذكره بالنعمة التى أنعم الله بها عليه، وأنه سبحانه خصّه من بين أنبيائه عليهم السلام بأنه مبعوث إلى

الثقلين، وفيه إشارة غير الإشارة التى فى خبر عاد وهى أن الله سبحانه الذى أمال إليك قلوب الجن قادر على أن يميل إليك قلوب قومك، وقلوب من تدعوهم بدعوة الحق ممن كتب الله لهم الهدى من الناس أجمعين.

ثم إن ذكر الزمن الذى فى قوله: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا﴾ يذكره عليه السلام بإكرام الله له وعنايته به فى أحوال الشدة التى تبلغ ما تبلغ مما كان يعانيه من قومه صلوات الله وسلامه عليه فقد صرف الله إليه نفرًا من الجن يستمعون القرآن مرجعه عليه السلام من الطائف وقد وجد من ثقيف أشدّ ما وجد فقد أغروا به صِبْيانهم وسفهاءهم واشتد ذلك عليه صلوات الله وسلامه عليه، ودَعَا دعاءً دالاً على شدة ما وجد عليه السلام، وهو دعاء جليل أُحِبُّ أن أذكره على الوجه الذى ذكره عليه ابن كثير قال عليه الصلاة والسلام: «**اللهم إنى أشكو إليك ضعف قوتى وقلة حيلتى وهوانى على الناس يا أرحم الراحمين، أنت أرحم الراحمين وأنت رب المستضعفين، وأنت ربِّى إلى من تكلنى؟ إلى عَدُوٍّ بعيد يَتَجَهَّمُنى؟ أم إلى صديق قريب ملكته أمرى إن لم يكن بك غضب علىّ فلا أبالى. غير أن عافيتك أوْسع لى. أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات وصَلَحَ عليه أمْرُ الدنيا والآخرة أن ينزل بى غضبك أو يحل بى سخطك، ولك العُتْبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بالله**».

اقرأ هذا الدعاء وكرره ثم اقرأ: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ﴾ لتدرك الحالة التى أكرم الله فيها نبيه ﷺ وكيف تداركته الرحمة؟ وقيمة الزَّمن الذى فُتِحَتْ به الآية، وقيمة إسناد الصرف إلى ضمير العظمة، لتتأكد الرعاية ويتأكد اللطف الذى يتداركك الله به كلما أصابك ما تكره.

وقال علماؤنا فى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ﴾ معناه أمَلْناهم إليك، ويقال صرفه عنه، إذا أبعده، وصرفه إليه إذا وجَّهه إليه، وفى إسناد الصرف بمعنى الإمالة

إلى ضمير العظمة شيء آخر هو أن نواصى قلوب الخلق فى يد خالقه يَصْرف من يشاء إلى ما يشاء ويَصْرف من يشاء عن ما يشاء. فلا يهولنك ما تجد، واعلم أنت وَحَملة رسالتك من بعدك أنه ليس عليكم إلا البلاغ، وعليكم أن تُحْسنوه يعنى تحسنون فهم ما تبلغون، ثم تحسنون لغة ما تبلغون ثم تحسنون معرفة الوقت والحال الذى تبلغون وما عدا ذلك فليس فى أيديكم منه شيء، لأن القلوب لن تنصرف إلى شيء إلا إذا صرفها الله إليه، وهذا معنى جليل جداً، لأنه يُريح وتخلو حياة الذين يبلغون رسالات الله من الشحناء، والتكدير، لأنهم يرفعون أيديهم بعد تمام البلاغ الذى يجب أن يجوِّدوه، ولا يعتبر أحدهم بلَّغ إلا إذا استوفى متطلبات البلاغ، بل إن هذا يريح أصحاب المبادئ الصادقين والذين يدعون أوطانهم للأخذ بما تَنْهَضُ به الأوطان ويدعون أوطانهم للوقوف فى وجه الفساد والمفسدين، والذين اغتصبوا حكم الشعوب وفرضوا عليهم الجهل والفقر والمرض، وكادت الأوطان تُهَدّ بهم هداً، والمواطن الحر الصادق الذى يرى هذا فليس عليه إلا أن يدعو قومه لليقظة ومعرفة حقوقهم، والوقوف فى وجه اللصوص وأن ينزعوا عنهم ثياب السلطة الذى يسترون به حقيقتهم ثم له بعد ذلك أن ينام قرير العين لأن نواصى قلوب النِّيام من بنى وطنه بيد الله وليست بيده.

قلت إن إسناد الصرف إلى ضمير العظمة مريح جداً، ولكن بعد ألا أُبْقى عندى من المجهود شيئًا، وإنما أبذل كل قدراتى وكل خبرتى وكل جهدى نحو توجيه القلوب إلى ما يجب أن تتوجه إليه ثم أرفع يدى وأترك ما بعد ذلك ليد الله، ولولا هذا المعنى لقتلنا أنفسنا كمداً على ما نرى مما يحدث علي أرض آبائنا وعلى ترابهم الذى دفنوا فيه لأن كل ذلك صار فى قبضة عصابات منظمة أخشى أن تكون تحت رعاية أبناء القردة. وإذا توهمت أنى أدخل ما أنا فيه على معانى الآيات فلك هذا ولكن تأكد أننى حريص على ألا أقول فى كلام الله إلا بما فيه، ولو تابعت ما أجده من

إسناد الصرف إلى ضمير العظمة لقلت أكثر من ذلك، لأن مثل هذا الإسناد يصير عندى بمثابة عنوان لموضوع.

وتقديم الجار والمجرور فى قوله: ﴿إِلَيْكَ﴾ لأنه أصل الفائدة وهو المخاطب وهو المبلغ عن ربه وهو الذى وجد من قومه ما وجد، وهو الذى ضرب له المثل بهود عليه السلام وهو الذى بشره ربه بخصوصية لم تكن لغيره وهى أن الله يهدى به الثقلين وكلمة ﴿نَفَرًا﴾ جاءت نكرة للإشارة إلى أنهم نفر أى نفر هم من كرام الجن ومن الصادقين والناصحين لأقوامهم وهم من الذين إذا عرفوا الحق لزموه ثم سارعوا إلى أقوامهم ليأخذوا بأيديهم إلى هذا الخير الذى وجدوه؛ وهذا شأن الصالحين وليس فى الدنيا أكرم ممن إذا رأى الحق تبعه ثم صار داعية قومه إلى الحق.

وقوله: ﴿مِّنَ الْجِنِّ﴾ سُمِّى الجن جناً لاستتارهم ومنه الأجنّة فى الأرحام لاستتارها والشأن فيهم أنهم أهل تمرد وأهل نفور وأبعد خلق الله عن الطاعة، ومع ذلك صرف الله كرامهم إليك وأمال قلوبهم نحوك وسمعوا الهدى الذى أرسلت به فخلعوا ما جبلوا عليه من عتو وتمرد وانقادوا وأطاعوا وأسلموا واستسلموا ودعوا قومهم إلى ما هم عليه.

ولا تجد فى الكلام كلامًا كل كلمة فيه تحتها سر إلا كلام الله سبحانه.

وقوله: ﴿يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ﴾ تصلح هذه الجملة أن تكون حالاً وأن تكون صفة، والحال وصف فضله والمضارع فيها يعنى أنهم الآن يستمعون وأن هذا الاستماع يتجدد منهم وصيغة الافتعال يعنى قال سبحانه ﴿يَسْتَمِعُونَ﴾ ولم يقل يسمعون للإشارة إلى أنهم يستمعون بعناية واهتمام وغبطة نفس ووفرة نشاط، وإذا غيّرنا أى خصوصية من هذه الخصوصيات لذهب ما وراءها ولصرنا إلى كلام آخر، فلو قلت: وإذ صرفنا نفرًا من الجن إليك لكان شيئًا غير الذى قاله ربنا، وكذلك لو قلت: (يسمعون القرآن)، لأنه كلام الله بهذه

الخصوصيات ومعجز بهذه الخصوصيات فلو ذهبت منها واحدة لكان غير كلام الله ولكان غير معجز، وعجيب جداً أن تجد الجملة جملة قرآنية لو أنزلها الله على جبل لرأيته خاشعًا ثم تؤخر منها كلمة لترجع بها إلى موضعها فتصير هذه الجملة شيئًا آخر، وتدخل فى كلام الناس ويذهب عنها الأمر الإلهى ويذهب عنها الإعجاز، ولا يدخل فى ذلك ما اختلفت فيه القراءات لأن القراءات كلها كلام الله المعجز، وجملة ﴿يَسْتَمِعُونَ﴾ تعنى أن الله صرفهم وهم على حال الاستماع الذى أقبلوا عليه بحب ونشاط، أو صرفهم وهم على هذا الوصف، والجملة التى تلى هذه وهى قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا﴾ تفيد أنهم استمعوا بعدما حضروه والضمير فى ﴿حَضَرُوهُ﴾ عائد إلى القرآن أو إلى رسول الله ﷺ وهو يقرأ القرآن فى صلاة الصبح مرجعه من الطائف، وليس هذا إشكالاً وإنما له وجه من البيان وهو أنه من المألوف فى كلام الله وكلام الناس أن يعبر عن إرادة الفعل بالفعل للإشارة إلى قوة الصلة بين إرادة الفعل وإنجاز الفعل وأن إرادة الفعل لا تتخلف عن وقوعه كما فى قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [النحل: ٩٨] والاستعاذة قبل القراءة والمعنى إذا أردت قراءة القرآن فاستعذ بالله، ومثله: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ﴾ [المائدة: ٦] والوضوء سابق للقيام للصلاة وقوله جل شأنه: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا﴾ [الأعراف: ٤] ومجيء البأس قبل الإهلاك لأنه هو الإهلاك، ولا يجوز أن يبقى أهلكناها على أصل معناها لأنها إذا هلكت فلن يكون لمجيء البأس فائدة، وهذا كثير جداً والمعنى فى الآية أن الله صرفهم وهم مهيؤون للسماع قاصدين إليه حتى كأنهم يستمعون وكأنهم فى نشوة هذا الاستماع.

ولا يجوز أن تهمل أن كلمة ﴿صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ﴾ هى من مادة ﴿وَصَرَّفْنَا الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ وأن اشتراك الكلمتين فى الجذر اللغوى لابد

أن يكون وراءه شيء وأظنه الإشارة إلى أن تصريف الآيات ليس مفضيًا إلى الإيمان وإنما المفضى إليه صرف الحق قلب من يشاء من خلقه إلى الإيمان وأن القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن، نعم كان لابد من تصريف الآيات ولابد من أن يترك كل وما يختار وفى النهاية أذمَّة القلوب فى يد الله يصرفها إلى الحق أو يصرفها عنه، ﴿وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١].

قوله سبحانه: ﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا﴾.

الفاء التى فى أول هذه الجملة رتَّبت ما بعدها على قوله سبحانه ﴿صَرَفْنَا إِلَيْكَ﴾ وتفيد أن الله سبحانه ما إن صرفهم إليك حتى حضروا وأن الحدث بعدها واقع فى نهاية الحدث قبلها؛ وهذا يعنى أنهم انصرفوا مسرعين برغبة وشوق وولع لمعرفة الحق وكأن صوت القرآن يتردد فى آذانهم وهم منصرفون وقبل أن يحضروا كما يدل على ذلك قوله: ﴿يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ﴾ وأنه قيد لصرفنا كما بينا، ولما الحينية التى دخلت عليها هذه الفاء تفيد وقوع جوابها فى إثر شرطها بلا مهلة، وأنه حين واحد يقع فيه الشرط والجواب، فما إن حضروا حتى قالوا انصتوا وهذه الجملة والتى قبلها والتى بعدها فيها إيجاز شديد جداً وطىٌّ لأحداث كثيرة؛ والاكتفاء برؤوس المعانى وهى الأفعال «صرفناهم.. حضروا.. قالوا.. قُضِيَ.. وَلَّوْ..» أما كيف وصلوا؟ وأين كانوا؟ وماذا سمعوا؟ وماذا قال بعضهم لبعض: كل ذلك وأكثر منه مطوى، وراء هذه الكلمات البالغة الاختصار، وكلمة ﴿حَضَرُوهُ﴾ كان يمكن أن يقال فلما أتوه كما قال تعالى فى شأن موسى عليه السلام ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا﴾ أو كان يقال فلما جاؤوه كما قال فى موسى أيضًا ﴿ فَلَمَّا جَاءَهَا﴾ [النمل: ٨] وليس بين يدى من كلام الأئمة ما أُقدِّمه لك فى سر اختيار كلمة ﴿حَضَرُوهُ﴾ وقد جاءت كلمة حضر فى الكتاب العزيز فى معنى الحضور الحسى كما فى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُوْلُوا الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَّعْرُوفًا﴾ [النساء: ٨]

وجاءت فى معنى الحضور المعنوى كما فى قوله تعالى: ﴿وَأُحْضِرَتِ الأَنفُسُ الشُّحَّ﴾ [النساء: ١٢٨]، ثم إنها تفيد المقاربة أعنى مقاربة الحضور ولو لم يصل، كما فى قوله تعالى: ﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ﴾ [الأعراف: ١٦٣] أى قريبة منه وقوله جل شأنه: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي﴾ [البقرة: ١٣٣] يعنى أن الموت قاربه بدليل قوله لبنيه ولو كان حضره الموت بمعنى صار عنده لما تمكن أن يقول لبنيه، ومثله قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ﴾ [البقرة: ١٨٠]، والمعنى أن الموت قارب بدليل أمره بالوصية.

وهذا يعنى فى الآية أنهم قالوا ﴿أَنصِتُوا﴾ لما قاربوه ولم ينتظروا أن يصلوا إليه حرصًا منهم على السماع؛ وهذا يظهر حين تستصحب جملة ﴿يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ﴾ وأن ذلك كان مقترنًا بانصرافهم؛ وقبل أن يحضروا لأن هذا وذاك يكشف الحرص الشديد على سماع الحق؛ وأن الله سبحانه إذا أمال قلبا للحق تولَّع هذا لقلب بالحق وغلب عليه حتى كأنه يكون فى حضرة الحق قبل أن يصل إلى هذه الحضرة.

وإسناد واو الجماعة إلى الفعل (قال) فى قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَنصِتُوا﴾ له دلالة حيّة وذلك لأن هذا الإسناد أفاد أنهم جميعًا فور حضورهم قالوا أنصتوا ولم يقل فريق منهم لفريق وإنما الكل قال للكل، والنَّفر من الواحد إلى العشرة؛ ووراء ذلك حرص شديد على الاستماع وعلى ما فوق الاستماع وبيان الولع الشديد بمعرفة الحق، وطلب الدين، وهذا بيت القصيد لأن المطلوب أن الله سبحانه يفتح لدينك عالمًا آخر هو أشد عوالم الأرض عُتُواً وتمردًا وهم الذين لمسوا السماء وقعدوا منها مقاعد للسمع وقد أمالهم الله إليك والأمر أمره، وإن عليه للهدى، هذا النفر الذى أماله الله إليك صارت قلوبهم قلبًا واحدًا، وصارت ألسنتهم لسانًا واحدًا، وصار ولعهم بالهدى والحق ولعًا واحدًا.

وكلمة ﴿أَنصِتُوا﴾ أبلغ من كلمة الاستماع لأنها تأتى بعدها فى سياق بيان مزيد العناية بما يسمع، وإذا كان الاستماع طلب السمع فإن الإنصات يزيد عليه لأنه طلب التدبر والتفقد والوعى بما يسمع، ولم تأت هذه الكلمة فى الكتاب العزيز إلا فى موضعين هذا واحد منها، والثانى قوله تعالى فى سورة الأعراف: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا﴾ [الأعراف: ٢٠٤] والموضعان فى ذكر أدب الاستماع لكلام رب العالمين، والموضعان اجتمع فيهما الاستماع والإنصات وكأن الإنصات استماع بسكون طائر وخفض جناح كما كان يقول الباقلانى وأظنه استخرج هذه الكلمة العالية من هاتين الآيتين.

وقد ميّز ربنا كلامه بأنه هو الكلام الوحيد الذى أمرنا بالإنصات له يعنى السماع بتفريغ الخاطر، وبجميع النفس، وبحسن التلقى، وهذا حق القرآن علينا الذى أمرنا به ربنا، وقد وعدنا سبحانه أننا إذا فعلنا ذلك كنا من الذين يرجى رحمتهم ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

وترى هنا جملتين هما قلب هذه الحكاية أو قلب هذا الجزء من معانى السورة، وهما ﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا﴾، ﴿فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم﴾، وقد حذيتا حذوًا واحدًا، وبنيتا على لما الحينية التى قالوا: إن الأصل فى شرطها أن يكون معلومًا وأنها تفيد قوة ارتباط جوابها بشرطها، وسرعة ترتبه عليه والكلام قبل هاتين الجملتين هو طريق لهما، والكلام بعدهما هو تفريع وتفصيل منهما، والكلمة الأصل فى هاتين الجملتين هى كلمة ﴿أَنصِتُوا﴾ وفعل الشرط فى الأولى ﴿حَضَرُوهُ﴾ معلوم من انصرافهم إليه صلوات الله وسلامه عليه، لأن من انصرف إلى شىء حضره وفعل الشرط فى الثانية ﴿قُضِيَ﴾ معلوم من جواب الأولى الذى هو ﴿أَنصِتُوا﴾ لأن الإنصات يكون لكلام والكلام يُقضى وهذا شأنه، وكل هذا يؤكد أن جملتى لما الحينية قلب هذه الحكاية وكلمة ﴿أَنصِتُوا﴾ هى قلب هذا القلب أو هى قطب رحاه أو هى

جذره وواسطة عقده ولا يهولنك ذلك، لأن الإنصات هو مفتاح السر. وهو الذى فتح لهم باب العلم بما سمعوا؛ والمهم أنهم لم يسمعوا إلا فاتحة الكتاب، أو سورة اقرأ أو هما معًا أو قرآنًا فى حجمهما، لأن المفسرين يكادون يجمعون على أنهم استمعوا فى وقت قصير لأن القراءة كانت فى صلاة الصبح.

وراجع مرة ثانية لترى أنهم حضروه صلوات الله وسلامه عليه واستمعوا إليه وانصرفوا إلى قومهم منذرين لم يقولوا إلا كلمة واحدة هى ﴿أَنصِتُوا﴾ ولم يفاتح أحد منهم أحدًا فى شىء سمعه، وإنما أنصتوا فقط وحدث هذا التغير الكلى لهم بهذا الإنصات، وتحولوا إلى مؤمنين صالحين مهديين، ولم يقفوا عند هذا وإنما صاروا دعاةً هُداة مصلحين؛ وغسلت الآيات قلوبهم من جاهليتهم التى وصفوها فى سورة الجن وملأتهم حرصًا على قومهم وحبا لهم، وجدوا فى دعوتهم، وكأنهم لما وقعوا على ما وقعوا عليه من الهداية والحق حرصوا على أن يكون قومهم معهم وهكذا أهل الإيمان يحرصون على الخير لغيرهم كما يحرصون عليه لأنفسهم والذى أكرر اللفت إليه هو أنهم فى حضرة المختار صلوات الله وسلامه عليه تلك الحضرة التى حولتهم من جنٍّ مَرَدَةٍ أهل عتو إلى قوم صالحين مصلحين هداة مهديين لم يتكلموا فيها بكلمة.

ومن الذى أصارحك به هو أننى رجعت إلى فاتحة الكتاب وإلى سورة اقرأ لأجد الشىء الذى قلب معتقد هؤلاء رأسًا على عقب بل وصيَّرهم مُبلغين عن الله وقلت فى نفسى أى شىء فهمه هذا النفر من هاتين السورتين وكيف استطاعت الفاتحة التى نقرؤها عشرات المرات أن تُخَرِّج وحدها أو هى وسورة اقرأ فى زمن قصير نفرا من أكرم الدعاة وأنبلهم ليسوا دعاة للإنس وإنما دعاة للجن، ولا شك أن فاتحة الكتاب هى أم الكتاب ولكن كيف نفذ هؤلاء المرَدَة إلى سر أم الكتاب، وكيف صنعت منهم ما صنعت؟ ولا أشك لحظة واحدة فى أن أم الكتاب أو سورة اقرأ أو سطرًا واحدًا من المصحف قادر على أن يصنع رجالا من الإنس هم فى طبقة هؤلاء الجن والمطلوب فقط هو

أن يميل الله قلوبنا نحو كلامه ثم يمن علينا بتعلمنا كيف ننصت حتى نحقق أمره لنا ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا﴾.

وكلمة ﴿وَلَّوْا﴾ فيها سرعة وفيها رغبة مضيئة فى قلوبهم إلى أن ينفع الله قومهم بما انتفعوا به، وأفهم من هذا أن من علمه اللّٰه شيئًا عليه أن يسارع إلى قومه ببلاغه، وأن نعمة العلم الذى يفتح الله لك بابه منوط بها أمران، الأول: أن تنتفع بها، والثانى: أن تنفع بها وقد أثنى الله فى الآية على من فعلوا ذلك وذكرهم لنا نموذجًا نحتذيه.

وكلمة ﴿مُّنذِرِينَ﴾ حال من ﴿وَلَّوْا﴾ وهم لم يكونوا منذرين حال التولية وإنما أنذروا قومهم لما حضروهم، ويقال فيها ما قيل فى جملة ﴿يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ﴾ لأنهم لم يستمعوا إلا بعدما حضروا، وهو من باب التعبير بالفعل عن إرادة الفعل، وليس هذا هو المهم لأنه تصحيح للعبارة وإنما المهم ما وراء ذلك من الرغبة الأكيدة فى إنذار قومهم وتخويفهم من عذاب الله، ويلاحظ أنهم دعوهم إلى الله، وأن من أجاب داعى الله غفر الله له، ومن لم يجب فليس بمعجز فى الأرض، وهذا هو الإنذار يعنى هم ذهبوا إلى قومهم مبشرين ومنذرين، ولكن الخوف على القوم من عذاب الله هو الدافع الأقوى، وأهل الصلاح وأهل التقوى يذكرون عذاب ربهم، ويخافونه، ويخشون ربهم من فوقهم، فالترهيب مقدم على الترغيب، ثم إن كلمة منذرين هذه فيها إشارة لا يجوز إهمالها إلى الآية الأم، والتى اقتضت أن تُبنى قصة الجن فى الأحقاف على ما بُنيت عليه وهو الإنذار وقبوله كما بُنيت قصة عاد على الإنذار والإعراض عنه، وإذا كانت الجملة الأم تحدِّث عن الذين أنذروا فأعرضوا فإن هذه الآية تحدث عن الذين أنذروا فأقبلوا، ثم صاروا هم أنفسهم منذرين، يعنى أن الإنذار الذى كرهه الذين كفروا حرص الذين آمنوا من الجن على أن يكونوا من أهله، فلم يستجيبوا لداعى الله الذى

هو الإنذار وإنما رغبوا فى أن يكونوا منذرين، وهذا تأكـيد لصورة المقابلة بين آية الجن فى السورة والجـملة التى تدور عليها السورة وأعنى بالمقـابلة الصورة المضـادة لأن نفـر الجن قـبلوا الإنذار، وهذه هى المضـادة ثم زادوا وصـاروا منذرين لقومهم وخوَّفوهم من أن يكونوا من المعرضين.

قوله سبحانه: ﴿قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

لم يتحدثوا عن القـرآن إلا بجملة واحدة هى ﴿يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ وهذه هى التى عوَّلوا عليها فى إنذارهم لقومهم وهذا عجيب لأنك لو تأملت الجملة وجدت نصفها الثانى: ﴿وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ مؤكدًا لنصفها الأول، لأن الهـداية إلى الحق تعنى الهدايـة إلى الطريق المستـقيم، وإن كـان يمكن أن يراد بالطريق المسـتقيم الجانب العـملى والسلوكى لمن آمن، أعنى أن نصف الجملة الأول يشيـر إلى جانب الاعتقاد، وأن النصف الثـانى يشير إلى جانب العمل، وعلى كل حال هذا هو الذى أسَّسُوا عليه الدعوة وأسَّسُوا عليه الترغـيب الذى فى قولهم: ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ والترهيب الذى فى الآية التى بعدها، وأفهم من هذا أنه ليس بعد الهداية إلى الحق وإلى الطريق المستقـيم مطلب يطلب من الدين، وأن الداعى إذا دعا إلى الحق وإلى الطريق المستقيم فقد أعـذر من دعاه؛ وأنه ليس لله سبحانه مطلب من عباده إلا أن يهتدوا إلى الحق الذى هداهم إليه وإلى الطريق المستقيم الذى كانت كل شرائعه شرحًا له وبيانًا وتفصيلاً.

الخلاصة التى أريدها أن هذه الجملة الوحيدة التى حدَّثُوا بها عن ما وجدوه فى القـرآن تشيـر إلى أن الهـداية إلى الحق ليس بعـدها شىء وسلوك الطريق المستقيم ليس بعده شىء وأن الجن الكرام لم يشاؤوا أن يحدِّثوا بشىء أكثر من ذلك، لأن هذا عندهم كاف وشاف.

ولو قلت إن هذه الجملة مقتبسة من أم الكتاب لم تكن مُبعداً لأن أم الكتاب قائمة على الدعوة إلى الحق وإلى الصراط المستقيم، وكذلك لو قلت إن الطريق المستقيم فى كلامهم هو الصراط المستقيم فى الفاتحة وأن الهداية إلى الحق، ترجع إلى قوله تعالى فى سورة اقرأ: ﴿أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَىٰ (١١) أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ﴾ [العلق: ١١، ١٢] لم تكن أيضًا مبعدًا.

والجملة التى قبل جملة ﴿يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ﴾ جملة موطئة لهذه الجملة ومهيئة لها لأن كلمة ﴿يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ هى قطب رحا هذا القسم وهى أصله وجذره، ومن المفيد فى التحليل أن تبحث عن الأصل الذى هو الأم ثم تبحث عن المدخل له والتوابع له والأصل عندى فى هذا هو ﴿يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ وقوله: ﴿يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ هو المدخل لهذا الأصل.

وأول ما تلاحظ فيه هو ابتداؤه بحرف النداء الذى للبعيد والذى وراءه الرغبة فى التنبيه والإيقاظ وأنهم حين يولّون إلى أقوامهم وهم يفاجئونهم بالنداء الصادر من كل النفر إنما يشعرونهم بأنهم سيحدثونهم فى أمر جلل.

ومما يدخل فى بيان شدة اهتمامهم بما يقولونه لقومهم هذا التوكيد ﴿إِنَّا سَمِعْنَا﴾ لأن هذا التوكيد له بواعث أخرى منها أن الخبر غريب ومن شأنه أن يؤكد ومنها شدة عنايتهم بهذا الخبر وحرصهم على تثبيته وتقريره فى نفوس القوم؛ ووراء ذلك ما وراءه من قوة اقتناعهم بمضمونه وحفاوتهم ووفرة نشاطهم فى بلاغه، ولست متكلفًا إذا نظرت إلى ضمير جماعة المتكلمين وانتهائه بتلك الألف الممتدة التى تكررت فى ﴿إِنَّا﴾ وفى ﴿سَمِعْنَا﴾ وأن هذا من امتداد الصوت الذى أرادوا به قوة الإيقاظ ثم إذا نظرت أيضًا إلى قولهم ﴿سَمِعْنَا﴾ والعبارة بفعل سمع مع أنهم انصرفوا وهم يستمعون وليس وهم يسمعون ولا يصح هنا أن يقال: إنا استمعنا، لأنهم لم يقصدوا فى بلاغهم أن

يقولوا إنا تكلفنا الاستماع ولا إننا قصدنا إلى الاستماع، وإنما أرادوا سمعنا من غير أن نكون قاصدين إلى السماع، والذى استمع لا بد أن يكون قاصداً والذى سمع جاءه الصوت من حيث لم يقصد إليه وربما سمعت ما لا تحب أن تسمعه لأنه ليس لك خيار فى السماع فالأذن تتلقى وإن كنت لا تريد لها أن تتلقى وهى بخلاف العين لأنك لو أردت عدم الرؤية أطبقت جفنك وإذا أردت عدم السماع لاتستطيع أن تطبق أذنك وكل هذا من دلالة ﴿سَمِعْنَا﴾ وأن المقصود الإخبار بما لم يقصدوا إليه وإنما هو سماع كتاب جاء عفوا، وتنكير كتاب صالح لأن يكون كتابا أى كتاب وصالح أيضًا لأن يكون كتاب كنا نجهله، وجملة ﴿أُنزِلَ﴾ وصف لكتاب وهى جملة حاسمة فى بيان المقصود وأن الكتاب كتاب الله والذى ينزل الكتاب هو الله وقومهم يعلمون ذلك وهذا إقرار منهم بالإيمان به، وكشف لحقيقة الأمر الجلل الذى احتفلوا له فى خطابهم لقومهم، وكلمة ﴿مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ﴾ فيها إغفال لما أنزله الله بعد كتاب موسى من كتب كزبور داود وإنجيل عيسى، وقد قال العلماء فى بيان ذلك إنهم كانوا على اليهودية، وأن الجن لهم أديان ونحل فمنهم اليهودى ومنهم المسيحى ومنهم الصابئة إلى آخره، وقالوا وهو أبين أنهم لم يذكروا الكتب من بعد موسى لأن هذه الكتب كانت مكملة لكتاب موسى عليه السلام وأن التوراة من أعظم كتب الله قبل القرآن وأن عيسى عليه السلام أرسل إلى بنى إسرائيل الذين أنزل الله فيهم التوراة وقد قال عيسى عليه السلام لبنى إسرائيل ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ [الزخرف: ٦٣] وآيات كثيرة تذكر كتاب موسى عليه السلام ومن بعده القرآن كما مضى فى قوله تعالى: ﴿وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَٰذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا﴾ [الأحقاف: ١٢] ولما سمع ورقة بن نوفل ما أنزله الله على رسوله فى بدء الوحى قال: «هذا الناموس الذى أنزله الله على موسى» مع أنه كان قد تنصر فى الجاهلية، وقوله سبحانه ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ يعنى مُصَدِّقًا للكتب التى

سبقته وفيه استدراك للكتب التى أنزلت بعد موسى عليه السلام وكأنهم ذكروا الكتاب الأم ثم ألموا بما بعده من الزبور والإنجيل وما أنزل الله كتابا على نبى من أنبيائه إلا وهو مصدق للكتب التى أنزلها الله قبله وليس فيها كتاب ينقض كلمة واحدة من كتاب قبله لأن الكل كلامه ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ ولا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ [الشورى: ١٣].

وإذا كان الحق سبحانه قد وصف كل كتاب من كتبه بأنه مصدق لما بين يديه من الكتاب يعنى الكتب فإنه سبحانه لم يصف كتابًا بأنه مهيمن على ما بين يديه من كتب إلا الكتاب العزيز، وقد جاء ذلك فى آية واحدة فى سورة المائدة ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ [المائدة: ٤٨] ووجه ذلك والله أعلم أنه لم يُحفظ كتاب من كتب الله من التغيير والتبديل وإدخال ما ليس منه فيه إلا القرآن الكريم لأن القرآن هو الكتاب الخاتم الذى تعهد ربنا بحفظه ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩] واستحفظ الأحبار والرهبان على كتبه الأخرى فكتبوا الكتاب بأيديهم وقالوا هو من عند الله وما هو من عند الله، ومعنى هيمنة الكتاب العزيز على هذه الكتب أن ما وافق القرآن منها فهو صحيح وماخالف القرآن فليس من هذه الكتب وإنما هو مما غيروا وبدلوا، وهم الآن يتشددون فى إنكار التغيير والتبديل، ويزعمون أن هذه الآيات فى المصحف أضيفت إليه بعد زمن الوحى وليست من كلام الله، والنظام يسمح لهم بأن يتهموا القرآن من أجل حرية التعبير ولا يسمح لهم ولا لغيرهم بأن يتهموا الكيانات التى شاخت وجفَّت وصارت تشبه المومياوات والتى تتشبَّثُ مع ذلك بحكم البلاد ﴿ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾ [الشعراء: ٢٢٧].

وجملة ﴿إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى﴾ فيها إشارة إلى أنهم لم يعرفوا شيئًا عن هذا الكتاب قبل سماعه لما صرفهم الله إليه وحضروه، وأنهم غير المذكورين فى سورة الجن ﴿فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ﴾ [الجن: ٢] وتجد فرقا بين قولهم هنا ﴿إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا﴾، وقولهم فى الجن ﴿سَمِعْنَا قُرْآنًا﴾ فقد ذكروا القرآن هناك وقالوا فى المرتين سمعنا ولم يقولوا استمعنا يعنى لم نتكلف سماعه، وكانوا نفرا فى الموضعين ولم يكن رسول الله ﷺ يعلم النفر الذين فى سورة الجن وإنما أوحى الله إليه أنه استمع نفر من الجن وليس فى آية الأحقاف ما يدل على ذلك ولهذا ذكرت بعض الروايات أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه إنى أمرت أن أقرأ على الجن الليلة فمن يتبعنى؟ قالها ثلاثا فأطرقوا إلا عبد الله بن مسعود، وفى الآيات كلام كثير من جهة علمه بهم وأنه ذهب إليهم وقد سمعت الجن سورة الرحمن وكلما قال رسول الله ﷺ ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ١٨] قالوا لا شىء بآلائك ربنا نكذب، وسورة الرحمن تخاطب الإنس والجن.

والذى أُنبّه إليه وليس عندى كلام فيه هو أنهم لما سمعوا أم الكتاب أو سورة اقرأ أو هما أيقنوا أنه كلام الله وأنه ليس من كلام الناس وأن الذى يسمعونه منه هو رسول الله، فكيف أدركوا ذلك؟ وأى وجه من وجوه الإعجاز رأوه فيما سمعوا؟ ولا شك أنهم مكلفون بالإيمان بالله وأن منهم الصالحون ومنهم دون ذلك وأنهم مطالبون بأن يجيبوا داعى الله فما هى الجهة التى قامت بها الحجة عليهم من الكتاب وما هى الجهة التى دلتهم على أن الكتاب أنزل من بعد موسى؟ كل ذلك لا سبيل إلى معرفته لأننا لا نعرف عن هذا العالم شيئًا إلا بوحى الله والقول القاطع فى الكتاب أن الجن أدركوا الإعجاز.

وبقى شىء وهو أن ذكر الكتاب العزيز مع كتاب موسى فى كلام الجن قريب جداً من ذكر الكتاب العزيز مع كتاب موسى فى الآيات السابقة ﴿وَمِن

قَبْله كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾ وكلمة ﴿مُّصَدِّقٌ﴾ جاءت فى كلام الجن والآيات السابقة وما كان لكلمة ﴿لِّسَانًا عَرَبِيًّا﴾ أن تأتى فى كلام الجن لأن الذى يعنيهم أن يحدثوا قومهم به أنه مصدق وأنه يهدى إلى الحق، وإنما جاءت فى الآية السابقة لأنها فى خطاب قومه عليه السلام وتشير إلى أنكم أهل هذا اللسان وأنكم تعرفون أنه ليس من كلامكم، ثم إن قول الجن لقومهم ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ قريب جداً من قوله سبحانه هناك ﴿وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾ وقول الجن لقومهم ﴿وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ قريب جداً من قوله سبحانه هناك ﴿لِّيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ وكأن الآية التى هناك وهى موجهة إلى الإنس تومئ إلى ما استخرجته الجن لما سمعوا من القرآن وأن المعنى الذى حدثنا به ربنا عن القرآن وأنه ينذر ويُبَشِّر استخرجه من القرآن هذا النفر لما أحسن الإصغاء إلى ما سمع من الكتاب العزيز، هذا والله أعلم.

وقد مضى تحليلنا لقوله تعالى: ﴿يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ وقلت إنه هو المعنى الأم الذى قصدوا دعوة قومهم إليه، وأن ما قبله طريق إليه وأن ما بعده، مفرع عنه.

وقوله تعالى: ﴿يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

تكرار لفظ النداء المنبه والموقظ والمشعر بأن الذى يأتى بعده أمر يحتاج إلى جمع نفس وأنه أمر جلل ثم تكرار كلمة قوم وإضافتها إلى ضميرهم وأنهم منهم وأنهم يحرصون عليهم كل هذا تلطف فى الدعوة وحسن تأتٍّ إلى قلب المدعو وهو من الحكمة والموعظة الحسنة التى تمثلها هذا النفر، والقوم هم الجماعة الذين

يقوم بعضهم لنصرة البعض، وقد يكونون أبناء أب واحد كعاد وثمود، وقد ذكر بعض العلماء أن استعمال القوم فى خطاب الجن مجاز؛ لأن المعانى المقصودة فى خطاب الإنس بهذه الكلمة ليست قائمة فى الجن والذى يعنينى من هذا هو أن النفر يقاربون إخوانهم ويشعرونهم بأنهم منهم وأنهم يحرصون عليهم، وقد جرت الكلمة على ألسنة الأنبياء عليهم السلام فى دعوتهم لأقوامهم وكانوا يعطفونهم بها ويشيرون إلى أنهم منهم وأنهم لا يكذبونهم كما استثمرها مؤمن آل فرعون وإن كانت لم تفد لأن فرعون وملأه وكهنته وكذبته قد تمالؤوا على تضليل الشعب ولا يزال كل ذلك كائنا على أرض الكنانة وأفهم من هذا أن الداعى إلى الله لابد أن يُشْعِرِ من يدعوهم أنه يدعوهم بحب واقتراب، وأنه منهم يَضِنُّ بهم على الباطل الذى يحذرهم منه ويحب لهم الخير الذى يدعوهم إليه، ولا يكفى أن تكون داعيا إلى حق أبلج لأنك إن دعوت إليه بجفاء وغلظة فلن تجد قلبا يفتح لك بابه ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩] ويتبع هذا كل داع يدعو إلى خير يؤمن به أو إلى علم ينفع وأقرب الناس حاجة إلى سلوك المودة والمحبة طريقا إلى القلوب هم المعلمون لأن قلوب طلابك من حولك لن يميلهم إليك غزارة علمك فحسب وإنما يميلهم إليك أيضًا إحساسهم بحرصك عليهم، وحبك لهم، ولم ينجح أستاذ ولا مُصْلِحٌ ولا داعى سياسى إلا بأمرين أن يستيقن صواب ما يدعو إليه وأن يصدق فى إخلاصه لقومه.

ثم إن هذا النفر الكريم لم يقولوا إننا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى يهدى إلى الحق فآمنا به كما قالوا فى سورة الجن ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا (١) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ﴾ وإنما كفاهم أن يقولوا لقومهم ﴿يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ وأن ينتقلوا من ذلك مباشرة إلى قولهم ﴿أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ﴾، وحين نصل الآيتين ﴿يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ ﴿يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ﴾ نجد بين الآيتين فجوة سكتوا عنها وتجاوزوها وهى بيان موقفهم هم

مما سمعوا، وإن كان ذلك يصير مفهوما ضمنا من دعوتهم إجابة الداعى، وداعى الله الذى طالبوهم أن يجيبوه هو الكتاب الذى أنزل من بعد موسى يهدى إلى الحق، والعبارة عنه بداعى الله عبارة كريمة، وقد ألفنا أن نقول فيه هو هدى وهو نور وهو رحمة وقد شاع ذلك فى حديثنا عن الكتاب، والمطلوب أن يشيع أيضًا أنه داعى الله وأن هذا المصحف الذى فى يدك أو فى حقيبتك أو فى سيارتك أو على مكتبك هو داعى الله يعنى له لسان يقول ويسمع ويدعو إلى الله، وأنك حين تقرأ آية أو تسمع آية أو ترى مصحفًا تكون بمثابة من يسمع داعيا يدعو إلى الله. وهذا قريب من قوله تعالى: ﴿سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا﴾ [آل عمران: ١٩٣] ولو أحسنا الإصغاء إلى صوت هذا الداعى لتغيرت أشياء كثيرة ولصار به المصحف فى حياتنا إماما لا يَؤُمُّنَا فى صلاتنا فحسب وإنما يؤمنا فى حياتنا كلها وهو على حسب قول النفر الكرام من الجن ﴿يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ﴾ فلا يكون فى ضمائرنا مكان لباطل ﴿وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ فلا تعرف أقدامُنا طريق العوج والفساد الذى دمَّر البلاد والعباد فى زمن ليس للنظام فيه شاغل إلا قمْع أهل الدين، ومحاربة المصحف فى السياسة وفى حياة الناس كلها وحبسه فى المحاريب لمن أراد الصلاة، وإن كانت المحاريب هى الأخرى صارت ثكنات لمغول الأغا وعجيب أن يقبل كبار المغول أن يكونوا خدما وعبيدا للأغا فى زمان تحرّر ورفض ويرفض المغول والأغا، والملاحظ أن هذا النفر لما سمع الداعى أجاب وانقلب هو الآخر وصار داعيا، وهكذا الحق إذا لامس القلوب لا يدعها تُقر باطلا ولا تَقَرُّ على باطل وأن أهم أوصاف الصالحين، أنهم لا يكتفون بصلاح أنفسهم وإنما يصيرون أيضا مصلحين، ولا يكتفون بالهدى وإنما يَصيرُونَ أيضا هُدَاة لهذا الهدف ولو أحيينا هذا ما بقى المزورون فينا فضلا عن أن يكون أمرنا بأيديهم وليس فى الشعوب شعب أخسُّ من شعب يقبل أن يكون أمره بأيدى المُزَوِّرين فإذا لم يكتف بذلك وإنما هتف لهم كان أخس من الأخس ثم إن من يفعل ذلك من شعوب الأرض فقد حفر قبره بنفسه.

وإضافة كلمة ﴿دَاعِيَ﴾ إلى لفظ الجلالة لها دلالة عظيمة جداً أولا لأن الله سبحانه موصوف بكل كمال ومنزه عن كل نقص وكذلك داعيه الذى هو المصحف وثانيا لأنها تشعر أنه مبعوث من الله يعنى هذا المصحف فى الخَلْق داعٍ يدعو من قبل الخالق، وعليك أن تتصور فظاعة جريمة من يحارب داعى الله إلى خلق الله، وكيف ينابز الله فى خلقه، وكيف ينازعه فى ملكه، وعليك أن تتصور أيضًا النعمة التى أنت فيها إذا صَدَقْتَ فى دعوتك وكنت داعى الله أى ناطقا بلسانه هو سبحانه كما كان هذا النفر الكريم، وعليك أيضا أن تدرك نهاية الحذر حتى لا تدعو إلى الله بما ليس من دعوته لخلقه، والحذر الواجب أيضًا فى تأدبك بأدب داعى الله الذى هو القرآن والذى صيرك الله لما هيأ لك سبيل الدعوة إليه واحدًا من جنوده وحملته والناطقين بلسانه فى الأرض، وعليك أن تتصور أيضا حجم الخطيئة التى ترتكبها يوم تجارى حكام السوء وتبحث لهم عن تبرير لجرائمهم أو تسكت عن فظائعهم وتشغل المسلمين بالحديث فى ختان الأنثى عن تعذيب الفجرة لأبناء وطنك فى معتقلات الظالمين حتى الموت، ثم كذبهم وقولهم إن الذى قُتل ونحن نُعَذِّبُه هو الذى قتل نفسه ونحن كنا نُنقذه نرى ذلك وغيره ونسكت ثم نتكلم فى ختان الأنثى، والمطلوب أن نقول ﴿إِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾ [التكوير: ٨، ٩] وعليك أن تقول إن الذى فى البرج العالى ويوصف بالحكمة والطهارة، وأنه مع الشعب هو المسؤول عن كل ما يجرى فى الوطن كما كان عمر رضى الله عنه مسؤولا عن البغلة التى عثرت فى العراق وهو فى المدينة لأنه لم يعبد لها الطريق، لو علم الذين يعذبون الناس فى المعتقلات حتى الموت أن هذا يغضب الحكيم الحليم ابن الشعب لكفوا عن ذلك، وقوله جل شأنه ﴿وَآمِنُوا بِهِ﴾ داخل فى قوله: ﴿أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ﴾ لأن أول ما يدعو داعى الله هو الإيمان بالله وأول الإجابة هى شهادة الحق، والإيمان بالله يستلزم الإيمان برسله وكتبه واليوم الآخر لأن كل ذلك داخل فى خَلْقه الخَلْقَ بالحق ولأجل مسمى، فليس من الحق أن يخلق الخلق ويتركهم

سدى وإنما يقتضى الحق أن يرسل إليهم رسلا وأن ينزل إليهم كتبا وأن يبين لهم ما يحل وما يحرم ثم لا يكون ذلك إلا إذا كان هناك بعث ويوم مشهود يوم يقوم الناس لرب العالمين لتجزى كل نفس بما كسبت وهكذا ترى الإيمان بالله هو أول ما يجاب به داعى الله ثم من ورائه كل ذلك.

وإنما جاء قوله تعالى: ﴿وَآمِنُوا بِهِ﴾ بعد قوله: ﴿أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ﴾ وإن كان داخلا فيه للإشارة إلى أن الإيمان بالله عند الله بمكان؛ وأنه شأو بعيد، وأنك قد تجيب داعى الله فيما تفعل، ومالا تفعل ثم يداخل إيمانك شىء لا تلتفت إليه، فَيُهْدَمُ هذا الإيمان وأنت لا تدرى، ثم إن الإيمان بالله يحتاج إلى تثبيت وتجديد، وإحياء دائم لأنه يزيد وينقص إلى آخر ما يدل عليه ذكره صريحا بعد ذكره ضمنا.

قوله سبحانه: ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

جملة ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾» جواب الأمر من قوله: ﴿أَجِيبُوا﴾ ويجركم معطوف عليه، ويلاحظ أن فعل الأمر جملتان أجيبوا.. وآمنوا، وجواب الأمر جملتان: يغفر و... ويجركم، والمعطوف فى جملة الأمر ﴿آمِنُوا﴾ متضمن فى جملة المعطون عليه ﴿أَجِيبُوا﴾ وكذلك المعطوف فى جملة الجواب ﴿وَيُجِرْكُم﴾ متضمن فى المعطوف عليه ﴿يَغْفِرْ﴾ وهذا من النسق الذى نغفله كثيرًا ونتوهم أنه أمر لفظى وأنه بمعزل عن بلاغة الإعجاز، وليس كذلك وإنما جاء هذا النسق ليشير إلى أهمية الجملة الثانية بعد الأولى وأهمية الرابعة، بعد الثالثة، كما بينا وكما سنبين إن شاء الله وقد وقف علماؤنا عند ذكر كلمة ﴿مِّن﴾ فى قوله تعالى: ﴿مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ ومعناها التبعيض وهذا يعنى أن الإيمان لا يغفر كل الذنوب، وهذا خلاف ما هو مقرَّر من أن الإسلام يَجُبُّ أو يحتُّ ما قبله.

وقد ذكروا فى ذلك وجوها: منها أن من الذنوب ذنوبًا لا يَجُبُّها الإسلام مثل المظالم، وحقوق العباد، وأن الله سبحانه يغفر للعبد ما كان لله، ولا يغفر لهم ما هو لعباده، هكذا قال الزمخشرى وهو كلام يشدِّد على حقوق

العبـاد، وأن الله لا ينوب عن المظلوم فى مسـامحـة الظالم وإنما لابد من القصـاص ولو ظلم وهو كافر، ثم أسلم فلابد مـن أن يقتص الله للمظلوم، وهذا كلام جيد لأن ظلم الناس وقهر الناس أفحش الفحش وخصوصًا ظلم الأقوياء للضـعفاء وظلم المسؤول الذى يملك القـوة والبطش إلى آخره، وأنا أستحـسن هذا القـول لهذا المعنـى، ولا أراه هو الصواب، وإنما أذكـر دافع القائلين به، وقد جاء الخبر بخـلافه وذكر الأئمة أن المحارب لو نهب الأموال المصونة وسفك الدماء المحقونة ثم حسن إسلامه جَبَّ الله عنه إثم ما تقدم بلا إشكال وهذا كلام ابن المنيّـر، وذكر أيضًا أن كل ما وعـد الله به أهل الشرك بمغفرة الذنوب لو أسلموا جـاءت فيه كلمة ﴿مِن﴾ فلم يعدهم ربنا بأن يغفر لهم ذنوبهم وإنما وعدهم بأن يغفر لهم من ذنوبهم، ومن ذلك قوله تعالى فى سورة نوح ﴿ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٢) أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ (٣) يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [نوح: ٢، ٤] وقال تعالى فى سورة إبراهيم ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [إبراهيم: ١٠] وفى خطاب الذين آمنوا لا تأتى كلمة ﴿مِن﴾ وإنما تكون المغفرة شاملـة للذنوب كلها كما فى قوله تعـالى فى سورة الأحزاب: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١] وقـال سبـحانه فى سـورة الصف: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠) تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١١) يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [الصف: ١٠، ١٢] لم يذكر ابن المنيـر هذه الآيات وإنما قال: إن المحارب لو نهب الأموال إلى آخره ثم قال: «إنه ما وُعِدَ المغفرةَ الكافرُ على تقدير الإيمان

فى كتاب الله إلا مُبـعضة وهذا منه - يريد الآية) فإن لم يكن لاطراده بذلك سر فـما هو إلا أن مـقام الكافر قَـبْض لا بَسْط فلذلك لم يُبْـسط رجاؤه فى مغفرة جملة الذنوب فقد ورد فى حق المؤمنين مثله كثيراً والله أعلم.

وهذا السر الذى استـخرجه رحمه الله سر جليل جداً وعـجيب كيف وقع عليه وقد حاولته قبل أن أنظر فى كلامه فلم أقع عليه، ومن عادتى أنى أطوى الكتب وأفكر فى استخراج السر ثم أفتحها بعد أن أستفرغ كل ما عندى ولهذا يقع كلامهم فى نفـسى موقعا جليلا، وقد لاحظت أن الذين طالـت خدمتهم للكتاب والسنة لهم من الله إلهـامات لم أجدها عند غيـرهم. وأقول إنما كان مقام الكافر قـبضًا لا بسط فيه لأن الله جلّت حكمته يخوِّفـهم بعذابه أكثر مما يبشرهم بثوابه وهذا من رحمته بعباده وقالوا لأن تخاف فتبلغ الأمن أفضل من أن تأمن فتـبلغ الخوف، ومن زحزح عن النار وأدْخل الجنة فقـد فاز وكل من زحزح عن النار دخل الجنة بمحض فضل الله.

والأصل أن يدخل الكافـر فى الإيمـان لأنه أدرك واهتـدى فـآمن، وليس لأنه طامع فيما يكون فيه البسط، ثم إن الله سبـحانه حين يُطْمعُ عباده بثواب فيه قبض ليؤمنوا وليسـتجيبوا يكون ذلك محض فـضل الله لأن الله غنى عن العالمين، ولو كان الناس جميـعًا على قلب أفجر رجل منهم ما نقص ذلك من ملك الـله شيئًا، ومن أعظم الآيات التى أكررها قول سيدنا مـوسى عليه السلام لقومه ﴿إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٨] وهذه الآية تريحك كلما رأيت أمواج الفجور والإلحاد والفسوق تموج من حولك موجا لأن الأصل هو الخـوف عليـهم وليس الخوف علـى دين الله لأن دين الله مـحفـوظ بحـفظ الله ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [الصف: ٨].

وفى سورة التوبة ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [التوبة: ٣٢] ولاحظ كلمة ﴿بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ فى الآيتين

يعنى بمقالاتهم فى التشويش والتهويش وثقافة التنوير الرائجة فى زماننا، والتى نصبت لها الأنظمةُ جوائزها، ثم إن مقام البسط هو مقام الرضى ومقام القرب والعطاء الذى ليس له حساب والكافر بمعزل عن ذلك. رحمك الله يا أحمد بن المنيّر وبارك فى علمك ليشيع فى الناس.

قوله تعالى: ﴿وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ قلت إن هذه الجملة الثانية فى الجواب كالجملة الثانية فى الشرط، وذكرت أن الجملة الثانية فى الشرط ﴿وَآمِنُوا بِهِ﴾ أفردت لخصوصية معناها وأنها عند الله بمكان وأنها شأو بعيد، وكذلك هذه الجملة وهذا يفسر السر المعنوى للنسق الذى أشرت إليه، وإنما كان لها خصوصية مع أن مغفرة الذنوب كلها تعنى النجاه من العذاب الأليم لذكر كلمة ﴿وَيُجِرْكُم﴾ وأنه سبحانه لم يقل يُنَجِّيكم، لأن يجركم تعنى أنكم تكونون فى جواره، وإذا كان جار الكريم لا يضام فكيف بمن يكون فى جوار من يجير ولا يجار عليه، وكلمة الجار والجوار لها فى منطق الناس الذين هم ناس معنى جليل، وخصوصًا عند الذين نزل فيهم القرآن، لأن جارك الذى فى جوارك دمه دمك، وماله مالك، وعرضه عرضك، يعنى تحمى دمه كما يحمى دمك وتَحْمى ماله كما يحمى مالك وتحمى عرضه كما يحمى عرضك، وكان عز الجار من أكرم محامد قومى، وقد تعلمه منهم من جاورهم من غيرهم وقال السموأل اليهودى، ولم يكن هذا من خلق قومه:

تُعَيِّرنا أنا قليل عديدنا	فقلت لها إن الكرام قليل
وما ضرنا أنا قليل وجارنا	عزيز وجار الأكثرين ذليل

إذا كان هذا شأن جوار الكرام فكيف بجوار الذى له ملك السموات والأرض أىُّ أمْن يكون فيه؟ وأى عِزٍّ يكون فيه؟

واضح جداً أن جملة ﴿وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ مَرْتَبَةٌ أعلى من مغفرة الذنوب وأنه صار فى حمى الله وكلنا يسأل الله أن يكون فى جواره وحماه.

قوله سبحانه: ﴿وَمَن لاَّ يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُوْلَئِكَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾ [الأحقاف: ٣٢].

هذه الآية معطوفة على ﴿أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ﴾ وهى من تمام معناها لأنها بيان للوجه الآخر الذى لم يجب داعى الله، وقد كرروا كلمة ﴿دَاعِيَ اللَّهِ﴾ ولم يكرروا كلمة ﴿يَا قَوْمَنَا﴾ لأن اقترابهم من قومهم كان لإمالة قلوبهم نحو الهدى وإجابة الداعى، والحديث الآن عن الذى لم يجب فلم تطاوعهم نفوسهم على الاقتراب منهم، وذكر ﴿دَاعِيَ اللَّهِ﴾ فى الآية فيه تنبيه إلى ضلال الذى لم يجب، ثم إنهم بهذا التكرار يثبتون وصفا عظيما للذى أنزله الله، وأنه فى الأرض داع يدعو الثقلين إلى الله، يدعو إلى الحق، وإلى الطريق المستقيم، وأن من طلب الحق بمعزل عنه ضلَّ ومن طلب الطريق المستقيم بمعزل عنه فلن يصيبه وأن من يحارب وجوده فى حياة الجماعة السياسية وغيرها إنما يحارب الحق والطريق المستقيم، ويا ليت قومى يعلمون.

وجاء النفى هنا بلا ولم يأت بلم، يعنى لم يقل سبحانه ومن لم يجب داعى الله لأن لم تقلب المضارع إلى الماضى، وهم غير مسؤولين عن الماضى لأنه لم يسبق دعوتهم إلى الله فيما مضى، وإنما هم الآن يسمعون داعى الله وبعد الآن يجيب من يُجيب ولا يجيب من لا يجيب فالفعل متعلق بالمستقبل إثباتا ونفيًا.

والداعى الأول إلى الله فى هذا الوجود هو كتابه وهو المهيمن على كل داع يدعو إلى الله من الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحدًا إلا الله وهيمنته تعنى أنه يرسُم طريق الصواب لهؤلاء الدعاة ويحدِّد ما يقال بلاغا عن الله وما لا يقال، وهو الرقيب على كل لسان يبلغ عن الله شيئًا.

وقوله سبحانه: ﴿فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الأَرْضِ﴾ ليست هى جملة الجواب وإنما دالَّةٌ عليها، لأن نفى أن يعجز الله فى الأرض يعنى أنه لن يجد له مهربا فى الأرض

لا تصل إليه يد الله فيه، هذا المعنى ليس مُقيدا بالشرط الذى هو عدم الإجابة، وإنما هو معنى مطلق من كل قيد فليسوا هم ولا غيرهم ولا أى أحد بمعجز الله فى أرضه، أجابوا داعى الله أو لم يجيبوا داعى الله، والجواب المقيَّد بالشرط تحت هذه الحقيقة المطلقة وهذا كثير جداً فى الكتاب العزيز، ومنه قول الكليم صلوات الله وسلامه عليه لقومه: ﴿**إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ**﴾ [إبراهيم: ٨] جملة ﴿**فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ**﴾ غير مقيدة بالشرط الذى هو ﴿**إِن تَكْفُرُوا**﴾، وقد ذكرتها لأنبه إلى أن تقدير المحذوف وراء هذه الجمل التى سَدَّت مسدّها يحتاج إلى تدقيق لأن جملة ﴿**فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ**﴾، تعنى أن الذى سدَّت مسدَّه من جنس الحاجة وأنكم إن تكفروا فقد ضيعتم ما أنتم فى أشد الحاجة إليه، ولم تُنْقِصُوا الله شيئًا، لأنه غنى حميد، وكذلك قوله: ﴿**فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ**﴾ يعنى أن الذى سدت هذه الجملة مسدَّه هو محاولة أن يصل إلى مكان لا تصل إليه يد الله وأن ذلك لن يكون لأن الله لا يعجزه شىء فى الأرض ولا فى السماء، ثم إن محاولة الإفلات من عذاب الله ومن قبضة الله وهو يعلم علم اليقين أنها محاولة يائسة لا يكون هذا منه إلا لفرط ما يجد من العذاب والأهوال، وأنه حاول ما لا يشك فى أنه لا سبيل إليه، وعند الهول يفقد الإنسان معقوله، حتى إنه ليحاول ما يعلم أنه مستحيل وله نظائر كثيرة فى الكتاب العزيز وكما فى قوله سبحانه: ﴿**وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ**﴾ [الزخرف: ٧٧] وهم يعلمون أن ذلك لن يكون، وكما فى قوله: ﴿**رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ**﴾ [المؤمنون: ١٠٧] وكما فى قوله سبحانه: ﴿**فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ**﴾ [الأعراف: ٥٣] قالوا هذا وقالوا كثيرا مثله وهم مستيقنون أنه لن يكون لأن لحظة الموت يُكْشَفُ فيها الحجابُ ويتجلى الحقُّ وتُشرقُ الأرض بنور ربها كما قال ربنا فى سورة الزمر ﴿**وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ**﴾ [الزمر: ٦٩] وذلك عند النفخة

الأخرى التى يكونون فيهـا قياما ينظرون وهذا وإن كان يوم القيـامة فإن من مات قامت قيامته، وهذا يعنى أن كل مـحاولة منهم للخروج من العذاب أو أن يفيض عليـــهم أهل الجنة من الماء كـل ذلك يأس وكل ذلك راجع إلى هـول العـذاب والخلاصة أنه من لم يجب داعى الله وجد من الأهوال ما لا يوصف.

ثم إن قوله جل شأنه ﴿وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ﴾ معطوفة على الجملة قبلها وهى نظيرتها فى أنهـا ليست جوابا وإنما هى سادة مـسد الجواب لأنهم لا هـم ولا غيرهم لهم من دون الله أولياء أجابوا أو لم يجيبوا والذى وراءها هو الجواب وهو وإن كان من جنس جواب الجـملة الأولى فإن فيه شـيئًا ليس فى الأولى؛ لأن فرط العذاب مع الأولى جعله يبحـث فى الأرض عن مهرب وفرط العذاب هنا جعله يبحث عن ولى يدفع عنه هذا العذاب وهذا أبعد وأبعد ودال على أن العذاب الذى وراءه أهولُ؛ فـإذا كان المكروب فى الأولى يبـحث عن مهـرب فإن هذا المكروب فى الثـانية رجع إلى ضـلاله ورجع إلى الذين اتخـذهم من دون الله قربانا آلهـة يبحث عنهم ليـشفعـوا له عند الله، مع أن أول ما أدركـه لما جاءته سكرة الموت أنه كان فى ضلال وباطل وأنه لم يدع من دون الله شيئًا، فرق بين من يبحث فى الأرض عن مهرب وبين من يبحث عن ولى يواجه به الله؟

وجملة ﴿أُوْلَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ اسم الإشارة فيها راجع إلى من لا يجب داعى الله، وقـد لوحـظ فيـهـا المعنـى فـجاء اســم الإشارة للـجـمـاعـة، ولوحظ لفظها فى الشرط وما سد مسد الجواب فجاء مفردا ثم إن اسم الإشارة يفيد أن المقصود به حقيق بما بعده لاتصـافه بما قبله؛ وما بعد هو الضلال المبين وما قبله هو أنه لم يجب داعى الله، ووصف الضلال بأنه مبين على لسان هذا النفر الصـالح يعنى أنه ضلال ظاهر لأن وجوب إجـابة الداعى تظاهرت عليه الأدلة ولا يسع ذو إدراك أن ينكره، وأن مـن ولّى ظهره لـلحق الذى تظاهرت عليه الأدلة، وترك الهدى والطريق المستـقيم، ليس وراءه ولا أمامه إلا الضلال

المبين، وهذه الجملة شاملة لمعنى ما قبلها ومضيفة إليه لأن الضلال المبين الأظهر فيه أنه فى الدنيا لأن الآخرة ليست دار هدى ولا ضلال، لأنها ليست دار تكليف وإنما الضلال المبين لمن سمع داعى الله ولم يجبه.

والذى أجده كثيرًا فى الكتاب ولم أقرأ له تفسيرًا هو التنقل بين الجمع والإفراد، وأن الآية أولاً خاطبت جماعة ﴿أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ﴾ فلما انتقلت إلى الوجه الآخر المقابل نقلت الكلام إلى المفرد، وقالت ﴿وَمَن لاَّ يُجِبْ﴾ وكان يمكن أن تقول: ومن لا يجيبوا داعى الله فليس بمعجزين فى الأرض وليس لهم من دونه أولياء فلماذا عدلت؟ والذى قالوه فى أنها نظرت إلى لفظ ﴿مَن﴾ فأفردت، ثم نظرت إلى معناها فجمعت هو تصحيح للكلام، وأنه جار على سنن العرب، فهل يمكن أن يقال إن الانتقال إلى المفرد فى جملة الذى لا يجيب إشارة إلى أنه لا ينبغى أن يتخلف عن إجابة داعى الله إلا شارد هُنَا أوْ هناك وأن الأصل أن تُقبل الجماعة على هذا الداعى الذى لم تعرف الأرض داعيا أصدق منه، ولا أبرَّ بالناس منه، ولا أدعى إلى خَيْر وبرٍّ ورَحْمة منه؟ هل يصح هذا؟ ثم إنك لو رجعت إلى تعادل الكلام ونظام نَسْقِه وجدت فعل الأمر فى الأول جملتين ﴿أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ﴾ وجواب الأمر جملتين ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ ووجدت فى المقابل فعل الشرط جملة واحدة ﴿وَمَن لاَّ يُجِبْ﴾ ووجدت جواب الشرط جملتين محذوفتين ودلت عليهما جملتان مذكورتان، وفى هذا أن جواب من أجاب واضح وظاهر وملفوظ به وهو البشارة بمغفرة الذنوب والفوز بجوار الله من العذاب الأليم، وذكر ذلك والتصريح به مطلوب ومبادرة بالبشرى، والحذف فى جملة الذى لا يجيب فيه إبهام وغموض تذهب فيه النفس كل مذهب وكل الذى قيل فيه أنه يصير فى قبضة من لا يعجزه شىء فى الأرض ولا فى السماء وأنه ليس من دون الله من ولىٍّ ولم يقابل مغفرة الذنب بالجزاء

والعذاب، وإنما أشار بهاتين الجملتين إلى ما وراءهما مما لا يحاط به ولا تبلغ العبارة كنهه، ومثل هذا الحذف هو الذى تذهب فيه النفس كل مذهب، وهو الذى يكون الكلام فيه أنطق ما يكون إذا لم ينطق، وأتم ما يكون بيانا إذا لم يبن، ورحم الله من فتحوا لنا أبواب العلم.

ولست متكلفًا حين أقول إن قولهم: ﴿سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ هو المعنى المقابل لما جاء فى أول السورة من قولهم ﴿هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ وأنه ﴿افْتَرَاهُ﴾ وأنه ﴿إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ وأن قولهم: ﴿سَمِعْنَا﴾ ممسك بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا﴾ وأن هذا الذى تلى على أصحاب اللسان فقالوا فيه سحر وإفك هو الذى سمعه الجن فأدركوا أنه من جنس الكتب المنزلة، وأن بُرْهان نزوله قائم فيه كبرهان نزول كتاب موسى، ثم إننى أيضًا لست متكلفًا حين أقول إن قوله تعالى: ﴿أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ﴾ إلى آخر الآية، هو من معدن ﴿وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾ وأن قوله سبحانه: ﴿وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ﴾ هو من معدن ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾ وقد ذكر فيه الجن وقدموا على الإنس إيذانًا بهذه الآية، وقد نبّهت إلى ذلك وإنما أردت أن أؤكد أن استقرار الآيات فى موقعها من السورة، باب عزيز، وأذكر ما أذكر وأدع غيره لمتابعتك ولا شك أنك ستقول إن قوله: ﴿وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ﴾ هم الذين كفروا وأعرضوا عما أنذروا الذى هو رأس السورة، وأن قوله: ﴿فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ﴾هو قوله: ﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً﴾، وهكذا نجد الآيات ليس بعضها ممسكا ببعض، مِمَّا جاورها، وإنما مكوّنات السورة كلها بعضها من بعض كما قال العجاج فى شعره، ولله المثل الأعلى - أنا أقول البيت وأخاه ورؤبة يعنى ولده يقول البيت وابن عمه.

قلت إن الكلام فى هذه القصة قائم على الإيجاز الشديد، وأنه انتقى أحداثا وحدّث عنها، وسكت عن أحداث وأومأ بما حدث عنه إلى ما لم يحدث عنه، كإيماء ﴿وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم﴾ إلى إيمانهم، وإيماء ﴿أَنصِتُوا﴾ إلى ما وجدوه فى نفوسهم من يقين بأن ما يسمعون هو من الناموس الذى أنزله الله على موسى، وهناك أحداث مسكوت عنها ولم يؤمئ إليها شيء من المذكور كمعرفة نتائج دعوة قومهم، ولا شك أن منهم من أجاب، ومنهم من لم يجب، والآية سكتت عن الفريقين، ومن لم يجب لماذا لم يجب؟ هل قالوا: ﴿سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ أو ﴿افْتَرَاهُ﴾ أو ﴿إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾؟ أم ماذا قالوا؟ وما هى ضلالات من ضلوا من الجن؟ هل هى كضلات الإنس؟ ثم إن هذا النفر الكريم ذكروا القرآن ولم يذكر الذى أنزل الله عليه القرآن وقالوا ﴿أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ﴾ ولم يقولوا إنه أنزل على رجل من قريش مثلا، ثم إنهم سكتوا عن العمل الصالح ولم يقولوا أجيبوا داعى الله وآمنوا به واعملوا صالحًا، ثم إنهم ذكروا أن من آمن يغفر الله له من ذنوبه ويجره من عذاب أليم؛ ولم يذكروا أن الله يدخله الجنة، وقد استشهد أبو حنيفة بالآية على مذهبه الذى قال فيه إن الجِنَّ لايدخلون الجنة وإنما يثابون بمغفرة الذنوب، وأن يجاروا من النّار، ثُم يقول الله لهم كونوا ترابا كالبهائم، وقد ذكر غيره أنهم كما يعاقبون على معاصيهم يثابون بإيمانهم، وكما يدخلون النار يدخلون الجنة، ولعل أبا العلاء المعرى لحظ هذا الخلاف ومال إلى أن الجن يدخلون الجنّة فذكر فى آخر الغفران جنة العفاريت وأنها شديدة التواضع وأنها بمعزل عن جنة الإنس، ثم هل هم مكلفون بفروع الشريعة؟ هل يتوضؤون ويصلون ويصومون ويزكون؟ والخلاصة أن هذه الآيات من أول قوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ﴾ إلى قوله جل شأنه ﴿أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ إذا راجعتها بدقة وجدتها بمثابة المرآة الصافية التى ترى فيها صورة كل الذى مضى من السورة، وأن هذا النفر الذين صرفهم الله إليه قاموا مقامه

صلى الله عليه وسلم فى دعوة الجن وأن قومه لما عاندوه وناصبوه وسفهوا بإيذاء أصحابه منَّ الله عليه وجعل نفرًا من الجن من نفره، وقد سخر الله الجن لسليمان عليه السلام يعملون بين يديه، ويعملون ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب؛ وصرفهم إلى المصطفى المختار ليحملوا رسالته إلى قومهم ويا بعد ما بينهما وكلمة ﴿صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ﴾ وإن أفادت معنى أن الله سبحانه جعل الجن من نفره عليه السلام ومن جنده الذين هم جند الله ومن حملة رسالته، فيها معنى آخر وهو أن من نابذك وناصبك وعاداك، لو شاء الله أن يكونوا من نفرك لكانوا، لأن نواصى القلوب بيده، ولو شاء الله لهداهم أجمعين وعلى أهل البلاغ من بعدك أن يبلغوا كما بلَّغ هذا النفر ثم يرفعوا أيديهم لأن ما وراء ذلك بيد الله وليس بيد غيره وهذا حسبى.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأحقاف: ٣٣].

ظاهر جداً أن هذه الآية بداية نهاية السورة، وهى راجعة إلى مطلعها رجوعًا ظاهرًا جداً، وخلق السموات والأرض بالحق الذى جاء فى أول السورة هو المذكور هنا، وهو هناك خبر من الله ﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، وذكر خلق السموات والأرض هنا لبيان الأصل الذى اعتمدت عليه الآية فى برهان البعث ودليله، وقد جاء هنا صلة الموصول ﴿أَنَّ اللَّهَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ والصلة لا بد أن تكون شيئًا معلومًا عند المخاطب، وهم مُقِرُّون بأن الله خلقهم، وخلق السموات والأرض، وسخر الشمس والقمر، وأنزل من السماء ماء إلى آخر إقراراتهم التى رصدها القرآن وسجَّلها وماداموا يقرون بذلك فلابد أن يقروا بما يترتب عليه وهو قدرته على أن يحيى الموتى ويكون بذلك إنكارهم للبعث عبثا لا يُقرُّه عقل، وكلمة ﴿بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ تعنى البعث والحساب والثواب والعقاب لأنه لا يتحقق

الحق فى خلق السموات والأرض إلا بإثابة الصالحين وعقاب الظالمين المفسدين، ولا يكون ذلك إلا بالبعث فالذى دلَّ المطلع عليه دلالة ضمنية دلَ المقطع عليه دلالة صريحة وجرّد الآية لدليله، وهذا جيد وظاهر.

ثم إن هذه الآية ترجع رجوعًا ظاهرًا أيضًا إلى قول الذى قال لوالديه: ﴿أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي﴾ وتنقض وَهْمَه نقضًا ظاهرًا مع أن هذا الوهم منقوض فى مطلع السورة فى آية ﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ﴾، وبذلك يكون نقض القول بإنكار البعث فى مطلع السورة وفى مقطعها، ولم يأت إنكار البعث صراحة فى السورة إلا فى قول الذى قال لوالديه ﴿أُفٍّ لَّكُمَا﴾، وهو متضمن فى إنكار الوحدانية وإنكار النبوة.

ومن دقيق بيان القرآن أن الآية أو الجملة تراها ترجع إلى ما هى أشْبَهُ بها وإن تجاوزت بذلك آيات كثيرة، وهى مع استقرارها فى موضعها وارتباطها بما قبلها وبما بعدها تَسْتَقِرُّ أيضًا هناك وتتم معنى قد بدأته أخرى، فالذى قال لوالديه ما قال لم تنقض الآيات بعد قوله دليله وهو أنه قد خلت القرون من قبلى وإنما توعدته بأنه من الذين حق عليهم القول إلى آخره، ثم جاءت هذه الآية لنقض دليله وإقامة البرهان الواضح على البعث، ومثل هذا آيات كثيرة تتجاوز ما قبلها لتستقر عند أختها وكأنها رأس باحثة عن أختها، أما علاقتها بالجملة قبلها فهى ظاهرة جداً وذلك لأن من لم يجب داعى الله جزاؤه العذاب المدلول عليه بقوله سبحانه: ﴿فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ﴾ ولا يجوز له أن ينكر أن الله قادر على أن يحيى الموتى وأن عقابه الذى يعجز الله فيه مترتب لا محالة على بعثه بعد موته، ويلاحظ أن النفر الكريم من الجن قال: ﴿وَمَن لاَّ يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ﴾ وهذه العبارة عامة وشاملة للثقلين، وإن كانت قيلت لقومهم ومثلها ﴿يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ﴾ لأن الكتاب الذى أنزل من بعد موسى سمعوا نظيره من المصطفى صلوات الله

وسلامه عليه وأنه عليه السلام يدعو به أمم الأرض، وأن صرف الله لهم إليه هو الذى أوقع فى نفوسهم أنهم مكلفون، ولم يكونوا مكلفين بالذى أنزل على موسى عليه السلام وإن آمنوا به. ومن أجل أن تتبيَّن قوة الصلة بين هذه الآية ودعوة الجن قومهم اقرأها وهى موصولة بما قبلها ﴿**فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى الأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُوْلَئِكَ فِى ضَلالٍ مُّبِينٍ (٣٢) أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ**﴾ ولو كانت من قولهم لكانت كالدليل على عقابهم وأنهم ليسوا بمعجزين لله وأن الله سيُحْيِيهم لأنه قادر على ذلك، ثم إنها وهى تهديد ظاهر لمن ينكر البعث من الإنس، لابد أن تكون تهديدًا ظاهرًا لمن ينكر البعث من الجن، أو قل هى تهديد ظاهر لمن لم يجب داعى الله من الإنس ومن الجن معًا، هذا هو تمكين الآية فى موقعها وهذا نصابها فى سياق السورة.

أما تركيبها وتحليلها فأوّل ما يلقانا منه الاستفهام الداخل على حرف العطف، والاستفهام استفهام إنكارى وفيه توبيخ وتعنيف والرؤية هنا رؤية علمية والإنكار منصب على إنكارهم البعث مع أن برهانه ظاهر للعقل ظهور الشىء تراه العين وهو أن الذى خلق السموات والأرض قادر على إحياء الموتى وهذا شىء لا يدفعه من عنده إدراك، ولا ينكره إلا من ينكر الشىء تراه العين، ولا شك أن خلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس، ولا شك أن إحياء الذى خلقه الله وأماته ليس بمُستَبعَد وكيف يستبعد البعث على من أحيى وأمات والبعث أهون عليه من خلقه أول مرة ﴿**وَهُوَ الَّذِى يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ**﴾ [الروم: ٢٧]، والواو التى دخلت عليها الهمزة تقتضى محذوفا تعطف عليه الجملة بعدها.

والهمزة داخلة على الجملة المحذوفة، والتقدير دائمًا يحتمل وجوهًا فقد ترى أن التقدير أضلّت عقولهم ضلالا بعيدًا ولم تر هذه الحقيقة الساطعة وهى أن الذى خلق السموات والأرض قادر على أن يحيى الموتى، أو تقول أبلغت بهم الغفلة

مبلغًا أذهلتهم عن هذه الحقيقة الظاهرة؟ أو أعموا ولم يروا؟ وكل هذا تعنيف وتوبيخ وتشهير بمن ينكر البعث، ثم إن بناء الجملة على القطع والاستئناف دَالٌّ دلالة ظاهرة على تميز معناها، وأنه فى سياق الكلام له شأن أى شأن، وخصوصًا أن هذا البرهان القاطع جاء بعد نقض أدِلّة الشرك، ونقض ما قالوه فى رفض النبوة، وضرب المثل بقوم هود الذين أنكروا كما أنكر هؤلاء، فأرسل الله عليهم ريحًا دَمَّرت كل شىء، كما أهلك القرى حولهم، ثم إكرام الله لنبيه لما صرف إليه نفرًا من الجن لم يترددَّوا فى أن الذى سمعوه كلام الله المنزل وانصرفوا إلى قومهم، وبعد هذا كله لم يبق سبب لإنكار البعث إلا محض السفه، والحماقة ولهذا جاءت الآية وهى مشوبة بغضب ميَّزها عن أخواتها فى الكتاب العزيز، كما سنبين، وقد جاءت هذه الصياغة فى مواقع كثيرة من الكتاب العزيز.

وكانت تكون فى افتتاح دليل لا يجهله جاهل، ولا ينكره منكر، كما فى قوله تعالى: ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ﴾ [الملك: ١٩] وكما فى قوله جل شأنه: ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الأَرْضِ الْجُرُزِ﴾ [السجدة: ٢٧]. وكما فى قوله سبحانه ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ [الشعراء: ٧] وجاء هذا التركيب بدون الواو كثيرا، كما في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ اللَّهُ﴾ [النحل: ٧٩] ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ﴾ [النمل: ٨٦] ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لا يُكَلِّمُهُمْ وَلا يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً﴾ [الأعراف: ٤٨] والفرق بين مجىء هذا بالواو ومجيئه بدون الواو فرق تمس الحاجة فى علم البلاغة إليه، ولا يكتبه إلا من يستطيعه وهو صعب جداً، وكل الذى عندى فيه تطبيق كلام العلماء وهو أن الواو تدل على معطوف عليه محذوف يُقَدَّر فى ضوء السياق، والجمل التى نُقَدِّرها فى كل حذف فى الكتاب العزيز جمل كتب عليها الضعف لأن الكلام الذى نقدرها فيه ليس من كلام البشر فى بلاغته وعراقته، وناهيك عن ضعف

كلمة المخلـوق حين تكون بإزاء وفى درج كلام الخـالق، ولا شك فى أننا فى حاجـة إلى أن نفهم لماذا جاءت الواو فى قـوله تعالى: ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْاْ إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ﴾ ولم تأت فى أختها ﴿أَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ﴾ والواجب أن يسكت من لا يعلم، ورحم الله الـذى قال: لو سكت من لا يعلم لاسنراح الناس. وأنا من هؤلاء الساكتين.

وجملة ﴿أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ﴾ خبر ﴿أَنَّ﴾ قوله ﴿بِقَادِرٍ﴾ والباء لاتدخل فى الخبر المثبت فليس من كلامهم زيد بقائم ولكن الجـملة لـمَّا دخلت فى حيز النفى ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْاْ﴾ جرى عليها ما يجرى على النفى مع أنها مُثْبَتةٌ، وهذا من خفايا اللسان لأن الجملة المثبتة يظل معناها مُثْبتًا ودخلت فى حيز النفى وهى مثبتة فلم يجر عليـها النفى فى المعنى، وإنما جـرى عليهـا فى الإعراب، وكـأن النفى ألقى عليـها ظاهر ردائه لما جـاورته ودخلت فى حـيزه وهذا يشـبه الإعـراب على الجوار، وقـد عقّب الثعـالبى على جر كلمـة «خربٍ» فى قولهم جـحر ضبٍّ خرب وهى وصف للجحر والجحر مرفوع ولكنها أخذت إعراب «ضب» وهو غير موصوف بها، وذكر الثـعالبى فى علة ذلك أن للجوار شأنا عند العرب، وهذا جيد وإن أنكره بعضـهم، قال الزمخشرى: ﴿بِقَادِرٍ﴾ محله الرفع لأنه خبر ﴿أَنَّ﴾ يدل عليه قراءة عبد الله «قـادر» وإنما دخلت الباء لاشتمال النفى فى أول الآية على ﴿أَنَّ﴾ وما فى حيزها، وقـال الزجاج: لو قلت ما ظننت أن زيد بقائم جاز، كأنه قـيل أليس الله بقادر، ألا ترى وقوع ﴿بَلَىٰ﴾ مقررة للقدرة على كل شىء من البعـث وغيره لا لرؤيتهم، انتهى كلام الزمـخشرى وأراد أن كلمـة ﴿بَلَىٰ﴾ لا تقع إلا فى جـواب النفى كـما فى قـوله تعـالى ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ [الأعـراف: ١٧٢] أى أنت ربنا ومـعناها هنا بلى بقادر ليس على أن يحيى الموتى فـقط وإنما هو على كل شىء قدير، وتلاحظ أن الجملة المحـذوفة والتى نقدِّرها على وجه من المقـاربة هى التى أفضت إلى

الجملة التى بعدها، يعنى أن غفلتهم أو ضلالهم أو عماهم هو الذى جعلهم لا يرون أن الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يحيى الموتى.

قوله سبحانه ﴿وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ﴾ جملة معطوفة على جملة ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ وداخلة فى حيز الصلة وكما يعلمون أنه سبحانه خلق السموات والأرض يعلمون أيضًا أنه لم يعيى بخلقهن، ويعيى مضارع عَيِىَ يعيا كرضى يرضى ومصدره العى بكسر العين قال الزمخشرى فى الأساس عىّ بالأمر وتعيًا به وتعاياه وأعياه الأمر إذا لم يضبطه، وقال الراغب: الإعياء عجز يلحق البدن من المشى، والعِيُّ يلحق من تولى الأمر أو الكلام قال: ﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الأَوَّلِ﴾ [ق: ١٥] - ﴿وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ﴾ ومنه عَيِىَّ فى منطقه عيّاً فهو عَيِىٌّ، انتهى كلام الراغب، ويقال عيى كرضى إذا عجز أو تحيَّر أو تاهت منه الحيلة، وذِكْرُ نفى العىّ بعد ذكر الخلق يفيد أنه لم يعجزه تدبيره، وأنه سبحانه لم يجد ما يجده المخلوق لا من العجز ولا من الحيرة، وأفهم من دخول هذه الجملة فى حيز الصلة أن القوم كما كانوا يعلمون أنه خلق السموات والأرض كانوا يعلمون أيضًا أنه جل وتقدس مخالف للحوادث ولم يجد ما يجده الخلق، وأنه ليس كمثله شىء، وليس هذا بعيدًا، لأن من يُقرُّ بأنه خالق للسموات والأرض ومسخر للشمس والقمر لابد أن يعتقد أن فاعل هذا وصانعه ليس كمثله شىء، وإذا كان هذا مما تقرر عندهم فقد أفاد أن عندهم من التوحيد أصولا جليلة لولا الآلهة القربان التى جعلوها واسطة بينهم وبين الله ولو أنهم عبدوا الله من غير هذه الوسائط ومن غير هذا القربان ومن غير هذه الشفاعات لكانوا من الموحدين وقد أنذرهم الله أعظم النذير وغضب عليهم ولعنهم وأعدّ لهم السعير لينبهنا إلى أن صفاء التوحيد شأو بعيد وليُحذِّرنا من الشرك الخفى وليحذرنا من الغفلة، وأن القَدَمَ قد تَنْحرفُ قليلا عن الصراط المستقيم وهذا الانحراف القليل يسقط فى وادى الجحيم ولهذا أيضًا كان من صالح الدعاء أن نقول اللهم ثبتنا على الحق وثبتنا

بالحق حتى نلقاك على التوحيد الخالص، ذكرت هذا فى دلالة هاتين الجملتين مع أن القوم أضافوا إلى ذلك إنكار النبوة، وإنكار البعث إلى آخره، وأردت أن أنبه إلى أن الانحراف عن التوحيد قيد نملة يدمر الإيمان بالله ولهذا كانت لا إله إلا الله كلمة التقوى وأفضل ما قاله المصطفى صلوات الله عليه والنبيون من قبله، هذا والله أعلم.

وأشبه الآيات بهذه الآية قوله تعالى فى سورة الإسراء ﴿**أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا**﴾ [الإسراء: ٩٩].

وأول ما يلاحظ هو حذف الباء الزائدة فى خبر أن والتى تفيد التوكيد، وخبر أن هذا هو حجر الأساس فى الآية لأن الإنكار واللوم والاستهجان راجع إلى أن القوم لم يروا تلك الحقيقة الساطعة وهى أن الذى خلق السموات والأرض قادر على أن يحيى الموتى، وهذا قياس قريب من كل من له إدراك، فقياس قدرته على إحياء الموتى على قدرته على خلق السموات والأرض ليس أمرًا غامضًا، ومن هنا كان دخول الباء الزائدة فى آية الأحقاف إشارة إلى أن القصد فيها إلى التوكيد قصد ظاهر، ثم إن جملة ﴿**وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ**﴾ لم تذكر فى آية الإسراء ولا فى القرآن كله إلا فى آية الأحقاف، وجاءت كلمة ﴿**أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ**﴾ فى سورة ق فى السياق نفسه والمعنى نفسه وهو الاستدلال على البعث ولم تذكر هذه الكلمة إلا فى سورة ق ثم إن جملة ﴿**وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ**﴾ جاءت فى الإسراء ولم تأت فى الأحقاف لأنها سبقت فى مطلع السورة ﴿ **مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى**﴾ ثم لم تذكر فى الإسراء من أول السورة فحسن ذكرها فى الآية ، ثم إن إحياء الموتى الذى هو نص فى البعث جاء مكانه فى الإسراء قوله تعالى: ﴿**قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ**﴾ وهو متضمن إحياء الموتى، وقد ذُكر البعث فى الآية قبلها فى قوله

تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ وكانت آية الإسراء نهاية الحديث فى الردّ على ضلالة المنكرين للنبوة، والذين قالوا ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا﴾ وقد سبقها ذكر العذاب فى بيان صورة من أشد صور العذاب وهى قوله تعالى ﴿نَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا﴾، راجع كلمة ﴿عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ ثم إنهم يحشرون هذا الحشر الذى هو من أشد النكال وهم عمى وبكم وصم، وتأمل صورة العذاب وكأنهم لما أبطلوا أدوات الإدراك التى هيأها الله لهم ونصب لهم الأدلة الهادية إليه كان جزاؤهم إبطال هذه الأدوات وهم يحشرون على وجوههم وكلما خبت النار زادهم الله سعيرا كل هذا سابق لآية الإسراء والذى بعدها انتقال الحديث لخزائن الله التى يغدق منها على من آمن ومن كفر، ولو تملكون مفاتيحها لأمسكتم خشية الإنفاق، وليس الأمر كذلك فى آية الأحقاف لأنها جاءت بعد دعوة صالح الجن قومهم إلى الله وجا بعدها ذكر العذاب الذى جاء قبل آية الإسراء.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [الأحقاف: ٣٤] هذه الآية خارجة من معنى الآية قبلها وكأنها صورة حية تعطى مثالا ظاهرًا لإحياء الموتى، والقدرة على كل شىء فعرض الذين كفروا على النار يعنى بعثهم وإحياءهم وأن الذى أحياهم هو الذى يحيى الموتى وهو الذى خلق السموات والأرض ولم يعيى بخلقهن، وأن الذين أنكروا إحياء الموتى هم الذين أحياهم القادر وهم الذين يعرضون على النار، ويخاطبون فى الآية ويسألون عن الذى أنكروه ويقال لهم ﴿أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ﴾ فيقولون بلى، ولاحظ أن الآية السابقة مَدَّتْ الكلام بفاصلة تتضمن المعنى السابق وتفتح الباب لهذا المعنى وأعنى قوله تعالى ﴿إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ

شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ فقد انتقلت من الإقرار بأنه قادر على أن يحيى الموتى والمدلول عليه بكلمة ﴿بَلَىٰ﴾ إلى تأكيد أنه لا حدود لقدرته لأنه على كل شىء قدير والجملة مستأنفة ومؤكدة بإن وفيها إيجاز عجيب لأن كلمة ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ﴾ لم تدع شيئًا إلا دخل فيها، فلا نهاية لمعناها، ثم إن الآية عَدلَت عن قادر الذى هو قادر على أن يحيى الموتى إلى قدير الذى هو صيغة مبالغة ليناسب كل شىء، ثم إن سعة المعنى الذى فى الجار والمجرور ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ﴾ دَعَتْ إلى تقديمه عن موضعه وأصله بعد الخبر ﴿قَدِيرٌ﴾ ولو نقلته إلى موضعه لكانت الآية كلامًا كغيره من الكلام ولذهب عنها الإعجاز وأنه كلام رب العالمين وهذا من العجيب جداً أنك لو رجعت باللفظ إلى موضعه تكون قد خلعت صفة الألوهية عن الكلام وصفة الألوهية هى الإعجاز، قلت إن هذه الجملة العظيمة خرج من لحمها ودمها ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ﴾ لأنها من ناحية مُلَخِّصة لمعنى جملة ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ وفاتحة الباب لجملة ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ والظرف الذى بدأت به الآية صالح لأن يكون معمول فعل محذوف تقديره اذكر يوم يعرض الذين كفروا على النار، وصالح لأن يكون الفعل المحذوف العامل فى الظرف فعل القول المقدر قبل قوله تعالى ﴿أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ﴾ والتقدير يقال لهم ويكون المعنى يقال لهم يوم يعرضون على النار أليس بالحق، وبين التقديرين فرق لأننا لو قلنا العامل اذكر المحذوف يكون الظرف الذى هو ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ﴾ هو رأس معنى الآية، ولوقلنا إن العامل هو القول المحذوف والتقدير يقال لهم يوم يعرضون على النار أليس هذا بالحق يكون القول هو رأس المعنى، والآية تحتمل والمعنيان قائمان وقالوا إنها معطوفة على جملة ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ التى هى دليل البعث والمعنى يبعثون ويعرضون على النار، ويكون فى الكلام طىّ للأحداث التى بين البعث والعرض على النار والتى ساقتها سورة الزمر مفصلة ابتداء من

النفخة الثانية وإشراق الأرض بنور ربها ووضع الكتاب والمجىء بالنبيين إلى آخره، وفى هذا الطىّ مبادرة بذكر العذاب الذى يراد به الرَّدْع وهم فى فسحة يستطيعون الرجوع.

وهذه الآية أخت الآية السابقة ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا﴾ وهى راجعة إليها فى المعنى ولك أن تعتبرها معطوفة عليها ورأس الآيتين رأس واحدة، ووجه البناء واحد، لأن كل واحدة فيها قول مقدر، وما يقال فى إعراب واحدة يقال فى إعراب الأخرى ويبقى الفرق الكبير بين الآيتين ممثلا فى أن السابقة قيل فيها ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا﴾ وهنا قيل ﴿أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ﴾ ثم قيل هناك ﴿فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ وقيل هنا ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ وسوف نحاول بيان أسرار هذه الفروق إن شاء الله، ويلاحظ أيضًا أن هناك تشابها بين هذه الآية وأختها السابقة، وآية ﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ﴾ من جهة ذكر لفظ ﴿وَاذْكُرْ﴾ فى قصة عاد وتقديره فى الآيتين، ومن جهة بناء كل على الزمن المذكور فى قصة عاد وفى قوله تعالى ﴿إِذْ أَنذَرَ﴾ وأيضًا تجد تشابها ظاهرًا بين هذه الآيات الثلاث وآية ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ﴾ من حيث البداية بالزمن، الذى كان وعاء لحدث الآية كما فى آيتى العرض على النار، أو كان وعاء لأحداث جملة آيات كما فى قصة عاد والجن وقد لاحظت أن آيتين سابقتين ابتدأتا بذكر الزمن، وجاءتا متتابعتين وهما قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً﴾ وقوله جل شأنه: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا﴾ ولا شك فى أن تتابع الآيات على نسق واحد أو قريب مما يساعد على بيان سَمْت السورة، وتحديد ملامحها الأسلوبية أو اللغوية وهو كثير جداً فى الكتاب، وتحديد سمت السورة وسَمْت بنائها اللغوى باب جليل ودقيق ولابد أن يكون وراء هذا السَّمت أسرار وأسرار ونقول ما يبدو لنا وندع ما وراء ما نقول لغيرنا، وما دمنا أشرنا

إلى سَمْتِ بنـاء السورة فإن منه وهو ظاهر جـداً أن كل آية فى سورة الأحـقاف مكونة من جملة واحدة، وراجـع السورة من أولها إلى آخرها ولن تجد فـيها آية يحسن السكوت فـيها إلا على الـكلمة الأخيـرة من الآيـة. اقـرأ قـوله تعـالى ﴿ما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى والذين كفروا عما أنذروا معرضون﴾ الجملة لا تنتهى والمعنـى لا ينتهى إلا عند كلمة ﴿معرضون﴾ واقرأ التى بعدها ﴿قل أرأيتم ما تدعون من دون الله أرونى ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك فى السموات ائتونى بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم إن كنتم صادقين﴾ وهكذا إلى آخر السورة ، نجـد كل آية قامت على معنى واحد، لا نجد فـيها آية واحدة مكونة من عدة جمل مستقلة تؤدى معنى مسـتقلا، ثم يجمعها جامع كما ترى فى مثل قوله تعالى فى سورة لقمان ﴿خلق السموات بغير عمد ترونها وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم وبث فيها من كل دابة وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا فيها من كل زوج كريم﴾ جملة ﴿خلق السموات بغير عمد ترونها﴾ جملة تامـة تفيد معنى يحـسن السكوت عليه ثم تـأتى جملة ﴿وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم﴾ جملة مستـقلة كذلك، ومثلها ﴿وبث فيها من كل دابة﴾، والرابط لهذه الجمل والممسك بأولها وآخـرها الغرض الذى سـيقت له، وهو تجليـات القدرة الباهرة وتجلـيات النعم الظاهرة واستـقلال كل آية بجـملة واحدة شـائع جداً فى الكتـاب العزيز، وإنما نبـهت إلى الأحقـاف لأن هذا أظهر فـيها وأشـيع. ومن مقاصدى أن أتلمس فى السورة ما يمكن أن يُعين على بيان سَمْتها، وهيأتها التى تختلف بها عن غيـرها وتتميز كما يتمز رجل عن رجل، وفـرس عن فرس كما كان يقول أفاضلنا رحمهم الله وألحقنا بهم كرامة نفس وقرة عين.

ودراسة أحـوال بناء الجملة فى الكتاب العـزيز باب متسع جـداً، لأن أحوال البناء تتفق وتخـتلف، وتتقارب وتتباعـد، والحذو قد يتّحـد وقد يختلف مع القرب، أو يـختلف مع البـعد، والتصـاقب فى بناء الجـمل كالتصـاقب فى

المفـردات وراءه ما وراءه، ورحم اللـه أبا الفتح فـقـد نبّه وغـفلنا، خـذ آية الأحزاب ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣٥] أولا كل هذه الآية جملة واحـدة، وراجع طريقة تكوين اسم إن وكيف كان عطف بعض الكلمات على بعض؟ الواو الداخلة على المؤمنات عطفت المؤمـنات على المؤمنين والواو الداخـلة على المؤمنين عطفـت المؤمنين والمؤمنات مـعًـا على المسلميـن والمسلمات، وهذه الـواو الداخلة على المؤنث عطفت المؤنث على المذكر والواو الداخلة على المذكر عطفت الاثنين معًا على ما قبلهـا، وهكذا، وهذا نمط مخالف لنمط آيات الأحـقاف، وإن كانت الآية جملة واحدة، ومخالف أيضًا لآية لقـمان، وخذ آية الحجاب فى سورة النور ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ﴾ هذه جملة ﴿وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ وهذه جملـة ثانية ﴿وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ وهذه جملـة ثالثة ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ وهـذه رابـعـة ﴿وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ لِبُعُولَتِهِنَّ..﴾ ويدخل فى بناء هذه الجملة الخـامسة جملة من المعـانى لتحرير وتحديد ما يجوز للمرأة إبداء زينتها فى حضرتهم من المحارم إلى آخره، وهذا البناء قريب من بنـاء آية لقمان وراجع آية الدين تجـد بناء مختلفـاً جداً، ومن حق القـرآن علينا أن ندرس هذا البـاب المتنوع وأن نتـبين أسـرار الاختـلاف والاتفاق والقرب والبعد، بـل إن من حق بيان العربية علينا أن ندرس هذا فى الشعر وخصوصًا الشـعر الجاهلى الذى هو اللسان الذى نزل به القرآن، وقبل هذا فى كلام المختار صلوات الله وسلامه عليه، وكلام الذين معه رضوان الله عليـهم، وكل هذا داخل فى البحث عن سـمت الكلام وكل هذا لو درس من

الناحية اللغوية وحدها يكون درسه قليل الفائدة والأصل أن يربط بالمعانى التى اقتضت الطول هنا والقصر هناك إلى آخره، وكنت نبهت إلى شىء من ذلك فى بعض ما كتبت وقلت يجب أن ندرس بناء جملة الجاحظ وكيف تنوعت وتقاربت وتباعدت وقل مثل ذلك فى كل كاتب له بيان يَتميَّز لأنه وضع فيه سَمْته وألقى عليه رداءه، وصار كلامه لا ينحل كما قال الفرزدق فى شعره.

والقول فى عرضهم على النار هنا هو ما قلناه فى الآية التى سبقت إما أن يكون المراد تعذيبهم بالنار كما يقال عرض فلان على السيف بمعنى قُتِل. أو أن يكون من باب القلب كقولهم عَرَضْت الناقة على الحوض لأن المعروض عليه يجب أن يكون عاقلا مختارًا، والنار ليست كذلك وإنما المراد عُرضت عليهم النار، أو أن يكون المراد الظاهر هو أنهم يعرضون على النار وأن النار صالحة لأن يعرض عليها لأن نار الآخرة ليس لها من نار الدنيا إلا الاسم كما قال ابن عباس إن ما فى الجنة ليس له مما فى الدنيا إلا الأسماء، ونار الآخرة يقال لها هل امتلأت وتقول هل من مزيد، وتتميز من الغيظ ولها شهيق وزفير وخطاب الخالق للذى خلقه غير خطابنا لما خلق سبحانه.

قلت إن السؤال المطروح عليهم فى الآيتين مختلف. هناك ﴿**أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا**﴾ وهنا ﴿**أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ**﴾ وبيان مناسبة كل لمقامه مما أجتهد فيه، وقبل الحديث أنبه إلى أن حذف القول فى الآيتين والاكتفاء بالمقول بَعَث فى الآيتين صورةً حيَّةً لأننا ونحن نتابع تلك الصورة المليئة بالرعب والفزع وهى عرضهم على النار نفاجأ بصوت لا نعرف مصدره يقول أليس هذا بالحق، ومن شأن هذا الصوت الذى يخترق فى هذا المشهد أن يساعد على حضور بقية المشهد، ونصبح وكأننا لا نقرأ خبر عرضهم على النار، وإنما نرى ونسمع وهذا من البلاغة العالية.

وقوله سبحانه فى الأولى ﴿**أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ**﴾ فيه إشارة إلى أن الذى

صرفكم إلى ما أنتم فيه وساقكم إليه هـو الترف والنعمة والولع بالحياة الدنيا، وآيات كثيرة فى الكتاب دلّت على أن الثـروة والنعمة والترف كان من أهم من صرف أصحابه عن اتباع الحق من ذلك قوله تعالى فى سورة «المؤمنون» ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ (٦٤) لا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لا تُنصَرُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٤، ٦٥] راجع كلمـة ﴿أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم﴾ وراجع ﴿يَجْأَرُونَ﴾ وكيف تكرر واستـحضر الصوت لتسمـعه أذنك ولتراه لأن الأذن ترى كالعين ومنه قوله تعالى فى سورة الواقعة ﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ (٤١) فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ (٤٢) وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ (٤٣) لا بَارِدٍ وَلا كَرِيمٍ (٤٤) إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ﴾ [الواقعة: ٤١-٤٥] وقـد أومأت الآية إلى هذا المقام الذى اسـتدعى ﴿اذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ﴾ وذلك بقولـه تعالى ﴿بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ والاستكبـار فى الأرض والطغيان فيـها من نتاج الترف والاستغناء ﴿إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ (٦) أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ﴾ [العلق: ٦، ٧] وكانت الآية بذلك مَـدْخلاً متلائمًـا جداً لذكر عاد، الذين أمـدهم الله بأنعام وبنين وجنات وعيون وهذا فيـما أراه سر مجىء ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾ فى الآية الأولى، أما الآية الثانية والتى فيها ﴿أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ﴾ فقد جاءت بعد دليل البعث فى آية ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ وهو دليل لا يجهله جاهـل ولا ينـكره منـكر، وأن الـذى قـادهـم إلى النـار هو إنـكار الحق بعد ما تبين، لأن الدليل كما قلت يراه كل من يرى، ولا ينكره إلا من يجحد الحق بعد مـا تبين، ولذلك جاء بعد هذا قـوله تعالى: ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ والكفر ستر الحق، والسؤال: ﴿أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ﴾ يعنى أليس هذا بالحق الذى سترتموه بالكفر، وظاهر أن عـجز الآيتين ومـوقعـهما فى سـياق السورة هو الذى أعان على بيان سر اختلاف القول فيهما. هذا والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ﴾ الهمزة يمكن أن تكون للإنكار، والأنكار معناه النفى وقد دخل على النفى فأفاد الإثبات، يعنى هذا حق وإنما جاء على صورة السؤال ليعودوا هُمْ إلى أنفسهم وليقولوا هذا حق، ويمكن أن تكون الهمزة للإقرار أى حمل المخاطب على الإقرار بما يعلمه من مضمون الكلام السابق، وأنه حق، وهى صالحة للاثنين معًا ثم إنها تفيد مع ذلك التوبيخ والتعنيف واللوم والتنديم، لأن الآيات السابقة بيَّنت الحق بيانا ساطعا، وهم الآن يعرضون على النار وقد انتهى زمن الإنكار وزمن اللجاجة والمكابرة، وأصبحوا يواجهون الحق مواجهة لا سبيل لهم إلى إنكاره، وكلمة ﴿هَذَا﴾ تعنى العرض على النار سواء بالعذاب بها أو برؤيتها، والباء الداخلة على الخبر ﴿بِالْحَقِّ﴾ تفيد التوكيد ليقرُّوا به حقاً مؤكدًا لا ريب فيه، وفى الكلام معان لا تنالها الأقلام، وإنما يُدْركها الحِسُّ وعليك أنت أن تستحضر المشهد والمعاندون والملحون فى العنَاد يعرضون على النار، ويقال لهم أليس هذا بالحق فلا يجدون جوابا إلا قولهم: ﴿بَلَىٰ وَرَبِّنَا﴾ ورؤية هذا المشهد وسماع الحوار والإقرار؛ له من قوة النفاذ ما ليس لقولنا إن الهمزة للإنكار والباء للتوكيد وقولنا هذا يفتح لك باب الوعى بالجملة ولا يضع دلالتها بين يديك ثم عليك أيضا أن تستحضر أن هؤلاء طالما قالوا: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٨] وقد تكرر هذا على ألسنتهم من الزمن البعيد قالوا إن هذا إلا خلق الأولين، وما نحنِ بمعذبين، وما أرسل الله فى قرية من رسول إلا قال مترفوها نحن أكثر أموالاً وأولادًا وما نحن بمعذبين، وهؤلاء الذين يعرضون على النار ويقال لهم هذا ليسوا هم الذين كذبوا نبوة محمد ﷺ وإنما هُمْ الذين كذبوا الأنبياء جميعًا، ولغتهم واحدة، وصوارفهم واحدة، ولاتزال هذه اللغة، وهذه الصوارف وستبقى فى أحفادهم على هذه الأرض إلى أن ينفخ فى الصور.

وقولهم: ﴿بَلَىٰ وَرَبِّنَا﴾ جواب فيه حسرة لا حدود لها، وكلمة ﴿بَلَىٰ﴾ حرف جواب يقع بعد النفى فيفيد الإثبات وبعده جملة محذوفة هى التى يراد الإقرار بها أى بلى وربنا هذا حق.

وكلمة ﴿وَرَبِّنَا﴾ قسم أريد به التأكيد وهو مقابل للباء الداخلة على الخبر فى جملة السؤال. وقد ذكر علماؤنا أنهم اختاروا القسم بلفظ ﴿وَرَبِّنَا﴾ لأن لفظ الرب يشير إلى النعم وكأنهم قصدوا به التّحَنن والتقرب والتشوُّف إلى التخفيف واللطف، وهذا جيد، ولو قلت إن القسم فيه معنى أنهم فوجئوا بما كان الظن على خلافه وأنهم كانوا يتوهمون أنهم لن يعذبوا وأنهم إن رجعوا إلى ربهم فسيكون لهم عنده الحسنى كما قالوا لأنبيائهم لو قلت هذا لكان قريبا وإنما اختاروا لفظ الرب ليرجعوا إلى أنفسهم باللوم والندم لأنهم تمتعوا بنعمه وكفروا به.

والفاء التى فى قوله تعالى: ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ رتبت ما بعدها وهو الأمر بذوق العذاب على ما قبلها من رؤية النار والعرض عليها والإقرار بأنها الحق. ولم تسمع آذان الأشرار أهْولَ ولا أشقَّ من أمْرِ ربِّها لها بأن تذوق العذاب، وراجع الترتيب العجيب عرض على النار ثم يقال لهم ﴿أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ﴾، ثم يجيبون بأنه الحق، وبعد هذا يأتى الأمر المزلزل ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ وضع هذا الذى جاءت عليه الآية بجانب قولنا ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ﴾ يقال لهم ذوقوا العذاب وتبين البعد بين الكلامين وكيف كان السؤال والجواب آية بلاغة هذه الآية وهذا ما يصعب على الأقلام بيانه وربما سهل على بعض البصائر إدراكه.

وكلمة ذاق تعنى بلوغ الغاية فى الشىء المذوق ساراً كان أو ضارا، وأسمى ما يذاق وأعلاه هو حلاوة الإيمان كما جاء فى الخبر، وأسوأ ما يذاق وأشْنَعه وأبْشَعُه هو ذوق العذاب وهذه الجملة ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾

تكررت بتمامها فى الكتاب العـزيز فى أربعة مواضع هذا موضع منها وموضع آخر فى آل عمران: ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٦] وفى الأنعام آية (٣٠) وفى الأنفال آية (٣٥).

وقد جاءت مسبوقة بسؤال في آل عمران: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾[آل عمران: ١٠٦].

وجاءت فى الأنعام مسبوقة بسؤال وهى قريبة جداً من الأحقاف ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [الأنعام: ٣٠].

وآية الأحقاف جاءت بعد دليل البعث وآية الأنعام جاءت بعد إنكار البعث، والتى قبلها قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [الأنعام: ٢٩] وآية الأنعام ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾، وقبلها بآيتين ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ﴾ [الأنعام: ٢٧]، وكل هذا مما يجب أن يدرس فى ضوء مقامات ما تكرر وما تقارب.

وآية الأنفال مختلفة لأنها جاءت بعد تصوير سخافة عقولهم لأنهم قالوا: ﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢] ولم يقولوا كما يقول العقلاء إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا إليه، ثم جاءت الآية التى معنا بعد ذلك بآيتين: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٥] والمكاء والتصدية: الصفير والتصفيق.

وصيغة الأمر من الفعل ذاق لم تأت فى القرآن إلا فى ذوق العذاب وكثرت الإذاقة فى الكتاب العزيز فى إصابة الضر، وجاءت فى سياق

الرحمة، ويلاحظ أن الرحمة التى جاءت معها الإذاقة غالبا ما تُفضى إلى العذاب كما فى قوله تعالى: ﴿ولَئِنْ أَذَقْنَا الإنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ﴾ [هود: ٩]، ﴿ولَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ [هود: ١٠]، وقد تدخل على الرحمة التى لا تُفْضى إلى عذاب، وهذا قليل جداً كما فى قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِ﴾ [الروم: ٤٦].

وبقى شىء لابد من الإشارة إليه وهو أن هذه الآية وصف للعذاب وقد جاءت بعد دليل البعث وقد طوى كل ما بين البعث والعرض على النار من الحساب وما قبل الحساب مما وَصَفَتْهُ سورة الجاثية وغيرها كما فى قوله تعالى: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا﴾ ثم الحساب الذى وصَفَتْه سورة الزُّمر وصفا واضحا فى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ (٦٨) وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (٦٩) وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾ [الزمر: ٦٨-٧٠]، إلى أن ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾ [الزمر: ٧٠] ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا﴾ [الزمر: ٧٣] وهذا من أوفى ما جاء فى بيان هذا اليوم، وقال الزمخشرى فى معنى ﴿وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ (بما يقيمه فيها من الحق والعدل، ويَبْسُطه من القسْط فى الحساب، ووزن السيئات والحسنات، ثم قال رحمه الله، ولا ترى أزيَنَ للبقاع من العَدْل ولا أعْمَر لها منه) انتهى كلامه رحمه الله وقد أصاب فقد قَبَّحَ الظلم البلادَ والعبَادَ وقام البغى والقمع والبطش والسلب والنهب مقام العدل فى ربوع الكنانة فى الزمن الردىء الذى أكتب فيه هذا الكتاب.

ولا أملك وأنا فى جوف الليل إلا أن أسأل الله أن يقطع دابرهم وأن يُحصِيهَم عددًا وأن يُفَرِّقهم بددًا وألا يبارك لهم فى مال ولا ولد وليعذرنى

ربى لأنى لا أجد فى نفسى ما يعـينني على أن أدعو لهم بالهدى لأنهم ضلوا ضلالا بعيدا وأفرطوا فى الكذب والتدليس ودمَّـروا شعبا كان بالأمس القريب من خيـر شعوب الأرض وكان كنانة الله يعنى عَـيْبَةَ سهـامه سبحـانه، ولهذا سميت مصر الكنانة؛ وقد لاحظت أن الكلام فى آيات الكتاب يَنْتَقِل من ذكر البعث أحيانا إلـى صورة الحساب كما فى آيات الزمر، وقـد ينتقل من البعث إلى تفريق الناس فريق فى الجنة، وفريقٌ فى السعيـر من غير أن يذكر الحساب كما فى قـوله تعالى فى سورة الروم: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ (١٤) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ (١٥) وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ [الروم: ١٤- ١٦]، وقد ينتقل من البعث إلى ذكر أصحـاب النار وحدهم كما فى سورة الأحقاف ووراء كل ذلك مقامات تستدعيه وتطوى وراءها أسراره.

ولا أستطيع أن أتكلم إلا فى السورة التى بين يدى لأن بيان المقام والسياق يوجب دراسة كل كلمة فى السـورة، وقد اجترأ عليه كـثير من الناس والله يغفـر لنا ولهم، والذى فى الأحـقاف هو أن السـورة كما قلـت مرارًا تدور حول جملة ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ﴾ والكلام فى السورة كلها ناظر إلى هذا الأصل، وكلمـا جاء مـوقف طوت الآيات ما لا يُمـاس هذا الأصل، ألا ترى أنها لما ذكرت أخا عاد صلوات الـله وسلامه عليه لم تذكر الذين آمنوا معه، ولما ذكـرت ما حولهم من القرى وهم قـوم صالح، وقوم لوط، وأصحاب الأيكة، وقوم تبع إلى آخره لم تذكر إلا من هلك، مع أن كل قرية كـان فيهـا من آمن ونجا ونجى الله صـالحا ومن معـه ونجى لـوطا ومـن مـعـه وما أرسل سـبحانه من رسـول إلا ليطاع بإذنه جل وعلا، وإنما ذكر المحسنين وأنهم أصحاب الجنة والذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا والذين تقبّل الله عنهـم أحسن ما عمـلوا بمناسبة ذكـر الكتاب، وأنه سَيَـشُقُّ طريقا للخير فى وسط هذه الظلمات.

وكانت الآية الخاتمة للسورة من معدن ما قامت عليه السورة لأنها أمرته عليه السلام بالصبر كما صبر أولو العزم وهذا يعنى الشدة التى يواجهها من ضلالات قومه، هذا والله أعلم.•

قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

هذه الفاء ترتب الأمر بالصبر على كل ما قبلها مما كان يجد رسول الله ﷺ فيه حرجًا وشدةً كإنكارهم الوحدانية مع قوة دليلها، وإنكارهم النبوة وقولهم ساحر وقولهم افتراه، وقولهم إفك قديم، مع أن الأمر الإلهى ظاهر فى ذلك كله ظهورًا أدركه الجنُّ وليسوا أهل لسان، وما إن سمعوه حتى صاروا كالأنبياء يدعون أقوامهم بدعوته ﷺ، وكان عناد القوم، وفجور ضلالهم مع شدَّة ظهور الآيات كل ذلك كان يَشْتَد عليه صلوات الله وسلامه عليه وقد أمره الله بالصبر كثيرًا فى الكتاب العزيز، وقد أمر بالصبر فى آل حم مرتين فى غافر وهذه الثالثة، ولم يؤمر عليه السلام بالصبر مرتين فى سورة إلا فى آل حم وهود التى شيَّبَتْه صلوات الله وسلامه عليه، ولم يؤمر بصبر أولى العزم إلا فى هذه الآية، وكان يقال له عليه السلام: ﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلاً﴾ [المزمل: ١٠] أو يقال له: ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ﴾ [يونس: ١٠٩] أو يقال له: ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ [طه: ١٣].

أما تثنية الأمر بالصبر فى غافر فقد جاء الأمر الأول بعد ذكر قصة موسى عليه السلام مع فرعون، وفيها من عنت فرعون وطغيانه واستكباره ما فيها، وما قاله مؤمن آل فرعون ردًا على هذا الطغيان وهذا العَنَتْ وهذه الغطرسة - وكان فى أرض الكنانة ولا يزال رجال يواجهون باطل الفراعنة - وقد ووجه

موسى عليه السلام بالتهديد وبالتصفية الجسدية، من فرعون ولكن فرعون كان يَرَى أنه من الحكمة ألا يستقل بقرار قتل رجل فى مقام موسى عليه السلام فقال لقومه ﴿ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾ [غافر: ٢٦] - وكأنه يريد رأى الجماعة - ثم ذكرت الآيات الانفراجة الرائعة التى كانت بهلاك الطاغية وذئابه الذين كان يسميهم «الملأ» والذين لا تزال أنيابهم الشرسة ناشبة فى جسد الكنانة، ثم أومأت الآيات إلى أن الله سبحانه منَّ على بنى إسرائيل وأوْرثَهم الكتاب وأومأت أيضًا إلى أن فى طى هذا بشرى لرسول الله ﷺ يدركها أولو الألباب ثم قال سبحانه ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ [غافر: ٥٥]، وهذا موضع ظاهر وتمكن الأمر بالصبر فيه ظاهر، ويحسن أن أشير هنا إلى شيء هو أن ذكر عنت وطغيان وجهالة وضلالة فرعون يكون غالبًا فى سياق بلغ فيه عُتوّ قريش ذروته؛ لأن فرعون لم يكن ذكره كذكر عاد، وثمود، وأصحاب الأيكة، وقوم تُبع، لأن هؤلاء أقوام ضلّت وإنما كان هو والملأ من حوله بمثابة أُمّة كاملة فى الضلال والباطل، وكان الملأ من حوله مجموعة مُنْتَفعين وخَدَم ولا يزالون، وكان كل العتو وكل الفجور وكل الطغيان وكل التسلط كل ذلك كان مجموعًا فى شخص واحد هو فرعون، وكل الكلاب فى جوف الفرا، وليس كل الصيد ولذلك جسّدت العربية كل معانى السوء وكل الرذائل فى كلمة فرعون وجعلتها أصلا واشتق منها، يُقال تَفَرْعَنَ أى دخل فى مستنقع رذائل فرعون، وبمقدار امتداد طغيان الحاكم يكون انحسار وانكماش وغياب الشعب، وهود عليه السلام واجه شعبا هم عاد، وصالح عليه السلام واجه شعبا هم ثمود، وشعيب عليه السلام واجه شعبا هم أصحاب مدين، وهكذا وموسى عليه السلام واجه رجلا هو فرعون، لأن قامة طغيانه بَلَغَتْ ذروتها وقابلها بلوغ الشعب ذروة الغياب وهذا هو معنى أن الطغيان قتل للشعوب وأن الاستبداد قتل للشعوب، وأن الشعوب يجب أن تواجه الطغيان والاستبداد لأن مواجهة ذلك هو الدفاع عن حياتها، هذا والله أعلم.

والموضع الثانى فى غافر جاء بعد وصف العذاب الشديد لهؤلاء الطغاة البغاة المجادلين فى آيات الله وأنهم الأغلال فى أعناقهم والسلاسل يسحبون فى الحميم ثم فى النار يسجرون إلى أن يقول سبحانه: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ [غافر: ٧٧] وقد أتبع الصبر فى الموضعين فى غافر بجملة ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ وهذا يعنى أن صبرك صبر من ينتظر الوعد الحق الذى هو النصر، ولم تأت جملة ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾، بعد الأمر بالصبر فى الكتاب العزيز إلا فى هذين الموضعين وفى موضع ثالث فى آخر آية الروم: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ﴾ [الروم: ٦٠] وقد جاء الأمر بالصبر فى هذه الآية الخاتمة للأحقاف لأن كل ما فى السورة كما قلت عنادٌ وشِرْكٌ وإنكار للنبوة، وإنكار للبعث وهذه هى الأصول الثلاثة التى جاء النبيون عليهم السلام لنقضها وإثبات أضدادها وهى التوحيد، والنبوات، والبعث، وقلت إن الأحقاف ذكرت الذين آمنوا وعملوا الصالحات فى أربع آيات من خمس وثلاثين آية كلها فى ذكر المعاندين إذا أخرجنا منها أربع آيات فى خبر الجن وإن كانت الآية الرابعة فى خبر الذين لم يجيبوا داعى الله وأنهم ليسوا بمعجزين فى الأرض وتدخل هذه الآية فى ذكر المعاندين وهذا يؤكد أن السورة تدور حول الذين عما أنذروا معرضون وهذا سر موقع الأمر بالصبر فى آخر السورة.

والآيات الأربع التى ذكرت الذين أجابوا داعى الله وهم المحسنون الذين لهم البشرى عرضت صورة مضيئة لمن سلك أدبُ الكتاب طريقَه إلى نفوسهم وغَيَّرها وأقامها على الفطرة وهذا فى مقابل الصورة المظلمة أو الظلامية للذين يحادُّون أمر الله، وأهم ما أبرزته صورة المحسنين الذين استجابوا لله: الاستقامة، والبر، وعمل الصالحات، والكلمة الجامعة هى الاستقامة ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ وهذا هو جوهر الدين والاستقامة تعنى طهارة

النفـوس من السـخائم والرذائل والأنـانية والظلم والـسلب والنهب والخطف والقمع، يعنى ترفض أخـلاق الذئاب وتغرس أخلاق الإنسانيـة ولذلك قالوا حيثما كان العدل كـان الحكم بما أنزل الله؛ لأن العدل هو رأس الاستقامة ثم البر الذى به يتراحم الناس ويكون اجتمـاع الناس ليس اجتماع ذئاب ووحوش يأكل بعضهم بعضًا وإنما هو اجتماع مودة ومرحمة وبر وتعاون وترابط وتحاب هؤلاء الذين يغرسون أنيـاب الذئاب فى جسد الناس ليسوا بشرًا ويوم يـفتقد الإنسان القـدرة على أخذ حقـه من الظالم لا يكون فى مجتـمع إنسانى ويوم تحمى قوة الحاكم البطش والقمع والتعذيب والتنكيل والسلب والنهب لا يكون حاكمًا صالحا ويوم يسكت الشعب عن الظلم والسلب والتعذيب والقمع والتنكيل يكون قـد حكم على نفسـه بالموت، والشـعوب الحـرة لا تموت وإنما الطاغى والباغى والظالم هو الذى يموت.

لو ذهبت تحلل هذه الأصـول التى جمـعتـها سـورة الأحقـاف فى وصف المحسنين لرأيتهـا تضع لك صورة مجتمع كريم يطمح كل حىٍّ أن يـعيش فيه ولهذا جاهدت الـشعوب وقاومت حتى تعـيش آمنة فى ظل الاستقـامة والبر والعدل والانصراف بكل طاقاتهـا للعمل الصالح، والآيات التى تحدِّدُ السلوك الذى يَرْضـاه ربُّنا مـنا آيات تدعـونا إلى أن نسـتـشـرف لبـثِّهـا ونشـرها فى مجـتمعاتنا حـتى نَقُوم عليها وهـذه هى سعادة الدنيا لأهل الإيمـان، وتبقى سعادة الآخرة ﴿ **أُوْلَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ** ﴾.

هذا ذكر وجه أمره ﷺ بالصبر فى آخر آية من السورة، أما لماذا قيد الصبر هنا بصبـر أولى العزم من الرسل، ولم يقيـد بهذا القيـد فى الكتاب إلا هنا، فلم أقرأ فى الكتب التى بيـن يدى وجه ذلك وأقول إنه عليهُ السـلام لم يؤمر بالصبر فى مـثل قوله تعالى: ﴿ **فَاصْبِرْ** ﴾ إلا فى السور المكية، وأمرت الأمة

بالصبر فى القتال فى السور المدنية كما فى آخر آل عمران: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠] ولاحظ اصبروا وصابروا ثم ورابطوا ثم واتقوا الله، ثم لعلكم تفلحون والفلاح معقود على الصبر فى مقاومة العدو وأن الجهاد معقود عليه فلاح الأمة وبقاؤها، اقرأ الآية بإمعان شديد ولم تجتمع هذه الثلاثة ﴿اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا﴾ إلا هنا، واقرأ قبلها ﴿فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا﴾ [آل عمران: ١٩٥] اقرأ هذه الآية مرة ومرة ثم اقرأ ما حولك وكيف صِرْنا نَخْذل إخواننا المجاهدين الذين أُخرجوا من ديارهم، وأوذوا فى سبيل الله وقاتلوا وقتلوا.

وكما جاء فى سورة الأنفال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٥، ٤٦] وهذا خطاب لنا ونحن فى الميدان ومطالبون بأن نثبت ونذكر الله ثم لاحظ فاصلة ﴿لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ التى تكررت فى المقام نفسه فى آل عمران والأنفال ولاحظ الدعوات للاسترخاء والاستسلام الذى يتبناها من يتبناها من نُسَوِّدُهُم وهم أصدقاء العدو المبين وكأنهم فينا لسان عدونا، والمهم الذى أنا فيه هو أن رسول الله ﷺ لم يؤمر وحده بالصبر فى الكتاب العزيز إلا فى السور المكية وقد جاء ذلك كثيراً فيها وهذا يعنى أنه ليس صبرا فى حرب وإنما هو صبر على إيذاء قومه، ولم يكن أحد من طواغيت مكة يمد يده نحوه عليه السلام بأذى لأنه كان فى مَنَعَةٍ من بنى هاشم الذين هم عِزُّ قريش وسادتها، وإنما كان الإيذاء يكون لمن معه صلوات الله وسلامه عليه وكان ذلك يشتد عليه جداً.

قلت هذا لأقول إن قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ ومعناه ولا تستعجل لهم بالعذاب ولم يأت فى الكتاب إلا فى هذه الآية، ومعنى هذا أن الضجر

والضيق من إيذاء قومه عليه السلام كـان قد بلغ الذروة لأنه عليه السلام كان مُحِباً لقومه، وكانت نفسه تذهب عليهم حسرات إن لم يؤمنوا بهذا الحديث، ثم كان منهم ما جعله مع هذا يستعجل لهم بالعذاب، فأمر بالصبر الذى ليس صبـرا عاديا وإنما هو صبر أولى العـزم من الرسل، وهذا هو الذى عندى فى تَخصيصِ هذا الصـبر بهذا القيد فـى هذا المقام، ثم إن كلمة ﴿وَلا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ التى اقتضت صبرا كصبر أولى العزم تعين أيضًا على بيان وجه ذكر آية ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِّنَ الْجِنِّ﴾ فى هذه االسورة وأن هذه الآية كـانت تَفْرِيجًا لكرب نزل به ﷺ من قومـه أغراه هذا الكرب بأن يَسْتَعْـجل لهم بالعذاب وأن الله سبحانه هَدَى بما أنزله عليه من الذكر الحكيم نفرا من الجن الذين هم أهل تمرد وعتو، وأن هذا إيمـاء إلى هداية قومه لأنهم ليسوا أكثـر نُفْرةً وتَمَرُّدًا من الجن وقـد كان هذا وهدى الله قـومه ﷺ ولم يلـتحق عليـه السلام بالرفـيق الأعلى إلا بعد ما رأى قومه يدخلون فى دين الله أفواجًا، وكما اختُصَّت هذه السورة بآية ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ﴾ وبذكر صبر أولى العزم اختصت كذلك بذكر الذى قال لوالديه أف لكما، وهذه الثلاثة بينهْـا مناسبة فالذى قال لوالديه أف لكما بلغ الغـاية فى التمرد ونفر الجن بلغـوا الغاية فى الانقياد، وأمـره بصبر أولى العزم لأنه بلغ الغاية فى الضيق والضجر من التمرد والعناد.

ولو بحثنا فى المعانـى والأحداث والصيغ التى اختصت بهـا سورة من سور القرآن وأفردناها بالنظر واجتهدنا فى بيان وجه اختصاص كل سورة بما اختصت به لفتـحنا فى الدرس القرآنى بابا جـليلا بشرط أن يفـتحه أهلـه، والذى قلته ويقوله غـيرى اجتهادات يضـاف صحيحـها بعضهـا إلى بعض وليس فينا من يستطيع أن يستقصى السر وأن يبلغ المرام الذى يرومه وإنما يبلغ الإنسان طاقته.

قال سبحانه ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ فأمره عز وجل أن يصبر كما صبروا ولم يأمره أن يصبـر صبرهم يعنى لم يقل فاصبر صبر أولى

العزم أى صبرا كصبر أولى العزم لأن صبر أولى العزم متفاوت فصبر إبراهيم على ذبح ولده ليس كصبر يعقوب على غياب ولده، وصبر يعقوب على غياب ولده ليس كصبر يوسف على السجن وهكذا نجد فرقا بين صبر يونس فى بطن الحوت وصبر أيوب لما مسَّه الضر.

وكلمة ﴿مِنَ﴾ فى قوله تعالى ﴿مِنَ الرُّسُلِ﴾ الأولى أنها بيانية لأن كل رسل الله من أولى العزم لأن بلاغ رسالة الأنبياء إلى الأمم أمر عظيم وقد ووجهوا جميعًا بالرفض والإنكار والعناد، وما قصَّه القرآن من أخبار من قصَّ منهم شاهد على ذلك، وحسبنا قوله تعالى: ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ﴾ وقال البعض إنها تبعيضية واختلفوا فى تحديد أولى العزم فقالوا: المراد بهم أصحاب الشرائع، الذين اجتهدوا فى تأسيس قواعدها وتثبيت معاقدها، ومشاهيرهم، نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم، قال البقاعى «والخلاف فى تعيينهم كثير منتشر» وفسّر القشيرى الصبر بقوله هو الوقوف بحكم الله والثبات من غيربث ولا استكراه.

وفسر البقاعى العزم بقوله : هو الجد فى الأمر، والحزم فى الجد، والإرادة المقطوع بها، والثبات الذى لا محيد عنه، الذين مضوا فى أمر الله مضيا كأنهم أقسموا عليه. وقال الزمخشرى: العزم الجد والثبات والصبر، وقال الراغب: العزم عقد القلب على إمضاء الأمور، وهذه المعانى أسمى وأعلى وأنفس ما يسكن فى النفس الإنسانية ولن يُنجز أحد شيئًا لم يَعْقد عزمه عليه، ولم يعقد قلبه عليه، وأول ما يجب أن نحرص عليه لندرب أنفسنا عليه، ثم ندرِّب نفوس أجيالنا عليه، هو العزم الذى هو الجد فى الأمر، والحزم فى الجد، والإرادة المقطوع بها، والثبات الذى لا محيد عنه، وأكرر أن هذه معان نفيسة جداً ولو سكنت فى نفوس أبناء الوطن لكان الحال غير الحال ولصنعوا بها المعجزات لأوطانهم، لأن النفس المعقودة على هِمَّة نَفْسٌ لا تَسْكنها الصغائر

ولا تسكنها الأنانية ولا يسكنها حب الخطف والسلب والنهب والقمع والتنكيل والتعذيب لأن هذا كله من أمراض النفوس وأمراض الشعوب والجد فى الأمر والحزم فى الجد والإرادة المقطوع بها هى الشفاء من كل هذه الأدواء، وهى التى تجعل صاحبها كبيراً نبيلا مترفّعًا ولا تراها تتوهج إلا عند الاشتغال بالقضايا العامة الكبيرة لتحرير الأوطان من مستعمر دخيل عليها، أو من نظام مُسْتَبِدٌ قاهر لأبناء الوطن قاتل لكفاءاتهم، قامع لهم ناشر الخوف والذعر فيهم، وتطهير البلاد من مثله هو ذاته تطهير البلاد من المستعمر الغاصب الدخيل، أقول إن العزم وشدة النفس وقوة الإرادة لا يُشْغَلُ صاحبها إلا بالمعانى العالية الخارجة عن إطار الأثرة والأنانية وجمع الثروة أو الجاه أو البطش إلى آخر ما ترى أنه وحده صار هَمَّ من صاروا فى موقع الكبار وسرقوا أمر الأمة وتشبثوا بما سرقوا وكل ما أمر الله رسوله به فنحن مأمورون به، والأمر بالصبر كصبر أولى العزم عندنا كالأمر بالصلاة، وكما أن الأمر بالصلاة لا يجوز أن يغيب عنا يومًا كذلك الأمر باكتساب العزم والصبر ومعالجة الأمور العامة لأن الرسول عليه السلام والرسل من قبله كان كل شأنهم علاجَ الخلل فى المجتمعات ولم يكن شأنهم البحث عن لقمة العيش وكفى، وهكذا يجب أن يكون كل من يتأسى بهم صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

وكلمة ﴿أُولُوا الْعَزْمِ﴾ نحن نفسرها بذوى العزم، وكلمة ﴿أُولُوا﴾ جمع لا واحد له من لفظه ومفرده «ذو» ويقال فى جمع الإناث أولات وواحدها ذات، وفرق بين أولى العزم وذوى العزم بمعنى أصحاب العزم لأن كلمة ﴿أُولُوا﴾ فيها شىء من معنى آل وآل مقلوب أهل وآل الرجل أهله، وهذا يومئ إلى أن هؤلاء بينهم وبين العزم رحم ونسب، ولا يكون العزم عزما إلا إذا كان جزءًا من اللحم والدم، ولا يناط التغيير إلا بهذا العزم، الذى لا يحول ولا يزول، والفرق بين قيادة الأمة النبيلة والقيادة غير النبيلة هو أن الرأس الأول إذا سكنه العزم والجد وتملكته الرغبة فى أن ينهض بقومه وأرضه

وأمنه ووطنه سار منه هذا العزم وهذا الجد إلى غالبية أفراد الوطن. وعقدوا قلوبهم على أن ينهضوا بهذا الوطن وأن يجعلوا له عزة وقوة وثروة وغناء، ومضوا فى ذلك حتى كأنهم أقسموا عليه وتعاهدوا عليه، وقاموا وقعدوا به، وحينئذ لا ترى فيهم سمسارا يسلب وينهب ولا تراهم ينظرون إلى الصغائر، أما إذا كان الرأس الأول ليس له إلا أن ينظر إلى عطفيه، وأن يعيش فى أبهة مع أهله وولده فقل على الدنيا السلام، وتوقع أن الوطن يعد لوثبة عدو مغامر، فتصبح البلاد فى أسر العدو، وتبقى كذلك حتى يتاح لها أولو العزم وتطهر بالدماء، والعقلاء هم الذين لا يدعون البلاد تصل إلى درجة التطهير بالدم، وعليهم أن يبادروا بانتزاعها من الفارغ الباحث عن الأبهة والثروة، والذى يدع الذئاب تجوس فى الديار، وما عليه إلا أن يبعث الخوف فى نفوس الناس لتغرس ذئابه كل أنيابها فى جسد الشعب، واحذر أن تظن أنى أفسر الآية بما لا تحتمل لأن القرآن نزل لليوم الذى أفسره فيه والذى سيفسره فيه من بعدى ولو بألف عام، وكلمات القرآن مستوعبة للزمان كله، وللمكان كله، والوقوف بها عند دلالة زمن النزول تعطيل لمعناها المراد بها، وإلغاء للقرآن وللنبوة. ثم إن الرسل عليهم السلام كانوا جميعًا من أولى العزم كما استظهر أكثر أهل العلم وكما روى عن ابن عباس لأنهم جميعًا واجهوا شدة فى البلاغ وواجهوا أمما باغية، ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾ [غافر: ٥] وكان البلاغ الذى هو تغيير بأوسع معانى التغيير كان مهمتهم جميعًا، ونظرة سريعة إلى التغيير الذى راموه جميعًا ستجده تغييرًا فى العقائد وهذا أصعب ضروب التغيير ويلزمه لزومًا لا ينفك تغيير فى السلوك والقيم، والعادات، والمعارف والفكر والأهداف والغايات، يعنى انقلابا فكريا وعقليا وثقافيا وسلوكيا، شاملا إلا ما كان يكون الناس عليه من مكارم الأخلاق التى أقرتها الديانات كالكرم، والنجدة، والعفاف، وغير ذلك مما كان عليه خيار الجاهلية، ثم صار عليه الخيار خيارا فى الإسلام بعدما فقهوا.

وهذه الحركة الاجتماعية أو الثورات الاجتماعية الكبرى كانت هى رسالة النبيين وكان طريقها طريقا سلميا وَدُودًا قريبًا رحيمًا لولا أنه تصدت لها الجاهلية بالعنف، وكل فكر جديد قدّمه النبيون هو فكر واحد ليس من إبداعهم وإنما هو من وحى الله، كل نبى واجه وحده مجتمعًا ظالمًا باغيًا ضالا يُسْتَعْبَدُ فيه الضعفاء وكل ما فيه مستباح للأقوياء، يواجهه نبى واحد وليس فى يده إلا كتاب فيه برهان وفيه نظام وتشريع يُخرج هذا المجتمع من الظلمات إلى النور بإذن ربه إلى صراط العزيز الحميد، وهذه هى التجربة العظيمة فى تاريخ الناس ولا نعتبر أنفسنا مقتدين بالنبيين صلوات الله وسلامه عليهم إلا إذا حاولنا أن نفتح هذا الفتح وأن نواجه هذا الظلام وهذا الظلم وهذا الباطل وجاهدنا ليكون الضعيف فينا هو القوى حتى نأخذ الحق له والقوى فينا هو الضعيف حتى نأخذ الحق منه، وهذا لا يكون إلا بالعزم والجد والثبات والصبر.

وكلمة العزم فى القرآن الكريم لها دلالات تشد أزر الناس وتشد أزر الشعوب، وتجمع القلوب نحو غايات نبيلة كما فى هذه الآية وكما فى قوله تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمَ الأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ [محمد ٢١]، وعزم الأمر المراد به عزم أهل الأمر والذى جاءت عليه الآية من الكلام العالى لأن قوة عزم الناس على الأمر سرت من الناس إلى الأمر فعزم الأمر، والأمر هو الأمر الذى تَدْرأ به الأمة عنها مَفْسدة كمواجهة نظام ظالم فاسد أو مواجهة عدو باغ؛ أو تجلب بها منفعة للبلاد والعباد، والصدق الذى يصدقون فيه خالقهم هو الخير كل الخير فى هذا المقام، وإبعاد هذه القيم عن تربية الأجيال جريمة يقوم بها النظام الفاشل الذى لا تثْبُت أركانه فى البلاد إلا بالقمع والبطش والإرهاب الذى يزاوله مع الشعب.

وقال الطاهر: العزم المحمود فى الدين العزم على ما فيه تزكية النفس وصلاح الأمة، وقوامة الصبر على المكروه وباعثه التقوى وقوته شدة المراقبة.

ولاحظ الربط بين تزكية النفس وصلاح الأمة ومعنى ذلك أن الأمم

لا تصلحها نفوس المدلِّسين والمتلصِّصين والأنانيِّين والمزوِّرين والكذَّابين والمنافقين، وإذا كانت هذه السخائم تحوم حول الذروة فى صورة مستشارين ومعاونين فاعلم أن البلاد تمضى إلى الهاوية وتخليص البلاد من السقوط إن لم يوجبه الدين أوجبته المروءة والوطنية؛ ثم إن البلاد إذا ضعفت وطمع فيها العدو الرابض على حدودها واجْتَاحَها فقد وجب جهاده على كل مسلم ومسلمة، وما دام هذا هو الدين فإن مواجهة الفساد الذى يُفضى بالبلاد إلى أن يجتاحها العدو هو أيضًا واجب وجوب الجهاد، ومن أفضل مواقع العزم المقترن بالصبر قوله تعالى فى سورة لقمان: ﴿**يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ**﴾ [لقمان: ١٧]، وكلام لقمان لولده أصل من أصول التربية الراقية الرشيدة التى تَصْنَعُ إنسانا راقيا نبيلاً صادقًا مشاركًا فى إقامة العدل والبر، ولاحظ البداية بالأمر بإقامة الصلاة يعنى تزكية النفس وكفها عن السخائم والرذائل لأن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، ثم يلى هذا الإعداد الذى يعنى طهارة النفس للدخول فى الأمر العام والشأن العام، وهو الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر. والمعروف شامل لكل خير تصلح به البلاد والعباد، والمنكر شامل لكل شر تفسد به البلاد والعباد، وليس الأمر بالمعروف أن تقول للناس صلوا صلوا، وإنما هو مع ذلك كف كل يد فاسدة عن الفساد وأمر كل ظالم بالعدل وأمر كل منحرف بالاستقامة، ولذلك قالوا إن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لم يترك خيراً إلا حث عليه ولم يترك شراً إلا نهى عنه، وهذا انغماس إلى الأذقان فى الشأن العام، وليس عبادة فى محراب كما يحرص المزيفون على حصر الإسلام فيه، وقد فطن لقمان إلى أنه لما دفع ولده إلى معمعة الشأن العام فهو لا محالة سيصطدم بقوى البغى والباطل والظلم فى المجتمع الذى هو فيه فكان الأمر الثالث بالصبر، وقوله ﴿**عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ**﴾ لا يعنى ما يصيبه من مرض أو فاقة وإنما هو عام لكل ما يصيبه من عنت واضطهاد وكلمة ﴿**إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ**﴾، كلمة عالية جداً وجليلة جداً لأن

المجاهدين فى زرع الخير فى أرض الله واقتلاع الشر هم أهل العزم وأهل الصبر وأهل الإرادة القوية والتصميم الذى لا يثنيه الأذى من شرار الناس، ثم إن كلمة ﴿عَزْمِ الأُمُورِ﴾ تعنى الأمور الجليلة التى لا تنال إلا بحزم وعزم، وليست لقمة العيش التى يسعى إليها كل من هب ودبَّ.

ومن أجَلّ مواقع كلمة ﴿عَزْمِ الأُمُورِ﴾ التى لا تشبع من تكرارها النفوس الحية قوله تعالى فى سورة آل عمران: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦]، وهذه الآية كغيرها من آيات الكتاب نزلت فينا ونزلت لنا ونزلت لليوم الذى نحن فيه، والقرآن يحرص دائما على تزكية النفوس وتصفيتها من الأكدار، وإذا رأيت فيه إشارة إلى الشأن العام وحث المسلم على أن يمارس واجبه فى مواجهة الباطل رأيت حرصًا واضحا على هذه التزكية حتى تدخل فى قضايا أُمَّتك وأنت طاهر النفس خاليًا من الأغراض، والأطماع والشوائب وتصفية الحسابات، والابتلاء فى الأموال والأنفس مما يُمحّص الله به عباده ويزكيهم ويطهرهم ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت: ٢]، وهذا يعنى أن الافتتان الذى هو الابتلاء يجب أن يتوقعه من آمن وأن يسأل الله الثبات على الحق والنجاح فى هذا الابتلاء، وهذا تقديم لقوله سبحانه: ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا﴾ [آل عمران: ١٨٦]، وهذا ما نعيشه وخصوصًا بعد ما أشعل اليهود الذين لعنهم الله ولعنهم على لسان أنبيائهم نار العداوة فى بلاد الصليب ضد الإسلام والمسلمين، نَسْمَع أذى فى ديننا، وفى نبينا صلوات الله وسلامه عليه، وقد صدّروا ذلك داخل البلاد، فصارت تقوله الفئة الباغية، الضالة المنافقة، وعبيد أنظمة السوء، وقد ألقت عليهم الأنظمة من الداخل وأعداء الدين من الخارج أردية الثقافة، والتنوير، وقالوا فى دين الله كل منكر، وحسبك من كل منكر أن

يطالبوا المسلمين أن يذكروا الإسلام في المسجد فإذا خرجوا إلى الشارع أو السياسة أو إلى أي شأن من شئون الجماعة عليهم ألا يتكلموا في الدين. وتطرّفوا في ذلك حتى قرأت لرجل يوهم الناس أنه أكاديمي وموضوعي ومتديّن وشغل ويشغل مناصب كبيرة في النظام يقول أي برنامج عليه لفظ الجلالة لابد أن يرفض، لأن الدين لا شأن له بسياسة الدولة، والذي يقول لا شأن للدين بالدولة لا معنى لكلامة إلا معنى واحد وهو أن الله لا شأن له بالدولة، والذي يحرم لفظ الجلالة في أي برنامج غدًا سيحرم لفظ الجلالة في مجالس السياسيين، وهذا هو البلاء الذي نسمعه ليس من الذين أوتوا الكتاب من قبلنا ومن الذين أشركوا، وإنما من رجال منا يزعمون أنهم يصومون ويصلون والله أعلم بأحوال عباده.

وقوله جل شأنه بعد سماع ما يؤذي الدين وأهله: ﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾ لا أفهم أن الصبر هنا هو صبر الصامتين الساكتين والوجلين ولو كان المراد ذلك لما قال سبحانه ﴿فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾ لأن الصمت والسكوت الذليل ليس من عزم الأمور، وليس الصبر المفضى إلى التقوى وإنما الصبر على المدافعة عن الحق ومواجهة الباطل وأهله، والدفاع عن حمى الله لأن الدين هو الحمى، ومن وقع فيه وقع في الحمى ووجب جهاده، ومن أبعده عن رسالته وجب جهاده، ومن أخرجة عن باب أدخله الله فيه فهو محاد لله، ومنازع لله، ومحارب لله، وكل ذلك يكون بالفهم والحكمة والبعد عن أحداث الفتنة لأن فقهاءنا وعلماءنا شددوا في ضرورة إبعاد الأمة عن الفتنة ومن هنا كان الموقف شديد الدقة والحذر فالصمت عن إيذاء الدين لا يرضاه الله منا وإشعال الفتنة لا يرضاه الله منا، وبينهما طريق تحفه الحكمة ويحفه العلم والفقه والله غالب على أمره.

وقوله تعالى: ﴿وَلا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ معطوف على قوله سبحانه ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ﴾ ومؤكدة له لأنها نهي جاء بعد أمر يؤكده كما في قوله تعالى: ﴿وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ﴾ [القصص: ٧٧]، والنهي عن استعجال العذاب يؤول إلى الأمر بالصبر، ومفعول ﴿تَسْتَعْجِل﴾ محذوف

هو العــذاب والاستعـجال بالعــذاب إنما كان من الضــيق والضجـر والنهى عن الاستعجال لا يستلزم النهى عن الضيق والضجر فقد يضيق عليه السلام ويضجر من سَفَهِ الناس ولكنه لا يستعجل العــذاب بل إنه كان عليه السلام إذا اشتد عليه إيذاء قومـه قال «اللهم اغفـر لقومى فإنهم لا يعلمـون»، كما أن الأمر بالصـبر والثبــات لا يعنى النهى عن الضجـر والضيق لأن هذا مما لا يستطاع دفـعه، وإنما الصبر الوقوف عــند أمر الله والثبات عليه ثباتا لا يَدْفَـعْه دافع ولا يتزحزح الصابر ولا يهتز ولا يلين، ولا يشكو للناس، وله أن يشكو بثه وحزنه إلى الله كما فعل يعقوب الصابر صلوات الله وســلامه عليه وهذه الجملة وما فى معناها قليل فى الكتــاب والكثـير أنه كــان عليه الســلام يشــتد عليـه ليس أذاهم وإنما انصرافهم عن الحق وتذهب نفسه حســرات عليهم وهم فى عنفوان معاداته عليه السلام والآيات فى هذا كثيرة كما فى قوله تعالى ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦]، ومن أبين ما جاء فى بيــان حبه لقومه عليه الســلام قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]، وليس فى الآية معنى خاص بالمؤمنين إلا قوله تعالى: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ وما قبله عام لمن آمن ومن كفر من قومه صلوات الله عليه، ولاحظ الإشــارات القرآنية، قال سبحانه ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ ولم يقل منكم، وبينهما فرق كبــير لأن الذى من أنفسهم أدخل فيهم وأقرب إلى قلوبهم ونفــوسهم، فليس منكم جسدًا ونسبا، وإنمــا هو منكم قلبًا وروحا ونَفَسًا، وراجع كلمة ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ ودلالتها على أن عنتهم عزيز عليه أى يشق عليه والعنت الوقوع فى أمر يخاف منه التلف.

هذا شأنه عليه السلام وحديث القرآن الأكـثر والأغلب عنه عليه السلام حتى إن الله سبحانه كــان ينهاه عن ذلك وكان عليه السلام يبلغ فى ذلك مـبلغا حتى يقول له ربه: ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ﴾ [الروم: ٥٢]، ﴿إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا﴾ [النمل: ٨١]، ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ﴾ [الزخرف: ٤٠].

وإذا كان هذا وصفه كما وصفه ربنا جلت حكمته فعلينا أن نتصور العنت والإيذاء والمنازعة والاضطهاد الذى صيَّر مَنْ هذا وصفه صلوات الله عليه وسلامه إلى درجة من يستعجل لهم العذاب، لا بد أن يكون شيئًا لا يطاق احتماله وقد قلت إن كل ما أمر به عليه السلام بالصبر فى الكتاب العزيز نزل بمكة لأن السنوات التى قضاها فى مكة قبل الهجرة كانت من أصعب ما واجه النبى والذين آمنوا معه وربما كان هذا من أهم ما رجحت به موازين المهاجرين رضوان الله عليهم وهم الذين أوذوا فى سبيل الله وأخرجوا من ديارهم وأموالهم وقد ذكر العلماء أن من صَبْر أولى العزم صبرهم على تثبيت قواعد الدين، وتعلم أمر الله ونهيه، وكان هذا بجانب إيذاء أهل مكة قليلا فى صبر رسول الله ﷺ.

وهذه الآية ﴿**وَلا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ**﴾ أخت آية مريم ﴿**فَلا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا**﴾ [مريم: ٨٤]، قال الإمام الحافظ فى معناها: «فلا تعجل يا محمد على هؤلاء فى وقوع العذاب بهم» ومريم من أوائل ما نزل وقد نزلت قبل آل حم بزمن وقرأها سيدنا جعفر بن أبى طالب على النجاشى فى الحبشة.

وقد كانوا يستعجلونه ﷺ بالعذاب استخفافا منهم وإعلانا وتحديا وإمعانا فى التكذيب، قال تعالى: ﴿**وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ**﴾ [الحج: ٤٧]، وقال جل شأنه: ﴿**وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ**﴾ [العنكبوت: ٥٣]، وهكذا كانت الأمم من قبلهم وقد مضى قول قوم هود عليه السلام ﴿**فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا**﴾.

وآيات رفع عذاب الاستئصال عن أمته ﷺ وتكريم الله له بهذا نزلت متأخرة بالمدينة من مثل قوله تعالى فى سورة الأنفال وهى مدنية: ﴿**وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ**﴾ [الأنفال: ٣٣].

قوله سبحانه: ﴿**كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ**﴾ هذه الآية تعليل ظاهر لقوله سبحانه قبلها: ﴿**وَلا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ**﴾ لأن من رحمة الله

وعدله أنه يمهل عباده لعلهم يرجعون ﴿**أَوَ لَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ**﴾ [فاطر: ٣٧]، أمهلهم وأطال أعمارهم وجاءهم النذير ليراجعوا، وليرجعوا ولكنهم لم يراجعوا ولم يرجعوا فليس لهم على الله حجة.

والآية تُنَبِّهُ إلى شيء جليل جداً وهو أن الغرور والترف والاستكبار فى الأرض الذى أغواهم وأغراهم هو فى حقيقته لَهْوٌ ولِعبٌ ووَهْمٌ وأنهم يوم يرون العذاب يدركون هذه الحقيقة وكأنهم ما لبثوا إلا ساعة وهذا تصوير بالغ لأحوال النفس الإنسانية مع الزمن لأن ما فات مات، والوقت يموت لحظة بعد لحظة والعمر يموت يوماً بعد يوم وكل ساعة مضت من العمر فقد ماتت وقليل من الناس يعقل هذه الحقيقة وقد عبر عنها الكتاب العزيز تعبيرا واضحا فى قوله تعالى: ﴿**يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ**﴾ [البقرة: ٩٦]، لأن الإنسان فى قبضة خالقة طال العمر أو قصر ولا مفر له من لقائه ولا مفر له من حسابه وجزائه وهذه الآيات من أوعظ آيات الكتاب العزيز لأن كل ما نحن فيه خيال زائل، ومن فى الدنيا ضيف وما فى يده عارية، والضيف مرتحل والعارية مؤداة، وانتهى الأمر، ولا يجوز لمن ليس له فى الدنيا إلا ساعة أن يضيع منها لحظة فى معصية الله، وإنما يَعْمُرها بعمل الصالحات حتى يلقى الله بما لا يستحى منه، لا يجوز أن نضيِّع هذه الساعة فى الكذب والنفاق والسلب والغطرسة والجرأه على حمى الله ولا تكون الاستقامة فى عالم يموج بالباطل إلا بعزائم أولى العزم صلوات الله وسلامه عليهم وإلا بصبر الصابرين الذين يكونون دائما فى معيَّة الله لأن الله وعد أنه مع الصابرين.

وكلمة ﴿**كَأَنَّ**﴾ يظهر أنها تفيد التشبيه وأن حالهم يوم يرون ما يوعدون كحال من لم يقيموا فى هذه الدنيا إلا ساعة من نهار، وأصل الكلام كأنهم لم يلبثوا إلا ساعة من نهار يوم يرون ما يوعدون أو يوم يرون ما يوعدون كأنهم لم يلبثوا إلا ساعة، وجاءت كأن فى رأس الآية لأن معقد المعنى على تصوير حالهم يوم يرون ما يوعدون وأنهم لم يلبثوا إلا ساعة، وفَصَل الظرف ﴿**يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ**﴾ بين اسم كأن وخبرها لأن يوم يرون ما يوعدون هو

اليوم الذى أنكروه لما قالوا ﴿أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾[الصافات: ١٦] وتفننوا فى إنكار هذا اليوم وقالوا أيضًا ﴿إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [المؤمنون: ٣٧]، وقال الذى قال لوالدية أف لكما: ﴿أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي﴾ وهما يقولان له بإشفاق بالغ ﴿وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ فيقول بصلف وجهل وغباء ﴿مَا هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾، وخبر كأن الذى هو المشبه به جاء مؤكدا بطريق القصر ﴿لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ﴾ والحق العليم بهم هو الذى يحدّث عنهم، وقد تكرر هذا المعنى كثيرا فى الكتاب العزيز، ومنه قوله تعالى فى سورة الروم: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ [الروم: ١٢]، وضع ما أقسموا عليه بإزاء ﴿لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ﴾ نجد الكلامين كلاما واحدا مع فارق جليل وهو أنهم هم الذين قالوا ﴿مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ والآية التى معنا كما قلت خبر الله عنهم وجاء فى سورة المؤمنون ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ (١١٢) قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ (١١٣) قَالَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٢، ١١٤].

وهذه الحقيقة التى يجليها لنا الكتاب العزيز من الحقائق التى يجب أن يتدبرها الإنسان مؤمنا كان أو كافرا حتى لا يتشبث بشىء فى الدنيا ولا يعض على شىء فيها إلا عملا صالحا نافعا بارا يرضاه الله ويرضاه أهل الطهر وأهل الصلاح وأهل التقوى، وأن السلب والكذب والنفاق والتسلط والقهر كل ذلك باطل فى الهواء، وخسائس نفسية من غير ثمن لأنه سيقسم بلسانه أنه مالبث فيها غير ساعة، وكل ما فى يده عارية والعارية مؤداة، وهكذا يجب أن يفهم العقلاء وعلى أساسه يكون تصرفهم حتى لا يقعوا فى غرور الدنيا، وعليك أنت أن تتصور كيف يكون الحال لو سكنت هذه المعانى فى نفوس الكبار والصغار وهذه الجملة التى هى تعليل ظاهر لقوله تعالى لهم: ﴿وَلا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ ترى معناها يتواصل مع معان كثيرة تكونت منها السورة، فالذى يوعدون هو

الإنذار الذى أعرض عنه الذين كفروا والذى جاء فى أول السورة ﴿**الَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ**﴾ وهكذا نرى هذا التواصل يُردُّ به العجز إلى الصدر، ثم إن هذا الذى يوعدون هو الكتاب العزيز الحكيم، لينذر الذين ظلموا، ثم هم الذى دعوا من دون الله مالم يخلق شيئا فى الأرض وليس له شرك فى السماء، ولم ينزل به كتاب ولا أثارة من علم، وهكذا تتواصل الآيات والذين قالوا ﴿**سِحْرٌ مُّبِينٌ**﴾، والذين قالوا ﴿**افْتَرَاهُ**﴾ والذين قالوا ﴿**لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ**﴾ ﴿**وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا**﴾ والذين يعرضون على النار إلى آخر السورة تراجع الآيات وفى يدك كلمة ﴿**يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ**﴾ تجد بينها وبين كل ما فى السورة نسبا واصلا ولم أجد هذا على هذا الوجه فى غير القرآن، يعنى تجد الجملة مع التى قبلها وكأنها خرجت من رحمها، ولحمها، وعظمها، فهى بنتها ثم تجدها مع ذلك تمد أطيافا من معانيها إلى أفق السورة كله حتى ليختلط سناها بسنا ما حولها وتُكَوِّنُ هذه الأخلاط من الضياء مشكاة متميزا بأضوائه وأطيافه وهذا المشكاة هو السورة، وكل سورة مشكاة يشتبه كثيرا بما حوله ويختلف اختلافا دقيقا، وجليلا، وهذا الاختلاف لا يرى إلا بعد مكابدة وكلما كانت المكابدة أنفذ وأكثر حظا من توفيق الله بدا هذا المشكاة يتميز أكثر.

ووصف الساعة فى الآية بأنها ساعة من نهار قال فيه علماؤنا إن النهار ذكرهنا لأن ساعات النهار قصيرة لاشتغال الناس بشواغلهم بخلاف ساعات الليل فقد تطول مع السهاد والقلق، وهذا جيد واللفظ يحتمله، ويقال أيضًا فى مزيد بيانه إن ساعات الليل إما أن تكون نومًا فيفقد الإنسان الإحساس بها لأن الأنفس تموت فى منامها فلا يصح أن يُضْرب مثل الحياة القصيرة بزمن تموت فيه الأنفس، وإذا كان المرء غير نائم فى ساعات الليل طال الليل.

قلت إن تفسير علمائنا لكلمة ﴿**مِّن نَّهَارٍ**﴾ تفسير جيد ويمكن أن يضاف إلى ما قالوه شيء آخر، وهو أن الساعة هذه لم تُقَيَّد بساعة من نهار إلا فى

هذه الآية، وفى آية يونس ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ [يونس: ٤٥] وهذه الآية من أعظم آيات الكتاب وكلها أعظم وإنما أردت ما فيها من تنبيه إلى الخطيئة العامة التى يقع فيها الناس وهى نسيان لقاء الله والاغترار كل الاغترار بإقامة ساعة واحدة من النهار وضياع هذا العمر الملخص فى ساعة فى الكذب والنفاق والسلب أو تبرير سلب أهل السلب والظلم والغطرسة وكل المساوئ الواقع فيها الكبار والتى تعلمها الصغار من الكبار حتى صارت حياتنا على أرضنا وأرض آبائنا جحيمًا لا يطاق، أقول كل هذا الظلم وهذا الغَبْن وهذا البطش من أجل ساعة من نهار ثم تمضى ونمضى نحن معها أيضًا ولكن هذه الساعة تدخل فى الفناء ونذهب نحن للقاء ربنا ومعنا الخسران والضلال.

قلت إن تقييد الساعة بأنها من نهار لم تأت فى الكتاب العزيز إلا فى آية يونس وآية الأحقاف وهما متشابهتان جداً كأنهما توأم لأن يوم يحشرون هو ذاته يوم ﴿يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ﴾ وإنما عبر عنه فى يونس من حيث هو حشر يحشرون فيه وعبّر عنه فى الأحقاف من حيث هو شىء يرونه لأن الحشر فى يونس هو المناسب لقوله ﴿يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ وقوله: ﴿كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً﴾ هو ما جاء فى الأحقاف مع اختلاف جليل هو أن اسم كأن فى يونس هو ضمير الشأن المحذوف وفى الأحقاف ضمير الجماعة الغائبين و﴿لَّمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً﴾ هو خبر كأن فى السورتين.

وأكثر ما تذكر فيه الساعة فى الكتاب العزيز يكون المراد بها القيامة مثل ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ﴾ [القمر: ١] ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ﴾ [الأعراف: ١٨٧] ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ﴾ [الروم: ١٢] إلى آخره، وقليلاً ما تذكر بهذا المعنى الذى فى الأحقاف ويونس والروم ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ [الروم: ٥٥]، الساعة الأولى هى القيامة، والثانية هى الزمن المعروف، ويلاحظ أنهم لما أقسموا ما لبثوا غير ساعة لم يقيدوها بأنها ساعة من نهار، وقيدت فى يونس والأحقاف لأن الذى أخبر أنهم ما لبثوا غير

ساعة فى السورتين هو الله الحق جل وتقدس، وفرق بين أن يقولوا إنهم ما لبثوا غير ساعة، وأن يقول الحق إنهم ما لبثوا غير ساعة، لأن الساعة فى كلامهم من معدن الزمن الذى عاشوه فى باطلهم وعماهم وعَمَهِهَمْ وقد كانوا ينكرون الساعة التى هى البعث، وقيام الناس من قبورهم ينظرون، والحق جعلها ساعة من نهار لأن الأدلة التى ساقها لهم والتى صاحبت الإنذار وبلاغ النبيين كانت ظاهرة باهرة قاطعة كالشمس ليس بينهم وبينها حجاب.

فلم يدعهم سبحانه يعيشون فى ليل مظلم، وإنما بعث النبيين وأنزل كتبه ليخرجهم من الظلمات إلى النور، وأن الله سبحانه أحياهم على هذه الأرض وأضاء لهم ما حولهم، أقول هذا معنى تومئ إليه كلمة النهار، لأن الساعة التى هى ملخص العمر ما جاءت فى إخبار الله عنهم إلا وهى مقيّدة بأنها من نهار، وما جاءت على لسانهم إلا وهى مطلقة من هذا القيد، وساعة الضالين ساعة من ليل، وساعة المهتدين ساعة من نهار، وما خلق الله الجن والإنس إلا لعبادته، يعنى إلا ليعيشوا ساعة من نهار.

والله نور السموات والأرض، وهناك فريق ممن خلق كالخفافيش لا تعيش إلا فى ظلام، وأجد دائمًا معنى الهداية والضلالة يحومان حول ذكر الليل والنهار، والظلمات والنور، وحين أقرأ مثل قوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝١ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾ [الليل: ١، ٢] ويقينى أن المراد الليل المعروف والنهار المعروف ومع ذلك لا أستطيع أن أدفع عن نفسى معنى ظلمة الباطل التى تُغْشى الحق وتُلْبسه، وتُخفيه، وتجليات الحق التى تقهر الباطل وتقذفه وتدمغه، لا أستطيع أن أدفع عن نفسى صراع الخير والشر، وتدافعهما من الليل إذا يَغْشى والنهار إذا تجلى، مع حذرى الشديد من هذا لأن دلالات الكلمات فى الكتاب العزيز لابد أن تُضْبط ضبطًا لغوياً صادقًا حتى لا تتدخل الأهواء فى معانى الكتاب العزيز وهل يتنافى مع هذا الحذر الواجب أن أقول فى قوله تعالى فى آخر سورة النازعات والحديث فى سؤال الناس عن الساعة ويصف ربنا أحوالهم يوم يرونها بقوله: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾ [النازعات: ٤٦]

أقول هل عليّ من حرج إذا قلت إن تصوير حياتهم فى صورة عشيّة أو ضحاها، فيه إيماءة إلى أن من أنكرها عاش عشية، ومن أقرّ بها عاش ضحاها، أو أنهم لما أنكروها عاشوا عشية فلما جاءتهم وأيقنوها عاشوا ضحى هذه العشية، وأن القرآن نزل ليخرجهم من الظلمات إلى النور فلم يخرجوا من الظلمات فجاء الموت وأخرجهم من ظلمات الإنكار إلى مواجهة الحق لأن الموت كشف عنهم الغطاء ورأوا ما يوعدون بأعينهم، هذا والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿بَلاغٌ﴾ هذه الكلمة جملة وهى خبر لمبتدأ محذوف والتقدير هذا بلاغ وقد جاءت كاملة فى آخر سورة إبراهيم ﴿هَذَا بَلاغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ﴾ [إبراهيم: ٥٢].

ولم تقع هذه الكلمة فى المصحف خارج أسلوب القصر إلا فى هاتين الآيتين آخر إبراهيم وآخر الأحقاف وقد تكررت كلمة البلاغ كثيرًا فى الكتاب وأكدت حقيقة واحدة هى أنه ليس عليك يا محمد إلا البلاغ وما وراء ذلك علينا لا عليك، وليس على علماء أمتك من بعدك وهم ورثتك إلا البلاغ، وعليهم أن يكفوا أيديهم عن ما وراء ذلك، لأنه ليس من شأنهم وإنما شأنهم أن يبلغوا لا غير ثم يتركوا الناس يرتع فى الضلال منهم من يرتع، ويهتدى منهم من يهتدى لأن ذلك فى يد الله يهدى من يشاء ويضل من يشاء.

قلت كثر فى الكتاب العزيز تكرار هذا المعنى كقوله تعالى: ﴿وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ﴾ [آل عمران: ٢٠] ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠] ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاغُ﴾ [العنكبوت: ١٨] ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ الْبَلاغُ﴾ [الشورى: ٤٨] وهذا حَدٌّ ظاهر جداً وصارم جداً بين بين النبوة التى هى أرفع درجات الإنسانية وبين الألوهية التى هى فوق كل فوق، وكان من بركات هذا البيان أن عصم الله الأمة فلم يخلط مسلم جاهل تائه فى أدغال الأرض بين الألوهية والنبوة.

قلت إنه ليس عليك وعلى ورثتك من علماء أمتك إلا البلاغ، ثم يرفعون أيديهم لأنك لست مصيطرًا على الناس، وكذلك علماء أمتك الذين يبلغون

رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحدًا إلا الله ليس لهم أى سلطان؛ ولا أى سيطرة على أى فرد، وعليهم فقط البلاغ، وهذا معنى جليل جداً، وليس البلاغ سهلاً وإنما له مَشَقَّاتٌ وله أصول، وأولها فقه ما يبلغ فقها دقيقًا حتى لا يبلغ عن الله شيئًا ليس من عنده سبحانه، وحتى لا ينقص من بلاغ الله شيئًا هو منه، والأمر الثانى أن يكون البلاغ بينًا مبينًا، وقد وصف الله البلاغ بالمبين والرسول بالمبين والكتاب بالمبين، وكل هذا مجموع فى أن يكون أمر الله بين عباده أمرًا بيِّنًا لا لبس فيه، والأصل الثالث من أصول البلاغ هو الصَّدْع به فى المقام الذى يجب الصدع به فيه، والبلاغ محتاج إلى قوة يقين فى الله الذى تبلِّغ عنه، واليقين المطلوب هو اليقين الذى يجعلك تخشى الله ولا تخشى أحدا إلا الله، وظلم جهلة السلاطين ظلم غاشم جاهل غبى متغطرس يخرس ألسنة أهل البلاغ من الجهر بكلمة الله، حتى إنك لترى شيوخ السلطان الذين وسّع لهم السلطان من الثروة التى انتهبها من الشعب المقموع وأغرقهم فى المال الحرام تراهم يديرون ظهورهم للقضايا الأساسية كنهب ثروة البلاد وتعذيب المواطنين حتى الموت لأنهم يعارضون السلب والنهب والجهل وتدمير البلاد وقمع من يطالبون بالحكم بما أنزل الله مع أن هذا واجب على كل مسلم وإنما وقف سيف السلطان الظالم يقطع الألسنة التى تقول ﴿**وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ**﴾ [المائدة: ٤٧]، أقول ترى شيوخ الثروة والسلطة يديرون ظهورهم لهذا ويكلمون الناس فى ختان الأنثى، ويجعلون من هذا قضية ساخنة يحتدم فيها الخلاف وتشغل الصحف والناس أو يديرون ظهورهم للعرى الفاضح ويتجهون إلى القول فى أن النقاب ليس واجبًا وكأن العرى الفاضح هو الواجب، ويديرون ظهورهم لمحاربة ما يسمى الإسلام السياسى ويتكلمون فى رضاع الكبير، مع أن مهاجمة الإسلام السياسى جريمة يُقر بها ويعترف بها قلم من يهاجمها، وذلك لأن كلمة الإسلام السياسى تعنى فى المدلول اللغوى أن هناك إسلامًا موصوفًا بأنه سياسى أى الجانب الفقهى والتشريعى المتصل بسياسة الأمة كالسياسة الشرعية التى كتب فيها شيوخ

العلماء من القدماء والمحدثين، وأن الهجوم عليها هجوم على شطر الدين، وأن رد هذا الجانب رد لبعض آيات الله، وأن رد بعض آيات الله يعنى الإيمان ببعض الكتاب والكفر ببعضه، وأنا على يقين من أن علماء الثروة والسلطة لو صدعوا بهذا الحق لاحترمهم الناس، ولاحترمهم السلطان لأنه لو عرف أن معارضته للإسلام السياسى تصرعه فى الجحيم لتراجع، أقول السادة علماء الثروة والسلطة يديرون ظهورهم إلى هذا الشأن ويتكلمون فى اللحية أو فيما شئت وهذه لعبة سياسية وأمنية أيضًا لإشغال الأمة عن شىء بشىء، ولما وقعت البلاد عقد صلح منفرد مع عدونا، ذهبت فى اليوم التالى إلى جامعة الأزهر التى أعمل فيها فوجدت إعلانًا مثيرًا جداً فى مدخل الجامعة عن محاضرة يلقيها رجل كنت أظن فيه خيرًا وعنوانها من المسؤول عن عدم تطبيق الشريعة الإسلامية فى مصر، وقلت فى نفسى يارب هذه قضية قديمة وممدودة، واليوم له قضية أخرى هى الصلح المنفرد مع العدو الملعون ثم حضرت المحاضرة فوجدت المحاضر يقوم ويقعد بالقول بأن المسؤول الأول عن عدم تطبيق الشريعة هو فلان وأراد الذى عقد الصلح المنفرد مع العدو الملعون، وفهمت من هذا أن الذى عقد هذا الصلح قال لهم قولوا ما تشاؤون وقد أبحت لكم اليوم كل محرم بشرط أن لا تتكلموا وألا يتكلم أحد فى الصلح مع اليهود، وهكذا وجدت البلاغ يُتَلاعَبُ به ووجدت الدين ليس بمعزل عن السياسة، إذا سخره علماء السلطة والثروة لخدمة السياسة، وخدمة خدمها من الأمن وغيره ولهذا قلت إن تحديد المهمة فى البلاغ تحديد لمهمة محدودة، ولكنها صعبة جداً ودقيقة جداً، وأقرب القربات إلى الله كلمة حق عند سلطان جائر، وهى من البلاغ، هذا والله أعلم.

وراجع كلمة ﴿بَلاغٌ﴾ وإيجازها والكلام الذى خرجت منه، من أول قوله سبحانه ﴿**فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ**...﴾ إلى قوله ﴿بَلاغٌ﴾ لتسمع ما فيها من الغضب والوعيد، والإيجاز حين يقع فى سياق الغضب تكون له دلالة ظاهرة على قوة الغضب، وهذه الكلمة فى هذا الموقع تقول للثقلين بلغكم أمْرِى ونهيى وما أرضى وما لا أرضى، وبلغكم ثوابى

وعقابى وإلىَّ مرجعكم ومن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر وكأنكم يوم ترون ما توعدون لم تلبثوا إلا ساعة وقد أضأت لكم الطريق وأنزلت إليكم السراج المنير، وجعلت ساعة عمرك نهارًا مضيئًا لما وضعت لكم المنارات على الصراط المستقيم ولكنكم أغمضتم عيونكم. وهذه الكلمة الجليلة الخارجة من رحم ما قبلها لا تستطيع أن تُغفل ولا أن تغمض العين عن رجوعها، وارتباطها، وإمساكها بالكلمة الأولى في السورة وهى قوله تعالى ﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ لأن هذا هو عين البلاغ ولأن هذا الرجوع وهذا الربط يفرغ على كلمة ﴿بَلاغٌ﴾ معنى جليلا وهو أنه بلاغ العزيز الذى لا ينازع والذى خلق السموات والأرض وما بينهما والذى لا يفلت من قبضته شيء ثم هو بلاغ صادر من محض الحكمة فليس فيه أمر ولا نهى ولا شيء إلا موصوفًا ببالغ الحكمة وصادرا عن بالغ الحكمة والخلاصة أنه بلاغ صادر عن عزة الحكيم وحكمة العزيز، وهكذا نجد كلمات القرآن يسقى بعضها بعضًا، ثم إنها تعود لنقض قولهم ﴿سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ وقولهم ﴿افْتَرَاهُ﴾ وقولهم ﴿إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾، ﴿أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾ لتؤكد إنذار الذين ظلموا ولتهدد أصحاب هذه الأباطيل، ثم إنها تعود إلى قول الجن ﴿إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ وهكذا تتحرك الكلمة فى كل شِعْب دخلت فيه السورة وتجد لها فيه مكانًا متمكنا وهذا الذى أقوله من رجوع كلمة ﴿بَلاغٌ﴾ إلىَّ كل ما فى السورة هو من كلام علمائنا، وكثيرًا ما يشيرون إلى أن الفاصلة الأخيرة للسورة قد جمعت بإشاراتها وظاهرها وباطنها وصريحها ومضمرها كل ما فى السورة، وقد لفت البقاعى لفتة كريمة إلى ما بين الأحقاف وإبراهيم لما وجد السورتين مختتمتين بكلمة بلاغ وأشار إلى أن هذا التشابه الظاهر فى مقطع السورتين دال دلالة ظاهرة على التشابه الظاهر بين مقصود السورتين، قال رحمه الله: «ولما تكفل ما ذكر فى السورة من الحجج الظاهرة والبراهين الباهرة ببيان ما هو مقصودها بحيث لم يبق فيه لبس وكان مقصودها آيلا إلى سورة إبراهيم عليه السلام وهو التوحيد اللازم منه إحاطة

العلم بكل شىء وشمول القدرة لكل شىء ختمت بما ختمت به إبراهيم»، انتهى كلام البقاعى، ومن أهم وأبرّ ما فى كلام علمائنا أنه يفتح للخالفين من بعدهم آفاقًا جديدة للبحث والدرس، لأن هذه الكلمة تقول لنا عودوا إلى مقاطع السور ونهاياتها وما تشابه منها وحققوا وجود هذا التشابه فى المقاطع والنهايات بدراسة التشابه فى المقاصد لأنكم ستجدون ذلك التشابه لا محالة، وهذه الدراسة التى أقدمها هى دراسة سور تشابهت مطالعها وقد وقفت عند آل حم وبقيت سور كثيرة تتشابه مطالعها سواء كانت المطالع من حروف المعجم أو التسبيح أو الحمد أو ما شئت وقد درس أوائلنا التشابه بين سور الحمد الخمس الفاتحة والأنعام والكهف وفاطر وسبأ، وعلينا الآن إعمال وصية البقاعى وأن نبحث عن التشابه فى الخواتيم، والقرآن غنى عن التكلف والبحث الجاد فيه يقع على ما لا يجوز إهماله أو تجاهله كالذى قلته فى رجوع كلمة ﴿كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ إلى كل ما فى السورة وكذلك رجوع كلمة بلاغ وهكذا وأنا لا أتكلم إلا فيما لا يجوز السكوت عنه وأجد فى كلمة ﴿بَلاغٌ﴾ أكثر مما قلته لأن كل آل حم بدأت بذكر الكتاب والأحقاف آخرها ختمت بالبلاغ الذى هو الكتاب وبهذا تكون هذه الجملة رداً لعجز آل حم إلى صدر آل حم، ثم إن كلمة ﴿بَلاغٌ﴾ التى لها هذا الحضور الظاهر والرائع فيما قبلها هى ذاتها صانعة الجملة التى بعدها وهى قوله تعالى ﴿فَهَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾ لأن هذه الفاء التى رتبت الاستفهام الذى معناه النفى والإنكار ومؤداه قصر الهلاك على القوم الفاسقين أقول هذه الفاء لا يحسن ترتيبها على شىء كترتيبها على كلمة ﴿بَلاغٌ﴾ لأن من بلغه حق اليقين مصحوبًا بالبرهان القاطع ثم ردّهُ فلا يهلك أحد هلاكُه.

وقرئ بلاغا بالنصب قالوا والمعنى بلغوا بلاغًا يعنى الجملة أمر مباشر للأمة وأنها مكلفة بالبلاغ وأن إنفاذنا لأمر الله ونهيه من صلاة وصيام إلى آخره مضموم إليه البلاغ ونحن مكلفون به وأنه من التكاليف الشرعية وأننا جميعًا مطالبون بأن نحسن الدعوة إلى ربنا، وبلاغ بلاغ ربنا إلينا وأن يكون ذلك من

كل واحد منا بالحكمة والموعظة الحسنة وأن يكون كل القادرين على ذلك وهم أكثرنا مبلغين رسالات الله خاشعين لله ولا يخشون أحدا إلا الله، ولا يبتغى ببلاغه إلا وجـه ربه الأعلى ولسوف يرضى، تصور مجتمـعا هذا شأنه الكل يجتهد فى أن يتعلم من بلاغ الله شيئًا ليبلغه عن الله وليكون من المبلغين عن الله وأن يتقن ما يعلم من بلاغ ربنا حتى لا يبلغ عنه غير بلاغة سبحانه، وأن يتقن أسلوب الدعوة الذى هو الحكمة والموعظة الحسنة وأن يكون أكثرنا داعيًا إلى الخير والبـر والحقّ والعفاف والصدق والطهر، نـاهيًا عن الزور والباطل، والغش والنفاق والأنانية إلى آخـره، هل تجد فى مجتمع فيـالق من أهل الخير صادقة ناصحة تزرع الخير وتطارد الشر كهذا المجتمع الذى تصنعه كلمة مثل كلمة بلاغ حـين تقرأ بالنصب لتكون مصدرًا حـذف فعله أى بلغوا عنى بلاغًا أى بلاغ أو بلغوا عنى ولو آية.

وقوله جـل شأنه ﴿فَهَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾ هذه آخر جـملة فى الأحقاف وآخر جملة فى آل حم وهى ممسكـة بالآية قبلها وهى جزء منها لأن البلاغ الذى لـه سلطان ظاهر ودليل باهر لا يروغ منه إلا هالك فـاسق خارج من دائرة الصـواب والعقل إلى الباطـل والأهواء، والفلاح مرتبـط بالصواب والعـقل وإدراك الحق والانقيـاد إليه بـل والبحث عن الصـواب، والولع به، والهلاك مرتبطِ بالخروج عن هذه الدائرة التى يعيش فـيها الإنسان السوى إلى دائرة البـاطل والأهواء فالهـلاك هناك قـرين الجهل والبـاطل واتباع الهـوى، والفلاح قرين العقل والعلـم والانقياد النبيل إليهما، وهذان همـا فرعا البلاغ من أدرك وأجاب فـاز؛ ومن عاند ولجَّ هلك، ثم إن هذه الجملة ردت عـجز الأحقاف على صدرها؛ وجذر معناها وهم الذين كفروا وأعرضوا عما أنذروا لأنهم هم القـوم الفاسـقون، وهذا ظاهر، ثم إنهـا ردت عجـز آل حم على صدرها لأن هؤلاء الفاسقـون الهالكون هم الذين يجادلون فى آيات الله التى بنيت عليهـا غافر التى هى أم آل حم ﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلاَّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَلا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلادِ﴾ وبين هذين المحورين اللذين ابتـدآ بالمجادلة

وانتهيا بالهلاك كانت مسيرة آل حم، وجاء تفصيل ذلك فى فصلت، وتوثيق ما أنذروا به وأنه نذير قديم أوحاه الله إليك وإلى الذين من قبلك جاء ذلك فى الشورى ثم تفصيل كفرياتهم فى الزخرف كما كان يقول الرازى ثم لعبهم وشكهم وغشيان آية الدخان لهم الذى دارت حوله الدخان ثم عرض الآيات التى لا يؤمن الناس على آية أبين منها ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ [الجاثية: ٦] الذى بنيت عليه الجاثية ثم الذين أعرضوا عن البلاغ، وعلى هذا دارت المعانى فى آل حم وانتهت بهذه الآية أو هذه الجملة فكانت كما قلت ردا لعجز آل حم على صدرها.

وهذه الفاء التى جاءت عقب كلمة بلاغ ودخلت على الاستفهام المراد به الإنكار من أعظم الفاءات وأمكنها فى مواقعها وأسخاها فى دلالاتها، وفاءات الكلام العزيز من عناصر البلاغة المسهو عنها، وكذلك فاءات الشعر وفاءات الكلام النبوى الكريم، ووددت لو كتبت فى فاءات القرآن وفاءات الشعر وفاءات الحديث وتبينت الفرق الذى لا يحاط به بين فاءات القرآن وفاءات غير القرآن، وعلماؤنا كتبوا فى فاءات القرآن وماءات القرآن ولكنهم لم يقارنوا وكأنهم فتحوا الباب لنكتب نحن فى فاءات الشعر وماءات الشعر ونقارن، وهذه أبواب من العلم شديدة الاتساع يكتب فيها الجيل بعد الجيل تحفى فيها الأقلام ولا تكل، والذى أوقفنى فى هذه الفاء أنى رأيتها رتبت ما بعدها على كل ما جاء فى السورة ابتداء من قوله تعالى ﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ وأن الله جلت آلاؤه تعهد عباده بالرعاية، وحفهم بالهداية فأنزل كتبه ونصب لهم الآيات التى يشاهدونها فى صباحهم ومسائهم، من خلق السموات والأرض وجعل هذه الأدلة المنصوبة منطوية على أدلة أخرى لأن خلق السموات والأرض وما فيهما من حكمة بالغة لا تصل البشرية فى كل أحقابها إلى الوصول إلى غور قوانينها وسعتها وما بنيت عليه، هذا الخلق متضمن العدل الموجب للبعث والموجب للثواب والعقاب وهكذا تمضى مع أدلة الوحدانية، وبيان ضلال من عبد من ليس له خلق فى الأرض ولا شرك

فى السماء إلى آخر الآيات، ثم تصل الكلمات إلى هذه النهاية الرائعة ويستريح البيان عند هذه الفاء النافذة ويقول لك ﴿فَهَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾، هذا السخاء أو هذا شيء من السخاء الذى وراء هذه الفاء، وهذا شيء من بحر الإشارات والمعانى والأسرار التى وراء هذه الفاء وإنما تتفاوت هذه الفاءات بمقدار غور الأسرار التى وراءها فما كل فاء فاء وماكل بيضاء شَحْمةٌ ولا كل سوداء تمرة، وعلى مثل هذا يدور البحث بين فاء وفاء وبين فاءات القرآن وفاءات الشعر وفاءات كلام المصطفى ﷺ وأرانا بين كنوز ثلاثة الكنز الأول هو الشعر الجاهلى الذى لن يتوفر لنا ولا لغيرنا بيان أعلى منه لأن علماءنا جعلوا عجزهم عن أن يأتوا بسورة برهانا على الأمم من بعدهم من عرب وغير عرب ولا يكون كذلك إلا إذا كانوا أقوى الأجيال فى البيان ولو كان فى علم الله أن جيلا من العرب وغير العرب ينازعهم فى هذا لما نصب الحق عجزهم شاهداً على أنه من عند الله كما قال تعالى فى سورة هود: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ﴾ [هود: ١٤] والكنز الثانى بيانه صلوات الله وسلامه عليه وهو أفصح من نطق بالضاد وقد استصفى صفو بيان قومه فكان بيانه أكمل كمالات بيان قومه الذين كانوا أكمل الناس فى البيان فصار بيانه عليه السلام أكمل بيان الناس، والكنز الثالث القرآن الكريم الذى تخطى ذلك كله وتخطى بيانه ﷺ وعلا وقهر وبان وقطع وإذا كان بيان الناس ينقطع عند بيانه عليه السلام وليس قبله فإن كل بيان انقطع قبل القرآن بمسافات ومنادح لو سارت بها العيس كلت كما قال الأول.

ومن أجل أن ترى هذه الحقائق كعمود الصبح فلا مفر لنا من وضع أدق عناصر اللغة وأسخاها بعضها بإزاء بعض كفاءات القرآن وفاءات الحديث وفاءات الشعر وقل مثل ذلك فى نكرات القرآن ونكرات الحديث ونكرات الشعر ومعارف القرآن ومعارف الحديث ومعارف الشعر فضلا عن تشبيهات القرآن وتشبيهات الحديث وتشبيهات الشعر، ومجازات القرآن ومجازات الحديث ومجازات الشعر وهكذا كل فن من فنون البيان، وما سميت هذه

الفنون فنونًا إلا لأنها موطن التحسين والتجويد وأنه بها يتفاضل البيان ويتفاوت الناس ولا وجه للتفاوت فى كل هذه الفنون فيما أرى إلا وجهًا واحدًا وهو التفاوت فى وفرة الدلالات والإشارات التي وراء هذه الفنون فلو نظرت إلى تنكير كلمة رجال في قوله تعالى ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣] ووضعت بإزائه كلمات رجال نكرة في الشعر والنثر فلن تجد واحدة تترامى أسرارها ودلالاتها في هذه الجهات وعلى هذا الحد من المعنى الذى تجده في ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ وإنما تجد عدلها في قوله تعالى: ﴿رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [النور: ٣٧] وهكذا فى الفاءات والتشبيهات والمجازات، وقد سمعت ممن سمعت منهم من يقول فى فاءات قوله تعالى في سورة الحج: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ [الحج: ٦٣] هذه الفاء لها نصيب كبير من بلاغة هذه الآية وليس ذلك فقط لترتيب خضرة الأرض على نزول المطر بلا مهلة وليست الرؤية رؤية بصرية فحسب لأن النظر إلى خضرة الأرض غِبَّ المطر والوقوف عنده مع جلاله وفضله وما فيه من الاعتبار نظر قريب والمطلوب الأبعد من هذا هو النظر فى قدرة الله التى أودعت في باطن الأرض طاقات وأودعت في البذرة طاقات وجعلت نزول المطر سببًا لتفاعل الطاقات الكامنة فى طين الأرض بطاقات النمو الكامنة فى البذرة لأن الأرض لم تصبح مخضرة إلا بهذا وهكذا نفذ الشيخ الفاضل إلى مطارح أخرى تترامى إليها هذه الفاء وقولنا إن الفاء تفيد الترتيب والتعقيب بلا مهلة كلام شامل لكل فاء فى كل كلام، ولو كان هذا هو غايتها لكان كل كلام ككل كلام ولا فضل لكلام على كلام وإنما هذا ومثله يمثل أصول المعاني القابلة لأن تتسع وأن تنمو وأن تتفرع، هذا وكلمة اللطيف تعنى أنه لطيف بعباده وأن من لطفه بعباده أنه سبحانه قدر فى الأرض أقواتها يعنى أنها تمد كل من عليها بقُوته من إنسان وحيوان وطير ودابة فى باطن الأرض من يوم أن قدر أقواتها إلى يوم أن ينفخ فى الصور فيصعق كل من عليها ومن فيها وكذلك قدر في البحار أقواتها فكل

ما فيها من حى يجد فيها قوته وهذا هو اللطف، وكلمة خبير تعنى العلم الذى تأسس عليه كل ذلك وهذا من صلب درس الأسرار البيانية فى الكتاب العزيز ودخول فاء ﴿فَهَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾ على الاستفهام أمد هذه الفاء بمعنى جليل تراها تذهب لو قلنا فلن يهلك إلا القوم الفاسقون لأن هذا الاستفهام توجه إلى كل قارئ من يوم أن نزلت الآية إلى يوم أن يبطل التكليف ولن يجيب ذو عقل على هذا السؤال إلا بقوله بلى لن يهلك إلا القوم الفاسقون ووراء ذلك توثيق هذه الحقيقة وأنها من الحقائق التى لا يسع من له عقل أن يتردد فيها وكلمة ﴿الْقَوْمُ﴾ تعنى أن الفسوق الذى هو خروج عن المعقول إلى غير المعقول وترك الحق واتباع الهوى جزء من ماهيتهم وأصل قام عليه قوامهم، والذى من شأنه الفسوق أى الخروج عن الصواب إلى الخطأ والخروج من الحق إلى الباطل ومن اتباع العقل إلى اتباع الهوى ومن الإيمان إلى الكفر لا ينفع معه برهان لأنه تستوى عنده الأضواء والظُلَم، والبناء للمفعول فى كلمة ﴿يُهْلَكُ﴾ ليتوفر المعنى على بيان الهلاك مع صرف النظر عن فاعله، والمضارع للإشارة إلى تجدد ذلك لأن الأصل أن يكون هلاك القوم الفاسقين أمرًا يتجدد، مع تجدد أجيالهم وأحداثهم.

وفى الآية دلالة على أن خروج الأقوام أو الأمم عن جادة الحق والصدق والجد والعدل والبر وكل ما هو داخل فى الصراط المستقيم مؤذن بدمارها وهلاكها مهما بلغت من القوة والعدة لأن الفسوق التى هى عليه مؤذن لا محالة بالهلاك.

ومن الذى يجب أن يلتفت إليه أن هذه الجملة الراجعة لكل ما فى الأحقاف هى أيضًا فاتحة باب كل ما فى السورة بعدها وهى القتال، ويكاد أول القتال يكون هو آخر الأحقاف وراجع قوله تعالي ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد: ١] والذين كفروا وصدوا عن سبيل الله هم الفاسقون، وضلال أعمالهم هو هلاكهم وهكذا يتداخل آخر الأحقاف بأول القتال.

وأكثر من هذا أنك لو راجعت خواتيم آل حم فلن تجد فيها خاتمة توشك أن تكون صريحة فى دلالتها على القتال كهذه الخاتمة، لأن جملة ﴿فَهَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾ من غير أن ننظر إليها مقترنة بأول سورة القتال هى بذاتها دالة على القتال، لأن هلاكهم لا يعنى استئصالهم بجائحة من السماء وإنما يعنى هلاك أهل الباطل بيد أهل الحق، وهذا هو القتال وبهذا تكون هذه الآية مؤذنة بنهاية ما دارت عليه آل حم من حوار ومناقشة أباطيل أهل الباطل ودمغها بالأدلة القاطعة والخروج من هذا المعنى المتسع الذى دارت عليه آل حم إلى معنى المجاهدة بالسيف الذى هو القتال لأنه لم يبق بعد رفض الدليل إلا هذا الطريق وليس القتال قتالاً ليدخلوا فى الإسلام بالسيف كما يقال وليس قتالهم لأنهم كفروا وإنما قتالهم لأنهم صدوا عن سبيل الله يعنى حملوا السلاح فى وجه سبيل الله وحاربوا الداخلين فيه، وهذا هو ما دارت عليه سورة القتال، وتسمى سورة محمد، وربما رأيت فى الجمع بين هذين الإسمين معنى أن محمداً صلوات الله وسلامه عليه كان من أحلم الناس وأكرم الناس، وأبر الناس بالناس وأوفى الناس بالعهد، وأرحم الناس بالناس وأنه ما رفع سيفه فى وجه أحد إلا أن يكون باغيًا طاغيًا فاجراً معتديًا لا علاج لباطله وشره إلا هذا السيف وهذا هو أصل فريضة القتال فى الإسلام ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا﴾ [الحج: ٣٩] فكان الإذن لدفع الظلم وهذا هو خلق محمد وهذا هو أصل القتال.

وقد كتبت سورة القتال كتابة مثل كناية آل حم، لأضع يدى أولا على الفرق بين آل حم والسورة التى خرجت عن جماعتها، ووجدت الفرق ظاهراً جداً حتى فى الصوت ونغم الفواصل، ولا شك أنك حين تخرج من آل حم وتدخل فيها يواجهك هذا الاختلاف فى البناء الصوتى، وهو اختلاف ظاهر جداً كما يواجهك الاختلاف الأكثر ظهوراً فى المعنى فليس فى كل آل حم آية واحدة تحض على القتال، وليس فيها آية واحدة تذكر لقاء الذين كفروا زحفاً، وإنما بنيت كلها على عرض باطل ومجادلة الذين كفروا؛ ونقض أدلتهم ثم

جاءت القتال لتنقلنا إلى مرحلة ثانية وكانت ﴿فَهَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾ التى توشك أن تكون فاصلة آل حم كلها فاتحة باب ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد:١]، ولا يمكن أن تتصور أن يأتى بعدها ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ [الفتح: ١]، لأن هذا الفتح لا يكون إلا بعد القتال فليس ثمه فتح إلا بسيف وهكذا تعجب من هذا الترتيب العجيب.

وكما تجلى الفرق الظاهر بين آل حم وانتقال الكلام إلى القتال التى جاءت بعدها كذلك حاولت أن أدرس الزمر دراسة أهتدى بها إلى معرفة معناها الأم الذى دارت حوله السورة لأتبين الفرق بينها وبين آل حم لأنها هى السورة التى انتقل الكلام منها إلى آل حم، وترى فى أول آية فيها إشارة ظاهرة تدل على صلتها بآل حم وذلك قوله تعالى ﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ لأن هذه الآية تكررت فى الجاثية، والأحقاف، وتكرر أكثرها فى أول غافر ﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾.

ومع أن هذا المطلع مؤذن بآل حم إلا أن سورة الزمر تدور حول شىء لم تدر عليه سورة من آل حم وهو إخلاص العبادة لله رب العالمين وقد جاء ذلك فى الآية الثانية ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ﴾ [الزمر: ٢] ثم تكرر إخلاص العبادة لله فى الآية الثالثة ﴿أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ ثم تكرر فى قوله تعالى ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ﴾ [الزمر:١١] ثم يأتى بعدها ﴿قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُ دِينِي﴾ [الزمر:١٤].

ويلاحظ أن الأمر بإخلاص العبادة لله موجه إلى رسول الله ﷺ وهو خير الخلق وأبرهم وأتقاهم لله وأخلصهم لله وأخشاهم لله، ثم إن الله سبحانه ما خلق الثقلين إلا لعبادته ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] والركن الذى تكون به العبادة عبادة مقبولة هو إخلاصها لله رب العالمين ونقاؤها من كل شائبة تكدر هذا الإخلاص، ومعنى هذا أن الثقلين

مأمـوران بهذا الأمـر فمـا وجه توجـيه الأمر بـها إلى خيـر الخلق وهو أول المسلمين وأول العابدين وأول المخلصين؟

ووجه هذا - والله أعلم - هو أن توجيـه الأمر إليه دالٌّ دلالة ظاهرة على أن المأمور به وهو إخلاص العبـادة لله له عند الله شأن أى شأن، هذا وجه، ووجه آخر وهو الدلالة على أن تحصيل إخلاص العبادة لله ليس بالأمر الهين لأن هذا الإخلاص هو المرتبة التى دُعى رسول الله ﷺ للوصول إليها مع أنه موصوف بها، ووراء هذا تحفيـز لمن آمن به ﷺ للدخول معه، والوصول إلى معـيته فى هذا الشـأن الذى له عند الله شأن، وليس فى قـيم النفوس قيـمة أعلى من قيـمة الإخلاص فى كل شـأن من الشؤون، والإخلاص فى عـبادة الله هو أعلى هذا الأعلى وسـنام هذه القيـمة، والـنفس التى ارتاضت على إخلاص العبـادة لله سيصبح الإخـلاص ديدنها فـى كـل شـأن مـن شؤونها فلا غش ولا كذب ولا نفاق ولا أنانية وهذه آفات المجتـمعات وأكبر العقبات فى سبيل تقدمها.

وسورة الزمر التى بدأت بـالدعوة إلى إخـلاص الـعبادة لله خـتمت بـأكرم ما يكافئ الـله به هذه الكوكبة المخلـصة، وذلك فى آية ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا﴾ وفى هذه الآية من الإكرام والحفـاوة ما لا يقادر قدره، وناهيك عن قـول الملائكة لهم ﴿طِبْتُمْ﴾ وكلمة ﴿طِبْتُمْ﴾ هذه راجعـة إلى الحالة التى توفـتهم الملائكة وهم عليهـا، كما جـاء فى سورة النحل ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمُ﴾ [النحل: ٣٢]، وكلمة ﴿طَيِّبِينَ﴾ حال من الاسم الموصـول، يعنى توفتهم الملائـكة حال كونهم طيـبين، يعنى أخلصوا العبـادة لله رب العالمين، ولما قال لهم الملائكة ﴿طِبْتُمْ﴾ قالوا الحمد لله فدل ذلك على أن إخلاص العبادة لله نعمـة من نعم الله موجبة الحمد لله رب العالمين، وكلمة ﴿وَأَوْرَثَنَا الأَرْضَ﴾ فيها إشـارة إلى غلبة أهل الإخلاص وأنهم هم الذين يرثون، والأرض لله يورثها من يشـاء من عباده، والإخلاص

هو الوصف المرشح لوراثة الأرض وليس الكذب والدجل والغطرسة والنفاق والتعذيب لأن هذه هى العناصر المرشحة لخراب الأوطان.

وإذا كان الذين سيقوا إلى الجنة زمرا هم الذين عبدوا الله مخلصين له الذين فإن رد عجز الزمر إلى صدرها يكون ظاهراً لا لبس فيه ويكون الصدر أمرا بإخلاص العبادة والعجز ثواب إخلاص العبادة.

ثم ينتقل الكلام انتقالا واضحًا إلى آل حم ورأسها غافر وتبدأ غافر بالجزء الأكبر الذى بدأت به الزمر، وهو ﴿**تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ**﴾، والفرق هو أن العليم وضع فى غافر مكان الحكيم الذى فى الزمر لأن غافر أدارت رحاها على المجادلة التى بدأت فى مطلعها ﴿**مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلاَّ الَّذِينَ كَفَرُوا**﴾ وجادل الذين كفروا فى الحق وجادل موسى ومؤمن آل فرعون عن الحق، والمجادلة أشبه بالعلم، وإخلاص العبادة لله رب العالمين أشبه بالحكمة وهكذا كانت الزمر بوابة الدخول لآل حم كما كانت القتال الشاطئ الذى انتهى إليه الكلام فى آل حم.

وقد فرغت من مسودات الزمر والقتال وكنت على أن ألحقهما فى كتاب الجاثية والأحقاف ولكنى رأيت الكتاب سيطول، فأردت إفرادهما فى كتاب وهما الهلالان اللذان بينهما آل حم.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين وصل اللهم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أرض الكنانة -المعادى الجديدة ٢٩ من شهر شوال ١٤٣١هـ

الموافق ٨ من أكتوبر ٢٠١٠

محمد محمد أبو موسى

***

الفهرس

الجاثية

(٣٣-٣١٠)

الأحقاف

(٣١١-٦٣٨)

